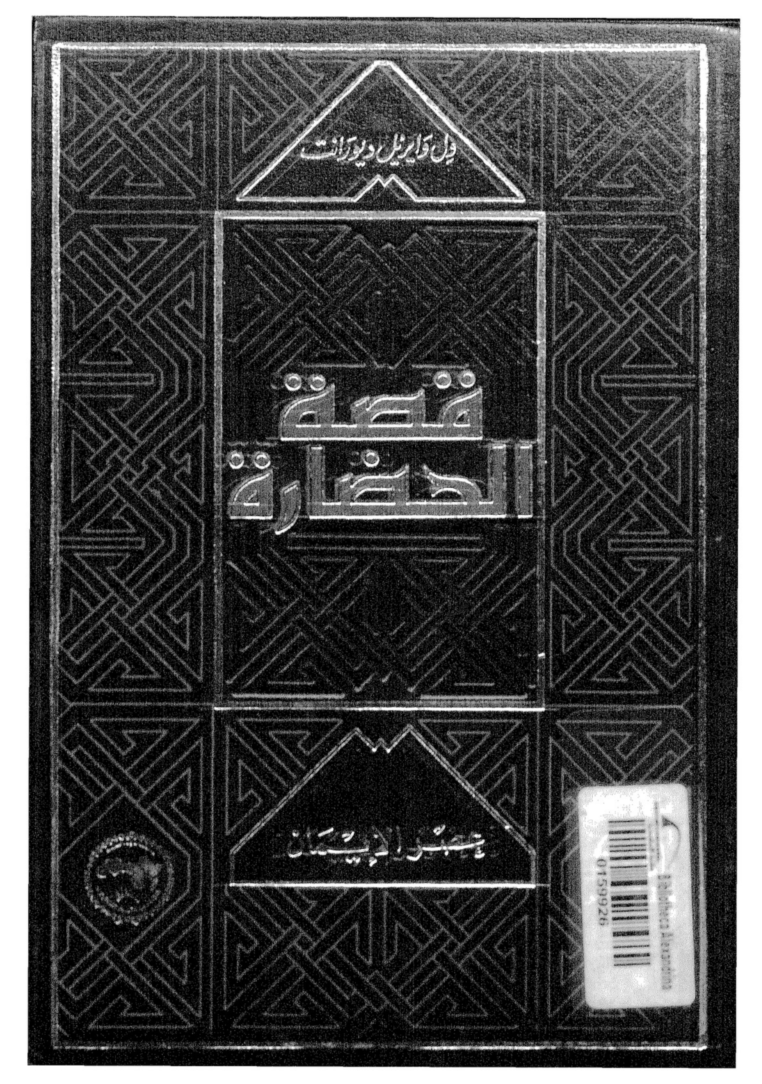
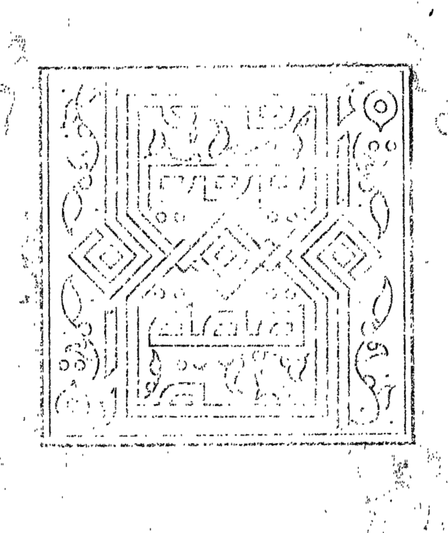

ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
عصر الإيمان





قصة الحضارة

وِل وَايريل ديورَانت

عصرُ الإيمان

ترجمة
محمّد بدران

الجزء الثّاني من المجلّد الرابع



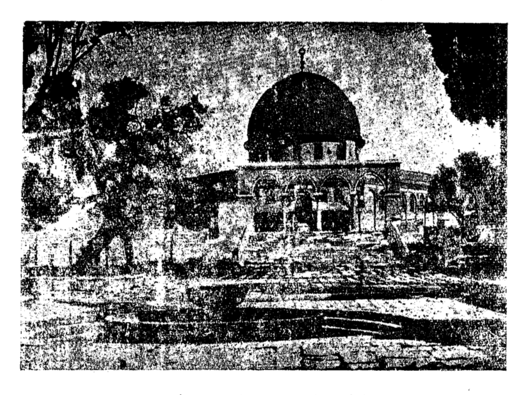


تونس



بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب - بيروت - لبنان



(شكل ١) قبة الصخرة فى المسجد الأقصى

الفهــــرس

الكتاب الثانى ـ الحضـــارة الإسلامية

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

الباب الثامن : محمد (صلى الله عليه وسلم)

الباب التاسع : القرآن (الكريم)

الباب العاشر : سيف الإسلام

الموضوع — الصفحة

الباب الحادى عشر : أحوال البلاد الإسلامية

الباب الثانى عشر : الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

الباب الثالث عشر : الإسلام فى الغرب

الباب الرابع عشر : عظمة المسلمين واضمحلالهم

الموضوع	الصفحة

فهرس الصور والخرائط

مقـــدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (وبعد) فهذا هو الجزء الخاص بالحضارة الإسلامية من المجلد الرابع من قصة الحضارة ، وهو المجلد المسمى « عصر الإيمان » ، وقد عانينا فى ترجمته من الصعاب ما لم نعانه فى سائر ما ترجمناه حتى الآن من أجزاء الكتاب البالغ عددها نحو عشرين جزءاً ما طبع منها وما لم يطبع. ذلك أن المؤلف قد نقل الشىء الكثير عن المؤرخين ، والأدباء والشعراء ، والعلماء ، ورجال الدين ، والفلاسفة ، والمتصوفة ، والحكماء . فليس فى الكتاب صفحة تخلو من نص منقول عن واحد من هؤلاء ، وقد يكون فى الصفحة الواحدة ما لا يقل عن عشرة نصوص . هذا إلى ما ورد فيه من أسماء هؤلاء جميعاً وأسماء مؤلفاتهم ، وبلدانهم ، وأصدقائهم ، والملوك ، والسلاطين ، والأمراء ، والوزراء الذى اتصلوا بهم ؛ وكان لابد لنا أن نرجع هذا كله إلى المصادر العربية وترجمتها الأجنبية التى نقل عنها المؤلف وأشار إلى بعضها ولم يشر إلى البعض الآخر ، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء المصادر أولا ثم عن النصوص بعدئذ .

على أن هذا ليس هو كل شىء ، فقد كانت أسماء من نقل عنهم ترد أحياناً محرفة تحريفا يتطلب تصحيحه الكثير من الجهد . وكم من نص نسب إلى غير قائله خطأً فى المراجع التى نقل عنها المؤلف ، كالأبيات التى يعزوها نقلا عن أمين الريحانى لأبى العلاء المعرى وليست هى له بل من أقوال محيى الدين بن عربى ، والتى كان علينا أن نتصل من أجلها بنيورك لنبحث فيها عن نسخة

من كتاب « رباعيات أبى العلاء » ، لأمين الريحانى لأنا لم نجده فى مصر .
وأكثر من هذا أن المؤلف ينقل فى كثير من الأحيان عن تراجم المستشرقين للكتب العربيـــة ، وهؤلاء قد يطلقون عليها أسماء غير أسمائها العربية أو يترجمونها ترجمة يصعب معها الاهتداء إليها كتسمية الجزء الأول من كتاب نفح الطيب للمقرى باسم « تاريخ الأسر الإسلامية بالأندلس » ، وكتاب « اليمينى » أو « السيرة اليمينية » باسم « تاريخ الأمير سبكتجين ومحمود الغزنوى » الذى لا توجد منه إلا نسخة مخطوطة فى دار الكتب ، تتطلب قراءتها والبحث فيها كثيراً من الجهد ، وترجمة « تذكرة الكحالين » باسم « رسالة فى الرمد » الخ .

وقد وفقنا بحمد الله إلى تذليل هذه الصعاب فصححنا ما حرف أو كتب خطأ من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب ، واهتدينا إلى النصوص من مصادرها ، وصححنا بعض الأخطاء التى وقع فيها المؤلف كخلطه بين الكندى الفيلسوف وعبد المسيح بن إسحاق الكندى الذى كتب رسالة فى الدفاع عن المسيحية عزاها المؤلف إلى الكندى الفيلسوف . وقد عاوننا فى ذلك غير قليل من العلماء والأصـــدقاء نذكرهم هنا اعترافا بفضلهم السيد الحاخام الأكبر الذى ساعدنا فى تحقيق كثير من الأسماء والنصوص العبرية فى هذا الجزء والجزء الذى يليه والذى اغترفنا من بحر علمه ما ورى غلتنا فى هذا الميدان ، ومنهم صديقنا الأديب الأستاذ كامل كيلانى الحجة فى أبى العلاء الذى هدانا إلى كثير من النصوص المنقولة عنه وعن غيره من الشعراء ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور يحيى الخشاب اللذان أعانانا على تحقيق بعض الأسماء الفارسية ، والأستاذ درينى خشبة الذى ترجم لنا شعرا رباعيتين لعمر الخيام لم نجدهما فى التراجم المطبوعة فضلا عما استخرجه لنا من النصوص الأدبية الأخرى ، والأستاذ أمين الشريف الذى وفر علينا كثيراً من المشقة بالبحث عن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وأصدقاؤنا فى دار الكتب ، ومكتبة وزارة التربية الذين يسروا لنـــ

سبيل الحصول على المراجع أعظم تيسير . فلهؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر عن نفسي وعن القراء . وإذا كان قد فاتنا شيء من هذه الناحية فإنا نعتذر عنه مقدماً ونتقبل شاكرين ما يهدينا إليه القراء لنتداركه فى الطبعة الثانية إن شاء الله ، وعذرنا أننا بذلنا كل ما نستطيع من جهد للوصول إلى الحقيقة كاملة ، ونقول كما يقول ابن خلكان ، والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال : أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل ، وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه ، وفوق كل ذى علم عليم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عطائه النمير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » .

هذا وسيرى القارئ أن المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالد فى حضارة أوربا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة ، ثم هو يعتذر فى آخر هذا الجزء عن تقصيره فى هذه الناحية . وكان لا بد له أن يمهد لوصفه تلك الحضارة بفصول عن باعثها عليه الصلاة والسلام وعن القرآن والدين ، ولم تفته الإشادة بمحاسنه وفضائله . على أننا لم نشأ أن نترك هذه الفصول كما هى لما عساه أن يكون فيها من أخطاء أو سوء فهم أو نستقل برأينا فيها ، فعرضنا الأمر على الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية فعهدت إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف موسى أن يعلق على هذه الفصول فكتب التعليق القيم الوارد فى هوامشها والذى ذيل باسمه (ى) . وقد أضفنا نحن من عندنا تعليقات أخرى على هذه الأجزاء وعلى سائر فصول الكتاب ذيلناها بلفظ (المترجم) .

وكان هذا أيضاً هو رأى إخواننا أعضاء مجلس إدارة لجنة التأليف ، ونرجو أن نكون قد سلكنا فى هذا الطريق الصحيح :

ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة قبل أن نقدم جزيل الشكر مرة أخرى للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية صاحبة المشروع وأكبر عون فيه ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر ناشرة الكتاب ، والقراء الكرام فى مصر والبلاد العربية الذين شجعونا بإقبالهم على الأجزاء السابقة على مواصلة الجهد فى هذا العمل الشاق ، وفقنا الله وإياهم إلى الخير ، وهدانا الصراط المستقيم .

محمد بدران

الكتاب الثاني

الحضارة الإسلامية

٥٦٩ — ١٢٥٨

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية الواردة
فى الكتاب الثانى

٥٧٠ — ٦٣٢ : محمد (صلى الله عليه وسلم)
٦١٠ : الوحى .
٦٢٢ : هجرة النبى إلى المدينة .
٦٣٠ : فتح مكة .
٦٣٢ — ٦٣٤ : خلافة أبى بكر .
٦٣٤ — ٦٤٤ : خلافة عمر بن الخطاب .
٦٣٥ : استيلاء المسلمين على دمشق .
٦٣٧ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس والمدائن .
٦٤١ : فتح بلاد الفرس ومصر
٦٤١ : إنشاء الفسطاط .
٦٤٢ : إنشاء مسجد عمرو فى الفسطاط .
٦٤٤ — ٦٥٦ : خلافة عثمان بن عفان .
٦٥٦ — ٦٦٠ : خلافة على بن أبى طالب
٦٦٠ — ٦٨٠ : خلافة معاوية بن أبى سفيان .
٦٦٠ — ٧٥٠ : الخلافة الأموية فى دمشق .
٦٦٢ : استعمال الأرقام الهندية فى الشام .
٦٨٠ : مقتل الحسين فى كربلاء
٦٨٠ — ٦٨٣ : خلافة يزيد الأول .
٦٨٧ — ٦٨٤ : خلافة معاوية الثانى .
٦٨٥ — ٧٠٥ : خلافه عبد الملك ابن مروان .
٦٩١ — ٦٩٤ : بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى بيت المقدس
٦٩٣ — ٨٦٢ : حكم المسلمين فى أرمينية
٦٩٨ : استيلاء المسلمين على قرطاجنة .
٧٠٥ — ٧١٥ : خلافة الوليد الأول .
٧٠٥ وما بعدها — بناء الجامع العظيم فى دمشق
٧١١ : دخول المسلمين أسبانيا
٧١٥ — ٧١٧ : خلافة سليمان الأول .
٧١٧ — ٧٢٠ : خلافة عمر بن عبد العزيز
٧٢٠ — ٧٢٤ : خلافة يزيد الثانى .
٧٢٤ — ٧٤٣ : خلافة هشام بن عبد الملك .
٧٣١ : واقعة تور وارتداد المسلمين .
٧٤٣ — ٧٤٤ : خلافة الوليد الثانى .
٧٥٠ : أبو العباس السفاح يؤسس الدولة العباسية
٧٥٤ — ٧٧٥ : خلافة المنصور واتخاذ بغداد عاصمة .
٧٥٥ — ٧٨٨ : عبد الرحمن الأول أمير قرطبة .
٧٥٧ — ٨٤٧ : فلاسفة المعتزلة .
٧٦٠ : نشأة الطائفة الإسماعلية
٧٧٥ — ٧٨٦ : خلافة المهدى .
٧٨٦ : الجامع الأزرق فى قرطبة

٧٨٦ — ٨٠٩ : خلافة هرون الرشيد .
٧٨٩ — ٩٧٤ : قيام أسرة الأدارسة في فاس .
٨٠٣ : نكبة البرامكة .
٨٠٣ وما بعدها : الكندى الفيلسوف .
٨٠٨ — ٩٠٩ : بنو الأغلب في القيروان
٨٠٩ — ٨١٠ : استيلاء المسلمين على ورسقة وسردانية .
٨٠٩ — ٨٧٧ : حنين بن إسحق العالم .
٨١٣ — ٨٣٣ : خلافة المأمون .
٨٢٠ — ٨٧٢ : بنو طاهر في فارس .
٨٢٢ — ٨٥٢ : عبد الرحمن الثانى أمير قرطبة .
٨٢٧ وما بعدها : استيلاء المسلمين على صقلية .
٨٣٠ : إنشاء بيت الحكمة في بغداد .
٨٣٠ : وضع الخوارزمى علم الجبر
٨٤٤ — ٩٢٦ : الرازى ، الطبيب .
٨٤٦ : هجوم المسلمين على رومة .
٨٧٠ — ٩٥٠ : الفارابى ، الفيلسوف .
٨٧٢ — ٩٠٣ : الصفاريون في فارس .
٨٧٣ — ٩٣٥ : الأشعرى الفقية .
٨٧٨ : بناء مسجد ابن طولون في القطائع
٩٠٩ وما بعدها : الخلافة الفاطمية في القيروان .
٩١٢ — ٩٦١ : عبد الرحمن خليفة في قرطبة .
٩١٥ وما بعدها : الطبرى المؤرخ .
٩١٥ — ٩٦٥ : المتنبى الشاعر .

٩٣٤ — ١٠٢٠ : الفردرسى الشاعر .
٩٤٠ — ٩٩٨ : أبو الوفا العالم الرياضى .
٩٤٥ — ١٠٥٨ : سيادة بنى بويه على بغداد .
٩٥١ : وفاة المسعودى الجغرافى .
٩٥٢ — ٩٧٧ : أشوط الثالث : عصر أرمينية الذهبى
٩٩٠ — ١٠٢٠ : كاجيك الأول في العصور الوسطى .
٩٦١ — ٩٧٦ : خلافة الحكم في قرطبة .
٩٦٥ — ١٠٣٩ : ابن الهيثم العالم في الطبيعة .
٩٦٧ — ١٠٤٩ : أبو سعيد الشاعر الصوفى .
٩٩٩ — ١١٧١ : الأسرة الفاطمية في مصر .
٩٧٠ : بناء الجامع الأزهر في القاهرة .
٩٧٣ — ١٠٤٨ : البيرونى ، العالم .
٩٧٣ — ١٠٥٨ : المعرى ، الشاعر .
٩٧٦ — ١٠١٠ : خلافة هشام في قرطبة .
٩٧٨ — ١٠٠٢ : المنصور الوزير في قرطبة .
٩٨٠ — ١٠٣٧ : ابن سينا الفيلسوف
٩٨٣ وما بعدها : إخوان الصفا .
٩٩٠ — ١٠١٢ : بناء جامع الحاكم في القاهرة .
٩٩٨ — ١٠٣٠ : السلطان محمود الغزنوى .
١٠١٢ : ثورة البربر في قرطبة
١٠١٧ — ١٠٩٢ : الوزير نظام الملك
١٠٣١ : خاتمة الخلافة في قرطبة

١٠٣٨ : الأتراك السلاجقة يغزون بلاد الشام .
١٠٣٨ — ١١٢٣ : الشاعر عمر الخيام .
١٠٤٠ — ١٠٩٥ : المعتمد الأمير والشاعر .
١٠٥٨ : استيلاء السلاجقة على بغداد .
١٠٥٨ — ١١١١ : الإمام الغزالى .
١٠٥٩ — ١٠٦٣ : طغرل بك سلطان فى بغداد .
١٠٦٠ : استيلاء السلاجقة على أرمينية .
١٠٦٣ — ١٠٧٢ : السلطان ألب أرسلان .
١٠٧١ : الأتراك يهزمون اليونان فى ملازكرت
١٠٧٢ — ١٠٩٢ : السلطان ملك شاه
١٠٧٧ — ١٣٢٧ : سلطنة الروم فى آسية الصغرى .
١٠٨٨ وما بعدها : المسجد الجامع فى إصفهان .
١٠٩٥ : قيام طائفة الحشاشين
١٠٩٠ — ١١٤٧ : أسرة المرابطين فى الأندلس .
١٠٩١ — ١١٦٢ : ابن زهر الطبيب .
١٠٩٨ : استيلاء الفاطميين على بيت المقدس .
١١٠٠ — ١٠٦٦ : الإدريسى الجغرافى
١١٠٦ وما بعدها : مجد ابن باجة الفيلسوف .
١١٠٧ — ١١٨٥ : ابن طفيل الفيلسوف
١١١٧ — ١١٥١ : سنجر سلطان السلاجقة .
١١٢٦ — ١١٩٨ : ابن رشد الفيلسوف
١١٣٠ — ١٢٦٩ : أسرة الموحدين فى مراكش .
١١٣٨ — ١١٩٣ : صلاح الدين الأيوبى

١١٤٨ — ١٢٤٨ : أسرة الموحدين فى أسپانيا .
١١٦٢ — ١٢٢٧ : چنكيز خان .
١١٧٥ — ١٢٤٩ : الأسرة الأيوبية .
١١٧٩ — ١٢٢٠ : ياقوت الجغرافى .
١١٨١ وما بعدها : قصر أشبيلية .
١١٤٨ — ١٢٩١ : السعدى ، الشاعر .
١١٨٧ : صلاح الدين يهزم الصليبيين فى حطين ويستولى على بيت المقدس .
١١٨٨ : مجد النظامى الشاعر
١١٩٦ : برج الخرلدة فى أشبيلية .
١٢٠١ — ١٢٧٣ : جلال الدين الرومى ، الشاعر .
١٢١١ — ١٢٨٢ : ابن خلكان كاتب السير .
١٢١٢ : المسيحيون يهزمون المسلمين فى واقعة العقاب عند طليطلة
١٢١٨ — ١٢٣٨ : الكامل ، سلطان مصر .
١٢١٩ : چنكيز خان يغزو ما وراء جيحون .
١٢٤٥ : استيلاء المغول على بيت المقدس .
١٢٤٨ وما بعدها : قصر الحمراء .
١٢٥٠ — ١٥١٧ : حكم المماليك فى مصر
١٢٥٢ : انحصار ملك المسلمين بالأندلس فى غرناطة
١٢٥٨ : المغول ينهبون بغداد ويقضون على الخلافة العباسية .
١٢٦٠ : المماليك يصدون المغول فى واقعة عين جالوت .
١٢٦٠ — ١٢٧٧ : بيبرس سلطان المماليك

الباب الثامن

محمد (صلى الله عليه وسلم)

٥٧٠ – ٦٣٢

الفصل الأول

جزيرة العرب(*)

توفى جستنيان فى عام ٥٦٥ وهو سيد إمبراطورية عظيمة ، وبعد خمس سنين من وفاته ولد محمد (صلعم) فى أسرة فقيرة فى إقليم ثلاثة أرباعه صحراء

(*) إن إعادة كشف بلاد العرب على يد الأوربيين فى العصر الحديث لمن أكبر الأدلة على سعة أفق العلماء فى القرن التاسع عشر وعلى أن العلم كان فى ذلك القرن يعد العالم كله وطناً له . وقد بدأ هذا الكشف فى أعوام ١٧٦١ – ١٧٦٤ حين اخترق كارستن نايبهر Carsten Neibehr شبه الجزيرة برعاية حكومة الدنمرقة . وكان كتابه الذى نشره فى عام ١٧٧٢ أوسع وصف لبلاد العرب حتى ذلك الوقت . وفى عام ١٨٠٧ تزيى دمنجو باديا أى ليبلتش Dominge Badis Y. Leblich الأسبانى بزى المغاربة وزار مكة ثم نشر بعد رجوعه أول وصف دقيق لمناسك الحج . وفى عام ١٨١٤ – ١٨١٥ قضى جوهان لدفج بيركهاردت John Ludwig Burckhardt ، وهو رجل سويسرى تزيى بزى المسلمين ، عدة أشهر فى مكة والمدينة وقد أيد الرحالة الذين وفدوا على جزيرة العرب من بعده ما جاء فى تقاريره الوافية من معلومات كثيرة . وفى عام ١٨٥٣ زار مكة والمدينة الرحالة رتشرد بيرتن Richard Burtou وهو رجل إنجليزى تزيى بزى حاج أفغانى ، ثم وصف رحلته الشاقة الخطرة فى مجلدين ممتعين .

وفى عام ١٨٦٩ – ١٨٧٠ ارتاد ج . هليفيى J. Holvey ، وهو يهودى فرنسى ، مواضع ممالك المعينيين وسبأ والحميريين الأقدمين ونقل ما وجده فى تلك المواضع من نقوش على الصخور .

وفى عام ١٨٧٥ سافر تشارلس منتجيو دوتن Charles Montague Doughtou الإنجليزى من دمشق مع قافلة الحجاج ونشر ما وقع له فى كتابه بلاد العرب الصحراوية . –

مجدبة قليلة السكان ، أهله من قبائل البدو الرحل ، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لاتكاد تكفى إنشاء كنيسة أياصوفيا . ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضى قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية فى آسية ، وجميع بلاد الفرس ، ومصر ، ومعظم شمالى أفريقية ، وساروا فى طريقهم إلى أسبانيا . والحق أن ذلك الحادث الجلل الذى تمخضت عنه جزيرة العرب ، والذى أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد فى ربوعه ، لهـــو أعجب الظواهر الاجتماعية فى العصور الوسطى.

وبلاد العرب أكبر أشباه الجزائر فى العالم ، يبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميل وأكبر عروضها ١٢٥٠ ميلا ، وهى من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى ، وجزء من الإقليم الصحراوى الرملى الذى يمتد إلى صحراء جوبى مخترقا بلاد الفرس . ومعنى « عرب » قحل(*) . وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر ارتفاعا فجائيا إلى ١٢٫٠٠٠ قدم ، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارا سهلا فى أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج الفارسى . وفى وسط الجزيرة عدد من الواحات الكلئة ، والقرى ذات النخيل ، نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بحفر الآبار . وتمتد الرمال حول هذه المراكز مئات الأميال فى جميع الجهات . ويسقط الثلج فى تلك البلاد مرة كل أربعين عاما ، وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى ٣° ، أما شمس النهار فتلفح الوجوه وتغلى الدم فى العروق ، والهواء المحمل بالرمال يضطر الأهلين إلى لبس الأثواب الطوال ،

= Arabia Deserta (١٨٨٨) الذى يعد من روائع النثر الإنجليزى .

وفيما بين ١٨٨٢ — ١٨٨٨ قام ا . جلازر E. Glaser النمساوى بثلاث رحلات شاقة خطرة فى قلب الجزيرة نقل فى خلالها ١٠٣٢ نقشا هى الآن أهم مصدر لتاريخ بلاد العرب قبل الاسلام .

(*) ورد فى القاموس المحيط : تعرب أقام بالبادية ولعل المؤلف أخذ من هذا قوله إن عرب معناه قحل (المترجم) .

وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر » وتكاد السماء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم ، والهواء « يشبه النبيذ البراق » » ويسقط المطر أحيانا قرب شاطئ البحر فيجعله صالحا لقيام الحضارة ، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربي فى بلاد الحجاز حيث نشأت بلدتا مكة والمدينة ، وفى الطرف الجنوبى الغربى من بلاد اليمن موطن الممالك العربية القديمة .

ويسجل نقش بابلى (يرجع تاريخه إلى حوالى عام ٢٤٠٠ ق م) » هزيمة لحقت بملك ماجان(*) على يد نارام سن الحاكم البابلى : وقد كانت ماجان هذه عاصمة المملكة المعينية التى كانت قائمة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب . وقد عرف خمسة وعشرون من ملوكها الذين حكموها بعد هذه الهزيمة من نقوش عربية يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠ ق . م . وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى ٢٣٠٠ ق . م وإن كانوا غير واثقين من هذا . وقد ورد فى هذا النقش اسم مملكة عربية أخرى هى مملكة سبأ فى بلاد اليمن . ومن سبأ أو من مستعمراتها فى القسم الشمالى من بلاد العرب — لأن هذا موضع خلاف بين المؤرخين — « ذهبت » ملكة سبأ إلى سليمان حوالى عام ٩٥٠ ق . م . وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لهم ، وخاضوا حروب « الدفاع » المعتادة ، وأنشأوا أعمالا عظيمة للرى كسدود مأرب (التى لا تزال آثارها باقية إلى الآن) ، وشادوا الحصون والهياكل الضخمة ، ووهبوا كثيراً من المال للشئون الدينية ، واتخذوا الدين وسيلة للحكم(٢) . والنقوش التى خلفوها — والتى لا ترجع فى أغلب الظن إلى ما قبل عام ٩٠٠ ق . م — منحوتة نحتا جميلا بحروف هجائية . وكانت بلادهم تنتج الكندر والمر اللذين كان لهما شأن أيما شأن فى الشعائر الدينية الأسيوية والمصرية ، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية بين الهند ومصر ، وعلى الطرف الجنوبى

(*) لعل ماجان التى وردت فى النقوش البابلية هى بعينها معين التى تنتسب إلى المملكة المعينية والتى اشتقت منها كلمتا معان اسم البلد ومعين بمعنى ينبوع . (المترجم) .

من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس مارا بمكة والمدينة . وحدث حوالى عام ١١٥ ق . م أن قامت مملكة صغيرة أخرى فى الجنوب الغربى من بلاد العرب هى مملكة الحميريين ، فهاجمت مملكة سبأ ، وغلبتها على أمرها ، وظلت بعد هذا الوقت تسيطر على تجارة بلاد العرب عدة قرون . وفى عام ٢٥ ق . م غضب أغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة المتبادلة بين مصر والهند فسير جيشا بقيادة جالوس Aelius Gallus للاستيلاء على مأرب . وأضل الأدلاء العرب الفيالق الرومانية ، وأهلكهم الحر والمرض ، وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها ، ولكن جيشا رومانيا آخر نجح فى الاستيلاء على عدن ، وانتقلت بذلك السيطرة على التجارة بين مصر والهند إلى يد رومة . (وقد فعل البريطانيون ذلك بعينه فى الوقت الحاضر) .

وفى القرن الثانى قبل الميلاد عبر بعض الحميريين البحر الأحمر ، واستعمروا بلاد الحبشة ، ونشروا الثقافة السامية بين أهلها الزنوج ، كما أدخلوا فيها كثيرا من الدم السامى(*) . وتلقى الأحباش من مصر وبيزنطية الدين المسيحى والصناعات اليدوية والفنون . وكانت سفنهم التجارية تجوب البحار وتوغل فيها حتى تصل إلى الهند وسرنديب(٢) . وكانت سبع ممالك صغيرة تقر بالسيادة للنجاشى(**) .

(*) يطلق اسم الساميين على الشعوب التى تنتسب إلى سام بن نوح كما هو وارد فى سفر التكوين (١٠ : ١) . وليس فى استطاعتنا أن نقول بالدقة ما هى هذه الشعوب السامية ، ولكنا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سكان سوريا ، وفلسطين وأرض النهرين ، وبلاد العرب ، والسكان العرب فى أفريقية ساميون ، إذا فهمنا من هذا اللفظ أنهم يتكلمون لغات سامية ، كما نستطيع أن نسمى السكان الأقدمين فى آسية الصغرى وأرمينية ، وبلاد القفقاس ، وأهل فارس ، وشمالى الهند ، ومعظم أوربا وجميع سكان أمريكا الذين من أصل أوربى « هندوربيين » لأنهم يتكلمون لغات هندية جرمانية .

(**) جبن Gibbon اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها Decline aud Fall of the Roman Empire طبعة Everman's Library المجلد الرابع ص ٣٢٢ . ولقد كان من مفاخر جبن أنه أدرك ما للإسلام من شأن عظيم فى تاريخ العصور الوسطى ، وأنه كتب تاريخه السياسى كتابة تنم عن علم غزير ، وكتبه بدقة وبلاغة منقطعتى النظير .

هذا فى الحبشة أما فى بلاد العرب نفسها فإن كثيرين من الحميريين ساروا على سنة ملكهم ذى نواس ، واعتنقوا الدين اليهودى ، واندفع ذونواس فى حماسته الدينية فأخذ يضطهد المسيحيين المقيمين فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب ، فاستغاث هؤلاء ببنى دينهم ، واستجاب الأحباش إلى دعوتهم ، وهزموا ملوك الحميريين (٥٢٢ م) ، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية . وتحالف جستنيان مع الدولة الجديدة ، ورد الفرس على هذا بأن انحازوا إلى جانب ملوك حمير المخلوعين وطردوا الأحباش ، وأقاموا فى بلاد اليمن حكما فارسيا (٥٧٥) انتهى بعد ستين عاما أو نحوها حين فتح المسلمون بلاد الفرس .

وازدهرت بعض الممالك العربية الصغرى فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة ، ولكنها لم تدم طويلا . فقد ظل مشايخ بنى غسان يحكمون الجزء الشمالى الغربى والقسم المحيط بتدمر من بلاد سوريا من القرن الثالث إلى القرن السابع تحت سيادة بيزنطية . وأنشأ ملوك بنى لخم فى الحيرة القريبة من بابل فى هذا الوقت عينه بلاطاً نصف فارسى ، وتثقفوا ثقافة فارسية اشتهرت بموسيقاها وشعرها . ويرى من هذا أن العرب انتشروا شمالا فى سوريا والعراق قبل الإسلام بزمن طويل .

وكان النظام السياسى السائد فى بلاد العرب قبل الإسلام ، إذا استثنينا هذه الممالك الصغرى فى الجنوب والشمال ، هو النظام البدائى الذى يقوم على رابطة القرابة والذى تجتمع الأسر بمقتضاه فى عشائر وقبائل . بل إن هذه الممالك الصغرى نفسها لم تكن تخلو من قسط كبير من هذا النظام القبلى . وكانت القبيلة تسمى باسم أب لها مزعوم عام ، فالغساسنة مثلا كانوا يعتقدون أنهم « أبناء غسان » ، ولم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبى إلا فى مسميات اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين فى شبه الجزيرة باسم السركنوى Sarakenoi ، ومن هذا الاسم اشتق اللفظ الإنجليزى Saracens ، ويلوح أنه هو

نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى . وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً فى نمو روح العزلة فيهم ، فالعربى لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولائه تتناسب تناسباً عكسيا مع سعة الجماعة التى يدين لها بهذا الولاء ، فلم يكن يتردد فى أن يقدم وهو مرتاح الضمير على ما لا يقدم عليه الرجل المتحضر إلا من أجل بلاده أو دينه أو « عنصره » ، أى أن يكذب ، ويسرق ، ويقتل ، ويموت . وكان يحكم كل قبيلة أو بطن من قبيلة شيخ يختاره رؤساء العشائر فيها من بيت اشتهر من زمن بعيد بثرائه ، أو سداد رأيه ، أو شدة بأسه فى القتال .

وكان الرجال فى القرى ينتزعون بعض الحب والخضر من التربة الضنينة ، ويربون بعض الماشية القليلة العدد ، وبعض الجياد الكريمة ، ولكنهم كانوا يجدون أن زراعة بساتين النخل ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والليمون ، والبرتقال ، والموز ، والتين أجدى لهم وأعود بالربح عليهم . ومنهم من كان يعنى بزراعة النباتات العطرة كالكندر ، والسعتر ، والياسمين ، والخزامى ؛ وكان بعضهم يستخرجون العطر من ورد الجبال ، وبعضهم يحفرون سيقان الأشجار ليستخرجوا منها المرّ أو البلسم . وربما كان جزء من اثنى عشر جزءاً من السكان يعيشون فى المدن القائمة على الساحل الغربى أو بالقرب منه . وكان فى هذا الساحل عدد من المرافئ والأسواق تتبادل منها تجارة البحر الأحمر . وفى داخل البلاد كانت تسير طرق القوافل الكبرى إلى بلاد الشام .

ونحن نسمع عن تجارة بين بلاد العرب ومصر منذ عام ٢٧٤٣ ق.م ؛ وأكبر الظن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قدما عن الاتجار مع مصر . وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعى التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى تلك تارة أخرى ، وكان

يجتمع فى سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات من التجار ، والممثلين، والخطباء ، والمقامرين ، والشعراء ، والعاهرات .

وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحلا ، يشتغلون بالرعى وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء . والبدوى يحب الخيل ، ولكن الجمل أعز أصدقائه فى الصحراء ، فهو يسير ويهتز فى وقار ، وإن كان لا يقطع إلا ثمانية أميال فى الساعة ، ولكنه يستطيع أن يصبر على الماء خمسة أيام طوال فى الصيف ، وخمسة وعشرين يوما فى الشتاء . والناقة تدر اللبن ، وبول الجمل مفيد فى تقوية الشعر(*) ، وروثه يمكن أن يتخذ وقودا ، وإذا ذبح أكل لحمه ، وصنعت الثياب والخيام من جلده ووبره . وبهـذه المقومات المختلفة الأنواع كان فى وسع البدوى أن يواجه حياة الصحراء متجلداً كجمله ، مرهف الحس نشيطاً كجواده . والبدوى قصير القامة ، نحيف الجسم ، مفتول العضلات ، قوى البنية ، فى وسعه أن يعيش أياماً متوالية على قليل من التمر واللبن ، وكان يستخرج من البلح نفسه خمرا يرتفع بها من تراب الأرض إلى خيال الشعراء . وكان يدفع عن نفسه ملل الحياة الرتيبة وسآمتها بالحب والحرب ، وكان يسرع كما يسرع الأسبانى (الذى ورث عنه سرعة غضبه) إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى . وكان يقضى جزءا كبيراً من حياته فى الحرب التى تستعر نارها بين القبائل المختلفة ، ولما أن فتح بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وأسبانيا لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه فى غارات النهب التى كان يشنها فى أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض فى هذه عن تلك .

وكان يجعل من بعض أوقات السنة هدنة مقدسة للحج أو للتجارة ، أما فى غير هذه الأوقات فكان يرى أن الصحراء ملكه الخاص ، وأن كل من

(*) يقول دوتى Doughty إن نساء البدو « يغسلن أطفالهن ببول الجمال » ظناً منهن أن ذلك يبعد عنهن الحشرات » . . . ويمشط الرجال والنساء شعرهم الطويل بهذا الماء .

يدخلها فى غير هذه الأشهر الحرم ومن غير أن يؤدى له ما يفرضه من إتاوة ، معتد عليه وعلى وطنه ، وأن نهب أموال هذا المعتدى ليس إلا ضريبة تجبى منه بأهون السبل . وكان يحتقر حياة الحضر ، لأن معناها الخضوع لمطالب القانون والتجارة ، ويحب الصحراء القاسية لأنه يتمتع فيها بكامل حريته ، وكان البدوى رحيما وسفاكا للدماء ، كريماً وبخيلا ، غادرا وأمينا ، حذرا وشجاعا ، ومهما يكن فقره ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو بنقاء دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه .

وكان لدى البدوى أمر لا يقبل فيه جدلا ، ذلك هو جمال نسائه الذى لا يدانيه فى نظره جمال . لقد كان جمالا أسمر ، قويا ، يفتن اللب ، خليقا بأن يتغزل فيه بعشرات المئات من الأغانى الشعرية ، ولكنه جمال قصير الأجل سرعان ما يذوى فى جو الصحراء القائظ . وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبى تنتقل من حب الرجل لها حباً يقرب من العبادة إلى الكدح طوال ما بقى من حياتها ، ولم تتغير هذه الحياة فيما بعد إلا قليلا(*) . وكان فى وسع أبيها أن يئدها حين مولدها إذا رغب فى هذا ، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يحزن لمولدها ، ويوارى وجهه خجلا من الناس ، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وكانت طفولتها الجذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين ، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تزوج لأى شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدى للعروس ثمنها(**) . وكان حبيبها وزوجها يحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميها ، أو يدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع

(*) سنجد فى فصول الكتاب الآتية ما يدل على أثر الإسـلام فى رفع منزلة المرأة إلى درجة لم تسم إليها فى كثير من البلدان ؛ وسيذكر المؤلف نفسه كثيراً من النساء اللاتى كان لهن أعظم شأن فى الحياة العامة العملية والسياسية والاجتماعية . (المترجم) .

(**) يريد مهرها .

هؤلاء العشاق المتيمين إلى إسبانيا . ولكن هذه المعبودة كانت إلى هذا سلعة من السلع ، فقد كانت جزءاً من أملاك أبيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تورث مع هذه الأملاك ، وكانت على الدوام من خدم الرجل ، وقلما كانت رفيقته . وكان يطلب إليها أن تلد له كثيراً من الأبناء ، الأبناء الذكور بطبيعة الحال ، لأن واجبها أن تنجب المحاربين ، ولم تكن فى كثير من الأحوال إلا زوجة واحدة من كثيرات من الزوجات وكان فى وسع الرجل أن يخرجها من بيته متى شاء .

لكن مفاتنها لم تكن تقل عن الحرب إلهاماً لخيال الشعراء ، وموضوعاً لشعرهم ، وكان العربى قبل الإسلام أميا ولكن حبه للشعر لم يكن يزيد عليه إلا حبه للخيل والنساء والخمر . ولم يكن بين العرب فى الجاهلية علماء أو مؤرخون(*) ولكنهم كانوا مولعين بفصاحة اللسان ، وصحة الكلام ، والشعر المختلف المعقد الأوزان . وكانت اللغة العربية قريبة الشبه باللغة العبرية ، معقدة فى تصريفها ، غنية بمفرداتها ، دقيقة فى الفروق بين ألفاظها ، قادرة فى ذلك الوقت على التعبير عن جميع أحاسيس الشعراء وفيما بعده عن جميع دقائق الفلسفة . وكان العرب يفخرون بقدم لغتهم وكمالها ، يولعون بترديد مقاطعها العذبة فى خطبهم الرنانة وشعرهم الجذل ونثرهم الرصين ، يأخذ بلبهم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم فى القرى والمدن ، وفى مخيمات الصحراء أو الأسواق ، مغامرات أبطالهم أو قبائلهم أو ملوكهم فى الحب أو الحرب فى قصائد طوال من الشعر الموزون المقفى . وكان الشاعر العربى مؤرخ العرب ، وجامع أنسابهم ، وهجاءهم ، والمتغنى بفضائلهم ، وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعيهم إلى القتال . وإذا نال الشاعر جائزة فى إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التى كانت تعقد من آن إلى

(*) من الحق أن العرب فى جاهليتهم لم يعنوا بالعلوم كما عنى بها غيرهم من الأمم كأهل مصر والهند والفرس واليونان ، ولكن كان منهم من عنى بشىء من العلوم الضرورية كالطب المبنى على التجربة وأحوال الكواكب والنجوم . (ى)

آن ، كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبتهج له أعظم ابتهاج. وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام فى سوق عكاظ ، حيث كانت تتنافس القبائل فى كل يوم تقريباً مدى شهر كامل على لسان شعرائها . ولم يكن فى السوق محكمون غير الجماهير المنصتة التى تبدى استحسانها لما تسمع أو احتقارها له(*) . وكانت أحسن القصائد التى تقال فى هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك « بالمذهبات » ، وكان يحتفظ بها فى خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قيما . وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائزة منها — كما تقول القصص المتواترة — قد كتبت على الحرير المصرى بأحرف من الذهب وعلقت على جدران الكعبة فى مكة .

وقد بقيت من هذه المعلقات التى قيلت فى الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى ، وهى قصائد طوال من الشعر المقفى المعقد الأوزان ، وموضوعها فى العادة هو الحب أو الحرب. وتقص إحداها وهى معلقة لبيد قصة جندى عاد من الحرب إلى قريته وبيته حيث كان قد ترك زوجته ، فوجد بيته خالياً ، وقد غادرته الزوجة مع رجل غيره ؛ ويصف لبيد منظر هذا البيت الخالى بحنان لا يقل عن حنان جولدسميث(**) . ويزيد عليه فى فصاحة الشعر وقوة التعبير . وفى معلقة أخرى تستحث النساء الرجال إلى الحرب بقولهن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الديار

ضرباً بكل بتار

نحن بنات طارق لا نمشى لوامق

(*) كانت هناك سوقان غير سوق عكاظ ، وهما سوقا مجنة وذو المجاز وكان فيها أحياناً محكمون من ذوى المكانة . (المترجم)

(**) آثرنا أن نبقى هذا التعبير كما هو ، وإن كان لا يقرب المعنى للقارئ العربى ، لما فيه من مفاضلة بين شاعرين من أمتين مختلفتين وهى فى رأينا مفاضلة فيها كثير من الفائدة . (المترجم)

نمشى على النمـارق المسـك فى المفارق
والدر فى المخـانق إن تقبـلوا نعانق
ونفرش النمـارق أو تدبروا نفـارق
فراق غـير وامق(*)

وفى معلقة لامرىء القيس أبيات تنم عن حب شهوانى سافر :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله مالك حيـلة وما أن أرى عنك الغواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضـة ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نضته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخـلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص فى مثنى ومرسل
وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذلل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى أو مساويك أسحل
تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتـل

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الرجز ليس المعلقات ؛ وقد أنشدته هند بنت عتبة تحرض قومها على القتال فى يوم أحد . (المترجم)

وكان شعراء الجاهلية ينشدون أشعارهم على نغمات الموسيقى ، فجمعوا بذلك بين الشعر والموسيقى فى صورة واحدة . وكان الناى ، والمزهر ، والدف أحب الآلات الموسيقية إليهم ، وكثيرا ماكانت الفتيات المغنيات يستدعين لتسلية الأضياف فى الولائم ، وكان فى مجال الشراب عدد منهن ، وكان عند ملوك الغساسنة عددكبير من الفتيات ليفرجن عنهم متاعب الملك ؛ ولما خرج أهل مكة لقتال النبى فى عام ٦٢٤ أخذوا معهم سربا من القيان ليسلينهم ويشجعنهم على القتال ، وكانت الأغانى العربية حتى فى أيام الجاهلية أناشيد مشجية حزينة ، لا تستخدم فيها إلاألفاظ قليلة نغمتها على الدوام فى الدرجات العليا من السلم الموسيقى ، وتكفى فيها أبيات قليلة لتشغل المغنى ساعة كاملة .

وكان للعربى ساكن الصحراء دينه الدال على حذقه ودهائه رغم بدائيته ؛ فكان يهاب ويعبد أربابا لا حصر لها فى النجوم ، والقمر ، وفى أطباق الأرض ، وكان من حين إلى حين يطلب الرحمة من السماء المنتقمة ، ولكنه لم يكن فى الغالب يستبين سبيل الرشاد بين الجن المحيطين به ، ولا يرى أملا فى استرضائهم ، فغلبت عليه من أجل ذلك نزعة الجبرية والاستسلام ، فإذا دعاهم فى رجولة ولم يطل الدعاء ؛ ويستهزئ بالأبدية ولا يعبأ بها ؛ ويبدو أنه لم يكن يفكر كثيراً فى الحياة بعد الموت ، على أنه كان فى بعض الأحيان يطلب أن يربط جمله بجوار قبره ، وأن يمنع عنه الطعام حتى يلحق به بعد قليل فى الدار الآخرة ، وينجيه من مذلة السير على قدميه فى الجنة ، وكان بين الفينة والفينة يقدم لآلهته الضحايا البشرية ، كماكان فى بعض الأماكن يعبد الأصنام الحجرية .

وكانت مكة مركز عبادة الأصنام ؛ ولم يكن سبب قيام هذه المدينة المقدسة فى موضعها الذى قامت فيه هو جودة مناخها ، ذلك أن الجبال الجرداء التى تكاد تطبق عليها من جميع الجهات تجعل صيفها حارا لايطاق . وكان الوادى الذى تقوم

فيه غير ذى زرع ، ولا يكاد يوجد فى البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة ، ولكن موقعها فى منتصف ساحل البلاد الغربى ، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلا من البحر الأحمر ، جعلها محطة صالحة فى طرق القوافل الطوال التى تجمع فى بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض ، والتى كانت تحمل المتاجر بين جنوبى بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى) وبين مصر ، وفلسطين ، وبلاد الشام . وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة ، ويسيطرون على أسواق عكاظ ، ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس .

ومعنى الكعبة البيت المربع . واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزى Cube (مكعب)(*) ومن المعتقدات الشائعة أن الكعبة بنيت ثم أعيد بناؤها عشر مرات ، فقد بناها فى فجر التاريخ ملائكة السماء ، وبناها فى المرة الثانية آدم أبو البشر ، وفى المرة الثالثة ابنه شيث ، ثم بناها فى المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل ابنه من هاجر . . . وبناها فى المرة السابعة قصى زعيم قبيلة قريش ، وبناها فى المرة الثامنة كبار قريش فى حياة محمد (٦٠٥) ، وبناها المرتين التاسعة والعاشرة زعماء المسلمين عامى ٦٨١ و٦٩٦ . والكعبة كما بنيت فى المرة العاشرة هى كعبة هذه الأيام فى معظم أجزائها . وهى مقامة فى داخل بناء واسع هو المسجد الحرام . وهى بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدما ، وعرضها خمس وثلاثون ، وارتفاعها خمسون ، وفى ركنها الجنوبى الشرقى ، وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض ، الحجر الأسود ، وهو حجر قاتم اللون بيضى الشكل قطره سبع بوصات . ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء — ولعله كان صاعقة ؛ ويقول معظمهم

(*) فى المحيط الكعبة البيت الحرام زاده الله تشريفاً وكل بيت مربع . (المترجم)

إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم ، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذى نبذه بنو إسرائيل فكان منه آباء قبيلة قريش . ويؤيدون قولهم هذا بما جاء فى المزمور الثامن عشر بعد المائة فى الآيتين ٢٢ و٢٣ « الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية » ، وفى الآيتين ٤٢ و٤٣ من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متّى ، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة : « لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » وإن لم يكن فى وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح(*) .

وكان فى الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب . منها اللات ، والعزى ، ومناة . وفى وسعنا أن ندرك قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات (اللاَّت) على أنها من أكبر أرباب العرب . وكانوا يقولون لأهل مكة إن إلههم الأكبر رب أرضهم ، وإن عليهم أن يؤدوا لها عشر محاصيلهم ، والثمرة الأولى من نتاج قطعانهم . وكانت قريش ، وهى التى تعزو نسبها إلى إبراهيم وإسماعيل ، تختار من بين رجالها سدنة الكعبة وخدامها والمشرفين على مواردها المالية . وكانت أقلية أرستقراطية منهم هم بنو قصى يتولون زمام الحكومة المدنية فى مكة .

وكانت قريش فى بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين ، إحداهما يتزعمها التاجر الثرى الخير هاشم ، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية .

(*) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من التسامح والرحمة فإن التاريخ لا يعرف كالمسلمين فى تراحمهم ودعوتهم للسلام والمحبة . والقرآن ووصايا الرسول والخلفاء أكبر شاهد على هذا ، ولكن التسامح والرحمة والدعوة إلى السلام والمحبة فى الدين الإسلامى ممزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . (المترجم)

وكان لهذا التنافس الشديد شأنه العظيم فى تاريخ العرب بعد الرسالة : ولما توفى هاشم خلفه فى زعامة بيته ابنه أو أخوه الأصغر عبد المطلب — وفى عام ٥٦٨ تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ، وهى أيضاً من قصى ، وأقام عبد الله مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها فى بعثة تجارية . ومات فى المدينة وهو راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته (٥٦٩) ولدت آمنة أعظم شخصية فى تاريخ العصور الوسطى(*) .

(*) وفى التاريخ كله .

الفصل الثانى

محمد فى مكة

٥٦٩ — ٦٢٢

[نكرر هنا ما ذكرناه فى مقدمة هذا الجزء من أننا آثرنا أن نثبت هذه الفصول التى يتحدث فيها المؤلف عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والدين الإسلامى كما أوردها حرصاً منا على الأمانة فى الترجمة من جهة ولكى يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى سواء كانت هذه الآراء مما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أولا يتفق معه . يضاف إلى ذلك أن هذه الفصول لا تخلو من كثير من الثناء على النبى وتمجيد للإسلام يصح أن يطلع عليه القراء . على أن إثباتنا لأقوال المؤلف لا يعنى مطلقاً أننا نوافقه عليها . وقد ذكر وهو مسيحى فى كلامه على المسيحية ما لا يوافقه عليه كثيرون من أبنائها كما ذكر عن اليهودية ما لا يوافقه عليه كثيرون من اليهود ، ويجب ألا يغفل القراء التعليقات التى أثبتناها فى هوامش هذه الفصول] .

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل ، وقطيعاً من المعز ، وبيتاً ، وأمة عنيت بتربيته فى طفولته . ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه ، كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات فى التوراة تبشر به . وقد توفيت أمه وهو فى السادسة من عمره وكفله أولا جده وكان وقتئذ فى السادسة والسبعين من عمره ثم عمه أبو طالب ولقى منهما كثيراً من الحب والرعاية ، ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة . ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب فى ذلك الوقت ، ولهذا لم يكن فى قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرءون ويكتبون . ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجىء بأشهر(*) وأبلغ كتاب

(*) هذا رأى المؤلف بطبيعة الحال وليس من حقنا أن نطلب إليه أن يقول إنه منزل من عند الله . (المترجم)

فى اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفا قلما يصل إليه أرقى الناس تعليماً .

ولا نكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل ، وكان ما يروى عنه من القصص قد ملأ عشرة آلاف مجلد . وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو فى الثانية عشرة من عمره فى قافلة إلى بصرى ببلاد الشام ، وليس ببعيد أن يكون قد عرف فى هذه الرحلة قليلا من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية . وتصوره قصة أخرى بعد بضعة سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بصرى فى تجارة إلى السيدة خديجة وكانت وقتئذ أرملة غنية ، ثم نراه فى الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيدة وهى وقتئذ فى الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء . ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً ، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب فى ذلك الوقت ، ولكن لعله كان طبيعياً فى حالتهما . وقد رزق منها عدة بنات أشهرهن كلهن فاطمة ، كما رزق بولدين توفيا فى طفولتهما . وقد وجد سلواه فى تبنى(*) على بن أبى طالب الذى مات عنه والده . وكانت خديجة سيدة طيبة ، وزوجة صالحة ، وتاجرة بارعة ظلت وفية لمحمد فى صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خير نسائه كلهن .

ويصف على زوج فاطمة محمداً وهو فى سن الخامسة والأربعين بقوله :

لم يكن الطويل الممغط ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط ، كان جعداً رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم ، وكان أبيض مشربا أدعج العينين أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق

(*) لم يكن هذا تبنيا بالمعنى المعروف عند الغربيين ولكن الرسول آوى عليا وكفله فى تربيته تخفيفا عن أبيه فى الأزمة الشديدة التى أصابت قريشا — راجع سيرة بن هشام .
(المترجم)

المشربة ، أجود شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب ، وإذا التفت التفت معا ، . . . . أجود الناس كفاً وأجرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته « لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم » .

وكان محمد مهيب الطلعة ، لا يضحك إلا قليلا ، قادرا على الفكاهة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة ، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس . ولم يكن قوى البنية ، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر ، ميالا إلى الانقباض كثير التفكير . كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله(*) ، ولكنه كان يعرف متى يهدئ من انفعاله ، وكان فى وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب .

وكان فى بلاد العرب كثيرون من المسحيين ، وكان منهم عدد قليل فى مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذى كان مطلعا على كتب اليهود والمسحيين المقدسة . وكثيرا ما كان محمد يزور المدينة التى مات فيها والده ، ولعله قد التقى هنالك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها . وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين ، وبما فى دين اليهود من نزعة إلى التوحيد ، وبما عاد على المسيحية واليهودية من قوة كبيرة لأن لكلتيهما كتابا مقدسا تعتقد أنه موحى من عند الله . ولعله قد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة للأوثان ، ومن فساد خلقى ، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسى ، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا قورنت

(*) كان النبى يغضب أحياناً لله ولدينه ، ولكننا لا نعرف أنه كان يتهيج لأن التهيج صفة لا تليق بمصلح فضلا عن رسول الله رب العالمين وخاصة والله يصفه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم ويقول عنه « وإنك لعلى خلق عظيم » و « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . (ى)

بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها . ولهذا أحس بالحاجة إلى دين جديد ، لعله أحس بالحاجة إلى دين يؤلف بين هذه الجماعات المتباغضة المتعادية ، ويخلق منها أمة قوية سليمة ، دين يسمو بأخلاقهم عما ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ، ولكنه قائم على أوامر منزلة لاينازع فيها إنسان ، ولعل هذه الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس ، فنحن نسمع عن قيام عدد من « المتنبئين » فى بلاد العرب فى بداية القرن السابع ، ولقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التى يؤمن بها اليهود ، وكان هؤلاء أيضاً ينتظرون بفارغ الصبر مجىء رسول من عند الله » .

وكانت فى البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنفية أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة وقامت تنادى بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين(*) .

وكان محمد ، كما كان كل داع ناجح فى دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم .

وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد انهماكا فى شئون الدين ، فإذا حل شهر رمضان(**) — وهو من الأشهر الحرم — آوى وحده أو جمع أسرته فى بعض الأحيان إلى غار فى جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، وقضى فيه عدة أيام وليالى فى الصوم ، والتفكير ، والصلاة . وبينما هو فى ذلك الكهف بمفرده فى ليلة من ليالى عام ٦١٠ م . إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذى يدور

(*) يريد بهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمر بن نفيل ، وكانوا قد أيقنوا أن ما هم عليه من الوثنية ليس بشىء فتفرقوا فى البلاد يلتمسون الحنفية دين إبراهيم عليه السلام . (ى)

(**) الذى فى سيرة ابن هشام (جـ ١ ص ١٥٣) أنه كان « يجاور فى حراء من كل سنة شهرا » دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان فى السنة التى بعث فيها صلى الله عليه وسلم . (ى)

عليه تاريخ الإسلام كله . ويقول محمد بن إسحق اشهر من كتب سيرة النبي إنه هو نفسه قد وصف هذا الحادث الجليل بقوله « فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : أقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ .فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أقرأ ؟ فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : أقرأ ، قال فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى .، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، أقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من .نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابا ؛ قال فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء قال فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى(*) .

ولما عاد إلى خديجة حدثها بما رأى ، وتقول الرواية إنها آمنت بأن ما رآه وحى صادق من السماء ، وشجعته على أن يعلن للناس رسالته .

وتكرر الوحى بعد ذلك مرات كثيرة ، وكثيراً ما كان يحدث فى أثناء هذه الرؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه ، ويتصبب العرق من جبينه ، وحتى الجمل الذى كان يركبه كان يتأثر ويضطرب فى مشيه . وقد قال محمد فيما بعد إن مشيه كان من أثر هذه التجارب ، ولما طلب إليه أن يصف كيفية نزول الوحى قال : إن القرآن كله محفوظ فى السماء وأنه نزل عليه متقطعاً ، وكان ينزل عليه

(*) راجع ابن هشام (ج ١ ص ١٥٣ وما بعدها) حيث يروى الحادث كله .
(المترجم)

على لسان جبريل ، ولما سئل كيف يتذكر هذه الأقوال القدسية قال : إن جبريل كان يطلب إليه أن يكررها كلمة كلمة(*) . ولم يكن المحيطون بالنبى فى هذه الأوقات يرون جبريل أو يسمعونه . وقد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد كان يصحبه فى بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس ، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات ، ولكننا لا نسمع أنه عض فى خلالها لسانه أو حدث ارتخاء فى عضلاته كما يحدث عادة فى نوبات الصرع . وليس فى تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوة العقل التى يؤدى إليها الصرع عادة ، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة فى الجسم والروح والزعامة ، كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر . وقصارى القول أنا لا نجد دليلا قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبى كان من قبيل الصرع . ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يقنع أى مسلم متمسك بدينه(**) .

وأخذ محمد فى خلال السنوات الأربع التالية يجهر شيئاً فشيئاً بأنه نبى الله

(*) فى صحيحى البخارى ومسلم ذكر لبدء الوحى إلى الرسول وبيان لكيفيته ، ويروى ابن عباس أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ليتابع جبريل فأنزل الله تعالى قوله «لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه» ، فكان الرسول بعد ذلك إذا أتاه جبريل بالوحى استمع له فإذا انتهى جبريل قرأه صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل .

راجع التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدى ، طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٣٥ هـ ، جـ ١ ص ٤ — ٦ ، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقى طبع دار إحياء الكتب العربية للحلبى بمصر سنة ١٩٤٩ م ، جـ ١ ص ٣٥ — ٣٨ .

(**) لقد أصاب المؤلف إذ فند قول من يدعون أن النبى كان يصاب بنوبة من نوبات الصرع حين ينزل عليه الوحى ، وإنما الأمر أنه كان يكون فى حالة إجهاد عقلى وجسمى ، والله تعالى يقول فى سورة الحشر «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله» . (ى)

المبعوث لهداية العزب إلى حياة أخلاقية جديدة وإلى دين التوحيد . وقد لاقى فى سبيل دعوته صعاباً كثيرة . ذلك أن الأفكار الجديدة لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلا ، وأن محمداً كان يعيش فى مجتمع تجارى متشكك يحصل على جزء من إيراده من الحجاج الذين يفدون على الكعبة لعبادة آلهتها الكثيرة ، وكان مما تغلب به على بعض هذه الصعاب ما وُعِد به المؤمنون من النجاة فى الدار الآخرة من نار جهنم والاستمتاع بنعيم الجنة . وكان محمد يستقبل فى داره كل من أراد الاستماع إليه ، غنياً كان أو فقيراً أو عبداً رقيقاً ، من العرب والمسيحيين واليهود ، وقد تأثر بحماسته وبلاغة قوله عدد قليل ممن جاءوا إليه وآمنوا به ، وكان أول من آمن برسالته زوجته المسنة السيدة خديجة وآمن بها من بعدها ابن عمه على ، ثم خادمه زيد وكان قد اشتراه بالمال ثم أعتقه من فوره ، ثم قريبه أبو بكر وهو رجل من ذوى المكانة العالية فى قريش . واعتنق الدين الجديد بتأثير أبى بكر خمسة من زعماء مكة(*)، كونوا معه «صحابة» محمد الستة . وهم الذين أخذت عنهم فيما بعد السنن الإسلامية ذات المكانة السامية فى الدين الإسلامى . وكثيراً ما كان محمد يدخل الكعبة ، ويتحدث إلى الحجاج ، ويدعوهم لعبادة إله واحد(*) . وسخرت قريش أول الأمر من دعوته ولكنها صبرت عليها ، وقالت إن بعقله خبالا وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طبيب يرجى أن يشفيه من جنونه ، فلما أن أخذ يهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التى يقومون بها فى الكعبة ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبوا للدفاع عن

(*) هؤلاء هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله (سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥) . أما أصحاب الرسول الذين أخذت عنهم سننه فليسوا هؤلاء الخمسة مع أبى بكر فقط بل هم كثرة كما هو معروف . (ى)

(*) كان الرسول يتعرض للوافدين إلى مكة للحج من قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام . (ى)

مورد رزقهم (*) ، وكادوا يوقعون به أذى جسيما لولا أن حماه منهم عمه أبو طالب . ولم يعتنق أبو طالب الدين الجديد ، ولكن إخلاصه لتقاليد العرب القديمة كانت تحتم عليه أن يحمى كل فرد من أفراد قبيلته .

وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصماء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه ، أما من آمنوا به من العبيد فقد كان فى وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلا بردهم عن الدين الجديد دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها .

فزجوا بعضهم فى السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوالا إلى وهج الشمس وهم عراة الرءوس . ومنعوا عنهم الماء (**) وكان أبوبكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة ؛ فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق ٣٥٠٠٠ منها فى تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين ، ويسّر محمد الأمر بقوله إن المرتدالمكره لاعقاب عليه(+). وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية . وظلت تضطهد من دخل فى الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة حداً لم يسمع النبى معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، حيث رحب بهم ملكها المسيحى وأكرم وفادتهم (٦١٥) .

وحدثت بعد عام من ذلك الوقت حادثة كان لها من الشأن فى تاريخ

(*) كانوا يدفعون عن مورد رزقهم وعن دينهم . وقد قال من ذهب منهم إلى عمه أبى طالب : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا أو أن تخلى بيننا وبينه « سيرة بن هشام جزءا : ١٧٠ . (ى)

(**) يقول ابن إسحق فى سيرته « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبون بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم (ج ١ ص ٢٠٢)

(+) عملا بقوله تعالى فى سورة النحل الآية ١٠٦ « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

الإسلام ما كان لإيمان بولس فى تاريخ المسيحية . تلك هى اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألد أعدائه وأشدهم عنفاً فى مناهضته . وكان عمر رجلا قوى الجسم ، ذا مكانة اجتماعية عالية ، وشجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظير . وبعث إسلامه الثقة فى قلوب المؤمنين المضطهدين ، وهى ثقة ما كان أحوجهم إليها فى ذلك الوقت كما كان سبباً فى دخول كثيرين من العرب فى الدين الجديد . وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة فى الشوارع والطرقات بعد أن كانوا من قبل لا يعبدون الله إلا سراً فى بيوتهم . واجتمع المدافعون عن آلهة الكعبة وأقسموا أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بنى هاشم يرون واجباً عليهم أن يدافعوا عن محمد . ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شعب منعزل فى مكة يستطيع أبو طالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥) . وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة سنتين كاملتين عاد بعدها بعض رجال قريش إلى صوابهم فدعوا الهاشميين أن يعودوا إلى بيوتهم وتعهدوا ألا يمسوهم بسوء .

وابتهجت لهذا القلة المسلمة فى مكة ، ولكن ثلاثة خطوب ألمت بمحمد فى عام ٦١٩ ، فقد توفيت فى ذلك العام السيدة خديجه أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته ، وتوفى أبو طالب الذى كان ينصره ويدافع عنه . وأحس محمد أنه لا يأمن على نفسه فى مكة ، وآلمه بطء انتشار الدعوة فيها ، فهاجر إلى الطائف (٦٢٠) ، وهى بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلا إلى جهة الشرق . ولكن الطائف لم تقبله ، لأن زعماءها لم يروا من مصلحتهم أن يغضبوا أشراف مكة التجار ، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأخذوا يهزءون بمحمد فى الشوارع ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى سال الدم من ساقيه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج أرملة تدعى سودة(*) ، ثم خطب وهو فى سن الخمسين عائشة بنت أبى بكر وكانت

(*) هى سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس

وقتئذ فتاة حسناء فى السابعة من العمر(*) .

ولم ينقطع عنه الوحى فى هذه الأثناء ، وخيل إليه فى ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس ، حيث رأى فى انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البُراق ، وهو جواد مجنح فطار به إلى السماء ، ثم عاد به منها ، ثم وجد النبى نفسه بمعجزة أخرى آمنا فى فراشه بمكة . وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين(**) .

وفى عام ٦٢٠ أخذ محمد يبث الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجوا إلى الكعبة ، وقبل بعض التجار دعوته ، لأن عقائد التوحيد ، والرسول المبعوث من عند الله ، ويوم الحساب كانت مألوفة عندهم ، انتقلت إليهم من يهود المدينة . ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلدهم أخذ بعضهم يدعون أصدقاءهم إلى الدين الجديد ، ورحب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم . وفى عام ٦٢٢ أقبل على محمد فى مكة سرا ثلاثة وسبعون رجلا من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلدهم واتخاذها موطنا له . فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم ، فأقسموا أن يفعلوا ، ولكنهم سألوه عما يجزون بة إذا قتلوا فى أثناء دفاعهم عنه ، فأجابهم بأن جزاءهم هو الجنة .

وفى ذلك الوقت أصبح أبوسفيان حفيد أمية زعيم قريش فى مكة ، وكان قد نشأ فى جومن الكراهية لبنى هاشم ، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد ، ولعله

(*) تزوج الرسول عائشة رضى الله عنها بمكة وهى بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين أو عشر ، وفى البخارى أنه تزوجها وهى بنت ست ثم بنى بها وهى بنت تسع . (ى)

(**) عنى المسلمون بمسألة الإسراء والمعراج فمنهم من يقول إن الإسراء كان بجسده وروحه ومنهم من يقول إن ذلك كان رؤيا حق ومن هؤلاء عائشة أم المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان . راجع سيرة ابن هشام . (ى)

قد سمع أن النبي يعتزم الهجرة من مكة ، وخشى أنه إذا استقر له الأمر فى المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة . وعهدت قريش بتحريضه إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد ، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه ، وعلم محمد بالخبر ففر هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة ، وظل رسل قريش يبحثون عنهما ثلاثة أيام ولكنهم عجزوا عن العثور عليهما . وجاء أبناء أبى بكر لهما بجملين (*) فركباهما فى أثناء الليل واتجها بهما شمالا ، وبعد أن ظلا سائرين عدة أيام قطعا فيها نحو مائتى ميل وصلا أخيراً إلى المدينة فى ٢٤ سبتمبر من عام ٦٢٢ : وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائدون من مكة ، ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبى ، وبعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الخليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية التى حدثت فيها تلك الهجرة ، وكان هو فى ذلك العام يوم ١٦ يولية من سنة ٦٢٢ ، البداية الرسمية للتاريخ الإسلامى .

(*) فى حديث الهجرة لا نرى ذكرا صريحا لأبناء أبى بكر يقدمون للرسول وصاحبه راحلتين ليركباهما فى هجرتهما ، وإنما نرى أبا بكر نفسه يشترى راحلتين ويعدهما لذلك اليوم ، ثم نرى أسماء بنت أبى بكر تقدم لهما طعاما فى جراب تربطه بقطعة من نطاقها ، ولذلك سميت بذات النطاقين ، ونرى عبد الله بن أبى بكر فى قريش بالنهار يسمع ما يقولون فى شأن الرسول وصاحبه ثم يأتيهما فى المساء ليخبرهما الخبر . (ى)

الفصل الثالث

محمد فى المدينة

٦٢٢ — ٦٣٠

تقع يثرب ، التى سميت فيما بعد « مدينة النبى » على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى . وكانت إذا قورنت من حيث جوها بمكة بدت كأنها جنة عدن ، وكان بها مئات من الحدائق وغياض النخل ، والضياع . ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة فى أثر طائفة وألحت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها ؛ وأمسك بعضها بزمام ناقته لتمنعه عن مواصلة السير وأصرت على ذلك إصراراً تمليه عليها تقاليدها العربية ، وكان جوابه غاية فى حسن السياسة فكان يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلا إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذى يسير الناقة ويهديها إلى حيث تقف . وبنى محمد فى المكان الذى وقفت فيه ناقته مسجداً وبيتين متجاورين أحدهما لسودة والآخر لعائشة ، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات .

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلات القرابة ، فلما جاء إلى المدينة اعتزم أن يستبدل بصلات الدم صلات الأخوة الدينية فى الدولة الجديدة ، كما أراد أن يقضى على أسباب الغيرة بين المهاجرين الذين جاءوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة — وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدت فى ذلك الوقت — فآخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى ، وطلب إلى كلتيها أن تصلى فى المسجد مع أختها . وفى أول احتفال أقيم فى المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال « الله أكبر » وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم ، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره

سجد لله ثلاث مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سمى الدين الجديد بالإسلام أى « الاستسلام » و « السلم » ، وسمى أتباعه بالمسلمين . ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر ، ولا يزال المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنة فى الصلاة سواء كانوا فى مسجد ، أو ضاربين فى الصحراء ، أو فى بلد غريب لا مسجد فيه . وتنتهى(*) الصلاة بخطبة كانت فى زمن النبى خبراً عن وحى وتوجيها لأعمال الأسبوع وسياسته . ذلك أن النبى كان ينشئ حكومة مدنية فى المدينة ، واضطر بحكم الظروف أن يخصص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعى ، والأخلاق ، والعلاقات السياسية بين القبائل ، ولشئون الحرب ، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشئون الدينية والدنيوية ، بل اجتمعت هذه الشئون كلها فى يد الزعيم الدينى كما كانت الحال عند اليهود .

فكان محمد فى المدينة الرسول الدينى والحاكم السياسى جميعاً ، ولم ترض أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره ، وترى أن محمداً كاد يقضى على تقاليد العرب وحريتهم ، وأنه كان يزج بهم فى الحروب ، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش فى مكة .

وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة ، وقد جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن يتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربقتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدرون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة ، وبنو الحارث ، وبنو جشم ،

(*) الصحيح أن الخطبة تكون قبل الصلاة أيام الجمع وبعدها أيام العيدين ، وفى غير الجمع والعيدين لا خطبة قبل الصلاة ولا بعدها . (ى)

وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين : وإن ذمة الله واحدة ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليهم وأنفسهم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(*) :

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود فى المدينة وما حولها : قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع .

وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفى أهلها من الطعام . وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد : ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينـــة ، متبعاً فى ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية فى ذلك الوقت(**) : فلما كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم ، واحتفظ بالخمس الباقى للأعمال الدينية والخيرية ، وكان نصيب من استشهد فى هذه الغزوات من حق أرملته ، أما هو فكان جزاؤه الجنة . وكثرت الغزوات ، وتضاعف عدد المشتركين فيها ، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم ، فأخذوا يدبرن أمر الانتقام من محمد والمسلمين : وكان من هذه الغارات واحدة حدثت فى آخر يوم من شهر رجب أحد

(*) هذا عهد له أثره الكبير ومظهره العظيم ، ولم يعقده الرسول مع اليهود فحسب بل هو كما يذكر ابن إسحق كتاب كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار وفيه وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وقد ذكره ابن هشام فى سيرته على طوله . (ى)

(**) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارة بالمدينة عملا يراد به الدفاع عن الإسلام واسترداد لبعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها . (ى)

الأشهر الحرم التى كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال ، وقتل فيها رحل ، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء ، وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم . وفى عام ٦٢٣ جمع محمد نفسه ثلثمائة من المسلمين المسلحين ، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة . وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهذه الخطة ، فغير طريقه ، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة ، وبعثت قريش بتسعمائة من رجالها ، والتقى الجيشان الصغيران عند وادى بدر على بعد عشرين ميلا جنوبى المدينة . ولو أن محمداً هزم فى هذه الغزوة لقضى عليه وعلى الإسلام فى هذه المعركة ، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام ، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٦٢٤) ، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين فى مكة ، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ، ونجا أبو سفيان ، وأنذر المسلمين بالانتقام .

ولما عاد إلى مكة أخذ يواسى أسر القتلى ويشجعهم ، ويطلب عدم البكاء عليهم ورثائهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ، ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد .

واشتد ساعد محمد بهذا النصر ، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة فى الحروب . من ذلك أن شاعرة تدعى عصماء هاجمته فى شعرها فتسلل عمير ، وهو مسلم ضرير إلى بيتها وطعنها وهى نائمة بسيفه فى صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذ السيف من تحتها إلى فراشها . وفى اليوم التالى سأل محمد عميراً هل قتل عصماء فأجابه ، يا رسول الله إنى قد قتلتها ، فقال «نصرت الله ورسوله ياعمير» ، فقال عمير : «هل على شىء من شأنها يارسول الله ؟» فأجابه بقوله إن هذا أمر «لا ينتطح فيه عنزان» . ومنها أن رجلا ممن اعتنقوا الدين اليهودى يدعى أبا عفك يناهز من العمر مائة عام هجا النبى فقتله بعضهم وهو نائم فى فناء بيته ، وارتد شاعر ثالث

من أهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف ، وكانت أمه يهودية ، حين انقلب محمد على اليهود ، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثأروا لهزيمتهم ، وأثار غضب المسلمين بتشبيبه بنسائهم ، فقال النبى « من لى بابن الأشرف ؟ » فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملقى أمام قدميه . وكان المسلمون يرون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هى إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الخونة ، فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام(*) .

ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية ، والذى بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس ، وقوله إنه هو الذى بشر به آباؤهم ، وكان جوابه أن قال ، كما أوحى إليه ، إنهم حرفوا كتابهم ، وقتلوا أنبياءهم ، وأبوا أن يصدقوا المسيح . وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة ، فاستبدل به فى عام ٦٢٤ مكة والكعبة ، واتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان(**) . وحدث فى هذا الوقت أن زارت فتاة مسلمة سوق بنى قينقاع اليهودى فى المدينة ، وبينا هى جالسة

(*) هى عصماء بنت مروان وقاتلها عمير بن عدى الخطمى . ولكل حادثة من الحوادث السالفة الذكر ظروف وأسباب تبررها بلا ريب ؛ فهذه عصماء بنت مروان كانت تعيب الإسلام وأهله وتحرض على المسلمين وتؤذيهم أذى شديداً فكان قتلها جزاء ما جنت حقاً واجباً حتمته الضرورة حتى قيل فى شأنها بعد أن قتلت « من يومئذ عز الإسلام وأهله بالمدينة » .

وكعب بن الأشرف لم يكن مسلماً ثم ارتد كما يقول المؤلف ، ولو كان كذلك لكان قتله فرضاً من هذه الناحية ، لأن المرتد يجب قتله إن لم يتب ويرجع عن الكفر ؛ لكنه كان كما أشار المؤلف عدوا لله ولرسوله والمؤمنين ، إذ كان يحرض المشركين على المسلمين ، ويشبب بنسائهم حتى أذاهم أذى شديداً ، وهو مع هذا كان ذا جاه ومسموع الكلمة فى قومه ، فكان لهذا عدواً يخشى عدوانه من وجوه مختلفة ، ولهذا كان قتله أمراً مشروعاً وواجباً دفاعاً عن الدين وأهله ، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وخاصة وقد لقى المسلمون أذى كثيراً من غدر اليهود بالمدينة مقر الإسلام حينئذ ، والعدو الداخلى فى مثل هذه الظروف أشد ضرراً من العدو الخارجى كما هو معروف . (ى)

(**) وفى ذلك نزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » سورة البقرة (الآية ١٤٤)

فى حانوت صائغ إذ شبك يهودى خبيث قميصها من وراء ظهرها فى أعلى ثيابها ، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكت مما لحقها من عار فقتل أحد المسلمين اليهودى الأثيم ، وقتل أخوه اليهودى المسلم ، فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بنى قينقاع فى حيهم خمسة عشر يوما ، حتى استسلموا ، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وكان عددهم فى ذلك الوقت نحو سبعمائة .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبى سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملا قبل أن يقدم على قتال محمد . وفى أوائل عام ٦٢٥ سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة ، وصحب الجيش خمسة عشر من النساء بينهن زوجات أبى سفيان ليثرن حماسة الجند بأغانيهن الحزينة. ودعوتهن إياهم إلى الانتقام » .

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف ، وهزم المسلمون فى هذه الغزوة ، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة ، وأصيب بعدة جروح وحمل من الميدان . وقتل فى المعركة حمزة عم النبى ومضغت كبده هند أشهر زوجات أبى سفيان ، وكان أبوها ، وعمها ، وأخوها قد قتلوا جميعا فى غزوة بدر ، وكان حمزة نفسه هو الذى قتل أباها ، ثم لم تكتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور . وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات ، وعاد منتصراً إلى مكة(*) . وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شفى النبى واستطاع أن يهاجم بنى النضير ، لأنهم أعانوا قريشا على

(*) الذى تذكره كتب السيرة «أن قريشاً خرجوا معهم بالظعن (أى نسائهم) التماساً للحفيظة وألا يفروا» (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٧) ثم ذكر ابن هشام بعد هذا بعض من خرجن من الناس فلم يصل بهن إلى عشر. ومن بينهن زوجة أبى سفيان لا زوجاته وهى هند بنت عتبة، كذلك يقول ابن هشام إن الرسول تهيأ للقتال فى سبعمائة رجل فقط (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩) . (ى)

المسلمين وكانوا يأتمرون به ليقتلوه : وبعد أن حاصرهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير . واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية ، فكان بعضها له ، ووزع ما بقى منها على المهاجرين(*) . لقد كان محمد يرى أنه فى حرب مع أهل مكة ، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه .

وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين فى عام ٦٢٦ بجيش يبلغ ١٠٠٠٠ رجل يساعدهم يهود بنى قريظة مساعدة جدية . ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة فى الميدان ، ففضل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها . وحاصرتها قريش عشرين يوما ، حتى فت فى عضدهم المطر والعواصف ، فعادوا إلى أوطانهم ، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بنى قريظة ، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت .

وكان النبي فى ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد ، فقد جهز فى العشر السنين التى قضاها فى المدينة خمساً وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها ، ولكنه كان إلى هذا سياسيا محنكا ، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم ، وكان يشارك المهاجرين فى الحنين إلى بيوتهم وأسرهم فى مكة ، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً فى الحنين إلى زيارة الكعبة ، التى كانت فى صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم .

(*) هاجم الرسول بنى النضير ولما يمض على يوم أحد أكثر من خمسة أشهر لأن يوم أحد كان فى منتصف شوال سنة ثلاث من الهجرة وأمر بنى النضير كان فى ربيع الأول سنة أربع . وقد أذن لهم النبى أن يأخذوا معهم من أموالهم ما استطاعت الإبل أن تحمله ، إلا السلاح كما يذكر ابن هشام .

وأما تقسيم الفىء فقد اتبع فيه النبى قول الله عز وجل : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ويقول ابن هشام (ح ٢ ص ١٧٨) عن أموال بنى النضير إن الرسول قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا رجلين من هؤلاء ذكرا فقرا فأعطاهما أيضا . (ى)

وفى عام ٦٢٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح ، ويتعهد لهم بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدى شعائر الحج فى موسمه . وأجاب زعماء قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضى قبله عام كامل من السلم ، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه(*) ، ووقع الطرفان شروط هدنة تدوم عشر سنين ، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر فى مساكنهم الواقعة فى الشمال الشرقى من المدينة على مسيرة ستة أيام منها ، ودافع اليهود عن أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع ، وسقط منهم فى أثناء ذلك ثلاثة وتسعون رجلا ، ثم سلم الباقون آخر الأمر ، وسمح لهم بالبقاء فى أماكنهم يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم المستقبلة إلى الفاتحين : ولم يمس أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عمه فقد قطع رأساهما لأنهما أخفيا بعض ما يمتلكان ، وضمت صفية وهى فتاة يهودية فى السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة(**) ، إلى نساء النبى .

(*) وقد عبر عمر بن الخطاب عن هذه الدهشة إذ أتى رسول الله فقال له : يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى . وحقاً لم يضيع الله رسوله فقد أمنت الدعوة الإسلامية وأخذت رسل الرسول تذهب بها آمنة للملوك ورؤساء العشائر ، ثم كان بعد ذلك الفتح المبين بعد قليل من الزمان . (ى)

(**) كان سبب سير الرسول إلى خيبر أن أهلها كانوا شديدى العداوة للمسلمين يتربصون بهم الدوائر فكان من الحزم إبعادهم . وكان أمر النبى بقتل كنانة بن الربيع بسبب أنه كان عنده مال لبنى النضير وجحده حين سئل عنه ، والمسلمون فى أشد الحاجة إلى المال للاستعداد للحرب ، ثم إن الرسول دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة أى أنه قتله قصاصا بأخيه ، وهذا سبب آخر يجعل قتله أمراً مشروعاً . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٤ .

أما مسألة استيلاء المسلمين على نصف محصولات أهل خيبر المستقبلة فترجع إلى أنهم هم أنفسهم طلبوا إلى الرسول أن يعطيهم الأرض مزارعة على النصف مما تنتجه فصالحهم الرسول على ذلك لأنهم كما قالوا هم أنفسهم أعلم بها وأعمر لها . (ى)

وفى عام ٦٢٩ دخل مسلمو المدينة ، البالغ عددهم ألفين ، مكة مسالمين ، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين ، وطاف محمد وأتباعه فى أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات . ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال ، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون « لا إله إلا الله » . وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم ووطنيتهم ، وتقواهم أعظم الأثر فى نفوس أهل مكة ، فأسلم من قريش عدد من ذوى المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذين صارا فيما بعد من أعظم قواد المسلمين . وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبى أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه فى القتال ؛ ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة .

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان ، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة (٦٣٠)(*) ، فجمع النبى عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة ، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة . وكان جواب محمد جوابا كريما . فقد أعلن عفوا عاما عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه ، وحطم الأصنام التى كانت فى داخل الكعبة وحولها ، ولكنه ترك الحجر الأسود فى مكانه وأجاز تقبيله . ونادى بمكة مدينة الإسلام المقدسة ، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر ، وامتنعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة ، وأصبح الرجل المضطهد الذى هاجر من مكة منذ ثمانى سنين صاحب الكلمة العليا فى حياتها .

(*) نقضت قريش الهدنة إذ ساعدت [بالسلاح بنى بكر – وكانوا قد دخلوا فى عهد قريش – على بنى خزاعة الذين دخلوا فى عهد الرسول . بل إن نفرا من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة فى صفوف بنى بكر ، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد ، فكان لا بد من الاستعداد للمسير إلى مكة لفتحها . (ى)

الفصل الرابع

انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقين من حياته فى المدينة ، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها ، بعد فتن قليلة الشأن ، إلى سلطانه ودخلت فى دين الإسلام . وجاء إلى المدينة كعب بن زهير ، أعظم شعراء العرب فى ذلك الوقت ، وكان قد هجا النبى بعض قصائده ، وأسلم نفسه إليه ، واعتنق الإسلام ، فعفا عنه النبى ؛ وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء فى مديح النبي أجازه عليها ببردته(*) ، وعاهد النبي المسيحيين فى بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحرارا فى ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هينة ، ولكنه نهاهم عن الربا ؛ ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم ، وملك الفرس وإلى أمير الحيرة وبنى غسان ، يدعوهم إلى الدين الجديد ، ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله(**) ، وكان يشهد بعين المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارها بين فارس وبيزنطية وما جرته على الدولتين من خراب ؛ ولكن يبدو أنه لم يفكر قط فى توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب(+) ؛

(*) وبيعت بعدئذ لمعاوية بأربعين ألف درهم ، ولا يزال الأتراك يحتفظون بها إلى اليوم وتتخذ فى بعض الأحيان علما قومياً . (ى)

(**) من هؤلاء من رد رداً قبيحاً مثل كسرى ، ومنهم من رد رداً جيلا مثل قيصر ، ومنهم من وعد بالنظر فى الأمر مثل « المقوقس » حاكم مصر والمنذر صاحب البحرين وجبلة ابن الأيهم الغسانى . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠ . (ى)

(+) لعل المؤلف يريد بقوله إن النبى لم يفكر فى توسيع حدود الدولة الجديدة خارج حدود بلاد العرب أنه لم يكن يريد ضمها إلى الدولة الناشئة الجديدة وهذا لا ينفى أنه أراد أن يدعو أهلها إلى الدخول فى دين الإسلام . (المترجم)

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله ، فقد كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة فى شئون التشريع والقضاء ، والتنظيم المدنى ، والدينى ، والحزبى . وحتى التقويم نفسه قد عنى بتنظيمه لأتباعه ، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثنى عشر شهراً قمريا ، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكى تتفق مع السنة الشمسية . فأمر النبى أن تكون السنة الإسلامية اثنى عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون على التوالى ، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيما بعد غير متفقة مع فصول السنة ، وأن تقدم التقويم الإسلامى سنة كاملة عن التقويم الجريجورى كل اثنتين وثلاثين سنة .

ولم يكن النبى مشرعا علميا ، فلم يضع لأمته كتابا فى القانون أو موجزاً فيه ، ولم يسر فى تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف . فإذا أدى هذا إلى شىء من التناقض أزاله بوحى جديد ينسخ القديم ويجعله كأن لم يكن(*) ، وحتى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض فى بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله . وكان اضطراره إلى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشئون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعاته

(*) من الصحيح أن الرسول لم يضع كتابا فى القانون ، ولكن ليس صحيحا أنه لم يسر فى تشريعه على نظام مقرر ، فإن القرآن بنصوصه وروحه العامة قد حدد أصول التشريع بصفة عامة ، ثم كان الرسول بسنته مبينا لهـذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى فى سورة النحل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . أما النسخ فسببه أن التشريعات الواردة فى القرآن الكريم لم تنزل من الله دفعة واحدة ، بل كانت رحمة من الله تنزل متدرجة تبعاً للحالات ، فيكون من الطبيعى أن يحصل فيها نسخ . على أن هذا كان فى حالات قليلة معدودة . (ى) .

تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة(*) . ومع اضطلاع النبي بهذه الشئون كلها فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف بأن ثمة أمورا لا يعرفها ، ويحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان يجرى عليه ما يجرى على الناس جميعاً من موت ووقوع فى الخطأ .

ولم يدع فى يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات ، لكنه مع هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحى فى الأغراض البشرية والشخصية ، كما حدث حين أنزل الوحى مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه(**) . وتزوج النبي بعشر نساء وكانت له اثنتان من السرارى هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين ، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين فى العصر القديم وفى بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات ، فى نظر هؤلاء الساميين ، ضرورة حيوية تكاد تكون واجبا أخلاقيا ؛ وكان تعدد الزوجات فى نظر النبي أمراً عادياً مسلماً به لا غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغى به إشباع الشهوة الجنسية ، ويروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك فى صحته يقول فيه « حبب إلىَّ من

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل من أن المؤلف وأمثاله من غير المسلمين يرون أن القرآن من قول النبي لا من عند الله . أما وهو من عند الله حقاً فإن النبي لم يُفصِح بشىء من ناحية القرآن وأسلوبه ، ولكن الأسلوب يختلف بلا شك فى مواضع عنه فى أخرى تبعاً للغاية التى يريدها الله ، وإن كان جميعه فى أعلى درجات البلاغة التى لا يمكن أن يتطلع أحد إلى مداناتها . (ى)

(**) إن لتشريع تعدد الزوجات غاية أخرى حكيمة ترجع إلى أن يكون المرء بمنجاة من الاتصال بخليلات غير قليلات بجانب الزوجة الشرعية . ولقد تبين لبعض الغربيين اليوم أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج الوحيد لمشكلة زيادة النساء على الرجال زيادة كبرى بسبب الحروب ، فقد طالب أهل مدينة « بون » عاصمة ألمانيا الغربية أن يتضمن دستورهم تشريعاً يبيح هذا التعدد .

أما الزوجات اللاتى عقد عليهن النبيُّ فكن ثلاث عشرة وقد دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل باثنتين . وقد عنى رجال السيرة بذكر سبب زواج كل واحدة منهن وبذكر شىء من سيرتهن جميعاً رضوان الله عليهن . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٨ . (ى)

دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة »(*) ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه ، وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم . وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد ، وهو أمل حرم منه زمناً طويلا . وكانت زوجاته كلهن ما عدا خديجة عقيمات ، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه ، ولم يبق من أبنائه الذين رزقهم من خديجة إلا فاطمة . وقد رزق من مارية القبطية التي أهداها إليه نجاشي الحبشة ، بولد اغتبط النبي بمولده أشد الاغتباط ، ولكن إبراهيم مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده .

وكثيرا ما ضايقه نساؤه بمنازعتهن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ، ولكنه أبى أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة ، ووعدهن بالجنة ، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضى ليلة عند كل واحدة منهن ، ذلك أن سيد بلاد العرب كلها لم يكن يملك بيتاً خاصاً له ، غير أن عائشة قد استأثرت بأكبر من حقها من عنايته(**) ، فغضبت لذلك زوجاته الأخريات حتى نزلت الآية : « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليما حليما » .

وكانت حياة النبي فيما عدا النساء والسلطان غاية في البساطة ، فقد كانت

(*) تكلم في شأن هذا كثير من رجال الحديث . « راجع كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » للمحدث إسماعيل بن محمد العجلوني .

(**) لقد كان الرسول يعدل بين زوجاته جميعاً فيما يملك ، أما ميل القلب فشيء لا يملكه ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفضل السيدة عائشة عن سائر نسائه ما عدا السيدة خديجة . (ى)

المساكن التى أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على اثنى عشرة أو أربع عشرة قدما ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد النخل ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة ، وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض الدار ، ويحلب عنزة البيت فى فنائه ، ويبتاع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده ، ويلعق أصابعه بعد كل وجبة ، وكان طعامه الأساسى التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف فى بعض الأحيان .

ولم يتعاط الخمر التى حرمها هو على غيره ، وكان لطيفاً مع العظماء ، بشوشاً فى أوجه الضعفاء ، عظيما مهيباً أمام المتعاظمين المتكبرين ، متسامحاً مع أعوانه ، يشترك فى تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شىء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنانه من القيام به لنفسه . ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من الفىء وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل . وكان يخص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال ، لكنه كان ككل الناس يعنى بمظهره الشخصى ويقضى فى تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ، ويصبغ شعره ، ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله » ، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطيق الروائح الكريهة ، ولا صلصلة الأجراس ، أو الأصوات العالية « واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وكان قلقاً عصبى المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ؛ وكان حلو الفكاهة فقد

قال مرة لأبى هريرة ، وكان يتردد عليه كثيراً : « يا أبا هريرة زرغباً تزدد حباً » . وكان محاربا صارما لا يرحم عدواً(*) ، وقاضيا عادلا فى وسعه أن يقسو ويغدر ، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد . وقد قضى على كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد ، أو ربط بعير الميت عند قبره . وكان أصدقاؤه يحبونه حبا يقرب من العبادة ، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره بعد قصه ، أو الماء الذى يغسل به يديه ، لاعتقادهم أن فى هذه الفضلات شفاء لهم من ضعفهم أو مرضهم .

وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب(**) ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره . وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم فى اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة . وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته فى ظلام الليل ، ويزور القبور ، ويطلب المغفرة للأموات(†) ، ويدعو الله لهم جهرة ، ويهنئهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والستين من عمره اشتدت عليه هذه الحميات ، وحدث فى إحدى الليالى أن شكت عائشة الصداع ، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها ألا تفضل أن تموت هى قبله ، فتحظى بأن يدفنها رسول الله ، فأجابته بحديثها المعهود ، أنه حين يعود من دفنها سيأتى بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت ، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه ،

(*) كان النبى رحيماً بالناس جميعاً كما يقول المؤلف ، هذا ولم يكن للرسول شخصيى أعداء بل كان هؤلاء أعداء الله وأعداء دينه الذى ارتضاه للناس جميعاً وعملوا ما فى وسعهم لإطفاء نور الله ، فلا جرم أن تكون من الرسول شدة على بعضهم حين يتبين له أنهم مصرون على عدوانهم .

(**) لعله يريد واجبات الحب للمسلمين والحرب للدفاع عنه . (ى)

(†) يشير المؤلف إلى قول الرسول فى أوائل مرضه الذى توفى فيه « إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع (مدافن أهل المدينة) ثم ذهب فعلا واستغفر لهم . (راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦) . (ى)

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يؤم المسلمين للصلاة بدله ، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته . وفى اليوم السابع من شهر يونيه عام ٦٣٢ توفى ورأسه على صدر عائشة .

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به . وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب فى أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها متفرقة كلمتها ، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم ، ديناً سهلا واضحاً قويا ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع فى جيل واحد أن ينتصر فى مائة معركة ، وفى قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم .

الباب التاسع

القرآن

الفصل الأول

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف .كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحيين ، من أجزاء جمع بعضها إلى بعض . ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة فى أنه كله نطق به رجل واحد ، ومن أجل هذا فهو بلا ريب لايعادله فى آثاره أى كتاب آخر جاء به رجل واحد . وقد أملى النبى فى أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الأخيرة من حياته ما كان يوحى إليه من آياته(*) ، وكان كل ما يوحى به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود ، أو سعف النخل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعى فى ذلك ترتيب زمنى أو منطقى ، ولم تجمع هذه الآيات كلها فى كتاب واحد فى حياة النبى ، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخلفهم .أمر الخليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحى أن يبحث عن آيات القرآن ويجمعها ، فجمع زيد أجزاءه من سعف النخل ، وألواح الحجارة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما تم له ذلك نسخت منه عدة

(*) القرآن كله من عند الله وقد جاء على لسان رجل واحد .

صور . ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء فى تفسير بعضها واختلفت نصوصها(*) فى مدن العالم الإسلامى الآخذ فى الاتساع ، فرأى الخليفة عثمان أن يقضى على هذا الاختلاف ، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قريش أن يراجعوا مخطوط زيد (٦٥١) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة ، وظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقياً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل .

ومن شأن الظروف التى أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدى إلى غرض واضح مفهوم — فهى إما أن تقرر عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانوناً ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلى عمل ، أو تروى قصة ، أو تدعو إلى قتال ، أو تعلن نصراً ، أو تصوغ عهداً ، أو تطلب مالا ، أو تنظم شعيرة دينية ، أو تنص

(*) لم تختلف نصوص القرآن مطلقاً ولكن حصل فى قراءته بعض الاختلاف لأسباب منها الخلو من النقط والشكل المعتاد فى كتابتنا فى هذه الأيام . أما مسألة جمع القرآن فتحتاج إلى شيء من التفصيل الدقيق ، ذلك بأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات ، أولاها ما سنذكره بعد فى تعليقنا على قول المؤلف إن محمداً لم يكن يريد جمعه فى كتاب واحد ، والثانية كانت أيام أبى بكر الصديق بعد أن أشار به عمر بن الخطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه مما كان مكتوباً فيه حتى جمع كله فى مصحف حفظته كاملا ، ولا نعرف أنه كتب منه عدة نسخ كما يقول المؤلف ، والثالثة كانت فى أيام عثمان بن عفان وفيها رتبت سوره بعضها فى إثر بعض على حسب ما عرفوه من قبل عن الرسول .

وفى هذه المرة التى كانت فى أيام عثمان كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سوره أربعة : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد قال الخليفة لهؤلاء القرشيين الثلاثة : « إذ اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم » . راجع الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطى ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٨ هـ ج ١ ص ٦١ . (ى)

على مبدإ أخلاقى ، أو تضع نظاماً للتجارة ، أو الصناعة ، أو عمل من الأعمال المالية(*) .

ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها فى كتاب واحد ، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه فى وقت بعينه(**) ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله . وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وهى مرتبة حسب طولها ، لا بحسب نزولها فإن ذلك غير معروف ، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهى بالقصار ، وإذ كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طوالها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب(†) . فالسور المدنية وهى التى يبدأ بها الكتاب

(*) بحث كثيرون من المفسرين مسألة مناسبة الآيات والسور وارتباطها بعضها ببعض ، ومن العلماء من أفرد ذلك بالتأليف مثل برهان الدين البقاعى فى كتاب سماه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » إلا أن كثيراً من المناسبات التى ذكرها لا يخلو من تكلف ولهذا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض » (الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٨) :

ونقول نحن إن ورود القرآن على ما هو عليه من الاستطراد أحياناً فى موضوعات مختلفة قد لا يكون بين بعضها والبعض الآخر رباط وثيق ، مما يجعل القارئ يقبل على تلاوته دائماً بشوق وشغف ولا يحس من ذلك أقل ملل أو عدم انسجام ، فهو يتنقل معه فى فنون مختلفة من العلوم والمعارف التى لا يكاد يحصرها العدّ . (ى)

(**) القرآن كلام الله نزل على نبيه . ومن الحق أنه لم يجمع كله فى مصحف واحد أيام الرسول ، لسبب طبيعى هو أنه كان يتوقع دائماً أن ينزل منه شىء جديد ، إلا أنه قد كتب كله فى عهده صلى الله عليه وسلم وبأمره وإن لم يجمع فى كتاب واحد ولم ترتب سوره . فلما انقضى عهد نزول القرآن بوفاة الرسول جاء حينُ كتابته فى مصحف واحد وهو ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم . (ى)

(†) ترتيب السور فيما بينها وكذلك ترتيب آيات كل سورة أخذ عن الرسول نفسه —

عملية فى أغراضها عادية فى أسلوبها ، أما السور المكية فهى شعرية روحية وبها ينتهى الكتاب . وخليق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته(*) .

وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبى أو أتباعه أو أعدائه ؛ وتلك هى الطريقة التى سار عليها أنبياء بنى إسرائيل ؛ وهى التى نراها فى كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة . وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون أخلاقى يمكن أن يقع فى النفوس وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله . وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسى الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان فى

= ولم يراع فى هـذا الترتيب أن يكون حسب تواريخ النزول ، ولذلك لا يمكن القول إن القرآن تاريخ مقلوب لأن قصار السور أقدم عهداً من طوالها بوجه عام .

على أن مسألة تاريخ نزول القرآن ، سوره وآياته ، مسألة عنى بها العلماء المحققون ، وقد وصلوا من أبحاثهم إلى نتائج لها قيمتها الكبيرة ، وإن لم يتفقوا جميعاً فى هذا على رأى واحد . (راجع مثلا «الإتقان» للسيوطى ج ١ ص ٩ وما بعدها و «مقدمتين فى علوم القرآن» نشرها المستشرق آرثر جفرى وطبعا فى مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م ص ٨ وما بعدها .

(*) لايمكن الحكم على أسلوب القرآن بقراءة ترجمته ، ولهذا لايمكن القول إن أسلوب السور المدنية التى يبدأ بها المصحف أسلوب سهل أو إنه خليق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته . وأصدق من هذا قول المؤلف فى موضع آخر إن لغة القرآن هى اللغة العربية الفصحى وإنه غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التى لاتوائم ذوق الغربيين . وهذا ما يستطاع تبينه من التراجم نفسها فضلا عن لغة القرآن الأصلية .

إن القرآن معجز بأسلوبه وبكل كلمة منه ، ولو كان أسلوب بعض سوره سهلا لما عجز العرب فى عهد الرسول وهم أساطين الكلام والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله أو بعض آيات منه . إن القرآن بلغته وتعابيره وأسلوبه معجز كل الإعجاز وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف المقامات والأحوال ، وإن كان ذلك كله فى أعلى طبقة من البلاغة تنقطع الرقاب دون الإتيان بشىء قريب منه ؛ وكفى أنه تنزيل من رب العالمين . (ى)

بعض الأحيان عن أقوال النبي أشعيا . وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافى خاصة منتظمة ؛ وفى السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوى لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامى . ولغة القرآن هى اللغة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التى لا توائم ذوق الغربيين . وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب ، فى الأدب النثرى العربى .

الفصل الثانى

العقائد(*)

من بين الأغراض التى يهدف لها الدين أن يكون سبيلا إلى الحكم الأخلاقى ، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذاك حق أو باطل ، وأنى له العلم المحيط بكل شىء والذى يوصله إلى هذه المعرفة ؟ وإنما الذى يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التى أدت إلى قيام هذا الدين ، وإلى أى حد أفلح فى تحويل الوحوش إلى آدميين ، والهمج إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة ، وعقول مطمئنة هادئة ، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية ، وما هو أثره فى التاريخ ؟

وترى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقى مسيطر على شئونه — أى الإيمان بأنه مهما يكن فى هذا الكون من شر ، فإن عقلا خيراً ، يعجز الناس عن إدراك كنهه ، يسيِّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة . والأديان الثلاثة التى أعانت على تكوين عقلية الناس فى العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هى الله الواحد ذو الجلال . غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر فى ثلاثة أقانيم مختلفة ، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركا مقنعاً ، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة . وفى القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هى السورة الثانية عشرة بعد المائة :

(*) سنذكر فى هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية لنوضح بها بعض آيات القرآن . ولن يفوتنا أن نشير فى المتن أحياناً ، وفى الهامش على الدوام ، أنهـا أحاديث وليست آيات قرآنية . (المؤلف)

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مئذنة كل يوم ، فالله هو أصل الحياة ومنشؤها ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض . « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (سورة الحج الآية ٥) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقضباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » (سورة عبس الآيات ٢٤ — ٣٠) . . . « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (سورة الأنعام الآية ٩٩) .

والله أيضاً إله القوة « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها . . . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . . . « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات » (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة) . ويقول فى آية الكرسى الشهيرة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (سورة البقرة الآية ٢٥٥) .

والله مع سلطانه وعدله رحيم أبدا ، فكل سورة من سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ومع أن النبى لا يفتأ يذكر الناس بأهوال النار ، فإنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية .

والله كما يصفه القرآن يحيط علما بكل شىء ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (سورة ق ١٦)) .

والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضى ، وإذن فكل الأشياء سابقة فى

علمه ، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله ، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر . فالله يعلم منذ الأزل منذا الذى ينجو من العذاب وهو الذى « يضل من يشاء ويهـــدى من يشاء » (سورة فاطر ٨) « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » (سورة الإنسان ٣١) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين « إنا جعلنا فى قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا » (سورة الكهف ٥٧) ، وما من شك فى أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان . . . . غير أنه مع ذلك قول عنيف فى أى دين ، ولكن محمداً يؤكده بنفس القوة التى يؤكد بها القديس أوغسطين أمثاله . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (سورة السجدة ١٣) . وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة فى التفكير الإسلامى(*)، وقد استعان بها النبى وغيره من الزعماء لبث الشجاعة فى قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر . وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجنان ثابت ، ولكنها أيضا كانت من الأسباب التى عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم فى القرون المتأخرة .

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان . فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يحصون أعمال البشر الطيب منها والخبيث . والجان مخلوقون من النار ، ويختلفون عن الملائكة فى أنهم يأكلون ويشربون ، ويتناكحون ويموتون ، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

(*) إن المسلمين مع إيمانهم بقضاء الله وقدره يعتقدون أن الله شاءت عدالته أن يكون للإنسان من الحرية فى أعماله ما يجعله عدلا مسئولا عنها ، وليست الجبريه مذهب أهل السنة والجماعة ولكنها فئة معروفة من الفرق الإسلامية . (ى)

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم فى تضليل الناس وغوايتهم . وزعيم الجن الأشرار إبليس ، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لآدم فطرده الله من رحمته .

والمحور الذى تدور عليه المبادئ الأخلاقية فى القرآن ، كما هى الحال فى كتاب العهد القديم ، هو خوف العقاب ورجاء الثواب فى الحياة الآخرة ، « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » (سورة الحديد ٢٠) وليس فيها محقق إلا شىء واحد هو الموت . وكان بعض العرب يعتقدون أن كل شىء ينتهى عند الموت ، ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة ، ويقولون « إنْ هذا إلا أساطير الأولين » (سورة المؤمنون ٨٣) ، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة ٣ — ٤) ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة ، بل إن الموتى سينامون إلى يوم القيامة ، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور . وعلم يوم القيامة عند الله وحده ، ولكنه تسبقه علامات تنبئ به ، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس ، وفسدت أخلاقهم ، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العوان ، وتمنى العقلاء الموت . وستكون آخر النذر ثلاث نفخات فى الصور ، ففى النفخة الأولى تكسف الشمس ، وتهوى النجوم ، وتزول السموات ، وتدك الجبال والمبانى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وتجف مياه البحر أو تتطاير لهبا (سورة طه ١٠٢ وما بعدها) . وفى النفخة الثانية تهلك الخلائق جميعها — الملائكة والجن والبشر — إلا من رحم الله ، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الأجسام من القبور وتتصل بالأرواح ، ويتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التى دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالهم وأفكارهم (*) ،

(*) المعروف فيما يختص بالنفخ فى الصور أنهما نفختان لا ثلاث نفخات ، وبعد النفخة الأولى يهلك كل الخلائق إلا من شاء الله وهم كما يقول الغزالى فى إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٢٦٧ =

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه . ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ، ويشفعون لمن آمنوا بهم . ويسير الأخيار والأشرار جميعاً على الصراط — وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف — المعلق فوق الجحيم . فيسقط منه الأشرار والكفرة ، ويجتازه المصلحون آمنين إلى الجنة ، ولن يكون ذلك لمـا يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله(*) . ذلك أن القرآن كبعض العقائد المسيحية يعنى على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب ، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبى بعذاب النار فى الآخرة (آل عمران الآيات ١ و ٦٣ و ١٣١ وسورة النساء ٥٦ و ١١٥ والأعراف والأنفال ٥٠ والتوبة ٦٣ الخ) . وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات فى كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذى ارتكبه المذنب ، ففيها الحرارة التى تشوى الوجوه ، وفيها الزمهرير ، وحتى من يستحقون أخف العقاب يلبسون أحذية من نار ، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة ٤٠ وما بعدها) ، وربما كان دانتى قد أبصر بعض الرؤى التى وصفها فى ملهاته فى القرآن .

وتختلف صورة الجنة فى القرآن عن صورتها فى ملهاة دانتى فهى فى القرآن واضحة وضوح صورة النار . والجنة هى مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون فى سبيل الله ،

= من طبعة المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٥٦ هـ — جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت الذين يموتون أيضاً بعد حين . ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية التى بها يقوم الموتى للحشر والحساب . راجع قوله تعالى فى سورة الزمر الآية ٦٨ « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » راجع أيضاً كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ ٣ ص ٤١٢ باب ما بين النفختين .

(*) يشترط أن يكون العمل الصالح الذى يثاب عليه الإنسان فى الدار الآخرة قائماً على أساس الإيمان الصحيح . (ى)

والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء . ومقر الجنة فى السماء السابعة الفلكية أو ما بعدها ، وهى حديقة واسعة الأكناف تجرى من تحتها الأنهار وتظللها الأشجار الضليلة ، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس وإستبرق ، ويحلون بالجواهر ، ويتكئون على الأرائك ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ؛ ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطئ أغصانها لهم ليملئوا من ثمارها أيديهم . فيها أنهار من لبن ، وعسل ، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة فى الدنيا) فى أكواب وأباريق وكأس من معين لايصدعون عنها ولاينزفون «لا يسمعون فيها لغواً ولاكذابا» (سورة النبأ ٣٥) ، « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . . . كأنهن الياقوت والمرجان » « وكواعب أترابا » . « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ، أجسامهن من المسك مبرأة من نقائص الأجسام البشرية وآثامها . وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات(*) ، ولن تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن ، ولا من نعيم رفاقهن (سورة الدخان) وفى الجنة غير هذه المتعة الجسمية متع أخرى روحية فمن المؤمنين من يتلون القرآن ، وسيتجلى لهم الله جميعاً بوجهه « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » . ترى منذا الذى يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم .

(*) لعل الكاتب قد جاء بعدد الحور فى الجنة من أقوال بعض المؤلفين الأقدمين . ومن الآراء التى لها قيمتها فى هذا المعنى أنه يجب ألا تؤخذ هذه الأوصاف بمعناها الحرفى بل يجب أن نأخذها على أنها تقريب للأذهان لما يستمتع به الصالحون فى الجنة من نعيم روحى . (المترجم)

الفصل الثالث

القرآن والأخــلاق

القانون والأخلاق فى القرآن ، كما هما فى التلمود ، شىء واحد ، فالسلوك الدينى فى كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوى ، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله . والقرآن يشملى قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان ، والتجارة ، والسياسة ، والربا ، والدَّين ، والعقود ، والوصايا ، وشئون الصناعة والمال ، والجريمة ، والعقاب ، والحرب والسلم .

ولم يكن محمد يحتقر التجارة ، فقد كان هو نفسه فى صباه تاجراً ، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً ، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة ، وكان فى بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه ، ولغة القرآن غنية بالتشبيهات التجارية ، ففيه وعد بالثراء فى الدنيا للمسلمين الصالحين ، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار . وفى الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأغلى الأسعار ، وحض على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدى للعامل أجره قبل أن يجف عرقه . ويحرم القرآن الربا أخذاً أو إعطاء (سورة البقرة ٢٧٥ وسورة آل عمران ١٣٠) ، ولسنا نجد فى التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء . وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء ٨و٩) ، وقد قبل محمد كما قبل معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما فى وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئه .

كذلك رفع من مقام المرأة فى بلاد العرب ، وإن لم ير عيباً فى خضوعها للرجل ، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ، ويكاد يصف النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التى أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم(*) . وهو يحرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لهن أن يحضرن الصلاة فى المساجد ، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن ، وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتين معهن بأطفالهن . وقد روى عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل فى أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤذى بطولها أمه . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء ٣١) وسوى بين الرجل والمرأة فى الإجراءات القضائية والاستقلال المالى ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف فى مالها كما تشاء (سورة النساء ٤ و ٣٢) ، وقضى على ما اعتاده العرب فى الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع . وجعل نصيب الأنثى فى الميراث نصف نصيب الذكر ، ومنع زواجهن بغير إرادتهن . وفى القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (سورة الأحزاب ٣٣) ، ولكن الآية إنما تؤكد النهى عن التبرج ، ويروى أن النبى أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن . أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه

(*) ليست الذكورة أو الأنوثة سبباً لدخول الجنة والنار ، إنما يرجع ذلك إلى الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل السيىء . والله يثيب بالجنة من عمل صالحا رجلا كان أو امرة . وهذا أيضاً شأن العقاب فى الدار الآخرة . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » ، فلم يفرق سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة ، ومثل هذا كثير جداً فى آيات أخرى . ويقول جل شأنه فى سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب . وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات فى أيام النبى وفى القرن الأول بعد الهجرة(*) .

وبعد فإن المناخ من العوامل التى تؤثر فى الأخلاق الفردية ، ولعل حرارة الجو فى بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية والنضج المبكر ، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيما نراه من نزعات الرجال فى هذه الناحية فى البلاد التى يطول فيها فصل الحر — ولقد كانت الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل الزواج(**) ، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج . ولهذا حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور ٣٣) وأوصى النبى بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف . ويشترط الدين الإسلامى رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج . فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى العريس مهر عروسه ، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضى بذلك

(*) ملبس المرأة ، وزينتها ، ونظرها إلى الرجل ، ونظر الرجل إليها ، كل هذا نوع من الحجاب نزلت فيه آيات غير قليلة فى سورة النور وسورة الأحزاب .

والخطاب فى الآيتين اللتين أشار إليهما المؤلف لنساء النبى ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون أيضاً حضاً لنساء المسلمين جميعاً . وقد ورد فى كتاب (أحكام القرآن المطبوع بالمطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ هـ جـ ٣ ص ٤٥٥) . « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً فى النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه فالمعنى عام فيه وفى غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والاقتداء به إلا فيما خصه الله به دون أمته » راجع فى هذا أيضاً أحكام القرآن لابن العربى جـ ٢ ص ١٦٦ وتاريخ التشريع للشيخ الخضرى ص ٨٨ — ٨٩ . (ى)

(**) وحتمه بعد الزواج بطبيعة الحال ، وقوله تعالى « وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » معناه إن على الذين لايجدون الوسيلة المالية للزواج أن يصبروا حتى يرزقهم الله الغنى والقدرة على الزواج . (ى)

ولعل المؤلف يشير بقوله إن الشريعة الإسلامية تزيد الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج إلى إباحة الزواج بغير واحدة ، ولكن لهذه الإباحة أسباباً كثيرة ذكرها المؤلف نفسه فى غير هذا الموضع . (المترجم)

آباء(*) العروسين أو لم يرضوا . وقد أجيز للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة . وعدم الزواج فى الإسلام ، كما هو فى الدين اليهودى ، إثم ، والزواج فيه فريضة محببة إلى الله (سورة النور ٣٢) . وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالية بين الذكور والنساء على السواء ، ولطول فترة النفاس ، وما يحدث فى البلاد الحارة من نقص سريع فى قوة الإخصاب ، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزدن على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد . وحرم الإسلام التسرى (سورة المعارج ٢٩ و ٣١) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقرة ٢٣١)(**) :

وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فمكنه بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسيه إشباعا حلالا حرم الزنى أشد التحريم ، فجعل عقوبة الزانى والزانية مائة جلدة (سورة النور(†)) لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

(*) يشترط الأحناف إجازة الولى فى حال تزويج الصغير والصغيرة وإن كانا عاقلين والشافعى يحتم وجود الولى فى حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذى يقوم بعقد الزواج (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٣٣ و ٢٤١) .

والزواج لابد فيه من مهر لايشترط أداؤه فعلا ليتم عقد الزواج ، وللزوجين أن يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متعارف (راجع بدائع الصنائع ح ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨) . (ى)

(**) ليس الإمتناع عن الزواج إثماً فى كل حال بل المعروف فقهاً أن الزواج يكون واجباً إذا تاق الرجل إلى الاتصال بالمرأة ، وفرضاً إن تيقن أنه يقع فى الزنى إن لم يتزوج ، وكان مع هذا مالكا للمهر والنفقة وإلا فلا إثم عليه بترك الزواج . ويكون الزواج مكروها إن خاف ألا يعدل مع الزوجة إن تزوج كما يكون حراماً إن تيقن أنه سيجور ولا يعدل (راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨) . (ى)

(†) عقوبة الزانى هى الجلد كما يقول الكاتب إن كان غير متزوج ، وإلا كانت العقوبة هى الرجم . (ى)

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود . ونهى القرآن فضلا عن هذا عن رمى المحصنات فقال « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » (سورة النور ٤) وقد قل الاتهام بالزنى بعد نزول هذه الآية .

وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود . وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة ٢٢٩) ؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحا له فى أيام الجاهلية(*) ، فإن النبى لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » (سورة النساء ٣٥) . ولا يصبح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل(**) ولكى يرغم الزوج على أن يطيل التفكير فى إيمان الطلاق قبل صدورها ، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلقته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طلقت منه . ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته فى المحيض وليس ذلك لأنها « نجسة » فى ذلك الوقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها . والنساء حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن ينجب أبناء ، وينبغى للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه عليها فى الذكاء ، ومن ثم أن تكون

(*) الصحيح فى هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين بالمعروف فإن العشرة إن ساءت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل . (ى)

(**) الطلاق يكون نهائياً ولو كان مرة واحدة ، وانقضت عدة المرأة ، ويكون أيضاً نهائياً بعد الطلقة الثالثة كذلك إلا أنه فى هذه الحال لا يكون للزوج أن يرد إليه مطلقته ثلاثا إلا بعقد جديد بعد أن تكون قد تزوجت بآخر ودخل بها وانقضت عدتها . (ى)

له عليها القوامة وحق الطاعة ، فإذا عصته كان له أن يهجرها ويضربها (سورة النساء ٣٤) والمرأة التي تتوفى وزوجها راض عنها تدخل الجنة(*) .

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن ، ورقة قلوبهن ، ومفاتنهن ، شأنهن في هذا شأن النساء في العالم كله . وقد حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلمته بلهجة رأى فيها شيئاً من قلة الاحترام ، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هي اللهجة التي تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبي رسول الله . فذهب عمر من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبي . فقيل له إن هذا ليس من شأنه وخرج عمر غاضباً . وسمع النبي بهذا فأثار ضحكه . وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبعض أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين ، ولكنه كان على الدوام يعزهن ، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة . ويروى عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أثمن شيء في العالم . ويذكر الله الناس في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً(**) ، ويروى عن النبي أنه قال ، « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

(*) دخول الجنة مشروط بفضل الله تعالى ، والعمل الصالح ، وقيام المرء بما عليه من حقوق لله ولبني الإنسان ، ومن هؤلاء بلا ريب حق الزوج على زوجته ، وليس معنى هذا أن الزوجة التي تتوفى وزوجها راض عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات أخرى . (ى)

(**) يقول جل جلاله في سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » : ويقول في سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرهاً ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ، والفصال هنا معناه الرضاع .. (ى)

الفصل الرابع

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان ، أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً ، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التى يشير عليها بالتعاون الكامل . والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كلّ كلّ — أى بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أى الله سبحانه وتعالى . وفى هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً ، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر ، وهى لا تنمى التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة ، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية .

وقد تخطت القوانين الأخلاقية التى جاء الإسلام بها حدود القبيلة التى ولد النبى بين ظهرانيها ، ولكنها اقتصرت على الجماعة الدينية التى أنشأها . فلما تم له النصر فى مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل، وإن لم يكن فى مقدوره(*) أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً ؛ وأشعر بلاد العرب كلها ، أى أنه أشعر بلاد الإسلام كلها فى ذلك الوقت ، معنى جديداً للوحدة ، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرفته من قبل « إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات ١٠) وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق ، وفى

(*) لقد أحصى التاريخ كل غزوة أو سرية كانت فى عهد الرسول وكلها كانت بأمره ورضاه ؛ ولعل الغارات التى يشير إليها الكاتب هى السرايا التى كان يرسلها الرسول من آن لآخر دفاعاً عن الدعوة وكيان المسلمين . وليس حقاً ما يقوله من أنه لم يكن فى مقدوره أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً وبخاصة مع ما هو مقرر من حرص المسلمين على تحرى رضاء الرسول اتباعاً لأوامر الله جل شأنه فى القرآن الكريم . (ى)

ذلك يقول النبي : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً ، وهي لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام .

غير أن هذا الحب السامي الذي يدعو إليه الدينان يقابله عداء شديد لغير المؤمنين(*) « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » سورة المائدة ٥١ و ٥٥ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (سورة التوبة ٢٣) . لكن القرآن يأمر في آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال في الأخذ بهذه المبادئ فيقول « لا إكراه في الدين » « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » (سورة البقرة ١٣٧) « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » (سورة النحل ٨٢) « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » (سورة هود ٥٧) « فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٨ و ١٧٩) . أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبي فقد أمر بقتالهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش وانسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم (سورة التوبة ٥) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

(*) لم يكن هذا العداء الشديد إلا للذين يحاربون الإسلام ، وأما أهل الذمة فقد أمر الإسلام بأن يكون لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وحسبنا في الدليل على هذا قوله جل شأنه في سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . (ى)

سبيلهم إن الله غفور رحيم » — « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ، « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » (سورة التوبة ٥ و ٦) . ومن وصايا أبى بكر لجيوشه ألا يقتلوا شيخاً عاجزاً عن القتال ، ولا طفلا صغيراً ، ولا امرأة . وكان على كل مسلم سليم الجسم أن يشترك فى الجهاد « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (سورة الصف ٤) . ومن أحاديث النبى « والذى نفس محمد بيده لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . و « لمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة » (*) .

لكن هذه المبادئ الأخلاقية الحربية ليست فى واقع الأمر تحريضاً على القتال « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (سورة البقرة ١٩٠) . وكان محمد يتبع قوانين الحرب التى كان يتبعها المسيحيون فى أيامه ويشن الحرب على كفار قريش المسيطرين على مكة كما كان إربان الثانى Urban II فيما بعد يدعو إلى قتال المسلمين المسيطرين على بيت المقدس .

ويلوح أن الثغرة التى لابد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق فى الإسلام منها فى سائر الأديان . ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب ، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات (**) ، أما فيما عدا هذا فإن الشريعة الإسلامية شديدة كل الشدة على من لا يتمسك من المسلمين بأصول الدين ، والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه

(*) رواه أحمد والطبرانى . وعن عمر بن الحصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادته ستين سنة » .

(**) لقد بينا فيما سبق أن تعدد الزوجات إنما يرجع إلى دوافع اجتماعية هامة تنبه إليها كثيرون من الغربيين فى هذه الأيام ، وليس سبب هذا التعدد أن العرب أكثر شهوانية من غيرهم من الشعوب . (ى)

دين سهل من الوجهة الأخلاقية . كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ بالثأر ، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان(*). فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ١٩٤) « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ٤١) ، تلك أخلاق تليق بالرجال ؛ شبيهة بما جاء فى العهد القديم ، فهى تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة . وليس فى التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء ، ولم يفلح فى هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » (سورة آل عمران ٢٠٠) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت الذى نادى بمبادئ نتشه قبل وجود نتشه بزمن طويل .

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة ، وقد كتبوا المصاحف وزينوها وبذلوا فى سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين إليها بحبهم له ، وهو الكتاب الذى يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة ، وهو المحور الذى يدور عليه تعليمهم والذروة التى ينتهى بها هذا التعليم . وقد ظل أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً فى ذاكرتهم ، يستثير خيالهم ، ويشكل أخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث فى النفوس

---

(٥) لم يجئ الإسلام ليساير العرب على ما كانوا عليه من عقائد باطلة وتقاليد غير مستحبة بل جاء ليغير كل هذا إلى خير ، وقد فعل ذلك حقاً . وقد أمر بالرحمة والمغفرة ولكن فى غير ذلة لأنه دين قوة لا دين ضعف وخنوع . وللرسول مواقف تتجلى فيها هذه المغفرة . من ذلك موقفه من قريش بعد فتح مكة التى آذته هو وأصحابه أشد الأذى ، فقد عفا عنهم جميعاً وكان مما قال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ويقول الله جل شأنه فى سورة فصلت « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .. (ى)

الساذجة(*) أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى ، وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير فى أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم فى الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله . وقد عرّف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحى ولا اليهودى الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (سورة البقرة الآية ١٧٧) .

(*) الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر فى كل عصر من العصور الماضية وفى هذا العصر الذى نعيش فيه ، كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر ، وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة الحقة الواضحة التى يتقبلها الجميع . (ى)

الباب العاشر

سيف الإســـلام

١٠٥٨ — ٦٣٢

الفصل الأول

الخلفاء الراشـــدون

٦٦٠ — ٦٣٢

مات النبي ولم يعين من يخلفه من بعده ، ولكنه كان اختار أبا بكر (٥٧٣ — ٦٢٤) ليؤم المسلمين فى مسجد المدينة ، واقتنع المسلمون بعد شيء من الاضطراب والتنافس بأن هذا التفضيل يجعل أبا بكر أحق الناس بأن يختار أول خليفة لهم(*) .

ولم يكن لفظ خليفة فى بادئ الأمر لقباً لأبى بكر ، بل كان مجرد وصف له . وساء ذلك الاختيار علياً ابن عم محمد وزوج ابنته ، وظل ستة أشهر ممتنعاً عن بيعة أبي بكر ، وغضب لذلك أيضاً العباس عم النبي وعلى . ونشأ عن هذا الخلاف الأول أكثر من عشر حروب ، كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة ، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامى .

وكان أبو بكر وقتئذ فى التاسعة والخمسين من عمره ، وكان قصير القامة ، نحيف الجسم ، قوى البنية ، قليل الشعر ، أبيض اللحية حمراء الصبغة ، بسيطاً

(*) وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة جعلت المسلمين يختارون أبا بكر خليفة لهم منها شدة إيمانه ومناصرته للنبى وقوة أخلاقه والتضحية فى سبيل الدين بنفسه وبماله . (المترجم)

فى معيشته ، متقشفاً ، رحيما فى حزم ، يعنى شخصياً بجميع شئون الإدارة والقضاء جليلها وصغيرها على السواء ، لا يهدأ له بال حتى يأخذ العدل مجراه ، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله ، وظل شديد التقشف حتى أقنعه الشعب بأن ينزل قليلا عن تقشفه ، ثم أوصى قبل وفاته بأن يعود إلى بيت مال المسلمين كل ما أرغم على أخذه منه . وحسبت قبائل بلاد العرب أن تواضعه ضعف . وإذا كان بعضها لم يتمكن الإسلام من قلوب أفرادها ، ومنهم من اعتنقه كارها ، فقد ارتد هؤلاء عنه ، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التى فرضها عليهم الإسلام . ولما أصر أبو بكر على وجوب أدائها زحفوا على المدينة ، وجمع أبو بكر جيشاً فى ليلة واحدة ، وقاده بنفسه فى مطلع الفجر ، وبدد به شمل العصاة (٦٣٢) ، ثم أرسل خالد بن الوليد أشهر قواد المسلمين وأشدهم بطشا ، لقتال المرتدين فى جزيرة العرب وإرغامهم على أداء الزكاة .

وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التى أدت إلى فتح العرب غربى آسية ، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة . وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة فى بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية ، وصدت جيوش الإمبراطورية ، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين ، فأرسل إليها أبو بكر المدد ، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية . وكانت هذه فرصة مواتية لضم شتات العرب وتوحيد صفوفهم فى حرب خارجية ؛ وكان العرب — كما نعلم — قوماً ألفوا الحروب ، فلبوا نداء أبى بكر لخوض غمارها وقد بدت فى أول الأمر قصيرة الأجل . وسرعان ما أصبح بدو الصحراء المتشككون فيما مضى يضحون بحياتهم سبيل نصرة الإسلام .

واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب ؛ فمن الأسباب الاقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية فى القرن السابق لظهور النبى قد أدى

إلى انهيار نظم الري في جزيرة العرب[1] ، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية ، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار ، ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعي من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح[2] . يضاف إلى هذا عدة أسباب سياسية : منها أن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتهما الحروب ، وما حل بكلتيهما من الدمار على يد الأخرى ، فكان ضعفهما مغرياً للعرب على غزو بلادهما ؛ ولقد كانت الضرائب في ولايات الدولتين تزداد زيادة مطردة ، والأداة الحكومية تزداد عجزاً عن تصريف شئون الحكم وحماية الأهلين ، كذلك كان للصلات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل في هذا التوسع . فقد كان في الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة في قبولها حكم العرب الغزاة أولا ، ثم اعتناق دينهم بعدئذ . يضاف إلى هذا عوامل دينية : منها أن اضطهاد بيزنطية لليعاقبة والنساطرة وغيرهما من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين ، بل تعداهما إلى بعض الحاميات الإمبراطورية . ولما سار الفتح في طريقه زادت الأسباب الدينية قوة على قوتها ؛ فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبي المتحمسين ، يصلون لله وهم يحاربون ، ويصلون أكثر مما يحاربون ، وقد بعثوا في قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت في الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة . وهناك فوق ذلك عوامل أخلاقية لها أيضاً شأنها في هذه الفتوح : ذلك أن المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهبنة قد أضعفتا في بلاد الشرق الأدنى ذلك الاستعداد للقتال الذي كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام . ولقد كانت جيوش العرب خيراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة ، يألفون المشاق وينالون جزاءهم من الفيء ؛ لقد كان في وسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية ، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم . ولكنهم لم يكونوا في حروبهم همجاً متوحشين ، انظر إلى ما أوصاهم

به أبو بكر : « أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ؛ ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيرا ، ولا امرأة ؛ ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ؛ ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا لمأكلة ؛ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ؛ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منه شيئاً فاذكروا اسم الله عليه ؛ وتلقون قوما قد محصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . . . اندفعوا باسم الله الخ »[٣] .

ولم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف . وكانت هناك أخيرا أسباب حربية للغزو والفتح : ذلك أنه لما تضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انضم إليها من المجندين، كان لا بد من الزحف بهم إلى أرضين جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . ونشأ من تقدمهم قوة هذا التقدم الدافعة ، فكان كل نصر يتطلب نصراً جديدا ، حتى أصبحت الفتوح العربية — التى كانت أسرع من الفتوح الرومانية ، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية — أعظم الأعمال إثارة للدهشة فى التاريخ الحربى كله .

وحدث فى أوائل عام ٦٣٣ ، بعد أن بسط خالد بن الوليد « لواء السلم » على جزيرة العرب ، أن دعته إحدى قبائل البدو الضاربة على حدود الجزيرة للانضمام إليها فى محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق ، وقبل خالد وخمسمائة من رجاله الدعوة لأنهم لم يكونوا يطيقون التعطل أو الركون إلى السلم طويلا ، وانضم إليهم ألفان وخمسمائة من رجال القبائل ، وغزوا أملاك الفرس . ولسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحملة قبل الإقدام عليها أو لم يوافق ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فالظاهر أنه قبل ما أسفرت عنه من نتائج قبول الفلاسفة . واستولى خالد على الحيرة وأصاب فيها من الغنى

ونال كل فارس منه ما أنطق أبا بكر بقالته الشهيرة : « يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ »(٤) . ولقد أصبحت المرأة وقتئذ ذات شأن كبير فى تفكير الظافرين ومغانمهم . وشاهد ذلك أنه بينما كان العرب يحاصرون حمص أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام ، ولما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تعطى سيدة منها تدعى كرامة إلى جندى عربى قال إن النبى قد وعده بها « فاشتد على أهل بيتها ، وأهل قريتها ما وقعت فيه وأعظموا الخطر فقالت : لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إليه ، ثم افتدت منه نفسها بألف درهم ، وكانت تسوى أضعاف ذلك(٥) .

وقبل أن يستمتع خالد بثمار انتصاره فى الحيرة بعث إليه الخليفة يأمره بالسير لإنقاذ قوة من العرب يتهددها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق . وكان بين الحيرة ودمشق فى ذلك الوقت شقة من الصحراء الجدباء الخالية من موارد الماء يقطعها المسافر فى خمسة أيام . فجمع خالد الإبل ، وسقاها الماء بوفرة ؛ وكان الجند فى أثناء زحفهم يأخذون الماء من بطون الإبل بعد ذبحها ، ويسقون خيولهم لبنها . ولما أن وصل هو وجنوده إلى الجيش العربى الرئيسى المعسكر على ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلا إلى الجنوب الشرقى من دمشق كانت تلك المؤن قد نفدت . وهناك كما يقول المؤرخون العرب هزم ٤٠,٠٠٠ (٢٥,٠٠٠ ؟) من العرب ٢٤٠,٠٠٠ (٥٠,٠٠٠ ؟) من الروم فى إحدى المعارك الفاصلة التى لا حصر لها فى التاريخ (٦٣٤) . وهكذا قامر الإمبراطور هرقل ببلاد الشام كلها فى معركة واحدة ، فلما خسرها أصبحت تلك البلاد قاعدة الدولة العربية الآخذة فى الاتساع .

وبينما كان خالد يقود جيوشه إلى النصر فى هذه المعركة ، إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبى بكر ويأمره فيها عمر الخليفة الجديد أن يتخلى عن القيادة لأبى عبيدة . وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة . وكان عمر أبو حفصة ابن الخطاب (٥٨٢ — ٦٤٤) أكبر معين لأبى بكر وأعظم مشير به ، وكان قد بلغ من الشهرة درجة لم يجد معها أحد سبباً للاعتراض حين اختاره أبو بكر خليفة للمسلمين من بعده . غير أن عمر نفسه كان يختلف عن صديقه أبى بكر كل الاختلاف . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، حاد الطبع شديد الانفعال ، لا يتفق معه إلا فى بساطته وتقشفه ، وفى أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته . وكانت صروف الدهر وتبعات الحكم قد أنضجت عقله فجعلته مزيجاً عجيباً نادراً من حدة الطبع والقدرة على الحكم الهادئ الصادق ؛ ويحكى عنه أنه ضرب بدوياً من غير حق ثم ألح عليه — دون جدوى — أن يكيل له من الضربات بقدر ما كاله هو له . وكان شديد التمسك بالدين يطلب إلى كل مسلم ألا يحيد قيد شعرة عن الفضيلة . وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من يراه من المسلمين خارجاً على أصول الدين[٦] . وتقول بعض الروايات إنه ضرب ابنه حتى مات من الضرب لمعاقرته الخمر[٧] . ويقول المؤرخون المسلمون إنه لم يكن له إلا قميص واحد ، وجلباب واحد رقعه عدة مرات ، وإنه كان يعيش على التمر وخبز الشعير ، ولا يشرب غير الماء ، وإنه كان ينام على سرير من جريد النخل ، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قميص الشعر ، وإن همه كله كان منصرفاً إلى نشر الإسلام بالسلم وبالحرب . ويقال إن أحد ولاة الفرس جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه ، فوجد فاتح الشرق نائماً على عتبة جامع المدينة ؛ ولكننا لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها .

وكان السبب الذى من أجله عزل عمر خالداً من القيادة أن « سيف الله » كثيراً ما لوث شجاعته بقسوته . ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة

ملؤها الشهامة ، وما هو أجمل من الشهامة ؛ فقد وضع نفسه تحت تصرف أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط . وأوتي أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد في شئون الحرب ، ويعارض قسوته بعد النصر . وكان العرب فرساناً مهرة لا يضارعهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم ، ولم يكن في أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم صيحاتهم الحربية العجيبة ، أو حركاتهم العسكرية المحيرة ، أو سرعة كرهم وفرهم ؛ وكانوا يحرصون عن أن يختاروا للنزال الأراضي المستوية التي توائم حركات الفرسان . واستولى العرب فيعام٦٣٥ على دمشق ،واستولوا على أنطاكية في عام ٦٣٦ ، وعلى بيت المقدس في عام ٦٣٨ ، ولم ينته عام ٦٤٠ حتى كانت بلاد الشام في أيدي المسلمين ، وقبل أن يختتم عام ٦٤١ كانوا قد أتموا فتح بلاد الفرس ومصر . ووافق البطريق سفرونيوس Sophronius على تسليم بيت المقدس إذا جاء الخليفة نفسه للتصديق على شروط التسليم ، وقبل عمر هذا الشرط ، وجاء من المدينة في بساطة أفخر من الفخامة ، ومعه عدل من الحب وكيس من التمر ، ووعاء ماء ، وصحفة من الخشب . وخرج خالد وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله ، فغضب حين أبصر ثيابهم المهفهفة ، وعدد خيولهم المزركشة ، وألقى بحفنة من الحصباء في وجوههم ولامهم على أنهم جاءوا يستقبلونه في ذلك الزي . وقابل سفرونيوس مقابلة ملؤها اللطف والمجاملة ، ولم يفرض على المغلوبين إلا جزية قليلة ، وأمن المسيحيين على كنائسهم . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه طاف مع البطريق ببيت المقدس ، واختار في العشرة الأيام التي أقامها فيها موضع المسجد الذي سمي فيما بعد باسمه . ولما سمع أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت المقدس عاصمة للدولة الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة .

وما كاد الأمر يستتب للمسلمين في بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا يهاجرون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق ، وكانت هذه الهجرة شبيهة

بهجرة القبائل الجرمانية إلى الولايات الرومانية التى غزتها هذه القبائل ، وشملت الهجرة الرجال والنساء . . .

وبفضل هذه الهجرة والتسرى أصبح عدد العرب فى بلاد الشام وفارس نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام ٦٤٤ . ونهى عمر الفاتحين عن شراء الأرض وفلاحها ، وكان يرجو أن يبقوا فى خارج جزيرة العرب طبقة عسكرية ، تمدهم الدولة بما يكفيهم ، لكى يحتفظوا بصفاتهم الحربية ، غير أن أوامره فى هذا قد أغفلت بعد موته ، بل إنها كاد يقضى عليها سخاؤه فى أثناء حياته ؛ ذلك أنه كان يوزع أربعة أخماس الفىء على الجيش ، ويخص بيت مال المسلمين بالخمس الباقى . ولم تلبث أقلية الرجال ذوى العقول الكبيرة أن جمعت معظم الطيبات من هذه الثروة العربية الآخذة فى النماء ، وأخذ أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة فى مكة والمدينة ، فكان للزبير بيوت فى عدة مدن مختلفة ، وكان يمتلك ألف جواد ، وعشرة آلاف عبد ؛ وكان عبد الرحمن يمتلك ألف بعير ، وعشرة آلاف رأس من الضأن ، وأربعمائة ألف دينار (١٫٩١٢٫٠٠٠ دولار) وكان عمر ينظر بحسرة وأسى إلى هذا الترف الذى أخذ مواطنوه يتردون فيه .

وطعنه مولى فارسى وهو يؤم الصلاة فى المسجد (٦٤٤) ، ولم يستطع عمر وهو على فراش الموت أن يقنع عبد الرحمن بأن يكون خليفة من بعده فعين ستة من زعماء المسلمين ليختاروا من يخلفه ؛ فاختاروا من بينهم عثمان . وكان عثمان بن عفان شيخاً مسناً ، طيب القلب ، حسن النية ،أعاد بناء مسجد المدينة وجمله ، وأعان بماله جيوش المسلمين التى نشرت الإسلام فى هيرات ، وكابل ، وبلخ ، وتفليس ، وفى ربوع آسية الصغرى حتى البحر الأسود ، ولكنه لسوء حظه كان شديد الولاء لأشراف بنى أمية الذين كانوا فى أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبى ، فأقبل بنو أمية على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة ، ولم يكن فى وسعه أن يقاوم مطالبهم . ولم يلبث أن تولى بعض المناصب المجزية أكثر من عشرة منهم كانوا يسخرون

من تزمت أتقياء المسلمين وبساطتهم . وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العداء ، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة ، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وهى المدن الإسلامية الآخذة فى النماء السريع ، وبنو هاشم أهل النبي وعلى رأسهم على ضد بنى أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام وابن أبى سفيان ألد أعداء النبي فى بداية الدعوة . وفى عام ٦٥٤ أخذ رجل يهودى ممن اعتنقوا الإسلام يدعو فى البصرة إلى عقيدة ثورية ، مضمونها أن النبي سيبعث حياً على هذه الأرض ، وأن علياً أحق الناس بالخلافة ، وأن عثمان لا حق له فيها ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين . ولما طرد هذا الداعية من البصرة نزح إلى الكوفة ، فلما أخرج من الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته آذاناً صاغية واعتنقها كثيرون ، وخرج من مصر إلى المدينة خمسمائة من المسلمين وطلبوا إلى عثمان أن يعتزل الخلافة ، فلما أبى حاصروا بيته ، ثم اقتحموا عليه حجرته وقتلوه وهو يتلو القرآن (٦٥٦) .

وفر زعماء بنى أمية من المدينة وبايع بنو هاشم علياً خليفة للمسلمين . وكان على فى شبابه مثلا أعلى للتواضع ، والتقوى ، والنشاط ، والإخلاص للدين . وكان وقت أن بويع بالخلافة فى الخامسة والخمسين من عمره ، أصلع الرأس ، ممتلئ الجسم ، لطيف المعشر ، محسناً ، كثير التفكير ، متحفظاً فى قوله ؛ ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التى عدت فيها السياسة على الدين ، وحلت فيها الدسائس محل الخشوع والإخلاص للإسلام والمسلمين . وطلب إليه أن يقتص من قتلة عثمان ، ولكنه تباطأ فتمكنوا من الفرار ؛ وطالب هو أن يعتزل من ولاهم عثمان مناصبهم ، فأبى معظمهم ؛ ولم يكتف معاوية برفض هذا الطلب بل نشر فى دمشق قميص عثمان الملطخ بالدماء ، وأصابع زوجته التى قطعت وهى تحاول الدفاع عنه . وظاهرت قريش معاوية ، وكان بنو أمية هم المسيطرين وقتئذ عليها ، وخرج على على

طلحة والزبير من أصحاب الرسول ، وطالباهما أيضاً بالخلافة . وخرجت عائشة زوج النبى من المدينة إلى مكة وانضمت إلى الثوار . ولما أعلن مسلمو البصرة انضمامهم للثائرين استنجد على بأهل الكوفة المضرسين فى القتال ، ووعدهم أن يتخذها عاصمة الدولة إذا هم لبوا نداءه . فأجابوا دعوته والتقى الجيشان فى جنوبى العراق فى واقعة الجمل — وسميت كذلك لأن عائشة كانت تحرض الجند على القتال من هودجها على ظهر الجمل . وهزم طلحة والزبير وقتلا ، وردت عائشة إلى بيتها معززة مكرمة ، ونقل علىّ العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة .

وجهز معاوية فى دمشق قوة أخرى لقتال على . وكان معاوية خبيراً بشئون الدنيا غير متزمت فى الدين ، وكان يرى فى الدين بديلا من الشرطة أقل منها نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلا بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة . وكان من الأغراض التى يبتغيها بمحاربة على أن يعيد إلى الأقلية المصطفاة من قريش السلطة والزعامة اللتين كانتا لها قبل أيام النبى . وأعاد علىّ تنظيم قواه والتقت بجيش معاوية عند صفين على نهر الفرات (٦٥٧) . وكاد النصر يتم لعلى لولا أن عمرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم « كتاب الله » ، ولعله كان يعنى بهذا اتباع الأوامر الواردة فى القرآن (الكريم) . ورضى علىّ بهذا الطلب إجابة لإلحاح جنوده ، واختير الحكمان وحدد لها ستة أشهر يفصلان خلالها فى النزاع ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم .

ولكن بعض رجال على خرجوا عليه فى ذلك الوقت ، وألفوا منهم جيشاً مستقلا وسموا بالخوارج ، وقالوا إن الخليفة يجب أن يختاره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله ؛ وكان بعضهم فوضويين دينيين يرفضون كل حكومة ما عدا حكومة الله(٩) وكانوا كلهم ينددون بما انغمس فيه حكام الإسلام الجدد من ترف وحب لمتاع الدنيا ، وحاول علىّ أن يعيدهم إلى الانضواء تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح ؛ ثم استحالت تقواهم تعصباً ، وعبروا عنها بأعمال اتسمت بالعنف

والإخلال بالنظام ، فلم يسع علياً إلا أن يعلن عليهم الحرب ، ويشتت شملهم . واتفق الحكمان فى الوقت المحدد لها على أن يتنحى على ومعاوية عن الخلافة ، وأعلن ممثل على خلعه ، ولكن عمراً لم يخلع معاوية بل ثبته خليفة للمسلمين . وفى هذا الاضطراب هجم رجل من الخوارج على علىّ بالقرب من الكوفة وطعنه فى رأسه بسيف مسموم (٦٦١) . وأصبح المكان الذى مات فيه علىّ مزاراً مقدساً عند طائفة الشيعة التى تقدسه أعظم التقديس ، واتخذت ضريحه مكاناً تحج إليه كما يحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها .

وبايع المسلمون فى العراق الحسن بن على بالخلافة ، وزحف معاوية على الكوفة ، فاستسلم له الحسن ، وقرر له معاوية مالا يعيش منه ، وانسحب الحسن إلى مكة ، ومات فى الخامسة والأربعين من عمره (٦٦٩) ، فمن قائل إن الخليفة دس له السم ، ومن قائل إن زوجة من زوجاته دفعتها الغيرة إلى أن تدسه له . وبايع المسلمون جميعاً معاوية على كره منهم ، ولكنه أراد أن يضمن السلامة لنفسه ، ورأى أن المدينة بعيدة عن مركز العالم الإسلامى والسلطة الإسلامية ، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة . وهكذا انتصرت الأرستقراطية القرشية على الهاشميين آل بيت النبى ، واستحالت « الجمهورية » الدينية ، وهى الحكومة التى كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين ، ملكية دنيوية وراثية . وحل حكم الساميين فى غرب آسية محل حكم الفرس والروم ، وطهرت آسية من تلك السيطرة الأوربية التى ظلت قائمة فيها ألف عام ، وشكلت بلاد الشرق الأدنى ومصر وشمالى أفريقية بالشكل الذى احتفظت به فى جوهره ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

الخلافة الأموية

٦٦١ — ٧٥٠

يجب علينا ألا نظلم معاوية . لقد استحوذ على السلطة فى بادئ الأمر حين عينه عمر الخليفة الفاضل النزيه والياً على الشام ، ثم بتزعمه الثورة التى أوقد نارها مقتل عثمان ، ثم بما دبره من الدسائس البارعة التى أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة ، ومن أقواله فى هذا المعنى « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » قيل : وكيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : « إذا مدوها خليتها وإن خلوها مددتها »[١٠] .

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرا حاكمة جديدة .

وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة ، وتشبه فى هذا بأباطرة الدولة البيزنطية ، الذين تشبهوا هم أنفسهم بملك ملوك الفرس . وإن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا هذا ليوحى بصلاحيته لحكم الشعوب الجاهلة واستغلالها . وكان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد فى أثنائه من الرخاء ، وانقطاع النزاع بين القبائل ، وما بلغته الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك . وكان يرى ألا سبيل إلى اتقاء النزاع الذى لابد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب ، وما يؤدى إليه

هذا النزاع من اضطراب وفوضى ، إلا إذا استبدل به النظام الوراثى ، فنادى بابنه يزيد وليًّا للعهد ، وأخذ له البيعة من جميع ولايات الدولة العربية .

ومع هذا فإنه لما مات معاوية (٦٨٠) اشتعلت نار الحرب من أجل وراثة العرش ، كما اشتعلت فى بداية حكمه . فقد أرسل مسلمو الكوفة إلى الحسين بن على يعدونه بتأييد اختياره للخلافة إذا جاءهم واتخذ بلدهم مقراً لها . وخرج الحسين من مكة ومعه أسرته وسبعون من أتباعه المخلصين له . ولما أصبحت تلك القافلة على بعد خمسة وعشرين ميلا فى شمال الكوفة قابلتها قوة من جند يزيد بقيادة عبيد الله ، وعرض حسين أن يسلم ، ولكن من كانوا معه أبو إلا القتال . وأصاب أحد السهام الأولى قاسما ابن أخى الحسين وهو غلام فى العاشرة من عمره ، فمات بين ذراعى عمه ، ثم سقط من بعده إخوة الحسين وأبناؤه ، وبنو أعمامه ، وأبناء إخوته واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق أحد ممن كانوا معه ، واستولى الرعب والهلع وقتئذ على النساء . ولما حمل رأس الحسين إلى الكوفة أقبل عبد الله ينكثه بالقضيب ، فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه »[11] (٦٨٠) . وأقام الشيعة فى كربلاء حيث قتل الحسين مشهدا عظيما تخليداً لذكراه ، ولا يزالون حتى اليوم يمثلون فى كل عام مأساة قتله ، ويظهرون فى ذلك أشد الحزن والأسى ، ويمجدون ذكرى على وولديه الحسن والحسين .

كذلك ثار على يزيد عبدالله بن الزبير ، ولكن جنود يزيد السوريين هزموه وحاصروه فى مكة ، وسقطت الحجارة من مجانيقهم فى فناء الكعبة ، وانكسر منها الحجر الأسود ثلاث قطع ، واشتعلت النار فى الكعبة نفسها ، والتهمتها عن آخرها (٦٨٣) . ثم رفع الحصار عنها فجأة ، فقد مات يزيد واحتيج إلى الجيش فى دمشق . وأعقبت موته سنتان سادت فيهما الفوضى وتولى الخلافة فيها ثلاثة من الخلفاء جاء بعدهم عبد الملك بن مروان ابن عم معاوية فقضى على

هذا الاضطراب وأخمد الفتنة بشجاعة وقسوة ، فلما استتب له الأمر حكم البلاد بكثير من الرأفة ، والحكمة والعدالة . وأخضع قائده الحجاج بن يوسف أهل الكوفة وأعاد حصار مكة . ودافع عنها عبد الله ، وكان وقتئذ فى الثانية والسبعين من عمره ، دفاع الأبطال ، وكانت أمه المعمرة تشجعه وتحرضه ، لكنه هزم وقتل ، وحمل رأسه إلى دمشق ؛ وبعد أن ظل جسده مصلوباً بعض الوقت ، اسلم إلى أمه (٦٩٢) . وفى سنى السلم التى أعقبت هذا القتال ، أخذ عبد الملك يقرض الشعر ، ويناصر الأدب ، ويعنى بشئون بيته ، ويربى أبناءه الخمسة عشر ، وقد تولى الخلافة منهم أربعة .

ودام حكمه عشرين عاماً مهد فيها السبيل للأعمال العظيمة التى قام بها ابنه الوليد الأول (٧٠٥ — ٧١٥) . فى عهده واصل العرب فتوحهم ، فاستولوا على بلخ فى عام ٧٠٥ ، وعلى بخارى فى عام ٧٠٩ ، وفتحوا أسپانيا فى عام ٧١١ ، وسمرقند فى ٧١٢ . وفى الشرق حكم الحجاج البلاد بحزم وجد وقام فيها بأعمال إنشائية لا تقل عما لجأ إليه فى هذا الحكم من قسوة : فقد جفف المستنقعات ، وأصلح كثيراً من الأراضى وأعدها للزراعة ، وأعاد فتح ما طمر من قنوات الرى وأصلحها . ثم لم يقنع بهذه الأعمال فأحدث انقلاباً كبيراً فى طريقة الكتابة باستعمال حركات الإعراب ، وكان الحجاج مدرساً قبل أن يكون والياً . أما الوليد نفسه فكان مثلا طيباً للحكام ، يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب ، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الجديدة وإصلاح الطرق ، وينشئ المدارس والمستشفيات — ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية — وملاجئ للشيوخ ، والعجزة ، والمكفوفين ، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويجملها ، وينشئ فى دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم لا يزال باقياً فيها حتى اليوم . وكان يجد بين هذه المشاغل كلها متسعاً من الوقت يقرض فيه الشعر ، ويؤلف الألحان الموسيقية ، ويضرب على العود ،

ويستمع إلى غيره من الشعراء والموسيقيين ، ويخصص من كل يومين يوماً للمنادمة[١٣] .

وخلفه أخوه سليمان (٧١٥ — ٧١٧) ، فأضاع المال والرجال فى محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية ، وسلى نفسه بالطعام والنساء ، ولم يذكره الناس بخير إلا لأنه أوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠) . واعتزم عمر أن يكفر فى خلافته عن جميع ضروب الفساد التى ارتكبها أسلافه من خلفاء بنى أمية . فجعل حياته كلها وقفاً على إحياء شعائر الدين ونشره فتقشف فى لباسه ، وارتدى الثياب المرقعة حتى لم يكن أحد يظن أنه هو خليفة المسلمين ، وأمر زوجته بأن ترد إلى بيت المال ما أهداه إليها والدها من الحلى النفيسة فصدعت بالأمر ، وأبلغ أزواجه أن واجبات الحكم ستشغله عن الالتفات إليهن وأذن لمن شئن منهن أن يفارقنه . ولم يلتفت إلى الشعراء ، والخطباء ، والعلماء الذين كانوا يعتمدون فى معيشتهم على بلاط الخلفاء ، بل قرب إليه أتقى العلماء فى الدولة واتخذهم له أعواناً ومستشارين . وعقد الصلح مع الدول الأجنبية ، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذى كان يحاصرها ، واستدعى الحاميات التى كانت قائمة فى المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين . وبينا كان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين فى بلاد الدولة على اعتناق الإسلام ، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم ، فإن عمر قد شجع المسيحيين ، واليهود ، والزردشتيين على اعتناقه ، ولما شكا إليه عماله القائمون على شئون المال من أن هذه السياسة ستفقر بيت المال أجابهم بقوله : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا »[١٤] .

ولما أراد بعض مستشاريه أن يقفوا حركة الدخول فى الإسلام بأن حتموا الختان على معتنقيه فعل عمر ما فعله القديس بولس من قبل ، فأمرهم بالاستغناء

عن الختان . ثم فرض قيوداً شديدة على من امتنعوا عن الإسلام ، فحرم عليهم مناصب الدولة ، ومنعهم من بناء معابد جديدة ، ودامت خلافته أقل من ثلاث سنين مرض بعدها ومات .

وكان يزيد الثانى (٧٢٠ — ٧٢٤) يختلف كل الاختلاف فى أخلاقه وعاداته عن عمر بن عبد العزيز . كان يزيد يحب جارية تدعى حبيبة بقدر ما كان عمر يحب الإسلام . وكان قد ابتاعها فى شبابه بأربعة آلاف قطعة من الذهب ، وأرغمه أخوه سليمان ، وكان هو الخليفة فى ذلك الوقت ، أن يردها إلى بائعها ، ولكن يزيد لم ينس جمالها وحنانها ؛ فلما ولى الخلافة سألته زوجته هل بقى له شئ فى العالم يرغب فيه ؟ . فأجابها « حبيبة » فبعثت زوجته الوفية من فورها إلى حبيبة ، وأهدتها إليه ، وانزوت هى فى مجاهل الحريم . ويروى أنه بينا هو يلهو مع حبيبة فى يوم من الأيام إذ ألقى أثناء لهوه ببذرة عنب فى فمها ، فاختنقت وماتت بين ذراعيه . وحزن عليها يزيد حزناً مات من أثره بعد أسبوع من وفاتها .

وحكم هشام (٧٢٤ — ٧٤٣) الدولة سبعة عشر عاماً حكماً عادلا سادت فيه السلم ، وأصلح فى خلاله الشئون الإدارية ، وخفض الضرائب ، وترك بيت المال بعد وفاته مليئاً بالأموال . ولكن فضائل القديس قد تكون سبباً فى القضاء على الحاكم : فقد منيت جيوش هشام بعدة هزائم ، وثار نقع الفتنة فى الولايات ، وعم الاستياء العاصمة التى كانت تتوق إلى خليفة مبذر متلاف . وجاء من بعده خلفاء جللوا بالعار تلك الأسرة التى امتاز خلفاؤها الأولون بالقدرة والمهارة ، فعاشوا عيشة الترف والفساد ، وأهملوا شئون الحكم . فكان الوليد الثانى (٧٤٣ — ٧٤٤) فاسد الأخلاق ، خارجاً على قواعد الدين ، منغمساً فى الشهوات البدنية ولما سمع بنبأ وفاة عمه هشام سره النبأ أيما سرور ، وقبض على ابن هشام نفسه ، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفى ، وبدد أموال الخزانة بحكمه الفاسد ، وهباته التى لاحد

لها . ويروى عنه أعداؤه أنه كان يسبح فى بركة من الخمر ، ويشفى منها غلته وهو سابح فيها ، وأنه ضرب القرآن بالنبال(*) (١٤) . وقتل يزيد بن الوليد الأول هذا الخليفة المستهتر الماجن ، وتولى الخلافة ستة أشهر ومات فى عام ٧٤٤ . وخلفه على العرش أخوه إبراهيم ، ولكنه لم يستطع حمايته ، فخلعه أحد قواده الأقوياء هو مروان الثانى ، وحكم ست سنين مليئة بالمآسى ، وكان هو آخر الخلفاء من بنى أمية فى الشرق .

وإذا نظرنا إلى أعمال الخلفاء من بنى أمية من وجهة النظر الدنيوية حكمنا بأن هذه الأعمال قد عادت بالخير على الإسلام . فقد وسعوا حدود البلاد السياسية إلى مدى لم تبلغه قط فيما بعد . وإذا ما استثنينا بعض فترات مشئومة من تاريخهم فإنهم قد حكموا الدولة الجديدة حكماً منظماً حرا . لكن نظام الملكية المطلقة الوراثية أدى إلى ما يؤدى إليه عادة فى جميع البلاد ، فتولى الخلافة فى القرن الثامن خلفاء عاجزون أفقروا بيت المال ، وتركوا شئون الحكم للخصيان ، وفقدوا السيطرة على النزعة الانفرادية العربية ، التى حالت فى أكثر الأوقات بين المسلمين وبين قيام دولة إسلامية موحدة . وقد ظل النزاع بين القبائل لم تنقطع أسبابه وإن استحال نزاعاً بين الأحزاب السياسية ؛ فقد كان بنو هاشم وبنو أمية يكره بعضهم بعضا ، كأن أواشج القربى بينهم قد أضحت أشد وأقرب مما كانت فى أيامهم السابقة . ونفرت بلاد العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليها ؛ وأخذ الفرس يدعون أنهم أرقى من العرب ، وأنهم لذلك لا يطيقون أن تحكمهم بلاد الشام ، وقد كانوا من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يقلون شأناً عن العرب . وساء أبناء النبى أن يروا بلاد المسلمين يتولى شئونها خلفاء من بنى أمية الذين كان منهم أشد

(*) وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا لاقيت ربك يوم حشر   فقل لله مزقنى الوليد

أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، وروعهم فساد أخلاق الخلفاء الأمويين ، ولعلهم قد روعهم كذلك تساهلهم الديني ، وكانوا يدعون الله أن يرسل من قبله من ينقذهم من هذا الحكم المذل .

ولم يكن ينقص هذه القوى المعادية إلا شخصية قوية مبدئة توحد صفوفها وتنطقها بمطالبها . وقيض لها هذا الزعيم فى شخص أبى العباس السفاح حفيد حفيد أحد أعمام النبى ، فتولى قيادتها من مكمن لها فى فلسطين ، ونظم الثورة فى الولايات واستمال إليه الوطنيين الشيعة فى بلاد الفرس فأيدوه أشد التأييد ، حتى إذا كان عام ٧٤٩ نادى بنفسه خليفة فى الكوفة . والتقى جيش مروان الثانى بالثوار يقودهم عبد الله عم أبى العباس على نهر الزاب ، فهزم مروان وجيوشه ، وبعد عام من هزيمته استسلمت دمشق بعد أن ضرب عليها الحصار . ثم قبض بعدئذ على مروان وقتل وحمل رأسه إلى أبى العباس ؛ ولكن الخليفة الجديد لم يكتف بهذا ، وقال :

« لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني »

وسمى أبو العباس بالسفاح أى سفاك الدماء لأنه أمر بأن يطارد أمراء بنى أمية ويقتلوا أينما وجدوا ، ليقضى بذلك على ما عسى أن يقوم به أفراد الأسرة الساقطة من فتن . ونفذ عبد الله ، الذى عين واليا على الشام ، هذا الأمر ، فى يسر وسرعة ، فأعلن عفواً عاما عن الأمويين ، وأكده لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى وليمة . وبينا هم على الطعام إذا أشار إلى جنوده فى مخبئهم ، فخرجوا عليهم ورموا رؤوسهم بالسيوف ، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى ، واستمرت المأدبة . واستبدل بزعماء الأمويين رجال من العباسيين جلسوا فوق جثث أعدائهم ، يشنفون أسماعهم بأنين الموتى . وأخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بنى أمية ، وسيطت هياكلهم العظمية التى كادت أن تكون عارية من اللحم ، وشنقت وحرقت ، وذر رمادها فى الريح(١٥) .

الفصل الثالث

الخلافة العباسية

(٧٥٠ — ١٠٥٨)

١ — هرون الرشيد

وجد أبو العباس السفاح نفسه حاكما لدولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطى ، وتشمل بلاد السند (الشمال الغربى من الهند) ، وبلوخستان وأفغانستان ، والتركستان ، وفارس ، وأرض الجزيرة ، وأرمينية ، والشام ، وفلسطين ، وقبرص ، وكريت ، (إقريطش) ، ومصر ، وشمالى أفريقية . ورفضت أسبانيا المسلمة الخضوع إليه ، وخرجت بلاد السند عن طاعته فى السنة الثانية عشرة من حكمه . ورأى السفاح أن دمشق تكرهه ، وأنه لا يأمن على نفسه فى مدينة الكوفة المشاكسة المضطربة ، فنقل العاصمة إلى الأنبار الواقعة فى شمال الكوفة . وكانت الكثرة الغالبة ممن رفعوه إلى العرش فرساً فى ثقافتهم وأصولهم . وبعد أن ارتوى السفاح من دماء أعدائه اصطبغ بلاطه بشيء من الرقة ودماثة الأخلاق الفارسية ، وجاءت من بعده طائفة من الخلفاء المستنيرين ، استخدموا ثروة الدولة المتزايدة فى مناصرة الفنون والآداب ، والعلوم ، والفلسفة حتى ازدهرت وأثمرت أينع الثمار ؛ وبعد أن مضت مائة عام على بلاد الفرس وهى فى ذلة الخضوع غلبت غالبيها .

ومات السفاح بالجدرى فى عام ٧٥٤ ، وخلفه أبو جعفر أخوه من أبيه ولقب بالمنصور ، وكانت أمه جارية من البربر ، وكانت أمهات جميع خلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلا ثلاثة منهم جوارى . وقد أدى إلى هذا ماجرى عليه الخلفاء

من عادة اتخاذ السرارى وجعل أبنائهم منهن أبناء شرعيين . وبهذه الوسيلة كان عدد أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية يزداد على الدوام بتأثير المصادفة وطابعها الدمقراطى ، ومصائر الحب والحرب . وكان الخليفة الجديد فى سن الأربعين ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، ملتحياً ، أسمر البشرة ، شديداً فى معاملاته . ولم يكن أسيراً لجمال النساء ، أو مدمناً للخمر ، أو مولعاً بالغناء ؛ ولكنه كان يناصر الآداب ، والعلوم ، والفنون ؛ ويمتاز بعظيم قدرته ، وحزمه ، وشدة بطشه . وبفضل هذه الصفات ثبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لماتت بموت السفاح . وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية ، وبنى مدينة فخمة هى مدينة بغداد واتخذها عاصمة للدولة ، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش فى صورتيهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة ؛ وكان يشرف بنفسه على كل إدارة فى دولاب الحكومة ، وعلى جميع أعمال هذه الإدارات ، وأرغم الموظفين المرتشين الفاسدين — ومنهم أخوه نفسه — على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة . وكان يراعى جانب الاقتصاد بل قل الحرص الشديد فى إنفاق الأموال العامة ، حتى نفر منه الأصدقاء ، وأطلق عليه لشحه لقب « أبى الدوانق »[١٦]. وقد أنشأ فى بداية حكمه نظام الوزارة الذى أخذه عن الفرس ، وكان له شأن عظيم فى تاريخ العباسيين : وكان أول من شغل منصب الوزير فى عهده هو خالد ابن برمك . وقد اضطلع بواجب خطير فى حكم الدولة ، وكان له شأن فيما وقع فى أيام الدولة العباسية من أحداث جسام . وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء اللذين جنى ثمارهما هرون الرشيد .

ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام اثنتين وعشرين سنة وكان موته وهو فى طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج . ولم يكن فى وسع ابنه المهدى (٧٧٥ — ٧٨٥) إلا أن يسلك فى حكمه سبيل الخير . وقد شمل عفوه جميع المذنبين إلا أشدهم خطراً على الدولة ، وأنفق الأموال الطائلة فى تجميل المدن

وناصر الموسيقى والآداب ، وأظهر فى حكم البلاد كفاية ممتازة . وكانت بيزنطية قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم التى فتحها العرب فى آسية الصغرى ، فسير عليها المهدى جيشاً بقيادة ابنه هرون لاسترداد هذه البلاد . وأخرج هرون الروم منها وردهم إلى القسطنطينية ، وهدد تلك المدينة نفسها تهديداً اضطر الإمبراطورة إيرينة[*] Irene أن تعقد معه صلحاً تعهدت بمقتضاه أى تؤدى للخليفة جزية سنوية مقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار (٨٣٢,٠٠٠ دولار) (٧٨٤) . ومن ذلك الوقت أطلق المهدى على ابنه اسم هرون الرشيد . وكان قبل ذلك قد اختار ابناً آخر من أبنائه اسمه الهادى ولياً للعهد ، فلما رأى ما امتاز به هرون من كفاية عظيمة طلب إلى الهادى أن ينزل عن حقه لأخيه الأصغر . وكان الهادى وقتئذ يقود جيشاً فى بلاد الشرق فأبى أن يجيب أباه إلى طلبه ، ورفض أن يطيع أمره بالعودة إلى بغداد . فخرج المهدى وهرون للقبض عليه ، ولكن المهدى توفى فى الطريق ، وكان حين وفاته فى الثالثة والأربعين من عمره . ورأى هرون اتباعاً لنصيحة الوزير يحيى بن خالد البرمكى أن يبايع الهادى بالخلافة ، على أن يكون هو ولياً للعهد ، غير أنه إذا كان فى وسع عشرة من الدراويش أن يناموا على بساط واحد فإن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها كما يقول السعدى[١٧] فى كتابه : فلم يعترف الهادى لأخيه بولاية العهد ، وسجن يحيى ، ونادى بابنه ولياً لعهده . ثم مات الهادى بعد زمن قصير (٧٨٦) ، وراجت إشاعة بأن أمه ، وكانت تفضل عليه هرون ، كتمت أنفاسه بوسادة وضعتها على فمه . وارتقى هرون العرش ، واتخذ يحيى وزيراً له ، وبدأ أشهر حكم فى تاريخ الإسلام .

وتصور لنا القصص — وخاصة قصص ألف ليلة وليلة — هرون الرشيد فى صورة الملك المرح ، المثقف ، المستنير ، العنيف فى بعض الأوقات ، الكريم الرحيم فى أغلب الأحيان ، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ

(*) هكذا يسميها المؤرخون العرب . (المترجم)

بها فى ديوان محفوظات الدولة[١٨] . وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون إذا استثنينا منها مرحه ؛ ولعل السبب فى ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين . فهم يصورونه أولا وقبل كل شىء فى صورة الرجل الورع المتمسك ، أشد التمسك بأوامر الدين ، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين ، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين ، وإنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة[١٩] . ويقال إنه كان يشرب الخمر ، ولكن هذا لم يكن إلا سراً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه[٢٠] . ويقال إنه تزوج من سبع نساء[*] وكان له عدد من السرارى رزق منهن بأحد عشر ولداً ، وأربع عشرة بنتاً ، كلهم وكلهن من الجوارى عدا الأمين ابنه من الأميرة زبيدة . وكان كريماً سمحاً فى أمواله على اختلاف أنواعها . من ذلك أنه لما أحب ولده المأمون إحدى فتيات قصر أبيه ، أهداها إليه الخليفة ، ولم يسأله ثمناً لها إلا أن ينظم بعض أبيات من الشعر[٢١] ، لأنه كان يحب الشعر أشد الحب ، ويستمتع به استمتاعاً يحمله فى بعض الأحيان على أن يثقل الشاعر الذى يعجب بشعره بالهدايا من غير حساب . من ذلك أنه أهدى الشاعر مروان على قصيدة مدحه بها خمسة آلاف قطعة من الذهب (٧٥٠ ر ٢٣ دولار)[**] ، وحلة ثمينة ، وعشر جوار من بنات الروم ، وجواداً كريماً[٢٢] . وكان أحب رفاقه إليه الشاعر الماجن أبو نواس . وكان كثيراً ما يغضب على أبى نواس لسفهه وسوء سيرته ، ولكنه كان فى كل مرة يصفح عنه لجودة شعره . وقد جمع حوله فى بغداد عدداً عظيما من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحويين وعلماء البلاغة ، والراقصات والراقصين ، والفنانين ، والفكهين المرحين . وكان ينقد أعمالهم وأقوالهم نقد العالم الخبير صاحب الذوق السليم ، ويجزيهم عليها بسخاء ،

(*) لعل المؤلف يضيف الجوارى إلى الأزواج لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع . (المترجم)

(**) يقصد المؤلف بقطعة الذهب فى هذه الفصول الدينار ويقدره بأربعة دولارات أمريكية وثلاثة أرباع الدولار من نقود هذه الأيام ، حسب القوه الشرائية للدينار فى تلك الأيام . (المترجم)

ويتلقى فى نظير ذلك الاف القصائد فى مديحه والتغنى بجوده . وكان هو نفسه عالماً وشاعراً ، وخطيباً بليغاً . قويا[٢٣] . ولسنا نعلم فى التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوى العقول الراجحة النابهين . وكان يعاصره فى غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة فى القسطنطينية ، والملك شارلمان فى فرنسا ، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung ، ولكن هرون الرشيد بزهم جميعاً فى الثراء ، والسلطان ، وأبهة الملك ، والتقدم الثقافى الذى ازدان به حكمه .

غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك . فقد كان يشترك اشتراكا فعلياً فى تصريف شئون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله فى قضائه ، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٨ دينار — على الرغم من أبهة الملك والهبات التى لم يسبق لها مثيل . وكان يقود جيوشه بنفسه فى ميادين القتال ، وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة . غير أنه كان يعهد بالشئون الإدارية وبالخطط السياسية إلى وزيره الحكيم يحيى . فقد دعا إليه عقب جلوسه على العرش يحيى البرمكى وقال إنه يعهد إليه أمر جميع رعاياه ليحكمهم كما يشاء ، فيعزل من يشاء ، ويولى من يشاء ، ويصرف الأمور كما يرى ، وأيد قوله هذا بأن أعطاه خاتمه[٢٤] . وكان هذا إفراطاً خطيراً فى ثقته بالوزير ، ولكن هرون كان يرى أنه ، وهو لا يزال شاباً فى الثانية والعشرين من عمره . لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة التى آل أمرها إليه ؛ وكان عمله هذا تعبيراً عن شكره لرجل كان أستاذاً ومربياً له يدعوه إذا دعاه بوالده ، وقد ذاق عذاب السجن فى سبيله .

وأثبت يحيى أنه أقدر الحكام فى تاريخ العالم كله . لقد كان رجلا بشوشاً ، دمث الأخلاق ، جواداً حكيما ، مجداً لا يمل من العمل ؛ رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية ، وثبت دعائم النظام ، وأقر الأمن ، ونشر لواء العدالة ، وأنشأ الطرق ، والجسور ، والخانات ، واحتفر قنوات الرى ، فعم

الرخاء جميع ولايات الدولة ، وإن كان قد فرض عليها ضرائب عالية ليملأ بها خزانة الخليفة وخزانته هو ، ذلك أنه هو أيضاً قد حذا حذو سيده فى مناصرة الآداب والفنون . وقد عين ولديه الفضل وجعفر فى منصبين كبيرين من مناصب الدولة ، فسارا فيهما أحسن سيرة ، وأثريا منهما ثراء عظيما ، فأنشآ القصور ، وجمعا حولهما طائفة كبيرة من الشعراء ، والندماء ، والفلاسفة . وكان هرون يحب جعفر حباً أطلق ألسنة السوء فى علاقتهما الشخصية ، ويقال إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين يلبسها هو وجعفر معا فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلهما كانا فى هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية[٢٥] .

ولسنا نعرف بالدقة سبب النكبة المفاجئة التى قضت على سلطان البرامكة . فابن خلدون يقول إن سببها الحقيقى هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير[٢٦] .

ولعل السبب أنه لما جاوز هرون سن الشباب ، ولم يجد فى الجرى وراء الملاذ الجسمية والعقلية متنفساً لكفاياته ومواهبه ، ندم على ما خص به وزيره من قوة وسلطان . وقد حدث أن أمر الخليفة جعفر بأن يقتل أحد الخارجين عليه ، فتغاضى جعفر عن الأمر حتى تمكن الثائر من الهرب ، ولم يغفر هرون له هذا الإهمال المحبب إلى النفوس . وهناك قصة من طراز قصص ألف ليلة وليلة تقول إن العباسة أخت الرشيد ، أحبت جعفر ، وأن الرشيد كان قد أقسم بأن يحتفظ بدماء بنى هاشم الذى يجرى فى عروق أخواته صافية نقية لا يخالطها إلا دماء أشراف العرب ، وجعفر كما نعلم من أبناء الفرس . وأجاز لها الخليفة أن يتزوجا ، على ألا يلتقيا إلا فى حضوره . ولكن الحبيبين سرعان ما نقضا هذا العهد ، وولدت العباسة لجعفر ولدين دون أن يعلم بذلك الرشيد ، فقد أخفيا عنه وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها . وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا

السر ، وأفضت به إلى هرون . فبعث فى طلب مسرور كبير الجلادين وأمره بقتل العباسة ودفنها فى قصره ، وأشرف هو بنفسه على تنفيذ هذا الأمر . ثم أمر مسروراً أن يضرب عنق جعفر ، وأن يأتى إليه برأسه ، ونفذ مسرور أمر مولاه . ثم بعث إلى المدينة من يأتيه بولديه ، وبعد أن تحدث طويلا إلى الطفلين الوسيمين ، وأبدى إعجابه بهما أمر بقتلهما (٨٠٣) . ثم سجن يحيى والفضل ، وسمح لهما بأن يحتفظا بأسرتيهما وخدمهما ، ولكنه لم يطلق سراحهما . ومات يحيى بعد عامين من مقتل ولده ، كما مات الفضل بعد خمسة أعوام من مقتل أخيه ، وصودرت جميع أموال البرامكة ، ويقال إنها بلغت ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (١٤٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) .

ولم تطل حياة هرون بعد نكبة البرامكة . وظل وقتاً ما يخفف من حزنه وندمه بالعمل الكثير ، ويقال إنه كان يرحب بمشاق الحرب نفسها ؛ ولما أن امتنع نقفور الأول إمبراطور بيزنطية عن أداء الجزية التى وعدت إيرينة بأدائها ، وجرؤ على المطالبة برد ما أدته الإمبراطورة منها رد عليه هرون بقوله : « باسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد ، فقد تلقيت رسالتك يابن الكافرة ، وسيكون الجواب ما تراه عيناك لا ما تسمعه أذناك والسلام »[٢٧] . وسار إلى ميدان القتال من فوره ، واتخذ مقامه فى الرقة ذات الموقع الحربى المنيع على حدوده الشمالية ، ونزل إلى الميدان على رأس حملة قوية اخترق بها آسية الصغرى ، وقذفت الرعب فى قلب نقفور فلم يسعه إلا أن يعود إلى أداء الجزية (٨٠٦) . ورأى الرشيد أن يصطنع شارلمان ليرهب به إمبراطور الروم ... فأرسل إليه وفداً مثقلا بالهدايا منها فيل وساعة مائية معقدة التركيب .

ولم يكن هرون وقتئذ قد جاوز الثانية والأربعين من عمره ، ومع هذا فإن ولديه الأمين والمأمون شرعا يتنافسان على الخلافة ويتطلعان إلى موته . وأراد هرون أن يخفف من حدة النزاع فقرر أن يرث المأمون الولايات الواقعة فى شرق

نهر دجلة ، وأن يرث الأمين ما بقى من الدولة ، فإذا مات أحد الاثنين آل ملكه إلى أخيه . ووقع الأخوان هذا العهد وأقسما على الكعبة أن يتقيدا به . ولكن حدث فى ذلك العام نفسه أن شبت فتنة صماء فى خراسان فسار هرون ومعـــه المأمون لتقليم أظافرها ، مع أنه كان يشكو وقتئذ آلاماً شديدة فى معدته . فلما بلغ بلدة طوس فى شرقى إيران عجز عن الوقوف على قدميه . وجىء له وهو يحتضر بباشين أحد زعماء الثورة ، وكان الخليفة قد برح به الألم حتى أفقده عقله فأخذ يؤنب القائد الأسير لأنه اضطره إلى الإقدام على هذه الحملة المهلكة ، وأمر أن تقطع أوصاله وشهد بعينية تنفيذ أمره (٢٩) . وفى اليوم الثانى توفى هرون الرشيد فى سن الخامسة والأربعين (٨٠٩) .

٢ — اضمحلال الدولة العباسية

وواصل المأمون الزحف إلى مرو ، وعقد اتفاقاً مع الثوار ، أما الأمين فعاد إلى بغداد ، ونادى بابنه الطفل الرضيع ولياً للعهد ، وطالب المأمون بثلاث من الولايات الشرقية ، ولما رفض المأمون طلبه أعلن الأمين عليه الحرب . وهزم طاهر قائد المأمون جيش الأمين وحاصر بغداد وكاد أن يدمرها تدميرا ، وبعث برأس الأمين إلى المأمون جريا على تلك العادة التى أضحت سنة متبعة . وكان المأمون وقتئذ فى مرو فأمر بالمناداة به خليفة (٨١٣) ، ولكن بلاد الشام وجزيرة العرب ظلت تقاومه لأنه ابن جارية فارسية ، ولم تتم بيعته خليفة على بلاد المسلمين ويدخل بغداد إلا فى عام ٨١٨ .

ويعد عبد الله المأمون هو والمنصور والرشيد أعظم خلفاء بنى العباس . نعم ، إن المأمون لم ينج من الخلتين اللتين شانتا أخلاق هرون الرشيد ، فكان فى بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادئ الطباع ، جمع فى مجلس الدولة ممثلين لجميع الأديان الكبرى فى البلاد كلها

— من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، وصابئين ، وزردشتيين — وضمن لجميع رعاياه حتى أواخر أيامه حرية الدين والعبادة . وظلت حرية التفكير وقتا ما هي السنة المألوفة في بلاط الخليفة . ويصف المسعودي مجلساً من المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون في آخر النهار فيقول :

«كان المأمون يجلس كل يوم للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم . ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون»[٣٠] .

وكان تشجيع المأمون للفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة أكثر تنوعاً ودقة منها في عهد هرون ، وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان له في عهد أبيه . فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية ، والإسكندرية ، وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية ؛ وأنشأ مجمعاً علمياً في بغداد ومرصدين فيها وفي تدمر . وكان الأطباء ، والفقهاء ، والموسيقيون ، والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه ، وكان هو نفسه يقرض الشعر ، كما كان يقرضه أحد أباطرة اليابان في القرن التاسع عشر ، وكما كان يقرضه كل مسلم شريف مهذب في ذلك الوقت .

ومات المأمون في سن مبكرة — في الثامنة والأربعين من عمره (٨٣٣) — وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه . ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأي في الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعته إلى اضطهاد

أصحاب السنة : وكان أخوه أبو إسحق المعتصم ، الذى تولى الخلافة من بعده ، مثله وإن لم يكن مثله فى عبقريته . وقد أحاط هذا الخليفة نفسه بحرس خاص مؤلف من ٤٠٠٠ من الجنود الترك ، شبيه بالحرس البريتورى الذى أحاط به الأباطرة الرومان أنفسهم ، وأصبح هذا الحرس على مر الأيام فى بغداد ، كما أصبح الحرس البريتورى فى رومة ، صاحب الأمر والنهى فى أمور الدولة . وشكا سكان العاصمة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون . وخشى المعتصم أن يثور عليه سكان المدينة فغادر بغداد وبنى لنفسه قصرا فى سرمن رأى على بعد ثلاثين ميلا إلى شمال العاصمة . واتخذ ثمانية من الخلفاء(*) هذه الضاحية مسكنا لهم ما بين عامى ٨٣٦ ، ٨٩٢ ، ودفنوا فيها بعد موتهم ، وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلا على ضفتى نهر دجلة قصوراً فخمة ، ومساجد ، وحذا حذوهم كبار موظفى الدولة ، فشيدوا البيوت الفخمة ، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة ، وأنشأوا فيها الفساقى والحدائق والحمامات. وأراد المتوكل أن يبرهن على صلاحه فأنفق ٧٠٠٠٠٠ دينار (٣٢٥ر٣٠٠٠ دولار) على تشييد مسجد جامع وأنفق مايقرب من هذا المبلغ فى تشييد ضاحية جديدة له تعرف بالجعفرية(**) أقام بها قصراً يعرف «بقصر اللؤلؤة» وأحاطها كلها بالبساتين والجداول. وقد جمع مايحتاجه من المال لهذه المبانى وما يتصل بها بأن زاد الضرائب ، وباع وظائف الدولة لمن

(*) المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) ، والواثق (٨٤٢ — ٨٤٧) ، والمتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) ، والمنتصر (٨٦١ — ٨٦٢) ، والمستعين (٨٦٢ — ٨٦٦) ، والمعتز (٨٦٦ — ٨٦٩) ، والمهتدى (٨٦٩ — ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢) ، وقد عاد المعتمد قبيل وفاته إلى بغداد .

(**) يقول الطبرى إن اسم الضاحية هو الجعفرى : « أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى (جزء ١١ فى أخبار سنة ٢٤٥) . (المترجم)

يؤدى أكبر ثمن لها ؛ وأراد أن يستميل أهل السنة باضطهاد الخارجين عليها ، وحرض ابنه حرسه التركى على قتله ، وتولى الخلافة بعده وتسمى بالمنتصر بالله ؛

وأفسدت العوامل الداخلية أحوال الخلافة قبل أن تقضى عليها القوى الخارجية : فقد أنهك قوى الخلفاء إدمانهم الشراب ، وانهماكهم فى الشهوات ، واللهو ، والترف ، والبطالة ، فجلس على سرير الملك طائفة من الخلفاء الضعاف فروا من مهام الحكم إلى ملذات الحريم المضعفة للجسم والعقل . وكان لازدياد الثروة ، واستمهاد الراحة ، وانتشار التسرى وتفشى اللواط ، كان لهذه الرذائل من الأثر فى طبقة الحكام ما كان لها فى الخلفاء ، وتعدى ذلك إلى الشعب نفسه ، فضعفت صفاته الحربية . ولم يكن من طبيعة هذا الضعف وعدم النظام أن يخلق اليد القوية التى كانت البلاد فى أشد الحاجة إليها لتجمع شتات هذا الخليط المتفرق المتباين من الولايات والقبائل . وكثيراً ما أسفرت العداوة العنصرية والإقليمية عن ثورات . فلم يكن العرب ، والفرس ، والسوريون ، والبربر ، والمسيحيون ، واليهود ، والأتراك ، لم يكن هؤلاء جميعا يجتمعون إلا على احتقار بعضهم بعضا ، وزاد الطين بلة أن الدين الذى كان من قبل يجمع شملهم ويوحد صفوفهم قد تفرق شيعاً ، وزادت حدة الانقسامات السياسية والجغرافية ، وكانت هى المعبرة عن هذه الانقسامات . وكان لإهمال وسائل الرى أثر كبير فى ضعف الدولة وفساد أحوالها . ذلك أن نظام الرى هو مصدر حياة بلاد الشرق الأدنى وهلاكه معاً : فالقنوات التى تمد الأرض بالماء تحتاج على الدوام إلى كثير من الحراسة والتطهير يعجز عنها الأفراد والأسر . فلما عجزت الحكومة عن تعهد هذه القنوات أو أهملتها ، قلت موارد الطعام عن مجاراة نسبة ازدياد السكان ، وكان لابد من أن يهلك الناس من الجوع حتى لا يختل التوازن بين هذين العاملين الأساسيين اللذين لهما شأن عظيم فى تاريخ العالم . غير أن ماحل بالأهلين من فقر بسبب القحط والوباء لم يكن فى معظم الأوقات ليغل أيدى جباة الضرائب أو يخفف من قسوتهم . فكان

الفلاحون ، والصناع ، والتجار يرون مكاسبهم تذهب كلها للوفاء بنفقات الحكومة وأبهة الحكام ، فانعدم الحافز للعمل والإنتاج ، والتوسع فيهما ، والمغامرة والإقدام . وانتهى الأمر بأن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجة الحكومة ؛ وقلت الإيرادات ، ولم يعد فى وسع الحكام أن يؤدوا أجور الجند بانتظام ، أو أن يسيطروا عليهم . ويضاف إلى هذا أن الترك قد حلوا محل العرب فى القوات المسلحة ، كما حل الألمان محل الرومان فى جيوش رومة ، وكان رؤساء الجند الأتراك من عهد المعتصم إلى آخر أيام الدولة العباسية هم الذين يرفعون الخلفاء إلى العرش ويسقطونهم ، ويأمرونهم ، ويغتالونهم . وأصبحت قصور الخلفاء فى بغداد مباءة للدسائس الدنيئة ، والاغتيالات وسفك الدماء ، مما جعل الخلافة العباسية فى آخر أيامها غير خليقة بأن يبقى التاريخ على ذكراها .

وكان ضعف النشاط السياسى والقوة الحربية فى عاصمة الدولة سبباً فى تمزيق شملها وتقطع أوصالها . فأصبح الولاة يحكمون ولاياتهم دون أن يكون للخلفاء فى العاصمة سلطان عليهم اللهم إلا سلطانا اسمياً غير ذى بال ؛ وأخذوا يعملون ليحتفظوا لأنفسهم بمناصبهم طول حياتهم ، ثم لم يكتفوا بهذا بل عملوا على أن يرثها من بعدهم أبناؤهم . وكانت بلاد الأندلس قد أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية فى عام ٧٥٦ ، وحذت حذوها مراكش فى عام ٧٨٨ ، وتونس فى ٨٠١ ومصر فى ٨٦٨ . وبعد تسع سنين من ذلك العام الأخير استولى أمراء مصر على الشام ، وحكموا الجزء الأكبر منها حتى عام ١٠٧٦ . وكان المأمون قد كافأ قائده طاهر بأن عينه حاكما على خراسان وجعل ولايتها وراثية فى أبنائه من بعده . وحكمت هذه الأسرة الطاهرية بلاد الفرس حكماً شبه استقلالى حتى حلت محلها أسرة الصفاريين (٨٧٢ — ٩٠٣) ، وفيما بين عامى ٩٢٩ ، ٩٤٤ استولت أسرة من الشيعة هى أسرة بنى حمدان على شمالى الجزيرة والشام ، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية فى

العالم الإسلامى . وكان سيف الدولة الحمدانى (٩٤٤ — ٩٦٧) شاعراً بليغاً ، اجتمع فى بلاطه بجانب الفيلسوف الفارابى ، والشاعر العظيم المتنبى أحب الشعراء الأقدمين إلى قلوب الأدباء العرب . واستولى بنو بويه أبناء أحد زعماء البلاد الجبلية المجاورة لبحر الخزر على أصفهان وشيراز ، ثم استولوا آخر الأمر على بغداد نفسها فى عام ٩٤٥ . وظل الخلفاء أكثر من مائة عام يأتمرون بأمرهم حتى لم يكن أمير المؤمنين أكثر من رئيس لأهل السنة من المسلمين ، بينما كان الأمير البويهى الشيعي هو المسيطر على شئون الدولة الآخذة رقعتها فى النقصان . ونقل عضد الدولة أعظم أمراء بنى بويه (٩٤٩ — ٩٨٣) عاصمته إلى شيراز وهى مدينة من أجمل مدن الإسلام ، ولكنه كان ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته ، واستعادت بغداد فى أيامه وأيام من خلفوه من الأمراء بعض ما كان لها من المجد فى أيام هرون الرشيد .

وفى عام ٨٧٤ أقام أبناء سامان ، وهو شريف من أتباع زرادشت ، أسرة سامانية حكمت خراسان وما وراء نهر جيحون حتى عام ٩٩٩ . وفى عهد هذه الأسرة كانت بخارى وسمرقند مركزين للعلوم والفنون تنافسان فيهما بغداد نفسها ، وإن لم يكن من عادتنا إذا ذكرنا هذا الإقليم أن نعده ذا شأن عظيم فى تاريخ العلم والفلسفة . وعادت اللغة الفارسية فيه إلى الحياة وأصبحت أداة للتعبير عن أدب راق عظيم . وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها ، وفتحوا له أبواب مكتبة بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات ؛ وأهدى الرازى أعظم أطباء العصور الوسطى إلى أحد الأمراء السامانيين كتابه **المنصورى** وهو كتاب جامع ضخم فى الطب . ثم استولى الأتراك فى عام ٩٩٠ على مدينة بخارى وقضوا فى عام ٩٩٩ على الأسرة السامانية . فقد كان المسلمون فى ذلك الوقت يحاربون ليقفوا زحف الأتراك نحو الغرب ، كما ظل الرومان ثلاثة قرون يحاربون ليصدوا زحف العرب ، وكما كافح الترك فيما بعد

ليقفوا تيار المغول الجارف . ذلك أن ما ينشأ من تكاثر السكان من ضغط شديد على وسائل العيش يؤدى من حين إلى حين إلى هجرات ضخمة تطغى أهميتها على غيرها من حوادث التاريخ .

وفى عام ٩٦٢ غزا جماعة من المغامرين الأتراك القادمين من التركستان بلاد الأفغان . وكان يقودهم عبد محرر يدعى البتجين ، واستولوا على غزنة وأقام فيها أسرة غزنوية . وخلف البتجين سبكتكين (٩٧٦ — ٩٩٧) ، وكان أولا مولى من مواليه ، ثم زوج ابنته . وقد مد حدود ملكه حتى شمل بيشاور وبعض خراسان ، ثم استولى ابنه محمود (٩٩٨ — ١٠٣٠) على جميع بلاد الفرس من الخليج الفارسى إلى نهر جيحون ، وبعد سبع عشرة معركة حامية امتازت بضروب من القسوة أضاف البنجاب إلى ملكه ، كما أضاف كثيراً من أموال الهند إلى خزائنه . ولما أتخمه النهب ، وضاق ذرعا بالتعطل الناشئ من تسريح جنوده ، أخذ ينفق بعض ماله ، ويستخدم بعض رجاله ، فى تشييد مسجد غزنه وهو المسجد الكبير الذى يقول فيه أحد المؤرخين المسلمين : (العتبى — أبو النصر محمد فى كتاب اليمينى أو الرسالة اليمينية) :

« وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف(*) متى شهدوا الفرض أخذوا أماكنهم فيها صفوفاً وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا ، وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السماء على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين . . ينتابها فقهاء دار الملك وعلماء للتدريس والنظر فى علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة ، فمنهم من يمهم جراية وافرة ، ومعيشة حاضرة . وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضى إليه فى أمن من ابتذال العيون اللوامح واعتراض الرجال

(*) فى الأصل الإنجليزى ستة آلاف . والنص الوارد هنا منقول من تاريخ اليمينى — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . (المترجم)

من بين صالح وطالح فيركب إليه على وقور سكينة وشمول طمأنينة[٣١] » .
واستقدم محمود إلى هذه المدرسة وإلى بلاطه كثيراً من العلماء منهم البيرونى ، وكثيراً من الشعراء ومنهم الفردوسى صاحب الشاهنامة أعظم قصيدة فى الأدب الفارسى ؛ وقد أهداها إليه على كره منه . وكان محمود فى ذلك الوقت أعظم رجال العالم كله من نواح عدة ، ولكن مملكته انتقلت بعد سبع سنين من وفاته إلى أيدى الأتراك السلاجقة .

ونحن نخطىء إذا صورنا الترك فى صورة أقوام همج ، فمن حقهم علينا أن نقول إنهم حين أغاروا عل بلاد الإسلام كانوا قد أخذوا ينتقلون من طور الهمجية إلى طور الحضارة ، شأنهم فى هذا شأن الفيالق الألمانية التى غزت بلاد الإمبراطورية الرومانية . لقد أخذ الأتراك الساكنون فى شمالى آسية الوسطى يتحركون نحو الغرب من إقليم بحيرة بيكال ، وكانوا قد نظموا أنفسهم فى القرن السادس الميلادى جماعات يتزعم كلا منها خان أو شاغان . وكانوا يصهرون الحديد الذى يستخرجونه من جبالهم ، ويصنعون منه أسلحة صلبة كصلابة قوانينهم التى لم تكن تكتفى بجعل الإعدام جزاء الخيانة والقتل ، بل كانت تجعله أيضا عقاباً على الزنى والجبن . وكان خصب نسائهم يفوق قتلى حروبهم ؛ ولم يحل عام ١٠٠٠ م حتى كان فرع من أولئك الأتراك يسمون السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق قد سيطروا على ما وراء نهر جيحون وعلى بلاد التركستان . وظن محمود الغزنوى أن فى مقدوره أن يقف زحف هذه القوة التركية المنافسة له ، فقبض على أحد أبناء سلجوق وسجنه فى الهند (١٠٩٢) . ولكن هذا العمل لم يفت فى عضد السلاجقة بل أثار ثائرتهم فزحفوا بقيادة زعيمهم طغرل بك الحنك الشديد البأس واستولوا على معظم بلاد الفرس ، ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم فى المستقبل ، فأرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم بأمر الله فى بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام ؛ وكان الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بنى بويه ، فأرسل

إلى طغرل بك يدعوه لمعونته . ولبى طغرل الدعوة فأقبل فى عام ١٠٥٥ ، وفر بنو بويه من بغداد . وتزوج القائم بابنة أخى طغرل وخلع عليه لقب « ملك الشرق والغرب » (١٠٨٥) . وأخذت الأسر الصغيرة فى غربى آسية الإسلامى تسقط أسرة بعد أسرة أمام السلاجقة وتعترف بسيادة بغداد عليها . ولقب الحكام السلاجقة أنفسهم بلقب سلطان ولم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية ، ولكنهم بعثوا فى الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم ، كما بعثوا فى الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم . ولم يفعل السلاجقة ببلاد الإسلام ما فعله المغول بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، فهم لم يخربوا البلاد التى فتحوها ، ولم يمض عليهم إلا قليل من الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التى أقبلوا عليها ، وألفوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المحتضرة إمبراطورية جديدة ، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت به أن تصمد لذلك النزاع الطويل بين المسيحية والإسلام ، الذى نطلق عليه اسم الحروب الصليبية ، وتخرج منه ظافرة منتصرة .

الفصل الرابع

أرمينيــة

(٣٢٥ — ١٠٦٠)

امتدت فتوح الأتراك السلاجقة إلى أرمينية فى عام ١٠٦٠ م

لقد ظلت هذه البلاد البائسة قروناً طوالا مطمعاً للإمبراطوريات الكبيرة المتنافسة التى أنشبت فيها مخالبها ، لأن جبالها حالت بينها وبين اتحادها للدفاع عن نفسها ، بينا كانت وديانها طرقاً ميسرة بين بلاد النهرين والبحر الأسود . واقتتلت بلاد الفرس واليونان لامتلاك هذه الطرق للانتفاع بها فى التجارة والحرب ، واجتازتها جنود أكسانوفون العشرة الآلاف ، واحتربت من أجلها رومة وفارس وبيزنطية والإسلام ، والروسيا وبريطانيا . ولكن أرمينية ظلت مستقلة من الوجهة الفعلية رغم ما حاق بها من الضغط الخارجى أو السيطرة الخارجية محتفظة بما لها من نشاط اقتصادى قوى فى التجارة والزراعة ، ومن استقلال ثقافى أثمر فيها دينها الخاص وآدابها وفنونها : وكانت هى أولى الأمم التى جعلت المسيحية دين الدولة الرسمى (٣٠٣) . وانحازت إلى جانب اليعاقبة فى الجدل الذى قام حول طبيعة المسيح ، وأبت أن تعترف بأنه يجوز عليه من أسباب الضعف ما يجوز على الجسم البشرى . وانفصل الأساقفة الأرمن فى عام ٤٩١ عن الكنيستين اليونانية والرومانية وأنشأوا لهم كنيسة أرمنية مستقلة لها رئيسها الخاص . وظلت الآداب الأرمنية تكتب باللغة اليونانية إلى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد حين اخترع الأسقف مسروب حروفاً هجائية خاصة بها وترجم التوراة إلى اللغة الأرمنية ، وأصبح للبلاد من ذلك الحين أدب أرمنى غزير معظمه أدب دينى وتاريخى .

وظت تلك البلاد خاضعة بالاسم إلى سلطان الخلفاء من عام ٦٤٢ م إلى عام ١٠٤٦ م ، ولكنها كانت طوال هذه المدة صاحبة السياة على نفسها مستمسكة بمسيحيتها . وأقامت أسرة البجرتونى Bagrtuni فى القرن التاسع الميلادى أسرة حاكمة اتخذ رئيسها لقب « أمير الأمراء » ، وأنشأت لها عاصمة فى آنى Ani ، وظلت البلاد فى عهدها أجيالا عدة تنعم بالتقدم والسلام النسبى . وكان أشوت Ashot الثالث (٩٥٢ — ٩٧٧) أميراً محبوباً ، شاد كثيراً من الكنائس ، والمستشفيات والأديرة ، والملاجئ ، ولم يكن يجلس للطعام (كما يقول الرواة) إلا إذا كان الفقراء معه على مائدته . وبلغ رخاء البلاد غايته فى عهد ابنه جاجيك Gagik الأول (وما أغرب ما تبدو أسماؤنا نحن للأرمن) ؛ فقد كثرت فيها المدارس ، وأثرت المدن بفضل انتشار التجارة ، وازدانت بأعمال الفن ، وأصبحت قارص مركزاً للأدب وعلوم الدين والفلسفة تنافس فيها آنى . وكان فى هذه المدينة الثانية قصور فخمة ، وكنيسة كبرى (حوالى عام ٩٨٠) ، جمعت بين الطرازين الفارسى والبيزنطى ؛ فكان فيها مجاميع من العمد والأكتاف ، والعقود المستديرة والمستدقة فى أعاليها ، إلى غير هذه من الخصائص التى دخلت فيما بعد فى الفن القوطى . ولما أن دمر زلزال قبة أياصوفيا بالقسطنطينية فى عام ٩٨٩ عهد إمبراطور بيزنطية إلى تاردات Tardat مهندس كنيسة آنى أن أعيد بناؤها ، وكان ذلك واجباً من أشق الواجبات وأعظمها خطورة[٣٢]

الباب الحادى عشر

أحوال البلاد الإسلامية

(٦٣٨ – ١٠٥٨)

الفصل الأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل – ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته . فمن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور ، والهياكل ، والمدارس ، والآداب ، والترف ، والفنون ، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين فى الحضارة ، الإنسان الصياد يأتى بالصيد من الغاب ؛ والحطاب يقطع الأشجار منها ؛ والراعى يرعى قطعانه ويربيها ؛ والفلاح يمهد الأرض ، ويحرثها ، ويزرعها ، ويحصد غلاتها ، ويعنى بالحدائق ، والكروم ، ويربى النحل ، والدواجن والطيور ؛ والمرأة تنهمك فى مئات الصنائع اليدوية والأعمال المنزلية ؛ والعامل ينقب عن المعادن فى باطن الأرض ، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن ؛ والصانع ينتج السلع والأدوات ، والبائع الجائل ، أو صاحب الحانوت ، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما ، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة ؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية ، والمواد الأولية ، والعقل لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع . أولئك هم العمال الصابرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المتمايلة المتأرجحة حضارة العالم المزعزعة .

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين في بلاد الإسلام . فكان الرجال يربون الماشية ، والخيل ، والإبل ، والمعز ، والفيلة ، والكلاب ؛ ويسطون على عسل النحل ، ولبن الإبل ، والمعز ، والبقر ؛ وينتجون مائة نوع من الحبوب ، والخضر والفاكهة ، والنقل ، والأزهار . لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند فى وقت ما خلال القرن العاشر الميلادى ، وأدخلوها فى بلاد الشام ، وآسية الصغرى ، وفلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية[1] . كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروها فى جميع أنحاء الشرق الأدنى ، ومن تلك البلاد نقلهما الصليبيون إلى أوطانهم[2] ؛ وكان العرب أول من زرع القطن فى أوروبا[3] ، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جدب قاحل بفضل وسائل الرى المنظم ؛ ولم يجر الخلفاء فى الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية للمشروعات الحرة ، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الرى الرئيسية وتتعهدها بالصيانة والتطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمين عند بغداد . وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المخربة والضياع التى هجرها سكانها . وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يعد فى أثناء القرن العاشر « إحدى الجنات الأرضية الأربع » — وكانت الثلاث الأخرى هى جنوبى فارس ، وجنوبى العراق ، والإقليم المحيط بدمشق فى بلاد الشام .

وكان الذهب والفضة ، والحديد ، والرصاص ، والزئبق ، والإثمد ، والكبريت ، وحجر الفتيلة (الأسبستوس) ، والرخام ، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض ، وكان الغواصون يستخرجون اللؤلؤ من الخليج الفارسى ؛ واستخدم

العرب النفط والقار فى بعض أعمالهم ، فقد وجد بين محفوظات هرون الرشيد ورقة سجل فيها ثمن النفط والعشب اللذين استخدما فى حرق جثة جعفر[٤] . وكانت الصناعة لا تزال فى مرحلة العمل اليدوى ، يقوم بها الأهلون فى البيوت والحوانيت ، وينتظمون فى طوائف . وقل أن تعثر فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث ، ولا نجد دليلا واضحاً على ارتقاء الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحين الهوائية . فالمسعودى أحد مورخى القرن العاشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين فى فارس وبلاد الشرق الأدنى ، مع أننا لا نجد أثراً لها فى أوروبا قبل القرن الثانى عشر ، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامى إلى أعدائه الصليبيين[٥] . وكان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية ، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التى أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش . وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باباً يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ، ثم ينسحبون ويغلقون الباب[٦] . وكان الإنتاج بطيئاً ، ولكن الصانع كان فى وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف ، وأدوات كاملة الصنع ، وكاد يجعل من كل صناعة فنا . واشتهرت المنسوجات الفارسية ، والشامية ، والمصرية بجمالها الفنى الرائع الذى كان يتطلب من الصناع مهارة وصبراً ؛ فاشتهرت الموصل بنسيج القطن الرفيع « الموصلين » ، ودمشق بنسيج التيل « الدمقس » ، وعدن بالصوف . واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المسقى ؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذى لا يدانيه زجاج فى رقته وصفائه ، وبغداد بزجاجها وخزفها ، والرى بخزفها ، وإبرها ، وأمشاطها ؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون ، وفارس بالروائح العطرية والطنافس . وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعى والتجارى لم تصل إليها بلاد أوروبا الغربية قبل القرن السادس عشر[٧] .

وكانت أهم وسائل النقل البرى هى ظهور الإبل ، والخيل والبغال والرجال ، لكن الحصان كان بوجه عام أثمن من أن يستخدم فى حمل الأثقال ، وفيه يقول أعرابى « لا تسمه حصانى ، بل سمه ولدى ؛ فهو فى عدوه أسرع من الريح ومن طرفة العين . . . وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها »[٨] . ومن أجل هذا كان الجمل « سفينة الصحراء » يحمل معظم تجارة العرب ، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إلى ٤,٧٠٠ جمل تخترق بلاد العالم الإسلامى . وكانت طرق كبرى تتشعع من بغداد وتمر بالرى ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين ؛ أو إلى البصرة فشيراز ؛ أو إلى الكوفة فالمدينة ، ومكة وعدن ؛ أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق . وأنشئت النزل ، والخانات ، والمضايف ، وصهاريج الماء فى الطرق ليستقى منها المسافرون والدواب . وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل فى الأنهار والقنوات . وقد فكر هرون الرشيد فى حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ، ولكن يحيى البرمكى لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية[٦] . وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد ، حيث يبلغ عرضه ٧٥٠ قدماً ، ثلاثة جسور محملة على قوارب .

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين ، وكان من المزايا الاقتصادية التى يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذى كان فيما مضى مقسما بين أربع دول ؛ فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت فى داخلها جميع العوائد الجمركية وغيرها من العوائق التجارية ، هذا إلى أن العرب لم يكونوا كأشراف الأوربيين يسخرون من التجار ويزدرونهم ، ولهذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين واليهود والفرس فى نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما ، فغصت المدائن والبلدان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون

الجائلون ينادون على سلعهم أمام النوافذ الشبكية ، والحوانيت تعرض بضائعها ، أو تتردد فيها أصداء المساومات ، والموالد والأسواق تغص بالمتاجر والتجار ، والبائعين ، والمشترين ، والشعراء ؛ والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر ؛ وكانت الثغور أمثال بغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة ، والإسكندرية ، تبعث بالتجار يجوبون البحار . وظلت التجارة الإسلامية هى المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية ، تنتقل من الشام ومصر فى أحد الطرفين إلى تونس ، وصقلية ، ومراكش وأسبانيا فى الطرف الآخر ، وتمر فى طريقها ببلاد اليونان ، وإيطاليا ، وغالة . وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة ، وتجاوزت بحر الخزر إلى منغوليا ، وصعدت فى نهر الفلجا Volga من أستراخان إلى نوفجرود ؛ وفنلندة ، واسكنديناوة ، وألمانيا حيث تركت آلافاً من قطع النقود الإسلامية . ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفائنهم من الخليج الفارسى إلى الهند وسرنديب ، ثم اجتازت المضيق الذى يفصل بينهما ، وسارت بإزاء الساحل الصينى إلى خنفو (كنتون) ، واستقرت فى هذا الثغر جالية إسلامية ويهودية فى القرن الثامن الميلادى[١٠] ؛ ووصل هذا النشاط التجارى الذى بعث الحياة قوية فى جميع أنحاء البلاد إلى غايته فى القرن العاشر أى فى الوقت الذى تدهورت فيه أحوال أوربا إلى الدرك الأسفل ؛ ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبقت آثارها واضحة فى كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فيها ألفاظاً مثل bazaar, cravan, magazine, tariff [*]

وكانت الدولة تترك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حد كبير . وكان الخلفاء الأولون يستخدمون النقود البيزنطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك فى عام ٦٩٥ عملة عربية من الذهب

(*) اللفظان الأولان من أصل عربى وهما التعريفة والمخزن ، الثالث والرابع من أصل فارسى . (المترجم)

هى الدينار وأخرى من الفضة هى الدرهم . ويصف ابن حوقل (حوالى ٩٧٥م) صكا كان تعهداً بالدفع قيمته ٤٢,٠٠٠ دينار مصدراً إلى تاجر فى مراكش ، وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check ؛ وكان ذوو المال يستثمرون أموالهم فى الأسفار البحرية والبرية ، ومع أن الربا محرم فى الإسلام فإن المشتغلين بالشئون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها فى هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوربيون فيما بعد .

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشرا رغم هذا التحريم ؛ ولم يكد يمضى على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا فى ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء[١١] ؛ ويقال إن يحيى البرمكى عرض سبعة آلاف ألف درهم (٥٦٠,٠٠٠ دولار أمريكى) ثمناً لصندوق للآلئ مصنوع من الحجارة الكريمة ، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن ؛ وإن الخليفة المكتفى ، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التى يوردها مؤرخو العرب ، ترك حين وفاته ما قيمته ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار(*) (٩٤,٥٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى) من الجواهر والعطور[١٢] . ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بدرة من اللؤلؤ ، ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحتوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق فى عبد.

(*) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الرومانى ديناريوس ، وكان يحتوى على ٥٦ جراماً من الذهب . أو ١٣٥ و من الأوقية : أو ما قيمته ٤,٧٢٥ دولار حسب قيمة الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ . وسنقدره نحن فى هذا الباب تقديراً تقريباً بـ ٤,٧٥ دولارات . أما كلمة درهم فهى مشتقة من كلمة درخمة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة وتبلغ قيمتها نحو $\frac{8}{100}$ من الدولار الأمريكى . ولما كان مقدار ما فى الدرهم من الفضة قد تغير كثيراً فإن تقديرنا لقيمته تقريبى بطبيعة الحال .

أو جواد ، أو ضيعة ، أو هدية أخرى[١٣] . ولما أن صادر المقتدر ١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار من ثروة ابن الجصاس ، بقيت لهذا الصائغ الشهير بعد ذلك ثروة طائلة . وكانت ثروة بعض التجار ذوى الصلة بالأقطار النائية وراء البحار لا تقل عن ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، وكان مئات من التجار يملكون بيوتاً تتراوح نفقاتها بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم (١٤٢ر٥٠٠ دولار)[١٤] .

وكان مركز العبيد فى الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادى . ولربما كان عددهم فى الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر منه فى المسيحية حيث كان أرقاء الأرض يحاون محل العبيد . ويقول الرواة إن بيت الخليفة المقتدر كان يضم ١١ر٠٠٠ من الخصيان ، وإن موسى بن نصير قبض فى إفريقية على ٣٠٠ر٠٠٠ أسير ، وفى أسبانيا على ٣٠ر٠٠٠ « عذراء » وباع الجميع فى أسواق الرقيق ؛ وإن قتيبة قبض فى سجديانا على ١٠٠ر٠٠٠ أسير . وخليق بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً كما هى عادة المؤرخين العرب ، وإلى أن من واجبنا ألا نأخذها كما هى وقد عمل الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء ، فقصر الاسترقاق المشروع على من يؤسرون فى الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم . أما المسلم فلا يجوز أن يسترق (كما لم يكن يجوز فى الدين المسيحى أن يسترق المسيحى) . ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من يقبض عليهم فى الغارات — كالزنوج من بلاد الشرق ، ومن أواسط أفريقية ؛ والأتراك أو الصينيين من التركستان ، والبيض من الروسيا وإيطاليا ، وأسبانيا . وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده ، ولكنه كان فى العادة يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل فى المصانع الأوروبية فى القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع ، لأنه كان آمن على حياته منه[١٥] ، وكان الأرقاء يقومون بمعظم

الأعمال الدنيا فى المزارع ، وبأكثر الأعمال اليدوية التى لا تحتاج إلى مهارة فى المدن . وكانوا يعملون خدماً فى البيوت ، وكان من رجالهم خصيان ومن النساء جوار فى الحريم . وكانت كثرة الراقصات ، والمغنيات والممثلات من الجوارى . وكان ابن الجارية من سيدها ، وابن المرأة الحرة من عبدها ، حراً من ساعة مولده . وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناؤهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة . وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجوارى الذين كان لهم شأن عظيم فى الحياة العقلية والسياسية فى العالم الإسلامى ، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوى والمماليك فى مصر .

ولم يبلغ استغلال العمال فى بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه فى البلاد الوثنية أو المسيحية ، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار ، ولا يكسب إلا ما يكفى لابتياع خرقة تستر حقويه ، أو إقامة كوخ يعيش فيه ، أو الحصول على طعام لا يكاد يقيم أوده . وكان المتسولون كثيرين فى البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن ، ولا يزال الكثيرون منهم مخادعين مدعين ، ولكن الأسيوى الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته فى العمل البطىء ، وقل أن يوجد فى الناس من يضارعه فى تكييف نفسه لظروف التعطل عن العمل . وكانت الصدقات كثيرة متعددة ، وكان فى وسع الفقير إذا ضاقت به السبل أن ينام فى أحسن بناء فى المدينة — وهو مسجدها ، ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم تخمد جمرتها قط ، وكان لهيبها يندلع من آن إلى آن فى البلاد الإسلامية (٧٧٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٨ ، ٨٣٨) فى ثورات عنيفة . وكانت هذه الثورات تستتر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا فى البلاد الإسلامية شيئاً واحداً . وكان منهم شيع كالخرمية والمحيدة تعتنق آراء مزدك الفارسى الشيوعية ؛ ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أى « العلم الأحمر »[١٦] ؛ وقام فى عام ٧٧٢ رجل فى خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل فى جسمه ، وإنه بعث

ليعيد شيوعية مزدك . واجتمعت حوله عدة طوائف ، وهزم كثيراً من الجيوش التى أرسلت للقبض عليه ، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس ، ثم قبض عليه أخيراً (٧٨٦) وأعدم . وأثار بابك الخرانى الفتنة نفسها فى عام ٨٣٨ وجمع حوله طائفة سميت المحمرة ، واستولى بها على آزربيجان ، وظلت فى قبضته اثنتين وعشرين سنة ، وهزم عدة جيوش ، وقتل (على حد قول الطبرى) ٢٢٥,٥٠٠ جندى وأسير قبل أن يهزم ؛ وأمر الخليفة المعتصم جلاد بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً ، ثم خزق أمام قصر الخليفة ، وحملوا رأسه إلى خراسان وطافوا به فى مدنها[١٩] ، ليذكر كل من يراه أن الناس كلهم يولدون غير أحرار وغير أكفاء ...

وكانت أهم « حروب الأرقاء » فى الشرق هى التى أثار عجاجها رجل عربى اسمه على(*) ادعى أنه من نسل على بن أبى طالب زوج فاطمة بنت النبى . وتفصيل ذلك أن عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعملون فى كسح السباخ بالقرب من البصرة ، فأخذ على هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة ، ويحرضهم على أن يثوروا معه على ساداتهم ، ويعدهم بالتحرر من الرق وبالثروة — وأن يكونوا هم مالكين للعبيد . وأثرت فيهم دعوته ، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد ، وهزموا الجيوش التى سيرت لقتالهم ، وأنشأوا لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعمائهم ، وسجون لأسراهم ، ومساجد لصلواتهم (٨٦٩) . وعرض أصحاب العمل أن يؤدوا لعلى خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقنعهم بهذه العودة ، فأبى ؛ وحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عنهم ، ولكنهم حين نفدت مؤونتهم هاجموا بلدة الأبلة ، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ، ثم نهبوها وأشعلوا فيها النار (٨٧٠) . وتشجع على بهذا النصر فهاجم عدة بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبى إيران والعراق

(*) اسمه على بن محمد . (المترجم)

حتى دق أبواب بغداد نفسها . وتعطلت التجارة ، وقل الطعام فى العاصمة : وفى عام ٨٧١ استولى المهلبى قائد الزنوج على البصرة ، وذبح ثلثمائة ألف من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال البيض بعضهم من بنى هاشم أنفسهم — إذ صدقنا أقوال المؤرخين . وظلت نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت فى خلالها عدة جيوش لتقليم أظفارها ، وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو ، فخرج على علىّ كثيرون من رجاله ، وانضموا إلى جيوش الحكومة . ثم حوصر من بقى منهم ، وضيق عليهم الخناق ، وسلط عليهم الرصاص المصهور و«النار اليونانية» ، وهى مشاعل من النفط الملتهب ، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير الموفق إلى مدينة الثوار ، وتغلب على ما لقيه من المقاومة ، وقتل علياً وحمل رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته (٨٨٣)[٢٠] . ودامت هذه الثورة أربعة عشر عاماً حاق فيها الخطر بجميع المقومات الاقتصادية والسياسية فى البلاد الشرقية الإسلامية . وانتهز أحمد بن طولون والى مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية :

الفصل الثانى

الإيمـــان

يلى المال والنساء فى شهوات الإنسان رغبته فى النجاة من العذاب فى الدار الآخرة . فإذا امتلأت المعدة بالطعام ، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية ، وجد متسعاً من الوقت ينصرف فيه إلى الله .

ولقد كان المسلمون كثيرى التفكير فى ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعتهم ، وحكومتهم ، قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويتطلب الجزء الثانى من هذا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به ، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، والبعث ، والقضاء والقدر ، ويوم الحساب . وقواعد الإسلام بعد الشهادتين هى الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت . ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحى « ولكل أمة رسول » (سورة يونس ٤٨) . ويعتقد بعض المسلمين أن عدة أولئك الرسل ٢٢٤٠٠٠ ، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله . ولهذا فإن على المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل ، ويعتقد أن ما ورد فيهما من وحى الله ، فإذا ما اختلفا عن القرآن فى شىء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد . وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتب السماوية ، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسله . والمسلمون يعتقدون أن محمداً بشر من خلق الله ، ولكن احترامهم إياه لا يقل عن احترام النصارى للمسيح ، وفى ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين

إنه لو كان حياً فى زمان النبى لما تركه يطأ الأرض بقدمه المباركة ولحمله على كتفيه أينما أراد .

والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد فى القرآن وحده ، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسنن النبوية التى احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون . ذلك أن المسلمين قد واجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جواباً صريحاً فى القرآن . كذلك وردت فى القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح . ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبى أو الصحابة وما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات . ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث ، وامتنعوا عن تدوينها فى القرن الأول من الهجرة(*) . وأنشأوا مدارس للحديث فى مختلف المدن يلقون فيها دروساً عامة فى الحديث والسنن النبوية ، ولم يكن من غير المألوف أن يسافر الواحد منهم من الأندلس إلى بلاد

(*) يقول المؤلف إن المسلمين امتنعوا عن تدوين أحاديث الرسول فى القرن الأول الهجرى ، والحق أنه كان من الصحابة من لا يرى تدوين الحديث لكى تكون الهمة مقصورة على القرآن وحده ، ولكن من الحق أيضاً أن تدوين الحديث بدئ منذ فجر الإسلام فى القرن الأول ، بل أن بعض ذلك يرجع إلى عهد الرسول نفسه .

لقد جاء فى صحيح البخارى أن الرسول أمر فكتبت خطبته التى خطبها يوم فتح مكة ، وفى هذا الباب أيضا نجد أبا هريرة يقول : ما من أحد أحفظ منى لحديث رسول الله صلى عليه وسلم ولا أكثر منى رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبى صلى الله عليه وسلم ولم أكن أكتب . وفى سنن أبى داود ومسند الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الغضب والرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى عليه وسلم فقال : « اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق » وأومأ بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك . راجع مسند أحمد ، ج ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ ، سنن أبى داود ، ج ٢ : ٢٢٠ وجامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ، ج ١ : ٧١ . وراجع أيضاً بحثا قيما فى ذلك ، للعلامة السيد سليمان عبد القدوس ، الرسالة المحمدية طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ص ٥٣ وما بعدها . (ى)

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته . وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السنن الشفوية إلى جانب القرآن شبيهة بالمشنا والجمارا اللذين تجمعا حول التوراة ، وفعل البخارى بهذه الأحاديث فى عام ٨٧ ما فعل يهودا هاناسى بشرائع اليهود غير المكتوبة فى عام ٨٩ ، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو ستمائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقدها ٧٢٧٥ ونشرها فى صحيحة منسوبة فى سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبى نفسه .

تُلقى الكثير من أحاديث النبى ضوءا جديداً على العقائد الإسلامية . نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتى بمعجزات ، ولكن ثمة أحاديث تروى بعض ما قام به من خوارق العادات : كيف أطعم عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكفى شخصاً واحداً ، وكيف أخرج الشياطين من جسم بعض الناس ، وكيف أنزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة ، وكيف مَسّ ضرع ماعز جافة فأدرت اللبن ، وكيف شُفِىَ المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه .

وتحث بعض الأحاديث على حب الأعداء ، وإن كانت آراء محمد فى هذه الناحية أشد من آراء المسيح . وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل(*) كما يعزى إلى محمد حديث يروى قصص الزراع ، وضيوف العرس وعمال الكرم ، وقصارى القول أن رواة الأحاديث قد وصفوا النبى بخير ما نجده فى المسيحية من فضائل على الرغم من زوجاته التسع ، ويقول بعض النقاد المسلمين : إن كثيراً من الأحاديث قد دسها على النبى الدعاوة الأموية أو العباسية أو غيرها . وقد اعترف ابن العوجاء الذى أعدم فى الكوفة سنة ٢٧٢ أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين لا يصدقون معظم الأحاديث ومنهم من زيف بعضها وصاغها فى صيغة الأحاديث الصحيحة .

(*) الصلاة الربانية عند المسيحيين هى التى تبدأ بقولهم : أبانا الذى فى السموات ... الخ »

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة في إحدى المجموعات المتفق على صحتها ، من الصفات التي يمتاز بها المسلمون المتمسكون بدينهم والذين يطلق عليهم اسم السنيين . ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جبريل النبي عن ماهية الإسلام فيجيبه النبي بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج هي الواجبات الأربعة المفروضة على كل مسلم ، وهي مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله « أركان الإسلام الخمسة » .

ولا بد أن يسبق الصلاة الوضوء ، وإذ كانت الصلاة تؤدى خمس مرات في اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق . فالإسلام كاليهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الخلق ، وهما في هذه الناحية يعملان بالمبدإ القائل إن الإنسان لا يعقل الشيء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين : وكان النبي يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ؛ وبحث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة ، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء ؛ أما تلك الفرائض فهي : غسل الوجه واليدين والقدمين(*) (سورة المائدة ٦) وعلى الجُنُب أن يستحم ، وعلى المرأة التي خرجت من الحيض ، أو الوضع ، أن تتطهر قبل الصلاة . ويصعد المؤذن في بلاد الإسلام المئذنة عند طلوع الفجر ، وفي منتصف النهار ، ووقت العصر ، وعند غروب الشمس ، وفي المساء ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد

(*) ومسح الرأس . (المترجم)

أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ألا ما أقوى هذه الدعوة ، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس ، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة ، وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله فى سكون الليل ، وما أحلى وقع صوت المؤذنين على الآذان ، آذان المسلمين وغير المسلمين ، وهم يدعون النفوس الحبيسة فى الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل ، وتتصل به ذلك الاتصال الروحى الجليل . فى هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم فى جميع بقاع الأرض أن يقف كل عمل أيا كان ، ويتطهر ، ويولى وجهه نحو مكة والكعبة ويقيم الصلوات القصيرة ، بنفس الصورة الدقيقة التى يؤديها بها غيره من المسلمين ، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة فى حركتها الظاهرة حول الأرض .

فمن أمكنه وقته ، وشاءت إرادته ، ذهب إلى المسجد يؤدى الصلاة ، والمساجد تظل فى العادة مفتوحة الأبواب طول النهار ، يؤمها كل مسلم صالح أو زنديق ليتوضأ أو يصلى أو يستريح . وهناك تحت سقفها الظليلة كان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون فى الخصومات ، والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها ليتحدثوا فى كل ما يعنيهم ، وي-تمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا فى الأعمال التجارية والمالية فى بعض الأحيان . ذلك أن المسجد كان كالبيعة عند اليهود ، والكنيسة عند المسيحيين ، مركز الحياة اليومية ، والبيت العام للمجتمع كله . وفى يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها يقوم المؤذن ويصلى على النبى ويدعو لأسرته وإلى الصحابة ، ويدعو

المسلمين إلى الصلاة (*) . ويستحب فى هذا اليوم أن يستحم المصلون ، ويلبسوا أثواباً نظيفة ، ويتعطروا ، قبل المجىء إلى المسجد ، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا فى المسجد (**) .

وقد جرت العادة أن تبقى النساء فى بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد ، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله . ويترك المصلون أحذيتهم عند باب المسجد ، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب ، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنباً إلى جنب صفا واحداً أو عدة صفوف ، وولوا وجههم نحو المحراب الذى يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة . ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن ، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات . وليس فى صلاة المسلمين أناشيد ، أو مواكب ، أو قداس ، أو مقاعد مستأجرة ، ذلك أن الدين والدولة شىء واحد عند المسلمين ؛ وهذا فإن الشئون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة . وليس الإمام كاهنا كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادى يكسب قوته بعمل دنيوى يؤديه ، ويعين فى المسجد فترة من الزمان ، ويتقاضى أجراً قليلا ليؤم المصلين (+) ؛ فالدين الإسلامى لا يعترف بالكهانة والقسوسة . والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أراد منهم أن يؤدى عمله المعتاد كما يؤديه فى أى يوم آخر . وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

(*) يحدث هذا أحياناً ولكن الآذان الشرعى مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلاح والتكبير والشهادة . (ى)

(**) ليس على المسلم أن يتوضأ فى المسجد بل الذى عليه أن يكون متوضئا قبل الصلاة فى البيت أو فى المسجد على حد سواء .

(+) ومن الأئمة من لا يتقاضى أجراً . وفى الصلوات الخمس يستطيع أى إنسان أن يؤم المصلين إن كان أهلا لهذه الإمامة . (المترجم)

المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية ، وتألفت قلوبهم من حيث لايشعرون باشتراكهم فى هذه الشعائر العامة .

والواجب الثانى المفروض على المسلم هو أداء الزكاة . لقد كان النبى ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح ، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحا اجتماعيا اشمأزت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقر عامة الشعب ، ويبدو أن معظم أتباعه فى أول الأمر كانوا من الفقراء .

وكان من أول ما قام به من الأعمال فى المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف فى المائة على جميع الأملاك المنقولة ، لمعونة الفقراء(*) . وكان فى الدولة الإسلامية موظفون مختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها . وكان جزء من حصيلتها ينفق فى بناء المساجد ، وفى أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيوش . ولكن الحرب كانت تأتى بالغنائم التى تزيد كثيراً من نصيب الفقراء . وما أكثر ما يُروى من قصص المسلمين الأسخياء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء ، فالحسن بن على مثلا يروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات فى حياته وأنه فى مرتين وهبهم كل ما يملك .

والواجب الثالث على المسلمين هو صوم رمضان . ونقول هنا إن الخمر ، والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والكلب ، محرمة بوجه عام على المسلمين ، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية ، فهو يبيح أكل الطعام المحرم عند الضرورة ، وسئل محمد مرة عن جبن لذيذ يحتوى على لحم محرم ، فقال

(*) فرضت الزكاة بالمدينة حقا وفى السنة الثانية من الهجرة ، ولكنها لاتسمى ضريبة بل تسمى « زكاة » ومعنى الزكاة فى اللغة : الطهارة والنماء والبركة ، وإخراج المقدار الواجب شرعا يطهر به مال المزكى وينميه حقا .

أما المقدار الذى ذكره المؤلف وهو اثنان ونصف فى المائة فهو زكاة للمال النقدى ، وفى سائر الأموال كالزروع والثمار والحيوان مقادير أخرى محددة معروفة فى كتب الفقه . (ى)

للسائل : « اذكروا اسم الله وكلوا(*) » . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم الرهبنة على المسلمين (سورة الأعراف ٣٢) فقد أحل للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها . ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة ، ولتصح به أجسامهم من جهة أخرى . وكان النبي بعد أن أقام فى المدينة بضعة أشهر قد رأى اليهود يصومون صومهم السنوى فأمر أتباعه أن يحذوا حذوهم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام ، فلما تبين أنه لم يستملهم إليه استبدل به صوم رمضان ، فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوما فى بعض السنين وثلاثون فى بعضها الآخر أمسك المسلمون فى أثناء النهار عن الطعام والشراب ، والتدخين وعن الصلات الجنسية . وأبيح الإفطار للمرضى ، والمسافرين المتعبين ، والصغار ، والشيوخ الضعاف ، والحاملات والمراضع ، ولما فرض الصيام فى أول الأمر كان شهر رمضان فى فصل الشتاء حين يقصر النهار ، ولكن رمضان يقع فى فصل الصيف كل ثلاث وثلاثين سنة ، فيطول ويشتد الظمأ فى حر البلاد الشرقية حتى يكون أشبه شىء بالعذاب . ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام . ويفطر المسلمون أثناء الليل فيأكلون ، ويشربون ، ويدخنون ، ويباشرون النساء حتى مطلع الفجر ، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل تؤمها الجماهير ليأكلوا ويستمتعوا ، والفقراء يعملون كعادتهم فى أيام الصوم ، أما الأغنياء ففى وسعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم فى أثناء النهار .

ويقضى الأتقياء الصالحون الليالى العشر الأخيرة من رمضان فى المساجد

(*) عن ابن عباس قال : جيء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بجبنة فى غزاة فقال : أين صنعت هذه ؟ قالوا : بفارس ، ونحن نرى أنه يجعل فيها ميتة ، فقال : اطعنوا فيها بسكين ، واذكروا اسم الله وكلوا . رواه أحمد والبزار والطبرانى ، وواضح هنا أن ذلك كان لضرورة وهى الغزاة . (المترجم)

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبى فى إحدى هذه الليالى ، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خير من ألف شهر ، وإذ كانوا لا يعرفون أى الليالى العشر هى ليلة القدر فإن كثيراً من المسلمين يحيونها كلها . فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر ، فيستحمون ، ويلبسون ثياباً جديدة ، ويهنئ به بعضهم بعضا ، ويخرجون الزكاة ، والهدايا ويزورون قبور الموتى .

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحج . ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة فى بلاد الشرق ، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون فى يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان قبل النبى بزمن طويل يحجون إلى الكعبة ، وأقر الإسلام هذه السنّة القديمة ، وكان هذا الإقرار من الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية . وبذلك أصبحت الكعبة ، بعد أن طهرت من الأصنام ، بيت الله . وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها ، كلما استطاعوا(*) ، ولكن سرعان ما فسر هذا بأنه يعنى مرة فى العمر . ولما أن انتشر الإسلام فى أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم ، وفى مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط .

وقد وصف دوتى Doughty ، وصفا لا يضارعه فى روعته وصف سواه ، منظر قافلة الحجاج وهى تجتاز الصحراء فى حر الشمس اللافح ، ولهيب الرمال المحرقة ، وتتألف من سبعة آلاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد ، راجلين

(*) لم يفرض الحج إلا مرة واحدة فى العمر . (ى)

ولعل المؤلف قد أخذ قوله هذا من إضافة « من استطاع إليه سبيلا » إلى الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو فهم خاطئ بلا شك ، إذ المقصود بهذه العبارة أن يؤدى الفريضة من يستطيع ، أى من تمكنه من أدائها حالته الصحية وموارده وغيرها من ظروفه . (المترجم)

أو ممتطين صهوة الجياد ، أو ظهور الحمير ، أو البغال ، أو الهوادج الفخمة ، ولكن كثرتهم الغالبة تهتز على ظهور الإبل ، وتنحني بأجسامها في كل خطوة من خطواتها الطويلة . . . وتسجد خمسين مرة في كل دقيقة أرادت ذلك أو لم ترده في اتجاه مكة ، مجتازة ثلاثين ميلا في اليوم ، وخمسين ميلا في بعض الأحيان ، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها لتستريح . وفي هذا السير الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون ، ومنهم من يموتون فيتركون(*) تنهشهم السباع المترصدة في الطريق ، أو يحتضرون فيتركون ليموتوا على مهل ، ويزور الحجاج في المدينة قبر النبي ، ويشهدون قبر أبي بكر وقبر عمر في مسجد الرسول ، ويعتقد بعضهم أن في جوار هذه القبور مكان احتفظ به لعيسى بن مريم .

فإذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها حرم مقدس . ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثوابا بيضاء غير مخيطة ، ويركبون أو يسيرون على أقدامهم مسافة طويلة ، يبحثون عن مساكن لهم في أحياء المدينة(**) . ويفرض عليهم طوال إقامتهم في مكة أن يمتنعوا عن جميع المنازعات ، وعن العلاقات الجنسية ، وعن كل ما هو حرام(†) ، وتصبح البلدة

(*) لا شك في أن هذا الوصف لا ينطبق كله على الكثرة الغالبة من الحجاج في هذه الأيام أيام الطائرات والسيارات والطرق المعبدة ووسائل الراحة المهيأة لجميع الحجاج . (المترجم)

(**) يحتاج هذا الوصف إلى شيء من الدقة ، فإن كون مكة حرما مقدسا لا يمنع أن يدخلها الحجاج بقوافلهم ، بل هذا ما يحدث فعلا ، ثم إن الإحرام يكون قبل ذلك لا بعده وله مواقيت — وأمكنة معينة معروفة لا يجاوزها الحاج إلا محرما مهما كان البلد الآتي منه ، وأقربها إلى « مكة » بينه وبينها مرحلتان (راجع مثلا دور الحكام للقاضي مثلا خسرو الحنفي ج ١ ص ٢١٨) . (ى)

(†) ليس فرضا على الحجاج الامتناع عن الصلات الجنسية طول مدة إقامته بمكة ، بل ذلك يكون ما دام محرما فقط ، كما هو معروف في كتب الفقه (انظر التعليق السابق) هذا وليس الامتناع عن المحرمات مقصورا على أيام الحج ، بل هو مفروض على المسلمين في جميع الأوقات . (ى)

المقدسة فى أشهر الحج ملتقى المسلمين من كافة الأمم ، والأجناس والطبقات ، يشتركون كلهم على قدم المساواة فى مناسك الحج وفى الصلاة ، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنبات شغلتهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التى فوق الجدران ، وعما فيه من عقود وعمد . وعند بئر زمزم التى يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين ، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومها يكن تأثيره ، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى إلى وطنه ليشرب منه فى بعض أيامه وحين تحضره الوفاة(*) . ويصل الحجاج آخر الأمر ، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب ، إلى قلب المسجد ، إلى الكعبة نفسها ، وهى بناء صغير الحجم مضاء من داخله بمصابيح من الفضة معلقة فى سقفه ، ومكسوة جدرانه الخارجية بكسوة من الحرير الثمين ، وفى أحد أركانه الحجز الأسود الشهير . ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ، ويقبل الحجر الأسود أو يلمسه أو ينحنى تعظيما له . ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها فى داخل المسجد غير عابئين بما عانوا من شدة التعب والسهر ، يجلسون على أبسطته يتحدثون ، ويصلون ويفكرون فى دهشة ونشوة فى الغرض الذى جاءوا من أجله .

وفى اليوم الثانى(**) يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة ، وهما فى خارج المدينة ، إحياء لذكرى هاجر وهى تبحث عن الماء لتروى به ولدها . وفى اليوم السابع يخرج من يبغون « الحج الأكبر » إلى جبل عرفات الذى يبعد عن

(*) من الحجاج من يصر على التزود من ماء زمزم والاحتفاظ بشىء منه فى عودته إلى بلده ولكنا لانعلم ولا نظن أن منهم من يستبقى شيئا منه ليشربه حين تحضره الوفاة . (ى)

(**) السعى بين الصفا والمروة لا يكون فى اليوم الثانى من الوصول إلى مكة ، بل إن هذا السعى واجب يوم وصوله إليها وطوافه بالكعبة بالمسجد الحرام . وهذا الطواف يسمى طواف القدوم أو طواف التحية أيضا (راجع الكتاب السابق ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٤) . (ى)

مكة مسيرة سبع ساعات — وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات(*) ، ثم يقفون وهم عائدون فى منتصف الطريق ويقضون ليلة فى المزدلفة . وفى اليوم الثامن يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاثة أعمدة ، اعتقاداً منهم بأن إبراهيم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما حاول أن يثنيه عن ذبح ولده . . . وفى اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرهما من الماشية ذات القرون ، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات(**) ، وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبى نفسه فى مثل ذلك الوقت من حياته ، والمسلمون فى جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح فى هذا اليوم العاشر من شهر ذى الحجة ويوزعون اللحوم والصدقات تقرباً لله . وبعد هذا يحلق الحجاج شعورهم ويقصون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا فى الرمال ، وبذلك ينتهى الحج الأكبر ، ولكن الحجاج فى العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى مخيم القافلة . وهناك يعودون إلى حالتهم الأولى ويلبسون ثيابهم العادية ويبدأون رحلتهم الطويلة إلى أوطانهم مطمئنى البال فخورين بما وفقوا إليه من عمل صالح .

ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة . فهى تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم ، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفى الجماعى بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين ، شأنها فى هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم ، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى رومة . فالحج وما ينطوى عليه من مناسك التى

(*) يخطب الإمام فى موسم الحج ثلاث خطب ، ولكل منها مناسبة يعلم الحجاج فيها ما هم مقبلون عليه من الحج وأعماله وليس منها خطبة واحدة تدوم ثلاث ساعات ، والذين يدرسون الفقه الإسلامى وسيرة الرسول ، يعرفون أن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تجمع بين الإيجاز وكل ما تجب معرفته .

(**) لا تكون الأضحية فى اليوم الثامن من ذى الحجة بل تكون فى اليوم العاشر أى يوم العيد كما هو معروف .

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء ، وبين البربر وزنوج إفريقية ، والشوام ، والفرس ، والأتراك ، والتتار ، والهنود المسلمين ، والصينيين والمصريين ، وغيرهم من الشعوب الإسلامية — يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة ، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهى اللغة العربية ، ولعل هذا هو السبب فى ضعف حدة الفوارق العنصرية فى الإسلام . وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التى لا تنطبق على العقل . ولكن المسلم يبتسم حين يرى أمثال هذه العادة فى الأديان الأخرى ، ويهوله أن يرى المسيحين فى إحدى شعائرهم « يأكلون الله » . فالمسلمون لا يفهمون من هذا الطواف إلا أنه رمز خارجى لصلة روحية وغذاء روحى . وفى الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام .

والأديان جميعها مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى ، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التى خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح فى كفاحها للخلود . لهذا نرى أن معظم المسلمين(*) يؤمنون بالسحر(**) ، وقلما يشكون فى قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز المخبوءة ، وغرس الحب فى النفوس وتعذيب الأعداء ، وشفاء المرضى ، واتقاء الحسد . ومنهم من يعتقد فى قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك العقائد هى المحور الذى تدور عليه قصص ألف ليلة . ففيها ترى الأرواح فى كل مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء ، وتستولد النساء غير الحريصات ما لا يشتهين من الأبناء ويلبس معظم المسلمين(٣) كما يلبس نصف المسيحيين تمائم لترد عنهم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون

(*) يقصد المؤلف بقوله معظم المسلمين غير المتعلمين . ويلاحظ أنه يقول : إن هذه كلها ليست من الدين بل هى من الخرافات التى لا صلة بينها وبين مبادئه الأولى . (المترجم)

(**) أصح من هذا أن يقول : عامة المسلمين أو جهالهم الذين يؤمنون بالسحر كما يؤمن به الجهال فى كل أمة . (المترجم)

أن من الأيام ما هو سعد ومنها ما هو نحس ، وأن الأحلام قد تنبئ عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان فى الأحلام . ويؤمن العامة فى مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم فى مختلف البلاد المسيحية بالتنجيم ؛ فقد رسمت خرائط للسماء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوراً على معرفة اتجاه القبلة فى المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، أى خلقه ومصيره كما تدل عليه النجوم التى كانت فى السماء وقت مولده .

والدين الإسلامى(*) ، وإن بدا للعالم الخارجى وحدة قوية شاملة خالية من الفروق فى شعائره وعقائده ، قد انقسم من أقدم العهود شيعاً لا تقل فى عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية . ومن هذه الشيع الخوارج ذوو النزعة الحربية المتزمتة الدمقراطية ، ومنها المرجئة التى تعتقد أن المسلم لا يقضى عليه بالعذاب الدائم فى الدار الآخرة ، والجبرية التى تنكر حرية الإرادة ، وتعتقد أن الإنسان مسير فى كل شىء وفق ما قدر له منذ الأزل ، والقدرية التى تؤمن بحرية الإرادة وتدافع عنها ، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها . وحسبنا أن نُحَيِّى فيها إخلاصها لمبادئها وسعة علمها . لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم فى التاريخ ، تلك هى طائفة الشيعة . فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية ، واستولوا على بلاد الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الأثر فى الأدب والفلسفة . ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل علىّ وولده الحسن وأسرته ، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمداً نبياً له ورسولا ، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ما عدا علياً ،

(*) يريد المسلمين فهم الذين انقسموا شيعا ، أما الدين نفسه فينهى عن هذه التفرقة « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » . (المترجم)

مغتصبون لا حق لهم في الخلافة . وقد اغتبطوا حين ولى علىّ الخلافة ، وحزنوا لمقتله ، وروعوا لمقتل الحسين . وأصبح على والحسين بعد موتهما في رأيهم من أولياء الله الصالحين ، وهم يعظمون ضريحيهما تعظيما لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول . ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر ، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس — أى تجسد القديسين مراراً بعد موتهم — فقالت إن أبناء علىّ هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية . وهى ترى أن الإمام الرضا ، ثامن أولئك الأئمة الذى يقوم ضريحه فى مشهد بشمالى فارس ، هو « مجد العالم الشيعى » : وقد حدث فى عام ٨٧٣ أن اختفى الإمام الثانى عشر محمد بن حسن وهو فى الثامنة عشرة ، فاعتقد الشيعة أنه لم يمت ، ولكنه سيعود فى الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة .

وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء(*) يفوق عداءها لمن يعيش فى البلاد الإسلامية من الكفرة ، شأنها فى هذا شأن الفرق المختلفة فى سائر الأديان(**) . ولقد كان أهل الذمة المسيحيون ، والزردشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام . فلقد كانوا أحراراً فى ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زى ذى لون خاص وأداء فرضة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير (من ٤٫٧٥ إلى ١٩ دولاراً أمريكياً) . ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ، ويعفى منها الرهبان

(*) إذا كان العداء قد استحكم فى يوم من الأيام بين بعض الفرق والبعض الآخر فإنه لم يكن بالشدة التى يصفه بها المؤلف ، ومهما يكن هذا العداء فى الماضى فإنها الآن تعيش فى وئام وقلما يعرف الرجل العادى إلى أى الفرق ينتمى زملاؤه ومواطنوه . (المترجم)

(**) لا نعلم من تاريخ الإسلام وما نشأ فيه من فرق مختلفة ، أن فرقة من هذه الفرق كانت تشعر نحو غيرها بعداء يفوق عداءها الكفرة الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . (ى)

والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ، والعمى والشديدو الفقر . وكان الذميون يعفون فى نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها — ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنين ونصف فى المائة من الدخل السنوى ، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم ، ولم تكن تقبل شهادتهم فى المحاكم الإسلامية ، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتى يخضعون فيه لزعمائهم ، وقضاتهم وقوانينهم ، وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة ، فكان الخلفاء الراشدون أشداء عليهم(*) ، وكان الأمويون يعاملونهم باللين بوجه عام ، والعباسيون يعاملونهم باللين تارة وبالقسوة تارة أخرى . وقد أخرج عمر بن الخطاب اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام المقدسة ، وتعزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة « عهداً » قيد فيه حقوقهم بوجه عام ، لكن هذا العهد ، إن كان قد عقده ، قد أغفل العمل به ، وظلت الكنائس المسيحية فى مصر تتمتع فى أيام هذا الخليفة بالميزات التى منحتها إياها الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربى .

وكان اليهود فى بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين ، إلا أنهم فى عهدهم قد فرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حين إلى حين ، غير أنهم مع هذا كانوا يعاملون على قدم المساواة

(*) من العجيب أن يذكر الكاتب أن الخلفاء الراشدين كانوا يعاملون بالشدة الذميين الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . إن الدين نفسه يجعل لهؤلاء الذميين كل ما لنا من حقوق ويجعل عليهم ما علينا من واجبات ، والقرآن الكريم يحثنا على مودة المخالفين لنا فى الدين ما داموا مسالمين . وعناية عمر بن الخطاب بعد الخليفة الأول أبى بكر الصديق بغير المسلمين من أهل الذمة معروفة غير خافية . لقد جعل للفقراء المحتاجين منهم ما يكفيهم هم وعيالهم من بيت المال . على أن الكاتب نفسه ذكر قبل ذلك بسطور أن أهل الذمة كانوا ينعمون فى عهد الأمويين بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام ، ومعروف أن الأمويين كانوا على عصبية شديدة أحيانا لغير العرب حتى ولو كانوا من الموالى المسلمين . (ى)

مع المسيحين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية فى حياتهم وفى ممارسة شعائر دينهم فى بيت المقدس ، وأثروا كثيراً فى ظل الإسلام فى آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين . وكان المسيحيون فى بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجزيرة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامى . ويحدثنا المؤرخون أنه كان فى بلاد الإسلام فى عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار . وكان المسيحيون أحراراً فى الاحتفال بأعيادهم علنا ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية فى فلسطين ، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر الميلادى ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا . وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه ، ولقد ذهب المسلمون فى حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية فى القرن التاسع الميلادى حرسا خاصا ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضا فى الكنائس . وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم فى الزراعة ، وفى إصلاح الأراضى البور ، وكانوا يتذوقون النبيذ المعصور من عنب الأديرة ، ويستمتعون فى أسفارهم بضيافتها ، وبلغت العلاقة بين الدينين فى وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين . وكانت طوائف الموظفين الرسميين فى البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا فى الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين فى بعض العهود . فقد كان سرجيوس والد القديس

يوحنا الدمشقى خازن بيت المال فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذى كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون فى بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وعلى الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين ، والوثنيين إلا عددا قليلا جداً منهم ، وكثيرون من اليهود فى آسية ، ومصر وشمالى أفريقية . فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة ، وكان فى وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان . واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم ، ولبسوا الثياب العربية ، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام . وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى ، فى هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمساكا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين ، وأندونيسيا ، والهند ، إلى فارس ، والشام ، وجزيرة العرب ، ومصر وإلى مراكش ، والأندلس ؛ وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها ، وأوحى إليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به فى هذه الأيام نحو ثلثمائة وخمسين مليونا من الأنفس ، يوحد هذا الدين بينهم ، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية .

الفصل الثالث

الشعب

كان العرب فى عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من الدولة . وكان جميع الذكور القادرين من أبناء العرب ، يخضعون ، فى نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية ، يدعون إليها فى أى وقت من الأوقات . وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النقى فى زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى . وكان العربى يحرص أشد الحرص على أن يضيف إليه اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلا ، وكان فى بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته وموطنه الأصلى ، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلا : أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدى. غير أن نقاء الدم لم يلبث أن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جوارى من أهل البلاد المفتوحة ، وأدخلوا أبناءهم منهن فى زمرة العرب ؛ ولكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل . وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل ، فى أثواب من الحرير الأبيض ، وسيوفهم مشرعة بأيديهم . أما العامة فكانوا يخرجون فى سراويل منتفخة ، وعمامات مطوية ، وأحذية ذات أطراف رفيعة . واحتفظ البدوى بجلبابه الفضفاض ، وشاله ومنطقته ، وقد نهى النبى عن لبس السراويل الطويلة ، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا ، وكانت جميع طبقات الشعب تزدان بالحلى ، وكانت الإناث يستهوين الذكور بصديرياتهن ، ومناطقهن البراقة ، ونُقبهن(*) الواسعة الزاهية اللون . وكن يعقصن شعرهن على جباههن ، أو يرسلنه على جانبى رؤوسهن ، أو يجدلنه

(*) النقب جمع النقبة وهى ثوب كالإزار تجعل له حجزة مطيفة وهى skirt بالإنجليزية . (المترجم)

غدائر تنوس على ظهورهن ؛ وكن أحياناً يكثرنه بخيوط سوداء من الحرير ، وفى أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأزهار . وأخذن بعد عام ٧١٥ يغطين بالنقاب وجوههن أسفل عيونهن ، وازداد انتشار هذه العادة تدريجاً بعد ذلك العام ، وبهذا كان فى وسع كل امرأة أن تكون فاتنة جذابة ؛ لأن عينى المرأة العربية مهما يكن سنها جميلتان تسبيان العقول . والفتاة العربية تبلغ الحلم فى سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً فى سن الأربعين ، وهى بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء .

والمسلم لا يحترم العزوبة ، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ، ولا يرى أن هذا الامتناع حال طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء : وحدود الزواج أوسع فى الإسلام منها فى كثير من الأديان ، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ، ولهذا قل البغاء فى أيام النبى والخلفاء الراشدين . ولكن الانهماك فى إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنبيه ، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح لهن شأن كبير فى حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً . وإذ كان المقصود من الآداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم ، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور فى البلاد المسيحية ؛ فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل ، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المقوية للباه[٤٢] . والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط ، ولكن ازدياد الثروة خفف عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة ، وغض الحكام البصر فى كثير من الأحيان عن اللواط[٤٣] . ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء فى ثيابهم وعاداتهم ، يضفرون شعورهم ، ويصبغون أظافرهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليع[٤٤] . وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخصاء من كان فى مكة من المخنثين ، وأبصر الهادى امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

على الفور[٤٥] . ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث فى بلاط هرون الرشيد ، وفى قصائد شاعره المحبوب أبى نواس ولما يمض على زمن المادى إلا بضعة أعوام . ذلك أن الرجل الذى حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج ، وملهن بعده ، عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة ، والمرأة التى حجبها أهلها عن جميع الرجال زلت هى الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل

وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللواط فى البلاد الإسلامية . لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون بها على الدوام ، وقد ثاروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزى لهـا بإثارة الشكوك التى يثيرها الذكور عادة حول فضيلة المرأة وقوة عقلها . وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهن[٤٦] ، ولكن المسلمين فى القرن الأول من التاريخ الهجرى لم يحجبوا النساء ، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران فى الشوارع جنباً إلى جنب ، ويصليان معاً فى المساجد[٤٧] . وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعابها مصعب فى ذلك فقالت « إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »[٤٨] . ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان فى أيام الوليد الثانى (٧٤٣ — ٧٤٤) . وكان منشأ عادة عزلة النساء فى بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس . وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصف به الرجل فى الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال ، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه ، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن فى البيوت ، فحرم عليهن أن يسرن فى الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات ، وكان فى وسعهن أن تتزاورن ، ولكن ذلك كان فى العادة داخل هودج مسجف ، ولم يكن أحد يراهن خارج البيوت أثناء الليل . وكان يفصلهن عن الرجال فى

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص ، ثم انتهى الأمر بمنعهن منها منعاً باتاً (٤٩) ، وأصبح الدين الذى وصف فى العالم المسيحى اللاتينى بأنه لا بد منه للأناث ، وأنه ضرورى لهن لا يزيد عليه فى ذلك إلا الغريزة الجنسية ، نقول أصبح الدين فى العالم الإسلامى ، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة ، وقفاً على الذكور دون الإناث . وكان أشد من هذا قسوة عليهن منعهن من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهن منها ، فكن يبعثن إليها من يقضى حاجاتهن ، وكان البائعات المتنقلات ، وكن فى العادة من النساء يأتين إليهن ليعرضن عليهن بضائعهن فى داخل البيوت ، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا ، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائه ، وأقاربه الأدنين ؛ وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمح له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن . وكان فى هذا النظام مرضاة للرجل ، فهو فى البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع ، ويجعله فى خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة . أما عن النساء أنفسهن ، فإنا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضن فى العزلة أو فى النقاب ، بل كن يستمتعن بما فى جناح الحريم من سرية ، وطمأنينة ، وراحة ، وكن يغضبن إذا فرط أزاجهن فى واجب المحافظة على عزلتهن ، ويرين فى ذلك إهانة لهن (٥٠) ؛ وظلت الزوجات الشرعيات يضطلعن من سجنهن الظاهرى بقسط موفور فى مجريات الحوادث التاريخية ، وكان لخيزران أم الرشيد ، ولزوجته زبيدة فى القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان ، وكانتا تستمتعان بكثير من الأبهة والسلطان .

وقلما كان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة ، وقليلا من سور القرآن ، والفنون المنزلية . أما نساء الطبقات العليا فكن يتلقين تعليما متسع الآفاق ، يقوم به فى العادة معلمون خصوصيون ، ويتلقينه أحياناً فى المدارس والكليات (٥١) . وكن يتعلمن قرض الشعر ، والموسيقى ، وضروباً من أشغال

الإبرة ؛ ومنهن من تبحرن فى العلوم واشتغلن بالتدريس . واشتهر عدد منهن فى أعمال البر المستنيرة . وكن يربين على الخفر اللائق بعاداتهن ؛ فإذا فوجئن فى الحمام أسرعن بتغطية وجوههن(*) ؛ وكن يدهشهن عدم احتشام الأوربيات اللاتى يذهبن إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية ، ويعانقن الكثيرين من الرجال أثناء الرقص ؛ ويعجبن من رحمة الله الذى يمهل تلك النسوة الآثمات فلا يأخذهن بذنوبهن ويهلكهن لساعتهن(٥٢) .

وكانت شئون الزواج يتولاها الآباء ، كما يتولونها فى معظم البلاد المتمدينة ، فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد ؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تختار . وكانت البنات يتزوجن فى العادة قبيل سن الثانية عشرة ، ويصبحن أمهات فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومنهن من كن يتزوجن فى سن التاسعة أو العاشرة ، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة فى سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة . وكان عقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبقى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث . وقلما كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج . وكان يدخل بها بعد ثمانية أيام أو عشرة من عقده عليها ؛ وليس الزواج فى حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه دعاء قصير ، ويصحبه فى بعض الأحيان موسيقى ، ووليمة وبعض الهدايا ، وإضاءة منزل العريس والشارع الذى هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زجته الخاصة ، ويرفع النقاب عن وجهها وهو يقول « باسم الله الرحمن الرحيم »(٥٣) .

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر ، كان فى وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هى ومؤخر صداقها . وكان معنى تعدد الزوجات

(*) لاشك أن هذه إحدى الفكاهات التى يلجأ إليها المؤلف فى كثير من المواضع . (المترجم)

فى الإسلام فى أكثر الأحيان أن تتلو الواحدة منهن الأخرى ، ولم يكن معناه الجمع بينهن فى وقت واحد ، ولم يكن يستطيع ذلك الجمع إلا ذوو الثراء[٥٤] . وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من الأزواج واحدة بعد واحدة ، ويقال إن ابن الطيب ، وهو صباغ فى بغداد ، عاش إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر ، وتزوج من تسعمائة زوجة[٥٦] . وكان فى وسع المسلم ، فضلا عن زوجاته ، أى يكون له أى عدد من الجوارى ، وكان لهرون الرشيد عدد كبير منهن ، وكان للمتوكل أكثر مما كان لهرون[٥٧] ، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقى والغناء ، وفنون فتنة الرجال ، ثم يبيعونهن بأثمان عالية قد تصل إلى مائة ألف درهم (نحو ٨٠,٠٠٠ دولار أمريكى) [٥٨] . ولكن ليس من حقنا أن نظن أن بيت الحريم كان ماخوراً خاصاً . فقد كانت الجوارى يصبحن فى أغلب الأحيان أمهات ، يفخرن بمن يلدن من الأبناء ، وبعدد الذكور منهم ، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من الحب الصادق الأكيد . وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام ويرينه من الأمور الطبيعية ، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار[٥٩] ؛ وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوى من الأبناء بقدر ما تحتويه ضاحية لإحدى المدن الأمريكية . من ذلك أن أحد أبناء الوليد الأول كان له ثمانون ولداً وعدد من البنات لم يذكره المؤرخون . واستتبع نظام الحريم وجود الخصيان ، وإن كان هذا محرماً فى الشريعة الإسلامية . واشترك المسيحون واليهود فى استيرادهم أو تهيئتهم ، وكان الخلفاء ، والوزراء ، والكبراء يبتاعونهم بأثمان غالية ، وسرعان ما أصبحت نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الخصيان المحدودى الكفاية . وكان من النتائج التى ترتبت على نظام الحريم فى القرون الأولى التى تلت الفتوح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

المفتوحة ، وأن تضاعف عددهم إلى الحد الذى كانوا فى حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع . ولربما كان لهذا النظام أثره فى قوة أقدر الرجال على الإخصاب ؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المأمون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام ، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين .

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدره تقديس الرابطة الزوجية . والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد فى وقت واحد ، ولم يكن فى وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة ؛ ذلك أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها ، ولم تكن هذه الخيانات مما يعبأ به كثيراً من الناحية الأخلاقية . أما خيانتها هى فكان عقابها الموت ، ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبته النساء رغم هذا العقاب الصارم والتضييق الشديد . وكانت المرأة تسب وتبجل ، وتحقر وتقمع ، وتحب فى معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان ، ويقول أبو العتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما فى العالم من ثراء[٦٦] . وأمثال هذا القول كثيرة وهى فى بعض الأحيان صادقة . وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة فى بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة ، تلك هى أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه فى شىء من أملاكها . وكانت فى داخل بيتها الأمين تغزل وتنسج ، وتطرز ، وتدير بيتها ، وتعنى بأبنائها ، وتمارس بعض الألعاب ، وتأكل الحلوى ، وتتحدث إلى أترابها ، وتحيك الدسائس . وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوى الفائدة الاقتصادية فى المجتمع الزراعى الأبوى ، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها ، وفى ذلك يقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « لحصير فى ناحية البيت خير من امرأة لا تلد »[٦١] . ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار فى داخل البيوت . وكانت

القابلات تنقل إلى النساء قديمها ، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها . وقد أفرد الرازى (المتوفى سنة ٩٢٤) فى أحد كتبه فصلا لموانع الحمل ، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية[٦٢] . وأورد ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) فى كتاب **القانون** الذائع الصيت عشرين وصفة لمنع الحمل .

وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحى فى النواحى الخلقية الخارجة عن نطاق الناحية الجنسية . فالقرآن مثلا يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعا (سورة المائدة : ٩٠) ولكن بعض الميسر وكثيراً من الخمر ظلا باقيين فى كلتا الحضارتين . وانتشر الفساد والرشوة فى أعمال الحكم والقضاء فى بلاد الإسلام فى بعض العصور كما كانا منتشرين فى البلاد المسيحية . ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحى فى خلقه التجارى[٦٣] ، وفى وفائه بوعده ، وإخلاصه للمعاهدات التى يعقدها مع غيره[٦٤] ؛ ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك فى الحروب الصليبية . والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب ، فهم يبيحون الكذب ، إذا كان فيه نجاة من موت ، أو حسم لخصومة ، أو إدخال السرور على زوجة ، أو خدعة فى الحرب لأعداء الدين[٦٥] . والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبشاشة ، وحديث المسلم ملىء بالتحية والمبالغة فى التأدب . والمسلمون كاليهود يحيى بعضهم بعضا ، وينحنى الواحد منهم لصاحبه ويصافحه ويقول له : « السلام عليكم » ، والرد الصحيح لهذه التحية هو « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ، وإكرام الضيف من صفاتهم العامة ، والدين الإسلامى يحث على نظافة الجسم وإن كانت النظافة عادة تتأثر بالدخل ، فالفقراء يهملونها حتى تتراكم الأقذار على أجسادهم ، أما الأغنياء فيتليفون ، ويدرمون أظافرهم ، ويتعطرون . والختان عادة متبعة عند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها فى القرآن ، لأنها فى رأيهم من أسباب المحافظة على الصحة ، وكان الأولاد يختتنون فى سن الخامسة

أو السادسة[٦٦] . وكانت الحمامات الخاصة من مميزات بيوت الأغنياء ، ولكن الحمامات العامة كانت ولا تزال كثيرة فى البلاد الإسلامية . فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت فى القرن العاشر الميلادى تحتوى على ٢٧,٠٠٠ حمام[٦٧] . وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء ، وقد اشتهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر ، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين ، وكان فى كثير من البيوت حدائق غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة ؛ وكانت الأزهار محببة للشعب وخاصة فى فارس ، وكانت تضفى على الحياة بهجة ومتعة .

بقى أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هى وسائل التسلية عندهم ؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم ، والصيد ، ومغازلة النساء ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء ؛ وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة ، والرقص على الحبال ، والشعوذة ، والسحر ، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز) . . . . ويدل كتاب القانون لابن سينا على أن المسلمين كان لديهم فى القرن العاشر الميلادى كل ما عندنا تقريبا من الألعاب الرياضية : الملاكمة ، والمصارعة ، والعدو ، والرمى بالنبال ، وقذف الحراب ، والحركات الرياضية الجسمية ، والمثاقفة ، وركوب الخيل ، والجحف(*) ، ورفع الأثقال ، وأنواع مختلفة من لعبة الكرة والمضرب[٦٨] . وإذ كانت ألعاب الحظ محرمة ، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب النرد قليلة ؛ وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار ، وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبى قد نهى عن صنع قطعه فى صور الآدميين . وكان سباق الخيل منتشراً ، يبسط عليه الخلفاء رعايتهم ؛ ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة فى سباق . وقد ظل صيد الحيوان مقصوراً على

(*) الجحف اللعب بالكرة وهو المعروف بالبولو فى هذه الأيام . (المترجم)

أرقى طبقات الأشراف ، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه فى أيام الساسانيين ، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالبزاة أو الصقور . وكانت الحيوانات المصيدة تربى أحياناً وتدلل ، وكان عند بعض الأسر كلاب ، وعند بعضها قردة ، وعند بعض الخلفاء آساد ونمورة يرهبون بها رعاياهم أو سفراء الدول الأجنبية .

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدنية ، شجعاناً إلى درجة التهور ، كثيرى العنف ، سريعى الانفعال ، متشككين ؛ وكان الإسلام قد خفف من حدة هذه الصفات ، ولكن معظمها لم يكن قد انمحى بعد ؛ وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة التى كان يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد فى مجموعه على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمروفنجيون ، وأهل الشمال ؛ ولكنه رغم هذا مما يسربل بالعار كل حضارة . ومما يروى عن سليمان بن عبد الملك أنه فى رحلة له إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، دعا رجال حاشيته ليجربوا سيوفهم فى رقاب أربعمائة من الروم ، أسِروُا حديثاً فى إحدى الحروب ؛ وقبل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعمائة رجل ، ليتسلى الخليفة بذلك المنظر(٦٩) . ولما جلس المتوكل على العرش ألقى فى السجن بوزير كان قد عامله مرة منذ بضع سنين بشىء من الاحتقار ؛ ومنع السجين من النوم عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله ، ثم سمح له أن ينام أربعاً وعشرين ساعة ؛ فلما عادت إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فيها مسامير ، منعته أن يتحرك ليقضى حاجته الطبيعية ، وبقى على هذه الحال يعانى أشد الآلام حتى مات(٧٠) . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال الشاذة ، أما المألوف فإن المسلم كان مثال الرقة ، والإنسانية ، والتسامح ؛ وكان، إذا وصفنا أوساط الناس ، سريع الفهم ، حاد الذكاء ، سريع التهيج ، يسهل

إدخال السرور على قلبه ، والمرح على نفسه ؛ يجد الرضا فى البساطة ، ويصبر على بلواه فى هدوء ، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر ، وكرامة ، وشمم ، وكبرياء . وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل ، أخذ معه كفنه المنسوج من الكتان ، استعداداً منه فى أى وقت للقاء ربه ، فإذا أنهكه المرض والتعب وهو سائر فى الصحراء ، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم . ثم توضأ هو لآخر مرة ، واحتفر بنفسه حفرة يتخذها قبراً له ، ولف نفسه فى كفنه ، ونام فى الحفرة ، ينتظر أن توافيه منيته ، وأن تغطى جسمه الرمال السافية[٧١] »

الفصل الرابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية فى الثلاثين السنة التى تلت وفاة النبى جمهورية دمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذى كان مفهوما من هذه العبارة فى الزمن القديم ، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين فى اختيار رأس الدولة وتحديد سياستها . أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من أعيان المدينة . ولم يكن ينتظر شىء غير هذا بطبيعة الحال ؛ ذلك أن الناس يختلفون فى ذكائهم وفى ضمائرهم ، ولهذا فإن الدمقراطية فى أحسن صورها لابد أن تكون نسبية ؛ ولا محيص من أن تنشأ صورة ما من صور الألجركية فى المجتمعات التى لا تتيسر فيها سبل الاتصال والتى تقل فيها نسبة المتعلمين . وإذا كانت الحرب والدمقراطية لا تجتمعان معاً ، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية قد ساعد على قيام حكم الفرد ، لأن وحدة الرياسة والإسراع فى اتخاذ القرارات لا بد منهما لقيام السياسية الحربية والاستعمارية . ولهذا أضحت الحكومة فى عهد الأمويين ملكية صريحة ، الخلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها قوة السلاح .

كذلك كان منصب الخليفة من الوجهة النظرية منصبا دينيا أكثر مما كان منصبا سياسيا . فقد كان الخليفة قبل كل شىء رئيس مجتمع دينى هو مجتمع المسلمين ، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين ، ولهذا كانت الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين . لكن الخليفة لم يكن بابا أو قسا ، ولم يكن فى مقدوره أن يصدر قرارات جديدة فى الشئون الدينية . ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان ، ولا طبقة وراثية من

الأشراف ، ولا هيئة من رجال الدين ، بل كان الذى يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده ــ وكان فى وسع من يستخدمهم من العلماء(*) ويؤدى لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد . وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص فى هذه الحكومة المطلقة . ذلك أنه كان فى مقدور أى إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء .

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا فى بلاد الشام بنظام بيزنطية الإدارى ، وفى بلاد فارس بنظام الساسانيين ، وكان لا بد أن تسير الحياة فى الشرق الأدنى على النسق القديم ، بل إن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد تخطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى فى العلوم والفلسفة الإسلامية . ونشأ فى عهد العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية ، والإقليمية ، والمحلية ، تسيره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلا باغتيال الجالسين على العرش ، أو بالثورات التى تحدث فى داخل القصر . وكان على رأس النظام الإدارى الحاجب أو رئيس التشريفات ، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات فى القصر ، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكمه فيمن يدخلون على الخليفة . وكان يليه فى مرتبته ، ولكن يفوقه فى السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير ؛ وهو الذى يعين موظفى الحكومة ، ويشرف عليهم ، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها . وكان أهم الدواوين ديون الخراج ، والحسابات ، والشرطة ، والبريد ، والنظر فى المظالم وهو الذى أصبح بمثابة محكمة ترفع إليها الأحكام القضائية والإدارية ؛ وكان يلى الجيش فى الأهمية عند الخليفة ديوان الخراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

(*) لاشك فى أن فى هذا الحكم الشامل مغالاة كثيرة . فالتاريخ الإسلامى يفيض بالشواهد الدالة على ما لرجال الدين من مواقف مشرفة ضد الخلفاء ، لاقوا بسببها كثيراً من العنت والاضطهاد . (المترجم)

البيزنطية فى عنادهم وشدتهم ؛ وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القومى لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام . وكان إيراد بلاد الخلافة كل عام فى عهد هرون الرشيد يزيد على ٥٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (نحو ٤٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) فضلا عما أضيف إليه فى ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عديدها[٧٢] . ولم يكن ثمة دَيْن قومى ، بل حدث عكس هذا فى عام ٧٨٦ إذ كان فى الخزانة رصيد يبلغ ٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم .

وكان البريد العام ، كما كان فى عهد الفرس والرومان ، لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص ، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات ، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحليين . وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها التجار والحجاج ، تحوى أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كل واحد منها عن الآخر ، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب ، وكان الحمَام يدرب ويستخدم فى نقل الرسائل — وكان هذا أول استخدام له معروف فى التاريخ (٨٣٧) . وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار ؛ وكان فى بغداد ألف وسبعمائة « امرأة عجوز » يعملن جاسوسات . غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين ابتزاز الأموال العامة أو الارتشاء . فقد كان الولاة فى بلاد العرب ، كما كانوا فى بلاد الرومان ، يرون أن سنى خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا به سلم المناصب ، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب . وكان الخلفاء فى بعض الأحيان يرغمونهم على أن يردوا ما اغتصبوه ، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يخلفونهم ، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر ٧٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله . وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية ، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء ، وقد ورد فى أحد الأحاديث أن النبى نفسه كان يرى أن اثنين على

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون فى النار[٧٣] .

وكان المفروض أن الشريعة التى تحكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن . ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين ، كما كانا عند اليهود ، شيئاً واحداً . فكل جريمة خطيئة ، وكل خطيئة جريمة ، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين . فلما أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها فى القرآن وضع بعض المشترعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً ، وبهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامى[*] ، وكان من المصادفات الغريبة المتكررة أن هذه الأحاديث تردد أصداء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبيزنطية ، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنا وجمارا اليهود وأحكامهما[٧٤] . وكانت الزيادة المطردة فى هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء فى البلاد الإسلامية ، وخلع على الفقهاء الذين يفسرون القانون أو يطبقونه من السلطان والتعظيم ما لا يقل عما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين . وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم فى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد تحالفوا مع الملكية ، وأيدوا حكم العباسيين المطلق ، ونالوا جزاءهم على هذا التأييد .

ونشأت فى البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب : أولاها مذهب أبى حنيفة ابن ثابت (المتوفى عام ٧٦٧) ، وقد أحدث انقلاباً كبيراً فى الشريعة الإسلامية باتباع مبدإ العباس فى تفسير القرآن . وهو يرى أن القانون الذى سن فى أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعى أو حضرى . وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

(*) لسنا ننكر أن هناك أحاديث منحولة ولكننا نعتقد أن الأحاديث الصحيحة السند معين لا ينضب للتشريع . (المترجم)

ويشبه هذا ما فعله هلل فى فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون . ومن أقوال أبى حنيفة فى هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق ، فهى تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التى أوجدتها(٧٥) . وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يجيز هذه الفلسفة الحرة التقدمية فى التشريع ، وهو مالك بن أنس (٧١٥ — ٧٩٥) . وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبعمائة من الأحاديث التشريعية ، ويقول إنه لما كانت كثرة هذه الأحاديث قد صدرت فى المدينة ، فإن إجماع أهل المدينة هو الذى يجب أن يؤخذ به فى تفسير الحديث والقرآن . ويرى محمد الشافعى (٧٦٧ — ٨٢٠) الذى عاش فى بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة ، وأن الإجماع فى كل بلاد الإسلام هو المحك الأخير للشرائع والسنة والحقيقة . ويرى تلميذه أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغى ، وأنشأ مذهباً آخر أساسه أن القرآن والحديث وحدهما يجب أن يكونا أساس التشريع . وندد بمذهب المعتزلة العقلى فى الفلسفة ، وألقى به المأمون فى السجن لتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة ، ولكنه استمسك بآرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته .

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة ، التى يعترف بها أهل السنة فى الإسلام ، من الاتفاق فى التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف فى المبادئ ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذى ظل قائماً مائة عام . فهى كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله ، وبأن كل شريعة خليقة بأن يحكم بها الجنس البشرى الذى لا يخضع بفطرته للقانون ، يجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله . وهى كلها تسرف فى وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافا لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودى ، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعمال السواك ، وسنن الزواج ، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

والنساء ، والطريقة الصحيحة لتصفيف الشعر ، ويروى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد فى القرآن أو الحديث ما يعرف منه الطريقة الصحيحة التى يأكله بها(٧٦) . ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامى ، ولكن اختلاف الآراء فى القانون الواحد وتجاوز منفذى القانون عن مخالفته فى بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى . غير أنه رغم هذا ، ورغم انتشار مذهب أبى حنيفة وما فيه من تسامح وحرية ، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هى النزعة المحافظة والاستمساك القوى بالسنن استمساكا يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية ، والآداب الشخصية والتفكير(*) .

ولا يسعنا إلا أن نسلم — مع هذه التحفظات — بأن الخلفاء الأولين من أبى بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية فى رقعة واسعة من العالم ، وأنهم كانوا من أقدر الحكام فى التاريخ كله . ولقد كان فى مقدورهم أن يصادروا كل شىء ، أو أن يخربوا كل شىء ، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب . ولما أن فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين ، وأيده الخليفة فى هذا الرأى وأمره أن يتركها فى أيدى الشعب يتعهدها فتثمر(٧٧) . وفى زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضى ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قبل الفتح الإسلامى صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جناناً فيحاء ؛ وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملا وحجارة فأصبحت خصبة ، غنية ، عامرة بالسكان(٧٨) . وما من شك

(*) وهذا ما لا نوافق عليه المؤلف وما لا يتفق مع الواقع ، فالإسلام بشهادة كثيرين من علماء الغرب سمح لا يعطل التفكير أو الاقتصاد أو الآداب . (المترجم)

فى أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقى فى عهد الحكومات الإسلامية كما يبقى فى عهود كل الحكومات ، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ، وهيئوا الفرص لذوى المواهب ، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون فى أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ، وازدهرت العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والفنون ازدهاراً جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة .

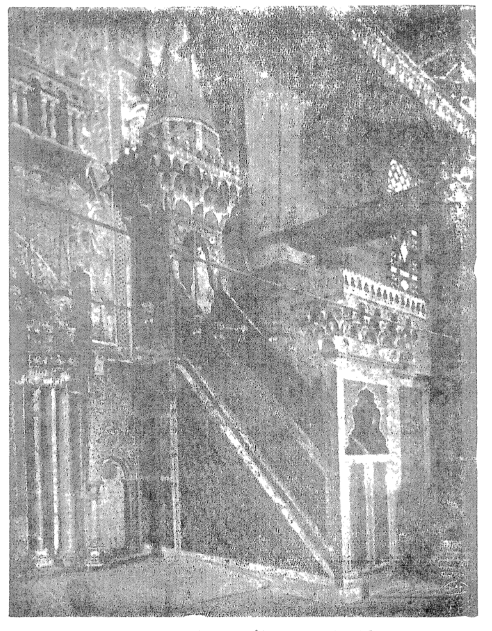
الفصل الخامس

المـــدن

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشأوا هذه الحضارة وميزوها عن غيرها من الحضارات ، ونصف أعمال هؤلاء الرجال ، أن نصور لأنفسنا البيئة التي كانوا يعيشون فيها . إن الحضارة ريفية في أصولها وقواعدها ، ولكنها مدنية في صورتها ؛ إذ لا بد أن يجتمع الناس في المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضا .

ولقد كانت البلدان الإسلامية جميعا تقريباً غير كبيرة في سعتها لا يزيد سكان الواحدة منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك ، يحشرون في رقعة من الأرض ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار ، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل ، ذات بيوت صغيرة مطلية بالجص ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار . وكان جلال المدينة كله محصوراً في مسجدها ، ولكن كانت تقوم في أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجمال والمعرفة والسعادة .

وكانت مكة والمدينة ، ولا تزالان ، في نظر المسلمين مدينتين مقدستين ، لأن في أولاهما الكعبة التي كان العرب يقدسونها في الزمن القديم ، كما أن فيها مسقط رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولأن الثانية هي المكان الذي هاجر إليه وأقام فيه . وقد جدد الوليد الثاني بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخما ذا روعة وجمال : وأرسل إمبراطور بيزنطية بناء على طلب الوليد ، وفي نظير ثمانين ألف دينار ، أربعين حملا من أحجار الفسيفساء ، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الصناع من مصر وبلاد اليونان ، حتى لقد شكا المسلمون من أن مسجد



شكل ٢) منبر المسجد الأقصى ببيت المقدس مصنوع من الخشب

خراج مصر فى تشييد عدد صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف ، وشيد فى الطرف الجنوبى من المدينة (٦٩١ — ٦٩٤) المسجد الأقصى . وقد دمر زلزال هذا المسجد فى عام ٧٤٦ ، ثم أعيد بناؤه فى عام ٧٨٥ ، وأدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة ، ولكن القبلة لاتزال كما كانت فى أيام عبد الملك ، كما أن معظم العمد مأخوذة من باسلقا جستنيان التى كانت قائمة فى أورشليم . ويرى المقدسى أن بيت المقدس أجمل من المسجد الأموى العظيم المقام فى دمشق ، ويقول المسلمون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإنه صلى فيه معهم ، وإنه رأى بالقرب منه الصخرة (التى يعتقد بنو إسرائيل أنها سرة الدنيا) والتى أراد إبراهيم أن يضحى عندها بإسحق(*) ، والتى تلقى عندها موسى تابوت العهد ، والتى شاد عندها سليمان وهيرود هيكليهما . ويعتقد بعض المسلمين أن النبي صعد عندها إلى السماء ، وأن الإنسان لو أوتى إيماناً قوياً لأبصر فى الصخر آثار قدميه . ولما أن استولى عبد الله بن الزبير على مكة فى عام ٦٨٤ وعلى ما يدخل فيها من إيراد الحج أراد عبد الملك أن يجتذب إلى الشام أموال الحجاج ، وأن يحج الناس إلى الصخرة بدل أن يحجوا إلى الكعبة ، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخى (٦٩١) « قبة الصخرة » الشهيرة على الطراز البيزنطى — السوورى ، وسرعان ما أضحت هذه القبة « رابعة عجائب العالم الإسلامى » (والثلاث الأخرى هى مساجد مكة والمدينة ودمشق) . ولم يكن هذا البناء فى أول أمره مسجداً ، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة ؛ وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم « مسجد عمر » . ويبلغ ارتفاع القبة ١١٢ قدماً ، وهى قائمة على بناء ذى ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة . ويبلغ محيط هذا البناء ٥٢٨ قدما . والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

(*) الذى يعتقده المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق . (المترجم)

الأصفر المذهب ذى النقوش البارزة . وللبناء أربعة أبواب جميلة — عتباتها مصفحة بالبرنز — تؤدى إلى الداخل الذى تقسمه صفوف من العمد المتخذة من المرمر المصقول ، متتالية ومتحدة فى المركز ، إلى أشكال مثمنة الأضلاع كل منها أصغر من الذى فى خارجه . وهذه العمد الفخمة من الآثار الرومانية القديمة ، وتيجانها بيزنطية الطراز . وتمتاز الأجزاء التى بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء ، التى تصور أشجاراً لا تقل فى جمالها عن تصوير كوربية Courbet . وأجمل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة . وعلى الطنف التى فوق العمد الخارجية نقش بالخط الكوفى ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء ، أمر به صلاح الدين فى عام ١١٨٧ ، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المعمارية الفذة . وتحيط العمد بهذه الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التى يبلغ محيطها مائتى قدم . وقد وصفها المقدسى بقوله :

« فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر فى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة »(٨٠).

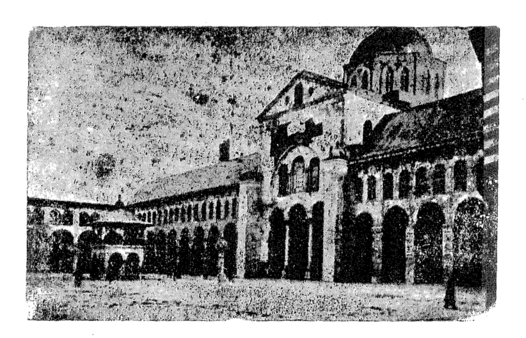
وقد أخفق عبد الملك فيما كان يسعى إليه من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة ، ولو أنه نجح فيما كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التى كانت تتنافس فى الاستحواذ على روح الإنسان فى العصور الوسطى .

ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم تكن عاصمة ولاية فلسطين ، بل نالت الشرف بلدة الرملة . وكانت فى الأماكن التى تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة فى عهود الإسلام الأولى . ومن تلك المدن عكا التى كتب عنها المقدسى فى عام ٩٨٥ يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة . وكتب الإدريسى فى عام ١١٢٤ عن صيدا يقول إنها مدينة مترامية الأطراف تحيط بها الحدائق والأشجار ، ووصف اليعقوبى فى عام ٨٩١ مدينة صور بأنها بلدة جميلة مشيدة على صخرة ،

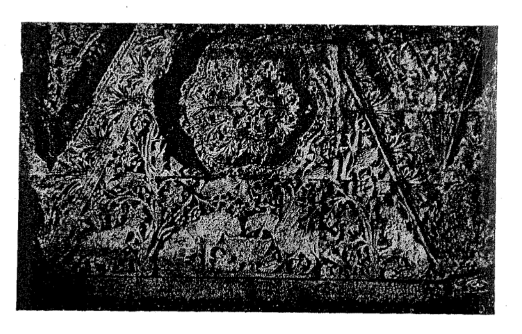
بارزة فى البحر ، ويقول ناصرخسرو فى عام ١٠٤٧ إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أوست ، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضاً فى أسواقها النظيفة[٨١]. وكان لطرابلس القائمة فى شمالها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة . واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة . وكتب ياقوت الرحالة المسلم فى عام ١٢٢٤ عن الناصرة يقول : « فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ! . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلا » [٨٢](*) .

ويصف اليعقوبى بعلبك بأنها من أجمل بلدان الشام ، ويضيف المقدسى إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء . وكانت أنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها فى عظمتها إلا دمشق وحدها . وقد امتلكها المسلمون من عام ٦٣٥ إلى عام ٩٦٤ ، ثم استولى عليها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأخير حتى عام ١٠٨٤ . ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنائسها الكثيرة الفخمة ، وبما فى بيوتها الجميلة من شرفات عالية ، وبحدائقها وبساتينها الغناء ، ويقولون إن الماء يدخل فى كل بيت من بيوتها . وكانت طرسوس من كبريات المدن ؛ ويقدر ابن حوقل (٩٧٨) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف ، وقد استعادها نقفور إمبراطور الروم فى عام ٩٦٥ ، وهدم جميع ما فيها من المساجد ، وحرق جميع المصاحف ، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل . ويصفها المقدسى بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة ، ذات شوارع تظللها الأشجار ، وتقوم على جانبها الحوانيت ويؤدى كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد . وكان فى هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور ، ومنبر تبتهج العين لرؤيته . وكان بالقرب منه خمس مدارس ، وبيمارستان ، وست كنائس مسيحية . وكتب

(*) هذه هى ترجمة النص كما أورده المؤلف أما النص كما جاء فى كتاب معجم البلدان لياقوت فهو « . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » .
(المترجم)



(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق



(شكل ٤) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام

اليعقوبى فى عام ٨٩١ يقول إن حمص أكبر مدن الشام ، وكتب الاصطخرى فى عام ٩٥٠ يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة . ويقول المقدسى إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة(٨٣) .

ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق رؤى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها فى موضع أقرب إلى وسطها من مكة أو بيت المقدس . وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم — وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين . وكان يلتقى عندها خمسة أنهار ، تجعل الإقليم الذى من خلفها « جنة الشرق » بحق ، وتمد بالماء مائة فسقية ، ومائة حمام عام ، ومائة وعشرين ألف بستان(٨٤) ، ثم تجرى نحو الغرب إلى « وادى البنفسج » الذى يبلغ طوله اثنى عشر ميلا وعرضه ثلاثة أميال . ويقول الإدريسى إن « مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكانا ، وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وأكثرها مياها ، وأغزرها فواكه ، وأعمها خصبا ، وأوفرها مالا وأكثرها جنداً(٨٥)(*) » .

وفى قلب هذه المدينـــة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذى شاده معاوية الأول ، والذى يلمع فيه الذهب والرخام ، وتتلألأ فى أرضه وعلى جدرانه الفسيفساء ، والذى تلطف جوه الفساق والشلالات التى يتدفق منها الماء على الدوام . وفى الناحية الشمالية من المدينة يقوم مسجدها العظيم وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسمائة مسجد فى المدينة ، والأثر الوحيد الباقى من دمشق الأموية . وكان موضعه فى أيام الرومان يزدان بهيكل لجوبتر ، ثم أقام ثيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩) . وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالى عام ٧٠٥ أن يعدل بناء الكنيسة

(*) ويضيف إلى ذلك « ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة . . . وبها ضياع كالمدن » ولم يقل الإدريسى إنها أجل بلاد (الله) الخ كما قال المؤلف) . (المترجم)

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه فى ذلك المكان ، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد فى أى مكان يختارونه ليقيموا فيه كنيسة جديدة . ولكن المسيحيين احتجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته ، وقالوا إنه قد ورد فى كتبهم أن من يجرؤ على هدم تلك الكنيسة سيموت مختنقا ؛ ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه . ويقول المؤرخون إن جميع خراج الأرض فى الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد ، هذا إلى المال الكثير الذى أعطى للمسيحين لينشئوا به كنيسة جديدة . وجىء بالصناع والفنانين من الهند ، وفارس ، والقسطنطينية ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، وكان من استخدم فى بنائه من العمال اثنى عشر ألف عامل ، أتموه فى ثمان سنين . والرحالة المسلمون مجمعون على أنه أفخم بناء فى بلاد المسلمين ، ويرى المهدى والمأمون من الخلفاء العباسيين — وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق — أنه لا يضارعه بناء غيره فى جميع أنحاء العالم . ويتكون البناء من سور محصن ، فى داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام . ويقوم المسجد نفسه فى الجهة الجنوبية من هذا المكان المتسع ، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن — منها واحدة هى أقدم ما شيد من المآذن فى الإسلام ، وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الرومانى ، وما من شك فى أنهما قد تأثرا بطراز أياصوفيا . وكان السقف والقبة — ويبلغ طول قطرها خمسين قدما — مكفتين بصفائح الرصاص . أما داخل المسجد الذى يبلغ طوله ٤٢٩ قدماً فيشتمل على صفين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من طرقات . وتيجان هذه العمد كورنثية الطراز مكفتة بصفائح الذهب ؛ ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حذاء الفرس ؛

وهذا الطرز الثانى من العقود أول ما أقيم من نوعه فى بلاد الإسلام(*) . وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس ، كما غطيت جدرانه بالفسيفساء ، المصنوعة من الرخام الملون وبالقاشانى المطعم بالميناء ، وفى داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات . وفى أحد جدرانه المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكاً من الزجاج الملون ومن اثنى عشر ألف قنديل . ويصفه أحد الرحالة بقوله : « ولو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى »(**) .

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم : « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ فى بلادى إن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالا »(†) .

وإذا اتجه الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الخليفة هرون الرشيد ؛ فإذا عبر نهر دجلة وصل

(*) وأقدم ما عرف من العقود المصنوعة على شكل حذاء الفرس عقد فى هيكل فى كهف ببلدة نازك فى الهند لعل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد(٨٦) . ثم استخدم هذا الطراز فى كنيسة مسيحية شيدت فى نصيبين بالعراق عام ٣٥٩ م .

(**) هذا من قول المقدسى وفى الأصل الإنجليزى « مائة سنة » ولكن المقدسى يقول سنة واحدة .

(†) وأتلفت النار أجزاء كثيرة من مسجد دمشق العظيم فى عام ١٠٦٩ ثم جدد بناؤه ، ولكن تيمورلنك أحرقه حتى لم يكد يبقى منه شىء فى عام ١٤٠٠ . ثم أعيد بناؤه مرة أخرى ، ثم أتلفته النيران إتلافاً شديداً فى عام ١٨٩٤ . وبعد هذا حل الجص والجير محل النقوش القديمة . وفى وسع الإنسان أن يشاهد حتى الآن النقش الذى كان يعلو إسكفة الكنيسة المسيحية ، والذى لم يمحه المسلمون . ونص هذا النقش هو « مملكتك أيها المسيح مملكة خالدة ، وسلطانك باق إلى أبد الدهر »(٨٨) .

إلى الموصل ، وعلى مسافة منها فى اتجاه الشمال الشرقى أيضاً تقع مدينة تبريز التى بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذى نتحدث عنه . وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (وكانت لا تزال وقتئذ بلدة صغيرة) ، ثم تليها دامغان وبعدها — فى شرق بحر الخزر — تقع جرجان . وكانت هذه البلدة الأخيرة فى القرن العاشر الميلادى قاعدة إحدى الولايات الإسلامية ، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المثقفين ، أشهرهم كلهم شمس المعالى قابوس ، الشاعر العالم الذى استضاف ابن سيناء فى بلاطه ، والذى ترك وراءه مدفناً له على شكل برج ضخم يعلو فى الجو ١٦٧ قدماً يعرف باسم جنبادى قابوس ، وهو البناء الوحيد الذى بقى حتى الآن من تلك المدينة التى بلغت فى أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان . وعلى الطريق الشمالى المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور ، التى لا يزال الناس يرددون اسمها فى شعر عمر الخيام ، وتليها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة ؛ ثم مرو التى كانت فى وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى ؛ ثم بخارى وسمرقند — وكانتا فى العادة بعيدتين عن منال أيدى الجباة . وعلى سلاسل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة . ويحدثنا الشعراء عن قصور أميرها محمود الغزنوى الفخمة ، وعن أبراجها العالية التى تطاول قمر السماء . ولا يزال يقوم فيها حتى اليوم « برج النصر » الذى شاده السلطان محمود ، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثانى . وكان الإنسان إذا رجع نحو الغرب فى القرن الحادى عشر التقى بنحو اثنتى عشرة مدينة زاهرة فى إيران — هيراة ، شيراز (ذات الحدائق الغناء الذائعة الصيت والمسجد العظيم) ، ويزد ، وإصفهان ، وكاشان ، وقزوين ، وقوم وهمذان ، وكرمنشاه ، وسامانا ؛ ثم التقى فى العراق بمدينتى البصرة والكوفة العامرتين بالسكان . وكان السائح يشاهد فى كل مكان يمر به قبابا براقة ، ومآذن متلألئة ، ومدارس ، ودوراً للكتب ، وقصوراً ، وحدائق ، وبيمارستانات ، وحمامات ، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء . ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد

التى يتغنى بها الشاعر الأنورى فى شعر فارسى يقول :

طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن ، التى لا يستطيع إنسان أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها ، إن أرباضها لتنافس فى جمالها قبة السماء الزرقاء ، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذى يبعث الحياة فى الأجسام ، وأحجارها تضارع فى تلألؤها الماس والياقوت . . . وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بلخ ؛ وجناتها المليئة بالحور العين لتعدل فى ذلك كشمير ، وآلاف القوارب ترقص وتتلألأ فوق الماء تلألؤ أشعة الشمس فى الهواء(٥٩) .

وكان فى موقع بغداد مدينة بابلية قديمة ، وهى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، وقد عثر فى عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الآجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر : وازدهرت المدينة القديمة فى عهد الملوك الساسانيين ، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامى عدة أديرة مسيحية ، معظمها للنساطرة . ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو فى الصيف ، خال من البعوض الذى يكثر فى البصرة والكوفة ؛ ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين ، اللتين كانتا فى ذلك الوقت البعيد غاصتين بالصعاليك الثوريين ؛ وما من شك فى أنه وجد فى موقعها هذا ميزة حربية ، فهو موقع أمين فى داخل البلاد ، ولكنه على اتصال مائى بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات الكبرى المتصلة به ؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخليج الفارسى وبجميع ثغور العالم . من أجل هذا كله نقل مقره هو من الهاشمية كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد ، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة أسوار دائرية وخندق ، واستبدل ببغداد اسمها القديم ومعناه « هبة الله » اسما جديداً هو مدينة السلام ، واستخدم مائة ألف من العمال فى بناء أربعة قصور عظيمة من الآجر له ولأهله ولدواوين الحكومة : وكان يقوم فى وسط

المدينة قصر الخليفة المسمى « بالباب الذهبي » نسبة إلى بابه المذهب أو « القبة الخضراء » نسبة إلى قبته البراقة . ثم شاد المنصور فى خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم « قصر الخلد » ، وكان هرون الرشيد يقيم فى هذا القصر معظم أيامه . وكان فى وسع من يقيم فى هذين القصرين أن يرى من نوافذهما مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التى جاءت بها من نصف العالم المعروف .

وفى عام ٧٦٨ أنشأ المنصور قصراً ومسجداً على ضفة النهر الشرقية الفارسية لكى يستطيع ولده المهدى أن يتخذ له فى القصر مسكناً مستقلا . وسرعان ما نشأت حول هذين الصرحين ضاحية جميلة هى ضاحية الرصافة(*) التى كان يصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب . وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون يقيمون فى هذه الضاحية ، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها فى اتساعها و ثرائها ، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فإنما يعنون بها الرصافة نفسها . وكانت شوارع ضيقة ملتوية ، أنشئت على هذا النحو لتقى الأهلين من وهج الشمس وتقوم على جانبيها الحوانيت الصاخبة ، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء ، وكان لكل طائفة من طوائف الصناع شارعها الخاص أو سوقها الخاصة — فهذا حى بائعى العطور ، وذاك حى صانعى السلال ، وهنا حى صانعى الأسلاك ، وهناك حى الصيارفة مستبدلى النقود ، وذاك حى البزازين ، وهذا حى الوراقين وما إلى ذلك . وكانت بيوت الأهلين تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورائها . وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الأغنياء مقامة من اللبن ، تبقى ما بقى صاحبها حياً ولكنها لا تدوم كثيراً بعده . وليس لدينا إحصاء لسكان المدينة موثوق به ، والراجح أنهم كانوا يبلغون

(*) الرصافة ككناسة بلد بالشام ومحلة ببغداد ، وبلد بالبصرة ، وبلد بالأندلس ، وبلد بأفريقية . (المترجم)

٨٠٠ر٠٠٠ ، وإن كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين[٩٠] ؛ ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت فى القرن العاشر الميلادى أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم . وكان فيها حى للمسيحيين مزدحم بهم ، تقوم فيه كنائس ، وأديرة ، ومدارس ؛ وكان لكل من النساطرة ، واليعاقبة ، والمسيحيين أصحاب العقيدة الصحيحة ، أمكنة عبادتهم الخاصة بهم . وقد جدد هرون بناء مسجد أقامه المنصور ووسعه ، ثم جدد المعتهد بناء هذا المسجد نفسه وزاد مساحته ؛ وما من شك فى أن مئات من المساجد قد شيدت ليتعبد فيها سكان المدينة .

وبينا كان الفقراء يواسون أنفسهم فى حياتهم الشاقة بأملهم فى نعيم الدار الآخرة ، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة . ذلك أنهم شادوا فى بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة ، والبيوت ذات الحدائق ، والدور التى تبدو بسيطة من الخارج ولكنها كانت فى الداخل « لآ، وردا وذهبا » . وفى وسعنا أن نتصور ما كانت عليه من الفخامة من وصف لها بقلم أبى الفداء لا يكاد يصدقه العقل يقول فيه إن قصر الخليفة فى بغداد قد فرشت على أرضه ٢٢ر٠٠٠ طنفسة ، وعلقت على جدرانه ٣٨ر٠٠٠ قطعة من القماش المزركش و١٢ر٥٠٠ قطعة من الحرير[٩١] ؛ وكانت قصور الخليفة وأسرته ومساكن الوزير ورؤساء دواوين الحكومة تشغل فى المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع(*) . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكى هجرة الطبقة الموسرة إلى بغداد حين شاد لنفسه فى الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصراً فخماً كانت عظمته من أسباب هلاكه . وقد حاول جعفر أن يتقى حسد هرون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون ؛ وقبل الرشيد الهدية لابنه ، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم فى « القصر الجعفرى » إلى آخر أيام حياته . ولما أخذت قصور المنصور

(*) أى أكثر من ستمائة فدان . (المترجم)

وهرون تنهار ، أقيمت فى مكانها قصور أخرى : وقد أنفق المعتمد على قصره المعروف « بقصر الثريا » (٨٩٢) ٤٠٠,٠٠٠ دينار (أى ما يقرب من ١,٩٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) : وفى وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان فى اسطبلاته ٩٠٠٠ من الإبل والبغال(٩٢) : وشاد المكتفى بجواره « قصر التاج » (٩٠٢) ؛ وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة . وشاد المقتدر « بهو الشجرة » وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان فى البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب ، على أوراقها وأغصانها الفضية تجثم طيور من الفضة ، تنطق ألسنتها بأناشيد آلية . وبز سلاطين آل بويه جميع أولئك الخلفاء فأنفقوا ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى بناء قصر المعزية . وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة ، حتى إذا استقبل المقتدر فى عام ٩١٧ سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً ، وإيواناتها ذات العمد الرخامية ، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطئها الحصر تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والجدران ، وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيول الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وما فى الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى فى نهر دجلة وتنتظر أهواء الخليفة :

وكانت الطبقات العليا تعيش فى وسط هذا النعيم عيشة الترف ، واللهو ، والقلق ، والدسائس . فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الخيل أو لعب الجحفة ، ويحتسون الخمر المعتقة المحرمة ، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصى البلاد بأغلى الأثمان . ويرتدون هم ونساؤهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب ، ويعطرون ثيابهم ، وشعرهم ، ولحاهم ، ويستنشقون رائحة العنبر والكندر ، ويزينون رؤوسهم ، وآذانهم ، ورقابهم ، ومعاصمهم ،

وسيقانهم بالحلى الثمينة . ويقول شاعر يتغزل فى فتاة إن رنين خلاخيلها قد سلبه عقله(٩٣) . ولم تكن النساء فى العادة يحضرن مجتمعات الرجال ، وكان يحل محلهن الشعراء ، والمطربون ، والسمار الفكهون ، وما من شك فى أنهم كانوا يتحدثون عن الحب ؛ وكانت الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح الرجال أسرى لهن . وفى المجتمعات التى كانت أكثر من هذه أدباً كان الناس يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم . ومنهم من أنشأوا ندوات فلسفية كإخوان الصفا ، ويحدثنا المؤرخون عن نادى قائم حوالى عام ٧٩٠ مؤلف من عشرة أعضاء ، واحد من السنيين ، وآخر من الشيعة ، وثالث من الخوارج ، ورابع من المانوية(*) ؛ ومن شاعر غزلى ، وفيلسوف مادى ، ومسيحى ، ويهودى ، وصابئى ، وزردشتى . ويقول المؤرخون إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل ، والفكاهة الحلوة ، والنقاش الهادئ الذى يمتاز بالأدب والمجاملة(**)(٩٤) . ويمكن القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الرقى ؛ وما من شك فى أن الشرق من عهد قورش إلى لى هونج تشانج قد فاق الغرب فى الرقة والكياسة ؛ وكان من المظاهر التى تشرف بها الحياة فى بغداد أن الفنون والعلوم التى لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يشجعها ويأخذ بناصرها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة فى جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء .

ولا يحدثنا المؤرخون بالشىء الكثير عن حياة الدهماء ، وكل ما نستطيع أن نفترضه هو أنهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرح الفخم بخدماتهم وكدحهم .

(*) أتباع مانى وهو رجل من أهل إكباتانا (همذان) (٢١٥ – ٢٧٦) ، وكان يقول إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر .

(**) ما أشبه هذا بالمجتمع الخيالى الذى يحدثنا عنه لويس دكنسن فى كتابيه « معرض الآراء الحديثة » و « العدالة والحرية » وقد ترجما إلى اللغة العربية . (المترجم)

فبينا كان الأغنياء يلهون بالآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والعلم ، كان عامة الشعب السذج يستمعون إلى المغنين فى الشوارع ، أو يعزفون على أعوادهم وينشدون أغانيهم . وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبدل من ضجيج الشوارع ورائحتها ؛ وكان الناس فى أيام الأعياد يتزاورون ، ويتبادلون الهدايا ، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلانه منها ، ويطعمون فى تلك الأيام بشهية أقوى من شهية الذين يطعمون فى صحاف الذهب . وحتى الفقير نفسه كان له حظ فى جلال الخليفة وفخامة المسجد ، ولم يكن محروماً من دريهمات من دنانير الخراج الذى كان يرد إلى بغداد . وكان يسير فخوراً معتزاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة ، وكان فى قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه .

الباب الثاني عشر

الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

٦٣٢ — ١٠٥٨

الفصل الأول

التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبى كان يحث على طلب العلم ويعجب به ، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول : « من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء »[1] .

ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية فى بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ، ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا فى بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام . فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء ، وبعض البنات ، وجميع الأولاد ، عدا أبناء الأغنياء (الذين كان لهم معلمون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة فى العادة بأحد المساجد ، وفى بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة فى الخلاء . وكان التعليم فى هذه المدارس عادة بالمجان ، فإن لم يكن فقد كان أجره تافهاً يستطيع أداءه جميع الناس ؛ فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام ٧٩٤ على يد الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد . ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا . وقبل هذا نجد الورق مستخدما في بلاد الصين منذ عام ١٠٥ م ، ثم نجده في مكة سنة ٧٠٧ ، وفي مصر سنة ٨٠٠ ، وفي أسبانيا سنة ٩٥٠ ، وفي القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفي صقلية سنة ١١٠٢ ، وفي إيطاليا سنة ١١٥٤ ، وفي ألمانيا سنة ١٢٢٨ ، وفي إنجلترا سنة ١٣٠٩[٧] . ويسر هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبي إنه كان في بغداد على أيامه (٨٩١) أكثر من مائة بائع للكتب ، كانت حوانيتهم تستخدم ، فضلا عن بيع الكتب ، لنسخها ، وكتابة الخط المزخرف ، كما كانت ندوات أدبية . وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات ، وبيعها لتجار الكتب ، ونسمع في القرن العاشر الميلادي عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم ، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثمانا عالية للمخطوطات النادرة[٨] . ولم يكن المؤلفون يحصلون على شيء من بيع كتبهم ؛ وكانوا يعتمدون في معاشهم على وسائل للرزق أثبت من هذه وأقوى أساساً ، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوي المال أو الحسب والنسب .

وكانت في معظم المساجد مكتبات ، كما كان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وكان في مدينة الموصل عام ٩٥٠ مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين ، يجد فيها من يؤمونها حاجتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التي اشتملت عليها مكتبة الري العامة عشر مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطي رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ؛ وقضى ياقوت الجغرافي في مكتبتي مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التي يتطلبها كتابه معجم البلدان . ولما أن

دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة[٩] ، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة ، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتني الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب . ودعا سلطان بخارى طبيبا مشهوراً ليقيم فى بلاطه فأبى محتجاً بأنه يحتاج إلى أربعمائة جمل لينقل عليها كتبه[١٠] ، ولما مات الواقدى ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه . « وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما فى دور الكتب الأوربية مجتمعة »[١٢] . ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب فى بلد آخر من بلاد العالم — اللهم إلا فى بلاد الصين فى عهد منج هوانج — ما بلغه فى بلاد الإسلام فى القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر . ففى هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الدين ، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ؛ وكان بلاط مئات الأمراء يرددون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ؛ ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون . وسرعان ما استوعب العرب ذوو البديهة الوقادة ثقافة الأمم التى فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثرة الغالبة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم فى العلوم والآداب . وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هولاء الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء .

وقد قوى علماء الإسلام فى ذلك العهد دعائم الأدب العربى الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذى جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس ؛ وبما وضعوه من المعاجم التى جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات فى دقة ونظام ؛ وبموسوعاتهم ، ومختصراتهم ، وكتبهم الجامعة ، التى جمعت كثيراً من أشتات الآداب والعلوم

لولاها لخسرها العالم ؛ وبمؤلفاتهم فى النصوص ، والأدب ، والنقد التاريخى ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام ، وحسبنا أن نعترف بفضلهم ونمجد أعمالهم .

وأكثر من تحتفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون ، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التى لولاهم لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمپليون . ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام ٧٦٧) كاتب سيرة النبى ؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣) فكانت أقدم كتاب عربى منثور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا — إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه . وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة فى سير الأولياء الصالحين ، والفلاسفة ، والوزراء ، والمشترعين ، والأطباء ، والخطاطين ، وكبار الحكام ، والعشاق ، والعلماء . وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ للعالم ، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحت إليه أن يجعل نصيب الدين الذى ينتمى إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحيز المتواضع الذى يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أى دين فى كتاب تاريخ جامع لأحداث الدهر الكثيرة . وأخرج محمد بن النديم فى عام ٩٨٧ كتابه « **فهرست العلوم** » أرخ فيه لكل كتاب ظهر فى اللغة العربية ، مؤلفاً كان أو مترجماً ، فى كل فرع من فروع العلم ، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفيها ، ذكر فيها فضائل كل مؤلف وعيوبه . وفى وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامى فى أيامه إذا عرف أن الكتب التى ذكرها — على ما نعلم — لم يبق منها الآن واحد فى الألف[١٣] .

وشبيه بليڤى فى الغرب أبو جعفر محمد الطبرى (٨٣٨ — ٩٢٣) عند المسلمين[١٤] . وكان أبو جعفر من أصل فارسى كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين ، ولد فى طبارستان الواقعة فى جنوب بحر قزوين . وبعد أن ظل عدة

سنين يطوف فى بلاد العرب والشام ومصر ، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه ، استقر فى بغداد واشتغل بالقضاء . ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه **كتاب أخبار الأمم والملوك** قص فيهَ تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام ٩١٣ . والجزء الباقى إلى الآن من هذا الكتاب يشمل خمسة عشر مجلداً كبيراً ، ويقول المؤرخون إن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباقى . ويرى الطبرى ، كما يرى بوسويه Boussuet ، يد الله فى كل حادثة تقع فى العالم ، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله « فى امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته » وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم ، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض[١٦] . ونهج الطبرى نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ اليهود ، وقال إن مريم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جبريل نفخ فى كمها)[١٧] . وختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء . أما الجزء الثانى فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول ، وفيه يقص تاريخ فارس فى عهد الساسانيين قصصاً مقبولا حياً ، ذا روعة فى بعض المواضع . ويتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام ، وهى فى العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل بها إلى من شاهدها بعينه ، أو وقعت فى أيامه . وفضل هذه الطريقة أنها تعنى بذكر المصادر ؛ ولكن الطبرى لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة ، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكداساً من ثمار الجهد المضنى لا عملا من أعمال الفن .

ويرى المسعودى ، وهو أعظم من جاء بعد الطبرى من المؤرخين ، أن الطبرى أعظم من سبقه منهم . كان أبو الحسن على المسعودى من أصل عربى فى بغداد ؛ وجاب بلاد سوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وزنجبار ، وفارس ، وأواسط آسية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

الصين : وقد جمع ثمار رحلاته هذه فى موسوعة تشتمل على ثلاثين مجلداً ، رآها علماء الإسلام أنفسهم ، وهم المعروفون بغزارة مادتهم ، أطول مما يطيقون ؛ ثم نشر موجزاً لها كان هو الآخر أطول مما يجب ، ولعله رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذى يصرفونه فى القراءة مثل ما يجده هو منه ليصرفه فى الكتابة ، فاختصر كتابه مرة أخرى إلى الحد الذى نعرفه الآن وسماه بذلك الاسم الغريب « مروج الذهب ومعادن الجوهر ». ودرس المسعودى جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين إلى فرنسا من النواحى الجغرافية والنباتية ، والحيوانية ، والتاريخية ، كما درس عادات أهلها ، وأديانهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، فكان فى العالم الإسلامى كما كان پلنى وهيرودوت فى العالم الغربى . ولم يوجز المسعودى فى كتابته إلى الحد الذى يجعلها عقيمة جافة ، بل كان فى بعض الأحيان يتبسط فيها ، وينطلق على سجيته ، فلا يحاجز نفسه عن أن يروى بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية . وكان متشككاً بعض الشىء فى الدين ، ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه : وقد لخص فى آخر سنة من حياته آراءه فى العلم ، والتاريخ ، والفلسفة فى كتاب الاستذكار لما مر فى سائر الأعمار ، وكتاب ذخائر العلوم وما فى سائر الدهور . وقد أشار إلى تطور الكائنات من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان[١٨] . ولعل هذه الآراء قد جرته إلى المشاكل مع المحافظين من أهل بغداد ، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة المدينة التى ولد فيها وشب وترعرع ، وجاء إلى القاهرة وهو آسف على فراق موطنه . وقال فى هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس جميعاً ويباعد بينهم . . . وإن الله يبارك للأمم إذا أحب أبناؤها مواطنهم ، وإن

من أمارات التقى والاستقامة أن يحن الإنسان إلى مسقط رأسه ، ومن علامات النبل وكرم المحتد أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه(١٩) .

ووافته المنية فى القاهرة بعد عشر سنين قضاها بعيداً عن بلده .

وخير ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم فى اتساع دائرة جهودهم ، ونواحى نشاطهم ، واهتمامهم ، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صحيحاً ، وأنهم لا يفوتهم شىء مما يتصل ببنى الإنسان ، وأنهم يعلون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين فى العالم المسيحى . ولكنهم مع هذا كله كثيراً ما يضلون فى دياجير السياسة ، والحرب ، والبلاغة اللفظية ؛ وقلما يعنون ببحث العلل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسانية التى تتحكم فى الحوادث ، وإن مجلداتهم الضخمة لتعوزها الطريقة البنائية المنتظمة ، فلسنا نجد فيها إلا أكداساً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة — عن الأمم ، والحادثات ، والشخصيات ، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً(*) دقيقاً نزيهاً ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً ، مصدره شدة تقواهم واستمساكهم بالدين ، على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلا قد تكون حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة . ومن أجل هذا تهبط قصتهم فى بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال ، وتمتلئ بالنذر ، وأخبار المعجزات ، وبالأساطير . وكما أن فى وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جبن Gibbon على الدوام) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى ، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذيلا موجزاً للحروب الصليبية ، كذلك اقتضب كثيرون من المؤرخين المسلمين تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبى محمد . على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربى أن يصدر

(*) لا شك أن الكاتب ينظر إلى هؤلاء المؤرخين بعين هذه الأيام ويقيسهم بمؤرخى القرن العشرين . (المترجم)

على الشرقى حكماً صحيحاً نزيها ؟ إن اللغة العربية تفقد جمالها فى الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها ، وإن الموضوعات التى تمتلئ بها صحائف المؤرخين المسلمين ، وهى التى تبدو ذات روعة وجمال لبنى أوطانهم ، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب الذين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم .

الفصل الثانى

العـــلوم (*)

لم يدخر المسلمون فى هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً فى العمل على إيجاد هذا التفاهم الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق : فلقد أدرك الخلفاء تأخر العرب فى العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلفه اليونان من ثروة علمية غزيرة فى بلاد الشام . لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية ، أو الصابئية ، أو الفارسية ، قائمة فى الإسكندرية ، وبيروت ، وأنطاكية ، وحران ، ونصيبين ، وغنديسابور لم يمسوها بأذى ، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب فى الفلسفة والعلم ، معظمها فى ترجمته السريانية . واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية ، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدى النساطرة المسيحيين أو اليهود . وشجع الأمراء من بنى أمية وبنى العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة ، وأرسل المنصور ، والمأمون ، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية — وأرسلوهم فى بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين — يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية ، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية . وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس فى الهندسة إلى أيدى المسلمين . وأنشأ المأمون فى بغداد عام ٨٣٠ بيت الحكمة وهو مجمع علمى ، ومرصد فلكى ، ومكتبة عامة ،

(*) واجب على كل كاتب عن العلوم عند المسلمين أن يسجل ما هو مدين به إلى چورچ سارتن Geroge Sarton صاحب كتاب « المدخل فى تاريخ العلوم » . فليس هذا الكتاب القيم من أجل الأعمال فى تاريخ البحث العلمى فحسب ، بل إنه فوق ذلك قد أدى خدمة تجل عن التقدير إذ كشف عن غنى الثقافة الإسلامية واتساع مداها ، وإن العلماء فى كل مكان ليرجون من صميم قلوبهم أن يقدم كل ما يستطاع تقديمه من المعونة لإتمام هذا العمل الجليل .

وأنفق فى إنشائه مائتى ألف دينار (نحو ٠٠٠ر٩٥٠ ريال أمريكى) . وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال . ويقول ابن خلدون[٢٠] إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمى باليقظة الإسلامية الكبرى التى اهتزت بها أرجاؤه والتى تشبه فى أسبابها — وهى انتشار التجارة ، وإعادة كشف كنوز اليونان — وفى نتائجها — وهى ازدهار العلوم والفنون — نقول إنها تشبه فى أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى .

ودامت هذه الأعمال ، أعمال الترجمة المخصبة المثمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ ، وفى هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية ، واليونانية ، والفهلوية ، والسنسكريتية . وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين فى بيت الحكمة طبيب نسطورى هو حنين بن إسحق (٨٠٩ — ٨٧٣) : وقد ترجم وحده — كما يقول هو نفسه — إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية ، وإلى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة أخرى . وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وترجم حنين فضلا عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغورياس) والطبيعة ، والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وكتب الجمهورية ، وطيماوس ، والقوانين لأفلاطون ؛ وعهد أبقراط ، وكتاب الأقرباذين لديوسقريدس Dioscorides . وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية . وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التى ترجمها ذهباً . ولما ولى الخلافة المتوكل عينه طبيبا لبلاطه ، ولكنه زج به سنة فى السجن حين أبى أن يركب له دواء يقضى به على حياة عدو له مع أن الخليفة أنذره بالموت إن لم يفعل . وكان ابنه إسحق بن حنين يساعد أباه فى أعمال الترجمة ، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو

كتب الميتافيزيقا ، والنفس ، وفى توالد الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسى ، وهو كتاب كان له أثر كبير فى الفلسفة الإسلامية .

ولم يحل عام ٨٥٠ بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة فى علوم الرياضة ، والفلك ، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية . وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطى على كتاب بطليموس فى الفلك ، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥ ، ٦ ، ٧ من المخروطات لأبولونيوس البرجاوى Apollonius of Perga وكتاب الحيل لهيرو الإسكندرى وكتاب الخصائص الآلية للهواء والغازات لفيلون البيزنطى . ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعلهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليونانى والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية ، فقد سار المسلمون فى ركاب الفرس فى هذه النواحى من النشاط العلمى والأدبى بدل أن يسيروا فى ركاب اليونان . وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدى المسلمين إلا فى الصورة التى أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة : فقد وصلت إليها كتب أفلاطون كما فسرها پورفيرى Porphyry ، ووصلت كتب أرسطو ممسوخة فى صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوجيا أرسطوطاليس ، وقد ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش فى القرن الخامس أو السادس ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه . ولم يكد العرب يتركون كتاباً من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية ، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة فى كثير من المواضع ، ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن ، ولجأوا إلى الشروح التى كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان فى صورتها الأصلية . ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

الحقة إلى أيدى المسلمين إلا ما كان منها فى المنطق وعلم الطبيعة .

وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالا مستمراً من مصر ، والهند ، وبابل ، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطية ، إلى بلاد الإسلام فى الشرق وفى أسبانيا ، ومنها إلى شمالى أوربا وأمريكا ، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأنا فى تاريخ العالم . لقد كانت علوم اليونان حية فى بلاد الشام حين أقبل عليها العرب فاتحين ، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها بسبب ما اكتنفها قبلئذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد فى الحكم . وكان الراهب سفيرس سبخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين إحدى مدن أعالى الفرات يكتب باليونانية رسائل فى الفلك ، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية فى خارج بلاد الهند . (٦٦٢) . لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتى الهند فى هذا فى المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان . فى عام ٧٧٣ أمر المنصور بترجمة **السدهنتا** وهى رسائل هندية فى علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق . م . وربما كانت هذه الرسائل هى الوسيلة التى وصلت بها الأرقام « العربية »(*) والصفر من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام[٢١] . فى عام ٨١٣ إستخدم الخوارزمى الأرقام الهندية فى جداوله الرياضية ؛ ثم نشر فى عام ٨٢٥ رسالة تعرف فى اللاتينيه باسم Algoritmi de numero Indorum « أى الخوارزمى عن أرقام الهنود » . وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على العديّة العشرية . وفى عام ٩٧٦ قال محمد بن أحمد فى **مفاتيح العلوم** إنه إذا لم يظهر فى العمليات الحسابية رقم فى مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف[٢٢] . وسمى المسلمون هذه الدائرة « صفراً »

(*) يسمى الإفرنج هذه الأرقام بالعربية لأنهم أخذوها من العرب ولكن العرب أنفسهم يسمونها بالأرقام الهندية لأنهم أخذوها عن الهنود . (المترجم)

أى خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية Cipher ؛ وحور العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero .

ويدين علم الجبر ، الذى نجد أصوله فى مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليونانى من رجال القرن الثالث ، باسمه إلى العرب ، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات . وأبرز الشخصيات فى هذا الميدان العلمى هى شخصية محمد بن موسى (٧٨٠ — ٨٥٠) المعروف بالخوارزمى نسبة إلى مسقط رأسه فى خوارزم (خيوة الحديثة) الواقعة شرقى بحر الخزر ، وقد كتب الخوارزمى رسائل قيمة فى علوم خمسة : كتب عن الأرقام الهندية ، وجمع أزياجاً فلكية ، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت فى بلاد الأندلس الإسلامية هى المعمول بها فى جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان فى الصين ؛ وهو الذى وضع أقدم الجداول المعروفة فى حساب المثلثات ، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء فى وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون ، وأورد فى كتابه **حساب الجبر والمقابلة** حلولا تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية . ولقد ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ، لكن جرارد الكريمونائى Gerard of Cremona ترجمه فى القرن الثانى عشر . وظلت ترجمته تدرس فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، ومنه أخذ الغرب كلمة **الجبر** وسموا بها ذلك العلم المعروف . واشتهر ثابت بن قرة (٨٢٦ — ٩٠١) ، فضلا عما ترجمه من الكتب الكثيرة ، بمؤلفاته فى الفلك والطب ، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين . وارتقى أبو عبد الله البتانى (٨٥٠ — ٩٢٩) وهو رجل صابئى من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albategnus ، بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التى كان عليها فى أيام هپارخوس وبطلميوس ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هپارخوس . وهو الذى صاغ

حساب المثلثات النسب بالصورة التى نستخدمها الآن فى جوهرها .

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكى ، ويدرسوا كلف الشمس . واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار فى وقت واحد . وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى ميل — وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا فى الوقت الحاضر . ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل . ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية ، وكانوا يسيرون فى بحوثهم على قواعد علمية خالصة ، وكتب أحدهم —الفرغانى من أهل فرغانة وهى ولا يةوراء جيحون (حوالى عام ٨٦٠) — كتاباً فى الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوربا وغربى آسية سبعمائة عام . وأوسع منه شهرة البتانى الذى ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها . وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من « المعاملات » الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام — منها تقديره زيوح الاعتدالين(*) بـ ٥٤٫٥ً فى العام ، وميل مستوى الفلك بـ ٥٥َ ٢٣° (٢٣) . ومنهم أبو الوفا الذى كان يعمل تحت رعاية سلاطين بنى بويه الأولين حكام بغداد والذى كشف (كما يقول سادلو Sadilot وإن كان قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو براهى Tycho Brahe بستمائة عام(٢٤) . وقد أقيمت للفلكيين المسلمين آلات غالية الثمن لم تقتصر على الاسطرلاب ، والكرات ذوات الحلق التى كانت معروفة لليونان الأقدمين ، بل كانت تشمل كذلك آلات لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدما ، وآلات سدس نصف قطرها ثمانون قدما . وقد أدخل المسلمون على الاسطرلاب تحسينات كثيرة ،

(*) Procession of the Equinoxes

ووصل منهم إلى أوربا فى القرن العاشر الميلادى ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه ، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً .

وهذا الاهتمام العظيم بتصوير السماء قد فاقه اهتمامه بتصوير أقاليم الأرض لأن المسلمين كانوا يعيشون على فلح الأرض وعلى التجارة فى أقاليمها المختلفة . فقد حمل سليمان التاجر — الذى عاش حوالى عام ٨٤٠ سلعه إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكتب أحد المؤرخين غير المعروفين (٨٥١) وصفاً لرحلة سليمان هذا ، كان هو أقدم وصف عربى لبلاد الصين ، وكتبه قبل **رحلات** ماركو پولو Marco Polo بأربعمائة وخمسة وعشرين عاما . وفى ذلك القرن نفسه كتب ابن خرداذبه وصفاً لبلاد الهند ، وسيلان ، وجزائر الهند الشرقية ، وبلاد الصين ، ويبدو أنه اعتمد فيما كتب على رحلاته فى تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه . ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية ، وكتب أحمد اليعقوبى ، من أهل أرمينية وخراسان فى عام ٨٩١ **كتاب البلدان** الذى وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من الدول الأجنبية وصفاً خليقاً بالثقة . وزار محمد المقدسى جميع البلاد الإسلامية فضلا عن بلاد الأندلس ، ولاقى فى أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد ، ثم كتب عام ٩٨٥ **كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، وهو أعظم كتاب فى جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيرونى عن الهند :

ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣— ١٠٤٨) العالم الإسلامى فى أحسن صورة له . فقد كان البيرونى فيلسوفا ، ومؤرخاً ، ورحالة ، وجغرافياً ، ولغوياً ، ورياضياً ، وفلكياً ، وشاعرا ، وعالماً فى الطبيعيات — وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان من هذه الميادين . وكان عند المسلمين كما كان ليبنتز ، ويوشك أن يكون كما كان ليوناردو دافنشى ، عند

الغربيين : وقد ولد كما ولد الخوارزمى بالقرب من مدينة جنوى الحالية ، وتمثل فيه:كما تمثل فى الخوارزمى زعامة موطنه فى غرب بحر قزوين من الناحية العلمية فى هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التى بلغ فيها العلم ذروته . وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً فى بلاطهم . وسمع محمود الغزنوى بكثرة من كان فى خوارزم من الشعراء والفلاسفة ، فطلب إلى أميرها أن يبعث إليه بالبيرونى ، وابن سينا ، وغيرهما من العلماء ؛ وأدرك الأمير أن هذا أمر واجب الطاعة (١٠١٨) ، وسافر البيرونى ليحيا حياة الجد والهدوء والعزة والكرامة فى بلاد المليك المحارب فاتح الهند . ولعل البيرونى قد دخل الهند فى ركاب محمود نفسه ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف فى الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وآثارها القديمة ، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذى لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له . ويقال إن رجلا من شمالى آسية زار محموداً ووصف له إقليما ادعى أنه رآه بعينه ، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبداً . ولم يصدق محمود هذا القول ، وغضب على الرجل وأوشك أن يزجه فى السجن لجرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول ، فما كان من البيرونى إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحا أقنع به الملك وأنجى الزائر[٣٦] . وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ ينفح البيرونى بالهدايا والأموال ، وكثيراً ما كان البيرونى نفسه يردها إلى بيت المال لزيادتها على حاجته .

وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم **الآثار الباقية** فى التقاويم والأعياد عند الفرس ، وأهل الشام ، واليونان ، واليهود ، والمسيحيين ، والصابئين ، والزردشتيين ، والعرب . والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة ، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية . وكان البيرونى يميل إلى مذهب الشيعة ، وكان ذا نزعة متشككة خالية من المباهاة والادعاء ؛ غير أنه ظل يحتفظ

بقسط من الوطنية الفارسية ، وأنحى باللائمة على العرب لقضائهم على ما كان فى العهد الساسانى من حضارة عظيمة[٢٧] . أما فيما عدا هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية ، المجد فى البحث العلمى ، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) ، المدقق ، النزيه ، ذى الضمير الحى فى أحكامه ، وكثيراً ما كان يعترف بجهله ، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تنكشف له الحقيقة . وقد قال فى مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن فى بعض كتبه « . . . بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغلب بالرياسة ، وأشباه ذلك . . . . . وبغير ذلك ، لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد » .

وبينما كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها ، كان البيرونى يقضى السنين الطوال فى دراسة شعوبها ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وثقافتهم ، ومختلف طوائفهم . وأثمرت هذه الدراسة كتابه تاريخ الهند الذى نشره فى عام ١٠٣٠ والذى يعد أعظم مؤلفاته . وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره ، وذكر أنواع الكذابين الذين ألفوا كتباً فى التاريخ[٢٨] . ولم يخص تاريخ الهند السياسى إلا بحيز صغير فى كتابه ولكنه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلا من فصوله وخص أديانها بأحد عشر . وكان من أهم ما سحر لبه البهاجافاد جيتا وأدرك ما بين تصوف القدانتا ، والصوفية ، والفيثاغورية الحديثة ، والأفلاطونية الحديثة من تشابه . وأورد مقتطفات من كتابات مفكرى الهنود ، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان ، وفصل آراء اليونان عن آراء الهنود ، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط ، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام[٢٩] . ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكأنما أراد أن يوفى بدينه للهند

فترجم إلى السنسكريتية كتاب أصول الهندسة لإقليدس والمجسطى لبطليموس .

وكادت عنايته تشمل جميع العلوم ، فقد كتب عن الأرقام الهندية أوفى بحث فى العصور الوسطى ؛ وكتب رسالة عن الاسطرلاب ، ودائرة فلك البروج ، وذات الحلق ، ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود . ولم يكن يخالجه أدنى شك فى كرية الأرض ، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها ، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة فى كل يوم ، وحول الشمس مرة فى كل عام ، بنفس السهولة التى تفسر بها إذا افترضنا العكس[٣٠] . وقال إن وادى نهر السند ربما كان فى وقت من الأوقات قاع بحر[٣١] ، وألف كتاباً ضخما فى الحجارة وصف فيه عدداً عظيما من الأحجار والمعادن من النواحى الطبيعية وشرح قيمتها التجارية والطبية . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التى تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذى يزيغه[٣٢] . وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الإلتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة ، كما تحدث فى القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحبات الرمل . ووضع فى الهندسة حلولا لنظريات سميت فيما بعد باسمه . وألف موسوعة فى الفلك ، والتنجيم ، والعلوم الرياضية ؛ وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأوانى المستطرقة[٣٣] . وألف تواريخ حكم السلطان محمود ، وسبكتجين ، وتاريخا لخوارزم . ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ العلماء . وإن كثرة مؤلفاته فى الجيل الذى ظهر فيه ابن سينا ، وابن الهيثم ، والفردوسى لتدل على أن الفترة الواقعة فى أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر هى التى بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها ، وهى التى وصل فيها الفكر فى العصور الوسطى إلى أعلى درجاته .

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها فى الميدان الذى اقتصر فيه اليونان — على ما نعلم — على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة . فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم ، وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلا كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات فى الحجارة ، وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التى تميل إليها ، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية ، وركبوا مئات منها(*) . وكان علم تحويل المعادن إلى ذهب ، الذى أخذه المسلمون من مصر هو الذى أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق ، عن طريق مئات الكشوف التى تبينوها مصادفة ، وبفضل الطريقة التى جروا عليها فى اشتغالهم بهذا العلم وهى أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة . ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين فى ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع فى نهاية أمرها إلى أصول واحدة ، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر . وكان الهدف الذى يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن « الخسيسة » كالحديد ، أو النحاس ، أو الرصاص ، أو القصدير إلى فضة ، أو ذهب . وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة — يدأبون على البحث عنها ولا يصلون إليها — إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح ، حدث فيها التغير المطلوب . وكان الدم ، والشعر ، والبراز ، وغيرها من المواد تعالج « بكواشف » متنوعة ، وتعرض لعمليات التكليس ، والتصعيد ، وللضوء ، والنار ، علها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحرى[٣٦] . وكان الاعتقاد السائد أن الذى يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

(*) الكحول كلمة عربية ولكن هذه المادة ليست من مخترعات العرب . وقد ذكر أول ما ذكر فى مؤلف إيطالى ظهر فى القرن التاسع أو العاشر(٣٥) الميلادى ، وكان الكحل عند المسلمين مسحوقاً تطلى به الحواجب .

يطيل حياته . وكان أشهر الكيميائيين المسلمين جابر بن حيان (٧٠٢ — ٧٦٥) المعروف عند الأوربيين باسم جبير Gebir . وكان جابر ابن عقار كوفى ، اشتغل بالطب ، ولكنه كان يقضى معظم وقته مع الأنابيق والبوادق . ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ، ولكنها فى الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم فى القرن العاشر : وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التى لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل فى تقدم علم الكيمياء فى أوربا : وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم ، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثلثمائة عام لا يرفع فيها رأسه .

وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين فى ذلك العصر . ومن هذه الآثار *كتاب النبات* لأبى حنيفة الدينورى الذى رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاقير أخرى كثيرة . وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم ، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز ، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر[٣٧] . وشرح عثمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة ٨٦٩) نظرية فى التطور شبيهة بنظرية المسعودى فقال إن الحياة قد ارتقت من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ثم من الحيوان إلى الإنسان[٣٨] ; واعتنق الشاعر الصوفى جلال الدين هذه النظرية ، ولم يضف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً فى الماضى ، فإن الناس فى المرحلة الثانية سيصبحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله[٣٩] ».

الفصل الثالث

الطب

وما فتئ الناس فى هذه الأثناء يحبون الحياة ، وينفقون الأموال الطائلة فى تأخير ساعة الموت ، وإن كانوا دائمى الافتراء عليها والتنديد بها . ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون من الطب إلا معلومات بدائية ، ولم يكن لديهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذى لا يغنى . فلما أن ازدادت الثروة نشأت فى الشام وفارس طائفة من الأطباء ، واسعة العلم ، عظيمة المقدرة ، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند . . وإذ كان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء فى كتب جالينوس ، أو على دراسة الجرحى من الناس ؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامى هو الجراحة ، وكان أقواها هو الطب العلاجى وخواص العقاقير الطبية . وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر ، والكافور ، وخيار الشنبر ، والقرنفل العطرى ، والزئبق ، والسنالمكى ، والمر ، وأدخلوا فى الأدوية مستحضرات طبية جديدة ــ منها أنواع الشراب ، والجلاب ، وماء الورد وما إليها . وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات ، وهم الذين أنشأوا أول مدرسة للصيدلة ، وكتبوا الرسائل العظيمة فى علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمى التحمس فى دعوتهم إلى الاستحمام ، وخاصة عند الإصابة بالحميات[٤٦] ، وإلى استخدام حمام البخار ؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبة ؛ وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق فى بعض العمليات الجراحية[٤٧] ؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

المخدرات على النوم العميق(٣) ؛ ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا كانت قائمة فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت(٤٤) ، ويلوح أنها أنشئت على نمط المجمع العلمى والمستشفى الفارسى الذى كان فى جنديسابور ؛ وأنشئ أول بيمارستان معروف لنا فى بغداد فى أيام هرون الرشيد ، ثم أنشئت فيها خمسة أخرى فى القرن العاشر الميلادى ؛ ويحدثنا المؤرخون فى عام ٩١٨ عن مدير لها فى بغداد(٤٥) ؛ وكان أعظم بيمارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيمارستان الذى أنشئ دمشق عام ٧٠٦ ؛ وفى عام ٩٧٨ كان به أربعة وعشرون طبيباً . وكانت البيمارستانات أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب ؛ ولم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة . كذلك كان الصيادلة ، والحلاقون ، والمجبرون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم . وقد نظم على ابن عيسى الوزير – الطبيب – هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون فى مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (٩٣١) ؛ وكان أطباء يذهبون فى كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها ؛ وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية . غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلق فى معظم الأماكن ما هى خليقة به من العناية ، ودليلنا على ذلك أن أربعين وباء اجتاحت فى أربعة قرون هذا البلد أو ذاك من بلاد الإسلام .

وكان فى بغداد وجدها عام ٩٣١ ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً(٤٦) . وكانت أجورهم ترتفع بنسبة قربهم من بلاط الخلفاء . فقد جمع جبريل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد ، والمأمون ، والبرامكة ثروة يبلغ مقدارها ٨٨٫٨٠٠٫٠٠٠ درهم أى نحو ٧٫١٠٤٫٠٠٠ دولار أمريكى) ؛ ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتقاضى من الخليفة مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين فى العام ، ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهلا كل نصف عام(٤٧) . وقد نجح فى علاج الشلل المستيرى فى جارية

بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس . وجاء بعد جبريل فى بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر ، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) ، الذى درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، ومنهم حنين بن إسحاق ، المترجم ، صاحب كتاب **العشر مقالات فى العين** ، وهو أقدم كتاب دراسى منظم فى طب العيون ؛ وعلى بن عيسى أعظم أطباء العيون المسلمين ، وقد ظل كتابه **تذكرة الكحالين** يدرس فى أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازى (٨٤٤ — ٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases . وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء فى وقته فارسياً يكتب بالعربية . وكان مولده فى بلدة الرى القريبة من طهران ، ودرس الكيمياء بنوعيها ، والطب فى بغداد ، وألف ١٣١ كتاباً نصفها فى الطب ، ضاع معظمها . ومن أشهر كتبه كتاب **الحاوى** وهو كتاب فى عشرين مجلداً ، ويبحث فى كل فرع من فروع الطب . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber cntinens ؛ وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لهذا العلم فى بلاد الرجل الأبيض ، وكان من الكتب التسعة التى تتألف منها مكتبة الكلية الطبية فى جامعة باريس عام ١٣٩٤[٤٨] . وكانت رسالته فى الجدرى والحصبة آية فى الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق ، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، وأول مجهود يبذل للتفرقة بين هذين المرضين . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامى ١٤٩٨ ، ١٨٦٦ . وأشهر كتب الرازى كلها كتاب طبى فى عشر مجلدات يسمى **كتاب المنصورى**

أهداه إلى أحد أمراء خراسان . وقد ترجمه جرار الكريمونى إلى اللغة اللاتينية . وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم Nonus Almansoris متداولا فى أيدى طلاب الطب فى أوربا حتى القرن السادس عشر . وقد كشف الرازى طرقا جديدة فى العلاج كمرهم الزئبق ، واستخدام أمعاء الحيوان فى التقطيب . وهدأ من تحمس الأطباء لتحليل البول فى عصر أقبل فيه الأطباء على تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض ، دون أن يروه فى بعض الأحيان . ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « فى أن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس فى الوسع » ورسالته الأخرى « العلة التى من أجلها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء فى المدن فى علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعذر الطبيب فى ذلك » . ولقد كان الرازى بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريرى (الكلينيكى) فى العصور الوسطى(٤٩) . ومات الرجل فقيراً فى الثانية والثمانين من عمره .

وقد علقت فى مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين هما : الرازى وابن سينا . وكان أبو على الحسين بن سينا (٩٨٠–١٠٣٧) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه ، وتشهد سيرته التى كتبها بيده — وذلك النوع من السير نادر فى الأدب العربى — بكثرة ما كان يحدث فى العصور الوسطى من تقلب فى حياة العلماء والحكماء . فقد كان ابن سينا ابن أحد الصيارفة فى بخارى ، وتلقى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر فيما ينطوى عليه عقله العلمى من نزعة صوفية . ويقول عنه ابن خلكان بشىء من المغالاة المألوفة عند المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عمره « كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة »(٥٠) .

وقد تعلم الطب من غير مدرس ، وأخذ وهو شاب يعالج المرضى من غير أجر

وشفى وهو فى السابعة عشرة من عمره نوح بن منصور أمير بخارى من مرضه ، وعين فى منصب فى بلاطه ، وكان يقضى فى الدرس ساعات طوالا فى مكتبة السلطان الضخمة . ولما قضى على سلطان السامانيين فى أواخر القرن العاشر الميلادى لجأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم . ولما استدعى محمود الغزنوى ابن سينا والبيرونى وغيرهما من جهابذة العلماء فى بلاط المأمون ، لم يطع ابن سينا أمره ، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء . وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميله ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قاسى كثيرا من الصعاب ، وفيها عين فى منصب فى بلاط قابوس . ونشر محمود الغزنوى فى بلاد الفرس صورة لابن سينا ، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية ، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير . ولما قتل قابوس دعى ابن سينا لعلاج أمير همذان ، وشفى الأمير على يديه فاتخذه وزيراً له ، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه ، فقبض عليه ، ونهب بيته ، وأراد أن يقتله . واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ فى بيت صيدلى ، وبدأ وهو فى مخبئه يؤلف كتبه التى كانت سبباً فى شهرته . وبينا هو يدبر لنفسه أمر الفرار سراً من همذان قبض عليه ابن الأمير وزج به فى السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف . واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن ، وتخفى فى زى أحد رجال الطرق الصوفية ، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ فى بلاط علاء الدولة البويهى أمير إصفهان ، ورحب به الأمير وكرمه ، وهنا التف حوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه . ويستدل من بعض القصص التى وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب ، كما يستمتع بملاذ الدرس . غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس ، والتعليم ، والشئون العامة ، وينقل لنا ، ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلى جدتها :

اجعل غذاءك كل يوم مرة ‏ ‏ واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ‏ ‏ ماء الحياة يراق فى الأرحام

وأثرت حياة الكدح فى صحته فمات فى السابعة والخمسين من عمره وهو مسافر إلى همذان ، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم .

ولقد وجد ابن سينا فى صروف حياته ، فى مناصبه أو فى سجنه ، متسعاً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن كل فرع تقريبا من فروع العلم والفلسفة . هذا إلى أن له قصائد من الشعر الجيد وصلت إلينا منها خمس عشرة قصيدة انزلقت واحدة منها إلى رباعيات عمر الخيام ، ومنها قصيدته العينية فى النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم علوى ومطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ‏ ‏ ورقاء ذات تعزز وتمنع(*)

ولا يزال الطلاب فى بلاد الشرق الإسلامى حتى اليوم يحفظونها عن ظهر قلب . وقد ترجم كتاب إقليدس فى الهندسة ووضع عدة أزياج فلكية ، وابتكر آلة شبيهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم . وله دراسات مبتكرة فى الحركة ، والطاقة ، والفراغ ، والضوء ، والحرارة ، والكثافة النوعية . وله رسالة فى المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر علم طبقات الأرض عند الأوربيين . وقد كتب فيها عن تكوين الجبال كتابة تعد أنموذجا للوضوح فى العلم . فقد قال إن الجبال قد تنشأ من سببين مختلفين : فقد تكون نتيجة اضطرابات فى القشرة الأرضية كما يحدث فى أثناء الزلازل العنيفة ، وقد تكون نتيجة لفعل المياه التى تشق لنفسها طريقا جديدا بنحت الأودية . ذلك أن طبقات الأرض مختلفة فى أنواعها ؛ فمنها الهش ومنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول

(*) ومنها :

محجوبة عن كل مقلة عارف ‏ ‏ وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ‏ ‏ كرهت فراقك وهى ذات تفجع

لكنهما تتركان صخور النوع الثانى على حالها . وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال . . . ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات المائية فى كثير من الجبال يدل على أن المياه هى أهم الأسباب التى أحدثت هذه النتائج(٥٢).

ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولها كتاب الشفاء (شفاء النفس) ، وهو موسوعة فى ثمانية عشر مجلداً فى العلوم الرياضية ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وعلوم الدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والموسيقى ؛ وثانيهما كتاب القانون فى الطب ، وهو بحث ضخم فى وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والعلاج ، والأقرباذين ، يتطرق من حين إلى حين إلى الموضوعات الفلسفية . وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى فى بعض الأحيان إلى درجة كبيرة فى البلاغة ، ولكن شغفه الشديد بالتصنيف والتمييز يصبح عنده آفة لا يجد لها الرئيس دواء . ويبدأ المؤلف بتحذير لا يشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يحفظ عن ظاهر قلب(٥٢ا) هذا الكتاب الذى يحتوى ألف ألف كلمة . والطب فى رأيه هو فن إزالة العقبات التى تعترض طريق عمل الطبيعة السوى . وهو يبحث أولا فى الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها ، وتشخيصها ، وطرق علاجها . وفى الكتاب فصول عن طرق الوقاية والوسائل الصحية العامة والخاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، والحجامة ، والكي ، والاستحمام ، والتدليك . وهو ينصح بالتنفس العميق ، وبالصياح من حين إلى حين لتقوية الرئتين والصدر — واللهاة . ويلخص الكتاب الثانى ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث فى بعض الأمراض وطبائعها ، وفيه بحوث قيمة ممتازة عن التهاب البلورا والدُّبيلة(*) ، والنزلات المعوية ، والأمراض التناسلية ، وفساد الشهوة ، والأمراض العصبية ، بما فيها العشق ،

(*) هذا هو الاسم الذى يطلقه ابن سينا على هذا المرض ويسميه أبو القاسم الزهراوى الذبيلة بالذال المنقوطة وهو معروف بالأمبييما أى تجمع الصديد فى جوف البلورا . (المترجم)

ويبحث الكتاب الرابع فى الحميات ، وفى الجراحة ، وأدهان التجميل ، ووسائل العناية بالشعر والجلد . وفى الكتاب الرابع — الخاص بعلم العقاقير الطبية — تعليمات مفصلة عن طرق طبخ سبعمائة وستين نوعاً من العقاقير . وحل كتاب القانون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر محل كتب الرازى وجالينوس ، وأصبح هو الذى يعتمد عليه فى دراسة الطب فى المدارس الأوربية . وقد احتفظ فيها بمكانته العالية ، وظل الأساتذة يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه فى جامعتى منبلييه ولوفان إلى أواسط القرن السابع عشر .

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب فى الطب فى العصور الوسطى ، وأن الرازى أعظم أطبائها ، والبيرونى أعظم الجغرافيين فيها ، وابن الهيثم أعظم علمائها فى البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها . تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحى فى الوقت الحاضر إلا القليل ، وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا فى معرفة تاريخ العصور الوسطى . وليس فى وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً ما تلوثت بالأوهام شأنها فى هذا شأن سائر العصور الوسطى ، وأن تفوقها كلها — عدا علم البصريات — يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التى تجمعت لديها أكثر من تفوقها فى الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة ؛ لكنها مهما يكن قصورها فى هذه الناحية قد نمت فى علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية ، وهى أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره . ولما أن أعلن روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوربا بعد أن أعلنها جابر بخمسمائة عام كان الذى هداه إليها هو النور الذى أضاء له السبيل من عرب الأندلس ، وليس هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين فى الشرق .

الفصل الرابع

الفلسفة

لقد استعار الإسلام فى الفلسفة ، كما استعار فى الطب ، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية ، ثم رد هذا الدين إلى أوربا المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية . وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثيرة هى التى أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة ، وإلى فلسفات الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد . فقد جاءت أفكار الهند إلى بلاد الإسلام عن طريق غزنة وفارس ، وكان للآراء الزردشتية واليهودية عن الحشر والحساب بعض الأثر فى الفلسفة الإسلامية ؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل فى بلاد الشرق الأدنى فى صفات الله ، وفى طبيعة المسيح وكلمة الله ، وفى الجبرية والقدرية ، والوحى والعقل . لكن العامل الذى كان له أكبر الأثر فى التفكير الإسلامى فى آسية — كما كان له أكبر الأثر فى إيطاليا أيام النهضة — هو كشف آثار اليونان الفكرية من جديد ؛ فقد أدى هذا الكشف — وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك فى صحتها — إلى ظهور عالم جديد : عالم كان الناس يفكرون فيه فى كل شىء ولا يخشون أن يصيبهم أذى بسبب هـذا التفكير ، ولا تقيد عقولهم نصوص الكتب المقدسة ، ولا يرون أن السماء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً(*) أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التى لا تستند إلى قانون من قوانين العقـل ، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

(*) لم يكن هذا التفكير مقصوراً على اليونان وحدهم ، بل قد جاء به القرآن نفسه فى عدة آيات : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » : سورة الأنبياء : ١٦ ؛ وسورة ص : ٢٧ وسورة الحجر : ٨٥ ؛ وسورة الدخان : ٣٨ .

يحكمها جميعاً وتتضح آثاره في كل جزء من أجزاء الكون . وقد افتتن المسلمون بالمنطق اليوناني في صورته الكاملة الواضحة التي جاء بها كتاب **أورغانون** (**الآلة الفكرية**) لأرسطو وبعد أن أتيح لهم الفراغ الذي لا بد منه للتفكير ، ووجدوا فيه الأدوات التي يحتاجونها لتفكيرهم ؛ وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لبهم بهجة الفلسفة المحببة كما سلبت لب الشباب في أيام أفلاطون . وسرعان ما أخذ صرح العقائد التعسفية يتصدع وينهار ، كما انهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين ، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية ڤلتير اللاذعة .

وكانت البداية التقريبية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خلق القرآن . ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها هي حكمة الله الأبدية ، وما جاء به الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان »(٥٣) ، وعقيدة المسيحيين العارفين(*) وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية ويقولون إنها هي أداة الخلق الفعالة ، وعقيدة اليهود في أزلية التوراة — كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً في عقل الله ، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهرون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

(*) القائلين بأن الخلاص بالمعرفة لا بالإيمان . (المترجم)

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التى يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم الكلام أى المنطق . وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة القرآن والتى تقول إن الله يدين وقدمين ، وإنه يغضب ويكره ، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعرى ، إذا كان يتفق مع أغراض النبى الأخلاقية والسياسية فى أيام الرسالة ، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنيرون فى أيامهم ، وإن العقل البشرى عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته الحقة ، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هى أساس الحقائق عامة . وفضلا عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن من الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أن يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحادثات كلها مقدرة تقديراً كاملا من عند الله ، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيثاب ومن سيعذب .

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التى يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سراً فى بادىء الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين ، ثم جهر بها رجال فى ندوة الخلفاء المسائية ، ثم وجدت من يدعو إليها فى المحاضرات التى تلقى فى المدارس والمساجد ، بل تغلبت فى أماكن متفرقة على غيرها من الآراء . وافتتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الآخذة فى القوة ، وبسط عليها حمايته ، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمى . ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ؛ وأصدر فى عام ٨٣٢ أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق فى وقت بعينه ، وأتبع هذا بأمر آخر يقضى بألا يعين قاضياً فى المحاكم من لا يعلن قبوله لهذه العقيدة الجديدة أو أن

تقبل فيها شهادته . وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة ، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين ، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وتوفى المأمون فى عام ٨٣٣ ولكن المعتصم والواثق اللذين توليا الخلافة بعده واصلا هذه الحملة الفكرية ، وقاوم الإمام ابن حنبل هذا الاضطهاد الفكرى وندد به ؛ ولما استدعى لمناقشته فى أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة ، فضرب حتى أغمى عليه ، وألقى فى السجن ، ولكنه أصبح فى أعين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين ، وكان تعذيبه هذا من العوامل التى مهدت السبيل للانتقاض على الفلسفة الإسلامية .

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت فى ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الذى ولد فى الكوفة عام ٨٠٣ م . وكان والد الكندى من ولاة الأعمال فى المدينة ؛ وتلقى هو العلم فيها وفى بغداد ، وذاعت شهرته فى الترجمة ، والعلم والفلسفة فى بلاط المأمون والمعتصم ، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله فى مجد الإسلام الفكرى فى عدد كبير من العلوم ، فدرس كل شىء ، وكتب ٢٦٥ رسالة فى كل شىء — فى الحساب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والظواهر الجوية ، وتقويم البلدان ، والطبيعة ، والسياسة ، والموسيقى ، والطب ، والفلسفة . . . وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس فى وسع إنسان أن يصبح فيلسوفاً من غير أن يكون قبل ذلك عالما فى الرياضة ؛ وحاول أن يبنى علم الصحة ، والطب ، والموسيقى على نسب رياضية . وقد درس فيها درس ظاهرة المد والجزر ، وبحث القوانين التى تحدد سرعة الأجسام الساقطة فى الهواء ، كما بحث ظاهرة الضوء فى كتابه عن البصريات الذى كان له أكبر الأثر فى

روجر بيكن Roger Bacon . (وقد أدهش الكندى العالم الإسلامى برسالته فى الدفاع عن المسيحية)[٤٥](*) واشترك هو وزميل له فى ترجمة كتاب أرسطو فى الإلهيات (أو ثولوجيا) . وتأثر الكندى أشد التأثر بهذا الكتاب المنحول وسره كل السرور أنه يوفق بين أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة . ذلك أن فلسفة الكندى نفسه هى الأفلاطونية الجديدة مصبوغة صبغة جديدة : فالنفس عنده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التى هى فيض من هذه النفس الثانية . وإذا استطاع الإنسان أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود . ويلوح أن الكندى قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتنق آراء أهل السنة ، ولكنه أخذ عن أرسطو[٥٦] التفرقة بين العقل الفاعل أى العقل الإلهى ، وعقل الإنسان المنفعل الذى لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير . ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذى أثار به العالم واتخذه حجة ضد القائلين بالخلود الفردى . وانتهى الكندى بالانضمام إلى المعتزلة ، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه ، وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا من هذه العاصفة ، واسترد مكتبته ، وعاش حتى عام ٨٧٣ .

إن المجتمع الذى يرتبط فيه نظام الحكم ، والقانون ، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى فى كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعى نفسه . ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التى طغى عليها الفتح العربى

(*) ليس للكندى الفيلسوف رسالة فى الدفاع عن المسيحية . أما كاتب هذه الرسالة فهو عبد المسيح بن إسحق الكندى ، وقد كتبها رداً على رسالة بعث بها إليه عبد الله بن إسماعيل الهاشمى يدعوه فيها إلى الإسلام ، فبعث هو إليه بهذه الرسالة يدعو عبد الله إلى النصرانية . وقد اختلط الأمر على المؤلف لتشابه الاسمين . وقد ورد ذكر الرسالتين فى كتاب الآثار الباقية للبيرونى . (المترجم)

وهى الفلسفة اليونانية والمسيحية الغنوسطية ، والقومية الفارسية ، والشيوعية المزدكية ؛ وكان نشاطها عنيفاً ، فأخذت تجادل فى القرآن ، وجهر شاعر فارسى بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه ، فكان جزاؤه على قوله هذا قطع رأسه (٧٨٤)(٥٧) ، وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد أصبح وشيك الانهيار . غير أن عوامل ثلاثة فى هذه الأزمة الشديدة جعلت النصر النهائى لأهل السنة : وهذه العوامل هى وجود خليفة محافظ مستمسك بدينه ، واشتداد ساعد الحرس التركى ، وولاء الناس الطبيعى لعقائدهم الموروثة . فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة فى عام ٨٤٧ استمد العون من الشعب ومن الأتراك . وكان الترك حديثى العهد بالإسلام ، حاقدين على الفرس ، غريبين عن الفكر اليونانى ، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة لتأييد السياسة التى ترمى إلى نصرة الدين بحد السيف . فنقض المتوكل السياسة الحرة العنيفة التى جرى عليها المأمون ، وألغى ما أصدره فيها من المراسيم ، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحدين من مناصب الدولة والوظائف التعليمية ، وحرم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة فى الأدب والفلسفة ، وسنَّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلى غير مخلوق ، واضطهد الشيعة وهدم مشهد الحسين فى كربلاء (٨٥١) . وجدد المتوكل الأمر المعزو إلى عمر بن الخطاب ضد المسيحيين ، والذى وسعه هرون الرشيد حتى شمل اليهود (٨٥٠) ، ثم أهمل العمل به بعيد صدوره ، جدد المتوكل هذا الأمر ففرض على اليهود والمسيحيين أن يلبسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من غيرهم من أفراد الشعب ، وأن يضعوا رقعاً ملونة على أكمام أثواب عبيدهم ، وألا يركبوا غير البغال والحمير ، وأن يثبتوا صوراً خشبية للشيطان على أبواب بيوتهم ؛ وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية واليهودية الجديدة ، وحرم رفع الصليب علناً فى المواكب المسيحية ، ولم يسمح لمسيحى أو يهودى أن يتلقى العلم فى المدارس الإسلامية .

واتخذ رد الفعل فى الجيل التالى صورة أقل عنفاً من هذه الصورة السابق

وصفها . فقد قام جماعة من العلماء السنيين وجهروا فى شجاعة بقبول حكم المنطق فى الجدل القائم ، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصيلة . وهؤلاء المتكلمون (المناطقة) فى الإسـلام يشبهون الفلاسفة المدرسيين فى أوربا فى العصور الوسطى ، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك فى القرن الثانى عشر بالنسبة لليهودية ، وتومس أكوناس فى القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية . وظل أبو الحسن الأشعرى (٨٧٣ — ٩٣٥) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين فى البصرة ، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره ، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم ، وهو سلاح المنطق ، وسلط عليهم سيلا جارفاً من الجدل القوى كان له أكبر الأثر فى انتصار عقائد أهل السنة . وقد آمن أبو الحسن إيماناً قويا بمبدإ الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث ، وإنه علمّها كلها ، وإنه يعلو على القوانين والأخلاق ، وإنه يصرف شئون خلقه كما يشاء ، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس فى ذلك خطأ قط(٥٩) .

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلى ، ونادى كثيرون منهم بمبدإ « بلا كيف » أى أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان(٦٠) ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل فى الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون فى التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بداءه يسلمون بها دون مناقشة .

وهكذا هدأت موجة الفلسفة فى بغداد ، ولكنها ثارت فى الوقت نفسه فى العواصم الإسلامية الصغرى ؛ فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابى بيتا فى بغداد ، وكان الفارابى أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأتراك . كان مولده فى فاراب إحدى ولايات التركستان ، ودرس المنطق فى بغداد على معلمين مسيحيين

وقرأ كتاب **الطبيعة** لأرسطو أربعين مرة ، وكتاب **النفس** مائتى مرة ، ورمى بالزندقة فى بغداد ، وارتدى ملابس المتصوفة ، واعتنق مبادئهم ، وعاش كما يعيش طير الهواء . ويقول عنه ابن خلكان إنه « كان أزهد الناس فى الدنيا لا يحتفل بأى مكسب ولا مسكن »[٦١] .

وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابى إنه يكفيه أربعة دراهم فى اليوم « فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى » .

وقد بقى من مؤلفات الفارابى تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح لأرسطو وتعليقات على آرائه . وقد لخص فى كتابه **إحصاء العلوم** علم عصره فى الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والكيمياء ، والاقتصاد ، والسياسة . وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذى أثار ثائرة الفلاسفة المسيحيين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلى (أى الجنس ، والنوع ، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلا عن الجزئى ؟ وقد خدع كما خدع غيره **بإلهيات أرسطو** فبدل الاصطاغيرى العنيد(*) إلى رجل متصوف . وطال به العمر حتى هدأت سورته العلمية واستمسك بقواعد الدين . وكان فى شبابه قد جهر بنزعة لا أدرية متشككة[٦٢] ، ثم خطا فى مستقبل حياته خطوات واسعة ، فأعطانا وصفا مفصلا للخالق[٦٣] مستعيناً على ذلك بالبراهين التى أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتى استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت ، فقال إن حدوث سلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلا إذا أرجعناها فى النهاية إلى كائن لا بد من وجوده لوقوعها ، ووجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى ؛ وسلسلة من الحركات يتطلب محركاً أول غير متحرك ؛ والتعدد يتطلب الوحدة .

(*) يريد أرسطو المولود فى اصطاغيرا وهى مدينة أيونية على بحر إيجة . (المترجم)

وإن الهدف النهائى للفلسفة ، وهو الهدف الذى لا يمكن بلوغه كاملا ، هو معرفة العلة الأولى ، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس . وقد استطاع الفارابى ، كما استطاع أرسطو أن يعنى بجعل أقواله عن الخلود غامضة غير مفهومة . ومات الرجل فى دمشق عام ٩٥٠م .

ومن بين كتب الفارابى الباقية كلها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعنى به كتاب **المدينة الفاضلة** . ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حى ضد سائر الكائنات ؛ وهو فى ذلك يشبه ما يقوله هبز Hobbs من أن الأشياء كلها يحارب بعضها بعضاً ؛ ثم يقول إن كل كائن حى يرى فى آخر الأمر أن سائر الكائنات الحية وسائل يحقق بها أغراضه ، ثم يعقب على هذا بقوله إن بعض الساخرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل فى هذا التنافس الذى لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته ، وأعظمهم تحقيقاً لرغباته كاملة . فكيف خرج المجتمع الإنسانى إذن من هذا القانون قانون الغاب ؟ وإذا ما أمعنا الفكر فى أقوال الفارابى رأينا أنه كان بين المسلمين الذين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز نتشة : فمنهم من قال إن المجتمع قام فى بادئ الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التى تعتمد على العادات والقانون ؛ ومنهم من سخر من هذا « العقد الاجتماعى » وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط فى تاريخ العالم ، وأكد أن المجتمع بدأ ، أو أن الدولة بدأت ، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها . ويضيف هؤلاء النتشيون أن الدول نفسها أدوات للتنافس ، وأن من الطبيعى أن يقاتل بعضها بعضاً سعياً وراء سيادتها على غيرها ، وسلامتها ، وسلطانها ، وثرائها ؛ وأن الحرب طبيعية ولا مفر من وقوعها ؛ وأن الذى سيسفر عنه هذا الصراع ، لابد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزلى ، وهو أن الحق الوحيد هو القوة . ويقاوم الفارابى هذه

النزعة بأن يدعو الناس إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام[٦٤] . ويختم بحثه خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية[٦٥] .

وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابى فى بغداد عام ٩٧٠ جمعية من العلماء — معروفة لنا باسم موطن منشئها — الجمعية السجستانية(*) ، غرضها بحث المسائل الفلسفية . ولم تكن هــذه الجمعية تسأل أعضاءها عن أصلهم أو مللهم ؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة ؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة فى البحوث العلمية والعقلية لم تخب جذوتها فى عاصمة الدولة الإسلامية . وأهم من هذه الجمعية شأناً ، أو بالأحرى أعظم منها أثراً ، جمعية أخرى من نوعها ، ولكنها فى واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة ، أنشئت فى مدينة البصرة عام ٩٨٣ ، ونعنى بها جمعية إخوان الصفا(**) . وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، وفقر شعوبها ، وفساد أخلاقهم ؛ فتاقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحى الأخلاقية ، والروحية ، والسياسية ؛ وخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية ، والتصوف الإسلامى ، وآراء الشيعة السياسية ، والشريعة الإسلامية . وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين ذوى الكفايات والفضائل المختلفة ، تأتى فيها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى . وفى اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردى . ولهذا كانوا يجتمعون فى السر ويبحثون فى حرية تامة شاملة ، وتفكير واسع

(*) منشئ هذه الجمعية هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى . (المترجم)

(**) اسمهم الكامل « إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحمد » . (المترجم)

الأفق ، وتأدب جم ، جميع مشاكل الحياة الأساسية . وأصدرت الجماعة فى آخر الأمر إحدى وخمسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها ، وضمنتها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية ، والفلسفة . وأولع أحد مسلمى الأندلس أثناء تجواله فى بلاد الشرق الأدنى حوالى عام ١٠٠٠ م بهذه الرسائل فجمعها واحتفظ بها .

ونجد فى هذه الرسائل البالغة ١١٣٤ صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر ، والزلازل ، والخسوف والكسوف ، والأمواج الصوتية ، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية ، كما نجد فيها قبولا صريحاً كاملا للتنجيم والكيمياء الكاذبة ، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد . أما ما فيها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجديدة كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين ؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أى الله يصدر العقل الفعال ، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس ؛ وإن جميع الأشياء المادية توجدها النفس ، وتعمل عن طريقها ؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقة حتى تتصل بالعقل الفاعل ، أو نفس العالم ، أو النفس الكلية ، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملا ، والأخلاق هى الفن الذى تصل به النفس إلى هذا التطهير ؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه : ويجب علينا فى سعينا للتطهير أن ننسج على منوال سقراط فى الأمور العقلية ، وأن ننهج نهج المسيح فى الإحسان إلى الخلق عامة ، ونهج علىّ فى نبله وتواضعه . فإذا ما تحرر العقل عن طريق المعرفة ، وجب أن يحس بحريته فى أن يؤول عبارات القرآن التى تتناسب مع فهم بدو غير متحضرين يسكنون الصحراء تأويلا مجازياً(٦٦) . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الرسائل الإحدى والخمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامى فى العصر العباسى ، وإنها أعظم تناسقاً من جميع الرسائل التى لدينا فى هذا التفكير . وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها فى عام ١١٥٠ ؛ ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدى ، وكان لها أثر شامل عميق فى الفلسفة

الإسلامية واليهودية — نشاهده فى كتابات الغزالى وابن رشد ، وابن جبرول ، وهليفى[٦٧] ؛ وبتأثر بها كذلك المعرى الشاعر الفيلسوف ، ولعلها كان لها أثر فى ذلك الرجل الذى بز فى حياته القصيرة ما فى رسائل هذه الجماعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية ، وكان أكثر من أصحابها سعة فى الأفق وعمقاً فى التفكير ونعنى به ابن سينا . ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة فى العلوم الطبيعية ، ومرجعاً ذائع الصيت فى الطب ؛ وما من شك فى أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه إلا إذا أضاف إليه الفلسفة . ويحدثنا أنه قرأ كتاب **ما بعد الطبيعة** لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه[*] ، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفارابى عليه ، سر لهذا سروراً عظيما وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات[٦٨] . وبقى ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه . وقد سماه فى كتاب **القانون** بالفيلسوف وهو اللفظ الذى أصبح فى اللغة اللاتينية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه . وقد فصل ابن سينا فلسفته فى كتاب **الشفاء** ثم أوجزها فى كتاب **النجاة** . وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقى ، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة . وقد أجاب عن السؤال الذى شغل علماء العصور الوسطى طويلا وهو : هل الكليات (كالإنسان ، والفضيلة ، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول : (١) إنها توجد « قبل الأشياء » فى عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء ، (٢) وفى الأشياء بالصورة التى تتمثل فيها (٣) وبعد الأشياء بأن تكون معانى مجردة فى العقل البشرى . ولكن الكليات لا توجد فى العالم الطبيعى منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة . وبعد مائة عام من الجدل والخصام أجاب ابلار Abélard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه .

(*) إن الذى قاله ابن سينا هو « قرأت كتاب السماع الطبيعى لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى أنى محتاج إلى قراءته » . (المترجم)

والحق أن ميتافيزيقية ابن سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتى عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة فى الفلسفة المدرسية . وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً لمذهب أرسطو والفارابى فى المادة والصورة ، والعلل الأربع ، والممكن والواجب ، والكثرة ، والواحد ، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة الممكنة المتغيرة — كثرة الأشياء الفانية — أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذى لا يتغير . وهو يفعل ما يفعله أفلوطين فيفكر فى حل هذه المشكلة بافتراض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشراً فى العالم السماوى ، والمادى ، والبشرى ، وهو النفس . ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة فى التوفيق بين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبين صفة عدم التغير الملازمة لله ، فينزع إلى الاعتقاد مع أرسطو بقدم العالم المادى ، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة المتكلمين فيعرض عليهم حلا وسطا كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو : أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقا ذاتياً لازمانياً ، أى فى المرتبة والجوهر والعلة ؛ فوجود العالم يعتمد فى كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له ، وهى الله ؛ ويقول ابن سينا إن كل الموجودات « ممكنة » حتى الأفلاك نفسها أى أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة . وهذه الممكنات لا بد لوجودها من علة تتقدمها وتخرجها إلى الوجود ، ولهذا لا يمكن تفسير وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود ، أى واحد قائم بذاته هو العلة الأولى لسائر الموجودات . والله وحده هو الموجود بذاته ، وإن وجوده هو عين ماهيته فهو واجب الوجود . ولولاه لما كان شىء مما يمكن أن يكون . ولما كان العالم كله ممكناً أى أن وجوده ليس بذاته ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه برىء من الجسم ، وهو كالعقل ، واحد من كل وجه لا تركيب فيه . ولما كان فى المخلوقات كلها عقل فلا بد أن يكون فى خالقها عقل أيضاً . وهذا العقل الأول يرى كل شىء — الماضى والحاضر والمستقبل — لا فى وقت ولا بالتتابع ،

بل يراه كله مرة واحدة . وحدوث هذه الأشياء هو النتيجة الزمنية لفكرة اللازمنى . ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة ، بل إن الأشياء تتطور بفعل غائى داخلى — أى أن لها أغراضا ومصائر فى ذاتها ، ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر ، بل إن الشر هو الثمن الذى نؤديه نظير ما لنا من حرية الإرادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكل(٦٩) .

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخل المباشر . والنفس لهذا السبب عينه روحانية ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك ، وأفكارنا منفصلة انفصالا واضحاً عن أعضائنا . وهى مبدأ الحركة الذاتية والنماء فى الجسم ؛ وبهذا المعنى تكون للكواكب نفوس . والكون كله مظهر لمبدإ الحياة العام(٧٠) ، والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلا ، بل إن سبب كل حركة من حركاته هو نفسه التى تحل فيه ، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة على الخلق والإبداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس الخالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلى ، وفى هذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين(٧١) .

ولقد بذل ابن سينا كل ما يستطيع أن يبذله من الجهود للتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين . فلم يكن مثل لكريشيوس يرغب فى القضاء على الدين من أجل الفلسفة ، ولم يكن كالغزالى فى القرن الذى بعده يريد أن يقضى على الفلسفة من أجل الدين ؛ بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده ، غير متقيد مطلقاً بالدين ؛ ويحلل الوحى فى ضوء قوانين الطبيعة(٧٢) ، ولكنه يؤكد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبينوا لهم قواعد الأخلاق فى صور من الاستعارات والمجازات تفهمها عقولهم وتتأثر بها . وبهذا المعنى يكون النبى رسول الله لأنه يضع الأسس التى يقوم عليها النظام الأخلاقى والاجتماعى(٧٣) . ومن أجل هذا كان النبى ينادى ببعث الأجسام ، وكان فى بعض الأحيان يصور الجنة تصويراً مادياً ؛ والفيلسوف ، وإن كان يشك فى خلود الجسم ، يدرك أنه لو أن النبى

قد اقتصر على تصوير الجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه ، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة . وأرقى البشر وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الحر ، وهو الذى لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة ؛ ولكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم(٧٤) .

وكتابا **الشفاء** و**القانون** لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى ، وهما من أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى . وهو يسترشد فى كثير من بحوثه فى الكتابين بأرسطو والفارابى ، كما استرشد أرسطو فى كثير من بحوثه بأفلاطون . غير أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم . وفى بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء ، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو ؛ والحق أنه ليس ثمة سخيف لا نجده فى صحف الفلاسفة . ولسنا نجد عند ابن سينا ما نجده عند البيرونى من أمانة التشكك ، وروح النقد ، واتساع الأفق ، وحرية العقل ؛ وهو أكثر منه أخطاء ؛ ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن تؤدى هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هى من قصر الأمد . ولقد بز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه ، وحيويته ، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السآمة والملل بما يبثه فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعر التى لا نرى عليه مأخذاً فى إيرادها ، وباتساع مجاله الفلسفى والعلمى اتساعاً منقطع النظير . ولقد كان ابن سينا عظيم الأثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء ، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلى الأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون ، وإلى العالم المسيحى اللاتينى وفلاسفته

المدرسين ؛ وإنا لندهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا فى فلسفة ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، ويسميه روچربيكن : « أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو »(٧٥) . ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذى يتحدث به عن أفلاطون مجاملا قط كمألوف عادته حين يتحدث عن عظماء الرجال(*) .

وكاد أجل الفلسفة العربية فى الشرق ينقضى بموت ابن سينا ؛ ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية ، وارتياع رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة ، وانتصار نزعة الغزالى الصوفية ، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير . وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠ — ١٠٥٠) التى ازدهر فيها التفكير الإسلامى ناقصاً كل النقص . ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية فى العلوم ، والآداب ، والفلسفة لاتزال مخبوءة فى مكتبات العالم الإسلامى . ففى إسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير ؛ وفى القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، وبغداد ودهلى ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهارس لها(**) ؛ وفى الأسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء ما فيها من

(*) احتفل فى عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا حسب التاريخ الهجرى وأقيم له قبر رائع فى همدان ونشرت مصر بهذه المناسبة بعض مؤلفاته . (المترجم)

(**) مما نسجله بمزيد الحمد للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية أنها عنيت عناية كبيرة بالبحث عن هذه المخطوطات فى مكتبات العالم الإسلامى ، فأرسلت الوفود العلمية لتصوير ما يوجد منها فى تلك المكتبات ، وهى جادة فى هذا العمل الجليل . لكننا نرجو أن تقوم وزارات المعارف فى الدول الإسلامية بنصيبها فيه ؛ فإنه فى اعتقادنا أوسع من أن تضطلع به الإدارة الثقافية وحدها . (المترجم)

مخطوطات إسلامية فى العلوم ، والآداب ، والشريعة ، والفلسفة[٧٧] ؛ وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى فى تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً صغيراً مما بقى من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقى إلا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائحهم ؛ وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم . وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام فى الشرق بين العصور الذهبية فى تاريخ العقل البشرى .

الفصل الخامس

التصوف والإلحـــاد

يلتقي الدين والفلسفة فى أعلى درجاتهما فى معنى وحدة الكون وفى تأمل هذه الوحدة . والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق ، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الحادث الفرد إلى القانون العام ، قد يكون فى وسعها أن تصل إلى هذه الرؤيا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشيها فى النفس الكلية . وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة ، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهائية خاسئاً وهو حسير ، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد ، والتقشف ، والتفانى فى العبادة ، والتجرد من كل رغبة أنانية ، وإفناء الجزء فى الكل إفناء كاملا .

ويرجع التصوف الإسلامى إلى أصول كثيرة : منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس ، وغنوطسية مصر والشام ، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين ، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين فى جميع بلاد المسلمين . وقد وجدت فى العالم الإسلامى ، كما وجدت فى العالم المسيحى ، أقلية تقية تعارض فى تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادى ومصالحه ؛ فكانوا ينددون بترف الخلفاء ، والوزراء ، والتجار ، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبي بكر وعمر بن الخطاب . وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التى تسمو فيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العلية : فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

مع ذات الله نفسها . وازدهرت حركة التصوف فى بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قربها من بلاد الهند ، كما ازدهرت فى جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التى وضعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينة إلى فارس فى عام ٥٢٩ . وكلمة صوفى التى تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التى كانوا يرتدونها(*) . وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين بمبادئها المتحمسين لها ، ومن كبار الشعراء ، والقائلين بوحدة الوجود ، والزهاد ، والمشعوذين ، والكثيرى الزوجات . وكانت مبادئهم تختلف باختلاف الأوقات والبيئات ؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة فى قلوبنا ، بعد أن نتخلى عن جميع الشهوات الجسمية والانقطاع إلى الله[٧٨] . ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً ، فقالوا إن كل ما نراه فى العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه . ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان ، أو حفيف أوراق الشجر ، أو خرير الماء ، أو تغريد الطير ، أو هبوب الريح ، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له[٧٩] .

والحق أن الصوفى يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية ، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله . وعلى هذا فالله هو كل شىء ، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله ، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه[٨٠] . وعلى هذا فكل نفس هى الله ؛ والصوفى الكامل يجهر فى غير مواربة بأنه « هو نفس الذات الإلهية » . ويقول أبو يزيد (حوالى عام ٩٠٠) : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى »[٨١](**) . ويقول الحسين

(*) فى كتاب الأستاذ رينولد ا . نيكولسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى فصل قيم فى سبب هذه التسمية فليرجع إليه من يريد التوسع فى هذا البحث . (المترجم)

(**) يقول الأستاذ نيكلسون إن فى نسبة هذه الأقوال إلى أبى يزيد بعض الشك . انظر ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى السالفة الذكر . (المترجم)

ابن منصور الحلاج :

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحـــان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

إنى مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود . . . أنا الحق »[٨٢](*)

وقبض على الحلاج لمغالاته فى عقيدته الصوفية ، وضرب مائة سوط وألقى فى النار حتى مات (٩٢٢) . ويدعى أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا إليه بعد أن خمدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين ، واتخذه كثيرون من الصوفية وليهم وحاميهم .

ويعتقد الصوفى كما يعتقد الهندوسى أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد منه لكى ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام . والتطهير يكون بضروب من التفانى فى الطاعات ، والتأمل والنظر والتدبر ، والصلاة ، وإطاعة المريد لأستاذه الصوفى أو معلمه ، والتجرد الكامل من جميع الشهوات البدنية ، بما فيها التجرد من شهوة النجاة ، والاتحاد الصوفى مع الله . والصوفى الكامل يحب الله لذاته لا رغبة فى ثواب ولا خوفاً من عقاب . وفى ذلك يقول أبو القاسم إن المعطى خير من العطية[٨٣] . والصوفى عادة يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية ، ومنهم من يتخذه نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على الطبيعة ، ولكنه يكاد يكون على الدوام سبيلا إلى الاتحاد مع ذات الله . ومن فنيت نفسه فناء تاما فى هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل[٨٤]. ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين ، وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج . وفى ذلك يقول أحد المتصوفة

(*) يذكر ابن النديم صاحب الفهرست أسماء ٣٥ كتاباً للحلاج منها كتاب نور النور التجليات ، وكتاب علم البقاء والفناء ، وكتاب كيف كان وكيف يكون ، وكتاب لا كيف . (المترجم)

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا فتتجه نحو وجه الحبيب(٨٥) .

وظل الصوفية يعيشون فى الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم . بل إنهم كانوا لا يرون أن للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية . وفى ذلك يقول أبو سعيد إن الولى الحقيقى يسير بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ، ولا ينسى الله لحظة واحدة(٨٦) .

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غيرهم بشىء سوى بساطة حياتهم ، وتقواهم وخشوعهم ، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين المسيحيين . وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقى والصلاح ؛ وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التى أصبح لها شأن عظيم عند الصوفية المتأخرين . ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم ، وإن كان الزهد فى ذلك الوقت من الأمور النادرة ، وكان يلقى كثيراً من المقاومة . وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود فى بداية الإسلام . ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (٧١٧ — ٨٠١) . وكانت فى شبابها جارية اشتريت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد هالة من النور فوق رأسها وهى قائمة للصلاة . وأبت رابعة أن تتزوج وعاشت عيشة الزهد ، وإنكار الذات ، وفعل الخير . وسئلت فى يوم من الأيام « هل تكرهين الشيطان ؟ » ، فأجابت : « إن حبى لله قد منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان » . ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الذائعة الصيت : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقنى بالنار ، أو طمعاً فى الجنة فحرمها علىّ ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى

من مشاهدة وجهك ؛ إلهى ! كل ما قدرتّه لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلاّ إليك وحدك »(٨٧)(*) .

ولنختر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبى الخير (٩٦٧ — ١٠٤٩) . ولد هذا الرجل فى ميهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا ؛ ويروى عنه أنه قال فى هذا الفيلسوف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو(٨٨) . وقد أولع فى صباه بالأدب البذىء ، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية ؛ ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع فى يوم من الأيام درساً لأبى على يدور حول قوله تعالى « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فتح فى قلبه باب الإيمان وكأنما انتزع من نفسه فجمع كتبه كلها وأحرقها ثم آوى إلى ركن فى بيته ، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله . ولقد كان تكرار لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبيلا محببة إلى « الفناء » ويقصدون به انتقال الصوفى عن نفسه فى حال وجده . وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقشف ، فلم يلبس إلا قميصاً واحداً ، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى ، ولم يذق الطعام إلا وقت الغروب . ولم يكن طعامه إلا كسرة من الخبز ، ولم يرقد على فراش لينام ، وحفر فى جدار بيته حفرة ، لا تزيد حين يقف فيها على طوله وعرضه ، وكثيراً ما كان يحبس نفسه فيها . ويسد أذنيه لكيلا تصل إليهما أصوات من الخارج . وكان فى بعض الليالى يربط نفسه بحبل ويتدلى برأسه فى بئر ، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض — هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه . وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية ، فكان يتسول لهم ، وينظف

(*) نقلنا هذا النص عن « تذكرة الأولياء للعطار » والذى أورده المؤلف هو الجزء الثانى ، وقد أضفنا نحن الجزء الأول إتماماً للفائدة . (المترجم)

لهم خلواتهم وفضلاتهم . ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقذار ، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه « أليس الله بكاف عبده ؟ » . ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراق الكامل وبدأ يخطب الناس ، والتف حوله كثيرون من الأتقياء المخلصين ، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلطخون وجوههم بروث حماره لتحل عليهم بركته[٨٩] . وقد ترك أثره فى التصوف بأن أنشأ خانقاه للدراويش ووضع لها طائفة من القواعد جعلتها نموذجاً لأبناء الطائفة فى القرن الذى بعده .

وكان أبو سعيد يعلم الناس ، كما علمهم القديس أوغسطين ، أن رحمة الله ، لا أعمال العبد الصالحة ، هى سبيل النجاة ؛ ولكنه كان يعنى بالنجاة ، التحرر الروحى ، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة ، ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة ثم يأتى بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره ... ثم يفتح له الله بعدئذ باب الحب ، ولكنه لا ينفك يقول فى نفسه « أحب » . . . ثم يفتح له باب التوحيد . . . وعنده يدرك أن الله كل شىء وأن كل شىء منه وإليه . . . ويعرف أنه غير محق فى قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله . . . لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها . إن نفسك تبعدك عن الله ، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعدانى فى الشر . . . وهذا قد أحسن إلىّ — كل هذا شرك بالله ، فليس شىء يعتمد على المخلوقات ، بل يعتمد كل شىء على الخالق . إن عليك أن تعرف هذا ، فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل « اثنين » أبداً . . . قل الله واثبت على هذا القول[٩٠] .

وتظهر هذه العقيدة الهندية — الإمرسونية(*) فى بعض الأقوال المنسوبة إلى أبى سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكا فيها !

(*) أى التى هى مزيج من عقائد الهند وإمرسن الفيلسوف الأمريكى . (المترجم)

وسألته : « لمن يكون جمالك ؟ » فقال : « لى » لأنه لاموجود سواى ؛ أنا الحب ، والمحبوب ، والحب كلها فى واحد ، أنا الجمال ، والمرآة ، والعينان اللتان تريان[٩١] .

وإذا لم يكن عند المسلمين ، كما كان عند المسيحيين ، كهانة تثبت لهؤلاء الأبطال الصالحين قداستهم ، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه القداسة ، ولم يحل القرن الثانى عشر الميلادى حتى غلبت عواطف الشعب الطبيعية ، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا التقديس ضرباً من الوثنية . وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين إبراهيم ابن أدهم (القرن الثامن ؟) ، وهو الذى يسميه لى هنت Leigh Hunt فى قصيدة له مشهورة أبو بن أدهم Abou ben Adhem . ويعزو خيال العامة إلى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كشف عن أعينهم الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس ، ويقرءون الأفكار ، ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس ، بل إنهم يبالغون فى مقدرتهم فيقولون إن فى وسعهم أن يبتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم من ذلك أذى ، وأن يخترقوا النيران من غير أن يحترقوا بها ، وأن يمشوا على الماء ، ويطيروا فى الهواء ، ويجتازوا المسافات الشاسعة فى غمضة عين . ويروى أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب ما يروى من نوعها فى هذه الأيام[٩٢] . وهكذا يحدث على توالى الأيام أن الدين(*) الذى يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان ، يتشكل ثم يتشكل بتأثير حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم ، حتى يصبح التوحيد الذى يجىء به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذى يعتقده عامة الشعب .

وقبل المسلمون من أهل السنة الصوفية فى حظيرة الدين الإسلامى ، وأفسحوا

(*) لا حاجة إلى التنبيه بأن الكاتب لا يقصد بهذا ديناً معيناً بل يشير إلى الأديان بوجه عام . (المترجم)

لهم مجالا كبيراً فى عقائدهم وأقوالهم . ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائف المارقة التى تخفى تحت ستار العقائد الدينية آراء سياسية ثورية ، أو تدعو إلى الفوضى الأخلاقية والقانونية . ومن بين هذه الطوائف الثورية التى مزجت فى عقائدها الدين بالسياسة طائفة « الإسماعيلية » . ويذكر القارئ ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن على رأس كل جيل من أبناء على إلى الجيل الثانى عشر إماماً أو زعيما ، وإن هذا الإمام يختار من يخلفه فى هذه الزعامة . وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده . ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر ، فخلعه جعفر عن الإمامة واختار بدله موسى الإمام السابع (حوالى عام ٧٦٠) ؛ ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأئمة . وظلت طائفة « الإسماعيلية » هذه نحو مائة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها ، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعون إلى عقيدة الطائفة فى بلاد الإسلام . وكان يطلب إلى المبتدئ قبل الدخول فى الطائفة أن يقسم بألا يفشى شيئاً من أسرارها ، وأن يطيع الزعيم الأكبر للطائفة فى كل ما يأمره به . وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطنى وآخر ظاهرى . وكان يقال لمن يدخل فى مذهبهم إنه بعد أن يمر بتسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب ، وينكشف له التعليم أو العقيدة الخفية (الله هو كل شىء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون . وفى المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شىء ، وإن أحداً لا يستطيع أن يعبده[٩٣] ؛ وقد انضم إلى طائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيوعية ، دفعهم إلى هذا ما تقول به من أن مهدياً سيظهر فى وقت من الأوقات ، ويبسط على الأرض عهدا من المساواة ، والعدالة ، والحب الأخوى . وقد أوضحت هذه الطائفة الأخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم فى الإسلام سيطرت فى وقت من الأوقات على شمالى إفريقية ومصر ، وأسست الخلافة الفاطمية ، وقامت فى أواخر

القرن التاسع بحركة كادت تقضى على الخلافة العباسية :

ولما مات عبد الله القداح فى عام ٨٧٤ تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراقى اشتهر باسم حمدان قرمط ، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس فى آسية يسمون أتباعها فى وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه : وكان يرمى إلى القضاء على قوة العرب ، وإعادة الدولة الفارسية ؛ وضم إليه خفية آلافا من المؤيدين ، والأعوان ، وفرض عليهم أن يخرجوا عن خمس أملاكهم ودخلهم ليصبح ملكا عاما للجماعة . ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية فى تلك الحركة التى كانت فى ظاهر أمرها نوعا من الصوفية الدينية . فكان القرامطة يقولون بشيوعية الملك والنساء[٩٤] ، وقد نظموا العمال فى طوائف للحرف ، ونادوا بالمساواة بين كافة الناس ، وأخذوا يفسرون القرآن تفسيراً مجازياً لا يتقيدون فيه بأقوال أهل السنة . وكانوا يتحللون من الشعائر الدينية ومن الصيام ، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة[٩٥] . وبلغ من أمرهم أن أقاموا فى عام ٨٩٩ دولة مستقلة على الشاطئ الغربى للخليج الفارسى ، وهزموا جيش الخليفة فى عام ٩٠٠ ، وأفنوه عن آخره ، ولم ينج من القتل جندى واحد . وفى عام ٩٠٢ اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق ، وفى عام ٩٢٤ نهبوا البصرة ثم الكوفة ؛ وفى عام ٩٣٠ نهبوا مكة نفسها ، وقتلوا ثلاثين ألفا من المسلمين ، وعادوا بكثير من الغنائم ، منها كسوة الكعبة ، والحجر الأسود(*) . غير أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفدت قوة تلك الحركة ؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التى كانت تهدد الملك والنظام العام ؛ ولكن مبادئها وأساليبها العنيفة انتقلت فى القرن التالى إلى إسماعيلية ألموت(**) ، وهم المعروفون بالحشاشين .

(*) وأعيد الحجر إلى الكعبة فى عام ٩٥١ بأمر الخليفة الفاطمى المنصور .

(**) ويسمى أيضاً عش النسر . (المترجم)

الفصل السادس

الأدب

لقد كان فى الحياة والدين فى الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمسرحيات ، أما الأدب الإسلامى فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة ، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية ، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية ، فقد كانت معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقرؤونه وهم صامتون ، ولم يكن فى وسع من يهتمون بنتاج الخيال أن يرقوا إلى الدرجة التى يستطيعون أن يركزوا فيها عقولهم ذلك التركيز الذى لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة الحلقات ، أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبى البشر ، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها فى حماسة الأطفال وتشوفهم ، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً ، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا ، وقصص ألف ليلة وليلة . وقد نقلت القصص الأولى من الهند إلى فارس فى القرن السادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها ترجمت إلى اللغة العربية فى القرن الثامن . ثم فقد أصلها السنسكريتى ، وبقيت الترجمة العربية ، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى .

يحدثنا المسعودى (المتوفى عام ٥٩٧) فى **مروج الذهب** عن كتاب فارسى يدعى **هزار أفسانة** أو **ألف قصة** وعن ترجمته العربية **ألف ليلة وليلة** ؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب **ألف ليلة وليلة** . وخطة الكتاب كما يصفها المسعودى هى الخطة التى نجدها فى كتاب **ألف ليلة وليلة** العربى . وكان هذا

الإطار المحتوى على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن فى بلاد الهند ، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولا فى العالم الشرقى ، ولربما كانت كل مجموعة منها تختلف فى محتوياتها عن غيرها من المجموعات ، ولسنا واثقين أن أية قصة فى المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التى تحتويها المجموعة التى يحدثنا عنها المسعودى . وحدث بعد سنين قلائل من عام ١٧٠٠ أن أرسل مخطوط غير كامل ، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام ١٥٣٦ ، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسى أنطوان جالان Antoine Galland ، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب ، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية ، ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بذاءة ، فأصدر فى باريس عام ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية Les mille et une nuits . ونجح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحرى ، وعن مصباح علاء الدين ، وعن على بابا واللصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص ألف ليلة أكثر ما يقرأه الناس من الكتب فى العالم كله إذا استثنينا الكتاب المقدس (وهو أيضاً كتاب شرقى)(*) .

والنثر الأدبى فى الكتب الإسلامية صورة من الشعر . ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى ، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف ، واللغة العربية التى كانت فى الوقت الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر مقفى لتشابه أواخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف ؛ ولهذا فإن النثر الأدبى كثيراً ما يكون مسجوعاً ؛ وكان الوعاظ ، والخطباء ، والقصاصون ، يلجأون إلى النثر المسجع ، وبهذا كتب بديع الزمان الهمذانى (المتوفى عام ١٠٠٨) مقاماته — وهى قصص كان يرويها لجماعات مختلفة عن وغد

(*) والقرآن بطبيعة الحال وهو الذى يقرؤه كله أو بعضه مسلمو العالم أجمعون . (المترجم)

أفاق أوتى من الذكاء والفكاهة أكثر مما أوتى من الأخلاق الطيبة . وكانت عقول أهل الشرق الأدنى فى ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن ، شأنهم فى هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة ، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى ؛ وكانت القصائد تكتب لكى تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص فى بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها . وقلما كان هناك شخص لا يقرض الشعر — كما كانت الحال عند طبقة السموراى فى بلاد اليابان . وكان من ضروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتا من الشعر بدأه غيره ، أو يتم مقطوعة بدأها زميله ، أو ينافس مناظراً له فى ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية . وكان الشعراء ينافس بعضهم بعضاً فى ابتداع ضروب معقدة من الأوزان والقوافى ، وكان كثيرون منهم يقفون أواسط الأبيات الشعرية وأواخرها ، وكثرت ضروب الأوزان والقوافى فى الشعر العربى وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوربى .

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور — لا نستثنى من هذا التعميم حضارة الصين فى أيام لى پو ، ودوفو ، ولا حضارة ڤيمار Veimar حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر » — الحضارة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية فى عدد شعرائها وثرائهم . وقد جمع أبو الفرج الإصفهانى (٨٩٧ — ٩٦٧) فى أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم فى **كتاب الأغانى** . وحسبنا دليلا على غنى الشعر العربى وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً . وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والناس يخشون هجوهم اللاذع ، والأغنياء يبتاعون مديحهم بيتا بيتا ، والخلفاء يجيزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحونهم بالهبات السخية إذا قالوا فيهم قصائد من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم . ويحكى أن هشاما أراد مرة أن

يتذكر قصيدة من القصائد فأرسل فى طلب حماد الشاعر الراوية ، وكان من حظه أنه يذكر هذه القصيدة بأكملها ، فلما أنشدها لهشام أجازه بجاريتين وبخمسين ألف دينار(٩٧) ، وأكبر ظننا أن أحداً من شعراء هذه الأيام لن يصدق هذه القصة . وبعد أن كان الشعر العربى ينشد لبدو الصحراء ، أضحى الآن يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم ، وأصبح الكثير منه متكلفا ، أكثر ما يعنى به هو الشكل ، شديد التأنق إلى حد التفاهة ، كثير المجاملة خاليا من الإخلاص ؛ ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظماء إلا قبل عهد النبوة(٩٨) ؛

والحب والحرب أكثر مواءمة للشعر من الموضوعات الدينية ، وقلما كان شعر العرب صوفى النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس) ؛ فقد كان الشاعر العربى يفضل أناشيد القتال ، والعاطفة ، والانفعالات النفسية ؛ ولما أن اختتم قرن الفتوح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية ، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة — شَعرها العطر ، وعينيها الشبيهتين بالدرتين ، وشفتيها القرمزيتين ، وأطرافها الفضية ؛ وظهرت الصحراوات وفى المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح الأدب فى عرف الفلاسفة والشعراء يعنى آداب الحب وسلوك المحبين . وانتقل هذا المعنى عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسپانيا ، ومنهما إلى إيطاليا وپروڤانس Provence فى فرنسا ، وانطلقت الألسن وجادت القرائح بالشعر الموزون المقفى .

واشتهر الحسن بن هانئ باسم أبى نواس — لغدائره التى كانت تنوس على كتفيه . وكان مولده فى بلاد الفرس ، ثم رحل إلى بغداد ، ونال الحظوة عند الخليفة الرشيد ، ولعله اشترك معه فى واحدة أو اثنتين من المغامرات التى تعزى إليهما فى كتاب ألف ليلة وليلة . وكان أبو نواس مولعاً بالخمر والنساء والغناء ؛

وكثيراً ما أغضب الخليفة بإدمانه الخمر جهرة ، وبزندقته ودعارته ؛ وكثيراً ما سجنه ثم أطلقه ، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بأهداب الفضيلة ، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينما سار . ولكن أكثر ما كانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التي وصف فيها الخمر والفساد :

يا سليمان ! غنني ومن الراح فاسقني
فإذا ما دارت الزجا جة خذها واعطني
ما ترى الصبح قد بدا في إزار مُبيَّن
عاطني كأس سلوة عن أذان المؤذن[٩٩]

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ ربا غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا[١٠٠]

وكان في بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم — فكان في بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً ، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق . واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين ، ولكنه يشتهر عند المسلمين باسم المتنبي — أي مدعي النبوة . وقد ولد هذا الشاعر في الكوفة عام ٩١٥ ، وتلقى العلم في دمشق ، ثم ادعى النبوة ، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه ، وأقام في بلاط أمير حلب . وكان كأبي نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلي ولا يقرأ القرآن[١٠١] ، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترقى إلى المستوى اللائق به ، فإنه كان يستمتع بها استمتاعاً يصرفه عن التفكير في الخلود . وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة في شعر جمع بين قوة المعنى وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعذر الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . ومن هذا الشعر بيته المشهور الذي كان سبباً في هلاكه وهو :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذلك أن جماعة من اللصوص هاجمته ، وأراد هو الفرار ، فذكره غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر ؛ وأراد المتنبى أن يصدق فعله قوله ؛ فحارب ومات مثخناً بجراحه (٩٦٥)(١٠٢) .

وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد فى معرة النعمان القريبة من حلب أبو العلاء المعرى أعجب شعراء العرب على الإطلاق . وفقد أبو العلاء بصره فى سن الرابعة على أثر إصابته بالجدرى ، ولكنه جد فى طلب العلم ، وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التى وجدها فى دور الكتب ، وطاف بأنحاء العالم الإسلامى ليستمع إلى المشهورين من العلماء ، ثم عاد إلى مسقط رأسه . وكان دخله السنوى خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت عودته لا يزيد على ثلاثين ديناراً ، أى ما يعادل اثنى عشر ريالا أمريكيا فى الشهر ، يشاركه فيها خادمه ومرشده . وأذاعت قصائده شهرته فى العالم الإسلامى ، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبى أن يلجأ إلى المديح . وزار بغداد فى عام ١٠٠٨ وأكرم الشعراء والعلماء وفادته ، ولعله تأثر فى العاصمة بآراء بعض المتشككة ، وهى الآثار التى تتخلل بعض قصائده . وعاد منها إلى المعرة فى عام ١٠١٠ وأصبح فيها من الأغنياء ، ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الخالية من جميع مظاهر النعيم . وكان المعرى نباتيا إلى أقصى حد ، لا يكتفى بالامتناع عن لحم الحيوان والطير بل يمتنع كذلك عن اللبن ، والبيض ، وعسل النحل ؛ فقد كان يرى أن الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه . ولهذا السبب أيضا أبى أن يتخذ شيئا من اللباس من جلد الحيوان ، وعاب على النساء لبس الفراء ، وأشار بلبس الأحذية الخشبية(١٠٣) . ومات المعرى فى الرابعة والثمانين من العمر ، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن مائة وثمانين شاعراً ساروا فى جنازته ، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره(١٠٤) .

وأعظم ما يشهر به فى بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها ١٥٩٢

قصيدة والمعروفة باللزوميات . ولم يتحدث أبو العلاء فى هذه القصائد عن النساء والحرب كما كان يتحدث عنهما زملاؤه من الشعراء ، بل عمد فى جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية فى الحياة : هل نتبع الوحى أو العقل ؟ — وهل الحياة خليقة بأن يحياها الإنسان ؟ — هل ثمة حياة بعد الموت ؟ — هل يوجد إله ؟ . . . ويجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه ؛ ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذى لا يرغب فيه :

إذا قلت المحال رفعت صوتى ... وإن قلت اليقين أطلت همسى[١٠٥]

وهو يعيب فى أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً ... شطراً وإن تفعل فأنت مغرر[١٠٦]

والمعرى بصريح العبارة متشائم ، لا أدرى ، يؤمن بالعقل دون الوحى :

يرتجى الناس أن يقوم إمام ... ناطق فى الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء

. . . .

هل صح قول من الحاكى فنقبله ... أم كل ذاك أباطيل وأسمار

أما العقول فآلت أنه كذب ... والعقل غرس له بالصدق إثمار(*)

(*) وهنا أورد الكاتب أبياتاً أخرى قال إنها من شعر أبى العلاء ، وقال فى سجل المراجع إنه نقلها من كتاب أمين الريحانى المسمى The Quatraines of Abu el'Ala'. وقد بحثنا أولا فيما لدينا من كتب أبى العلاء : اللزوميات ، وسقط الزند ، ورسالة الغفران فلم نعثر على هذه الأبيات ، وقد وجدنا فى كتاب أمين الريحانى الأبيات التى أوردها المؤلف وما بعدها ، وقوله إنها مترجمة عن اللزوميات طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ . وأعدنا البحث فلم نعثر على الأبيات فى هذه الطبعة . وأخيرا وجدنا الأبيات التى نقلها مؤلف هذا الكتاب وما جاء بعدها فى كتاب أمين الريحانى وجدناها فى شعر محيى الدين بن عربى وهى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

فأصبح قلبى قابلا كل صورة ... فرعى لغزلان وبيت لأوثان

ودير لرهبان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهو ينـــدد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمآرب الإنسان الدنيئة ، والذين يملؤون المساجد بالرعب حين يخطبون ، ولكنهم ليسوا فى مسلكهم خيراً من الذين يحتسون الخمر فى الحانات على نغمات المغنين .

لا تطيعن قوماً ما ديانتهم ۞ إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إنما هذه المذاهب أسباب ۞ لجذب الدنيا إلى الرؤســاء

كذب يقال على المنابر دائماً ۞ أفلا يميد لمـا يقال المنبر

رويدك قد غررت وأنت حر ۞ بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصهباء صبحاً ۞ ويشربها على عمـــد مساء

تحساها فمن مزج وصرف ۞ يعـــل كأنما ورد الحساء

طلب الحسائس وارتقى فى منبر ۞ يصف الحساب لأمة ابهولها

ويكون غير مصدق بقيامة ۞ أضحى يمثل فى النفوس ذهولها(١٠٨)

ومن أقواله أن أحط الناس فى وقته هم الذين يشرفون على الأماكن المقدسة فى مكة . فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أى إثم فى سبيل المال ، وينصح مستمعيه بألا يضيعوا أوقاتهم فى الحج(١٠٩) وأن يقنعوا بعالم واحد .

وفى بطحاء مكة شر قوم ۞ وليسوا بالحماة ولا الغيارى

وإن رجال شـــيبة سادنيها ۞ إذا راحت لكعبتها الجمارى

قيام يدفعون الناس(*) شفعاً ۞ إلى البيت الحرام وهم سكارى

إذا أخذوا الزوائف أولجوهم ۞ وإن كانوا اليهود أو النصارى

— والأبيات الإنجليزية التى أوردها المؤلف منقولة من كتاب أمين الريحانى ، تكاد تكون ترجمة حرفية لهذه الأبيات . (المترجم)

(*) ويروى يدفعون الوفد . (المترجم)

وما حجى إلى أحجـار بيت　　كؤوس الخمر تشرب فى ذراها

وما الركن فى قول ناس لست أذكرهم　　إلا بقيـــة أوثان وأنصاب

لاحس للجسم بعد الروح نعلمه　　فهل تحس إذا بانت عن الجسد(١١٠)

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة　　وحق لسكان البسيطة أن يبكوا(*)
تحطمنا الأيام حتى كأننا　　زجاج ولكن لا يعاد له سبك(١١١)

ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة .

وإن جُعلت بحكم الله فى خزف　　يقضى الطهور فإنى شاكر راضى(١١٢)

وهو يؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شىء ، ويعجب من الطبيب الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح .

عجبى للطبيب يلحد فى الخا　　لق من بعد درسه التشريحا(١١٣)

لكنه حتى فى هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا　　ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها　　واللوم يلحقنى وأهل نحاسى
عنب وخمر فى الإناء وشارب　　فمن الملوم أعاصر أم حاسى

ويقول فى سخرية شبيهة بسخرية ڤلتير :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم　　ولا ريب فى عدل الذى خلق الظلما(١١٤)

ثم ينفجر غضبه كما ينفجر غضب ديدرو Diderot فيقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما　　دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا　　وبادوا وماتت سنة اللؤماء(١١٥)

(*) ومثل هذا قوله :

ضحكنا وليس ما يوجب الضحـ　　ـك لدينا بل ما يهيج انتحابا　(المترجم)

وساءة ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه التشاؤم ، فكان عند المسلمين شبيها بتيمن الأثيني(*) : يرى أن لا أمل فى إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الخلق :

كتب الشقاء على الفتى فى عيشه — وليبلغن قضـــاءه المحتوما

فما أذنب الدهر الذى أنت لائم — ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا(١١٦)

رب متى أرحل عن عالمى — فأنت بالنـاس خبير عليم

رب متى أرحل عن هذه الدنيـا — فقد أطلت المقام

ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يعتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلقى إلا صديقا واحداً أو اثنين ، وأن يحيا كما يحيا الحيوان الوديع بعيداً عن الخلق .

ويقول : لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولد قاسى العذاب والمحن حتى يبسط عليه الموت لواء السلام(١١٧) :

وما العيش إلا علة برؤها الردى — فخلى سبيلى أنصرف لطياتى

والعيش داء وموت المرء عافية — إن داوه يتوارى شخصه حسما

والعيش سقم للفتى منصب — والموت يأتى بشفاء السقام

على الموت يجتاز المعاشر كلهم — مقيم بأهليه ومن يتغرب

وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغى — فتأكل من هذا الأنام وتشرب

كأن هلالا لاح للطعن فيهم — حناه الردى وهو السنان المجرب

كأن ضياء الفجر سيف يسله — عليهم صباح فى المنايا ملرب

وليس فى وسعنا أن ننجو من منجل الموت ، ولكن فى وسعنا أن نفوّت عليه

(*) انظر قصة تيمن الأثيني فى مسرحية شيكسپير المعروفة بهذا الاسم ، أو فى قصته كما رواها تشارلس لام مترجمة فى كتابنا « قصص من شيكسپير » . (المترجم)

غرضه بألا نلد له أطفالا . وفى ذلك يقول أبياتاً من الشعر لا تفترق عن أقوال المؤمنين أشد الإيمان بأقوال شوبنهور :

وإذا أردتم للبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر(*)(١١٨)

وقد عمل هو بهذه النصيحة ، وكتب بنفسه قبريته وهى أشد القبريات مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة :

هـــذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد(**)(١١٩)

ولسنا نعرف كم من المسلمين كانوا يشاركون المعرى فى تشككه ؛ ذلك أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أو غير مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر ، وقد يؤدى بنا هذا إلى الاستخفاف بما كان فى العصور الوسطى من تشكك فى العالم الإسلامى كما حدث فى العالم المسيحى . وبلغ الشعر العربى عند المتنبى والمعرى ذروتهما ، فلما انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن صوت الفلسفة ، فصبغ هذا وذاك الشعر العربى صبغة جديدة تتسم بعدم الإخلاص ، وتَصَنُّع العاطفة ، وتكلف الأناقة اللفظية فى قصائد غثة تدور حول شئون بلاط الأمراء . وفى هذا الوقت عينه كانت نهضة الفرس ، وبعثها ، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة وتخلق فيها نهضة حقة . ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

(*) ومثلها :

أرى ولد الفتى عبئاً عليـــه لقد سعد الذى أمسى عقيما
أما شاهدت كل أبى وليد يؤم طريق حتف مستقيما
فإما أن يربيـــه عـــدوا وإما أن يخلفـــه يتيما

أرى النسل ذنباً للفتى لا يناله فلا تنكحن الدار غير عقيم

(**) لقد اعتمد المؤلف فى إيراد هذه الأبيات وما سبقها على كتب نكلسون الواردة فى ثبت المراجع وهى جميعاً كتب مفيدة ممتعة يرجع إليها الفضل فيما يعرفه علماء الغرب عن روعة الشعر الإسلامى وتنوع أغراضه .

كلياً بل بقيت يتحدث بها الشعب ؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبت وجودها بالتدريج ، وتعود كما كانت لغة الحِكَم والأدب . وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافى فى عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين . وظلت سائرة فى هذا الطريق حتى أضحت هى اللغة الفارسية الجديدة فى هذه الأيام ، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية ، وبعد أن استخدمت الخط العربى الجميل . وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشعرها العظيم . وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة ، وإلى شِعر الغزَل المثنوىّ أو الشعر القصصى والرباعيات . وما لبث كل شىء فى فارس — من وطنية ، وعاطفة ، وفلسفة ، ولواط ، وصلاح — أن عبّر عنه الشعر .

وبدأت هذه النهضة بالرودكى (المتوفى عام ٩٥٤) الذى كان يرتجل الشعر وينشد الأغانى ، ويعزف على القيثار فى بلاط السامانيين ببخارى . وفى هذا البلد نفسه ، وبعد جيل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيقى أن يصوغ **الخدينامة** أو **كتاب الملوك** شعراً . وكان دانشوار (حوالى عام ٦٥١) قد جمع فى هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة . وما كاد الدقيقى يتم كتابة ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته . وقام الفردوسى بالعمل بعده وأتمه وأصبح هومر بلاد الفرس .

وولد أبو القاسم منصور (أو حسن) فى مدينة طوس (قرب مشهد) حوالى عام ٩٣٤ ، وكان والده يشغل منصباً إدارياً فى بلاط السامانيين ، وخلف لولده بيتاً ريفياً فى بزاعة بالقرب من طوس . وكان أبو القاسم يقضى وقت فراغه فى البحث عن الآثار القديمة . واسترعى كتاب **الخدينامة** انتباهه فاعتزم أن يحوِّل هذه القصص النثرية إلى ملحمة قومية ، وسمى كتابه **الشاهنامة** ، أى كتاب الملوك ، واتخذ له حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسى ، ولعله اشتق ذلك الاسم من غياض ضيعته . وأتم الفردوسى ملحمته فى صورتها الأولى بعد

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل ، ثم سافر بها إلى غزنة (٩٩٩ ؟) راجياً أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب :

ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان فى غزنة « أربعمائة شاعر لا يفارقون مجالس السلطان محمود » . ولو صح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة كأداء فى سبيل الفردوسى ، ولكنه مع هذا أفلح فى استرعاء اهتمام الوزير فجاء بالمخطوط الضخم إلى السلطان . وتقول إحدى الروايات إن محموداً هيأ للشاعر مسكناً مريحاً فى قصره ، وأمده بقدر ضخم من المادة التاريخية ، وأمره أن يضمها إلى ملحمته . وتجمع كل الروايات التى وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أن يعطيه ديناراً ذهبياً (٤٫٧٠ دولارات) نظير كل بيت من القصيدة فى صورتها الجديدة . وظل الفردوسى يكدح زمناً لا نعرف طوله ؛ بلغت بعده القصيدة (حوالى عام ١٠١٠) صورتها النهائية ، واشتملت على ٦٠٫٠٠٠ بيت وجىء بها إلى السلطان . وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسى المبلغ الموعود ، ولكن بعض بطانته استكثروا العطاء ، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسى زنديق شيعى ومعتزل . واستمع لهم محمود وبعث إلى الشاعر بستين ألف درهم فضى (٣٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . وغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبائع شراب ثم فر إلى هراة ، حيث اختفى ستة أشهر فى حانوت بائع كتب ، حتى يئس من العثور عليه عمال محمود الذين أمرهم بالقبض عليه . ثم لجأ الفردوسى إلى شهريار أمير شيرزاد(*) فى طبرستان ، ونظم قصيدة يهجو فيها محموداً هجواً لاذعاً . وخشى شهريار غضب

(*) ليس شيرزاد أو شهرزاد اسم إقليم ولعل الأمر قد اختلط على المؤلف أو على من رجع إليه من المؤلفين . ولم يرد شيرزاد إلا فى رواية محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى حواشى جهار مقاله إذ يقول إنه وجد فى أصل الكتاب شهرزاد أو شيرزاد مكان شهريار . انظر مقدمة الشاهنامة للدكتور عبد الوهاب عزام فى هذا وفى قصة يوسف وزليخا ففيها تفصيل واف عن قصة هذا الشاعر وبحث علمى قيم فى هذا الموضوع . (المترجم)

السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها . وإذا جاز لنا أن نصدق هذه الأرقام ، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام ، حكمنا من فورنا أن الشعر كان من أكثر الأعمال إدراراً للربح فى فارس فى العصور الوسطى . وانتقل الفردوسى بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هى قصة *يوسف وزليخا* ، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئذ شيخاً فى السادسة والسبعين من العمر . وبعد عشر سنين من عودته سمع محمود بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه ، فسأل عن قائله ، ولما علم أنه من شعر الفردوسى ندم على أنه لم يكافئ الشاعر بما وعده به ، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار منه ، ولما دخلت القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنازة الشاعر (١٠٢٠ ؟) .

وتعد الشاهنامة من أعظم الأعمال فى الآداب العالمية فى حجمها إن لم تكن فى غيره . وإن من النبل بحق أن يترك شاعر الموضوعات التافهة ، والأعمال اليسيرة ، ويقضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروى فيها قصة بلده فى ١٢٠٫٠٠٠ بيت من الشعر — فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوذيسة مجتمعتين . فهاهو ذا شيخ طاعن فى السن جن جنونه بوطنه ، وشغف حبا بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل ، خرافة كانت أوحقيقة . وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية . ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة فى الأبستاق ، ويحدثنا عن جيومرث ، آدم الديانة الزردشتية ، ثم عن جمشيد العظيم حفيد جيومرث « الذى حكم العالم ٧٠٠ سنة . . . والذى سعد للعالم بحكمه ، ولم يكن يُعرف فى أيامه موت ولاحزن ولا ألم » . ولكن جمشيد بعد أن مرت به بضعة قرون « باض الشيطان فى رأسه وفرخ ولوى جيده عن طاعة ملاك الرقاب ، متعرضاً بغمط نعمه لقاصمة العقاب » « وظن أنه ليس على ظهر الأرض سواه ، وادعى أنه إله ، وبعث بصورته لكى يعبدها الناس »[١٢١]. ونصل أخيراً

إلى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع فى تلك الأيام . ولما بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال فى هوى جارية شابة فولدت منه أخا لرستم . ويخدم رستم ثلاثة ملوك وينجيهم من الموت ، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعمائة عام . ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه ، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه ، ويلقى هذا الجواد من الفردوسى الحب والدعابة اللذين يلقاهما الجواد الأصيل من كل فارسى . وفى الشاهنامة قصص حب جميلة ، وفيها بعض ما فى شعر شعراء الفروسية الغزلين فى أوربا فى العصور الوسطى من تعظيم للنساء . فيها صور ساحرة للنساء البارعات الجمال — منها صورة للملكة سوذابة التى كانت تحتجب حتى لا يرى أحد جمالها ، والتى كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب(١٢٢) . ولكن الحب ليس له شأن كبير فى حياة رستم ، لأن الفردوسى يرى أن عاطفة الحب الأبوى والبنوى يمكن أن تكون أعظم وقعاً فى النفوس من عاطفة الحب الجنسى . بيد أن رستم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة فى حب فتاة تركية تدعى تهمينة ، ثم تختفى عن عينه فلا يقف على أثرها ، ثم تربى ابنهما سهراب والحزن يملأ قلبها والكبرياء يرفع رأسها بين أترابها ، وتحدث الشاب عن أبيه العظيم الذى لا تعرف مقره ، ويلتقى الأب والابن فى حرب بين الترك والفرس ، ويقف كلاهما ليقاتل الآخر دون أن يعلما حقيقية أمرهما . ويعجب رستم بشجاعة الصبى الوسيم ، ويعرض عليه أن يحفظ عليه حياته ؛ فيرفض الغلام هذا العرض بازدراء ، ويقاتل قتال الأبطال ، ويصاب بجرح مميت . ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم ، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه . ويعدو جواد سهراب بغير فارسه حتى يدخل معسكر الترك ويصل الخبر إلى والدته فى منظر من أجمل مناظر الملحمة :

تئن وتجأر جهد الحزين   وينتابها الغشى فى كل حين
أطالت بكاء ابنها والنحيبا   فأجرت من الناس دمعاً سكوبا

وخرت على الأرض جزآ نحد ... كأن بها دمها قد جمد
وعادت ترجع تحنانها ... وتذكى على الابن أحزانها
وجاءت إلى طرفه الطائر ... إلى زينــة الزمن الناضر
فلزت إلى رأسه صدرها ... يرى الناس فى عجب أمرها
وجاءت لحلته فى كمد ... تعانقها كابنها المفتقـــد(*)

والقصة كلها غاية فى الوضوح يتنقل القارئ فيها تنقلا سريعا من حادثة إلى حادثة ، ولا يحس بوحدتها إلا حين يشعر بوجود الوطن المحبوب فى كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه : ونحن ، الذين لا نجد لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التى توفر عليهم أوقاتهم ، لا نجد متسعاً من الوقت نقرأ فيه كل أبيات القصيدة وندفن فيه كل ملوكها ؛ ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر الإلياذة أو الإنياذة ، أو المسلاة المقدسة ، أو الفردوس المفقود ؟ إن هذه الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أوتوا القدرة على هضمها . أما نحن فبعد أن نقرأ مائتى صفحة من صفحات الشاهنامة نمل من قراءة أخبار انتصارات رستم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك . ولكن سبب هذا الملل أننا لسنا إيرانيين ، لم نسمع إلى أنغام الشعر الفارسى الأصيل الرنانة العذبة ، ولا نتأثر بها كما يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم رستم على ثلثمائة قرية فى ولاية واحدة من بلادهم . وقد احتفل العالم المتمدين فى آسية وأوربا والأمريكتين فى عام ١٩٣٤ بالعيد الألفى للشاعر الذى ظل كتابه الضخم غذاء لروح الشعب الإيرانى مدى ألف عام :

(*) هذه الأبيات منقولة عن الترجمة العربية للشاهنامة من الفصل الذى أغفله الفتح بن على البنداري وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام . (المترجم)

الفصل السابع

الفن (*)

لما فتح العرب بلاد الشام لم يكن لديهم من الفنون سوى الشعر ، ويقال إن النبي حرم فى النحت والتصوير لأنهما من قبيل عبادة الأوثان — كما نهى عن الموسيقى ، ولبس الحرير الثمين ، والتحلى بالذهب والفضة لأنهما من أسباب التنعم المؤدى إلى الانحلال ؛ ومع أن العرب أخذوا يتحللون شيئاً فشيئاً من هذا التحريم ، فإن الفن الإسلامى فى ذلك العهد الأول كان ينحصر فى فنون العمارة ، والخزف ، والزركشة . يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً ، ولم يكونوا ذوى براعة فنية ناضجة ؛ وكانوا يعترفون بقصورهم فى هذا الميدان ، ولذلك لجأوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية المتبعة فى بيزنطية ، ومصر ، والشام ، وبلاد العراق ، وإيران ، والهند ، فعدلوها بما يوائم طبيعتهم ، كما لجأوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد . من ذلك أن نقوش قبة الصخرة فى بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثانى فى دمشق كانت بيزنطية خالصة . وفيما يلى هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حليات القرميد التى كانت متبعة فى بلاد أشور وبابل القديمة . كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية ؛ وبعد أن دمر المسلمون فى بلاد الفرس كثيراً من الأعمال الساسانية الأدبية والفنية تنبهوا إلى مزايا مجموعات العمد ، والأقواس

(*) نحن مدينون بهذا الفصل إلى كتاب « نظرة شاملة فى الفن الفارسى » Survey of Persian Art . الذى نشره آرثر أبهام بوب Arthur Uphan Pope ، وبخاصة للفصول التى كتبها بنفسه . وإن عمله العظيم فى هذا الميدان الذى أجاده وأخلص فيه ، والذى يضارع فى عظمته ما عمله جيمس هنرى برستد فى تاريخ مصر لمن الأعمال الخالدة التى تشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وحب الإنسانية فى أجلى مظاهرها .

المستدقة والعقود ، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التى أثمرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربى المعروف . ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً ، بل كانت تركيباً بارعا من أشكال مختلفة لا ينقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم . وتخطى الفن الإسلامى الذى انتشر من قصر الحمراء فى الأندلس إلى التاج محال فى الهند كل حدود الزمان والمكان ، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس ، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع ، وعبّر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شىء من نوعها حتى ذلك الوقت .

ويكاد فن العمارة الإسلامية ، كمعظم فنون العمارة فى عصر الإيمان ، أن يكون كله فنا دينيا خالصا . ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل ؛ أما بيوت الله فكانت ، من داخلها على الأقل ، نماذج من الجمال الخالد . غير أننا مع هذا نسمع عن قناطر ، وقنوات لجر مياه الشرب ، وفساق ، وخزانات لمياه الرى ، وحمامات عامة ، وقلاع ، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبق من آثار هذه كلها إلا القليل . وقد أقامها مهندسون معماريون ، كان الكثيرون منهم فى القرن الأول بعد الفتوح الإسلامية من المسيحيين ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت فيما بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مبانى حربية ممتازة فى حلب ، وبعلبك ، وغيرها من مدن الإسلام فى الشرق ، وعرفوا هناك فوائد الأسوار ذات المزاغل ، وأخذوا عن أعدائهم كثيراً من الأفكار التى أقاموا على أساسها حصونهم وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلية ، وقصر الحمراء فى قرطبة حصنين وقصرين معاً .

ولم يبق من قصور بنى أمية إلا القليل . ومن هذا القليل الباقى بيت ريفى فى قصير عمرة بالصحراء الواقعة فى شرق البحر الميت ، وتكشف بقاياه عن حمامات ذات قباب ، وجدران ذات مظلات . ويؤكد لنا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

فى شيراز كان يحتوى على ثلثمائة وستين حجرة واحدة منها لكل يوم من أيام السنة ، وقد طليت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان ، وخصصت منها واحدة للمكتبة ، وكانت حجرة رحبة يبلغ ارتفاعها طابقين ، ذات بواك وعقود ، ويقول عنها أحد مؤرخى الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب فى أى موضوع من الموضوعات لا تحتوى المكتبة نسخة منه[١٢٤] . ولسنا نشك فى أن للخيال أكبر نصيب فيما وصفت به شهرزاد مدينة بغداد ، ولكنه وصف يصور ما كانت عليه فخامة النقوش فى داخل القصور أصدق تصوير[١٢٥] . وكان لأغنياء المسلمين بيوت فى الريف وقصور فى المدن . وكانت لهم فى المدن نفسها حدائق كبرى ، أما بيوتهم فى الريف فكانت حدائقها « جنات » حقة — فيها بساتين ذات عيون ، وجداول ، وفساق ، وبرك مبطنة بالقرميد ، وأزهار نادرة ، وظلال ، وأشجار فاكهة ونُقل ، وكانت تحتوى عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق ، دون أن يضايقهم وهج الشمس . وكان الدين فى فارس دين أزهار ؛ فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوى جميع مظاهر الأبهة والفخامة ، وطبقت شهرة ورد شيراز وفيروزباد جميع أرجاء العالم ، وكانت الورود ذوات المائة من الأوراق من الهدايا التى يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك[١٢٦] .

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ ، كما هى الآن ، أبنية مستطيلة الشكل ، مقامة من اللبن الملتصق بالطين ، سقفها خليط من الطين ، وأعواد النبات ، وغصون الأشجار ، وجريد النخل ، والقش . وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلى مكشوف ، ذى فسقية ، وشجرة فى بعض الأحيان ؛ وكانت تحتوى أحياناً على طائفة من العمد الخشبية ، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات . وقلما كانت البيوت تبنى على الشارع أو تطل عليه ، لأنها كانت حصوناً للعزلة ، تقام للأمن والسلام ؛ وكان لبعضها أبواب سرية ، يهرب منها سكانها من فورهم إذا هوجموا أو أريد اعتقالهم ، أو يدخل منها الحبيب سراً[١٢٧] .

وكان فى كل البيوت ، عدا بيوت أفقر الناس ، أجنحة خاصة بالنساء ، لكل منها فى بعض الأحيان فناء مستقل . وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الماء ، الذى يحمل إليها من خارجها كما تحمل الفضلات منها . وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تؤلف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لجلوس الأسرة عامة تعلوها قبة ، وفى الطابق الثانى منها شرفة تطل على فناء البيت . ولم يكن بيت من البيوت عدا أفقرها يخلو من مشربية من الخشب تدخل الضوء ، وتمنع حرارة الشمس ، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من بالخارج . وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت ، وكانت هى النماذج التى صنعت على غرارها الستر الحجرية أو المعدنية التى ازدانت بها القصور والمساجد فيما بعد . ولم يكن بالبيت مدفأة ثابتة فى جدرانه ، بل كان يدفأ بموقد نحاسى متنقل يحرق فيه الفحم الخشبى : وكانت الحجرات تجصص وتطلى عادة بألوان متعددة . وكانت الأرض تفرش بطنافس من نسيج اليد ، وقد يكون عليها كرسى أو كرسيان ، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس . وكانت أرض الحجرة ترتفع بجوار الجدران فى ثلاث نواح منها بقدر قدم ، أو ما يقرب منه ليتكون من ذلك ديوانه يفرش بالوسائد . ولم تكن فى هذا النوع من البيوت حجرة خاصة بالنوم ، وكان فرش النوم مكوناً من حشية تطوى فى أثناء النهار وتوضع فى مكان لحاص كما يفعل أهل اليابان فى هذه الأيام . وكان أثاث البيت بسيطاً : يتألف من بضع مزهريات ، وآنية المطبخ ، ومصابيح ، وكوة للكتب فى بعض الأحيان .

وكان حسب المسلم التقى الفقير أن يكون المسجد جميلا ، وكان ينفق فى تشييده جهده وماله . ويجمع فيه فنونه وصناعاته ويضعها كالطنفسة بين يدى الله ، وكان فى وسع الناس جميعاً أن يستمتعوا بهذا الجمال وبتلك العظمة ، وكان

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة أنحائها . ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه . وإذا استثنينا واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه فى بعض الأحيان من المبانى المجاورة له ، وقد يكون أحياناً ملتصقاً بها التصاقاً ، وقلما كان يشيد من مواد أفخم من الآجر المطلى بالمصيص . وقد حدد شكله الغرض الذى أقيم من أجله : فكان يتألف من بهو رباعى الشكل يتسع للمصلين ، ومن حوض أوسط ونافورة للوضوء ، تحيط بها إيواناته ذات البواكى لوقاية المصلين وإظلالهم ، وليتلقوا فيها الدروس ، وفى ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء المسجد الأصلى ، وهو فى العادة قسم مسور من الرواق . وكان هذا القسم أيضاً ذا شكل رباعى يمكن المصلين من أن يقفوا صفوفاً متراصة متجهين أيضاً إلى مكة . وقد يكون فوق هذا الصرح قبة ، تكاد تبنى فى جميع الأحوال من الآجر ، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى بالجص لإخفاء هذا البروز[١٢٨] . وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى القبة المستديرة يتم كما يتم فى العمارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطهما فى القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين ، أو سلسلة من العقود الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة . وأهم ما تمتاز به عمارة المساجد هو المئذنة ، والراجح أن المسلمين فى بلاد الشام قد أخذوا فكرة المئذنة من الزجورات — الصرح — البابلى وبرج الجرس فى الكنائس المسيحية ، وأخذ الهنود المسلمون الشكل الأسطوانى من بلاد الهند ، وتأثر مسلمو إفريقية فى تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة[١٢٩] . وليس ببعيد أن تكون الأبراج ذات الأركان الأربعة فى المساحة التى أقيم عليها الهيكل القديم فى دمشق ، ذات أثر فى شكل المئذنة[١٣٠] ، وكانت فى هذا العهد الأول بسيطة خالية فى أغلب الأحيان من الزخرف ، ولم تصل إلا فى القرون المتأخرة إلى ما وصلت إليه من الدقة والارتفاع ، أو نحو ما احتوته من الشرفات الرقيقة الهشة ،

والبواكى الزخرفية ، والسطوح القاشانية ، التى أنطقت فرجسون Fergusson بقوله « إنها أعظم الأبراج رشاقة فى عمارة العالم كله »(١٣١) .

وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأبهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً ، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرميد البراقة لأرض المسجد ومحرابه ؛ وبالزجاج ذى الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصابيحه ؛ وبالطنافس الغالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة ؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلى من الجدران ؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحاريب والطنف ؛ وبالنقوش الجميلة فى الخشب أو العاج أو المصنوعة من المعدن فى الأبواب ، والسقف ، والمنابر ، والسجف . . . أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبذل أعظم العناية فى نحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس . وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعليها نسخة من كتاب الله . وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنموذجاً لجمال الخط وروعة الفن الدقيق . ويجاور المنبر القبلة وهى جزء داخل فى جدار المسجد لعله مأخوذ من القبا فى الكنائس المسيحية . وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم فى تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به فى الكنائس والهياكل ، فجملوه بالقاشانى والفسيفساء ، وصور أوراق الشجر وأزهاره ، والنقوش البارزة ، والأنماط الجميلة ، ذات الألوان البديعة من الآجر ، والجص ، والرخام ، والطين المحروق ، والقاشانى .

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميين تمثيل صور الإنسان والحيوان فى الفن ! فكأن الفنانين المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية ، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غيرهم . فبحث الفنان فى أول الأمر عن منفذ لمواهبه الفنية فى الأشكال الهندسية — الخط ، والزاوية ، والمربع ،

والمكعب ، والكثير الأضلاع ، والمخروط ، والشكل اللولبي ، والقطع الناقص ، والدائرة ، والكرة ؛ وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مئات التراكيب ، وأنشأ منها الدوامات ، والأربطة ، والخطوط المتشابكة المتداخلة ، والنجوم . ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة ، فصور من مختلف المواد ، تيجاناً ، وكروما ، وأزهار البشنين . والكُنْكُر ، وخوص النخل وجريده . فلما جاء القرن العاشر مزج هذه كلها فأنشأ منها الزخرف العربي الذائع الصيت ، وأضاف إليها كلها حلية فذة كبرى هي الكتابة العربية . ذلك أنه عمد في العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين ، أو نمقها بالذيول والنقاط ، حتى استحالت الحروف الهجائية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال . ولما تحلل الناس بعض الشيء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنان أنواعا جديدة من الزينة بأن رسم طير السماء ، وحيوان الحقل ، أو ابتدع أشكالا عن الحيوانات المختلفة لا وجود لها إلا في مخيلته . واستطاع بفطنته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن — الفسيفساء ، والنقوش الصغيرة على العاج ونحوه ، والخزف ، والأقمشة ، والبسط . وكان النقش في كل حالة تقريبا تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة ، تسيطر عليها صورة رئيسية ، أو موضوع رئيسي ، ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية ، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقي ٥ ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصى على فنه ؛ ولهذا أصبح الخشب ، والمعدن ، والآجر ، والجص ، والحجر ، والقرميد ، والزجاج ، والقاشاني — أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما في خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستثنى من ذلك الفن الصيني نفسه .

واستعانت العمارة الإسلامية بهذا الفن الزخرفي فأقامت في جزيرة العرب ، وفلسطين ، والشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والتركستان ، والهند ، ومصر

وتونس ، وصقلية ، ومراكش ، والأندلس — أقامت فى هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة فى خارجها ، والرشاقة والرقة فى داخلها ، نذكر منها مساجد المدينة ، ومكة ، وبيت المقدس ، والرملة ، ودمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ونيسابور ، وأردبيل ، ومسجد جعفر فى بغداد ، ومسجد سر من رأى العظيم ، ومسجد زكريا فى حلب ، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر فى القاهرة ، ومسجد تونس الكبير ، ومسجد سيدى عقبة فى القيروان ، والمسجد الأزرق فى قرطبة — وليس فى مقدورنا إلا أن نكتفى بذكر أسمائها لأن مئات المساجد التى بنيت فى ذلك الوقت لم يبق منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نحوها ، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب .

وقد كشف فى العصر الحديث فى بلاد الفرس وحدها — وهى جزء صغير من بلاد الإسلام — عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد فى تلك البلاد ؛ وكان كشف آثارها من الحادثات الكبرى فى إزاحة الستار عن الماضى المجهول(*) وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل ؛ لأن كثيراً من روائع العمارة الفارسية قد عبثت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً . وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام أن المقدسى يصف فى فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمد الرخامية ، والصفائح الذهبية ، والجدران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ؛ وإنه لم يكن فى خراسان أو سجستان من المساجد ما يضارع فى جماله مسجد هراة(١٣٢) . وفى وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته

(*) فى عام ١٩٢٥ صرح رضا خان ، الذى جلس بعدئذ على عرش فارس ، إلى آرثر أبهام پوپ Arthur Upham Pope بدخول مساجد بلاد الفرس وكان محرماً على غير المسلمين من قبل أن يدخلوها ، لكى يصورها من الداخل . وكان هذا حادثاً عظيما كشف للعالم عن بدائع الفن الفارسى وروعته.

العمارة الفارسية فى القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة ، بدراسة النقوش الجصية البارزة ، والعمد والتيجان المحفورة الباقية ، من محراب مسجد تاين الجامع المخرب ، والمئذنتين الجميلتين الباقيتين فى دمغان . وقد بقى من مسجد أردستان (١٠٥٥) محراب وباب جيلان ، كما كشف فيه عن كثير من العناصر التى تجلت فيما بعد فى العقود القوطية المستدقة ، والأكتاف المركبة ، والأقبية المتقاطعة ، والقبة المضلعة[١٣٣] . وكانت المادة التى شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هى الآجر ، شأنها فى ذلك شأن المبانى القديمة فى بلاد سومر وأرض الجزيرة ؛ وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات ، ووفرة الطين والنيران ؛ لكن الفنان الفارسى قد حول طبقات الآجر بفضل ما أدخله عليها من الضوء والظل ، والنماذج الفنية الجديدة ، والأوضاع الفنية المختلفة ، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظيراً لها من قبل . وقد كسا الخزاف الفارسى الآجر فى أماكن خاصة ، كداخل المساجد والمنابر والمحاريب ، بطبقة من القسيفساء متعددة الألوان ، وبالقرميد الزاهى البراق ؛ ولما أقبل القرن الحادى عشر زاد السطح البراق لألاء وبهاء بطبقة من القاشانى الملون اللامع . وهكذا خدم المسجد كل فن فى بلاد الإسلام ، نزل إلى هذه الخدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء .

وإذ كان قد حرم على المثال أن ينحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان ، فقد وجه جهوده إلى الزخرفة بالنقوش البارزة . فأتقن نحت الحجارة ، وشكل الجص باليد قبل أن يجف ، وصاغ منه أشكالا كثيرة مختلفة ؛ وقد بقى أنموذج رائع من هذه العمائر ، وهو القصر الشتوى الذى بدأه الوليد الثانى عام ٧٤٣ بالصحراء الشرقية إلى شرق نهر الأردن وتركه دون أن يتمه . وكان حول سطح الواجهة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار ، والفاكهة ، والطير ،

والحيوان ، والنقش العربى . وقد نقل هذا النقش الرائع إلى برلين فى عام ١٩٠٤ ونجا من الدمار فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان النجارون يجملون النوافذ ، والأبواب ، والستر الخشبية ، والشرفات ، والسقف ، والمناضد ، وكراسى المصاحف ، والمنابر ، والمحاريب ، ويبدعون فى نقشها إبداعا يستطيع الإنسان أن يراه فى لوحة وجدت فى تكريت ونقلت إلى المتحف الفنى فى نيويورك . كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والخشب يزينون بفنهم المساجد ، والمصاحف ، والأثاث ، والآنية ، والأشخاص أنفسهم ، ويجملونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة . غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا قطعة واحدة هى طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن فى المتحف الأهلى بفلورنس) ويقال إنها إحدى قطع الشطرنج الذى أهداه هرون الرشيد إلى شارلمان فى القرن التاسع الميلادى[١٣٤] . كذلك أخذ صانعو المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق ، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح ، وأباريق ، وجفانا ، وجرارا ، وكيزانا ، وأقداحا ، وأطساتا ، ومواقد ؛ وصبوها فى صور الآساد ، والأفاعى ، وآباء الهول ، والطواويس ، واليمام ؛ ونقشوا عليها فى بعض الأحيان رسوماً بديعة نشاهد مثلا منها فى المصباح الشبيه بالقماش المخرم والمحفوظ فى معهد الفن بمدينة تشكاجو . ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب ، ويبدعون المصنوعات المعدنية « الدمشقية » أى المزخرفة بفن الدمشقيين وإن لم يكن قد نشأ فى مدينتهم[١٣٥] . وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ المسقى المزين بالنقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية ، أو الحروف الهجائية ، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة . وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد برعوا فى هذا الفن براعة ليس بعدها زيادة لمستزيد .

ولما انتهى عصر الفتوح الإسلامية واستقر المسلمون فى البلاد المفتوحة وأخذوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم فى صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خمسة فى هذا

الفن هى التقاليد المصرية ، والإغريقية — والرومانية ، والعراقية ، والفارسية ، والصينية . ونقول الصينية لأن سار Sarre كشف فى سر من رأى فخارا من عهد أسرة تانج ومعه قطع من الخزف الصينى الرقيق ؛ وكانت الأوانى الفارسية — الإسلامية فى عهدها الأول منقولة نقلا لا خفاء فيه عن نماذج صينية . ونشأت مراكز صناعة الفخار فى بغداد وسامرا(*) ، والرى ، وكثير غيرها من البلدان . ولم يحل القرن العاشر الميلادى حتى كان صانعو الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الآنية الفخارية ما عدا الخزف الصينى ، ويصنعونه فى أشكال لا حصر لها تبدأ من المباصق اليدوية الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة ، التى تتسع فى القليل لأحد « اللصوص الأربعين »[١٣٦] ، ويتبين الإنسان فى خير المصنوعات الفخارية الفارسية دقة فى التصوير ، وبراعة فى التلوين ، وحذقا فى الصناعة لا تسمو عليها إلا الصناعتان الصينية واليابانية ؛ وظلت ستة قرون لا تضارعها صناعة أخرى فى جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة البامير وغربها[١٣٧] ؛ وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها مواءمة لهم ؛ وكان أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحرص على جمع روائعه ، وكثيراً ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبى العلاء المعرى وعمر الخيام تشبيهات واستعارات فى أقوالهم الفلسفية . ويحدثنا الكتاب عن مأدبة أقيمت فى القرن التاسع ارتجلت فيها قصائد ، وأهديت إلى الآنية التى كانت تزدان بها المائدة[١٣٨] .

وقد امتاز صانعو الفخار فى سامرا وبغداد فى ذلك القرن بصنع الفخار اللامع أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداعا . وكانت النقوش التى تحليه ترسم بأكسيد معدنى على طبقة من الطين المزجج ، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية مدخنة مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة ، وتكسب الطلاء بريقا متعدد

(*) وهى سُرَّ من رأى وتسمى أيضاً سُرَّاء . (المترجم)

الألوان . وبهذه الطريقة أخرج الصناع أوانى ذات لون واحد جميل ، وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل منها خضراء ذهبية ، وبنية داكنة ، وصفراء ، وحمراء ، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل عن المائة عدا . وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع القرميد التى كانت تستخدم للزينة فى فن العراق القديم ، فكانت ألوان هذه المربعات الكثيرة وما تألف منها من وحدات متناسقة مما أكسب مداخل مئات المساجد ومحاريبها وكثيراً من جدران قصور العظماء روعة منقطعة النظير . وورث المسلمون فى صناعة الزجاج — وهو الفن الشديد الاتصال بصناعة الفخار — كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حذق وبراعة ، فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة ، وزينوها بالرصائع والنقوش ، ورسوم النبات والأزهار ؛ ولعل أهل الشام قد ابتدعوا فى ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالميناء ، وهو الفن الذى بلغ ذروة مجده فى القرن الثالث عشر .

وإذا ما ذكرنا سعة انتشار فنى التصوير والنحت فى الكنائس الكاثوليكية الكبرى وهى التى لا تكاد تخلو من آثاره واحدة منها ، وذكرنا فى الوقت نفسه أهمية هذين الفنين فى نشر العقائد والقصص المسيحية ، إذا ما ذكرنا هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما فى الإسلام . نعم إن القرآن قد حرم النحت (سورة المائدة الآية ٨٩) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير ؛ غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبى قد نهى أيضاً عنه(١٣٩) . ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء تحرم التصوير وإقامة التماثيل جميعا . ولهذ التحريم نظير فى الوصية الثانية وفى التعاليم اليهودية . ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين يخرج مثالا للكائنات الحية إنما يدعى لنفسه ما هو من حقوق الخالق جل جلاله . ومن علماء الدين من يتساهلون فى هذا فيجيزون تصوير الجماد . ومنهم من يتغاضون عن تصوير الحيـــوان أو الإنسان على

الأشياء التي لا تستعمل إلا في الأغراض الدنيوية . وكان بعض خلفاء بني أمية لا يعبئون قط بهذا التحريم ؛ وشاهد ذلك أن الوليد الأول زين قصره الصيفي في قصير عمره حوالي عام ٧١٢ بظللات هلنستية بصور فيها رجالا يطاردون الوحوش ، وبنات يرقصن ، ونساء يغتسلن ، وهو جالس فوق عرشه يشاهد هذا كله(١٤٠) . وكان خلفاء بني العباس يجهرون بتقواهم ، ولكن كانت لهم قصور حوت في حجراتهم الخاصة جدراناً مزينة بالصور ؛ وقد استأجر المعتصم فنانين ، أغلب الظن أنهم مسيحيون ، ليصوروا على جدران قصره في سامرا مناظر صيد ، ورجال دين ، وبنات عاريات يرقصن ؛ وأجاز المتوكل ، وهو الذي كان يضطهد الملحدين ، المصورين من أهل بيزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلات مظلما آخر يمثل رهباناً مسيحيين وكنيسة مسيحية(١٤١) .

وزين محمود الغزنوي قصره بصور تمثله هو وجيوشه ، وفيلته ؛ وغطى ابنه مسعود ، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة عن عرشه بزمن قليل ، جدران حجرات قصره في هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب الفن الشهواني الفارسي أو الهندي(١٤٢) . وتروى إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذا يتباريان في بيت أحد الوزراء في التصوير الواقعي ؛ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من باطن الجدار ؛ وعرض الثاني أن يقوم بعمل أشق من هذا — وهو أن يصورها بحيث تبدو وهي تهم بدخول الجدار . ونجح كلاهما في إبراز فكرته نجاحا حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنية ويهبهما كثيرا من الذهب(١٤٣) . وفي وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد الدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم ؛ وحسبنا أن نقول إنا نجد في بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسي مصورة بكثرة يطرب لها الرائي ، وممثلة بجميع أنواع فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها ، قد عاق

نمو فن التصوير الإسلامى ، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة ، وكاد يمتنع تصوير الأشخاص (وإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابن سينا) ، وترك الفنانين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف ؛

ولم يبق من صور الجدران فى ذلك العصر إلا صور قصير عمرة ؛ وهى تكشف عن خليط غريب مجدب من القواعد الفنية البيزنطية والأنماط الساسانية . وكأن المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم الصغرى على العاج ومثله إلى درجة من الجمال لا تعلو عليها درجة أخرى فى التاريخ كله . وقد وجد هذا الفن تراثا متعدد الأنماط بنى عليه ، وأخرج منه ثماراً مختلفة ، ونعنى بذلك التراث البيزنطى ، والساسانى ، والصينى ؛ وكان تزيين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة فى العصور الوسطى فناً اختصت به طبقات الأشراف القليلة العدد ، شأنه فى هذا شأن موسيقى الحجرات فى أوربا الحديثة ؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقير المخلص لفنه فقراً وإخلاصاً أنتجا هذه الروائع التى تتطلب كثيراً من الجد والأناة . وهنا أيضاً أخضع التزيين تمثيل الكائنات الحية لسلطانه ؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور ، وخرج على الشكل الذى اتخذه أنموذجا له ، فكان يعمد إلى موضوع أو شكل مركزى — قد يكون شكلا هندسياً أو زهرة واحدة — ويتبسط فيه ويتوسع ويخلق منه مائة صورة مختلفة حتى لتكاد كل إصبع من الصفحة بما فى ذلك إطارها تمتلئ بالخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفراً . وكان فى وسع الفنان أن يزين الكتب غير الدينية بصور للرجال والنساء والحيوان ، فى مناظر الصيد واللهو والحب ، ولكن طراز التزيين كان هو بعينه على الدوام ، كان هو الصورة المكونة من خطوط دقيقة ، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفنى بعضها فى بعض ، ومن الجمال المجرد الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال ، والذى يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستريح .

وكان الخط العربى الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التنميق ؛ ولسنا نجد مثالا آخر لاجتماع الكتابة والتصوير وتآخيهما على هذا النحو إلا فى بلاد الصين البعيدة . لقد كانت الحروف الكوفية فى موطنها الأول ، بلدة الكوفة نفسها ، حروفاً سمجة ذات زوايا ، وأركان محددة فجة ، ولكن الخطاط كسا هذه العظام العجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغيرة متخذة من أوراق النبات ؛ فلما ارتقى الخط الكوفى إلى هذه الدرجة من الجمال أصبح كثير الاستعمال فى تزيين المبانى نفسها . أما الكتابة الدارجة فكان خط النسخ فيها أكثر جاذبية من الخط الكوفى ؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفقى المتعرج كان هذان فى حد ذاتهما وسيلة للزينة فى غنى عن الإضافات الأخرى . وليس فى خطوط العالم كله سواء كانت مكتوبة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الخط فى جماله ؛ ولم يحل القرن العاشر حتى كانت له الغلبة على الخط الكوفى فى تزيين المبانى أو الخزف ؛ والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التى وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كتابة القرآن كانت فى حد ذاتها من الأعمال الصالحة التى يثاب عليها صاحبها ؛ وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكا لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون . وبينا كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعا يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم فى جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الملوك والأمراء الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال ، وكان فى البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعوه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود ، والأزرق ، والبنفسجى ، والأحمر ، وبالذهب الإبريز . ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر ، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة

فى دار الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤ ؛ وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد ليناً ومتانة ، وأنه قد بذل فى تجليدها من حسن الذوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد ، وأن الجلد المغلفة به كان فى كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر هى أجمل ما رأته العين من الكتب فى العالم كله . وهل منا من يطمع فى أن تنشر كتبه اليوم بهذا الرونق وتلك الفخامة ؟

وقد اجتمعت الفنون كلها فى تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال ، فامتزجت أشكال الرسوم الدقيقة بالخط الجميل فى المنسوجات ، وطبعت بالنار على الفخار ، وأقيمت على مداخل المبانى والمحاريب . وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان ، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان ، بل كان يرفع من قدر الصانع الماهر ، وكان الهدف الذى تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة . لقد كان الناسج يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل ، مثله فى هذا كمثل صانع الفخار سواء بسواء ؛ ولكنه كان فى بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصبره ، كما يصور أحلامه ، فى الأثواب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفراش ، والنسيج المطرز ، والحرير المشجر ، يخرجه ليبقى عدة أجيال ، وقد أبدع نقشه ، وصبغه بالألوان الزاهية المحبوبة فى بلاد الشرق . لقد كانت المنسوجات البيزنطية ، والقبطية ، والساسانية ، والصينية ذائعة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، والتركستان ؛ وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التى نهى النبى عن لبسها ، وأخرجتها بكثرة ، ولبسها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر لهم خطاياهم الجسمية والروحية . وكانت حلة الشرف أثمن ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من

يؤدى له خدمة جليلة ؛ وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير فى العالم كله فى العصور الوسطى . وكانت أقمشة التفتاه الحريرية تبتاع لملابس السيدات فى أوربا ، واشتهرت شيراز بالأقمشة الصوفية ، كما اشتهرت بغداد بأقمشة الستائر ، والمظلات ، والحرير المموج ، وخوزستان بالأقمشة المنسوجة من وبر الجمال وشعر الماعز ، وخراسان بأغطية الهوادج ، وصور بالطنافس ، وبخارى بسجاجيد الصلاة ، وهراة بالحرير المنقوش بخيوط الذهب . ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد ، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ما كانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة بالنظر إلى ما كان منها فى القرون التالية ، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون لها . وقد وجدت فى المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها « ٤٠٠,٠٠٠ قطعة من الذهب ثمن حلة وهبت لجعفر بن يحيى الوزير »(١٤٤) .

الفصل الثامن

الموسيقى

كانت الموسيقى فى أول الأمر محرمة فى الإسلام تعدّ من الآثام ، شأنها فى ذلك شأن النحت[١٤٥] . نعم إنه لم ينص على تحريمها فى القرآن ، ولكن حديثاً مشكوكاً فى صحته يعزو إلى النبى أنه لخوفه من عاقبة أغانى النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات ، ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست إثماً فى ذاتها . أما الناس ، وهم أحكم فى مسلكهم منهم فى عقائدهم ، فكان يجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال أن « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما »[١٤٦] . وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملأت آلاف الليالى العربية بأغانى الحب والحروب والموت ؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العظماء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم ، وفى ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكم على هذه الأمور قولا خليقا بأن يثير الدهشة : « إن المنزلة التى بلغتها الموسيقى بجميع فروعها عند العرب لتزرى بمنزلة هذا الفن فى تاريخ أى بلد آخر[١٤٧] » . نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقى العربية — ونعنى بتلك الخصائص تفضيلها حسن الإيقاع على انسجام الألحان ، وتقسيم النغمات إلى أثلاث لا إلى أنصاف ، وما فى تكوينها وتوقيعها من نضارة وبهجة هى من مميزات بلاد الشرق . وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطا ، محزنا مملا ، غريبا مستهجنا غير منتظم . لكن الموسيقى الأوربية نفسها تبدو للعربى ناقصة فى عدد نغماتها ،

وفى دقة هذه النغمات ؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتعقيد الذى لا خير فيه ، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع . وإن ما فى الموسيقى العربية من رقة تبعث على التفكير لتؤثر فى نفس المسلم أعمق التأثير . ويحدثنا السعدى عن غلام يغنى بنغمة محزنة مؤثرة تستوقف الطائر فى كبد السماء[١٤٨] . ويصف الغزالى النشوة بأنها الحالة التى يبعثها الاستماع إلى الموسيقى[١٤٩] . وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلا فى كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية ، وقد استعان بها الدراويش فى أذكارهم وشعائرهم وإن كان الدين نفسه قد ندد بها فى أول الأمر :

وبدأت الموسيقى الإسلامية بالألحان والأشكال الساميّة القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الأسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قويا بالموسيقى الفارسية والهندية . وقد أُخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان ؛ وللكندى ، وابن سينا ، وإخوان الصفا ، كتاباب مطولة فى هذا الموضوع ؛ وكتاب الفارابى فى الموسيقى أشهر ما أُلف فى العصور الوسطى فى النظريات الموسيقية وهو « يضارع أى كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه »[١٥٠] . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع السلم الموسـيقى (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفاً فى أوربا قبل عام ١١٩٠)[١٥١] — وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذى تمتد إليه كل نغمة وعلى مقامها[١٥٢] .

وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عدّا أشهرها كلها العود ، والقيثارة ، والبندور ، والسنطير ، والناى ، يقويها فى بعض الأحيان البوق ، والدف ، والصنج ، والرق ، والطبل . وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الاثنى عشر ؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة . وعن العرب أخذت كلمتا guitar ، و lute : وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية ، وكان الأرغن بنوعيه الهوائى والمائى معروفاً عند العرب ؛ وقد اشتهرت

بعض المدن الإسلامية كإشبيلية بصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التي لا تضارعها آلات أخرى مما كان يصنع وقتئذ في بلاد الإسلام(١٥٢) . وكان يقصد بالموسيقى الآلية كلها تقريباً أن تصحب الغناء أو أن تكون مقدمة له . وكان يقتصر في العادة على استخدام أربع آلات أو خمس في وقت واحد ، ولكننا نقرأ أيضاً عن فرق موسيقية كبيرة العدد(١٥٣) ، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقى من أهل المدينة أول من استعمل القضيب(١٥٤) .

وكانت منزلة الموسيقيين عند المسلمين منحطة إذا استثنينا مشهوري الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الجنون .. وشاهد ذلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من عليائه فدرس هذا الفن الفاتن الذي يسلب العقول . ومن أجل هذا كانت الموسيقى في بيوت الأغنياء من عمل القيان ، ومن المشترعين فئة تقول إن شهادة الموسيقى لا تقبل في المحكمة(١٥٥) . كذلك كاد الرقص عندهم يقتصر على الجواري يدربن عليه ويستأجرن له ، وكان في كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً ، وفي كثير منها فنياً . وقد أقام الخليفة الأمين حفلة راقصة دامت طول الليل رقص فيها عدد كبير من الفتيات وغنين . ولما اتصل العرب باليونان والفرس ارتفعت منزلة الموسيقيين عندهم ، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقيين في أيامهم ، فهاهو ذا سليمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (١٠ر٠٠٠ دولار أمريكي) لمباراة بين الموسيقيين في مكة . وهاهو ذا الوليد الثاني يعقد مباريات في الغناء كانت الجائزة الأولى في واحدة منها ٣٠٠ر٠٠٠ قطعة من الفضة (١٥٠ر٠٠٠ دولار أمريكي)(١٥٦) ، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كعادة أهل الشرق . وقد دعا المهدي إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة ، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه إبراهيم الموصلي وأعطاه ١٥٠ر٠٠٠ درهم (٧٥ر٠٠٠ دولار أمريكي) ورتب له عشرة آلاف كل شهر ووهبه ١٠٠ر٠٠٠ نظير أغنية واحدة . وقد بلغ من حب هرون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة في

أخيه لأبيه ، الشاب إبراهيم بن المهدى – على الرغم من تقاليد طبقته – لأن إبراهيم كان له صوت غاية في القوة يبلغ مداه ثمانى طبقات . وإن الزمن ليتضاءل فى خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عند ما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية فى الموسيقى العربية مضادة للنزعة الإتباعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلي . وكان المأمون يقول عنه إنه لم يغنّ لى قط إلا شعرت بأنى قد اتسع ملكى (١٥٩) .

والقصة الآتية التى يرويها مخارق تلميذ إبراهيم الموصلى تصور لنا المجتمع الإسلامى بصورة مبهجة ، وتظهر ما كان للموسيقى الإسلامية من أثر قوى فى نفس المسلم ؛ ولسنا فى حاجة إلى تصديقها لكى نحس بمغزاها ، قال :

تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم ، فقيل له : كيف ذلك؟ قال : شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين ؛ قال نعم ، وأمر البوابين أن يتركونى ؛ فخرجت أتمشى وإذا أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها ، ورأيت معها زنبيلا فوقفت على صاحب فاكهة فاشترت منه سفرجلة بدرهم ، ورمانة بدرهم وكمثراية بدرهم وانصرفت. فتبعتها ، فالتفتت فرأتنى فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد ؟ قلت خلفك يا سيدتى ؛ فقالت ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك . فتأخرت ومشيت من بعيد وهى تمشى أمامى ، ثم التفتت فرأتنى فشتمتنى شتماً قبيحاً . ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بحذاء الباب ، وقد ذهب عقلى ، ونزلت علىّ الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فما لبثت أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين ؛ فلما وصلا إلى الباب استأذنا فأذن لهما ، فدخلا ، ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعانى. وجىء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل : هل لكما فى فلانة ؟ قالوا : إن تفضلت . فاستدعى تلك الجارية ، فخرجت صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته فى حجرها وغنت ، فشربوا وطربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً آخر فشربوا

وطربوا وهى تلحظنى وتشك فىّ ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً ثالثا فطربوا وشربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى يدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه . فاستدعيت بدواة وقضيب وغنيت الصوت الذى غنته الجارية أولا ، فقاموا إلىّ وقبلوا رأسى . (قال الراوى) وكان مخارق أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا . ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير . فقالوا بالله من أنت يا سيدى ؟ فقلت : أنا مخارق . فقالوا ما سبب مجيئك ؟ قلت : طفيلى أصلحكم الله ، وأخبرتهم بخبرى ، فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها ؟ قالا : بلى . قال : هى له . قال صديقاه : علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف . قال مخارق فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التى أهدوها إلىّ) ، وكلما مرت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول لها : يا مولاتى : أعيدى كلامك ؛ فتستحى منى فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمير المؤمنين (فقيل لى إنه انتبه وطلبك فى منازل أبناء القواد فلم يجدك وتغيظ عليك غيظا شديداً) ، فدخلت عليه ويدى فى يدها فلما رآنى سبّنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين : لا تعجل . وحدثته القصة فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك . فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ولى بعشرة آلاف(١٦٠)(*) .

(*) نقل المؤلف هذه القصة عن كتاب **Arabian Society in the Middle Ages** (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) تأليف إدورد لين **Edward Lane** ونقلها لين عن كتاب حلبة الكميت . ونقلناها نحن عن الكتاب الأخير وهى مطابقة فى جملتها لما ورد فى كتاب لين عدا الجزأين المحصورين بين أقواس فالجزء الأول غير موجود فى حلبة الكميت ، والجزء الثانى غير موجود فى الأصل الإنجليزى ؛ ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر فيما كافأ به الخليفة صاحب الجارية وصديقيه فمؤلفنا يقول إن أمير المؤمنين أعطى صاحب الجارية أربعين ألف درهم ، وكل واحد من صديقيه ثلاثين ألفا ، ومخارقاً مائة ألف . أما صاحب حلبة الكميت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ولمخارق بعشرة آلاف ، وهذا يتفق مع ما جاء فى أول القصة الذى لم ينقله المؤلف . (المترجم)

الباب الثالث عشر

الإسلام فى الغرب

١٠٨٦ – ٦٤١

الفصل الأول

فتح إفريقية

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءا من العالم الإسلامى ، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعونى ؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لها من حكومة منظمة ؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرم وفاس إلى حين . أما أسبانيا فى عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة فى تاريخ الحضارة ؛ ولما حكم المُغُل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة ، وأبدعوا كما يبدع الصياغ .

وبينما كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمرو بن العاص ، بعد موت النبى بما لا يزيد على سبع سنين ، من مدينة غزة فى فلسطين واستولى على پلوز(*) ، ومنفيس ، ثم زحف على الإسكندرية . لقد كان لمصر مرافئ وقواعد بحرية ، وكان العرب فى حاجة ماسة إلى أسطول ؛ وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية ، وكانت بلاد العرب فى حاجة إلى الحبوب ؛ وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب فى شرطتها ، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين ؛ وكان المسيحيون اليعاقبة فى مصر قد قاسوا

(*) أو پلوزيوم ويسميها العرب الفرما . (المترجم)

الأمرّين من جراء اضطهاد بيزنطية ؛ ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين ، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس ، وأرشدوهم إلى الإسكندرية(*) ، ولما سقطت تلك المدينة فى يد عمرو بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (٦٤١) كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يقول : « أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك »(**)(١) .

وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية . ولم يكن فى وسعه أن يدرك أسباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين ، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة .

وبعد ، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت فى كتاب عبد اللطيف (١١٦٢ – ١٢٣١) ، أحد العلماء المسلمين(٢) ؛ ثم أوردها بتفصيل أوفى بار هبريوس Bar Hebraeus (١٢٢٦ – ١٢٨٦) وهو مسيحى يهودى الأصل من شرقى بلاد الشام كتب باللغة العربية ، باسم أبى الفرج ، مختصراً لتاريخ العالم . وقد جاء فى روايته لهذه القصة أن رجلا من أهل الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومى (واسمه عند الغربيين John Philoponus) طلب إلى عمرو أن يعطيه ما فى المكتبة من مخطوطات ؛

(*) ليست هذه الرواية من الروايات الموثوق بها ، ويذكر الدكتور بطلر فى كتابه فتح العرب لمصر مصدر هذه الرواية ويورد الأدلة التى تنقضها . اقرأ هذا فى الترجمة العربية لهذا الكتاب فى هامش ص ٢٥٧ .

(**) فى الأصل الإنجليزى أربعمائة حمام ولكن حتى نقلا عن ابن الحكم والدكتور بطلر يذكر أنها أربعة آلاف حمام ، وقد تكون أربعمائة أقرب إلى العقل . (المترجم)

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه فى هذا ؛ فرد عليه عمر ، كما تقول الرواية ، بقوله : « أما ماذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنبـا فيه واحرقها » . وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطورى فى أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير : « احرقها لأن ما فيها كله يحتويه كتاب واحد هو القرآن » . ويضيف بار هبريوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد بها ، فما زالوا يوقدون بملفات البردى والرق ستة أشهر (٦٤٢) . ومن نقط الضعف فى هذه القصة : (١) أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون فى عهد البطرق توفيلس عام ٣٩٢[٣] ، (٢) وأن ما بقى فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضا « أدى إلى ضياع معظمه قبل عام ٦٤٢ »[٤] ، (٣) وأن أحداً من المؤرخين المسيحيين لم يشر بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم فى الخمسمائة العام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة ، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو أوتكيوس **Eutychius** كبير أساقفة الإسكندرية فى عام ٩٣٣(*) قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير[٥] . ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة . هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئا فشيئا من المآسى الكبرى فى تاريخ العالم ؛ وذلك بأنها ، كما يعتقد العلماء ، كانت تحتوى على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلس ، وسفكل ، وپولبيوس ، وليڤى ، وتاستوس ، ومائة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة ، كما كانت تحتوى على النصوص الكاملة لمن جاء قبل سقراط من الفلاسفة ، وهى النصوص التى لم يبق منها إلا جذاذات متفرقة ، وعلى آلاف من المجلدات فى تاريخ اليونان ، والمصريين ،

(*) ولقد أورد الدكتور بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » المترجم إلى اللغة العربية من الأدلة القاطعة ما يفند هذه القصة . (المترجم) .

والرومان ، وفى العلوم الطبيعية ، والآداب والفلسفة .

وحكم عمرو مصر حكما صالحا ؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة(*) لتطهير قنوات الرى وترميم الجسور ، وإعادة فتح الخليج الذى كان يوصل النيل بالبحر الأحمر ، والذى يبلغ طوله ثمانين ميلا . وبذلك استطاعت السفن وقتئذ أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى(٦) (وقد طمر هذا الخليج مرة أخرى فى عام ٧٣٢ وأهمل شأنه) . وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر فى الموضع الذى أقام فيه معسكره عام ٦٤١ وسميت العاصمة الجديدة بالفسطاط ، وهى كما يبدو الكلمة المرادفة لخيمة ؛ وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين (٦٤١ — ٨٦٨) مقر الولاة المسلمين يحكمون منه مصر نيابة عن خلفاء دمشق أو بغداد .

وبعد فإن من الحقائق المقررة أن كل فتح يخلق حدودا جديدة تتعرض للخطر فتوحى بفتح جديد . وأراد المسلمون أن يحموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربى من قيرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقاتل مخترقين الصحراء إلى برقة ، واستولوا عليها ، ووصلوا قرب قرطاجنة . وغرس قائد المسلمين رمحه فى الرمل جنوبى مدينة تونس الحالية بنحو ثمانين ميلا ، وأقام فى هذه النقطة معسكره ، وأنشأ بذلك (٦٧٠) مدينة من أكبر المدائن الإسلامية وهى مدينة القيروان — « المحطة »(**) . وعرف عاهل الروم أن الاستيلاء على قرطاجنة يمكن المسلمين من السيطرة على البحر المتوسط ، ويفتح لهم الطريق إلى أسبانيا ؛ فسير إليها الجند والأسطول ؛ ونسى البربر إلى حين حقدهم على الروم فانضموا إليهم فى الدفاع عن المدينة ، فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا فى عام ٦٩٨ . ولم يلبث

(*) لعل المؤلف يقصد الضرائب التى كانت باهظة فى أيام الرومان لأن المعروف أن عمرا خفف الضرائب ووزعها توزيعاً عادلا . (المترجم)

(**) الذى فى قاموس الفيروزيادى أن القيروان القافلة . (المترجم)

شمال إفريقية أن خضع للمسلمين حتى شاطئ المحيط الأطلنطى : واقتنع البربر — بشروطهم هم أنفسهم تقريبا — بقبول حكم المسلمين ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامى ، وقسمت أملاك المسلمين فى إفريقية إداريا إلى ثلاث ولايات : مصر وعاصمتها الفسطاط ، وإفريقية وعاصمتها القيروان ، والمغرب (مراكش) وعاصمته فاس .

وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعترف بالسيادة لخلفاء المشرق ؛ ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والنقل ، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة . فقامت أسرة الأدارسة فى فاس (٩٧٤) ، وأسرة بنى الأغلب (٨٠٠ — ٩٠٩) تحكم فى القيروان ، وقامت الأسرة الطولونية (٨٦٩ — ٩٠٥) فى مصر . ولم تعد مصر — هرى العالم القديم — نهبا للحكام الأجانب ، ودخلت فى نهضة صغرى جديدة ، وفتح أحمد بن طولون عام (٨٦٩ — ٨٨٤) بلاد الشام وضمها إلى مصر ، وبنى له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحى الفسطاط) وشجع العلوم والفنون ؛ وشاد القصور ، والحمامات العامة ، وأنشأ بيمارستاناً ، ومسجداً عظيما لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضله : وقلب ابنه خماريه (٨٨٤ — ٨٩٥) هذا النشاط إلى ترف ، ورصع جدران قصره بالذهب ، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينشىء لنفسه بركة من الزئبق ليتأرجح بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم : وخلفت الأسرة الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاما أسرة أخرى تركية أنشأها الإخشيد (٩٣٥ — ٩٦٩) . ولم تكن لهذه الممالك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده ، ولهذا كان لابد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين ، فلما أضعفت الثروة حماستها العسكرية ذابت قوتها واختفت من الوجودد .

وأيدت أعظم الأسر الحاكمة الإفريقية سياستها الحربية بعقيدة دينية تكاد

تبلغ درجة التعصب ؛ ذلك أن أبا عبد الله قام فى بلاد تونس عام ٩٠٥ وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعى وإلى عقيدة الأئمة السبعة ، ويبشر بقرب ظهور المهدى ؛ وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع إزالة حكم الأغالبة من القيروان . وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره فى أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد ، وزعم أنه حفيد عبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدى المنتظر ، ونادى به ملكا (٩٠٩) ، وما لبث هذا الداعية أن قُتِل بأمر مليكه . وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبى (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها .

واستعاد شمال إفريقية تحت حكم الأغالبة والفاطميين ما عرفه من رخاء فى أيام مجد قرطاجنة تحت حكم الرومان . ذلك أن الفاتحين المسلمين فى عنفوان شبابهم فى القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يتراوح طولها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ميل وتخترق الصحراء الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو ، كما أنشئوا من الثغور فى الشمال والغرب بونة ، ووهران ، وسبتة ، وطنجه ؛ وقامت تجارة عظيمة مربحة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط ، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس ، ونقل المهاجرون الأسبان إلى مراكش الصناعات الجلدية ؛ وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسبانيا ، واشتهرت بأصباغها وعطورها ، وطرابيشها الحمر المغربية .

وانتزع الفاطميون فى عام ٩٦٩ مصر من بنى الإخشيد ، ومالبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام . ونقل المعز الخليفة الفاطمى عاصمة ملكه إلى القاهرة ؛ وكانت امتداداً للقطائع فى جهة الشمال الشرقى كما كانت القطائع نفسها امتداداً للفسطاط فى نفس هذا الاتجاه . وحذا المعز حذو أسلافه فشرع يغزو البلاد ويفتح الأمصار . وفى عهد المعز (٩٥٣ — ٩٧٥) وابنه العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) أعاد يعقوب بن كلس — وهو يهودى من بغداد اعتنق الإسلام — تنظيم الإدارة

المصرية ، وجعل الفاطميين أغنى حكام زمانهم . يشهد بذلك أنه حين توفيت رشيدة أخت المعز خلفت وراءها ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار (١٢٫٨٢٥٫٠٠٠ دولار أمريكي) ، و ١٢٫٠٠٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة آلاف مزهرية فضية ، وأربعمائة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية ، وثلاثين ألف قطعة من المنسوجات الصقلية ، ومقداراً ضخما من الجواهر[٧] . ولكن لا شيء يسقط كالنجاح ، وآية ذلك أن الحاكم الخليفة التالي (٩٩٦ — ١٠٢١) جن من فرط الثراء والسلطان ، فدبر اغتيال عدد كبير من الوزراء ، واضطهد المسيحيين واليهود ، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد ، وأمر بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح ، وكان تنفيذ هذا الأمر من أسباب قيام الحروب الصليبية . وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور كلجيولا ، فنادى بنفسه إلهاً ، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس ، فلما أن قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحيين واليهود ، وأعاد بناء كنائسهم ومعابدهم . واغتيل الحاكم في سن السادسة والثلاثين .

وعم الرخاء مصر رغم ما كان يختص به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة لأنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين أوربا وآسية ، وازداد عدد السفن التي ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسي ، والبحر الأحمر ، والنيل إلى مصر . واضمحلت ثروة بغداد ، وضعفت قوتها بينما زاد سلطان القاهرة وثراؤها . وقد زار ناصري خسرو العاصمة الجديدة في عام ١٠٤٧ وجاء في وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت ، معظمها من الآجر ترتفع إلى خمس طبقات أو ست ، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقمشة المطرزة ، والحرير إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس[٨] فيه : وكانت الشوارع الكبرى مظللة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل . وكانت الحكومة تحدد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأغلى منها ، ويطاف به في شوارع المدينة على جمل ، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جرمه[٩] . وكان ذوو

الثروات الضخمة كثيرى العدد ؛ وقد استطاع أحد التجار ، وهو مسيحى ، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصيبت فيها البلاد بالقحط بسبب انخفاض فيضان النيل ؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازى ثلاثين مليون دولار أمريكى[١٠] . واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين فى بناء المساجد ، وإنشاء دور الكتب ، والمدارس الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيِّراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات ، ومن ترف وإتلاف ، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعمال ، ومن العدد المطلوب من الحروب ؛ وكان يضارع فى رخائه وثقافته أى عهد آخر فى تاريخ مصر[١١] .

وأخذ حكم الفاطميين فى الضعف أيام المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) ، وهو ابن أمة سودانية . وقد أقام هذا الخليفة سرادقاً فخماً(*) يقضى فيه أوقات متعته ، وعاش عيشة الموسيقى ، والخمر ، واللذة ؛ وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق فى الحجر الأسود ، والاستماع إلى صوت المؤذن الممل ، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم فى مكة)[١٢] . وثار عليه جنوده الأتراك فى عام ١٠٦٧ ، وأغاروا على قصره ، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن ، ومقداراً عظيما من الجواهر ، وحمل خمسة وعشرين بعيراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم ، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواريهم . ولما توفى المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها الذى كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من بربر ، وسوادنيين ، وأتراك ؛ وكانت إفريقية ومراكش قد انفصلتا عنها ، وثارت عليها فلسطين ، وضاعت منها بلاد الشام . ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين فى عام ١١٧١ ، كانت أسرة أخرى من الأسر التى حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغماس فى الملذات إلى ما ساق إليه سابقاتها من الضعف والفناء .

(*) على شكل الكعبة .



(شكل ٥) صحن الجامع الأزهر بالقاهره

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية فى إفريقية

كان الأمراء والخلفاء فى القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ينافس بعضهم بعضاً فى إقامة المبانى ، وتشجيع التصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والفلسفة ؛ ولكن كل ما بقى من المخطوطات من ذلك الوقت فى شمالى إفريقية مخبوء الآن فى دور الكتب التى لم يبدأ علماء الغرب فى ارتيادها إلا منذ وقت قريب(*) . وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها . ففى القيروان مسجد سيدى عقبة الذى أنشئ أولا فى عام ٦٧٠ وجدد بناؤه سبع مرات ، والذى يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام ٨٣٨ . وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئات من العمد الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجنة ، ومنبره آية رائعة من آيات النحت الخشبى ، ومحرابه من الرخام السماقى والقاشانى ؛ ومئذنته المربعة الضخمة — وهى أقدم مئذنة فى العالم(١٣) — أصبحت هى الطراز السورى الذى أقيمت على مثاله مآذن الغرب : وبفضل هذا المسجد أصبحت القيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة « أبواب الجنة الأربعة » ولا تقل مساجد فاس ، ومراكش ، وتونس ، وطرابلس عنها فى الروعة والفخامة إلا قليلا .

وكانت المساجد فى القاهرة ضخمة كثيرة العدد ؛ ولاتزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بنحو ثلثمائة من هذه المساجد . ومن أشهرها مسجد عمرو بن العاص ، وقد بدئ بإنشائه فى عام ٦٤١ ، وأعيد بناؤه فى القرن العاشر ؛ ولم يبق من

(*) وقد شرعت جامعة الدول العربية فى البحث عن هذه المخطوطات فى هذه البلاد وفى غيرها من بلدان آسية وأوربا وتصويرها . (المترجم)

أجزائه الأولى فى هذه الأيام إلا عمده الكورنثية التى أنقذها العرب بحكمتهم من الخرائب الرومانية والبيزنطية . ولا يزال مسجد ابن طولون محتفظا بشكله الأصلى ونقوشه الأولى ، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات ، وفى داخله عقود مستدقة (غير مستديرة) هى أقدم ما يوجد من نوعها فى مصر ، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (٨٦٥) — وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر . وربما كان هذا الطراز الرشيق من العقود قد انتقل من مصر إلى أوربا القوطية عن طريق صقلية والنورمان[١٤] . وفى مئذنة المسجد (ذات السلم الخارجى) والشبيهة بصروح الزجورات البابلية ، وفى القبة المقامة فوق قبر ابن طولون ، عقود على شكل حذاء الفرس ، وهى إحدى المظاهر الإسلامية التى لا ترتاح إليها العين كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامى . ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلثمائة عمود ، فلما علم أن هذه العمد لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العمائر الرومانية والمسيحية ، قرر أن يقيم هذه العقود بدلا من هذا على عمد ضخمة من الآجر[١٥] ، وربما كان هذا الطراز من العمد قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطى . وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملئت بالزجاج الملون ، وبعضها بالشبابيك الجصية(*) على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية ، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق .

وفى ٩٧٠ — ٩٧٢ أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلى — وهو عبد مسيحى اعتنق الإسلام وكان القائد الذى فتح مصر للفاطميين . ولا تزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد فى مكانها ؛ وفيه أيضا نجد العقود المستدقة قائمة على ٣٨٠ عموداً من الرخام ، والجرانيت ، والرخام السماق . وقد شيد جامع الحاكم بأمر الله

(*) ذات شبكة من الأصابع المصنوعة من الجص . (المترجم)

من الحجر ، ولا يزال معظمه باقيا وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن ؛ وفى وسعنا أن نتصور ما كان عليه من عظمة فى العصور الوسطى بالنظر إلى نقوشه العربية الطراز ، الرشيقة ، المصنوعة من الجص ، ومن الكتابات الكوفية الجميلة التى يزدان بها إفريزه . وقد كانت هذه المساجد ، التى تبدو الآن معاقل أشبه بالقلاع — وما من شك فى أنها قد صممت لتكون قلاعاً أيضاً — تزدان بكثير من روائع النحت ، والكتابات ، والفسيفساء ، والمحاريب المطعمة ، والقناديل التى أضحت الآن تحفاً نادرة فى المتاحف ؛ وكان بمسجد ابن طولون وحده ١٨٫٠٠٠ قنديل كثير منها من الزجاج المطلى بالميناء المختلف الألوان[١٦] .

وكانت الفنون الصغرى شائعة فى إفريقية الإسلامية ، يمارسها المسلمون بما عرف عنهم من الصبر والدقة . فالقاشانى البراق يشاهد فى جامع القيروان ، وقد وصف ناصرى خسرو (١٠٥٠) الخزف الذى كان يصنع فى القاهرة بأنه رقيق بلغ من شفيفه أن اليد إذا وضعت فى خارجه تستطاع رؤيتها من داخله[١٧] . واحتفظ الزجاج المصرى السورى بكل ما كان له من جمال فى العهود القديمة ، وتحتفظ متاحف البندقية وفلورنس واللوفر بالآنية المصنوعة من البلور الصخرى فى عهد الفاطميين ، وكان ناحتو الخشب يدخلون البهجة على النفوس بنقوشهم البديعة على أبواب المساجد ، والمنابر ، والمحاريب ، والنوافذ الشبكية . وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بترصيعها أو تطعيمها بالعاج ، أو الأبنوس ، أو الصدف . وكانت الجواهر كثيرة موفورة ، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون حجرات قصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية — كالمحابر ، وقطع الشطرنج ، والمزهريات ، والطيور ، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار الكريمة . . . .[١٨] ، وكان من بين ما انتهبوه ستائر من الحرير المطرز بخيوط الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم . كذلك تعلم المسلمون

من الأقباط فنّ طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب ؛ ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من مصر الإسلامية إلى أوربا على أيدى الصليبيين ، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة . وكان التجار الأوربيون يقدرون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات ، ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية ، التى تبلغ من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر فى خاتم الإصبع[١٩] . ويحدثنا المؤرخون عن طنافس من عهد الفاطميين ، وعن خيام منسوجة من المخمل ، والساتان ، والدمقس ، والحرير ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب ، مزينة كلها بالرسوم ، ومن هذه خيمة صنعت لليازورى وزير المستنصر عمل فيها مائة وخمسون صانعاً أكثر من تسع سنوات . وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار (١٤٢٫٠٠٠ دورلار) ، وصور عليها ، كما يقولون ، جميع ما عرف من أنواع الحيوان فى العالم كله ، عدا « الإنسان الذئب »(*) . غير أن الرسوم الفاطمية كلها لم يبق منها إلا قطع من المظلمات فى دار الآثار العربية بالقاهرة ، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمى فى مصر ؛ لكن المقريزى الذى كتب فى القرن الخامس عشر تاريخا للتصوير — يقول إن مكتبة الخلفاء الفاطميين تحتوى على مئات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة من بينها ٢٫٤٠٠ مصحف .

وكانت مكتبة الخلفاء بالقاهرة فى عهد الحاكم بأمر الله تحتوى مائة ألف من المجلدات ؛ وكان بها فى عهد المستنصر ٢٠٠٫٠٠٠ . ويقول المؤرخون إن الكتب كانت تعار لمن يطلبها من الدراسين ذوى السمعة الطيبة من غير أجر . وفى عام ٩٨٨ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز أن يعلم على حسابه خمسة وثلاثين طالباً فى الجامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم ، وبهذا نشأت

(*) . يريد الإنسان نفسه . (المترجم)

أقدم جامعة في العالم كله . ولما نمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إليها طلابا من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، كما اجتذبت جامعة باريس بعد مائة عام من ذلك الوقت طلابا من جميع أنحاء أوربا . ومن ذلك الوقت أخذ الخلفاء ، والوزراء ، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالمجان فى تلك الجامعة حتى بلغ طلابها فى وقتنا الحاضر ١٠٫٠٠٠ طالب وعدد الأساتذة ثلثمائة[٢٠] . ومن أجمل المناظر التى تقع عليها عين السائح العالمى منظر الطلاب وهم مجتمعون فى أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام ، تجلس فيها كل طائفة فى نصف دائرة إلى جانب عمود أمام أحد العلماء(*) ؛ وكان كبار العلماء الذائعى الصيت يفدون إلى الأزهر من كافة أرجاء العالم الإسلامى ليعلموا الطلاب علوم النحو ، والبلاغة ، والرياضة ، والعروض ، والمنطق ، والعلوم الدينية ، والحديث ، والتفسير ، والشريعة الإسلامية ؛ ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً ، كما لم يكن الأساتذة يتناولون مرتبات ؛ وإذ كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية ، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد فى أمور الدين ، وكان لعلمائها تأثير مثبط للآداب الفاطمية ، والفلسفة ، والعلوم ، ولهذا لم نسمع عن وجود شعراء مجيدين فى عهد تلك الأسرة .

وأنشأ الحاكم فى القاهرة « دار الحكمة » ؛ وكانت مهمتها الرئيسية نشر المذهب الشيعى وتعاليمه ، ولكن منهجها الدراسى كان يشمل أيضاً علمى الفلك والطب . وأقام الحاكم أيضاً مرصداً فلكياً ، وأعان بالمال على بن يونس (المتوفى سنة ١٠٩٠ م) ، وهو فى رأينا أعظم علماء الفلك المسلمين . وبعد أن ظل هذا العالم يرصد السماء سبعة عشر عاماً أتم « الأزياج الحاكمية » التى توضح حركات الكواكب ، ومواقيتها ، وحدد بدقة أكثر من ذى قبل ميل مستوى الفلك ،

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الوصف ينطبق على الأزهر منذ نصف قرن أما فى الوقت الحاضر فإن النظام فى الأزهر شبيه كل الشبه بالنظام فى أرقى المدارس والجامعات . (المترجم)

ومبادرة الاعتدالين ، وزاوية اختلاف منظر الشمس .

وأشهر الأسماء كلها بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن الهيثم المعروف عند الأوربيين باسم « الهازن Alhazen . وقد ولد فى البصرة عام ٩٦٥ واشتهر فيها بنبوغه فى الهندسة والرياضة . وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيـــل السنوى فدعاه إلى القاهرة ، ولكنه تبين أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذى النزوات الشاذة . وافتتن الرجل ، كما افتتن جميع المفكرين فى العصور الوسطى ، بمحاولات أرسطو فى ربط المعارف كلها بعضها ببعض ، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف ، لم يصل إلينا شىء منها . وأهم ما يشتهر به ابن الهيثم عندنا الآن كتاب المناظر فى البصريات وهو فى أغلب الظن أعظم مؤلف فى العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمى فى طريقته وتفكيره . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره فى الأوساط الشفافة كالهواء ، والماء واقترب مع اختراع العدسة المكبرة قرباجعل روجربيكن Roger Bacon ، وويتلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعد ثلثمائة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بذلوه من الجهود لاختراع المجهر و المرقب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكى القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئى من العين يصل إلى الجسم المرئى ، وقال إن صورة الجسم المرئى تصل إلى العين ومنها تنتقل بوساطة الجسم الشفاف — أى العدسة[٢١] . ولاحظ أثر الجو فى ازدياد الحجم الظاهرى للشمس والقمر إذا كانا قريبين من الأفق ؛ وأثبت أن انكسار الأشعة فى الجو يجعل ضوء الشمس يصـــل إلينا حتى بعد أن يختفى قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة ، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوى بعشرة أميال (إنجليزية) . وحلل العلاقة بين ثقل الهواء الجوى وكثافته ، وبين أثر كثافة هذا الهواء فى أوزان الأجسام ، واستخدم قوانين رياضية معقدة فى دراسة فعل

الضوء فى المرايا الكرية ، والتى فى شكل القطع المكافئ ، وعند مروره فى العدسات الزجاجية الحارقة . ورَصد صورة الشمس المماثلة لصورة نصف القمر وقت الخسوف على جدار قائم أمام ثقب صغير فى مصراع شباك . وهذا هو أول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التى يعتمد عليها التصوير الشمسى بكافة أنواعه . وليس فى وسعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ فى بيان أثره فى العلوم الأوربية ، وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروچر بيكن ؛ وهاهو ذا روچر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة فى ذلك الجزء الذى يبحث فى البصريات من Opus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه . والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشوف هذا العالم الطبيعى ابن القاهرة . ولقد ظلت الدراسات الأوربية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كپلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم .

وأبرز النتائج التى أسفر عنها فتح العرب لشمالى إفريقية هو اختفاء المسيحية من هـذا الإقليم اختفاء تدريجياً ولكنه يكاد يكون تاماً . ذلك أن البربر لم يعتنقوا الإسلام فحسب ، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه . وما من شك فى أن العوامل الاقتصادية كان لها دخل فى هذه النتيجة الحاسمة : فقد كان غير المسلمين يودون الفرصة ، التى أعفى منها إلى وقت ما من يعتنقون الإسلام . ولما أن عرض والى مصر العربى على أهل البلاد هذا الإعفاء عام ٧٤٤ اعتنق الإسلام ٢٤٫٠٠٠ من المسيحيين(٢٢) . وربما كان الاضطهاد(*) الذى وقع على المسيحيين ، وهو اضطهاد لم يكن يقع إلا فى بعض العهود ولكنه شـديد ، قد أثر فى كثيرين من المصريين فحملهم على الدخول فى دين الحكام . غير أن أقلية قبطية فى مصر ظلت مستمسكة بدينها بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة

(*) يلاحظ هنا حرص المؤلف على إثبات أن هذا الاضطهاد لم يكن يقع إلا فى بعض العهود ؛ أى أنه لم يكن هو السياسة المتبعة وذلك عملا بأوامر الدين الإسلامى نفسه وسياسة معظم الخلفاء . (المترجم)

بالحصون ، كانت تؤدى فيها مناسكها سراً(*) ، ولا تزال باقية فى تلك البلاد إلى يومنا هذا . ولكن كنائس الإسكندرية ، وقورينة ، وقرطاجنة ، وإفريقية ، التى كانت تزدحم من قبل بالمصلين أخذت تخلو منهم وتتداعى ، وانمحت من الأذهان ذكريات أثناسيوس ، وسيريل Cyril ، وأوغسطين ، وخبت نيران المنازعات بين الأريوسيين ، والدوناتيين ، واليعاقبة المسيحيين ، وحل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين . وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية فى جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة ، واستخدموا أعضاءها فى التجسس والدسائس السياسية . وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى بيت المقدس وأوربا ، وكان لها أكبر الأثر فى أنظمة فرسان المعبد والشيعة المستنيرة Illuminate وغيرها من الجماعات السرية التى قامت فى العالم الغربى كما كان لها أكبر الأثر أيضا فى طقوسها وملابسها .. وترى رجل الأعمال الأمريكى بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً ، يفخر بعقيدته السرية ، وطربوشه الفاسى ومسجده الإسلامى(**) .

(*) لم يكن أقباط مصر فى حاجة إلى أن يمارسوا شعائرهم سراً بل كانوا يمارسونها جهراً حتى فى أكثر العصور استبداداً . (المترجم)

(**) فى هذا القول بعض الغموض ولعل المؤلف يقصد أن من بين رجال الأعمال الأمريكيين مسلمين يفخرون بدينهم ويتباهون بثيابهم ويؤدون الصلاة فى المساجد . (المترجم)

الفصل الثالث

الإسلام فى بلاد البحر المتوسط

٦٤٩ — ١٠٧١

أدرك زعماء الإسلام ، بعد فتح الشام ومصر ، أن ليس فى مقدورهم أن يدافعوا عن سواحــل بلادهم من غير أسطول . وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العمائر البيزنطية (٦٥٢ ، ٦٥٥) ، ثم احتلوا قورسقة فى عام ٨٠٩ وسردينية فى عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) فى ٨٢٣ ، ومالطة فى ٨٧٠ ؛ وبدأ فى عام ٨٢٧ النزاع القــديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية ، فأرسل الأغالبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من النهب والدم المهراق ؛ فسقطت پالرم فى عام ٨٣١ ، ومسينا فى ٨٤١ ، وسرقوسة فى ٨٧٨ ، وتارمينا فى ٩٠٢ . ولما أن ورث الخلفاء الفاطميون ملك الأغالبة (٩٠٩) كان مما ورثوه من أملاكهم جزيرة صقلية ؛ ولما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبى والى صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها ، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة ، وأسس فيها الأسرة الكلبية ، وفى عهدها بلغت الحضارة الإسلامية فى صقلية ذروة مجدها .

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط ، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة فى جنوبى إيطاليا . وكانت القرصنة وقتئذ مما يدخل فى نطاق العادات الشريفة ، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على « الكفرة » ويبيعوهم فى أسواق الرقيق ، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين ، ومعظمها

من تونس وصقلية ، تهاجم الثغور الإيطالية فى القرن التاسع الميلادى . فاستولى المسلمون فى عام ٨٤١ على بارى القاعدة البيزنطية الكبرى فى الجنوب الشرقى من إيطاليا ، وفى العام التالى انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إليهم لمبارد دوق بنفنتو Benevento ليساعدوه على سالرنو Salerno ، ثم عادوا منها بعد أن أتلفوا الحقول وخربوا الأديرة . وفى عام ٨٤٦ نزل ألف ومئتان من المسلمين فى أستيا Ostia ، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار رومة ، ونهبوا ضواحى المدينة وكنيستى القديسين بطرس وبولس ، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم . ورأى البابا ليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا ، فأخذ هذه المهمة على عاتقه ، وعقد حلفاً بين رومة وبين أملفى Amalfi ، ونابلى ، وجيتا Gaeta ومد سلسلة فى عرض نهر التيبر ليمنع العدو من اجتيازه . وبذل العرب فى عام ٨٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية فى الغرب ؛ فقابلهم الأسطول الإيطالى المتحد بعد أن باركه البابا ، وهزمهم ، وقد صور رفائيل منظر الواقعة فى قصر الفاتيكان ، وفى عام ٨٦٦ جاء الإمبراطور لويس الثانى من ألمانيا ، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبى إيطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى بارى وتارنتو Taranto ؛ وما وافى عام ٨٨٤ حتى أخرجوا من جميع شبه الجزيرة ؛

ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع ، وظلت إيطاليا الوسطى جيلا من الزمان يغشاها جو من الخوف والفزع فى كل يوم من أيام حياتها . فى عام ٨٧٦ أغاروا على كمبانيا ونهبوها ، وهددوا رومة تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدى لهم جزية سنوية مقدارها ٢٥٫٠٠٠ منقوص (حوالى ٢٫٥٠٠٠ دولار أمريكى) حتى يكفوا عن الإغارة عليها[٢٣] . وفى عام ٨٨٤ أحرقوا دير مونتى كاسينو العظيم ودمروه عن آخره . وشنوا غارات أخرى متقطعة نهبوا فيها وادى نهر الأنيو Anio . ودامت الحال على هذا المنوال حتى اجتمعت قوات البابا وإمبراطورى

بيزنطية وألمانيا ، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (٩١٦) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية فى إيطاليا ، وهو العهد الذى دام مائة عام ، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب . ولو أن رومة سقطت فى قبضتهم لزحفوا على البندقية ، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان . ترى إلى أى حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادفاتها !

وخضعت الثقافة الصقلية المتعددة الأصول فى أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عادتها إلى الفاتحين الجدد ، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أبهى وأقوى من طابعها القديم ، واختلط فى شوارع العاصمة الإسلامية بانورمس القديمة Panormus وبالرم العربية ، وبالرمو الإيطالية ، الصقليون ، واليونان ، واللمبارد ، وكلهم يكره بعضهم بعضاً من الناحية الدينية ، ولكنهم يعيشون معاً صقليين عاديين فى عواطفهم ، وشعرهم ، وجرائمهم . وفيها شاهد ابن حوقل حوالى عام ٩٧٠ نحو ثلثمائة مسجد ، وثلثمائة من معلمى المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون – كما يقول العالم الجغرافى – من قلة الذكاء وخفة الأحلام(٣٤). هذا وإذ كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس ، فقد كانت تربتها غاية فى الخصب ، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم ، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيماً بين أوربا المسيحية وإفريقية الإسلامية ، وما لبثت أن صارت من أغنى المدن فى بلاد الإسلام ؛ وكان حب المسلمين للملابس الجميلة ، والجواهر المتلألئة ، وفنون الزينة ، مما جعل الحياة فى الجزيرة تسير سيراً هادئاً فى غير عجلة ولكن فى غير إسفاف . ويصف الشاعر الصقلى ابن حمديس (١٠٥٥ – ١١٣٢) الساعات التى يقضيها الشاب البالرمى فى متعته ، ويحدثنا عن قصفه ومرحه حتى منتصف الليل ، وعن اختلاط الرجال والنساء فى الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الهموم ، وعن

الفتيات المغنيات اللاتى يدغدغن العود بأصابعهن اللطيفة ؛ ويرقصن كأنهن الأقمار الساطعة فوق الأغصان اللدنة(٢٥) .

وكان فى الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يحبون الفكاهة الحلوة ، والشعر الموزون ، ولأن الحب الصقلى كان يمدهم بموضوعات جمة مثيرة للخيال . وكان فى الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة ؛ وكان فيها أطباء عظام ، لأن الطب الإسلامى الصقلى قد أثر تأثيراً ذا بال فى مدرسة سالرنو الطبية(٢٦) . ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدها العربى الزاهر ، وتراثاً شرقياً من الصناعات والصناع أورثه العرب ثقافة فتية راغبة فى أن تتلقى العلم على أى جنس وأى دين . ولما أن فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (١٠٦٠ — ١٠٩١) أعانوا بفتحهم الزمان على محو آثار المسلمين فى صقلية ؛ وهاهو ذا الكونت روچر Count Roger يفخر بأنه قد سوى بالأرض « المدائن ، والقلاع ، والقصور العربية التى بذل المسلمون فى إقامتها أعظم الفنون وأعجبها »(٢٧) . ولكن الطراز المعمارى الإسلامى خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف كاپلا پلاتينا Capella Polatina ، ففى هذا المعبد القائم فى قصر الملوك النورمان زين المزار المسيحى بالنقوش العربية الإسلامية .

الفصل الرابع

الإسلام فى أسپانيا

٧١١ — ١٠٨٦

١ — الخلفاء والأمراء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا أسپانيا أولا بل الذين فتحوها هم المغاربة. فقد كان طارق من البربر ، وكان فى جيشه سبعة آلاف من بنى جنسه، مقابل ثلاثة آلاف من العرب، وقد خلد اسمه ، إذ سميت به الصخرة التى نزلت قواته عند قاعدتها ، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى چبرولتر Gibraltar . وكان الذى سير طارقا إلى فتح أسپانيا هو موسى بن نصير والى شمال إفريقية العربى . ثم عبر موسى البحر فى عام ٧١٢ ، ومعه ١٠٫٠٠٠ من الجنود العرب و ٨٠٠٠ من البربر وحاصر أشبيلية ومريده ، ولام طارقا لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له ، وضربه بالسوط ، وزجه فى السجن ؛ ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه . وكان موسى قد عين ولده عبد العزيز حاكماً لأشبيلية ؛ ولكن سليمان أخا الوليد ارتاب فى نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس ، فأرسل إليه من اغتاله . وجيء برأسه إلى سليمان فى دمشق ، وكان قد تولى الخلافة بعد أخيه ، فبعث يستدعى موسى ، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس ولده حتى يسبل عينيه . ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن[٢٨] . ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا خرافة من الخرافات التى تروى عن حب الملوك لسفك الدماء .

وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة ، ولم يصادروا إلا أراضى الذين قاوموهم بالقوة ، ولم يفرضوا على الأهلين من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين ، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية ما لم تتمتع به أسپانيا إلا فى أوقات قليلة نادرة . ولما أن توطد مركز المسلمين فى أسپانيا ، عبروا جبال البرانس ودخلوا غاله يريدون أن يجعلوا أوربا ولاية تابعة لدمشق . والتقى بهم بين تور وپواتييه على بعد ألف ميل شمالى جبل طارق جيش متحد مؤلف من قوى يوديس Eüdes دوق أكوتين ، وشارل دوق أستراسيا Austrasia . ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون بعدها فى واقعة من أهم الوقائع الحاسمة فى التاريخ (٧٣٢) ؛ وفيها قررت مصادفات الحرب مرة أخرى الدين الذى يتبعه الملايين التى لا يحصى عديدها من بنى الإنسان . ومن هذا الوقت أطلق على شارل اسم شارل مارتلس Charles Martellus أى شارل المطرقة . وأعاد المسلمون الكرة فى عام ٧٣٥ واستولوا على أرليس Arles. ، ثم فتحوا أفنيون Avignon فى عام ٧٣٧ وخربوا وادى نهر الرون حتى ليون . وفى عام ٧٥٩ أخرجهم پيپين القصير Pepin the Short نهائيا من جنوبى فرنسا ؛ ولكن الأربعين عاماً التى تنقلوا خلالها فى ذلك الإقليم كانت فى أغلب الظن ذات أثر قوى فيما يتصف به أهل لانجويدك Languedoc من تسامح غير عادى بين الأديان المختلفة ، ومن مرح كثير ومن حب لأغانى الغزل غير المباح .

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرون أسبانيا حق قدرها ، فلم تكن تعرف عندهم حتى عام ٧٥٦ إلا باسم « الأندلس » ، وكان يحكمها وال يعين من القيروان . لكن شخصية روائية نزلت فى أسبانيا عام ٧٥٥ ، وكان سلاحها الوحيد هو ما يجرى فى عروقها من الدم الملكى ، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لا تقل فى مجدها وثرائها عن خلفاء بغداد . ذلك أنه لما أمر بنو العباس فى عام ٧٥٠ أن يقتل جميع الأمراء الأمويين ، لم ينج من هؤلاء الإمراء إلا عبد الرحمن أحد أحفاد

الخليفة هشام . وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية ، فاضطر أن يعبر نهر الفرات الواسع سباحة ، واجتاز الصحراء إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراكش . وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهبت نيران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب ، والسوريين ، والفرس ، والمغاربة فى أسپانيا . وكان فى تلك البلاد طائفة من العرب مخلصة للأمويين تخشى أن يعترض الخلفاء العباسيون على حقها فى تملك الأراضى التى وهبها لهم ولاة بنى أمية ، فدعوا عبد الرحمن للانضمام إليهم وتولى قيادتهم . فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (٧٥٦) ، وهزم جيشاً أرسله الخليفة المنصور لينتزعها منه ، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليعلق أمام أحد القصور فى مكة .

ولعل هذه الحوادث هى التى منعت انتشار الدين الإسلامى فى أوربا : ذلك أن أسپانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية ، وانقطعت عنها المعونة الخارجية فلم تواصل الغزو والفتح ، بل انسحب المسلمون من شمالى أسپانيا ، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادى عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحى ، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا **Coimbra** ماراً بسرقسطة ومحاذيا لنهر الإبرة . وازدهر النصف الجنوبى الإسلامى بعد أن بسط فيه لواء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه ، فعمه الرخاء ، وترعرع فيه الشعر والفن . واستمتع عبد الرحمن الثانى بثمار هذا الرخاء ؛ فقد اتسع وقته ، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده ، وقمعه للثورات التى كان يقوم بها رعاياه ، وصد الغارات التى كان يشنها النورمان على سواحل بلاده ، اتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد ، وإجزال العطاء للشعراء : وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة لينة ربما كان لها بعض الأثر فيما حدث بعده من اضطراب اجتماعى .

وكان عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بنى أمية فى أسپانيا ؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو فى الحادية والعشرين

من عمره ، ووجد الأندلس تمزقها الانقسامات العنصرية ، والأحقاد الدينية ، واضطراب حبل الأمن ، ومساعى أشبيلية وطليطلة للاستقلال عن قرطبة . وقبض عبد الرحمن ، رغم ما اتصف به من دماثه الخلق ورقة الحاشية ، واشتهاره بالكرم والمجاملة ، على زمام الموقف بيد من حديد وقمع فتنة المدن الثائرة ، وأخضع أشراف العرب الذين أرادوا أن يحذو حذو معاصريهم الفرنسيين ، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية ، ودعا إلى بلاطه رجالا من مختلف الأديان كان يستشيرهم فى شئون الحكم ؛ وعقد المحالفات التى يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه ، وأدار شئون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور ، لا يقلان عما كان يتصف به نابليون فى هذه الناحية ؛ وكان هو الذى يضع الخطط الحربية لقواده ، وكثيراً ما كان ينزل إلى ميدان القتال بنفسه ؟ وصد غزوة سانكو صاحب نبره Sancho of Navarra، واستولى على عاصمته ودمرها ، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى فى أثناء حكمه . ولما رأى فى عام ٩٢٩ أن له من القوة ما لا يقل عن أى حاكم فى زمانه ، وأدرك أن الخليفة العباسى فى بغداد قد أصبح ألعوبة فى أيدى الحرس التركى ، اتخذ لنفسه لقب خليفة — وأمير المؤمنين ، وحامى حمى الدين . وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتبها بخط يده قدر فيها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه : « مضت خمسون سنة منذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عليه شىء من الثراء والمجد والنعم ، فاحترمنى الملوك وخافونى وحسدونى وحبانى الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان ، فأحصيت أيام السرور التى صفت لى دون تكدير فى هذه المدة الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها »(*)(٢٩) .

(*) من كتاب نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى . (المترجم)

وأفاد ابنه الحكم الثانى (٩٦١ — ٩٧٦) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الخمسين التى حكمها أبوه بحزم وجدارة ، والتى لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة ؛ وكان فى أثناء حكمه آمناً من الخطر الخارجى ، والفتن الداخلية ، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن ؛ وأنشأ فيها المساجد ، والمدارس الكبرى ، والبيمارستانات ، والأسواق ، والحمامات العامة ، وملاجئ الفقراء[٣٠] ، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعليم فى زمانه ؛ وأجزل العطاء لمئات الشعراء والفنانين والعلماء . وفيه يقول المقرى المؤرخ الإسلامى :

وكان (الخليفة الحكم) محبا للعلوم مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . . . إن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر . . وكان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . ويعث فى طلب كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى — وكان نسبه فى بنى أمية — وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق(*) .

وبينا كان الخليفة العالم يعنى بمسرات الحياة ونعيمها ، كان يترك تصريف شئون الحكم ، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودى القدير حسداى ابن شبروط ، ويترك قيادة الجيوش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الخيالية المسيحية . وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور ، أما اسمه الحقيقى فهو محمد بن أبى عامر

(*) النص منقول عن نفح الطيب . (المترجم)

وهو ينتمى إلى أسرة عربية عريقة النسب ولكنها قليلة الثراء . وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالب إلى الخليفة ، ثم أصبح كاتباً فى ديوان قاضى القضاة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره فى عام ٩٦٧ اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم . ثم تقرب إلى الملكة صبح أم الغلام ، وفتنها بمجاملتها والثناء عليها ، وأثر فيها بجده وكفايته ، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملاكها وأملاك ولدها ، ولم يمض عام واحد حتى عين مديرا لدار الضرب . ومن ذلك الوقت أصبح سخيا على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يتهمونه بالارتشاء والخيانة . واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما اؤتمن عليه من المال ، وعرف ابن أبى عامر أن المال الذى فى عهدته سيكون ناقصا فطلب إلى صديق له غنى أن يقرضه قيمة العجز ؛ ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح القوى ، وواجه به من اتهموه ، وانتصر عليهم انتصاراً حمل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه المال الكثير . ولما مات الحكم أفلح ابن أبى عامر فى تنصيب هشام الثانى ابن الحكم خليفة (٩٧٦–١٠٠٩) و (١٠١٠ — ١٠١٣) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه فى الخلافة ، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة(٣٢) .

وكان هشام الثانى رجلا ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة ، ولذلك كان ابن أبى عامر هو الخليفة فى كل شىء ما عدا الاسم ، واتهمه أعداؤه بحق بأنه يحب الفلسفة أكثر مما يحب الدين الإسلامى ؛ وأراد أن يلجم ألسنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التى تخالف مذهب أهل السنة ، وأن يحرقوا هذه الكتب ، وبهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بين الناس بالتقى والصلاح . وضم فى الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته فى السر على الفلاسفة ، وأخذ يرحب بالأدباء فى بلاطه ، وآوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم

مرتبات من بيت المال ، وكان هؤلاء الشعراء يسيرون فى ركابه حين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته . وشاد مدينة جديدة هى مدينة الزاهرة فى شرق قرطبة ضمت قصره ، ومكاتب الإدارة . أما الخليفة الذى عنى بتدريبه على الانهماك فى الفلسفة فقد بقى مهملا يكاد يكون سجيناً فى القصر الملكى القديم . وأراد ابن أبى عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة البربر والمسيحيين الذين كانوا يكرهون العرب ، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً ، ولكنهم كانوا يجزونه على سخائه ، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً . ولما أن ساعدت ولاية ليون Leon المسيحية ثورة قامت عليه فى بلاده ، فتك بالثوار ، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة ، وعاد منتصراً إلى عاصمته ؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور . وكثرت المؤامرات عليه ، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الجاسوسية والاغتيال فى الوقت المناسب ؛ ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات ، وافتضح أمره قطع رأسه . وكان المنصور مثل صلا الرومانى لا يترك محسناً إلا أثابه ولا مسيئاً إلا انتقم منه .

وغفر الناس له جرائمه لأنه قمع جرائم غيره ، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء ، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال فى قرطبة أعظم أمنا فى وقت من الأوقات مما كانتا فى أيامه ، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بثباته ، ومثابرته ، وفطنته ، وشجاعته . وحدث فى يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم فى ساقه ؛ فأمر باستدعاء الطبيب ، ولما حضر أشار بكيها بالنار . فلم يفض المنصور المجلس ، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه ما يدل على ألمه .. ويقول المقرى : إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق(*)(٢٣) . وكان مما فعله أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجد

(*) هذا هو النص ننقله عن المقرى : « إن المنصور كان به داء فى رجله واحتاج إلى الكى ، فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر

قرطبة واستخدم فى توسيعه أسرى المسيحيين ، واشترك هو بنفسه فى أعمال البناء بفأسه ، ومجرفه ، ومِسَجَّته(*) ، ومنشاره . وأدرك أن الحاكم الذى ينتصر فى الحروب ، عادلة كانت أو ظالمة ، يعلو شأنه بين معاصريه وبين الأجيال المستقبلة ؛ ولهذا شن الحرب من جديد على ليون ، واستولى على عاصمتها ودمرها وذبح أهلها . وكان فى ربيع كل عام تقريباً يسير على رأس حملة جديدة لمحاربة الأقاليم الشمالية المسيحية ؛ وقد عاد من هذه الحملات جميعها بلا استثناء مكللا بالنصر . من ذلك أنه لما استولى فى عام ٩٩٧ على مدينة سنتياجو ده كمپستيلا Santiago de Compstela ، ودمر ضريح القديس چيمس الشهير ، أرغم الأسرى المسيحيين على أن يحملوا أبواب الكنيسة وأجراسها على أكتافهم فى موكب نصره حتى دخل قرطبة[٣٤] . (وقد أعيدت هذه الأجراس فيما بعد إلى كمپستيلا محمولة على ظهر أسرى الحرب المسلمين) .

ولم يقنع المنصور بما كان له فى بلاد الأندلس الإسلامية من مقام ، وإن كان فى الواقع سيدها بلا منازع ، بل كان يتوق إلى أن يكون سيدها اسما وفعلا ، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة . فنى عام ٩٩١ تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك ، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكما مطلقاً . وكان يرغب فى أن يموت فى ميدان القتال ، ويعد العدة بالفعل لهذه الخاتمة ، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ معه كفنه . وقد غزا قشتالة فى عام ١٠٠٢ وهو وقتئذ فى الحادية والستين من عمره ، واستولى على مدنها ، ودمر أديرتها ، وخرب حقولها ، ثم مرض فى طريق العودة إلى بلاده ، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به ، واستدعى إليه ابنه

= وينهى ، ويُقرى القرى فى أموره ورجله تكوى ، والناس لا يشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث . (المترجم)

(*) المِسَجَّة : خشبة يطين بها . (المترجم)

وأخبره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين ، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستنهار بعد قليل(٣٥) . وقد صدقت النبوءة فانهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ .

وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور ، فلم يكن أمراؤها يجلسون على العرش إلا زمناً قصيرا ، وكثرت بينهم حوادث الاغتيال ، والمنازعات العنصرية ، وحروب الطبقات ؛ ورأى البربر أنهم محتقرون فقراء فى الدولة التى أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم ، وأنهم قد طوح بهم إلى بطاح استرمادوره Estremadura القاحلة أو جبال ليون الباردة ؛ فثاروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين . وكان عمال المدن المستَغَلُّون يحقدون على من يستغلونهم ، فكانوا يخرجون عليهم ويقتلونهم ويستبدلون بهم غيرهم . وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة الحاكمة أسرة ابن أبى عامر التى كادت فى عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة . ومات عبد الملك فى عام ١٠٠٨ وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحمن ، وكان عبد الرحمن رجلا مستهتراً يشرب الخمر علناً ولا يتورع عن ارتكاب الخطايا ، يفضل اللهو على النظر فى شئون الحكم ، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة اشتركت فيها جميع الأحزاب تقريباً . وأفلت الزمام من أيدى زعماء الثورة فنهبت الجماهير قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها ؛ وفى عام ١٠١٢ استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب ، وذبحوا نصف أهلها ، وطردوا النصف الباقى منها ، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية . بهذه الفقرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية .

لكن الحماسة التى تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذى يتطلبه البناء والتعمير . ففى أثناء حكم البربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب ، وزاد عدد المتعطلين ؛ وخرجت على قرطبة المدائن الخاضعة لها ومنعت

عنها الخراج ، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها فى ضياعهم .
لكنّ من بقى فى قرطبة من العرب أخذوا ينتعشون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا حل عام ١٠٢٣ طردوا البربر من العاصمة وأجلسوا على العرش عبد الرحمن الخامس ، غير أن العامة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى خير من العودة إلى العهد القديم ، فاستولوا على القصر وبايعوا بالخلافة محمداً المستكفى أحد زعمائهم (١٠٢٣) . وعين محمد أحد عمال النسيج وزيراً له ، ثم اغتيل هذا الوزير ، ودس السم للخليفة الشعبى ، ثم اتحدت الطبقتان العليا والوسطى وبايعت بالخلافة هشاما الثالث (١٠٢٧) . وجاء دور الجيش بعد أربع سنين ، فقتل وزير هشام ، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الخلافة ؛ وعقد مجلس من أصحاب الرأى فى المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على العرش قد جعل قيام الحكم الصالح غير مستطاع ، فألغى الخلافة الأندلسية ، وأحل محلها مجلساً للدولة ، واختير ابن جهور رئيساً لهذا المجلس فحكم الجمهورية الجديدة بالعدل والحكمة .

لكن هذا جاء بعد فوات الأوان ، أى بعد أن اضمحلت السلطة السياسية وقضى على الزعامة الثقافية فى قرطبة ، فوصلت بذلك إلى حال لا يرجى منها شفاء . وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية ففروا من « جوهرة العالم » إلى بلاط طليطلة ، وغرناطة ، وأشبيلية . واقتسم بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلتهم الدسائس والمنازعات فيما بينهم عن إغارة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت فى حكم الحاخام صمويل هليفى Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم إسماعيل بن نغرلة . واستقلت طليطلة عن قرطبة فى عام ١٠٣٥ . ثم خضعت لحكم المسيحيين بعد خمسين عاماً من استقلالها .

وورثت أشبيلية مجد قرطبة ، وكان بعضهم يظنها خيراً من العاصمة القديمة وأجمل منها ؛ وكان الناس يحبونها لجمال حدائقها ، ونخيلها ، وورودها ، وما فيها

من مرح دائم ، وموسيقى ، ورقص ، وغناء . وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هى وأعلنت استقلالها فى عام ١٠٢٣ ، وعثر أبو القاسم محمد قاضى قضاتها على صانع حصير شبيه بهشام الثانى فنادى به خليفة ، وآواه وأمسك هو بزمامه ، وأقنع بلنسية ، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته . وبهذه الطريقة السهلة أقام قاضى القضاة الداهية أسرة بنى عباد القصيرة الأجل . ولما مات فى عام ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم أشبيلية بمهارة وقسوة مدة سبع وعشرين سنة ، وأخذ يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدى له الجزية . وورث الملك من بعد ابنه المعتمد (١٠٦٨ — ١٠٩١) وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولكنه لم يرث عنه مظالمه ولا قسوته . وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس ، يفضل مجالس الشعراء والموسيقيين على مجالس الساسة وقواد الجند ، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء ، ولا يحسدهم على تفوقهم ، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار[٣٦] . وكان يحب شعر ابن عمار ، ولذلك اتخذه وزيراً له ، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر ، فابتاعها ، وتزوجها ، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديدا ، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات فى قصره . وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها ، وأحاطت سيدها بجو من المرح ، جعل رجال الدين يلومونها على عدم اكتراث زوجها بشئون الدين ، وما آلت إليه مساجد المدينة التى أوشكت أن تخلو من المصلين . لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم ، وأن يحب ، ويغنى ، فلما أن هاجمت طليطلة مدينة قرطبة ، واستغاثت قرطبة به ، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة ، وأخضعتها لأشبيلية . وحمل الملك — الشاعر مدى جيل كامل ملىء بالقلاقل لواء حضارة لا تقل ازدهارا عن حضارة بغداد فى أيام هرون الرشيد ، وحضارة قرطبة فى عهد المنصور .

٢ – الحضارة فى بلاد الأندلس الإسلامية

لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب »[٣٧] . ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحى عظيم[*] قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن ننقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً . لسنا ننكر أن الأمراء والخلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التى يرى ميكفلى أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها ، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت فى بعض الأحيان إلى حد الهمجية وغلظة القلب ، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار فى جماجم الموتى من أعدائه ؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانه آخر الأمر[٣٨] . ولكن المقرى يورد فى مقابل هذه الأمثلة النادرة مئات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودماثة أخلاقهم[٣٩] . وهم لا يقلون فى هذه الصفات عن أباطرة الروم فى زمانهم ، وما من شك فى أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة فى العالم الغربى ؛ فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام . وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون فى معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدى موظفين منهم[٤٠] . وكان فى المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق ، والمكاييل ، والموازين ، رقابة محكمة ؛ وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأملاك فى فترات منتظمة ؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها رومة أو بيزنطية . وبلغت

(*) هو استاذلى لين پول ، وذلك القول منقول عن كتابه « حكم المسلمين فى أسپانيا » . (المترجم)

الإيرادات فى أيام عبد الرحمن الثالث ٠٠٠ر٠٤٥ر١٢ دينار ذهبى (أى ما يعادل ٧٥٠ر٢١٣ر٥٧ دولار أمريكى) — وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة[٤١] . ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثراً من آثار الحكم الصالح ، وتقدم الزراعة والصناعة ، ورواج التجارة[٤٢] .

وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد . ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التى كبرت فوق ما يجب ، والتى كان يمتلكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع[٤٣] . ولكن القوى التى كانت فى هذه القرون تعمل لتثبيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها فى أسبانيا أيضاً ، وإن لقيت فيها من المقاومة أشد مما لقيته فى فرنسا ؛ فقد امتلك العرب بدورهم مساحات واسعة من الأراضى ، وكان يقوم بزرعها مستأجرون قريبو الشبه برقيق الأرض . وكان العبيد يلقون على أيدى المسلمين معاملة أحسن قليلا من التى كانوا يلقونها على أيدى سادتهم الأولين[٤٤] .وكان فى مقدور عبيد غير المسلمين أن يتحرروا من الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام ، وكان العرب فى معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب فى علومها ، وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم فى أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته فى أوربا المسيحية[٤٥] . واستبدل بالثيران البطيئة الحركة ، التى كانت تستخدم حتى ذلك الوقت فى جميع أنحاء أسبانيا للحرث والجر ، البغال ، والحمير ، والخيل . وأدى تهجين السلالات الأسبانية والعربية من الخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التى كان يمتطيها فرسان العرب وكبلرو Caballero (فرسان) الأسبان . ونقلت بلاد الأندلس الإسلامية

من آسية زراعة الأرز ، والحنطة السوداء(*) ، وقصب السكر ، والرمان ، والقطن ، والسبانخ ، والأسفرج(**) ، والموز ، والكراز ، والبرتقال ، والليمون ، والسفرجل ، والليمون الهندى ، والخوخ ، ونخيل البلح ، والتين ، والشليك ، والزنجبيل ، والمر وصناعة الحرير(٤٦) . وكانت زراعة الكروم من الأعمال الكبرى فى بلاد الأندلس ، وإن كان الدين الإسلامى يحرم الخمر . وأحالت حدائق الخضر ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفاكهة مساحات من الأندلس — وبخاصة حول قرطبة وغرناطة ، وبلنسية — جنات على الأرض . كما استحالت جزيرة ميورقة Majorca ، التى فتحها العرب فى القرن الثامن بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التى سميت الجزيرة باسمها فيما بعد .

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب ، والفضة ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والشب ، والكبريت ، والزئبق . وكان المرجان يستخرج من البحر على طول سواحل أسبانيا ، كما كان اللؤلؤ يصطاد قرب سواحل قطلونية ، وكان الياقوت يستخرج من مناجم حول باجة ومالقة . وتقدمت الصناعات المعدنية فى البلاد تقدما عظيما ، فاشتهرت مرسية بمصنوعاتها من الحديد والشبهان ، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف ، وقرطبة بالدروع . وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية ، فكانت قرطبة تصنع الجلد القرطبى الذى يستخدمه الحذاءون فى أوربا المعروفون باسم Cordwainer نسبة إلى «الجلد القرطبى Cordovan» . وكان فى قرطبة وحدها ١٣٠٠٠ نساج ، وكان المشترون فى كل مكان يقبلون

(*) نبات ينمو فى ألمانيا وبريطانيا وتتخذ حبوبه طعاماً للخيل ، والماشية ، والدجاج ؛ والكعك المصنوع من دقيقه طعام شهى على موائد الفطور الأمريكية . (ويسمى بالإنجليزية buckwheat) (المترجم)

(**) نبات تتخذ براعيمه الصغيرة طعاماً شهياً ويسميه ابن سينا اسفرغس وهو بالإنجليزية Asparagus (المترجم)

على شراء السجاجيد ، والوسائد ، والسجف الحريرية ، والشيلان ، والأرائك الأندلسية . ويقول المقرى[٤٨] إن ابن فرناس القرطبي اخترع فى القرن التاسع الميلادى النظارات ، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ، كما اخترع آلة طائرة . وكان أسطول تجارى يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآسية ، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر وثغر تزدحم بها مرافئ برشلونة ، والمرية ، وقرطاجنة ، وبلنسية ، ومالقة ، وقادس ، وأشبيلية . وأنشأت الحكومة نظاماً للبريد ينقل رسائلها بانتظام . واحتفظت العملة الرسمية بأجزائها — الدينار الذهبي ، والدرهم الفضى ، والفلس النحاسى ، — بثباتها واستقرارها النسبى ، إذا قارناها بعملة العالم المسيحى اللاتينى فى أيامها ، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت هى الأخرى ينقص وزنها ، ونقاؤها ، وقوتها الشرائية .

وسار الاستغلال الاقتصادى فى هذه البلاد سيرته فى البلاد الأخرى ، فاستحوذ العرب أصحاب الضياع الواسعة ، والتجار الذين كانوا يعتصرون المنتج والمستهلك على السواء ، على خيرات الأرض . وكان معظم الأغنياء يعيشون فى الريف فى بيوت ذات حدائق ، ويتركون المدن الكبرى للبربر ، والذين أسلموا من المسيحيين ، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسين الذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولغة الحديث) ، وإلى طائفة قليلة العدد من الخصيان ، والضباط والحراس الصقالبة ، والعبيد خدم البيوت . وأحس الخلفاء فى قرطبة بعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادى من غير أن يضعفوا روح المغامرة فوقفوا بين هذا وذاك بتخصيص ربع غلات أرضهم لمعونة الفقراء[٤٩] .

وكان استمساك الطبقات المعلمة بدينها وتشددها فى عقائدهما سبباً فى زيادة سلطان الفقهاء أى علماء الشريعة الإسلامية ؛ وكان العامة ينفرون من كل جديد

فى العقائد أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين ، والمفكرين(*) يخفون رؤوسهم فى معظم الأحوال ، وينزوون فى البيوت أو يلجأون إلى الغموض فى الأقوال . وكمت أفواه الفلاسفة ، أو اضطروا إلى الجهر بآراء تقبلها جمهرة الناس وتحترمها . وكان الموت جزاء من يرتد عن دين الإسلام . نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالا ذوى آراء حرة ، ولكنهم كانوا يظنون أن الخلفاء الفاطميين فى مصر يتخذون العلماء المتنقلين عيوناً عليهم ، ولهذا كانوا ينضمون فى بعض الأحيان إلى الفقهاء فى التضييق على التفكير الحر المستقل . لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة . وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين فى فتوحهم ، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثانى عشر مع المسلمين الفاتحين فى أمن ووئام ، وأثروا ، وبرعوا فى العلوم والمعارف ، وارتقوا فى بعض الأحيان إلى مناصب عالية فى الحكومة . أما المسيحيون فكانت تعترضهم فى سبيل الرقى فى مناصب الدولة عقبات أكثر مما يعترض اليهود ، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا بنجاح عظيم . وكان المسيحيون الذكور ، كالذكور من سائر الأديان ، يرغمون على الختان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية الصحية القومية ، لكنهم فيما عدا هـذا كانوا يحكمون بمقتضى شريعتهم القوطية الرومانية ينفذها فيهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم[٥٠] . وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحيين يؤدون ضريبة الفرضة(**) نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ؛ وكان مقدارها فى العادة ثمانية وأربعين درهماً (٢٤ ريالا أمريكياً) للغنى ، وأربعة وعشرين للمتوسط الثراء ، واثنى عشر درهماً لمن يعمل بيده[٥١] . وكان المسلمون

(*) لا ندرى كيف يتفق هذا القول مع ظهور كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد فى بلاد الأندلس نفسها . ولسنا نشك فى أن المؤلف قد خانه التوفيق فى هذا الحكم . (المترجم)

(**) فى الأصل الإنجليزى ضريبة الأراضى الزراعية وهو بلا شك سهو من المؤلف . (المترجم)

والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بكامل حريتهم ، ويشتركون من حين إلى حين فى الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً (٥٢) ؛ وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا « الحريم » أو مارسوا اللواط(٥٣) ؛ وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوربا المسيحية إلى قرطبة ، أو طليطلة ، أو إشبيلية طلابا للعلم ، أو زائرين ، أو مسافرين . وقد شكا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول :

« إن إخوانى المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة . : . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علما ولا أدبا ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ؛ فهم يقبلون فى نهم على دراسة كتب العرب ، ويملؤون بها مكتباتهم ، وينفقون فى سبيل جمعها أموالا طائلة ، وهم أينما كانوا يتغنون بمدح علوم العرب(٥٤) » . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامى من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت فى عام ١٣١١ م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين فى ذلك الوقت بمائتى ألف ، كلهم ماعدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام(٥٥) . وكثيرا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين(٥٦) .

لكن هذه الصورة الجميلة كان لها وجه آخر أخذ يزداد وقتا ما على مر الأيام . ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة ، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحرارا . فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابى فى مقاومة الفاتحين ؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرم بناء كنائس جديدة . وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

الأساقفة وعزلهم ، وحتى دعوة المجالس الكنيسة نفسها إلى الانعقاد ؛ وكان الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يؤدون فيها أغلى الأثمان ، ولو كان من يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين فى الدين ، وكان القساوسة المسيحيون يتعرضون أحيانا للشتائم من المسلمين فى الشوارع ، وكان فقهاء المسلمين يعلقون بكامل حريتهم على ما يبدو لهم أنه سخافات وأباطيل فى الدين المسيحي ، ولكن المسيحيين الذين يردون عليهم بمثل أقوالهم كانوا يتعرضون للخطر :

وفى هذه العلاقات المتوترة قد تؤدى أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة . مثال ذلك أن فتاة حسناء من فتيات قرطبة ، معروفة لدينا باسم فلورا Flora فحسب ، ولدت لأبوين من دينين مختلفين ، فلما توفى أبوها المسلم اعتزمت أن تعتنق الدين المسيحى ، وفرت من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين ، ولكن أخاها قبض عليها وضربها ، وأصرت الفتاة على الارتداد عن دين أبيها ، وسيقت إلى إحدى المحاكم الإسلامية . وأمر القاضى بضربها وإن كان فى مقدوره أن يحكم بإعدامها . ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحى حيث التقت بقس شاب يدعى أولوچيوس Eulogius أحبها حباً روحياً عارماً . وبينا كانت الفتاة مختبئة فى أحد الأديرة ، إذ قتل قس آخر يدعى پرفكتوس Perfectos ، لأنه تكلم فى حــق النبى محمد أمام بعض المسلمين ، وقد وعدوه بألا يشوا به ، ولكن أقواله بلغت من العنف درجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاة الأمور . وكان فى وسع پروفكتوس أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال ، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر أمام القاضى قوله إن محمداً كان « خادماً للشيطان » ؛ فما كان من القاضى إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله ؛ ولكنه لم ينصلح ، وتمادى فى أقواله فحكم عليه بالإعدام . وظل وهو يساق إلى المشنقة

يسب النبى ، ويقول : إنه « مدع ، زان ، ولدته جهنم »(*) ، وابتهج المسلمون بمقتله ، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالا مهيباً ، وعدوه من القديسين (٨٥٠)(**)(٥٨) .

وأشعل مقتله نيران الحقد فى قلوب الطائفتين . فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولچيوس وجعلت هدفها سب النبى علناً ، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصير من يقتل من أفرادها هو الجنة . وذهب راهب قرطبى يدعى إسحق إلى القاضى وعرض عليه رغبته فى اعتناق الإسلام ؛ وسر القاضى من هذا وبدأ يشرح له مبادئ الدين الإسلامى ، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال « إن نبيكم قد كذب عليكم وخدعكم ؛ ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم » ! فزجره القاضى وسأله هل هو ثمل ؟ فرد عليه الراهب بقوله : « إنى مالك لقواى فاحكم علىّ بالإعدام » فأمر القاضى بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثانى بأن يخرجه على أن بعقله خبالا ، غير أن موكب جنازة پرفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر بإعدام الراهب . وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندى من الفرنجة فى حرس القصر على سب النبى علناً ؛ فكان جزاؤه الإعدام . وفى يوم الأحد التالى وقف ستة من الرهبان أمام القاضى وسبوا النبى ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام فحسب بل طلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب ، فحكم عليهم بالإعدام ؛ وحذا حذوهم قس ، وشماس ، وراهب . وابتهج لذلك أفراد الجماعة

(*) لقد أثبتنا هذه الألفاظ وما قبلها كما هى رغم ما فيها من تطاول على مقام اشرف الأنبياء لكى يقدر القارئ شناعة الجرم الذى ارتكبه قائلها . (المترجم)

(**) وليس أدل على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر من سماح المسلمين لمواطنيهم المسيحيين بالاحتفال بدفن هذا القس الذى سب نبيهم بأقبح الألفاظ احتفالا فخما مهيباً كما يقول مؤلف الكتاب . (المترجم)

ولكن كثيرين من المسيحيين — من رجال الدين وغير رجال الدين — لم يرضوا عن هذا التسابق للموت ، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة « إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ، ولا يضطهدنا ، فما الداعى إذن إلى هذا التعصب الشديد ؟ »(٥٩) ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين ، وهددهم بأن يتخذ ضدهم إجراءات عنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن ، فما كان من يولچيوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالجبن .

وزادت هذه الحركة من تحمس فلورا ، فغادرت الدير الذى كانت تقيم فيه وجاءت هى وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضى وأخذتا تطعنان على النبى . . . . وتقولان : إن الإسلام من « اختراع الشيطان » فأمر القاضى بسجنهما . وحملهما بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما ، ولكن يولچيوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل ، فقتلا . وشجع هذا يولچيوس فأخذ يطالب بضحايا جدد ، فأقبل على المحكمة قساوسة ، ورهبان ، ونساء يسبون النبى ويطلبون أن يعدموا(*) (٨٥٢) ، وأعدم يولچيوس نفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من موته فلم نسمع بين عامى ٨٥٩ ، ٩٨٣ إلا عن حادثين من حوادث السب والقتل ، ولم نسمع عن حوادث أخرى من هذا النوع فى أثناء الحكم الإسلامى فى أسپانيا(٦٠) .

(*) ليس أدل على تسامح الحكام المسلمين من سلوكهم فى أثناء هذه الحركة ، وعدم التجائهم إلى قمعها دفعة واحدة ، واكتفائهم بالحكم على من يتقدمون إلى القضاة ليطعنوا فى الدين ويسبوا الرسول . ترى ماذا يكون موقف أية حكومة من الحكومات الغربية فى هذه الأيام لو تألفت مثل هذه الجماعة لهذا الغرض ؟ إن أقل ما كانت تفعله بلا ريب هو أن تقبض على جميع أفراد الجمعية وتزجهم فى السجن وتستأصل الفتنة من جذورها . وخليق بنا أن نشير إلى ما اتبعه الأسپانيون أنفسهم مع المسلمين بعد أن طرد العرب من أسپانيا وإلى ما لقيه المسلمون من قسوة وتعذيب همجى وعمل متواصل لمحو جميع الآثار الإسلامية فى العلوم والفنون والآداب .

(المترجم).

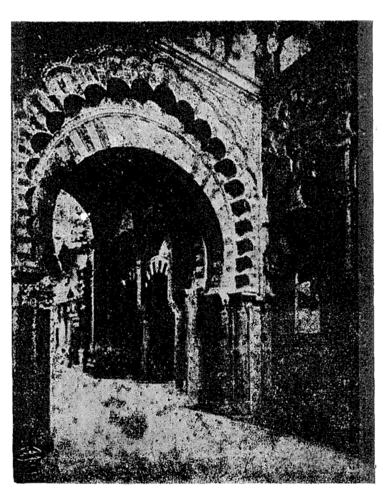
أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الحماسة الدينية بازدياد الثراء ، وظهرت فى القرن الحادى عشر الميلادى موجة من التشكك رغم ما فى الشريعة الإسلامية من شدة على المتشككين ؛ ولم يقتصر الأمر على دخول مبادئ المعتزلة التى لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة ، بل قامت طائفة أخرى تنادى بأن الأديان كلها باطلة ، وتسخر بالأحكام الدينية ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة . ونشأت طائفة أخرى غير هذه وتلك سمت نفسها أتباع الدين العالمى ، وأخذت تندد بكل العقائد ، وتنادى بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها . وكان من بين هؤلاء جماعة من اللاأدريين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون ، فلسنا نؤكدها أو ننكرها ، وكل ما فى الأمر أننا لا نعرف حقيقتها ، ولكننا لا تسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائد لا نستطيع إثبات صحتها[٦١] . وأخذ رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية ؛ ولما أن حلت المصائب بالمسلمين فى أسپانيا فى القرن الحادى عشر أخذوا يقولون إن سببها هو هذا الضلال ، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت فى الأندلس مرة أخرى ، كان انتعاشهم فى عهد حكام أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد الدين ، وقصروا الجدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه فى بلاطهم وما يبتغون به تسليتهم .

ولكن القباب المتلألئة والمآذن المذهبة كانت على الرغم من الفلاسفة زينة المدائن الكبيرة والصغيرة التى جعلت بلاد الأندلس فى القرن العاشر الميلادى أعظم البلاد المتحضرة فى أوربا ، بل إنها كانت فى أغلب الظن أعظم البلاد المتحضرة فى العالم كله فى ذلك الوقت . لقد كانت قرطبة فى أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة ، ولا يفضلها فى هذا إلا بغداد والقسطنطينية . وكان فيها كما يقول المقرى ٢٠٠,٠٧٧ منزلا ، و ٦٠,٣٠٠ قصر ، و ٦٠٠ مسجد ، و ٧٠٠ حمام[٦٢] عام ، وإن كانت هذه الإحصاءات لا تخلو من قليل من المغالاة الشرقية . وكان زائرو

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا ، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام ؛ فقد كان فى وسع كل أسرة أن يكون لها حمار ؛ ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون . وكانت الشوارع مرصوفة ، لكل منها طواران على الجانبين ، تضاء أثناء الليل ، ويستطيع الإنسان أن يسافر فى الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المبانى[٦٣] . وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادى الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً . وكان من أولى منشئات عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدائق ، والفساقى والحمامات ، واشتهرت المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدائق والمتنزهات .

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه ، فأنشأ فى قرطبة بستاناً عظيما شبيهاً بالقصر الريفى الذى قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق ، وشاد فى هذا البستان قصره المعروف « بقصر الرصافة » ، وأضاف إليه من جاء بعده من الخلفاء أجنحة أخرى خلع عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة . . . وقصر المعشوق . . . وقصر السرور . . . وقصر التاج(*) . وكان لقرطبة كما كان لإشبيلية قصرها الذى يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المنيع . ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع فى جمالها وترفها قصور نيرون فى رومة : يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالفسيفساء ، وسقفها المذهبة ، وما فيها من النقوش الجميلة التى لا يقدر عليها إلا الفن الإسلامى وحده . وكانت قصور الأسرة المالكة ، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه ثروة طائلة ، وأراد أن ينفقها فى افتداء من عساهم يكونون فى الأسر من

(*) والكامل ، والمجدد ، والحائر ، والزاهر ، والمبارك ، والرستق ، والبديع . (المترجم)



(شكل ٦) داخل مسجد قرطبة



(شكل ٧) بهو السباع فى قصر الحمراء بغرناطه

جنوده ، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده فى الأسر عرضت عليه الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال فى بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها . وظل عشرة آلاف من العمال وألف وخمسمائة من الدواب يكدحون خمسة وعشرين عاما (٩٣٦ — ٩٦١) لتحقيق حلمها ، فكان قصر الزهراء الملكى الذى يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبها الغربى . وقد زين أفخم زينة وأثث بأفخم أثاث . وكان القصر يقوم على ألف ومائتى عمود من الرخام ، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة ، وكان يحتوى على بهو لمجلس الخليفة سقفه وجدرانه من الرخام والذهب ، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة ، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتماوجة . واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف والرقة ، وحسن الذوق ، وتعدد متعها العقلية . وأقام المنصور فى الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصراً آخر يضارعه (٩٧٨) سمى بالزاهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العظماء ، وبيوت الخدم ، والمغنين والعازفين ، والشعراء ، والخليلات . وقد حرق القصران فى أثناء الثورة التى تأجج لهيبها فى عام ١٠١٠ .

وكان الناس فى العادة يتغاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هؤلاء بيوتا لله تفوق قصورهم فى الفخامة والسعة . وكان الرومان قد شادوا فى قرطبة هيكلا ليانوس Janus ، أنشأ المسيحيون بدلا منه كنيسة كبرى ؛ فلما تولى الخلافة عبد الرحمن الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة ، وهدمها وشاد فى مكانها المسجد الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة فى عام ١٢٣٨ ؛ وهكذا تتغير مقاييس التقى ، والصدق ، والجمال تبعاً لتقلبات الحظ فى الحروب. وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته فى سنيه الكدرة ، فغادر بيته الريفى إلى قصره فى المدينة ليشرف على العمل بنفسه ، وكان يأمل أن يطول عمره.

حتى يؤم المصلين فى المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه . لكنه توفى فى عام ٧٨٨ ، بعد عامين من وضع الأساس ، وواصل ابنه هشام عمل أبيه ، وظل الخلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً للمسجد حتى كانت سعته فى أيام المنصور ٧٤٢ قدما فى ٤٧٢ . وكان يحيط به سور منيع من الآجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة ، وكانت له مأذنة ضخمة تفوق فى حجمها وجمالها كل مآذن تلك الأيام ، حتى عدت هى الأخرى من « عجائب الدنيا » التى لا يحصى لها عدد(٦٤) . وكان للمسجد تسعة عشر بابا تحيط بها عقود على شكل حذاء الفرس ، نقشت عليها فى الحجر ببراعة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية . وكانت هذه الأبواب تؤدى إلى مكان الوضوء الفسيح الذى يسمى الآن بهو البرتقال (Patio de los Naranjos) . وفى هذا البهو الرباعى الشكل ، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكانها فى المسجد سبعين ثوراً . وكان المسجد نفسه يحتوى على أجمة من ١٢٩٠ عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً . وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود مختلفة الأنواع — بعضها نصف دائرى ، وبعضها مستدق ، وبعضها على شكل حذاء الفرس ، ولمعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب . وكانت العمد من حجر اليشب ، والحجر السماق ، والمرمر ، والرخام ، انتزعت من خرائب الرومان والقوط الغربيين فى أسبانيا ، وكانت لكثرة عددها تحير الناظر وتوحى إليه بأن المسجد لا ينتهى عند حد . وقد نقشت على السقف الخشبى آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات ، وعلق فيه مائتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمده من خزانات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هى الأخرى من السقف ، أما الأرض والجدران فقد زينت بالفسيفساء ، بعضها من الزجاج المطلى بالميناء ،

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية ، وكثيراً ما كانت تحتوى على قطع من الفضة والذهب . ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر فى جدران الكنيسة . وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً ، ورصفت أرضه بالفضة وقطع القاشانى المطلية بالميناء ، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء ؛ وقامت عليه ثلاث قباب ، وأحيط بساتر من الخشب محلاة بأبدع النقوش . وفى داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهب من حذق وإبداع . وكان المحراب نفسه تجويفا سباعى الأضلاع محاطا بالذهب ومزدانا بالفسيفساء المطلية بالميناء ، ومزخرفا بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء ، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة ، والعقود المزدانة بأزها الكُرَة(*) لا يفوقها فى الجمال شىء مما أبدع الفن القوطى . وكان المنبر يعد أجمل منابر العالم طُرًّا ؛ وكان يؤلف من ٣٧,٠٠٠ قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة — كالأبنوس ، والأترج ، وعود الند ، والصندل الأحمر والأصفر ، مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة ، ومطعمة بالجواهر . وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزى المطرز بخيوط من الذهب يحمل مصحفاً بخط الخليفة عثمان بن عفان ، ومخضبا بدمه الذى جرى عليه عند مقتله . ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن المذهبة وبالنحاس بدل أن نحلى كنائسنا بالجواهر والذهب ، يبدو لنا أن فى زخرفة المسجد الأزرق إسرافا كبيراً ، وأن جدرانه قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة ؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة ، وأن العقد الذى على صورة حذاء الفرس ضعيف من الناحية المعمارية تنفر منه حاسة الجمال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذى الساقين الفحجاوين(**) . ذلك حكمنا أما غيرنا فكان

(*) حلية معمارية . (المترجم)

(**) الساق الفحجاء هى التى انحنت من وسطها فتباعد وسطها عن وسط صاحبتها (المترجم)

حكمه يناقض هذا الحكم ؛ فالمقرى (١٥٩١ — ١٦٣٢) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر فى سعته ، أو جمال تخطيطه ، أو نظام زخرفه الذى يشهد للقائمين به بحسن الذوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة[٦٥] ، ولا يزال البناء حتى فى شكله المسيحى المصغر يعد « بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية فى العالم كله »[٦٦] .

وكان من الأقوال المتداولة فى بلاد الأندلس الإسلامية أنه « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية »[٦٧](*) : ذلك أن قرطبة كانت فى القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الأسبانية وذروتها ، وإن اشتركت معها طليطلة ، وغرناطة ، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقى عقلى عظيم . ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهابذة العلماء فى العلوم الطبيعية ، والأدبية ، وكبار المشترعين ، والأطباء ؛ ويملأ المقرى بأسمائهم ستين صحيفة[٦٨] . وكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم ، ثم أضاف الحكم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان . وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء ، ونبغ عدد من النساء المسلمات فى الأدب والفن[٦٩] ، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم فى المساجد ، وكانت المناهج التى يدرسونها هى التى كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك ، والتى لم يكن يفوقها فى القرنين العاشر والحادى عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشبيهتان بها . وأنشئت الكليات أيضاً فى غرناطة ، وطليطلة ، وإشبيلية ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وقادس[٧٠]

(*) قيل هذا فى مناظرة جرت بين منصور بن عبد المؤمن وبين الفقيه العالم ابن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر وقائله هو ابن رشد نفسه وقد قدم المؤلف عجز العبارة على صدرها . (المترجم)

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتى كان فى الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي ، ومحبو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها . من ذلك أن الحضرمى أحد العلماء رأى فى مزاد بقرطبة رجلا آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب ، ولما سئل المزايد الذى اقتناه فى ذلك قال إن فى مكتبته الخاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة . ويضيف فاغتاظ العالم من هذا القول أشد الاغتياظ ولم يسعه إلا أن يقول : « نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له »(٧١)(*) .

وكانت للعلماء فى الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشيرونهم فى شئونهم ، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة . وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالمئات ؛ أما الخطباء ، وفقهاء اللغة ، وأصحاب المعاجم ، والموسوعات ، ودواوين الشعر ، والمؤرخون ، وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد : وكان أبو محمد على بن حزم (٩٩٤ — ١٠٦٤) من جهابذة علماء الدين والمؤرخين ، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين : ويعد كتابه المعروف بـ « كتاب الملل والنحل » (**) الذى يتكلم فيه على اليهودية ،

(*) ثم أضاف : وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه . (المترجم)

(**) اسم الكتاب كاملا هو « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » للإمام أبى محمد على ابن أحمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وأما كتاب « الملل والنحل » فللإمام أبى الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ . والفِصَل الواردة فى بدء اسم الكتاب الأول جمع فصلة بالكسر كقصعة وقصع وهي النخلة المنقولة من محلها إلى آخر لتثمر . هذا ولم نعثر على الفقرة الواردة هنا بنصها فى كتاب ابن حزم ويبدو لنا أن دوزى الذى نقل عنه المؤلف قد أخذ معناها من مواضع متفرقة من الكتاب ولهذا لم نر بدا من ترجمتها واستعملنا ما عثرنا عليه من ألفاظ ابن حزم فى الفصل الذى تكلم فيه على النصارى . (المترجم)

والزرادشتية ، والمسيحية ، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ما كتبه الأقدمون فى علم الأديان المقارن . وإذا شئنا أن نعرف رأى العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية فى العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب :

يجب ألا تثير أوهام بنى الإنسان عجبنا ، فإن أكثر الأمم عدداً ، وأعظمها حضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام . . . فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم إلا الله وحده . وفى وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهين ، ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، وإن أحد هؤلاء الثلاثة الأب والثانى الابن ، وإن الإنسان إله وليس إلها ، وإن المسيح قديم موجود من الأزل ، ومع ذلك فهو مخلوق ، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة ، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر[٧٢] .

وكان ابن حزم يؤمن بأن كل كلمة وردت فى القرآن حق بنصها ومعناها[٧٣].

وكان من أشد العوائق فى سبيل تقدم العلم والفلسفة فى بلاد الأندلس الخوف من أن يؤثرا فى إيمان العامة ، لكن الأندلس تستطيع أن تفخر بكثير من الفلاسفة والعلماء . فمن هؤلاء مسلمة بن أحمد (المتوفى فى عام ١٠٠٧) والذى عدل أزياج الخوارزمى الفلكية لتلائم أسبانيا . ومن الكتب التى تعزى إليه ، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة ، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التى حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة — وهى التجربة التى استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق . وأصبح اسم إبراهيم الزرقالى (١٠٢٩ — ١٠٨٧) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية ، لأنه حسن الآلات الفلكية ؛ وينقل كوبرنيق فقرات من رسالته عن الاسطرلاب ؛ وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها فى زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة فى التاريخ حركة الأوج الشمسى بالنسبة للنجوم . وكانت « أزياج طليطلة » المحددة لحركات الكواكب

تستخدم فى كافة أنحاء أوربا ، وكان لأبى القاسم الزهراوى (٩٣٦ — ١٠١٣) طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة فى العالم المسيحى ، ويعرف فيه باسم أبو الكاسس Abulcasis ؛ وكان هو حامل لواء الجراحين المسلمين ، وتحتوى موسوعته الطبية المسماة « التصريف » ثلاثة كتب فى الجراحة أصبحت بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى فى الجراحة قروناً كثيرة . وكانت قرطبة فى ذلك الوقت المدينة التى يلجأ إليها الأوربيون لتجرى لهم الجراحات . وكانت تحتوى ، كما تحتوى كل مدينة متمدينة ، على بعض المتطببين الدجالين ، والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة ؛ ومن هؤلاء رجل يسمى الحرانى أعلن عن دواء يشفى الاضطرابات المعوية ، وكان يبيع الزجاجة منه للسذج من ذوى المال بخمسين ديناراً (٥ر٢٣٧ ريال أمريكى) .

ويقول المقرى : « وسنمسك عن ذكر الشعراء الذين ظهروا فى أيام هشام الثانى والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر »[٧٥] . وكان من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة فى عام ١٠٨٧) ؛ والتى كان بيتها فى قرطبة ندوة حقة شبيهة بندوات عهد الاستنارة فى فرنسا : فكان يلتف حولها الظرفاء ، والعلماء ، والشعراء ؛ وقد أحبت عدداً كبيراً منهم ، وكتبت عن عشاقها بحرية لو سمعت بها السيدة ريكمييه Mme Récamier لارتاعت لها . ولقد بزتها صديقتها مهجة القرطبية فى جمال الجسم وخلاعة الشعر[*] . وكاد كل إنسان فى الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً ، يتطارح الشعر المرتجل مع غيره لأى سبب . وكان الخليفة نفسه يشترك فى هذه المطارحات الشعرية ، وقلما كان يوجد فى البلاد أمير مسلم ليس فى بلاطه شاعر يكرم ويخصص له راتب . وقد أدت هذه الرعاية الملكية إلى الشر كما أدت إلى الخير . ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبدو فيـه

(*) يصفها المقرى بقوله إنها من أجل نساء زمانها ولازمت ناديها وكانت من أخف النساء روحا . (المترجم)

التكلف والصناعة اللفظية ، والمحسنات ، وهو مثقل بالتشبيهات والاستعارات مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور . أما موضوعه فهو الحب الشهوانى والعذرى؛ وقد استبق الشعراء فى أسپانيا وفى الشرق الإسلامى أساليب شعراء الغزل فى عهد الفروسية Troubadors ، وطرقهم وفلسفتهم(٧٦) .

وسنختار من هذا العدد الجم نجما واحداً لامعاً هو سعيد بن جودى ابن صاحب الشرطة بقرطبة(*) . كان سعيد جندياً مقداماً كثير العشق ، يتصف بجميع الصفات التى تجعله فى نظر المسلمين سميذعا أى سيداً كاملا بحق : فقد كان سخياً ، شجاعاً ، فارساً بارعا ، بهى الطلعة ، فصيح اللسان ، شاعراً ممتازاً ، قوى الجسم ، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة بالسيف ، والرمح ، والرمى بالقوس(٧٧) . ولم يكن يدرى فى أى وقت من الأوقات أيهما أحب إليه — الحب أو الحرب . وكان يتأثر بلمس المرأة مهما ضعف ، ولذلك افتتن بكثيرات من النساء كان حب كل واحدة منهن يبشر بحب دائم لاينقطع . وكان حبه كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين الغزلين أشد ما يكون حين تندر رؤية الحبيب . وكانت أعظم قصائده الغزلية قصيدة وجهها إلى جيجان التى لم ير منها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض . وكان أبيقوريا صريحا يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة ليست هى اللذة . ومن أقواله فى هذا المعنى :

(*) اسمه الكامل سعيد بن سليمان بن جودى ، وترجمته فى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار طبعة دوزى ص ٨٣ وما بعدها .

ومن قوله فى جيجان :

سمعى أبى أن يكون الروح فى بدنى ... فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن

أعطيت جيجان روحى عن تذكرها ... هـذا ولم أرها يوما ولم ترنى

كأننى واسمها والدمع منسكب ... من مقلتى راهب صـلى إلى وثن

ويقال إنه نظر إلى جارية فاعتراها الخجل وأطرقت بعينها فقال :

أمائلة الألحاظ عـنى إلى الأرض ... أهذا الذى تبدين ويحك عن بغض

فإن كان بغضاً لست والله أهله ... ووجهى بذاك اللحظ أولى من الأرض

(المترجم)

لا شيء أملح . . . . . ومن مناقلة كأساً على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى جموح فى الصبا طلقا وما خرجت لصرف الدهر عن طلقى
ولا انثنيت لداعى الموت يوم دعا ولا انثنيت وحبل الحب فى عنقى(٧٨)

وكان زملاؤه فى الجندية يغضبون منه أحياناً لأنه يغوى أزواجهم ، وقد قبض عليه فى يوم ما أحد الضباط فى بيته وقتله (٨٩٧) .

وقد لقى شاعر آخر أعظم منه وأنبل خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها بطولة ، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية . وكان كغيره من الملوك الصغار فى بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدى الجزية إلى الفنسو السادس (الأذفنش) ملك قشتالة يشترى بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام . ولكن الرشا تترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشى متى طلب إليه الأداء . واستخدم ألفنسو المال الذى يأتيه من ضحيته فى الانقضاض على طليطلة فى عام ١٠٨٥ ؛ وأيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية . وكانت دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية ؛ ولكن أسرة إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هى أسرة المرابطين وقد (اشتق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين فى الشمال الغربى من إفريقية) . وكان الأساس الذى قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمساك الشديد بالدين ، ولم يكد يبقى فيها رجل غير جندى من جنود الله ؛ ولم تجد جيوشها صعوبة فى الاستيلاء على مراكش بأجمعها . وتلقى فى ذلك الوقت مليكها يوسف بن تاشفين - وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء - دعوة من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحى الضارى : فعبر يوسف بجيشه مضيق جبل طارق ، وتلقى المدد من مالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية ،

والتقى بجيش ألفنسو عند الزلاقة القريبة من بطليوس (١٠٨٦) . (بدجوز Badajoz) : وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها : « إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم ، ويوم الأحد عيد عندنا ، ولهذا فإنى أقترح أن تدور المعركة فى يوم السبت » . ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن ألفنسو هجم على المسلمين فى يوم الجمعة : وأظهر يوسف والمعتمد فى الحرب كثيراً من ضروب البسالة ، واحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدد كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسمائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس . ودهشت أسپانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغنم شيئاً .

ولكنه عاد بعد أربع سنين . وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضى على قوة ألفنسو الذى كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديد ، والتقى يوسف بالمسيحيين فى مواقع غير حاسمة ، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية . وزحب به الفقهاء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجديد على القديم ، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه فى نظرهم يمثل الرجعية الدينية ، وابتهج رجال الدين بمقدمه . واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة ، واكتسب محبة أهلها بإلغاء جميع الضرائب التى لا ينص عليها القرآن (١٠٩٠) . وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيما بينهم حلفاً لمقاومته ، كما عقدوا حلفاً مقدساً ! مع ألفنسو . وحاصر يوسف قرطبة ، وأسلمها إليه أهلها ؛ ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المتعتمد دفاع الأبطال ، ورأى بعينيه ولده يقتل فى الدفاع عنها ، فحزن لموته حزناً هد ركنه واستسلم للمحاصرين(*) ، ولم يحل عام ١٠٩١ حتى سقطت جميع الأندلس ما عدا سرقطة فى يدى يوسف بن تاشفين ، وأصبحت أسپانيا الإسلامية ولاية تابعة لإفريقية .

(*) المعروف أنه كان للمعتمد ولدان هما المعتد بالله والراضى بالله وأنهما قتلا غيلة وله فى رثائهما شعر كثير . انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام المرحوم الدكتور أحمد أمين . (المترجم)

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة ، وتلقى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصرى حوت أبياتا من الشعر يثنى فيها عليه ويسأله العطاء ، ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا فى ذلك الوقت أكثر من خمسة وثلاثين دينارا بعث بها إلى الحصرى واعتذر له عن قلتها(*) . ثم نقل المتعمد إلى أغمات القريبة من مدينة مراكش وعاش فيها بعض الوقت مكبلا بالأغلال ، فقيرا معدما ، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته (١٠٩٥) . ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى	فأجمل فى التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن برد	له علمان من ذهب الذهاب
فأولها رجاء من سراب	وآخرها رداء من تراب(*)

(*) الحصرى هو صاحب « زهر الآداب » وهو الذى استجدى ابن عباد فى منفاه ، وكان فقيرا ، فأخذت ابن عباد أريحيته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطعة يعتذر فيها عن قلة ما منحه واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : « إنه جرى مع المعتمد على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف » وقد قال المعتمد نفسه فى هذا المعنى .

سألوا اليسير من الأسير وإنه	بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وغزة الحمية	طى الحشا لحكاهم فى المطلب

(من الجزء الثالث من ظهر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين) . (المترجم)

(*) هذه هى أقرب أبيات وجدناها فى أشعار المعتمد إلى الأصل الإنجليزى وقد يكون فى الترجمة الإنجليزية بعض التصرف الذى تحتمه ترجمة الشعر العربى إلى شعر إنجليزى .

(المترجم)

الباب الرابع عشر

عظمة المسلمين واضمحلالهم

١٠٥٨ – ١٢٥٨

الفصل الأول

الشرق الإسلامى

١٠٥٨ – ١٢٥٠

لما توفى طغرل بك فى عام ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ، ولم يكن ألب أرسلان وقتئذ قد جاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان بلغ من طولها أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد ، وأن سهامه لم تخطئ مرماها قط . وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرف شاربه لاتقل عن ذراعين. وكان حاكماً قوياً ، عادلا ، كريما بوجه عام ، لايتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب مالهم من عماله ، كثير البذل للفقراء . وكان يقضى جزءا كبيرا من وقته فى دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التى تكشف عن أخلاقهم ، وأنظمة حكمهم وإدارتهم[1] .

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه – « البطل قلب الأسد » فقد فتح هراة ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، والشام . وحشد إمبراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندى من مختلف الأجناس ،

مختل النظام ليلاقى به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥ر٠٠٠ مقاتل ، فلما التقيا عرض القائد السلجوقى على عدوه صلحا معقولا ، رفضه رومانوس Romanus بازدراء ، واشتبك معه فى معركة عند منزيكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (١٠٧١) ، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء ، فهزم ووقع فى الأسر ، وجیء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه فى هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط . ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة[٢] ، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان .

وكان ابنه ملك شاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينا كان قائده سليمان يتم فتح آسية الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . وأسبغ وزيره القدير الوفى نظام الملك على البلاد فى عهده وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والبهاء كالذى أسبغه البرامكة على بغداد فى أيام هرون الرشيد . فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شئون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ؛ ويشجع الصناعة والتجارة ؛ ويصلح الطرق ، والجسور ، والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان صديقاً كريماً للفنانين ، والشعراء ، والعلماء ؛ شاد المبانى الفخمة فى بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها فى الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم فى المسجد الجامع بإصفهان ، ورصد له ما يلزمه من المال . ويبدو أنه هو الذى أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسى . وتقول قصة قديمة إن نظام الملك ، وعمر الخيام ، وحسن بن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يواتى أى واحد منهم من حظ طيب . وأكبر الظن أن هذه القصة ،

كغيرها من القصص الطيبة ، من نسج الخيال ، لأن نظام الملك ولد فى عام ١٠١٧ ، على حين أن عمر الخيام ، وحسن بن الصباح توفيا فيما بين عامى ١١٢٣ ، ١١٢٤ ؛ وليس لدينا ما يشير إلى أن أحدهما كان من المعمرين .

وكتب نظام الملك وهو فى سن الخامسة والسبعين فلسفته فى الحكم فى كتاب من أكبر الكتب فى النثر الفارسى وهو كتاب ـ سياسة ناما أى كتاب فن الحكم . وهو يوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الدين حق الحاكم المقدس وسلطانه . ولم يبخل على مليكه فى الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال إن الحاكم يجب ألا يفرط فى الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ؛ وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين فى كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيما فى حكمه ولكنه لم يكن متسامحاً فى أمور الدين ؛ وهو يأسف لأن الدولة تستخدم فى أعمالها المسيحيين واليهود والشيعة ، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة . وفى عام ١٠٩٢ اقترب منه أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمعروض ، وطعنه طعنة قضت عليه .

وكان هذا القاتل عضواً فى طائفة من أعجب الطوائف فى التاريخ . وكان منشؤها أن أحد زعماء الإسماعيلية ـ وهو الحسن بن الصباح الذى تجمع إحدى القصص المشكوك فى صدقها بينه وبين عمر الخيام ، ونظام الملك ـ استولى على حصن ألموت (عش النسر) فى الجزء الشمالى من إيران ، ومن هذا الحصن المنيع الذى يعلو عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حرباً عواناً من التقتيل

والإرهاب على أعداء الشيعة ، وعلى الذين يضطهدون معتنقيها . وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة فى كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعيين أهل فارس الساسانية . وكانت فى الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها ، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم « شيخ الجبل » ؛ وكانت أدنى طبقاتها تشمل الفدائيين الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤساؤهم من الأوامر ؛ ويقول ماركو بولو Marco Polo الذى مر بألموت نفسها فى عام ١٢٧١ إن زعيم الطائفة الأكبر أعد خلف الحصن حديقة جمع فيها كل ما فى الجنة — على حسب ما يعتقده عامة المسلمين — من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهن شهواتهن ، وإن الذين يريدون أن ينضموا إلى الطائفة كانوا يسقون الحشيش ، حتى إذا غابوا عن وعيهم جىء بهم إلى الحديقة ، فإذا عادوا إلى صوابهم قيل لهم إنهم فى الجنة . وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فيها بالخمر والنساء ولذيذ الطعام ، يخدرون مرة أخرى بالحشيش ثم ينقلون من الحديقة ؛ فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التى كانوا فيها ، قيل لهم إنهم سيعادون إليها ويبقون فيها إلى أبد الدهر إذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا فى خدمته(٤). وكان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون « الحشاشين » أى الذين يشربون الحشيش — ومن هذه الكلمة اشتق لفظ Assassin الإفرنجى الذى يطلق على المغتال . وظل حسن يحكم ألموت خمسا وثلاثين سنة ، وأحالها مركزاً للاغتيال والتعليم والفن . وظلت هذه الطائفة باقية بعد وفاته بزمن طويل ، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة ، وحاربت الصليبيين ، ويقال إنها هى التى قتلت كنراد المنتفراتى Conrad of Monteferrat بتحريض رتشرد قلب الأسد(٥). وفى عام ١٢٥٦ استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن ألموت وغيره من معاقل الحشاشين ، وأخذت الدول والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم لأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

يعملون على خرابه وتدميره : ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية ، وأضحوا على مر الأيام مسالمين خليقين بالاحترام ؛ وفى الهند ، وفارس ، والشام ، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامة أغا خان ويؤدون إليه عشر دخلهم(٦) .

وتوفى ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا ، وتفرق المسلمون فى أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبيين بقوة متحدة . وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة فى أثناء حكمه الذى دام من ١١١٧ حتى ١١٥٧ ، وازدهرت فى أيامه الآداب بفضل تعضيده ومناصرته ؛ ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعون متقاتلون ، وقام فى الموصل أحد مماليك ملك شاه الأكراد وهو عماد الدين زنكى وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) فى عام ١١٢٧ ، وهى الأسرة التى حاربت الصليبيين حرباً عواناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين . وفتح ابنه نور الدين محمود (١١٤٦ — ١١٧٣) بلاد الشام ، واتخذ دمشق عاصمة له ، وحكم أملاكه حكما عادلا حازماً ، وانتزع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة .

وكانت عوامل الانحلال ، التى أدت إلى خضوع الخلفاء العباسيين إلى سلطان بنى بويه والسلاجقة ، قد أدت بعد قرنين من تضعضع الخلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الخلفاء الفاطميين حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر فى دولة يحكمها وزراؤهم قادة الجنود . وانغمس هؤلاء الخلفاء فى اللهو والشهوات بين نسائهم اللاتى لا يحصى عددهن ، وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد ، وأفقدهم الترف والانغماس فى الشهوات الجنسية صفات الرجولة ، فتركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون . وحدث فى

عام ١١٦٤ أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين(*) من القواد . واستعان أحداهما وهو شاور على منافسه بنور الدين ، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه . وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً . ولما مات شيركوه خلفه فى الوزارة ابن أخيه الذى صار فيما بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin .

وقد ولد صلاح الدين فى تكريت الواقعة فى أعالى نهر دجلة عام ١١٣٨ من أسرة كردية — غير سامية . وكان أبوه أيوب قد ارتقى فى مناصب الدولة حتى صار والياً على بعلبك فى أيام عماد الدين زنكى ، ثم والياً على دمشق فى أيام نور الدين محمود . ونشأ صلاح الدين فى هاتين المدينتين فى بيت من بيوت الإمارة ، وتعلم فنون السياسة والحرب ، ولكنه جمع إليها صلاحاً وتمسكاً بالدين ، وتحمساً له ، وإتقاناً لأصوله ، وبساطة فى المعيشة لاتكاد تفترق عن بساطة الزهاد . ويعده المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين . وكان خير أثوابه ثوبا من الصوف الخشن الغليظ ، ولم يكن يشرب غير الماء ؛ وكان مضرب المثل فى اعتداله فى العلاقات الجنسية ، وبلغ فى ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه . قدم إلى مصر مع شيركوه ، واشترك فيما نشب فيها من قتال ، واستلفت الأنظار ببسالته وحسن تدبيره ، فعين حاكما على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة فى عام ١١٦٧ . ثم تولى الوزارة وهو فى سن الثلاثين ، فبذل جهده فى إعادة المذهب السنى إلى مصر ، حتى إذ كان عام ١١٧٠ استبدل باسم الخليفة الفاطمى الشيعى اسم الخليفة العباسى السنى فى خطبة الجمعة . ولم يكن للخليفة العباسى فى ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية فى بغداد . وكان الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين فى ذلك الوقت ، مريضاً فى قصره ، وظل على غير علم بهذا الانقلاب.

(*) هما شاور وضرغام . (المترجم)

الدينى ، لأن صلاح الدين حرص على ألا تصله أنباؤه حتى يقضى هذا السجين العديم الشأن نحبه فى هدوء وسلام . وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل ، فمات ولم يبايع من يخلفه على العرش ، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث فى البلاد شىء من الاضطراب . وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً ، وأقر لنور الدين بالسيادة . ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد فيه اثنى عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه ، كما وجد فيه من الحلى ، والأثاث ، والعاج ، والخزف الثمين ما لا يوجد فى قصر أعظم عظماء ذلك الوقت . ولم يحتفظ صلاح الدين بشىء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده ، وظل هو يسكن حجرات الوزير ويعيش فيها عيشة البساطة التى هى من خير النعم على صاحبها .

ولما مات نور الدين فى عام ١١٧٣ أبى ولاة الأقاليم أن يبايعوا ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ملكاً عليهم ، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى فى براثن الفوضى . وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولى الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعمائة من الفرسان ، واستطاع بحملة سريعة موفقة أن يستولى على جميع بلاد الشام . ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكا وأسس الأسرة الأيوبية (١١٧٥) ، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك الوقت ، واتخذ دمشق مقراً له ، واستولى على بلاد النهرين ، وكان فيها ، كما كان فى القاهرة ، الرجل الحريص على دينه ، المستمسك بأصوله . وأنشأ عدة مساجد ، وبيمارستانات ، وأديرة ، ومدارس لتعليم قواعد الدين ، وشجع العمارة ، وإن لم يشجع العلوم الزمنية ، وكان يشارك أفلاطون فى احتقاره الشعر . ولم يكن يتوانى عن إصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه ، وخفف الضرائب فى الوقت الذى أكثر فيه من المنشئات العامة ، وأدار دولاب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

حكمه ، بينا كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها(*) .

وسنمسك القلم عن التبسط فى أحوال الأسر المحلية التى اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (١١٩٣) . وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه ، وإن حكم الدولة الأيوبية فى بلاد الشام انقضى بعد ثلاثة أجيال (١٢٦٠) . أما فى مصر فقد ظل مزدهراً حتى عام ١٢٥٠ ، ووصل إلى ذروة مجده فى عهد الملك المستنير الملك الكامل (١٢١٨ — ١٢٣٨) صديق فردريك الثانى . وفى آسية الصغرى أقام السلاجقة سلطنة بلاد « الروم » ، وجعلوا قونية (إيقونيوم Iconium الوارد ذكرها فى أقوال القديس بولس) مركزاً لحضارة ذات آداب رفيعة . وانمحت من آسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التى كانت قائمة فيها منذ أيام هومر ، وأصبحت بلاداً تركية لا تقل فى صبغتها هذه عن التركستان نفسها ، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمتها مدينة كانت فى الزمن القديم عاصمة الحيثيين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تحكم خوارزم (١٠٧٧ — ١٢٣١) ، وقد بسطت هذه القبيلة سلطانها من جبال أورال حتى الخليج الفارسى . وفى هذه الأحوال وهذا الانقسام السياسى أسس جنكيز خان الدولة الإسلامية الأسيوية .

وكانت بلاد الإسلام حتى فى هذه الفترة من عهود الاضمحلال تتزعم العالم كله فى الشعر ، والعلم ، والفلسفة ؛ وتنافس آل هوهنستوفن Hohenstaufen فى الحكم . فقد كان سلاطين السلاجقة — طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شاه ، وسنجر — من أقدر الحكام فى العصور الوسطى ، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة ؛ ولم يكن نور الدين ، وصلاح الدين ، والكامل

(*) قد يدهش القارئ لأن المؤلف أغفل جهود صلاح الدين فى رد الصليبيين ، ولكن هذه الجهود ستأتى فى موضعها من الأجزاء الأخرى (المترجم) .

أقل شأناً من رتشرد الأول ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى . وجرى هؤلاء الحكام المسلمون جميعهم ، بل وصغار الملوك أنفسهم ، على سنة الخلفاء العباسيين فى مناصرة الآداب والفنون ، حتى لنجد فى بلاطهم شعراء أمثال عمر الخيام ، والنظامى ، والسعدى ، وجلال الدين الرومى ؛ وبلغت العمارة فى أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل ، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم فى الدين(*)، فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كل خارج على السنة من المسلمين ، ولكنهم كانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها وليها أن المؤرخين البيزنطيين يحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين(٧) . وازدهر غرب آسية مرة أخرى مادياً ، وأدبياً فى عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق ، وحلب ، والموصل ، وبغداد ، وإصفهان ، والرى ، وهراة ، وأميدا ، ونيسابور ، ومرو وقتئذ من أكثر مدن العالم ثقافة وجمالا . وقصارى القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال متلألئ ساطع .

(*) لسنا نعتقد أن التشدد فى الدين يحول دون تقدم الفلسفة ولكن عدم فهم الدين على الوجه الصحيح هو الذى يحول دون تقدمها . (المترجم)

الفصل الثانى

المسلمون فى الغرب

١٠٨٦ — ١٣٠٠

توفى الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين فى عام ١٢٤٩ ، وتغاضت أرملته وجاريته السابقة شجرة الدر عن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة . وأراد الزعماء المسلمون فى القاهرة أن يوفقوا بين هذا وبين مقتضيات الشرف والرجولة فاختاروا مملوكاً آخر يدعى أيبك ليكون شريكاً لها فى الملك ، وتزوجت به شجرة الدر ، ولكنها ظلت هى الحاكمة ، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله فى الحمام (١٢٥٧) ، ولم تلبث أن قتلتها جوارى أيبك ضرباً بالقباقيب . وكان أيبك قد عاش من العمر ما يكفى لإنشاء أسرة المماليك . وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض ، وهم فى العادة من الأتراك أو المغول الأشداء البواسل ، الذين كان سلاطين بنى أيوب يستخدمونهم فى حرسهم الخاص ؛ وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر ، كما أصبح أمثالهم ملوكاً فى رومة وبغداد ؛ وظل المماليك يحكمون مصر ، وبلاد الشام أحياناً ، ٢٦٧ عاماً (١٢٥٠ — ١٥١٧) أريقت فيها كثير من دماء الاغتيال فى عاصمة ملكهم ، ولكنهم جملوها بآثار الفن . وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوربا نفسها من المغول حين بددوا شملهم فى واقعة عين جالوت (١٢٦٠) ؛ وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة ، وطردوا آخر محارب مسيحى من بلاد آسية ، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه بهزيمة المغول .

وكان أعظم سلاطين المماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) .

كان الظاهر مملوكاً تركياً ، رفعه دهاؤه وبسالته إلى منصب القيادة فى الجيش المصرى ؛ وكان هو الذى هزم لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ ؛ والذى حارب بعد عشر سنين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعتى النظير تحت قيادة قطز فى معركة عين جالوت . ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على مصر ، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذى أعدته المدينة للضحية المنتصر . واشتبك الظاهر فى عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر ، ومن أجلها تضعه الرواية الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحى معاصر له بقوله : « إنه كان فى السلم معتدلا ، عفيفا ، عادلا بين شعبه ، رحيما برعاياه المسيحيين أنفسهم » . وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة ثبتت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به بعضهم من عجز ، فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . وقد أنشأ لمصر جيشا وأسطولا قويين ، وطهر مرافئها ، وأصلح طرقها ، وقنوات ريها ، وشاد المسجد المسمى باسمه فى القاهرة .

وخلع مملوك تركى اخر ابن الظاهر بيبرس وأصبح هذا المملوك السلطان المنصور سيف الدين قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) ، وأهم ما يشتهر به فى التاريخ هو البيمارستان الذى أنشأه فى القاهرة ، والذى خصص له مليونا من الدراهم (ما يعادل ٥٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام ، ورُفع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات ، ولكنه لم يخلع إلا مرتين ؛ وبنى قنوات لجر ماء الشرب إلى العاصمة ، وأنشأ حمامات عامة ، ومدارس ، وأديرة ، وثلاثين مسجداً ؛ واحتفر قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر فى حفرها مائة ألف عامل ، وضرب المثل فى بذخ المماليك ، إذ نحر عشرين ألفا من الذبائح فى الاحتفال بزواج ولده . ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعيراً حديقة من الخضر يطينها الخصيب ليستمد منها حاجته كل يوم[٩] . وأقفرت خزانة

الدولة الرومانية فى أيامه ، وكان سببا فى ضعف خلفائه ضعفاً خارت له فيما بعد قوة المماليك .

وبعد فإن سلاطين المماليك لايقعون فى نفوسنا موقع سلاطين السلاجقة ، أو الأيوبيين . نعم إنهم خلفوا منشآت عامة عظيمة ، ولكن معظم هذه الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تحتمله الطاقة البشرية ، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام طبقة الأعيان ، وكان الاغتيال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين ؛ ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم ، أسخياء فى مناصرة الآداب والفنون ، وكان عصر المماليك ألمع العصور الإسلامية فى تاريخ العمارة الإسلامية فى العصور الوسطى بأجمعها ؛ وكانت القاهرة فى عهدهم (١٢٥٠ — ١٣٠٠) أغنى مدن العالم الممتد فى غرب نهر السند[١٠] ، فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها ، وكان فيها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات ، وحوانيت صغيرة فى جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان ، وأزقة غاصة بالناس والدواب ، تعلو فيها أصوات البائعين الجائلين وعربات النقل ، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة ، ومتعرجة عن عمد ليسهل الدفاع عنها ، تختفى بيوتها وراء واجهات قوية ، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها فى الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة ، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلى أو حديقة قريبة ؛ وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير ، والسجف ، والطنافس ، والتحف الفنية ، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة . وكان فيها رجال يمضغون الحشيش ليخدروا حواسهم[*] ، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة ؛

(*) لا نعتقد أن « مضغ الحشيش » كان ظاهرة بارزة فى القاهرة جديرة بالتسجيل كما قد يتبادر إلى الذهن من قول المؤلف وإن وجد فى القاهرة كما فى سائر بلاد العالم من يتعاطون الحشيش وغيره من المخدرات وحسب القارئ أن يطلع على كتاب « اعترافات آكل أفيون إنجليزى » لدكونسى .   (المترجم)

وفيها نساء يثرثرن فى بيوت الحريم ، أو يغازلن خلسة من وراء النوافذ ، والموسيقى تنبعث من آلاف الآلات ، والحفلات العجيبة تقام فى القلعة ، والحدائق العامة يفوح منها شذى الأزهار وتموج بالمتنزهين ، والنهر العظيم والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب ، وقوارب النزهة . هذه هى القاهرة المسلمة فى العصور الوسطى(*) .

لله بســـتان وما قضيت فيه من المآرب
لهـــفى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
فيروقنى والجـــو منـــــه ساكن والقطر ساكب
ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحائب
والطل فى أغصـــانه يحكى عقوداً فى ترائب
وتفتحت أزهـــاره فتأرجحت من كل جانب
وبدا على جنبـــاته ثمــر كأذناب الثعالب
وكأنمــا آصـــاله ذهب على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبيـــة لى فى الولوع بها مذاهب

وتعاقبت على شمال إفريقية فى ذلك الوقت أسر كان لها هى الأخرى شأن عظيم ، منها الزيرية (٩٧٢ — ١٠٤٨) وبنو حفص (١٢٢٨ — ١٥٣٤) حكام تونس ، والحموديون (١١٣٠ — ١٢٦٩) فى بلاد الجزائر ، والمرابطون (١٠٥٦ — ١١٤٧) والموحدون (١١٣٠ — ١٢٦٩) أمراء مراكش . وفى

(*) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الأبيات عن كتاب القاهرة Cairo تأليف استانلى لين پول Stanley Lane Poole ونقلها لين پول عن پالمر . وقد رجعنا إلى كتاب پالمر بدار الكتب وهو ديوان البهاء زهير وترجمته العربية لهذا المستشرق والترجمة الإنجليزية غير دقيقة كل الدقة وهى فى صفحتى ٨٢٧ من كتاب پالمر . (المترجم)

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المتصرون ، جنود إفريقية المتقشفون الأولون ، بحياة الترف التى كان يحياها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم عروشهم ، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة ، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هولا الشجاعة مقياس السمو والعظمة والهدف المبتغى ، واكتسبت النساء برقتهن ومفاتنهن سلطانا لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمنون الناس بمثل هذه المتع فى الجنة . وفسد الموظفون ، ولم يلبث دولاب الإدارة ، الذى بلغ درجة عالية من الكفاية فى أيام يوسف بن تاشفين (١٠٩٠ — ١١٠٦) ، أن اختل فى أيام ابنه على (١١٠٦ — ١١٤٣) . واضطرب حبل الأمن ، وكثرت السرقات كلما ازداد إهمال الحكومة لواجباتها ، فأصبحت الطرق غير آمنة ، وكسدت التجارة ، ونقصت الثروة . واغتنم ملوك أسپانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة ، وإشبيلية وغيرهما من مدائن الأندلس الإسلامية ، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية يستغيثون بها لتنجيهم من محنتهم .

وكانت ثورة دينية قد شبت فى تلك البلاد فى عام ١١٢١ ، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد . فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الآدميين ، وبآراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شيء إلى العقل ، وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة فى العيش وفى العقيدة الدينية ؛ ثم أعلن فى آخر الأمر أنه هو المهدى المنتظر والمنقذ الذى يقول به الشيعة . والتفت حوله قبائل البربر الهمج سكان جبال أطلس ، ونظموا أنفسهم تنظيما قويا وسموا بالموحدين ، وهزموا حكام مراكش المرابطين ، ولم يجدوا صعوبة فى أن يفعلوا مثل هذا الفعل فى الأندلس . وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش فى عهد عبد المؤمن (١١٤٥ — ١١٦٣) وأبى يعقوب يوسف (١١٦٣—١١٨٤) من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوما لديهم أن يجعلوا

كتبهم غير مفهومة : لكن أبا يوسف يعقوب (١١٨٤ — ١١٩٩) استسلم إلى فقهاء الدين ، وتخلى عن الفلاسفة ، وأمر بحرق جميع كتبهم . ولم يكن ابنه محمد الناصر (١١٩٩ — ١٢١٤) يعنى بالفلسفة ولا بالدين ؛ وأهمل شئون الحكم ، وانغمس فى الملذات ، وهزم هزيمة منكرة على أيدى قوات المسيحيين المتحدة فى واقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام ١٢١٢ وانقسمت أسبانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة افتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة — قرطبة فى عام ١٢٣٦ ، وبلنسية فى ١٢٣٨ ، وإشبيلية فى ١٢٤٨ . وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة ، حيث وقتهم جبال سيارا نفادا أو الحاجز الثلجى بعض الوقاية ؛ وحيث ازدهرت حقول الكروم ، وحدائق الزيتون ، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجرى فيها من مياه الأنهار . وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الحازمين حافظوا على استقلالها هى والبلدان التابعة لها — شريش ، وجيان ، والمرية ، ومالقة — وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة ، وراجت فيها التجارة ، وانتعشت الصناعة ، وازدهرت الفنون ؛ واشتهر السكان بثيابهم الزاهية وحفلاتهم المرحة ، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام ١٤٩٢ ، وكانت هى البقية الباقية فى أوربا من تلك الثقافة التى جعلت بلاد الأندلس قروناً طوالا من مفاخر بنى الإنسان .

الفصل الثالث

نظرات خاطفة فى الفن الإسلامى

١٠٥٨ — ١٢٥٠

فى هذا العصر عصر سيادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء فى غرناطة والقصر والخرلدة فى إشبيلية . وكثيراً ما يسمى الطراز المعمارى الجديد بالطراز المراكشى morisco ظنا أنه جاء من مراكش ، ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس ، وهى أيضاً من مميزات التاج محال فى الهند ؛ ألا ما أوسع ميادين الفن الإسلامى وما أكثر غناه ! وقد كان الفن فى ذلك العهد فناً رقيقاً ، ولم يعد يهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما فى مساجد دمشق ، وقرطبة ، والقاهرة ، بل يهدف إلى الرقة والجمال ، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة ، وأن المثّال قد طغى فيه على مهندس المعمار .

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً فى العمارة ، وقد شادوا أولا بقصد الدفاع عن أملاكهم ، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج أمثال برج الذهب Torre del Oro الذى كان يحرس الوادى الكبير عند إشبيلية . وكان « القصر » Alcazar المقام هناك حصنا وقصراً معاً ، وكان يطل على العالم بواجهة بسيطة خالية من الجمال . وكان الذى وضع تصميمه لأبى يعقوب يوسف (١١٨١) هو الجالونى المهندس القرطبى ؛ وأصبح هذا القصر بعد عام ١٢٤٨ المسكن المحبب لملوك أسبانيا المسيحيين ؛ وأدخل عليه پدرو الأول (١٣٥٣) ، وشارل الخامس (١٥٢٦) . . . وإزبلا (١٨٣٣) تعديلا فى بنائه ، أو رمموه ، أو أعادوا ما تهدم منه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه

الآن مسيحياً فى بنائه ، ولكنه يغلب عليه فى نمطه وصنعه الطراز الإسلامى أو الإسلامى — المسيحى .

وأبو يعقوب يوسف الذى بدأ « القصر » هو نفسه الذى شاد فى عام ١١٧١ مسجد إشبيلية العظيم الذى لم يبق منه شىء فى هذه الأيام . وقد أقام جابر المهندس فى عام ١١٩٦ مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند الغربيين باسم الخرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة (١٢٣٥) ؛ ثم هدمت هذه الكنيسة فى عام ١٤٠١ ، وأقيمت فى مكانها كنيسة إشبيلية الكبرى ، وكان مما استخدم فى بنائها مواد المسجد نفسه . والجزء الأدنى من الخرلدة إلى ارتفاع ٢٣٠ قدما هو نفس بناء المأذنة الأصلية ، أما الاثنتان والثمانون قدما الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون (١٥٦٨) ، وحرصوا على أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة الإسلامية . والثلثان الأعليان من البناء كثيرا الزخارف ، وفيهما شرفات مقنطرة ذات واجهات متشابكة من الجص والحجر ، وفى أعلاها تمثال من البرنز للإيمان (١٥٦٨) ، ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسبانيا الدينى غير المتقلب لأنه يدور مع الريح ، ومن هنا اشتق لفظ خيرلدا — أى الذى يدور — الأسبانى من خيرا Gira . وقد أقام المسلمون فى مدينتى مراكش (١٥٦٩) ورباط (١١٩٧) أبراجا لا تكاد تقل جمالا عن هذا البرج .

وفى غرناطة أمر محمد بن الأحمر (١٢٣٢ — ١٢٧٣) فى عام ١٢٤٨ بتشييد أعظم صرح فى الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها ، ونعنى به قصر الحمراء الشهير . وكان الموضع الذى اختير لتشييده عليه قلة جبلية شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهرى الدارو Darro والجنيل Genil . وقد وجد الأمير فى هذا الموضع حصنا يعرف بحصن الكذابة Acazabs يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادى ، فأضاف إليه أبنية جديدة وأقام الأسوار الخارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل جزء من أجزائها شعاره المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى

هذا البناء الأصلى أجزاء أخرى فى فترات مختلفة وأصلح ما تلف منه على أيدى المسيحيين والمسلمين على السواء . من ذلك أن شارل الخامس أضاف إليه قصره المبنى على الطراز المربع طراز عهد النهضة ، وهو بناء ناقص كئيب مهيب غير متناسق . وخطط المهندس الذى لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذى فى داخل السور ليكون أولا حصنا يتسع لأربعين ألف رجل متبعاً فى هذا مبدأ العمارة الحربية التى نمت وتطورت فى بلاد الإسلام الشرقية(١٢) ؛ لكن ذوق القرنين التاليين الأكثر ميلا إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبيرة من الأبهاء والقصور ، تكاد تمتاز كلها بجمال الزخارف المكونة من الأزهار ، وأوراق الأشجار ، والأشكال الهندسية المحفورة أو المطبوعة فى الجص أو الآجر أو الحجارة الملونة ، والتى تبلغ من الجمال ورقة الذوق درجة منقطعة النظير . وأنشئت فى بهو الآس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلات الأبواب المزخرفة ، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع . وفى داخل هذا البرج بهو السفراء ، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على عروشهم بينا كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثراء ، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا البهو فرأى الحدائق ، والغياض ، والنهر يجرى من تحتها ، فقال بعد تفكير عميق : « ما أتعس حظ من من خسر هذا كله ! »(١٣) وفى الفناء الرئيسى للقصر المعروف ببهو الآساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبة المنظر تحرس فسقية من المرمر . وإن ما فى البواكى المحيطة بهذا الفناء من عمد رشيقة رفيعة ذات تيجان فى صورة أزهار ، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة ، وكتابات كوفية ، ونقوش عربية ذات ألوان أطفأ بريقها كر الغداة ومر العشى ، كل هذا يجعل القصر أروع آية فنية فى الطراز الإسلامى الأندلسى . ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا فى فهم حدود الرشاقة إلى

الإسراف ، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فإنها هى والروح تملان حتى الجمال والحذق . وهذه الدقة فى الزخرف تبعث فى النفس إحساساً بالوهن وتضحى بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن تشعرنا بهما هندسة البناء . ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخرفى كله تقريباً قد عاش بعد اثنى عشر زلزالا . نعم إن سقف قاعة السفراء قد خر ، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً . وملاك القول أن هذه المجموعة الجميلة من الحدائق والقصور ، والفساقى ، والشرفات توحى إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامى الأندلسى من العظمة ، كما توحى فى نفس الوقت بضعف هذا الفن : توحى بالإسراف فى الثراء ، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتخلد إلى الدعة ؛ وبحاسة الجمال المرهفة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة .

وعاد الفن الأندلسى الإسلامى فى القرن الثانى عشر من أسپانيا إلى شمالى إفريقية ، وبلغت مدائن مراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التى تبهر العين ، وبالأحياء الفقيرة المتعرجة . أما فى مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والمماليك الفن الإسلامى بقوة جديدة ؛ فقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه فى الجنوب الشرقى من القاهرة قلعتها الضخمة ، واستخدموا فى بنائها الأسرى الصليبيين ، ولعلهم حذوا فى طرازها حذو القلاع التى شادها الفرنجة فى بلاد الشام ؛ وشاد الأيوبيون فى حلب المسجد العظيم والقلعة ، وبنوا فى دمشق ضريح صلاح الدين . وحدث فى هذه الأثناء انقلاب فى فن العمارة حول فى جميع بلاد الشرق الإسلامى الطراز القديم فى عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع ذى المدرسة . وكان منشأ هذا الطراز الجديد أن المساجد زاد عددها فلم تعد ثمة حاجة إلى أن يكون فى وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛ وأن ازدياد الحاجة إلى المدارس كان يتطلب تسهيلات جديدة فى التعليم . ولهذا

امتدت من المسجد الحقيقى أى من مكان الصلاة – الذى كان يعلوه فى ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة – امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف ، وقاعته الرحبة للمحاضرات . وقد جرت العادة فى أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناحه الخاص ؛ ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت فى صراحة : إن ذلك يتيح الفرصة لوجود مذهب منها فى القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة . وقد استمر هذا الانقلاب فى العمارة فى عهد المماليك فأنشئت المساجد والمقابر الضخمة المتينة من الحجارة ، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضيؤها نوافذ ذات زجاج ملون ، وتتلألأ فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة فى الجص الملون ، وقطع القرميد التى قاومت حتى الآن عوادى الزمان والتى لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين .

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد فى المائة ، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آنى فى أرمينية ، والمدخل الفخم لمسجد قونية ، ومسجد علاء الدين الفخم ، والمدخل الكهفى ، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز فى جامع سرتجيلى ؛ ونذكر منها فى بلاد النهرين مسجد الموصل الكبير ، ومسجد المستنصر فى بغداد ؛ وفى فارس برج طغرل بك فى الرى وقبر سنجر فى مرو ، والمحراب المتلألئ فى مسجد همذان ، والقبة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة فى المسجد الجامع بقزوين ، والعقود الكبرى والمحراب فى جامع الحيدرية ؛ وليست هذه إلا قلة من الصروح التى بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق فى العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو الذوق . وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع فى إصفهان الذى لا يدانيه فى بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا فى مشهد والذى أقيم بعد ذلك الوقت . ومسجد إصفهان هذا أروع الآيات الفنية كلها فى عصر السلاجقة . وقد أقيمت أجزاء من هذا

المسجد فى قرون عدة ، ويبدو عليها طابع تلك القرون ، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam . وقد بدئ بتشييده فى عام ١٠٨٨ ووسع مراراً عدة ، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا فى عام ١٦١٢ ؛ غير أن كبرى قبابه المشيدة من الآجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام ١٠٨٨ . ومدخل المسجد وأبواب المحراب — ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً — مزينة بالقاشانى والفسيفساء الذى لا يكاد يوجد له نظير فى تاريخ ذلك الفن بأكمله . وأبهاؤه الداخلية ذات قباب مضلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة ، وأقواس مستدقة تخرج من دعامات ضخمة . وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الجص من أوراق الكرم والبشنين ، وكتابات كوفية لايعلو عليها شىء من نوعها فى بلاد الإسلام جميعها .

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قوماً همجا ؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام فى التاريخ ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم فى عصر الإيمان الذى يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة ؛ ولقد وقف طراز المبانى السلجوقية الضخمة الجريئة فى وجه النزعة الفارسية إلى الزينة ، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معمارى جديد عم آسية الصغرى والعراق وإيران ، ومن العجيب أن يتفق هذا الطراز فى الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطى فى فرنسا . ولم يجر السلاجقة على السنة التى جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة فى ركن من أركان الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متلألئة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصرح ، وضمت أجزاءه جميعها فى وحدة ؛ وفى هذا الوقت بالذات إجتمع فى البناء العقد المستدق ، والقبو ، والقبة أحسن اجتماع[14] .

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها فى هذا العصر العجيب عصر العظمة

والاضمحلال . فقد كان الشعر يبدو للفرس من مسرات الحياة التى لاغنى عنها ، ولم يبلغ فن الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه فى ذلك الوقت من تنوعٍ فى الشكل وجمال[١٥] . ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين ، وأهل الجزيرة ، والساسانيين ، وأهل الشام من فنون الزخارف البراقة ، والتلوين المفرد أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحته ، وأعمال الميناء ، والقرميد ، والقاشانى ، والزجاج ، حتى بلغوا بذلك كله درجة الكمال . وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصينى ، وخاصة ما كان منها متصلا بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسى . وقد استورد الخزف وقتئذ من بلاد الصين ، ولكن ندرة الكاولين فى الشرقين الأدنى والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الآنية النصف الشفافة . إلا أن الفخار الفارسى مع هذا بقى طوال القرون الثانى عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، لايفوقه فخار آخر فى العالم كله — فقد كان فى تنوع أشكاله ، ودقة تناسبه ، وبريق زخارفه ، ودقة حزونه ، ورشاقته يسمو على كل ما عداه فى العالم كله[١٦] .

ولم تكن الفنون الصغرى فى بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التى تبخسها حقها . فقد كانت حلب ودمشق فى هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية الهشة ، المزخرفة بالميناء ، وصنعت القاهرة للمساجد والقصـــور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء أيضاً يبذل هواة التحف الفنية فى هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها[*] . وكانت كنوز الفاطميين التى فرقها صـــلاح الدين تحتوى على آلاف من المزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقرانى ، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون فى هذه الأيام ؛ وبلغ فن الزخارف المعدنية الأشورى القديم فى مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل ،

(*) وحسبنا أن نذكر أن آل رتشيلد ابتاعوا إبريقاً عربياً صغيراً من الزجاج المزخرف بالميناء بمبلغ ١٣,٦٥٠ ريالا أمريكيا .

ومن هذين القطرين انتقل ذلك الفن إلى البندقية فى القرن الخامس عشر[١٨]. وكان النحاس، والبرنز، والشبّة، والفضة، والذهب، تصبّ أو تطرق، وتصنع منها آنية للطبخ، وأسلحة، ودروع، وقناديل، وأباريق، وأحواض، وجفان، وصوانٍ، ومرايا، وآلات فلكية، ومزهريات، وثريات، ومقالم، ومحابر، ومدافئ، ومباخر، وتماثيل للحيوانات، وصناديق للمصاحف، ومساند للمواقد، ومفاتيح، وأقفال، ومقصات؛ .. مزينة بنقوش محفورة، ومرصعة فى كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة. وكانت الأوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول للمحاريب، والأبواب، أو القبور. وفى متحف الفنون الجميله ببسطن صينية فضية نقشت عليها صور وعول، وإوز، واسم ألب أرسلان، ويرجع عهدها إلى عام ١٠٦٦، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر ما أخرجه الفن الفارسى فى العهود الإسلامية من تحف فضية، وأنها أهم تحفة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة[١٩].

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون، ومقصوراً على عمل النقوش البارزة، والحفر على الحجارة أو الجص، وعلى الزخرفة العربية والكتابية؛ وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستهتر بعمل تمثال له أو لزوجه أو إحدى مغنياته.. ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجماهير. غير أن النقش على الخشب ترعرع وازدهر؛ فكانت الأبواب، والمنابر، والمحاريب، وكراسى المصاحف، والسجف، والسقف، والمناضد، والشبابيك الشّعرية، والأصونة، والصناديق، والأمشاط، كانت هذه كلها تقطع على رسوم شَعْرية أو يكدح فى عملها صناع قاعدون القرفصاء يديرون المخارط بأقواس. وكان ثمة عمال آخرون أشد من هؤلاء كدحاً وأكثر منهم صبراً ينسجون الحرير، والأطلس، والحرير المشجر، والأقمشة المطرزة، والمخمل المشغول بخيوط الذهب، والستائر، والخيام،

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتانة التى كانت موضع دهشة العالم وحسده . وقد شاهد ماركو پولو فى آسـيـة الصغرى حين زارها فى عام ١٢٧٠ « أجمل الطنافس فى العالم كله »[٢٠]. ويقول جون سنجر سارچنت John Singer Sargent إن السجادة العجمية « تساوى فى قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الوقت »[٢١] ؛ مع أن الخبراء المختصين يحكمون بأن السجاجيد العجمية الحالية ليست إلا أمثلة ناقصة من الفن الذى بزت فيه بلاد الفرس العالم كله ؛ ولم يبق من السجاجيد العجمية التى نسجت فى عصر السلاجقة إلا قطع ممزقة ، ولكن فى وسعنا أن نتصور ما بلغته من إتقان وجمال منقطعى النظير مما نسج على منوالها بصورة مصغرة فى العصر المغولى .

وكان التصوير فى الإسلام من الفنون الكبرى فى الرسوم الدقيقة الصغيرة ، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى فى الرسم على الجدران ، وفى الرسوم الملونة للكائنات الحية . وقد استخدم الخليفة الفاطمى الآمر (١١٠٤ — ١١٣٠) عدداً من رجال الفن ليرسموا له فى حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت[٢٢] ، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعد له من القوة ما كان له فى سالف الأيام . وقد بلغ التصوير فى عهد السلاجقة ذروته فى بلاد التركستان حيث أضعف بُعد المسافة كراهية أهل السنة لهذا الفن ، ومن أجل هذا نرى فى المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك . ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوجه فى عصر المغول الذى تلا ذلك العصر فى بلاد الإسلام الشرقية لا يكاد يترك مجالا للشك فى ازدهاره فى ذلك العصر السابق . فقد كانت العقول الأريبة والأيدى الصناع تخرج مصاحف تزداد جمالا فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجقـة والأيوبيين والمماليك ، ومحال عبادتهم ، ولكبرائهم ، ومدارسهم ؛ وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقوشاً تبلغ فى

دقتها بيوت العنكبوت ، وكان الأغنياء ينفقون بعض ما لهم فى استئجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب ؛ وكانت طائفة كبيرة من الوراقين ، والخطاطين ، والمصورين ، والمجلدين ، تعمل فى بعض الأحيان سبعة عشر عاماً كاملا لإخراج مجلد واحد . ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع ، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التى لا يزيد عمرها على سنتين ، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورود الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن الذهب السائل يعد أثمن من أن ترسم به بعض الخطوط أو تكتب به بعض الحروف فى رسم أو نص . وفى ذلك يقول أحد شعراء الفرس : « إن الخيال لا يمكن أن يتصور مقدار السرور الذى يتيحه للعقل منظر خط متقن الرسم »(٢٣) .

الفصل الرابع

عصر عمر الخيام ١٠٣٨ - ١١٢٢

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء فى ذلك العصر لم يكن يقل عن عدد الفنانين . فقد كانت القاهرة ، والإسكندرية ، وبيت المقدس ، وبعلبك ، وحلب ، ودمشق ، والموصل ، وحمص ، وطوس ، ونيسابور ، وكثير غيرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى ؛ وكان فى بغداد وحدها سنة ١٠٦٤ ثلاثون مدرسة . من هذا النوع ، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها فى سعتها ، وفخامة بنائها ، وأجهزتها ، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء فى المدينة كلها . وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوى أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى ، يجد فيها الطلاب التعليم ، والطعام ، والعناية الطبية بالمجان ، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى . وكان فى المدرسة مستشفى ، وحمام ، ومكتبة مفتحة الأبواب بالمجان للطلبة وهيئة التدريس . ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن فى بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأنا نسمع عن وجود شيخة - أى أستاذة - يهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا يهرعون إلى سماع محاضرات أسپازيا Aspasia وهيپاشيا Hypatia . (١١٧٨)[٢٤] .

وكانت دور الكتب العامة أغنى وأكثر مما كانت فى أى عهد آخر من عهود الإسلام ؛ وقد كان فى الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة ؛ وظل النحاة ، وعلماء اللغة ، وأصحاب الموسوعات ، والمؤرخون موفورى العدد والثراء ، وكانت كتب السير التى يضم كل منها عدداً من التراجم من الهوايات الشائعة المتقنة عند المسلمين . من ذلك أن القفطى (المتوفى فى عام ١٢٤٨) ترجم لأربعمائة

وأربعة عشر فيلسوفا وعالما ، وأن ابن أبى أصيبعة (١٢٠٣ — ١٢٧٠) ترجم لأربعمائة طبيب ، وأن محمد العوفى (١٢٢٨) ، ألف موسوعة تشمل ترجمة لثلثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام ؛ ويز محمد بن خلكان (١٢١١ — ١٢٨٢) بمفرده هؤلاء جميعاً وغيرهم بكتابه **وفيات الأعيان** الذى يحتوى على تراجم فى صورة قصص لثمانمائة وخمسة وستين من ذوى المكانة من المسلمين . والكتاب على اتساع مجاله عجيب الدقة ، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتذر عما فيه من نقص ويختتمه بقوله « أبى الله أن يصح إلا كتابه »(*) وحلل محمد الشهرستانى فى **كتاب الملل والنحل** (١١٢٨) المشهورَ من أديان العالم وفلسفاته ، ولخص تواريخها ؛ ولم يكن فى مقدور أحد من المسيحيين فى ذلك العصر أن يكتب كتابا يماثله فى غزارة مادته ونزاهته .

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص ، متقطعة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة . وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب كليلة ودمنة لبيدبا هو مقامات أبى محمد الحريرى (١٠٥٤ — ١١٢٢) البصرى . وتروى هذه المقامات فى نثر مسجع مغامرات الوغد السافل أبى زيد صاحب الشخصية الممتعة ، وهو الذى يضطر القارئ إلى العفو عن مجونه ، وجرائمه ، وتجديفه بسبب فكاهته الظريفة ، وحذقه ودهائه ، وفلسفته الجذابة المغرية : انظر إلى قوله فى إحدى المقامات :

(*) يقول ابن خلكان : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعجل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عطائه النمير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » . انتهى قول ابن خلكان . تالله ما أجمل هذا التواضع ! (المترجم) .

وعاص النصيح　　الذى لا يبيح　　وصال المليح
إذا ما سمح

وجل فى المحال　　ولو بالمحال　　ودع ما يقال
وخذ ما صلح(*)

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين فى ذلك الوقت أن يقرض الشعر ، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه ؛ وإذا صدقنا قول ابن خلدون فإن مئات من الشعراء كانوا يقيمون فى بلاط المرابطين والموحدين فى إفريقية وأسبانيا[٣٦] . وحدث فى اجتماع للشعراء المتنافسين فى إشبيلية أن نال الأعمى التطيلى(**) جائزة لأنه جمع فى بيتين نصف شعر العالم كله إذ قال :

ضاحك عن جمان　　سافر عن در
ضاق عنه الزمان　　وحواه صدرى[٣٧]

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرءوها ؛ وفى القاهرة ظل البها زهير يغنى عن الحب بعد أن ابيض شعره بزمن طويل . وفى بلاد الشرق الإسلامى كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سببا فى ازدياد عدد الأمراء والكبراء الذين يناصرون الأداب ، وإلى تنافسهم فى هذا الميدان كما حدث فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر . وكان الفرس أغنى الأمم الإسلامية بالشعراء ، فقد ظل الأنورى شاعر خراسان زمناً ما يتغنى بقصائده فى بلاط سنجر ، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه . ومن مديحه لنفسه قوله بالفارسية ما معناه :

(*) من المقامة الثانية عشرة الدمشقية .　　(المترجم)

(**) أبو العباس التطيلى . ويروى سافر عن بدر وهذه القافية تتفق مع الترجمة الإنجليزية . وقصته كما يرويها ابن خلدون فى حديثه عن الموشحات الأندلسية : « أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكل واحد منهم اصطنع موشحة ، وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلى للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بالبيتين السابقين صرف ابن بقى موشحته وتبعه الباقون » .　　(المترجم)

لى روح ملتهبة كالنار ، ولسان فياض كالماء ،
وعقل قواه الذكاء وشعر مبرأ من العيوب ،
ولكن ما أشد أسفى إذلا أجد نصيراً خليقا بمديحى
وما أشد أسفى إذ لا أجد حبيباً جديراً بغزلى !(٢٨)

ولا يقل عنه ثقة بنفسه معاصره الخاقانى (١١٠٦ — ١١٨٥) ، وقد أثار بغطرسته معلمه فقال فيه شعرا يطعن فى نسبه يقول فيه بالفارسية ما معناه :

أى خاقانى ! مهما تكن مكانتك فى الشعر فإنى أسدى إليك نصيحة لاأقتضيك عليها أجراً :

لاتهجون أسن منك فربما — تهجو أباك وأنت لا تدرى(*)

وأكثر ما يعرف الأوربيون من الشعر الفارسى هو شعر عمر الخيام ؛ وتضعه بلاد فارس بين علمائها الأعلام ، ولا ترى فى رباعياته إلا لهواً عارضاً كان يلهو به « رجل من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى »(٣٠) . وقد ولد أبو الفتح عمر الخيام ابن إبراهيم فى نيسابور عام ١٠٣٨ ، ومعنى لقبه صانع الخيام ، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة أبيه إبراهيم ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت فى أيامه معانيها الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد Smith ، والخياط Taylor والخباز Baker ، والفخرانى Potter ، معانيها عند الإنجليز والأمريكيين(**) فى الوقت الحاضر . ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل أسماء الكثير من مؤلفاته ؛ منها كتابه فى الجبر الذى ترجم إلى الفرنسية فى عام ١٨٥٧ ، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدى الخوارزمى والعلماء اليونان . فقد وصل فيه إلى حل جزئى لمعادلات الدرجة

(*) ليس هذا البيت من ترجمتنا، بل إنه من شعر يهجو فيه بعضهم أبا العلاء صاعداً الأندلسى وهو ترجمة صادقة لقول أبى العلاء الآخر معلم الخاقانى .

(**) وعندنا أيضاً . (المترجم)

الثالثة قيل إنه « ربما كان أعظم ما وصلت إليه العلوم الرياضية فى العصور الوسطى »[٣١] ومنها كتاب آخر فى الجبر (وهو كتاب مخطوط فى مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعاريفه . وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء فى عام ١٠٧٤ إصلاح التقويم الفارسى ، وكانت نتيجة عملهم تقويما لا يخطئ إلا فى يوم واحد كل ٣٧٧٠ عاماً — أى أنه أدق قليلا من تقويمنا الحاضر الذى يخطئ بمقدار يوم كل ٣٣٣٠ عاما[٣٢] . وإنا لنترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التى تتلو حضارتنا هذه . غير أن الدين الإسلامى كان أعظم سلطانا على النفوس من العلوم الإسلامية ، ولهذا عجز تقويم الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجرى . ومما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكى من شهرة واسعة تلك القصة التى يرويها عنه نظامى عروضى الذى عرفه فى نيسابور :

فى شتاء سنة ٥٠٨(*) فى مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه فى طلب صدر الدين محمد بن المظفر رحمه الله ، وكلفه أن يخبر الخيام — وكان ينزل داره — أن السلطان يريد الخروج للصيد ، وأنه يطلب إلى عمر أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج . وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره . ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر ، وهبت الرياح عواصف ، ونزل الثلج والبرد ، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : لا تشغل بالك فإن المطر سينقطع فى هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة . وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأيام الخمسة[٣٣] .

والرباعيات فى أصلها الفارسى قصيدة تتألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قافيتها آبا . وتعبر كل منها عن فكرة كاملة فى شعر جامع محكم . ولسنا

(*) أو ١١١٤ — ١١١٥ م .

نعرف منشأ هذا البحر ، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الخيام بوقت طويل . ولم يكن هذا الشعر فى الأدب الفارسى جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذاتها ، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها ، بل يرتبونها حسب قوافيها(٣٤) . وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية ، معظمها لا يعرف قائله ، ومنها ١٢٠٠ تعزى إلى عمر الخيام نفسه ، ولكن كثيراً منها يشك فى أنها من قوله . ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسى لرباعيات الخيام (وهو المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام ١٤٦٠ لا قبل ؛ ويحتوى على ١٥٨ من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أبجديا(٣٥) . وقد أمكن إثبات بعض هذه المقطوعات إلى شعراء قبل الخيَّام — بعضها إلى أبى سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا(٣٧) . وإن من الصعب ، إلا فى حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التى تعزى إلى الخيَّام من أقواله حقا(٣٨) .

ولقد كان المستشرق الألمانى ڤون همر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربى إلى رباعيات الخيَّام فى عام ١٨١٨ ، ثم ترجم إداورد فتزجرلد Edward Fitzgerald فى عام ١٨٥٩ خمساً وسبعين منها شعراً إنجليزيا رصيناً ممتازاً ، فريداً فى نوعه . ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل ، لكن طبعات أخرى متتالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ ، وأفلحت فى تعديل الصورة التى كانت فى عقول الناس عن العالم الرياضى الفارسى حتى جعلته من أكثر الشعراء شهرة ، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر فى العالم . ويرى العارفون بالأصل الذى ترجمه فتزجرلد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التى ترجمها تسعاً وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسى تعبيراً صادقا أمينا ، وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

وأن اثنتين « تنعكس فيهما روح القصيدة الأصلية بأجمعها » ، وأن ستاً مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الخيام ، ولكنها فى أغلب الظن ليست له ، وأن اثنتين ينطبع عليهما تأثر فتزجرلد بما قرأه لحافظ ، وأن ثلاثة لانجد لها أصلا فى أى نص فيما لدينا من نصوص رباعيات الخيام ، ويبدو أنها من وضع فتزجرلد نفسه ، وقد استبعدها هو فى الطبعة الثانية[٣٩]. ولسنا نجد فى رباعيات الخيام ما يقابل المقطوعة الحادية والثمانين من ترجمة فتزجرلد[٤٠] وهى التى تقول :

إننى أدعوكِ يا من أنجبا من خبيث الترب إنساناً نما
وبفردوس أدب الأرقما كيفما زل امرؤ أو أجرما
فاحبه وأسأله غفران الأنام(*)

أما فيما عدا هذه المقطوعة فإن الموازنة بين ترجمة فتزجرلد وبين الترجمة الحرفية للنص الفارسى تتجلى فيها على الدوام روح عمر . وهى أمينة على الأصل إلى الحد الذى يحق للإنسان أن يتوقعه من هذه الترجمة الشعرية . وقد كانت نزعة فتزجرلد الدروينية السائدة فى أيامه مما حمله على إغفال فكاهة الخيام الحلوة ، وعلى توكيد ما فى أقواله من نزعة مضادة للدين . ولكن المؤلفين الفرس الذين جاءوا بعد عمر الخيام بقرن واحد لا أكثر يخلعون عليه من الأوصاف ما يتفق كل الاتفاق مع أقوال فتزجرلد ، فرصد العباد (١٢٢٣) يصفه بأنه فيلسوف ملحد ، مادى تعس . ويقول عنه القفطى فى تاريخ الحكماء (١٢٤٠) إنه لا نظير له فى الفلك والفلسفة ، ولكنه يصفه بأنه ملحد شديد الإلحاد ، يضطره الحذر إلى أن يمسك لسانه ؛ ويصفه أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى بأنه رجل سيء الخلق من أتباع ابن سينا ، ويذكر كتابين للخيام فى الفلسفة لا وجود لها الآن . ويفسر بعض المتصوفة رباعيات عمر تفسيراً مبنياً على الاستعارات الصوفية

(*) من ترجمة المرحوم محمد السباعى .

الخفية ، ولكن الصوفى نجم الدين الرازى يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحدين فى أيامه(٤١) .

وكا عمر الخيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام ، ويفخر بأنه سرق أبسطة الصلاة من المساجد ، ولعله قد تأثر فى هذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية ، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبى العلاء المعرى(٤٢). وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين ؛ وإذ كان لا يأمل فى حياة غير الحياة الدنيا ، فقد استولت عليه فلسفة متشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى فى الدرس والخمر ؛ فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتى بعدها من المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية :

وحانة كنستها بشاربى ‏ ‏ ‏ وعالمين وليا عن غاربى

ما عادلى بالشر إما حاق بى ‏ ‏ ‏ شأن ولا خيرهما إن ضاق بى

ودعها يا قلب عند ضارب ‏ ‏ ‏ بأكرة يرسلها لضارب

تجد أخاك نائما كشارب ‏ ‏ ‏ سكران من هذى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى ‏ ‏ ‏ لله ما أحلى وما أجمــلا

أن تشرب العقل فلا يعقلا ‏ ‏ ‏ وأن يجوب المرء هذا الفلا

واعقله من كل شىء سـلا ‏ ‏ ‏ بين سمــاك نافر وهـلا(*)

(يريد من برج الحوت إلى الهلال أى من أحد طرفى السماء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون فى مدح الغيبوبة أقوالا شبيهة بهذا القول ، حق لنا أن نتساءل أليست هذه الأقوال الخمرية مجرد صورة من صور الأدب ، ووقفة من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين ؟

(*) لم نجد هاتين المقطوعتين فيما هو مترجم من رباعيات الخيام ، وقد تفضل صديقنا الأستاذ دريني خشبة مشكوراً فترجمهما شعرا . (المترجم)

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع فى عقل القارئ صورة خاطئة لحياة الخيام ؛ وما من شك فى أنها لم يكن لها إلا شأن قليل فى الخمسة والثمانين عاما التى امتدت إليها حياته . ومن واجبنا أن نصوره ، لا فى صورة السكير الذى يستلقى مخمورا فى الطرقات ، بل فى صوة العالم المسن العاكف فى هدوء على معادلاته التكعيبية ، وعلى طائفة قليلة من أبراج النجوم والخرائط الفلكية ، وعلى كأس من الخمر بين الفينة والفينة مع زملائه العلماء ، وهم منتشرون على الكلأ كالنجوم . ويبدو أنه كان يحب الأزهار كحب المحصورين فى أرض جدباء ، وإذا أخذنا بقول النظامى العروضى فإنه قد نال بغيته فى أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير . قال النظامى :

هبط عمر الخيام سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ — ١٣م) مدينة بلخ ونزل فى قصر الأمير أبى سعد ، وكنت فى خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول : سيكون قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه فى كل ربيع . وظننته يقول مستحيلا ولكننى كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافا .

ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥م) فقيل لى بأن ذلك الرجل العظيم قد مات ؛ وكان له على حق الأستاذ فرأيت من واجبى أن أزور قبره وصحبت من يدلنى عليه فأخرجنى إلى مقبرة الحيرة ، وهناك رأيت على يسار الزائر فى سفح سور حديقة موضع دفنه ، ورأيت أشجار الكمثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار ؛ فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التى سمعتها منه فى بلخ ، وغشينى الحزن ، وغلبنى البكاء لأنى لم أكن أعرف له ندا بين الرجال ، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرما .

الفصل الخامس

عصر السعدى(*) ١١٥٠ – ١٢٩١

ولد بعد خمس سنين من وفاة عمر الخيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر ، وكان مولده فى المدينة المعروفة الآن بفيروزاباد بالقرب من تفليس . وكأن الأقدار قد شاءت أن تتخذ من إلياس أبى محمد الذى عرف بعدئذ باسم نظامى وسيلة لإظهار نزعة الخيام الأخلاقية فى أبشع صورها فجعلته يستمسك فى حياته بأسباب الصلاح الحق ، فيمتنع كل الامتناع عن شرب الخمر ، ويهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر . وقصته ليلى والمجنون (١١٨٨) أشهر القصص(**) الغرامية فى الشعر الفارسى . وخلاصتها أن قيس المجنون افتتن بليلى ، ولكن أباها أرغمها على أن تتزوج برجل غيره ، فأثرت تلك الخيبة فى قيس وأفقدته عقله ، فاعتزل المدينة إلى البادية ، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلى أمامه . ولما ترملت ليلى جاءت إليه ولكنها توفيت بعد قليل ، ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبرها كما قتل رميو نفسه عند قبر جوليت . وليس فى مقدور أية ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفارسى من قوة فى التعبير وجمال فى النغم .

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب ، ولكنهم يؤكدون لنا أشد التأكيد أن العاطفة التى يعبرون عنها ليست إلا رمزاً لمحبة الله . وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف فى عالم الأدب باسم فريد الدين العطار بالقرب من نيسابور (١١١٩) ، ولقب بالعطار لأنه كان يبيع العطر . ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

(*) يعرف باسم سعدى الشيرازى . (المترجم)
(**) نظم المرحوم أحمد شوقى هذه الرواية شعراً .

غادر حانوته والتحق بخلوة للصوفية . وتشتمل كتبه الأربعون على مائتى ألف بيت من الشعر أشهرها كلها منطق الطير . وخلاصته أن ثلاثين طائراً (أى صوفيا) يعتزمون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمرغ (الحق) . ويجتازون ستة وديان : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والتجرد (عن جميع الشهوات) ، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة) ، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردى) . وتصل ثلاثة من الطيور الوادى السابع وادى الفناء (فناء النفس) ، ويطرقون باب الملك المختفى . ويعرض الحاجب على كل منهم سجل أعماله ، فيغلبهم الحياء ، ويستحيلون ترابا ؛ ولكنهم يبعثون من هذا التراب فى صورة ضياء ، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيراً) شىء واحد . ويفنون من هذا الوقت فى سيمرغ كما تفنى الظلال فى ضوء الشمس . ويعبر العطار فى كتبه الأخرى عن عقيدته فى وحدة الوجود تعبيراً أكثر من هذا صراحة : فيقول إن العقل لا يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه ، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله ، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة فى كل شىء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة ، وهو روح العالم وحياته . وليس فى مقدور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفنى وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة ، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحده الدين الحق ، وإفناء النفس فيه هو وحدة الخلود الصحيح[٤٥] . ويرفض أهل السنة هذا كله ويعدونه بدعة وضلالا ؛ وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيت العطار وأحرقوه عن آخره ؛ ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله ، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش مائة عام وعشرة أعوام ، وإنه بارك بيده الطفل الذى نادى به فيما بعد معلماً له ، والذى فاقت شهرته شهرة معلمه .

كان جلال الدين الرومى (١٢٠١ - ١٢٧٣) من أهل بلخ ، ولكنه عاش معظم حياته فى قونية . وجاء إلى هذه المدينة صوفى عجيب هو شمس تبريزى

ليخطب فى أهلها ، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخذون قونية عاصمة لهم ، وأنشأ جلال الدين فى حياته القصيرة نسبياً بضع مئات من القصائد . وقد جُمعت القصار منها فى ديوانه ، وتمتاز بعمق الشعور ، والإخلاص وقوة الخيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة ، وبهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الدينى من عهد المزامير . وكتابه المثنوى المأنوى غرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق فى حجمها كل ما خلفه هومیروس : وفيها فقرات بارعة الجمال ، ولكن الجمال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقى متعة إلى أبد الدهر . وموضوعه ، كموضوع كتاب معلمه ، هو وحدة الكون :

دقّ إنسان باب الحبيب ، فناداه صوت من الداخل :

مَن الطارق ؟ فأجابه « أنا » : فناداه الصوت : « إن هذه الدار لا تتسع لى ولك » ، وظل الباب مغلقاً . فسار المحب إلى الصحراء ، وداوم فى عزلته على الصوم والصلاة ، ثم عاد بعد عام ودقّ الباب مرة أخرى ، وسأله الصوت كما سأله من قبل : « مَن الطارق ؟ » فأجاب المحب : « إنه أنت نفسك » ، ففتح له الباب(٤٦) .

* * *

ونظرت حولى أبحث عنه ، فلم أجده على الصليب ، وذهبت إلى هيكل الأوثان ، وإلى المعبد القديم ، فلم أشاهد فيهما أثراً . . . ثم وجهت بحثى نحو الكعبة ، ولكنى لم أجده فى هذا المكان الذى يلجأ إليه الشيان والشيب ، وسألت ابن سينا عن مقامه ، ولكن ابن سينا لم يحط به . ثم تفقدت قلبى ، وفيه وجدته ، ولم يوجد فى مكان سواه(٤٧) .

إن كل صورة تراها لها أصل مثلها فى العالم اللامكانى ، فإذا انعدمت الصورة

فليس ذلك بذى خطر لأن أصلها باق مخلد . وما من شكل جميل رأيته ، او قول حكيم سمعته — فلا يحزنك أنه قد فنى لأنه فى واقع الأمر لم يفن ... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجرى منه . فاطرد الغم من قلبك ، وعب من هذا النهر ، ولا تظنن أن الماء سيفرغ فمعينه لا ينضب .

ولقد وضع أمامك من ساعة مجيئك إلى عالم الخلق سلم لتفر عليه منه . ولقد كنت فى أول الأمر جمادا ، ثم استحلت بعدئذ نباتا ؛ ثم صرت حيواناً ، فكيف يخفى عليك هذا ؟ ثم جعلت بعدئذ إنساناً ذا علم ، وعقل ، ودين ... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن ، أصبحت بلا ريب ملا كاً .

وانتقل مرة أخرى من طبقة الملائكة ؛ وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح نقطتك بحراً . . . دع عنك هذا « الابن » وقل : « الواحد » على الدوام بكل قلبك(٤٨) .

ونذكر أخيراً السعدى ، ولا حاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقى أطول من هذا — فهو مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله . وكان أبوه يشغل منصباً فى بلاط سعد بن زنجى أتابك شيراز ، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام ، الذى جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه . ويختلف العلماء فى تاريخ مولده ووفاته ، فنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٨٣(٤٩) ، ومنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٩١(٥٠) ، ومنهم من يحددهما بعامى ١١٩٣ ، ١٢٩١(٥١) . ومهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام . ويقول هو نفسه إنه كان فى صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين . . . تقياً إلى أبعد حدود التقوى ، عفيفاً أشد العفة(٥٢) . وبعد أن أتم علومه فى المدرسة النظامية ببغداد (١٢٢٦) ، بدأ رحلته العجيبة التى قضى فيها ثلاثين عاماً طاف فيها بجميع بلاد الشرق الأدنى والأوسط — الهند ، وبلاد الحبشة ، ومصر ، وشمالى إفريقية . وقاسى فيها كل أنواع الصعاب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان ، وقد قال عن نفسه

إنه كان يشكو الحفاء حتى التقى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه[٥٣] . وكشف وهو فى الهند عن جهاز فى صنم قيل عنه إنه يأتى بالمعجزات ، وقتل الدعى البرهمى المختفى فيه والذى كان هو إله ذلك الجهاز ، وهو يوصى فى شعره المتأخر المرح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين :

« فإذا اتفق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة ، فاقض من فورك على المحتال ، ولا تدعه يفلت منك ، بل عجل به ! لأنك إذا أبقيت على حياة هذا الوغد ، فلا تشك قط فى أنه لن يرحمك . . . ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجما بالحجارة ، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله ، لأن الموتى كما تعلم لا ينطقون[٥٤] » .

وحارب الصليبيين وأسره « الكفار » ، ثم افتدى ، فتزوج ابنة من افتداه ليعبر بذلك عن شكره لأبيها ، ولكنه تبين بعدئذ أنها سليطة لا تطاق ، وكتب عنها يقول « إن غدائر ذات الجمال قيد فى قدمى صاحب العقل » [٥٥]. ثم طلقها ولكنه التقى بغيرها من ذوات الغدائر ، وسلك نفسه فى سلسلة أخرى ؛ ولما ماتت زوجته الثانية ، آوى إلى صومعة فى حديقة بشيراز وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته .

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب ، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم ؛ ومن هذه الكتب البيرناما وهو كتاب فى الحكمة ، وديوان وهو مجموعة من القصائد القصار ، معظمهما باللغة الفارسية وبعضها بالعربية ؛ بعضها يفيض بالتقى ، وبعضها بالفحش ؛ ويشرح السعدى فى كتابه البستان فلسفته العامة بالشعر التعليمى الفلسفى ، تتخلله فى بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق .

لم أعرف فى حياتى أحلى من هذه اللحظات . وقلت لحبيبتى لما أن ضممتها إلى

صدري في تلك الليلة. ونظرت إلى عينيها بكاد يغلبهما النعاس : « أي حبيبتي يا غصن بان لقد آن أوان النوم . غنِ يا بلبلي ! وافتحي فاك كما تتفتح الوردة . اطردي النوم ، يا ملهبة قلبي ، ولتقدم لي شفتاك رحيق حبك » . ونظرت إليّ حبيبتي وهمست بصوت خافت : « أملهبة قلبك ؟ ومع هذا توقظني من نومي ؟ » .

. . . وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك . . . وكنت أنت تبتسم لأنك تعرف أنها كاذبة ، ولكن ماذا يهمك من هذا ؟ فهل شفتاها من أجله أقل حرارة وهما تحت شفتيك ؟ وهل كتفاها أقل نعومة وأنت تداعبهما بيديك ؟ . . . يقولون إن نسيم الربيع حلو جميل شبيه بشذى الورد وتغريد العندليب ، والمرج الأخضر ، والسماء الزرقاء . ويحك يا جاهل ! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيبتك[٥٦] .

والجلستان وحديقة الورد (١٢٥٨) مجموعة من القصص التعليمية تتخللها قصائد من الشعر المطرب الجميل :

سأل ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين : « أي شيء أفضل من الصلاة ؟ فأجابه الولي بقوله : « أفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار . فلا تؤذي أحداً من خلق الله حتى ذلك الوقت »[٥٧] .

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد ؛ ولكن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها[٥٨] .

إذا كنت تسعى إلى الغنى فلا تطلب المناعة[٥٩] .

إن رجل الدين الذي يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالجدول الضحل[٦٠] .

لم يعترف قط إنسان بجهله إلا من كان في مجلس وأخذ غيره يتحدث ، وقبل أن يتم حديثه يبدأ هو بالسؤال[٦١] .

لو كان فيك فضيلة واحدة وسبعون رذيلة لما رأى من يحبك غير فضيلتك الوحيدة[٦٢] .

لا تعجل ... وتعلّم الأناة . فإن الجواد العربى يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه ؛ أما الجمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنهار حتى يصل إلى آخر سفره[٦٣] .

حصّل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما ... فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم على فقده لأن علمه فى حد ذاته معين للثراء لا ينضب[٦٤]

إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب[٦٥]

لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول « أنا جاهل »[*][٦٦]

إن خفة البندقة لدليل على أنها فارغة[٦٧] .

وكان السعدى فيلسوفاً ، ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب فى وضوح ؛ وكانت فلسفته أصح وأسلم من فلسفة عمر الخيام ؛ فهى تفهم ما فى الإيمان من سلوى ، وتعرف كيف تداوى جراح المعرفة بما فى الحياة الحنونة من نعمة . ولقد قاسى السعدى كل ما فى ملهاة الحياة البشرية من مآس ، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام . ولقد كان السعدى شاعراً كما كان فيلسوفاً : كان مرهف الحس بكل أنواع الجمال الظاهر والمكنون ، الحسى منه والمعنوى ، من جسم المرأة الجميلة إلى النجم الذى يستأثر لحظة بالسماء وقت المساء ؛ وكان فى وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز ، ورقة ، وظرف . ولم يكن يعجز فى أية لحظة عن الإتيان بتشبيه نير جميل ، أو عبارة بليغة فاتنة . ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجوز[٦٨] « إنى كنت وصديقى كحبتين فى قشرة لوزة »[٦٩] ، « لو أن قرص الشمس كان فى جُبَّة » هذا التاجر البخيل « لما رأى إنسان

(*) قارن هذا بالسطور الأولى من كتاب ديكارت المسمى « أحاديث عن الطريقة Discourses on Method » حيث يقول : « إن الإدراك السليم هو أكثر الأشياء كلها توزيعاً بالقسطاس المستقيم بين الناس ، ذلك بأنه ما من أحد إلا يظن نفسه ذا حظ موفور منه ، وحتى الذين يصعب علينا أن نرضيهم بحظهم فى غيره من الأمور لا يرغبون عادة فى أكثر مما لديهم منه » .

ضوء النهار إلى يوم القيامة »[٧٠] . وقد ظل السعدى شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ما كان ينطق به من حكمة . وكان يسلم حكمته راضياً مغتبطاً إلى عبودية الحب :

لقد قدّر علىّ ألا أضم حبيبتى إلى صدرى

وألا أنسى بعدى الطويل فى قبلة أطبعها على شفتيها الحلوتين

وسأختلس منها ذلك الشراك الذى تقتنص به ضحاياها فى طول البلاد وعرضها حتى أستطيع أن أغريها بالمجىء إلى جانبى

ولكنى لن أجسر على أن أمس شعرها بيد مسرفة فى الجرأة

فكم فى هذا الشعر من قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور فى الأقفاص

أنا عبد لهذا القد المياس الذى يبدو فى نظرى كأنما قد فصلت عليه الرشاقة تفصيلا كما يفصل الخياط الثوب

يا شجرة السرو يا أطرافا من اللجين ، إن لونك ورائحتك قد فاقا رائحة الآس ونضرة الورد البرى

احكمى بناظريك وضعى قدمك فوق كل حر ونبيل

وامشى فوق الياسمين والأزهار

ولا تعجبى إذا أيقظت فى زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكى بينما الأزهار الصغيرة تبتسم ، وكل هذا يا حبيبتى من أجلك

وإذا ما وطئت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين ، فلا عجب إذا سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه

لم يبق مكان للحيرة فى بلدنا هذا أيام حكم مولانا المليك

سوى أنى جننت بحبك وجن الناس بفنائى فى حبك[٧١] ؟

الفصل السادس

علوم المسلمين

١٠٥٧ - ١٢٥٨

قسم العلماء المسلمون الشعوب فى العصور الوسطى طبقتين - طبقة الذين يعلمون وطبقة الذين لا يعلمون ؛ ووضعوا فى الطبقة الأولى الهنود ، والفرس ، والبابليين ، واليهود ، واليونان ، والمصريين ، والعرب ، أولئك فى اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله فى العالم ؛ أما الطبقة الثانية - وخير من تشملهم الصينيون والأتراك - ، فهى أشبه بالحيوان منها بالإنسان[٧٢] . وأكبر خطأ فى هـذا التقسيم هو وضع الصينيين فى الطبقة الثانية .

وحافظ المسلمون فى العصر الذى نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع فى العلوم ، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم فى علم الرياضة فى مراكش وأذربيجان ، ففيهما نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقى عظيم : ففى مدينة مراكش نشر حسن المراكشى فى عام ١٢٢٩ جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ، وجداول بجيوب التمام ، وجيوب الأقواس ، ومماسات الأقواس والأقواس المتماسة . وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسى أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلا بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة . وقد بقى كتابه المسمى شكل القطاع لا ينافسه منافس فى هذا الميدان حتى نشر رجيـو منتانس Regiomontanus كتابه المثلثات De Triangulis بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذى ظهر عند الصينيين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عربى النشأة[٧٣] .

وأشهر ما ظهر من الكتب فى العلوم الطبيعية فى ذلك العهد هو كتاب ميزان الحكمة الذى ألفه فى عام ١١٢٢ مولى يونانى من آسية الصغرى يدعى أبا الفتح . وفى هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة ، وقوانين الروافع ، وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الصلبة ، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شىء نحو مركز الأرض[٧٤] . وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقى التى كانت معروفة عند اليونان والرومان ، وشاهد الصليبيون هذه السواقى ترفع الماء من نهر العاصى فأدخلوها فى ألمانيا[٧٥] . وعلا شأن الكيميائيين ، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلثمائة طريقة لتضليل الناس[٧٦] ؛ ويقال إن أحد هؤلاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ينفقه فى البحوث العلمية ثم اختفى عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ثبتاً بأسماء المغفلين وعلى رأسهم نور الدين نفسه ، ووعد أن يضع اسم الكيميائى إذا رجع مكان اسم نور الدين ، ويبدو أن هذا المؤلف الظريف لم يمسسه أذى[٧٧] .

وفى عام ١٠٨١ صنع إبراهيم السهلى أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة فى التاريخ . وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها ٢٠٩ ملليمتر (٨١٫٥ بوصة) ؛ وحفر على سطحها ١٠١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها[٧٨] . وكانت خرلدة أشبيلة منارة ومرصداً فى وقت واحد ، وفيها قام جابر بأرصاده التى نشرها فى كتابه إصلاح المجسطى (١٢٤٠) . كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية فى مؤلفات أبى إسحق البطروجى القرطبى (المعروف عند علماء الغرب باسم البتراجيوس Alpetragius) والذى مهد السبيل لكوبرنيق بنقده الهدام لنظرية أفلاك التدوير والدوائر المختلفة المراكز وهى التى حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها .

وأنجب هذا العصر عالمين فى تقويم البلدان طبقت شهرتهما العالم كله فى العصور الوسطى ، ونعنى بهما الإدريسى وياقوت . فأما أبو عبد الله محمد الإدريسى فقد ولد فى سبتة عام ١١٠٠ وتلقى العلم فى قرطبة ، وكتب فى بلرم إجابة لطلب روجر الثانى ملك صقلية ، كتابه المسمى *كتاب روجارى*. وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ورسم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية ، وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط فى العصور الوسطى ، ولم ترسم قبلها خرائط أتم منها ، أو أدق ، أو أوسع وأعظم تفصيلا . وكان الإدريسى يجزم كما تجزم الكثرة الغالبة من العلماء المسلمين بكرية الأرض ، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها . ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية فى العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (١١٧٩ — ١٢٢٩) . وكان ياقوت بمولده يونانياً من سكان آسية الصغرى ، وأسر فى الحرب وبيع فى سوق الرقيق ، ولكن التاجر البغدادى الذى ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه ، ثم أعتقه . وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أولا للتجارة ، ثم سافر لدراسة الأرض وأهلها ، لأنه أعجب أشد الإعجاب ببلادها ، وسكانها المختلفى الأجناس ، وبلباسهم وأساليب حياتهم . وقد سره وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة فى مرو تحتوى إحداها على ١٢٫٠٠٠ مجلد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها مائتى كتاب إلى حجرته دفعة واحدة . وما من شك فى أن الذين يحبون الكتب ويرون أنها دم الحياة يجرى فى عروق عظماء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل . ثم انتقل ياقوت بعدئذ إلى خيوة وبلخ ، وهناك أوشك المغول أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب الفتاك ؛ ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب ، وهو محتفظ بمخطوطاته ، واجتاز بلاد الفرس إلى الموصل . وأتم وهو يعانى آلام الفاقة وشظف العيش أثناء عمله فى نسخ الكتب كتابه الشهير *معجم البلدان* (١٢٢٨)

— وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة فى العصور الوسطى . ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله فى هذه الموسوعة — من فلك ، وطبيعة ، وعلوم الآثار ، والجغرافية البشرية ، والتاريخ ؛ هذا إلى ما أثبته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض ، وأهميتها وحياة مشهورى أهلها وأعمالهم ، ولسنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم .

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدى المسلمين فى ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاوافراسطوس ؛ فقد وضع الإدريسى كتابا فى النباتات وصف فيه ثلثمائة وستين نوعا مختلفا منها ، ولم يقصر اهتمامه بها على الناحية الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية . وذاعت شهرة أبى العباس الإشبيلى (١٢١٦) لدراسته حياة أنواع النبات المختلفة التى تنمو بين المحيط الأطلنطى والبحر الأحمر . وجمع أبو محمد بن البيطار المالقى (١١٩٠—١٢٤٨) كل ما عرفه المسلمون فى علم النبات فى موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت هى المرجع المعترف به فى هذا العلم حتى القرن السادس عشر ، ورفعته إلى مقام أعظم علماء النبات والصيادلة فى العصور الوسطى[٧٩] . ومن أهم ما ظهر من الكتب فى العلوم الزراعية **كتاب الفلاحة** الذى وصف فيه مؤلفه ابن الأوان الإشبيلى أنواع التربة والسماد ، وطريقة زرع ٥٨٥ نوعا من أنواع النبات ، وخمسين نوعا من أشجار الفاكهة ، وشرح طرق التطعيم ، وبحث أعراض أمراض النبات وطرق علاجها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث فى علم الفلاحة فى العصور الوسطى جميعها[٨٠] .

وأنجب المسلمون فى هذا العصر ، كما أنجبوا فى غيره من العصور أعظم الأطباء فى آسية ، وإفريقية ، وأوربا . وكان أهم ما نبغوا فيه علم الرمد ، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار فى بلاد الشرق الأدنى ، ففى هذه البلاد كان الناس يبذلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها . وكان أطباء العيون يجرون

كثيراً من العمليات لإزالة إظلام العدسة (سادّة العين أو الكتركتا) . وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبى المحاسن الحلبى (١٢٥٦) بحذقه فى هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور(٨١) . ووضع ابن البيطار فى كتاب الجامع تاريخ الطب النباتى . فقد وصف فى هذا الكتاب ألفا وأربعمائة من أنواع النبات والأغذية ، والعقاقير ، ثلثمائة منها لم تكن معروفة من قبل ، وحلل تركيبها الكيميائى ، وخصائصها العلاجية ، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها فى علاج الأمراض . ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (١٠٩١ — ١١٦٢) الأشبيلى المعروف فى عالم الطب الغربى باسم أفنزور Avenzoar . وكان أبو مروان الثالث من ستة أجيال من أطباء ذائعى الصيت متصلى النسب ، كل منهم يحمل لواء الطب فى أيامه ، وقد ألف كتابه المسمى كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رشد (أعظم فلاسفة زمانه) الذى كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس . وكان أهم ما برع فيه ابن زهر هو الوصف الإكلينيكى ، وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزومية ، والتهاب التامور ، ودرن الأمعاء ، والشلل البلعومى(٨٢) . وكان للترجمتين العبرية واللاتينية لكتاب التيسير أعظم الأثر فى الطب الأوربى .

كذلك تزعم الإسلام العالم كله فى إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها . مثال ذلك أن البيمارستان الذى أنشأه نور الدين فى دمشق عام ١١٦٠ ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن ، ويقول المؤرخون إن نيرانه ظلت مشتعلة لا تنطفئ ٢٦٧ سنة (٨٣) . ولما وفد ابن جبير إلى بغداد فى عام ١١٨٤ دهش أيما دهشة من بيمارستانها العظم الذى كان يعلو كما تعلو القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة ، والذى كان يطعم المرضى ويمدهم

بالدواء من غير ثمن(٨٤)(*) . وفى القاهرة بدأ السلطان قلاون فى عام ١٢٨٥ تشييد بيمارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق ، فقد أقام فى داخل فضاء واسع مسور مربع مبانى أربعة يتوسطها فناء يزدان بالبواكى ، وتلطف حرارته الفساق والجداول . وكان يحتوى على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين ؛ ومعامل للتحليل ، وصيدلية ، وعيادات خارجية ، ومطابخ ، وحمامات ، ومكتبة ومسجد للصلاة ، وقاعة للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ، زودت بمناظر تسر العين . وكان المرضى يعالجون فيه من غير أجر رجالا كانوا أو نساء ، أغنياء أو فقراء ، أرقاء ، أو أحراراً ؛ وكان كل مريض يعطى عند خروجه منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لكسب قوته بعد خروجه منه مباشرة . وكان الذين ينتابهم الأرق يستمعون إلى موسيقى هادئة ، وقصاصين محترفين ، ويعطون فى بعض الأحيان كتباً تاريخية للقراءة(٨٥) . وكان فى جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين بالأمراض العقلية .

(*) يقول ابن جبير فى وصف هذا البيمارستان : « وهو على دجلة ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ؛ وبين أيديهم قوم يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ؛ وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » . (المترجم)

الفصل السابع

الغزالى والنهضة الدينية

وبينا كانت العلوم تسير قدماً فى طريق الرقى كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعلمة وإبقائها إلى جانبه ؛ وأدى النزاع الذى قام بين الدين والعلم إلى تشكك الكثيرين فى عقائد الدين ، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر . وقد قسم الغزالى المفكرين المسلمين ثلاث طوائف : كلها فى نظره كافرة وهى المؤلهة ، والربوبية (أو الطبيعية) ، والمادية . فأما المؤلهة فتؤمن بالله ، وبخلود الروح ولكنها تنكر الخلق وبعث الأجسام ، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير ؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها ؛ وأما المادية فترفض فكرة وجود الله إطلاقاً(*) . وقامت حركة أخرى على شىء من النظام هى حركة الدهرية ، وهؤلاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشىء ؛ وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة . ومن متبعى هذا المذهب إصبهان بن قرة الذى قال فى يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، فالإنسان كالحبة ينبت وينمو ثم يحصد لكى يفنى إلى أبد الدهر . . . ثم نصحه بأن يأكل ويشرب(٨٦) .

وكان رد الفعل الذى نتج من هذه الحركة المتشككة هو ظهور أبى حامد الغزالى أعظم علماء الدين المسلمين ، الذى جمع بين الفلسفة والدين ، فكان بذلك عند المسلمين ، كما كان أوغسطين وكانت عند الأوربيين . وولد أبو حامد الغزالى فى طوس عام ١٠٥٨ ، ومات أبوه فى صغره فكفله صديق له متصوف . ودرس الغلام الشريعة ، وعلوم الدين ، والفلسفة . ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

(*) لخص المؤلف هذا من المقدمة الثانية من كتاب تهافت الفلاسفة . (المترجم)

فى المدرسة النظامية الكبرى ببغداد ؛ وسرعان ما أعجب العالم الإسلامى بفصاحته ، وغزارة علمه ، وبراعته فى الجدل . وبعد أن قضى فى هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الآفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم ؛ وكان شلل لسانه يشوه منطقه فى بعض الأحيان ، ثم بدأت قواه العقلية تنهار . وشخص طبيب ماهر مرضه بأنه فى الأصل مرض عقلى . ولقد أقر الغزالى فى ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامى ، وأنه لم يكن يطيق ما فى دروسه الدينية من نفاق . وغادر الرجل بغداد فى عام ١٠٩٤ يريد الحج إلى بيت الله فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة كان يريد اعتزال الناس ، وينشد الوحدة والصمت ، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل. ولما عجز عن أن يجد فى العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعى ، انقلب من التفكير فى العالم الخارجى إلى تأمل العالم الداخلى ؛ معتقداً أنه سيجد فى هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهى القاعدة الثابتة الأكيدة للإيمان بعالم الروح . وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات — وهو عماد النزعة المادية وأساسها ؛ وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً عن الأرض ، وإلا لتعذرت رؤيتها من بعدها الشاسع ؛ واستخلص من هذا المثال ومن مئات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثوقاً به موصلا إلى الحقيقة . وأما العقل فهو فى رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إليها عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى ، ولكنه هو الآخر يعتمد فى النهاية على الحواس نفسها . فهل عند الإنسان نوع من المعرفة ، يهديه إلى الحقيقة ، أصدق من العقل وأوكد ؟ وأحس الغزالى بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة فى تأمل الصوفية الباطنى : فالصوفى يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف ؛ وأرقى أنواع المعرفة هو التأمل فى معجزة العقل حتى يظهر

الله للمتامل من داخل نفسه ، وحتى تختفي النفس ذاتها في رؤية الواحد(٨٧) .

وبهذه النزعة وهذا المزاج كتب الغزالى أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعنى به كتاب تهافت الفلاسفة واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل ، فاستخدم الصوفى المسلم الجدل الفلسفى الذى لايقل دقة عن جدل كانت Kant ليثبت أن العقل يؤدى بالإنسان إلى التشكك فى كل شىء ، وإلى الإفلاس الذهنى ، والانحطاط الخلقى ، والتدهور الاجتماعى . وأنزل الغزالى العقل — قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون — إلى مبدأ العلية ، وأنزل مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع ا على الدوام ولا ندرك أن ا هى علة ب . ومن أقواله أن الفلسفة ، والمنطق ، والعلوم لاتستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام المباشر هو وحده الذى يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لاقيام بغيرهما لأى نظام أخلاقى ، وهو النظام الذى لاقيام لأية حضارة إلا به(٨٨) .

وعاد الغزالى فى آخر الامر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية السليمة جميعها ، وعاد إليه كل ماكان يساوره فى شبابه من مخاوف وآمال ، وجهر بأنه يحس بعينى إله قوى قاهر قريبتين من رأسه تتوعدانه وتنذرانه ، وأخذ ينذر الناس من جديد بأهوال الجحيم ويؤكد أن دعوته هذه لا غنى عنها لتقويم أخلاق العامة(٨٩) ، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء به القرآن والحديث ، وقد شرح فى كتابه إحياء علوم الدين هذه العودة إلى عقائده الأولى ، ودافع عنها بكل ما كان له فى شبابه من قوة وحماسة أصبح بهما أقوى عدو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله عدواً أشد منه عنفاً . ولما توفى فى عام ١١١١ كانت موجة الإلحاد قد ردت على أعقابها ، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين ، بل إن رجال الدين المسيحيين أنفسهم قد أثلج صدورهم ما وجدوه فى كتبه ، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، من دفاع حار عن

الدين ، وعرض بليغ لقواعد التقى والصلاح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين . واختفت الفلسفة منذ أيامه ، بالرغم من ظهور ابن رشد ، فى أقصى أركان العالم الإسلامى ، وضعفت البحوث العلمية ، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم موضع اهتمام العقول الإسلامية وشغلها الشاغل(*) .

وكان اعتناق الغزالى لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية ، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين . نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا فى عالم الدين والشريعة ، ولكن ميدان التفكير الدينى استسلم لمشايخ الطرق وأولياء الله الصالحين . ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيس فى المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك فى العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد أخذ الزهاد المتصوفة يهجرون الحياة العائلية ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش ، وثانيهما لفظ فارسى معناه السائل . وكان هؤلاء يسعون بطرق مختلفة إلى التسامى بأرواحهم ليرتفعوا بها إلى الفناء فى روح الله فيستطيعوا بذلك الإتيان بعجائب الأعمال : فمنهم من كانت وسيلته إلى هذا التسامى هى الصلاة والتأمل ، ومنهم من كانت سبيله إليها النشوة التى تعقب الأذكار العنيفة .

وقد صيغت نظريات الصوفية فى المائة والخمسين من الكتب التى ألفها محيى الدين بن العربى (١١٦٥ — ١٢٤٠) — وهو مسلم أندلسى أقام فى دمشق . ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الخارجى لما هو فى حقيقته الداخلية الله نفسه ، والجحيم مقام موقت ، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر ، والحب يخطئ إذا كان هو حب المظهر الجسمى الزائل ، لأن الله هو الذى يظهر فى صورة

(*) لا شك فى أن هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

المحبوب ، والمحب الصادق يجد فى أية صورة جميلة باعث الجمال كله ويعشقه . ولعل محيي الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام چيروم فأخذ يعلم الناس أن « من أحب وعف ثم مات مات شهيداً » ، ووصل إلى أسمى درجات الصلاح والورع . وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم يحبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم(٩٠) .

وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من العطايا ، ورضيت أن تستمتع بطيبات الحياة . وقد شكا من ذلك أحد شيوخ الشام حوالى عام ١٢٥٠ فقال إن الصوفية كانوا من قبل إخوة مختلفين فى الجسم ولكنهم متحدون فى الروح ، أما الآن فهم طائفة تكتسى أجسامها بالثياب الحسنة ولكن سرائرها ممزقة خلقة . وكان الناس يبتسمون لهؤلاء الذين جمعوا بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم ، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء المخلصين الصادقين ، ويعزون إليهم قوى وأفعالا غير عادية ، ويحتفلون بموالدهم ، ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، ويزورون قبورهم . ذلك أن الإسلام كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر لهما أن يعودا إلى هذا العالم(*) .

ولما انتصر أهل السنة على هذا النحو ضعفت روح التسامح الدينى ، وعادت إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التى يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب . فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيابهم بخطوط صفراء ، وحرم عليهم أن يركبوا الخيل ، وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال ، ولم يسمح لهم بإنشاء كنائس أو معابد

(*) ليست العقائد الدينية الأساسية هى التى تتطور وتتبدل على مر الأيام بل الذى يتطور هو ما لا يمس صميم الدين كالتشريع وأمثاله . وهناك أفعال ليست من الدين فى شىء وبعضها مخالف له وإن أتاها بعض المسلمين ومنها الحج إلى مقابر الأولياء والتبرك بهم والتشفع بهم عند الله وهو ما لا يقره الدين . (المترجم)

جديدة وإن أجيز لهم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يُظهروا الصليب في خارج الكنائس ، أو يدقوا نواقيسها ؛ ولم يكن أبناء غير المسلمين يقبلون في المدارس الإسلامية ، ولكن كان في وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة بهم . كان هذا كله هو ما يجب اتباعه من الوجهة النظرية ، ولكنه لم يكن ينفذ على الدوام . ولا تزال هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية وإن لم تكن هي المعمول بها على الدوام[٩٢](*) . ومع هذا فقد كان في بغداد وحدها في القرن العاشر ٤٥٫٠٠٠ مسيحي[٩٣] ، وكانت جنائز المسيحيين تسير في الشوارع دون أن يتعرض لها أحد[٩٤] ؛ وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحيين واليهود في المناصب العليا ؛ ولقد كان صلاح الدين ، في سورة الحروب الصليبية وحدتها وما أوجدته في النفوس من أحقاد ، كريماً رحيماً بمن في دولته من المسيحيين .

---

(١) لا ندري من أين جاء الكاتب بقوله إن هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية ، فلسنا نعلم أن الشريعة تنص على هذا ؛ ولعل بعض هذه القيود قد وضعت على غير المسلمين في بعض العهود ، وضعها بعض الملوك أو الأمراء ، ولكنها لم تكن قاعدة متبعة ، وليست من الدين في شيء . وحسبنا ما قاله المؤلف نفسه بعد هذا دليلا على تسامح المسلمين في أقرب العهود إلى نشأة الإسلام . (المترجم)

الفصل الثامن

ابن رشـــد

عاشت الفلسفة وقتاً ما فى أسبانيا الإسلامية بما كانت تبثه بحكمة وحذر من الآراء التى تتفق مع الدين بين محاولات النقد الهين غير العنيف ؛ وقد وجد الفكر شيئاً من الحرية المزعزعة فى بلاط الأمراء الذين كانوا يستمتعون سراً بالبحوث التى يرونها ضارة بعامة الشعب. ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذى ولد فى تلك المدينة حوالى عام ١١٠٦ ليكون وزيراً له. وكان ابن باجة ، أو أفمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد ، قد بلغ ، وهو لا يزال فى شبابه ، مرتبة عليا غير عادية فى العلوم الطبيعية ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى ، والشعر ؛ ويقول ابن خلدون إن الأمير أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب ؛ وخشى ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود الذهبية فى كلا حذاءيه . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى المسيحيين ، فر الوزير — العالم — الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معدماً بين مسلمين يتهمونه بالكفر، ومات ابن باجة فى سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات . وتعدّ رسالته فى الموسيقى التى لم نقف لها على أثر خير ما كتب فى هذا الموضوع الدقيق فى الآداب الإسلامية فى الغرب . وأشهر مؤلفاته كلها كتاب *مرشد الحيران* الذى جدد فيه البحث فى أحد الموضوعات الأساسية فى الفلسفة الإسلامية . فقد قال ابن باجة إن العقل البشرى يتكون من جزأين : العقل المادى الذى يتصل بالجسم ويموت بموته ؛ والعقل الفعّال أو العقل الكونى غير البشرى الذى يوجد فى الناس كلهم ، وهو وحده الذى

لا يموت بموتهم . والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان ، وبالتفكير وحده ، لا بالنشوة الصوفية ، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله . ولكن التفكير مغامرة خطيرة ، إلا إذا كانت فى صمت . والرجل العاقل يعيش فى عزلة هادئة ، بعيداً عن الأطباء ، ورجال القانون ، والناس أجمعين ؛ أو لعل عدداً قليلا من الفلاسفة يؤلفون فيما بينهم جماعة تسعى مجتمعة لطلب المعرفة فى رفق وتسامح بعيدة عن صخب الشعب وجنونه[٩٥] .

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو باسر Abubacer عند الأوربيين) (١١٠٧ ؟ — ١١٨٥) أفكار ابن باجة ، وكاد يحقق مثله العليا . وكان هو الآخر عالما ، وشاعراً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ؛ وكان وزيراً وطبيباً للخليفة أبى يعقوب يوسف فى مدينة مراكش عاصمة الموحدين . وقد استطاع أن يقضى معظم ساعات يقظته فى المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشئون الحكم متسعاً من الوقت كتب فيه ، من بين الكتب الفنية العميقة ، أعظم قصة فلسفية فى أدب العصور الوسطى . وقد أخذ ابن طفيل عنوان قصته من ابن سينا ولعلها هى التى أوحت إلى دفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو Robinson Crusse (بعد أن ترجمها أكلى Ockley إلى الإنجليزية فى عام ١٧٠٨) .

وخلاصة القصة أن حى بن يقظان ، الذى سميت القصة باسمه ألقى وهو طفل فى جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عنزة ؛ وشب الفتى متوقد الذكاء عظيم المهارة ، فكان يصنع حذاءيه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرّح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل فى هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم الأحياء[٩٦] . ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ، وأثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شىء ، ثم عاش معيشة الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، واستطاع أن يتصل اتصالا روحيا

بالعقل الفعال(٩٧) . وأصبح حي بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس . وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال استطاع في سعيه إلى الوحدة أن يلتقى بنفسه على الجزيرة ، فالتقى بحى ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بنى الإنسان . وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر لحى بما فى عقائد الناس الدينية فى الأرض التى جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة ، وما أنذروا به عن عقاب النار . واعتزم حى أن يغادر جزيرته ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة . فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم فى السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعى إلا إذا مزج الدين بالأساطير ، والمعجزات ، والمراسيم ، والعقاب والثواب الإلهيين . ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديعة والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات .

وقدم ابن طفيل إلى أبى يعقوب يوسف حوالى عام ١١٥٣ شاباً قاضياً وطبيباً يعرفه المسلمون باسم أبى الوليد محمد بن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) ويعرفه الأوربيون فى العصور الوسطى باسم أفروس (Averroës) ، أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً فى العقول . ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود فى بنى الإنسان . وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة فى قرطبة ، وقد هيأ له من التعليم كل ما تستطيع أن تهيئه له هذه العاصمة القديمة . ونقل إلينا أحد تلاميذه هـــذه الفقرة التى يقولون إنها هى التى وصف بها ابن رشد نفسُه أول لقاء له بالأمير فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلا ابن طفيل ، وأخذ ابن

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح . . . وبدأ الأمير حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه فى السموات ، هل هى أزلية أو أن لها بداية ؟ فارتاع الفيلسوف الملك واضطرب ، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة . وأدرك الأمير ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه فى الموضوع ، ويعيد على مسامعه آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض ؛ لا يرجع فى شيء من هذا إلا إلى ذاكرته بما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته . وطمأن الأمير الفيلسوف وامتحن علمه ، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشيء من المال ، وبجواد ، وحلة غالية الثمن[٩٨] .

وعين ابن رشد فى عام ١١٦٩ قاضيا للقضاة فى إشبيلية وفى عام ١١٧٢ قاضياً للقضاة فى قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنين من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور . وفى عام ١١٩٤ نفى ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آرائه . ثم عفى عنه وعاد إلى مراكش فى عام ١١٩٨ ولكن المنية عاجلته فى العام التالى ، ولا يزال قبره حتى الآن قائماً فى تلك المدينة .

وكاد كتابه فى الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة فى الفلسفة ؛ ولكنه كان فى الحقيقة من أعظم أطباء زمانه ، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال إن من يمرض بالجدرى يكتسب الحصانة من هذا الداء[٩٩] . وكانت موسوعته الطبية المسماة **كتاب الكليات فى الطب** بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار فى الجامعات المسيحية . وأبدى الأمير أبو يعقوب فى ذلك الوقت رغبته فى أن يكتب له أحد العلماء شرحا واضحا لآراء أرسطو ، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد . ورحب الفيلسوف بهذا الاقتراح ، لأنه كان يرى أن الفلسفة كلها قد اجتمعت فى آراء الفيلسوف اليونانى ، وأن كل ما تحتاجه

لكي تصبح موائمة لكل زمان هو أن تشرح وتفسر(*) . واعتزم ابن رشد أن يعد لكل كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة فى أول الأمر ، ثم شرحا لها موجزاً أيضاً ، ثم شرحا مطولا للطلبة المتقدمين فى الدرس — وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة فى الصعوبة مألوفة فى الجامعات الإسلامية . ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية ، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعتماد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو ؛ ولكن صبره ، وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته فى أوربا كلها وأكسبته اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه فى المنزلة إلا ابن سينا العظيم .

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو فى المنطق ، والطبيعة ، وعلم النفس ، وما بعد الطبيعة ، والفقه ، والشريعة ، والفلك ، والنحو ، وردًّا على تهافت الفلاسفة للغزالى سماه تهافت التهافت . وهو يقول كما قال فرانسس بيكن من بعده إن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان إلى المروق من الدين ، ولكن الدرس الواسع يؤدى إلى الائتلاف بين الفلسفة والدين . ذلك أن الفيلسوف ، وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن ، والتوراة ، وغيرهما من الكتب المنزلة(١٠٠) بمعناها الحرفى ، يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة والأخلاق السليمة فى عقول الناس ؛ الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفى لغير التفكير العارض ، السطحى ، الخطر فى مبادئ الأشياء وأواخرها . ومن ثم فإن الفيلسوف الناجح لا ينطق بلفظ أو يشجع لفظا يعارض الدين(١٠١) ؛ ومن حق الفيلسوف فى مقابل هذا أن يترك حرا يسعى وراء الحقيقة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحصر مناقشاته فى دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعمد

(*) وأبدى سنتيانا Santayana فى كتابه حياة العقل The Life of Reason هذا الرأى نفسه .

إلى الدعاوة لآرائه بين العامة[١٠٢] . وهو يرى أن العقائد الدينية إذا فسرت تفسيراً رمزياً تتفق مع ما يكشف عنه العلم والفلسفة[١٠٣] . ولقد ظل هذا التفسير الرمزى للنصوص المقدسة المبنى على الاستعارة والتشبيه سنة متبعة حتى عند رجال الدين أنفسهم مئات السنين . وابن وشد لا يقول صراحة بالنظرية التى يعزوها إليه النقاد المسيحيون وهى أن قضية من القضايا قد تكون صادقة فى الفلسفة (بين المتعلمين) ، ولكنها قد تكون خاطئة (مضرة) فى الدين (والأخلاق)[١٠٤] ؛ وإن كانت تعاليمه تتضمن هذا المعنى . ومن أجل هذا وجب ألا يبحث عن آراء ابن رشد فى رسائله الصغرى التى وضعها لجمهور الطلاب ، بل فى شروحه لأرسطو التى هى أكثر عمقاً وأصعب فهماً من الرسائل السالفة الذكر .

وهو يفسر الفلسفة بأنها البحث فى معنى الوجود بقصد إصلاح شأن الإنسان[١٠٥] ويقول إن العالم أزلى ، وإن حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية ؛ وإن القول بالخلق خرافة ، فالقائلون بالخلق يدعون أن الله ينشىء كائناً (جديداً) من غير أن يحتاج فى إنشائه إلى مادة موجودة من قبل . . . وهذا التصور هو الذى جعل علماء الأديان الثلاثة القائمة فى هذه الأيام يقولون إن الشيء قد ينشأ من لا شيء[١٠٦] . . . والحركة أزلية ودائمة ، وكل حركة تنشأ من حركة أخرى قبلها . وبغير الحركة لا يكون زمن وليس فى وسعنا أن نتصور حركة ذات بداية أو نهاية[١٠٧] .

ولكنه مع هذا يقول إن الله هو خالق العالم ، ويعنى بهذا القول أن العالم موجود فى أى وقت من الأوقات بقوة الله الحافظة ، وإنه يمر فى كل لحظة بعملية خلق مستمرة بقدرة الله الفعالة[١٠٨] ؛ فالله هو نظام الكون ، وقوته وعقله .

ومن هذا النظام الأعلى والعقل الكلى يكون نظام الأفلاك والنجوم وعقلها المحرك . ومن عقل أدنى الأفلاك السماوية (فلك القمر) يأتى العقل الفعال الذى يدخل فى جسم الإنسان المفرد وعقله . والعقل الإنسانى مكون من عنصرين

أحدهما العقل القابل أو المادى وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية ، وهذا العقل جزء من الجسم يفنى بفنائه (الجهاز العصبى ؟) ، والثانى هو العقل الفعال ، المستمد من الله ، . وهو الذى يبعث العقل القابل على التفكير الفعلى . وهذا العقل الفعال لا يختلف فى فرد عنه فى آخر ؛ بل هو سواء فى الناس كلهم ، وهو وحده الخالد الذى لا يفنى[١٠٩] . ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال فى الفرد أو فى العقل القابل بتأثير الشمس التى يجعل ضوؤها كثيراً من الأجسام نيرة ، ولكنه يبقى فى كل مكان ، ويظل على الدوام كما كان[١١٠] . ويسعى العقل الفردى للاتحاد مع العقل الفعال ، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق . وبهذا الاتصال يصبح العقل البشرى شبيهاً بالله ، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة فى فكره ؛ والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا ، وليس له معنى ، إلا عن طريق العقل الذى يدركه[١١١] . وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذى يؤدى بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذى يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفسانى على الزهد أو بالنشوة التى تحدث بالأذكار . وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخفية ، ويرى أن الجنة ليست إلا ما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفوس[١١٢] .

وهذه هى النتيجة التى وصل إليها أرسطو نفسه ، ولا حاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nouspathetikos ncus poietikos) مرجعها كتاب النفس لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة) ، كما فسرها الإسكندر الأفروديسى ، وثامسطيوس الإسكندرى ، وهى التى استحالت إلى نظرية الفيض emanation التى تقول بها الأفلاطونية الحديثة والتى انتقلت إلينا عن طريق الفارابى وابن سينا وابن باجة ، وأصبحت هذه الفلسفة العربية فى نهايتها كما كانت فى بدايتها هى فلسفة أرسطو استحالت إلى أفلاطونية جديدة ؛ ولكن

بينا كانت عقائد أرسطو قد عدلت وحورت على أيدى معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفى بحاجات الدين ، فإن العقائد الإسلامية قد أنقصت على يدى ابن رشد إلى أقل قدر حتى يوفق بينها وبين آراء أرسطو . ومن أجل هذا كان أثر ابن رشد فى المسيحية أعظم منه فى بلاد الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه من المسلمين ، ونسيه من جاء بعده منهم ، وتركوا معظم كتبه تضيع أصولها العربية ؛ ولكن اليهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية . وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة . أما فى العالم المسيحى فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلى اللاتينيــة كانت من أكبر البواعث على نزعة ســيجر ده برابانت Siger de Brabant الإلحادية ، ونزعة مدرسة بدوا Padua العقلية ، وكانت خطراً يهدد أساس العقيدة المسيحية . وأراد تومس أكويناس أن يرد هذا التيار الذى بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض ، ولكنه سار على الطريقة التى اتبعها ابن رشد فى شروحه وفى كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو ، وفى قوله إن المادة هى منشأ الفروق بين الكائنات ، وفى تفسيره الرمزى للنصوص الخاصة بالتجسيد فى الكتاب المقدس ، وفى قبوله الفكرة القائلة إن العالم قد يكون أزلياً ، وفى رفضه التصوف أساساً كافياً للدين ، وفى اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل ، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان[١١٣] . وقد وضع روچر بيكن ابن رشد فى المرتبة الثانية بعد أرسطو وابن سينا ، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التى هى من خصائصه « تحظى فلسفة ابن رشد فى هذه الأيام (حوالى عام ١٣٧٠) بقبول جميع العقلاء »[١١٤] ؛

و عام ١١٥٠ أمر الخليفة المستنجد فى بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية . وفى عام ١١٩٤ أصدر الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور وكان وقتئذ فى إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد إلا عدداً قليلا منها

فى التاريخ الطبيعى ، وحرم على رعاياه دراسة الفلسفة ، وحثهم على أن يلقوا فى النار جميع كتبها أينما وجدت . . وبادر العامة إلى تنفيذ هذه الأوامر ، وكان يسوؤهم ويحز فى نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذى كان عند بعضهم أعز سلوى لهم فى حياتهم المضنية النكدة . وفى هذا الوقت بالذات أعدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة(١١٥) ، وأعرض الإسلام بعد عام ١٢٠٠ عن كل تفكير نظرى . ولما أن ضعفت القوة العباسية فى العالم الإسلامى ، أخذت تتجه اتجاهاً متزايداً نحو طلب المعونة من رجال الدين والفقهاء من أهل السنة . وأمدها هؤلاء بما تحتاجه من هذه القوة ، نظير كبتها للتفكير الحر المستقل . ومع هذا كله فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة . ففى أسبانيا كان المسيحيون يتقدمون من بلد إلى بلد ، حتى لم يبق للمسلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وفى عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ودمروها تدميراً .

الفصل التاسع

غارة المغـــول

١٢١٩ — ١٢٥٨

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغرى الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة(*) . وكان السلاجقة قد بعثوا فى بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة ، ولكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعيم ، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين مستقلتين ذواتى حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية . وكان التعصب الدينى والعداء العنصرى قد قسما الشعب أقساما شديدة التباغض والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصليبيين .

وفى هذه الأثناء كان المغول الضاربون فى شمالى آسية الغربى يزداد عديدهم لقوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعابه . وكانوا يعيشون فى الخيام أو فى العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراع جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها . وكان أولئك الهون الجدد ، كما كان بنو جنسهم منذ ثمانية قرون ، بارعين فى استعمال الخناجر ، والسيوف ، والسهام يطلقونها من فوق جيادهم التى تسابق الريح . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم چيوڤنى ده بيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini المبشر المسيحى ، فإن هؤلاء الأقوام كانوا « يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه »(١١٦) ، ولم يكونوا يشمئزون من أكل الفئران ، والقطط ، والكلاب ، ودم الآدميين ، أكثر من اشمئزاز أعظم الناس ثقافة فى هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية . ونظم چنكيز خان — أى الملك

(*) انظر مقدمة ابن خلدون فى هذا المعنى . (المترجم)

العظيم — أولئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس ، وقادهم لفتح أواسط آسية الممتدة من نهر الفلجا إلى سور الصين العظيم . وبينما كان چنكيز خان غائباً عن حاضرة ملكه فى كركورم خرج عليه زعيم مغولى ، وعقد حلفا مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة . وقمع چنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله ، ولكن نائبه فى أترار Otrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرين من المغول فيما وراء نهر جيحون ، وطلب چنكيز خان أن يسلم إليه الوالى لمحاكمته ، فرفض محمد هذا الطلب ، وقتل رئيس البعثة المغولية ، ورد بقية أعضائها محلوقى اللحى ، فلم يكن من چنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (١٢١٩) .

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجى ابن الخان جيش محمد البالغ أربعمائة ألف جندى عند جند ، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك ١٦٠٫٠٠٠ من رجاله قتلى فى ساحة الوغى . وتقدم جيش مغولى آخر بقيادة چچتاى ابن الخان نحو أترار واستولى عليها ونهبها ، وسار جيش ثالث بقيادة الخان نفسه إلى بخارى وحرقها عن آخرها ، وسبى آلافاً من نسائها ، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها . واستسلمت له سمرقند وبلخ حين وصل إلى أبوابهما ولكنهما لم تنجوا من النهب والمذابح العامة ؛ وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت ووصفها بأن أكثرها لا يزال خرائب ينعق فيها البوم . وزحف تولوى بن چنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم — من أمامهم أو قتلهم من خلفهم . وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هـذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلاثة

عشر يوما هلك فيها ٠٠٠ر٣٠٠ر١ نسمة[١١٧] . وقاومت نيسابور الغزاة ببسالة زمناً طويلا ، فلما استسلمت آخر الأمر (١٢٢١) قتل كل من فيها من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ما عدا أربعمائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رؤوس القتلى فى كومة مروعة ؛ وخربت كذلك مدينة الرى الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف ، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين المسلمين[١١٨] . وجمع ابن الشاه محمد جيشاً جديداً من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر إلى دهلى . ولما خرجت هراة على واليها المغولى كان جزاؤها ذبح ستين ألفا من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب فى قلوبهم ، وإرهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا فى الخروج عليهم . ونجحت هذه الخطة .

وعاد چنكيز خان بعدئذ إلى بلاده ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسمائة ، ومات فى فراشه . وسير ابنه وخليفته أجتاى جيشا من ٠٠٠ر٣٠٠ للقبض على جلال الدين ، وكان قد جيش جيشا جديداً فى ديار بكر . وهزم جلال الدين وقتل ، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا فساداً فى أذربيجان ، وبلاد النهرين ، والكرج ، وأرمينية (١٢٣٤) . وسمع المغول أن فتنة قامت فى إيران بقيادة الحشاشين ، فزحف هولاكو حفيد چنكيز خان بجيش مغولى اخترق به سمرقند ، وبلخ ، ودمر حصن الحشاشين فى ألموت وولى وجهه شطر بغداد .

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فى المشرق من جلة العلماء ، وكبار الخطاطين ، وكان مثال الرقة ودماثة الأخلاق ، شديد الاهتمام بأمور الدين ، وبالكتب ، والصدقات : وكل هذه أمور لا تتفق مع ذوق هولاكو . واتهم المغول الخليفة بأنه يتستر على العصاة ، ويمنع ما وعد به من المساعدة على الحشاشين ، وطلب إلى الخليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع . ورفض المتعصم هذه الطلبات بإباء وكبرياء ، وحاصر المغول بغداد ، وأرسل الخليفة إلى هولاكو بعد شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح ؛ وخدع بما وعد به من الرحمة فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول ، ودخل هولاكو وجنوده بغداد فى الثالث عشر من فبراير عام ١٢٥٨ ، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوما كاملة ، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض المؤرخين . وهلك فى هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب ، والعلماء ، والشعراء ، ونهبت أو دمرت فى أسبوع واحد المكاتب والكنوز التى أنفقت فى جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن مخابئ ثرواتهم ، ثم قتلوا[١١٩] . وهكذا قضى على الخلافة العباسية فى آسية .

ثم عاد هولاكو إلى منغوليا ، وبقى جيشه وراءه ، يتقدم لفتح الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت بجيش مصرى يقوده قطز وبيبرس من أمراء المماليك (١٢٦٠) . وزفت البشرى إلى كل مكان فى بلاد الإسلام وفى أوربا نفسها ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد حل الطلسم وذهب الروع ؛ ذلك لأن معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣ وكانت عاقبتها أن هزم المغول ، ونجت بلاد الشام للمماليك ، ولعلها أيضا احتفظت للمسيحية بأوربا .

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات فى التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائى ما عانته الحضارة الإسلامية على أيدى المغول . لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان ، وكان فى استطاعة بلاد الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتى بعدها ، وكان الفاتحون الجرمان يكنون فى قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التى يعملون على تدميرها ، ومنهم من حاول المحافظة عليها . أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا فى

أربعين عاما لا أكثر ، ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا ، وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا . ولما ارتد تيار فتوحهم الدموى خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً ، وقنوات للرى مطمورة ، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تذروه الرياح ، وحكومات منقسمة على نفسها ، معدمة ، ضعيفة ، لاتقوى على حكم البلاد ، وسكاناً هلك نصفهم ، وتحطمت نفوسهم . واجتمع الانغماس الأبيقورى فى الملذات ، والهزال الجسمى والعقلى ، وخور العزيمة والعجز الحربى ، والانقسام الدينى والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية ، والفساد السياسى والفوضى الشاملة ، اجتمعت هذه العوامل كلها وائتلفت لتحطيم كل شىء فى الدولة قبل الغزو الخارجى . لقد كان هذا كله – لاتبدل المناخ ، هو الذى بدل آسية الغربية من زعامتها على العالم فقراً مدقعاً ، وخرابا شاملا . وأحل محل مئات المدن العامرة المثقفة فى الشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والقفقاس ، والتركستان ما تعانيه فى الوقت الحاضر من فقر ، ومرض ، وركود(*) .

(*) لقد أخذت تلك البلاد تنفض عن كاهلها ما كانت تعانيه من الفقر والمرض والركود ، وشرعت تعمل بجد وعزيمة لاستعادة مجدها الغابر الذى أراد هؤلاء الغزاة المتوحشون أن يقضوا عليه . وفى بلاد آسية الغربية فى الوقت الحاضر نهضة قوية مباركة فى جميع المرافق الحيوية تبشر بأن هذه البلاد ستستعيد عما قريب ما كان لها من منزلة سامية فى تلك الأيام الخالية . ولقد استطاعت فى وقت قصير أن تحقق الشىء الكثير من أسباب الرقى وأن ترفع عن كاهلها ما كان يطوقها به الاستعمار البغيض من قيود ، ويقيننا أنه لولا هذا الاستعمار لكانت خطاها فى هذه السبيل أوسع وأثبت . (المترجم)

الفصل العاشر

الإسلام والعالم المسيحى

إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى فى التاريخ. لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله فى القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفى ارتفاع مستوى الحياة ، وفى التشريع الإنسانى الرحيم ، والتسامح الدينى ، والآداب ، والبحث العلمى ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة . وفى العمارة أسلم مكانته الأولى فى القرن الثانى عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية ، ولم يجد فن النحت القوطى منافساً له فى بلاد الإسلام التى كانت تحرم صنع التماثيل . أما الفن الإسلامى فقد أفنى قوته فى الزخرفة ، وعانى الشىء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة ؛ ولكنه فى داخل هذا النطاق الذى فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه . وكان الفن والثقافة فى بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى ؛ فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين ، وتجاراً ، وكانوا كالأطباء ، وكان فى مقدورهم أن يكونوا فلاسفة .

ويغلب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية فى خلال تلك القرون ، وإن لم يكن فى كليهما حظ لمختار . غير أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الاقتصار على زوجة واحدة فى البلاد المسيحية ، مهما بلغ من عدم التقيد بهذه العادة من الناحية العملية ، فقد أبقى الغريزة الجنسية فى نطاق محدود ، ورفع منزلة المرأة رفعاً بطيئاً ، فى حين أن الإسلام قد أخفى وجه المرأة بالحجاب والقناع . (ولقد أفلحت الكنيسة فى تقييد الطلاق ، ويبدو أن اللواط لم يبلغ فى البلاد المسيحية ، ومنها إيطاليا فى عهد النهضة ، ما بلغه من الحرية

والانتشار – حاشاً أن نقول في الإسلام ، بل نقول في حياة المسلمين . غير أن المسلمين ، كما يلوح ، كانوا رجالا أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا فى تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عند ما استولوا على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ . ولقد ظل القانون المسيحى يستخدم طريقة التحكيم الإلهى بالقتال أو الماء ، أو النار ؛ فى الوقت الذى كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنيرون . واحتفظ الدين الإسلامى ، وهو أقل غموضاً فى عقائده من الدين المسيحى ، بشعائره أبسط ، وأنقى ، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحى ، وأقل منه قبولا لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك . وهو شبيه بالمذهب البروتستنتى فى احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لها من عنان ؛ (ولكنه يستسلم للنزعة الجنسية فى تصويره الجنة)(*) . وقد ظل هذا الدين بعيداً كل البعد تقريباً عن النظم الكهنوتية ، ولكنه قيد العقل فى الوقت الذى كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية .

ويكاد تأثير العالم المسيحى فى الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب . فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامى من نماذج مسيحية ، ومن الرهبنة ، وعبادة القديسين . ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت فى الشعر والفن الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير(١٢٠) .

أما العالم الإسلامى فقد كان له فى العالم المسيحى أثر بالغ مختلف الأنواع . لقد تلقت أوربا من بلاد الإسلام الطعام ، والشراب ، والعقاقير ، والأدوية ،

(*) لقد قال المؤلف من قبل ، نقلا عن بعض الفلاسفة ، إن ما ورد فى وصف الجنة من متع جسمية يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل على أنه تقريب للمتع الروحية من أذهان الناس . (المترجم).

والأسلحة . وشارات الدروع ونقوشها ، والدوافع الفنية ، والتحف ، والمصنوعات ، والسع التجارية ، وكثيراً من الصناعات ، والتشريعات والأساليب البحرية ؛ وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها :

Orange, lemon, sugar, syrup, sherbet julep, elixir, jar azure, arabesque, mattress, sofa muslin, salin, fustian, bazaar, caravan, check mate, Tariff, tarffic, douane, magazine, risk, sloop barge, cable, admiral.

ويقابل هذه فى العربية : البرتقال ، والليمون ، والسكر ، والشراب ، والشربات ، والجلاّب ، والإكسير ، والإبريق ، والأزرق ، والنقش العربى ، والحشية (واللفظ الإنجليزى مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ الإنجليزى مشتق من الصُّفة) ، والموصلين ، والساتان ، والفستان ، والسوق ، والقافلة ، والشاه مات . والتعريفة ، وحركة المرور ، والديوان ، والمخزن ، والخطر ، والقارب بنوعيه ، والحبل ، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar وبعضها الآخر عن العربية) . وقد جاءت لعبة الشطرنج إلى أوربا من الهند عن طريق بلاد الفرس ، واتخذت لها فى طريقها أسماء فارسية وعربية ؛ فلفظ Ckeck mate مثلا مأخوذ من عبارة الشاه مات . وبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة على أصولها السامية ؛ ومن هذه الألفاظ lute من العود ، و rebeck من الربابة ، و guitar من القيثارة ، و tambourine من الطنبور . وقد انتقل شعر شعراء الفروسية الغزليين troubadour وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى بروفانس فى فرنسا ، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا . ولعل الأوصاف العربية للرحلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب فى الملهاة الإلهية The Divine Comedy لدانتى . وقد دخلت القصص الخرافية ، والأعداد الهندية إلى أوربا فى زيها العربى أو صورتها العربية . والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والطب ،

وارتقوا بها ، ونقلوا هذا التراث اليونانى بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوربا . ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية ، ونذكر منها على سبيل المثال **Algebra** للجبر ، **Zero** و **Cipher** للصفر ، **Azimuth** السُّمُوت و **Alembic** للأنبيق ، و **Zenith** للسمت ، و **Almanac** للتقويم وهى مشتقة من لفظ المناخ . وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب فى العالم خمسمائة عام كاملة ، وفلاسفة العرب هم الذين احتفظوا لأوربا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات . وكان ابن سيناء وابن رشد نجمين لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسيين الذين كانوا ينقلون عنهما ، ويعتمدون على كتبهما ، ويثقون بها ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهم بالنصوص اليونانية .

والقباب المضلعة أقدم فى بلاد المسلمين منها فى أوربا(١٢١) ، وإن لم يكن فى مقدورنا أن نتتبع الطريق الذى وصلت منه إلى الفن القوطى ؛ وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة ، وأبراج نواقيسها مدينة بالشىء الكثير إلى مآذن المساجد(١٢٢) ، ولعل زخارف النوافذ القوطية المقطعة المصنوعة من الحجارة قد أوحت بها بوائك برج الخرلدة ذات الأقواس المقترنة(١٢٣) . ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع فى إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين فى القرن الثانى عشر إلى هذين البلدين ، وإلى زيارة صناعه الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية(١٢٤) . ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج فى البندقية ، ومجلدو الكتب فى إيطاليا ، وصانعو الدروع والسلاح فى أسبانيا ، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناع المسلمين(١٢٥) ، وكان النساجون فى جميع أنحاء أوربا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم ، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية .

وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التى جاء منها هذا التأثير الإسلامى إلى بلاد الغرب ، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه جاء عن طريق التجارة ، والحروب

الصليبية ؛ وعن آلاف الكتب التى ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية ؛ وعن الزيارات التى قام بها العلماء أمثال جربرت Gerbert ، وميخائيل اسكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث Bath إلى الأندلس الإسلامية ؛ ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليتربوا فيها ويتعلموا الفروسية[١٣٦] — ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون « فرساناً وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين »[١٢٧] ؛ ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا . وكان كل تقدم للمسيحيين فى أسبانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة فى عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية ، وأبقى على الاعتقاد بكرية الأرض[١٢٨] .

لكن نار الحقد لم تطفئ لظاها هذه الاستدانة العلمية . ذلك أن لا شىء بعد الخبز أعز على بنى الإنسان من عقائدهم الدينية ، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ، بل يحيا معه بالإيمان الذى يبعث فى قلبه الأمل . ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظا على من يهدده فى قوته أو عقيدته . ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين ، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحى فى إثر قطر ، ويمتصون شعباً مسيحيا بعد شعب ؛ وكانوا يحسون بأيدى المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية ، ويستمعون إليهم وهم يسمون المسيحيين كفرة(*) ؛ وأمست المعركة المرتقبة فى آخر الأمر معركة حقيقية ؛ فاصطدمت الحضارتان فى الحروب الصليبية ، وقتل خيرُ ما فى الشرق أو الغرب

(*) إن الدين الإسلامى لا يقول قط بأن المسيحيين كفرة بل يعتبرهم من اللميين أهل الكتاب . (المترجم)

خيرٌ ما فى الغرب أو الشرق ، وكان هذا العداء المتبادل عاملا فعّالا فى تاريخ العصور الوسطى كله ، مضفاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودى قائما بين الطائفتين المحتربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كلتيهما . وخسر الغرب الحروب الصليبية ، ولكنه ربح معركة الأديان ؛ فقد طرد كل مسيحى محارب من الأرض المقدسة ؛ ولكن المسلمين ، وقد استنزف النصر البطىء دماءهم ، وخرب المغول بلادهم ، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر ، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضجه ما بذل من جهود ، فنسى هزائمه ، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرقى . فأقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحوّل لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب دانتى وتشوسر Chaucer وڤيون Villon ، وسار تحدوه العزة إلى عصر النهضة .

وبعد فإن القارئ العادى ستعتريه الدهشة من طول هذه الإلمامة بحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من إيجاز غير خليق بها : إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هى التى أنجب فيها المجتمع ، فى مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم فى الحكم ، والتعليم ، والآداب ، واللغة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والفلسفة ، والطب ، كما أنجب الإسلام فى الأربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذا النشاط المتلألئ مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة فى الحُكم ، والشعر ، والفن كان نشاطا مبتكراً لا تقدر قيمته . ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية ؛ ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيمينية فحسب ، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان ، وإلى أشور بلاد أشور بانيبال ، وإلى بابل حمورابى ، وأكاد سرجون ، وسومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم : وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ

بعضها ببعض ؛ ذلك أن الأسس الجوهرية فى الحضارة لا تضيع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجدب ، وهجرات مدمرة ، وحروب مخربة مهلكة . بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأسس فتنتشلها من هذا اللهب ، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكات ، ثم بالخلق والابتكار ، حتى ينبعث فى الشعب الناشىء شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء فى مجتمع ، والأجيال لحظات فى تسلسل الأسر ، فإن الحضارات وحدات فى كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ؛ فهى مراحل فى حياة الإنسانية . إن الحضارة متعددة الأصول ، وهى نتاج تعاونى لكثير من الشعوب ، والطبقات ، والأديان ؛ وليس فى وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فإن العالِم وإن كان مواطناً فى بلده يحبه لما يربطه به من صلات وثيقة ، يحس أيضاً بأنه مواطن فى بلد العقل ، الذى لا يعرف عداوات ولا حدوداً . وهو لا يكاد يكون خليقاً باسمه إذا ما حمل معه فى أثناء دراسته أهواء سياسية ، أو نزعات عنصرية ، أو عداوات دينية ؛ وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى تراثها شكره وإجلاله :

المراجـــع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع مجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل. أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER VIII

1. Burton, Sir R.., ed., *Thousand Nights and a Night*, I, vii
2. Hell, J., *The Arab Civilization*, 7. Dawson, Christopher, *The Making of Europe*, 136.
3. Encyclopaedia Britannica, II, 184
4. Doughty, Chas., *Travels in Arabia Deserta*, I, xx.
5. Margoliouth, D. S. *Mohammed and the Rise of Islam*, 29; Nödek, *Sketches*, 7.
6. Burton, R.F., *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinah and Meccah*, II, 93.
7. Blunt, Lady A. and Sir W. S., *The Seven Golden Odes of Pagan Arabia*, 43.
8. Ibid.
9. القرآن الكريم tr. and ed. Pickthall, *The Meaning of the Glorious Koran*. Pickthall's numbering of the verses differs occasionally from that of other translations.
10. Sale, G., in Wherry, E.M. *Commentary on the Qur' an*, with Sale's tr., I, 43.
11. Herodotus, iii, 8.
12. الطبرى — المقدمة
    Margoliouth, *Mohammed*, 59, Muir, Sir W., *Life of Mohammed* 512.
13. Browne, E. G, *Literary History of Persia*, I, 261.
14. الطبرى الجزء الثالث الفصل السادس والأربعون ص ٢٠٢
15. Pickthall, p. 2.
16. Browne, *Literary History*, I, 247.
17. Tiedall, W. S., *Origiual Sources of the Koran*, 264, Poole, S., *Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed'* xxiv.
18. Nicholson, R. A., *Translations of Eastern Poetry and Prose*, 38-40. Cf. Koran, xcvi.
19. Muir, *Life*, 51.
20. القرآن الكريم
21. II, 91.
22. Lxxxvii, 6.
23. Ali, Maulana Muhammad, *The Religion of Islam*, 174.
24. Macdonald, D. B., *Rilegious Attitude and Life in Isim*, 42.
25. Margoliouth, *Mahammed*, 45.
26. Dozy, R., *Spanish Islam*, 15.
27. Hell, 19.
28. Sale in Wherry, I, 80.
29. البلاذرى
30. Ameer Ali, Sayed, *Spirit ofIslam*. 54.
31. Muir, *Life*, 214, 234.

23. Ibid., 236.
33. Ibid., 238, quoting traditions.
34. Ibid.
35. Andrae, Tor, *Mohammed,* 206; Muir, 245f, quoting Ibn Hisham and al-Tabari.
36. Ameer Ali, *Spirit of Islam,* 58f.
37. Muir. 252f.
38. البلاذري
39. المصدر عينه
40. Amer Ali, 94.
41. Andrae, 238.
42. Macdonald, D. B., *Development of Muslim Theology, Juris-prudence, and Constitutional Theory* 69.
43. القرآن
44. القرآن
45. Andrea, 267.
46. القرآن
47. Muir, 77, 244.
48. القرآن
49. Muir. 201.
50. Bukhsh, S. K., *Studies, Indian and Islamic,* 6.
51. Muir, 511.
52. Lane-Pool, *Speeches,* xxx.
53. Ameer Ali, *Spirit of Islam* 110.
54. Bukhsh, *Studies,* 6.
55. Irving, W. *Life of Mahomet,* 238
56. Margoliouth, 105; Irving, 231.
57. القرآن
58. الجلستان للسعدى
59. Margoliouth, 458.
60. Gibbon, V, 254.
61. Margoloiouth, 466.

CHAPTER IX

1. سورة الرحمن
2. Lane-Poole, *Speeches,* 180.
3. القرآن الكريم
4. االقرآن الكريم
5. القرآن الكريم
6. القرآن الكريم
7. Margoliouth, 69.
8. القرآن الكريم Lane-Poole, 157
9. Ibid. 158.
10. Ali, Maulana M., *Religion of Islam,* 587.
11. Lane-Poole, 161, 163.
12. Ibid., 162.
13. Ibid.
14. Ali, Maulana. 390.
15. القرآن
16. Ali, Maulana, 655.
17. القرآن
18. Ali, 602.
19. القرآن الكريم
20. القرآن الكريم
21. Pickthall, p. 594 n.
22. Lane-Poale, 161.
23. القرآن الكريم
24. Ameer Ali, 183.
52. Lane-Poole, 167.
26. Quoted in Muir, *Life;* 520.
27. Lane-Poole, 159.
28. Ibid.
29. Sale in Wherry, I, 122.
30. E.g., Deut. xviii, 15-18 ; Hag. ii, 7; Songs, ii, 8, xxi, John xvi, 12-13.
31. Talmud, Pirk Aboth ii, 18.
32. Nöldeke, *Sketches,* 44.
33. القرآن Talmud, Sanh., ii, with Ber., i, 2, and Nöldeke, 31.
34. Lane-Poole, xi.
35. Bevan, E. R., *Legacy of Israel,* 147, Hitti, P. K., *History of the Arabs.* 125.

36. Baron, S.W. *Social and Religious History of the Jews*, I, 335 - 7.
37. Hurgronje. C. S., *Mohammedanism*, 65.

CHAPTER X

1. *Cambridge Medieval History*, II, 331.
2 Burton, *Personal Narrative*, I, 149.
3. Finaly, G., *Greece under the Romans*, 367.
4. Muir, Sir W., *The Caliphate*, 56.
5. Ibid., 57.
6. Ibid., 189.
7. Hitti, 176.
8. Gibbon, V, 296.
9. Macdonald. *Development of Muslim Theology*, 23.
10. Hitti, 197.
11. Sykes, Sir P., *History of Persia*, I, 538.
12. Hell, J., 59 - 60.
13. Meir, *Caliphate*, 376; Hitti, 222.
14. Dozy, 161. Hitti, 227.
15. Muir. *Caliphate*, 428-37, Hitti, 285
16. Nöldeke, 132.
17. الجلستان
18. Burton, Sir R.F., *The Thousand Nights and a Night* I, 186.
19. Palmer, E.H., *The Caliph Haroun Alraschid*, 80, 78.
20. Arnold, Sir T. W., *Painting in Islam*, 16.
21. Abbott, Nabia, *Two Queens of Baghdad*, 183.
22. Muir, *Caliphate*, 482.
23. Palmar, 221.
24. Ibid., 85, Abbott, 113.
25. Palmer, 81f. البرامكة
26. ابن خلدون المقدمة
27. Hitti, 300.
28. Eginhard, *Life of Charlemagne* xvi, 3.
29. Palmer, 121. البرامكة
30. Nicholson, R A., *Translation of Eastern Poetry and Prose*, 64.
31. العتبى : الكتاب اليمينى
32. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'art musulman*, I, 441.

CHAPTER XI

1. Lestrage, G., *Palestime under the Moslems*, quoting Masudi, ii, 43.8
2. Hitti, 351,
3. Milman, H. H., *History of Lain Christiainty*, III, 65n.
4. Lane, E. W., *Arabian Society in the Middle Ages*, 117.
5. Usher, A. P., *History of Mechanical Inventions*, 178-9.
6. De Vaux, Baron Carre, *Les Penseurs d'Islam*, I, 8.
7. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World, III*.
8. Renard, G., *Life and Work in Prehistoric Times*, 118.
9. Hitti, 344.
10. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages*, 873.
11. ابن خلدون المقدمة
12. Hitti. 348.,
13. Muir *Caliphate*, 501.
14. Hitti, 344.
15. Hurgronje, 128.
16. Browne, E.G., *Literary History*
17. Ibid., 318.
19. Browne, I, 223; Muir *Caliphate*, 510.
20. Nöldeke, 146-75.
21. Arnold, *Painting in Islam*, 104.
22. Guillaume, A., *The Traditions of Islam*, 13.
23. *Ibid.*, 134-8; Becker, C. H., *Chrislanity and Islam*, 62.

24. Guillaume, 47-52, 77.
25. Margoliouth, *Mohammed*, 80.
26. Guillaume, 80.
27. Sykes, I, 521.
28. Andrae, 101.
29. Sale in Wherry, I. 172.
30. Ali, Maulana, 780.
31. Philby, H., *A Pilgrim in Arabia*
32. Doughty, I, 59.
33. Burton, *Pilgrimage*, I, 325.
34. Ali Maulana, 522.
35. Burton, *Pilgrimage*, II, 68 ; Sale in Wherry, I, 185.
36. Graetz, H., *History of the Jews*, III, 87 ; Hitti, 284.
37. Lestrange, *Palestine*, 212 ; Arnold, Sir T. and Guillaume. A., *The Legacy of Islam* 81.
38. Baron, S, W., *History*, I. 319.
39. Guillaume, 132.
40. Catholic Encyclopedia, VIII, 459.
41. Becker, 32,
42. Hitti, 685 ; Sarton, G., *Introdution to the History of Science* Vol. II, Part I, 80.
43. Westermarck E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 476.
44. Kremer. A. von, *Kulturgesezichte des Orients unter den Khalifen*, 52.
45. Abbott, 68.
46. Lane, E. W., *Arabian Society*, 219-20.
47. Bukhsh, S. K., *Studies*, 83.
48. Hitti, 239.
49. Ali, Maulana, 390.
50. Lane-Poole, S., *Saladin*, 247.
51. Macdonald, D. B. *Aspects of Islam*, 294 ; Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 262.
52. Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 42.
53. Lane-Poole, *Saladin*, 217.
54. Ibid., 251 ; Sumner, W. G. *Folkways*. 353.
55. Lane E. W. *Arabian Society*,221
56. Ibid., 223.
57. Hitti, 342.
58. Bukhsh, *Studies*, 88.
59. Abbott, 187, 149.
60. Bukhsh, 84.
61. الغزالي ، كيمياء السعادة
62. Himes, N. E. *Medical History of Contraception*, 136.
63. Lane-Poole, *Saladin*, 415.
64. Guillaume. *Traditions*, 115.
65. Westermarck, *Moral Ideas*, I,94.
66. Sale in Wherry, I, 168.
67. Hitt. 388.
68. De Vaux, II, 272 f ; Chardin, Sir J. *Travels in Perias*, 198.
69. Muir, *Caliphate*, 374.
70. Ibid., 519.
71. Lane, *Saladin*. 285.
72. Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire*. 326.
73. Hurgronje, 98.
74. Macdonald, *Muslim Theology*, 84 · Guillaume, 69 ; Burton. *Personal Narrative*, I, 148, 167,
75. Arnold and Guillaume *Legacy*. 305.
76. Macdonald. *Theology*, 305.
77. Muir, *Caliphate*, 170.
78. Lestrange, *Palestine*, 24.
79. Hitti, 236 f.
80. In Lestrange, 120.
81. Ibid., 342.
82. Ibid 301.
83. Ibid., 295-801, 312, 348, 353, 361 377.
84. Ibid., 265.
85. Ibid., 287.
86. Creswell, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, I,137;Rivoiria G. T., *Moslem Architecture 110*.
87. Yaqub, II, 587, in Lestrange,
88. Lane. *Saladin*, 184.
89. Ameer Ali, *Spirit of Islanm*, 389.
90. Baron, I, 320.

91. أبو الفدا فى
The Troubadours and the Courts of Love, Rowbotham , J.E.; 16n.
92. Lestrange, G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, 253.
93. Lane, E. W., *Arabiam Society*, 203.
94. Lane - Poole, S. *Studies in a Mosque*, 185.

CHAPTER XII

1. In Ameer. Ali, *Spirt of Islam*, 331.
2. Lane, *Saladin* 86.
3. Lane-Poole, S.. *Cairo*, 188.
4. Hitti, 409.
5. Macdonald, *Aspects of Islam*,
6. Bakhsh, *Studis* 195.
7. Carter, T. F. *The Invention of Printing in China*, Introdution and p. 86; Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, 34; Barnes,
8. Bukhsh.' 49.50.
9. Ibid., 197.
10. Gibbon, V, 411.
11. Browne, *Literary History*, 1,275.
12. Pope, *Mosterpices of Persion Art*, 151.
13. Sarton, I, 662.
14. Gibbon. V, 298.
15. تاريخ الطبري ج ١
16. المصدر عينه
17. المصدر عينه
18. Sarton, I, 637.
19. De Vaux, I' 78.
20. ابن خلدون الجزء الأول .
21. Sarton, I. 530.
22. Arnold and Gullisume, *Legocy* 385.
23. Sarton, I. 602.
24. Bukhsh, 168.
25. De Vaux, II, 76.
26. Ibid., 78.
27. البيروني ٧٨
28. البيروني
29. In Boer, T. J. de, *History of Philosophy in Islam*. 146.
30. De Vaux, II, 217; Arnold and Guillaume, 395.
31. البيروني
32. Bukah, 181.
33. Sarton, I, 707.
34. Ibid., 693.
35. Lane, *Arabian Society*, 54 n.
36. ابن خلدون الجزء الثاني
37. Thompson. J. W., *Economic and Social History*, 358.
38. Grunebaum, G. von, *Medival Islam*, 381.
39. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 392.
40. Kellogg. J. H. *Rational Hydrotherapy*. 1928, 24.
41. Ibid.
42. Lane, *Arabian Society*, 56.
43. Garrison, F., *History af Medicine*, 1929' 137.
44. Arnold and Guillaume, 336.
45. Bukhsh, 197.
46. Hitti, 364.
47. Ibid.
48. Campbell, D., *Arabian Medicine* 661.
49. Sarton, I 609.
50. وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول ص ٤٤٠
51. المرجع عينه ص ٤٤٣
52. in Draper. J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, I. 411.
53. John. I, 1-8.
54. Bukhsh, 59.
55. Boer. 101; Arnold and Guilisume, 255.
56. Arisotle *De Anina*, iii, 5.
57. Macdonald, *Muslim Theology*, 150
58. Barhebraeus in Grunebaum, 182;

Hitti, ?53 ; Muir *Caliphate*, 521.

59, In Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 408.

60. Dawson, 155.

61. ابن خلدون

62. O'Leary DeL., *Arabic Thought and Its Place in History*, 153,

63. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 412.

64. De Vaux, IV, 12 - 18.

65. Boer 128.

66. Ibid., 81f.

67. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, xxxix.

68. Salibu, D., *Etude sur la metaphysique d'Avicenne*, 21.

69. Ibid., 106, 114, 121, 151 ; Hastings *Encycloped of Religion and Ethics*, XI, 275-6 ; Boer, 136.

70. Salibu, 170 ; Gruner, O. C. *Tpeatise on the Canon of Medicine of Avicenna*, introd., p. 9.

71. Beer, 188 - 42.

72. Salibu, 208.

73. In Ameer Ali, 395.

74. Boer, 144.

75. البلاذرى ج ١ ص ٦ Bocon, Roger, *Opus Maius*, tr. R. B. Burke, Vol. I, p. 15.

76. Salibu, 27.

77. Arnold and Guillaume, 811.

78. قانون ابن سينا ص ١١٨

79. In Nicholson, R. A., *Mystics of Islam*, 7.

80. ابن خلدون

81. Browne, *Literary*, I, 426.

82 Hitti, 435.

83. Nicholson, R. A., *Studies in Mysicism*, 4 - 5.

84. Macdonald, *Religious Attitude*, 169 - 21.

Nicholson, *Studies in Mysticism*, 78.

85. Ibid., 25.

86. Arnold and Guillaume, 219.

87. Hitti, 438.

88. Browne, II, 265.

89. Nicholson, *Studies in Mysticism*, 6-21.

90. Id., *Translations of Eastern* 98-100.

91. In Browne, II, 265.

92. Nicholson, *Mysticism*, 28-81, 38.

93. Browne, I, 404 ; Dawson, 158.

94. Hitti. 443.

96. مروج الذهب للمسعودى الترجمة الفرنسية ج ٤ ص ٨٩

97. Lane-Poole, *Cairo*, 154.

98. Nicholson, *Studies in Islamic Poetry*, 48,

99, Id., *Translations*. 38.

100. Nicholson, R. A: *Literary History of the Arabs*, 295 ; ابن خلكان ج ١ ص ٣٩٣

101. De Vaux, IV. 252.

102. Browne, I, 869.

103. Nicholson, *Islamic Poetry*, 183-7

104. Rihani, A: F., *The Quatrains of Abu'l Ala* (al-Ma'arri), vii.

105. Nicholsan, *Literary*, 319.

106. Id., *Islamic Poetry*, 148.

107. Ibid 102, 145, Rihani, 120.

108. Nicholson, *Islamic Poetry*, 108.

109. Ibid., 191-2.

110. Ibid., 121.

111. Id., *Translations*, 102.

112. Id., *Islamic Poetry*, 150.

113. Ibid., 160.

114. Ibid., 161-5.

115. Id., *Translations*, 102.

116. Id., *Islamic Poetry*, 119.

117. Ibid., 127.

118. Id., *Translations*, 102.

119. Id., *Islamic History*, 140
120. In Browne, II, 120.
121. الفردوسي الخديناية
122. الفردوسي الشاهنامة
123. نفس المرجع ترجمة اتكنسن وقد ترجمه ماثيو آرنلد في سهراب ورستم
124. In Pope, *Survey of Persian Art*, II, 975.
125. Cf. "The Nazarene Broker's Story" in Burton, *Thousand Nights and o Night*, I, 270.
126. Pope, *Survey*, II, 1439.
127. Lane-Poole, *Saladin*, 29.
128. Lane *Arabin Soeiety*, 54-61.
129. Pope, II, 927 ; Hell, 109.
130. Creswell, I' 239.
131. In Lane, *Arabian Society*, 58.
132. Pope, II, 975.
133. Pope, IV 317-28.
134. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 200.
135. Arnold and Guilaume, 117.
136. Pope, II, 1447.
137. Fenollosa, F. F., *Epochs of Chinese and Jvpanese Art*,I,21; Pope, *Survey* I, 2.
138. Pope, II, 1468.
139. Guillaume, 128.
140. Encylopeadia Britannica, XV, 654.
141. Ibid.; Hitti, 420.
142. Arnold, *Painting in Islam*, 85.
143. Ibid., 21.
144. Lane, *Arabian Society*, 117.
145. Ibid.' 15.
146. Hitti, 274.
147. Farmer, H. G., in Arnold and Guillaume. 358.
148. الجلستان
149. In Arnold and Guillaume. 859.
150. Farmer in Aronld and Guillaume, 867.
151. Ibid., 372.
152. Ibid., 861; Farmer, H.G., *History of Arabian Music*, 154.
153. Farmer in Arnold and G., 359.
154. Hitti, 214.
155. Farmer, 31.
156. Ibid., 112.
157. Ibid., 60-4; Lane-Poole, *Cairo*, 156.
158. Farmer, 120.
159. Ibid., 124.
160. Lane, *Arabian Society*, 172-6.

CHAPTER XIII

1. Gibbon, V, 344.
2. Sarton, I, 466; II (ii). 599.
3. Ueberweg, I, 409.
4. Tarn W.W., *Hellenistic Civilization*, 217. Sarton, I, 466.
5. Gibbon, V. 346.
6. Munro, D. C., and Sellery, G., *Medieval Civilization*, 170.
7. Lane-Poole, *Cairo*, 65.
8. Browne, II, 223.
9. Hitti, 625.
10. Browne, II, 223, Margoliouth, D.S., *Cairo, Jerusalem, and Damascus*, 46.
11. Nöldeke, 8.
12. Hitti, 626.
13. Arnold and Guliillaune, 168.
14. Pope, Arther U., *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings ofGothicArchitecture*, 287.
15. Lane, *Arabian Society*. 541.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 44. 60.
17. Pope, II, 1488.
18. Arnold and Guilaume, 116.
19. Dimand, M. S., *Handbook of Muhammadan Art*, 255; Arnold, *Paining in Islam*, 127.
20. Margoliouth, *Cairo*, 69.
21. Arnold and Guillaume, 333.
22. Arnold, Sir T.W., *The Preaching of Islam*, 102.

23. Pirenne, Henri, *Mohsmmed and Charlemagne*, 160f.
24. Hitti, 606.
25. Waern, Cecilia, *Medieval Cicily*, 20.
26. Arnold and Guillaume, 241.
27. Waern, 25.
28. Calvert, A.F., *Moorish Remains in Spain*, 239.
29. المقرى فى نفح الطيب
30. المصدر عينه
31. المصدر عينه
32. Dozy, 458 - 65.
33. المقرى
34. Dozy, 516.
35. Ibid., 522; Calvert, A.F., *Seville*11
37. Lane - Poole, S., *Story of the Moors in Spain*, 34.
38. Dozy, 688, 689:
39. المقرى
40. Dozy, 284.
41. Gibbon, V, 876.
42. Chapman.C.,F., *History ofSpain*, 53.
43. Ibid., 41; Dozy, 236; Laue-Poole, *Moors*, 50.
44. Chapman, 41.
45. Clapham. J. H., Power, E., *Cambridge Economic History, of Europe*, 136; Barnes, *Economic Hisory*, 114.
46. Clapham, 354-5, Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 547.
48. *Cambridge Medeival History*, III, 482.
49. Pirenne, Jacques, *Les grands Courants de l'histoire universelle*, II. 117.
50. Ibid , 19.
51. Arnold. *Preaching*, 184; Dozy, 235.
52. Chapman, 49, 58.
53. Dozy, 268.
54. Ibid.
55. Arnold, *Preaching*, 144.
56. Dozy, 285, Lane-Poole, *Moors*, 47
57. Rivoira *Moslem Architecture*, 240.
58. Dozy, 278.
59. Ibid., 286.
60. Aronld, *Preaching*, 141.
61. Dozy 584.
62. المقرى
63. Thompson. J.W., *Economic and Social History*, 549.
64. المقرى
65. المصدر عينه
66. Calvert, *Moorish Remains*, 189.
67. Calvert, A.F., *Cordova*, 107.
68. المقرى
69. Dozy, 495; Chapman, 50.
70. Pirenne, J., II, 20.
71. المقرى
72. In Dozy, 576.
73. Sarton, I, 713.
74. Dozy, 281.
75. المقرى
76. Arnold and Guillaume, 186.
77. Dozy, 326.
78. Ibid.
79. Tr. by Dulcie Smith in Van Doren, Mark, *AnthologyofWorld Poetry*, 99.

CHAPTER XIV

1. Browne, II. 176.
2. Ibid., 177; Gibbon, V, 17.
3. Browne, II, 190.
4. Marco Polo, *Travels*, i, 24.
5. Ameer Aly, *Spirit of Islam*, 313.
6. Hitti, 446.
7. Thompsom, J.W., *Economic and Social History*, 391; Arnold, *Preaching*, 96.

8. William of Tripoli inLane-Poole, *Cairo*, 84.
9. Hitti, 679.
10. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 128.
11. In Lane-Poole, *Cairo*, 27.
12. Irving. W., *The Alhambra*, 41.
13. Lane-Poole, *Moors*, 225.
14. Pope, *Introduction*, 30; Pope, *Survey*, II, 1048,
15, Cf. Migeon, G., *Les arts musulmans*, II, 11.
16. Fry. Roger, in *Persian Art*: *Souvenir of the exhibition of Persian Art at Burlington House* xix.
17. Dillon. E., *Glass*, 165.
18. Lane, *Arabian Society*, 200.
19. Pope, *Masterpieces*, 65.
20. Dimand, *Handbook*, 280.
21. *Time* Magazine, Ian. 23, 1939.
22. Arnold, *Painting*, 127.
23. *N. Y. Times Book Review*, May 19, 1940, p. 2.
24. Bukhsh, 96.
25. Nicholson, *Translations*, 116.
26. ابن خلدون
27. المصدر عينه
28. Browne, II, 875.
29. Ibid., 392.
30. Sarton, I, 759.
31. Ibid., II (I), 8.
32. Ibid., I, 760.
33. Browne, II, 246.
34. Nicholson, *Islamic Poetry*, 4-5.
35. Weir, T.H., *Omar Khayyam the Poet*, 21.
26. Nicholson, *Islamic Mysticism*, 1.
37. Bromne, II, 108.
38. Ibid , 256.
39. Heron-Allen, Edw., in Houstma, M., ed., *Encyclopepia of Islam*, III, (ii), 988.
40. Weir, 16; Nicholson, *Islamic Poetry*,5.
41. Browne, II, 249.
42. Quatrain cxv of the Bodleian MS. in Weir, 36.
43. Weir, 71.
44. In Browne, II, 247.
45. Smith.Margaret,ed., *The Persian Mystics : Attar*, 20 - 7.
40. جلال الدين الروى ، مختارات من ديوان شمس تبريزى
47. المصدر عينه ٧١
48. المصدر عينه ٤٧
49. Sarton, II (ii), 872.
50. Browne, II, 521.
51. السعدى
52. السعدى فى الجلستان
53. المصدر عينه
54. In Browne, II, 580.
55. الجلستان
56. Bustan in Grousset, R., *The Civilizations of the East, Vol. I : The Near and Midple East*, 272.
57. الجلستان ١٢
58. ٣ — ٢
59. ٢٧ — ٢
60. ٤٠ — ٢
61. ٧— ٤
62. ٥ — ٥
63. ٤ — ٥
64. ٢٠ — ٧
65. ٤ — ٧
66. ٣١ — ٨
67. ٣٨ — ٨
68. ٤ — ١
69. ٨ — ٧
70. ٢٠ — ٣

71. Browne. II, 534.
72. Grumebrum, 39.
73. Sartone, II (i), 12.
74. Ibid., 216.
75. Ibid., 27; II (ii), 632.
76. Ibid., II (i), 31.
77. Margoliourth, *Cairo*, 220.
78. Sarton, II, (ii), 1014.
79. Ibid., II (i), 51; II (ii), 663.
80. Ibid, II (i), 424.
81. Hitti, 686.
82. Sarton, II (i), 282.
83. Carrison, 136.
84. Lestrange, *Baghdad*, 104.
85. Carrison, 136; Hell, 117; Lane-Poole, *Cairo*, 34, Margoliouth, *Cairo*, 124-9, Hitti, 677.
86. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 112.
87. الغزالى
88. الغزالى (التهافت)
89. Macdonald, *Muslim, Theology*, 230.
90. Asin y Palacios, Mihuel, *Islam, and the Divine Comedy*, 273-5.
91. السعدى — الجلستان
92. Muir *Caliphate*, 146.
93. Arnold, *Painting*, 54.
94. Becker, 31.
95. Boer, 175; [Duhem, P., *Le systèmedu monde*, IV, 522, 526; Macdonald, *Muslim Theology*, 250.
96. أبو بكر بن طفيل — حى بن يقظان
97. المصدر عينه
97. In Renan, E., *Averroës et l'averroïsme*, 16.
99. Sarton, II (i), 305.
100. ابن رشد
101. المصدر عينه
102. ابن رشد Gilson, E., *Reason and Revelation in the Middle Ages*, 40f.
103. ابن رشد
104. Sarton. II (i), 358.
105. ابن رشد
106. Commentary on Aristotle's *Metaphysics*, xii, in Renan, 108.
107. Commentary on Aristotle's *Physics*, viii, in Renan, 112; Duhem, IV, 549.
108. De Vaux, IV, 70.
109. Commentary on Aristotle's *De Anima*, bk. iii, [in Renan, 122; Duhem, IV, 573.
110. التهافت in Renan, 137n.
111. In Renan, 143.
112. Ibid., 146.
113. Arnold and Gullaume, 277-9; Tornay, S. C., *Averroës' Doctrine of the Mind, Philosophical Review*, May, 1943, 282n.; De Vaux, IV, 71; Duhem, IV, 566.
114. Racon, R., *Opus malus*, i, 6; De Vaux, IV 87.
115. Renan, 32.
116. In Browne, II, 440.
117. Ibid., 489.
118. Pops, *Survey*, II, 1542.
119. Lestrange, *Baghdad*, 350; Browne, II, 460.
120. Cf. Arnold, *Painting*, 99.
121. Pope, *Survey*, II, 1044.
122. Burton, *Personal, Narrative*, 90-2
123. Arnold and Gullaume, 166.
124. Encyclopaedia Britannica, XVIII, 339.
125. Arnold and Guillqume, 121; Pope, *Introduction*, 241; Encyclopaedia Britannica, XV, 657.
126. Dennis, Geo., *Cities and Cemeteries of Etruria*, I, 37.
127. Brone, II, 432.
128. Arnold and Guillaume, 93.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الرابع

(١٤)



بيروت



تونس



(شكل ١) نقش على الزجاج من القرن الثانى عشر
فى كنيسة تشارتر



الفهرس

الكتاب الثالث – الحضارة اليهودية

الكتاب الرابع ــ العصور المظلمة

الباب الثامن عشر : العالم البيزنطى

الباب التاسع عشر : اضمحلال الغرب ٢٠٦

الباب العشرون : نهضة الشمال

الموضوع | الصفحة

الباب الحادى والعشرون : صراع المسيحية

الباب الثانى والعشرون : الإقطاع والفروسية

فهـــرس الصور

الكتاب الثالث

الحضارة اليهودية

١٣٥ — ١٣٠٠



الحوادث التاريخية فى الكتاب الثالث مرتبة حسب تواريخها

١ — ٢٢٠ التنائم .

١٨٩ يهودا هنسيا .

٢٢٩ المجمع العلمى اليهودى فى سورا .

٢٢٠ — ٥٠٠ الأمورائم .

٢٨٠ — ٥٠٠ جمع التلمود .

٣٥٩ هلل الثانى يحدد التقويم اليهودى .

٥٠٠ — ٦٥٠ السبورائم .

٦٥٨ — ١٠٤٠ الجادئم فى بابل .

٨١٥ وفاة ما شاء الله الفلكى .

٧٥٥ — ٩٥٥ إسحق إسرائيلى ، الفيلسوف .

٨٩٢ — ٩٤٢ سعديا جاؤن ، الفيلسوف .

٩١٥ — ٩٧٠ حسداى بن شبروط ، الوزير .

١٠٠٠ مرسوم الزواج بواحدة يصدره الكوهن جرشم .

١٠٢١ — ١٠٧٠ ابن جبيرول الشاعر والفيلسوف .

١٠٣٨ — ١٠٥٥ شمويل بن نجدلا ، الوزير .

١٠٤٠ — ١١٠٥ شلومة بن يتزحاق (راشى) شارح التلمود .

١٠٥٥ — ١٠٦٦ يوسف بن نجدلا .

١٠٦٥ — ١١٣٦ إبرهام بارحيا (العالم فى الرياضيات) .

١٠٧٠ — ١١٣٩ موسى بن عزرا الشاعر .

١٠٨٦ — ١١٤٧ يهودا هليفى ، الشاعر .

١٠٩٣ — ١١٦٨ إبراهام بن عزرا ، الشاعر .

١٠٩٦ مذابح الحرب الصليبية الأولى .

١١١٠ — ١١٨٠ إبراهام بن داود ، الفيلسوف .

١١٣٥ — ١٢٠٤ ابن ميمون .

١١٤٧ مذابح الحرب الصليبية الثانية .

١١٦٠ داڤيد الروئى المسيح الكذاب .

١١٦٠ — ١١٧٣ رحلات بنيامين التطيلى .

١١٧٠ مشنة التوراة لابن ميمون .

١١٨١ ، ١٢٥٤ ، ١٣٠٦ اليهود يطردون من فرنسا .

١١٩٠	دلالة الحائرين .
١١٩٠	نشأة القبلّة .
١١٩٠	المذابح فى إنجلترا .
١٢١٥	مجلس الاتران الرابع يأمر بأن يكون لليهود شارة .
١٢٣٤	إحراق كتب ابن ميمون فى منبلييه .
١٢٤٢	إحراق التلمود فى باريس .
١٢٩٠	اليهود يطردون من إنجلترا .
١٢٩٥	سفر زوهر لموسى الليونى .

الباب الخامس عشر

التلمـــود

الفصل الأول

النفى ١٣٥ – ٥٦٥

بين بلاد الإسلام والمسيحية كان يعيش شعب عجيب احتفظ فى خلال كل ما مر به من الشدائد بثقافته الخاصة يعزيه ويلهمه دينه الخاص ، ويعيش على هدى شريعته ومبادئه الأخلاقية ، ويخرج من بينه شعراؤه ، وعلماؤه ، وأدباؤه ، وفلاسفته ، وينقل البذور الخصبة بين عالمين متعاديين .

ولم تكن فتنة باركوزيبة Bar Cocheba (١٣٢ – ١٣٥) آخر الجهود التى بذلها اليهود ليستعيدوا حريتهم التى قضى عليها بمبى وتيتس Titus . فقد أعادوا الكرة لاستخلاصها فى عهد أنطونينس بيوس Antoninus Pius (١٣٥ – ١٦١) وأخفقوا فى محاولتهم وحرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة إلا فى يوم تلك الذكرى المؤلمة ، ذكرى تدميرها ، فقد كان يسمح لهم نظير جعل معين أن يأتوا إليها ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المهدم . وكان سكان فلسطين التى خرب من مدائنها فى فتنة باركوزيبة ٩٨٥ مدينة حتى محيت من الوجود ، وقتل من أهلها ٥٨٠٫٠٠٠ رجل وامرأة قد نقص إلى نصف ما كان عليه من قبل ، وانحط الباقون إلى درجة من الفاقة كادت الحياة الثقافية معها ألا يبقى لها أثر . ومع هذا فإنه لم يكد يمضى على فتنة باركوزيبة جيل واحد حتى أنشئ فى طبرية بيت الدين ، أى المجلس اليهودى القومى — وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين

من العلماء الأحبار والمشترعين — وافتتحت المعابد والمدارس ودب الأمل مرة أخرى فى النفوس .

غير أن فوز المسيحية قد صحبته متاعب جديدة . ذلك أن قسطنطين كان قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودى وبين سائر الأديان التى يدين بها غيرهم من رعاياه . أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد اليهود وفرض عليهم قيوداً ومطالب جديدة ، وحرم على المسيحيين أن يتصلوا بهم[1] . ونفى قسطنطين أحبارهم (٣٣٧) وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام[2] . وفرض جالوس Gallus أخو قسطنطين على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليوفوا بمطالبه منهم . وثار اليهود مرة أخرى فى عام ٣٣٢ وأخمدت ثورتهم ودكت صبورى دكاً ، وخربت أجزاء من طبرية وغيرها من المدن ، وقتل آلاف من اليهود ، واستعبد آلاف آخرون . وبلغت حال اليهودى الفلسطينى وقتئذ (٣٥٩) درجة من الانحطاط ، كما بلغ الاتصال بينهم وبين غيرهم من الجماعات اليهودية درجة من الصعوبة ، اضطر معهما حاخامهم هلل الثانى أن ينزل عما كان ليهود فلسطين من الحق فى أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم ، وأصدر لهم تقويماً يحددون هم بمقتضاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين ، ولا يزال هذا التقويم الذى أصدره هلل معمولا به إلى اليوم لدى اليهود فى جميع أنحاء العالم .

فلما ارتقى يوليان عرش الإمبراطورية أنقذ اليهود إلى أجل قصير من هذا التعذيب . فقد خفض هذا الإمبراطور الضرائب المفروضة عليهم ، وألغى القوانين التى تجعلهم أقل منزلة من غيرهم ، وأطرى الصدقات العبرانية ، واعترف بأن يهوه « إله عظيم » . وسأل زعماء اليهود عن سبب امتناعهم عن الضحايا الحيوانية ؛ فلما أجابوه بأن شريعتهم تحرم عليهم هذه التضحية إلا فى هيكل أورشليم أمر أن

بعاد بناء الهيكل من مال الدولة[٣] . وأعيد فتح أورشليم لليهود فهرعوا إليها من جميع أنحاء فلسطين ومن كل ولاية في الإمبراطورية ، وسخر الرجال والنساء والأطفال جهودهم لإقامة البناء ، وتبرعوا بحليهم وما ادخروه من أموالهم لتأثيث الهيكل الجديد[٤] ، وفي وسعنا أن نتصور سرور القوم الذين ظلوا مائتي عام يدعون ربهم أن يمن عليهم بهذا اليوم (٣٦١) . ولكن بينما كانوا يحفرون الأرض لوضع الأساس إذ خرج من باطنها لهيب أحرق عدداً من العمال القائمين بالعمل[٥] . غير أن الناس عادوا إلى العمل من جديد — فعادت هذه الظاهرة مرة أخرى — ولعل سببها انفجار بعض الغازات الطبيعية — فأوقفت العمل وثبطت همة القائمين بالمشروع . وفرح المسيحيون إذ بدا لهم أن الله غير راض عن إعادة بناء الهيكل ، وعجب اليهود من هذا وحزنوا له ؟ ثم مات يوليان فجاءة ، فحبست عنهم أموال الدولة ، وسنت من جديد القوانين المقيدة لهم وجعلت أشد صرامة مما كانت من قبل ، وحرم على اليهود مرة أخرى دخول أورشليم ، فعادوا إلى قراهم ، وفقرهم ، وصلواتهم . وكتب جيروم بعد قليل من ذلك الوقت يقول : إن أهل فلسطين اليهود « لا يزيدون على عشر ما كانوا عليه من قبل »[٦] . وفي عام ٤٢٥ ألغى ثيودوسيوس الثاني الحاخامية الفلسطينية ، وحلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية ، وتخلت فلسطين بعد هبة قصيرة في عام ٦١٤ ، عن زعامة العالم اليهودي .

فهل يلام اليهود بعد هذا إذا أملوا أن تكون حالهم أحسن من هذه الحال في بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها في البلاد التي يخضعون لسلطانها . فمنهم من انتقل نحو الشرق إلى أرض النهرين وإلى بلاد الفرس وقووا العنصر اليهودي البابلي الذي لم ينعدم من تلك البلاد منذ الأسر الذي حدث في عام ٥٩٧ ق . م . وكانت وظائف الدولة محرمة على اليهود في بلاد الفرس أيضاً ؛ ولكن هذه الوظائف كانت محرمة كذلك على جميع الفرس ما عدا طبقة الأشراف ، ولذلك

لم يكن هذا القيد ثقيلا على اليهود أنفسهم[٧] . وقد حاقت باليهود فى تلك البلاد عدة اضطهادات ، ولكن الضرائب المفروضة عليهم كانت أخف عبئاً منها فى غير تلك البلاد ، وكانت الحكومة فى الأحوال العادية تتعاون معهم ، وكان ملوك الفرس يعترفون بالإجزيلارك أى زعيم الطائفة اليهودية ويجلونه . وكانت أرض العراق وقتئذ خصبة تسقيها مياه النهرين ، ولذلك أضحى من فيها من اليهود زراعاً أثرياء وتجاراً ناشطين ، ومنهم طائفة من بينها عدد من جلة العلماء الذائعى الصيت أثرت من عصر الجعة[٨] . وتضاعف عدد الجالية اليهودية فى بلاد الفرس بسرعة كبيرة لأن دين الفرس كان يبيح تعدد الأزواج . وكان اليهود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التى كانت تبيحها الشريعة الإسلامية . وكان الكوهنان الطيبان رب ونحان أثناء تجوالها يعلنان فى كل مدينة يحلان بها عن رغبتهما فى زوجات مؤقوتات ، لكى يضربا بذلك مثلا لشبان تلك المدن للحياة الزوجية ويبعداهم على الحياة الإباحة[٩] . وفى نحرديا Nehardea ، وسورة ، ويمبديثا أنشئت مدارس للتعليم العالى ، أضحى علماؤها ، وأضحت قرارات كواهنها الدينية ، موضع الإجلال فى جميع أنحاء البلاد التى تشتت فيها اليهود .

وظل اليهود فى أثناء ذلك الوقت ينتشرون فى جميع البلاد الواقعة حول البحر المتوسط : فمنهم من ذهب لينضم إلى الجاليات اليهودية فى بلاد الشام وآسية الصغرى ، ومنهم من ذهب إلى القسطنطينية ، رغم عداء أباطرة الروم وبطارقتهم ، ومنهم من اتجهوا من فلسطين جنوباً إلى جزيرة العرب وعاشوا فى سلام وحرية دينية مع بنى جنسهم الساميين ، واحتلوا فى تلك البلاد أقاليم برمتها مثل خيبر ، وكاد عددهم فى يثرب (المدينة) يكون مساويا لعدد العرب أنفسهم ، واستمالوا إلى دينهم عدداً من الأهلين ، وهيئوا عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد يتفق بعضها مع العقائد اليهودية . ومنهم من عبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة حيث تضاعف عددهم بسرعة حتى قيل إنهم بلغوا

فى عام ٣١٥ نصف سكان تلك البلاد[١٠] . وكان اليهود يمتلكون نصف سفن الإسكندرية ، وكان ثراؤهم فى تلك المدينة السريعة التأثر والاهتياج مما زاد من حدة العداء الدينى .

وانتشرت جاليات يهودية فى جميع مدائن أفريقية الشمالية ، وصقلية ، وسردينية . وكان عددهم كبيراً فى إيطاليا ، وكان الأباطرة الوثنيون يحمونهم فى العادة من الأذى ، وإن كان الأهلون المسيحيون والإمبراطور ثيودريك ، والبابوات يشددون عليهم النكير فى بعض الأحيان . وكان فى أسبانيا جاليات يهودية قبل يوليوس قيصر ، ونمت تلك الجاليات دون أن يتعرض لها بأذى تحت حكم الأباطرة الوثنيين ، وأثروا فى عهد القوط الغربيين الآريين ، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد المبلس بعد أن اعتنق الملك ريكارد (٥٦٨ — ٦٠١) عقائد مؤتمر نيقية . ولسنا نعرف أن اليهود تعرضوا للاضطهاد فى غالة قبل أن تصدر قرارات مجلس أورليان الثالث والرابع (فى عامى ٥٣٨ و٥٤١) بعد أن انتصر كلوفس Clovis المسيحى المتمسك بدينه على القوط الغربيين الآريين بجيل من الزمان . وأحرق مسيحيو أورليان كنيساً يهودياً حوالى عام ٥٦٠ ، وطلب اليهود إلى جنترام Gunthram ملك الفرنجة أن يعيد بناءه من أموال الدولة أسوة بما فعله ثيودريك فى مثل هذه الحادثة من قبل . ولما رفض جنترام هذا الطلب صـــاح الأسقف جريجورى التورى Gregory of Tours : « ما أعظمك أيها المليك وما أعجب حكمتك ! »[١١] .

وكان اليهود فى البلاد التى انتشروا فيها ينتعشون على الدوام بعد هذه الخطوب ، فكانوا يعيدون بناء معابدهم فى صبر وأناة ، وينظمون شئون حياتهم ، ويكدحون ، ويتجرون ، ويرابون ، ويصلون ، ويأملون ، ويزدادون ويتضاعفون . وكان يطلب إلى كل جالية فى بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة

ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية يضمهما فى العادة الكنيس نفسه ، وكان يشار على العلماء ألا يعيشوا فى بلد يخلو من هاتين المدرستين . وكانت لغة العبادة والتعليم هى اللغة العبرية ، أما لغة التخاطب اليومى العادى فكانت الأرامية فى بلاد الشرق ، واليونانية فى مصر وفى بلاد أوربا الشرقية ؛ أما فى غير تلك البلاد فكان اليهود يتخاطبون بلغة من يعيشون بينهم من الأهلين . وكان الدين هو الموضوع الذى يدور حوله التعليم اليهودى ، أما الثقافة غير الدينية فكادت فى ذلك الوقت أن تهمل إهمالا تاماً : ذلك أن اليهود المشتتين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كيانهم جسمياً وروحياً إلا عن طريق شريعتهم ، وكان الدين عندهم هو دراسة هذه الشريعة والعمل بها . وكان دين آبائهم يزداد قيمة لديهم كلما زاد الهجوم عليه ، وكان التلمود والكنيس الدعامتين والملجأين اللذين لا غنى عنهما لشعب حائر تقوم حياته على الرجاء ويقوم رجاؤه على الإيمان بالله .

الفصل الثانى

منشئو التلمود

كان الكهنة ورجال الدين المقيمون فى المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة بالتلمود الفلسطينى والتلمود البابلى . وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الخمسة ، بل ترك له أيضاً شريعة شفوية تلقاها التلاميذ عن المعلمين ووسعوا فيها جيلا بعد جيل . وكان أهم ما ثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو : هل هذه الشريعة الشفوية هى الأخرى من عند الله فهى لذلك واجبة الطاعة ؟ ولما أن زال الصدوقيون بعد تشتت اليهود عام ٧٠ م وورث رجال الدين تقاليد الفريسيين ورواياتهم قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية ، وآمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة ، فتكونت من هذه وتلك التوراة أو الشريعة الموسوية التى استمسك بها اليهود وعاشوا بمقتضاها ، وكانت حقيقة لا مجازاً هى كيانهم وقوام حياتهم . وإن القصة التى تروى تلك العملية الطويلة التى استغرقت ألف عام ، والتى تجمعت فى خلالها الشريعة الشفوية ، واتخذت فيها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا ؛ والقرون الثمانية التى تجمعت فيها ثمار الجدل ، والأحكام ، والإيضاح فكانت هى الجمارتين أو شروح المشنا ؛ وانضمام المشنا إلى أقصر هاتين الجمارتين ليتألف منهما التلمود الفلسطينى ، وإلى أطولها ليتألف منهما التلمود البابلى — إن القصة التى تروى هذه الأحداث الثلاثة لمن أكثر القصص تعقيداً وأعظمها إثارة للدهشة فى تاريخ العقل البشرى . وكما كان الكتاب المقدس أدب العبرانيين

الأقدمين ودينهم ، كانت التوراة حياة يهود العصور الوسطى ودماءهم .

وذلك أن أحكام الشريعة الواردة فى الأسفار الخمسة أحكام مسطورة ، ولهذا فإنها لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشليم بعد أن فقدت حريتها ، ولا اليهودية بعد أن فقدت أورشليم ، ولا الشعب اليهودى فى خارج فلسطين ، لم تستطع الوفاء بحاجات هذه أو معالجة الظروف المحيطة بها . ومن ثم كانت مهمة علماء السنهدرين قبل التشتت ، والأحبار بعده ، هى تفسير الشريعة الموسوية تفسيراً يهتدى به الجيل الجديد والبيئة الجديدة ويفيدان منه . وتوارث المعلمون جيلا بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم وآراء الأقلية والأغلبية فى موضوعاتها . على أن هذه الروايات الشفوية لم تدون ، ولعل سبب عدم تدوينها أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلوها مرنة قابلة للتعديل ، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يرغموا الأجيال التالية على استظهارها . فكان فى وسع الأحبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة إذا اضطرتهم الظروف أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها . وكان الأحبار فى الستة القرون الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون « التنائم Tennaim » أى « معلمى الشريعة » وإذ كانوا هم وحدهم المتضلعين فيها ، فقد كانوا هم المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل .

وكان أحبار فلسطين وأحبار اليهود «المشتتين أرستقراطية فذة لامثيل لها فى التاريخ . ذلك أن هؤلاء الأحبار لم يكونوا طبقة وراثية أو مغلقة مقصورة على طائفة خاصة من الناس ، بل إن الكثيرين منهم قد ارتقوا من أفقر الطبقات ، وكان معظمهم يكسبون قوتهم بالعمل فى الصناعات المختلفة حتى بعد أن أصبحوا من ذوى الشهرة العالمية ، وظلوا إلى ما يقرب من أخريات تلك الفترة التى نتحدث عنها لا يعطون أجوراً على قيامهم بالتدريس أو بأعمال القضاء . وكان الأثرياء

يجعلونهم في بعض الأحيان شركاء غير عاملين فى مشروعاتهم المالية والتجارية ، أو يأوونهم فى بيوتهم ، أو يزوجونهم من بناتهم ، ليوفروا عليهم عناء الكد لكسب قوتهم . ومنهم من عدد قليل أفسدهم ما كان لهم من المنزلة الرفيعة بين أبناء دينهم ، ومنهم كانوا كسائر الخلق يغضبون ، ويغارون ، ويحقدون ، ويسرفون فى النقد ، ويتكبرون . ومنهم من كان لابد لهم أن يذكروا أنفسهم المرة بعد المرة أن العالِم يحق رجل متواضع ، لأن الحكيم يرى الجزء فى ضوء الكل إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . وكان الناس يحبونهم لفضائلهم ولعيوبهم ، ويعجبون بهم لعلمهم وتقواهم ، ويروون ألف قصة وقصة تنبئ عن حكمهم ومعجزاتهم . وقد ظل اليهود إلى يومنا هذا يجلون طلاب العلم والعلماء كما لا يجلهم شعب آخر فى العالم كله .

ولما كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت أضحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة . ولذلك حاول هلل وعقيبا Akiba ومإير Meir مراراً عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرموز ، ولكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جمهرة اليهود . وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاضطراب فى نقل الشريعة هو القاعدة العامة ، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصا مروعا ، وكان مما زاد الطين بلة أن تشتت اليهود قد نشر هذه القلة فى أقطار نائية . وحوالى عام ١٨٩ تابع الحبر يهودا هنسيا Jehuda Hanasi فى قرية صبورة(*) بفلسطين عمل عقيبا ومإير ، وعدله ، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكملها ، ثم دونها ، وزاد عليها إضافات من عنده ، فكانت هى « مشنا الحبر يهودا »(**) وانتشرت هذه بين اليهود انتشاراً

(*) قرية على بحيرة طبرية فى فلسطين . (المترجم)

(**) ونرى أقلية من العلماء أن يهودا لم يدون مشناه ، وأنها أخذت تنتقل شفوياً من جيل إلى جيل حتى القرن الثامن الميلادى . ومن شاء معرفة رأى الأغلبية فليرجع إلى =

أصبحت معه بعد زمن ما هي المشنا، والصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية.

والمشنا (أي التعاليم الشفوية) كما نعرفها اليوم هي الصورة النهائية لطبعات مختلفة كثيرة وحواشي متعددة أدخلت عليها من أيام يهوذا إلى الآن . ولكنها مع هذا خلاصة مدمجة محكمة ، وضعت لكي تحفظ عن ظاهر قلب بكثرة التكرار ؛ ولهذا فإن من يقبل على قراءتها يرى أن عباراتها المحكمة الجامعة الغامضة تعذب قارئها بما تبعثه في نفسه من الآمال الخادعة اللهم إلا إذا كان هذا القارئ ملما بحياة اليهود وتاريخهم .

وقد قبلها يهود بابل وأوربا كما قبلها يهود فلسطين ، ولكن كل مدرسة فسرت أمثالها وحكمها تفسيراً يخالف ما فسرتها به الأخرى ، وجمعت ستة أجيال (٢٢٠ — ٥٠٠ م) من أحبار الأمورائم (الشراح) هاتين الطائفتين الضخمتين من الشروح وهما الجمارا الفلسطينية والبابلية ، كما اشتركت من قبل ستة أجيال (١٠ — ٢٢٠ م) من الأحبار التنائم في صياغة المشنا . وبذلك فعل المعلمون الجدد بمشنا يهودا ما فعله التنائم بالعهد القديم : فتناقشوا في النص ، وحللوه ، وفسروه ، وعدلوه ، ووضحوه لكي يطبقوه على المشاكل الجديدة ، وعلى ظروف الزمان والمكان . ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين شروطها وصاغتها في الصورة المعروفة بالجمارا الفلسطينية . وشرع الكوهن رب آشي رئيس جامعة سورا حوالي ذلك الوقت في تقنين الجمارا البابلية وظل يواصل العمل في ذلك التقنين جيلا من الزمان . وأتمه ربينا الثاني بار (ابن) شمويل ، وهو أيضا من جامعة سورا بعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٩٩) .

= كتاب ج . ف . مور المسمى « اليهودية في القرون الأولى من التاريخ المسيحي Judaism in the First Centuries of the Christian Eara طبعة جامعة كيمبردج بولاية مسشوستس عام ١٩٣٢ المجلد الأول ص ١٥١ وكذلك كتاب و . ا . أوسترلى W. O. Oesterley و . ج . ه . بكس G. H. Box, المسمى نظرة قصيرة في الآداب الدينية اليهودية في العصور الوسطى Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism.

وإذا ذكرنا أن الجمارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشرة مرة ، بدأنا نعرف لم استغرق جمعها مائة عام كاملة . وظل الأحبار السبورائم (المناطقة) مائة وخمسين سنة أخرى (٥٠٠ — ٦٥٠) يراجعون هذه الشروح الضخمة ، ويصقلون التلمود البابلي الصقل الأخير .

بقى أن نقول إن لفظ التلمود يعنى التعليم . ولم يكن الأمورائم يطلقون اللفظ إلا على المشنا . أما فى الاستعمال الحديث فهو يشمل المشنا والجمارا . . والمشنا فى التلمود البابلى هى بعينها مشنا التلمود الفلسطينى ، ولا يختلف التلمودان إلا فى الجمارا أو الشروح فهى فى التلمود البابلى أربعة أمثالها فى التلمود الفلسطينى (*) .

ولغة الجمارا البابلية والجمارا الفلسطينية هى الآرامية ،أما لغة المشنا فهى اللغة العبرية الجديدة تتخللها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللغات المجاورة . وتمتاز المشنا

(*) يشتمل التلمود البابلى على ٢٠٤٩ ورقة من القطع الكبير أى نحو ٦٠٠٠ صفحة فى كل منها ٤٠٠ كلمة . وتنقسم المشنا إلى ستة سدريمات sedarim (ست فصائل) وينقسم كل سدريم إلى عدد من المسكتات Masechtoth (المقالات) يبلغ مجموعها ثلاثاً وستين مسكتة وتنقسم كل واحدة منها إلى عدد من البرقيمات (الفصول) وكل برقيم إلى مسنيوتات (تعاليم) . وتشتمل الطبعات الحديثة من التلمود عادة على : (١) شروح راشى Rashi (١٠٤٠ — ١١٠٥) وهذه تظهر على الهامش الداخلى لصفحات النصوص و (٢) توسافوتات Tcssphoths . (إضافات) وهى مناقشات فى التلمود للأحبار الفرنسيين والألمان من رجال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وهذه تظهر على الهامش الخارجى لصفحات النصوص . وتضيف عدة طبعات إلى هذه وتلك توسفتات Tosefta (تكملات) — وهى بقايا من الشريعة الشفوية التى تخلو منها مشنا يهودا هنسيا .

وسنتمل فى هذا الفصل فضلا عن ذلك من المدرش (التفسير) وهى خطب ألقاها — على حد قولهم — التنايم أو الأمورائم ولكنها جمعت ودونت خلال الفترة المحصورة بين القرنين الرابع والثانى عشر ، وتشرح فى أسلوب شعبى سهل كتباً مختلفة من الكتب العبرية المقدسة . ومن هذه المدرشيمات (التفاسير) الكبرى تفسير جنثيز رباه Rabbah' لسفر التكوين ، وويقرا رباه لسفر اللاويين وخمسة ملفات (مجلوتات Megilloth) — تشرح إستير ، ونشيد الأنشاد ، والمراثى ، وسفر الجامعة : وتشرح المكيلتا Nschilta سفر الخروج والسفر Sifra يشرح سفر اللاويين ، والسفرى Sifre يشرح سفرى الأعداد والتثنية ، وتحتوى البسيقتا على عظات ذات صلة بفقرات من الكتاب المقدس(١٢) .

بالإيجاز ، فهى تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور ، .أما الجماريان فتتبسطان عن قصد وتعمد ، وتذكران آراء كبار الأحبار عن نصوص المشنا وتصفان الظروف التى قد تتطلب تعديل القانون وتضيفان كثيراً من الإيضاحات . ومعظم المشنا نصوص قانونية وقرارات (هَلَـكا) ، أما الجماريان فبعضهما هلكا — إعادة نص قانون أو بحثه — وبعضها هَجَدَة (قصص) . وقد عرفت الهجدة تعريفاً غير دقيق بأنها كل ما ليس هلكا فى التلمود . وأكثر ما تسجله الهجدة هو القصص ، والأمثلة الإيضاحية . وأجزاء من السير ، والتاريخ ، والطب ، والفلك ، والتنجيم ، والسحر ، والتصوف ، والحث على الفضيلة ، والعمل بالشريعة ، وكثيراً ما تروح الهجدة عن نفس الطلاب المتعلمين بعد جدل معقد متعب . ومثال ذلك ما يأتى :

بينما كان رب أمى ورب أسى يتحدثان مع الكوهن إسحق منجا إذ قال له أحدهما : « احك لنا يا سيدى قصة لطيفة » ، وقال الآخر : « لا بل أرجوك أن تفسر لنا بدلا من هذا نقطة دقيقة من النقاط القانونية » . . فلما بدأ القصة أغضب أحدهما ، ولما أخذ يشرح النقطة القانونية أغضب الآخر . فلما رأى ذلك ضرب لهما هذا المثل : « إن مثلى معكما كمثل رجل تزوج باثنتين إحداهما شابة والأخرى عجوز ، فاقتلعت الزوجة الشابة جميع شعره الأشيب حتى يبدو شاباً ، واقتلعت الزوجة العجوز جميع شعره الأسود حتى يبدو عجوزاً ، وكانت نتيجة فعلهما هذا أن أصبح الرجل أصلع »[١٣] .

الفصل الثالث

الشريعــة

فإذا حاولنا الآن على الرغم من جهلنا بالموضوع عامة أن نصوّر باختصار مخل كريه ، بعض مناحي هذا التلمود الضخم ، الذى تتأثر به كل صغيرة وكبيرة من حياة العبرانيين فى العصور الوسطى ، إذا حاولنا هذا وجب علينا أن نقر من بداية الأمر أننا إنما نخدش الجبل ، وأن معالجتنا إياه من خارجه تعرضنا لا محالة للخطأ .

الناحية الدينيــة

يقول رجال الدين اليهود إن من واجب الإنسان أن يدرس الشريعــة مسطورة وشفوية ، ومن حِكَمهم المأثورة فى هذا المعنى قولهم : «إن دراسة التوراة أجل قدراً من بناء الهيكل »[١٤] . و« إن من واجب الإنسان وهو منهمك فى دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم : « كأنا فى هذا اليوم قد تلقيناها من طورسيناء »[١٥] ، وليست الدراسات الأخرى بعد ذلك واجبة ؛ فالفلسفة اليونانية والعلوم الدنيوية لا تصح دراستها إلا فى تلك الساعة التى ليست ليلاً ولا نهاراً[١٦] . ويعتقد اليهود أن كل كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله بالمعنى الحرفى لهذه العبارة ، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمه موحى بها من عند الله — لتصور بصورة مجازية اقتران يهوه بإسرائيل عروسه المختارة(*)[١٧] . وإذ كان انعدام الشريعة تعقبه حتماً الفوضى الأخلاقية فإن

(*) ويفسر رجال الدين هذه العبارة بأنها وصف رمزى لاتحاد المسيح بالكنيسة زوجته المختارة .

الشريعة وجدت لا محالة قبل أن يخلق العالم « فى صدر الله أو عقله »(*) ، وكان إنزالها على موسى لا شىء غير حادثاً من حوادث الزمان . والتلمود أو بعبارة أدق جزؤه الذى يبحث فى الشريعة (الهلكا) هو أيضاً كلمات الله الأزلية ، وهو صياغة للقوانين التى أوحاها الله إلى موسى شفويا ثم علمها موسى لخلفائه ، ولهذا فإن ما فيها من الأوامر والنواهى واجبة الطاعة تستوى فى هذا مع كل ما جاء فى الكتاب المقدس(**) . ومن أحبار اليهود من يجعلون المشنا مرجعاً أقوى حجة من الكتاب المقدس ، لأنها صورة من الشريعة معدلة جاءت متأخرة عنها(١٨) . وكانت بعض قرارات الأحبار تتعارض تعارضاً صريحاً مع قوانين أسفار موسى الخمسة ، أو تفسرها تفسيراً يبيح مخالفتها(١٩) . وكان يهود ألمانيا وفرنسا فى العصور الوسطى يدرسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه .

ومن المبادئ البديهية فى التلمود ، كما أن من المبادئ البديهية فى الكتاب المقدس وجود إله عاقل قادر على كل شىء . وقد وجد بين اليهود من حين إلى حين عدد من المتشككين أمثال اليشع بن أيوبا العالم الذى اتخذه الكوهن مائير صديقا له ، ولكن يبدو أن أولئك المتشككين كانوا أقلية صغيرة لا تكاد تجهر بآرائها . والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر ، فهو يحب ويبغض ويغضب(٢٠) ويضحك(٢١) ويبكى(٢٢) . ويحس بوخز الضمير ،

(*) قارن بذلك ما يعتقده الصينيون الأقدمون من أن حركة العالم وبقاءه إنما يعتمدان على القانون الأخلاقى ؛ وتشبيه هرقليطس حيود الكواكب السيارة بالذنوب ؛ و « أفكار » أفلاطون النموذجية الأصلية المقدسة . وأصل هذه النظرية يرجع إلى الآية الثانية والعشرين من الأصحاح الثامن من سفر الأمثال . وقبل أقر المسيح بأزلية الشريعة (الآية ٧ من الأصحاح السابع عشر من إنجيل لوقا ، والآية الثامنة عشرة من الأصحاح الخامس من إنجيل متى) ؛ كذلك يعتقد المسلمون أن القرآن أيضاً أزلى .

(**) لم يقر أى مجمع يهودى رسمى هذا الرأى التلمودى الخاص بالتلمود ؛ واليهودية الحديثة بعد إصلاحها ترفضه .

ويلبس التمائم(٢٤) ، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفى الدرجات يقومون على خدمته ، ويدرس التوراة ثلاث مرات فى كل يوم(٢٥). ويعترف رجال الدين بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما ، ويقولون : « إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه »(٢٦) ؛ وإذا لم يكن فى مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعاً عليهم . وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة ، السارية فيه كله ، تمده بالحياة ، تسمو عليه وتلازمه فى وقت واحد ، تعلو على العالم ولكنها مع ذلك حالّة فى كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه . والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسُّكينة (السَّكَن) تكون حقيقية بنوع خاص فى الأشخاص المقدسين وفى الأماكن والأشياء المقدسة ، وفى ساعات الدرس والصلاة . لكن هذا الإله القادر على كل شىء رغم هذا إله واحد . وليس بين الأفكار كلها فكرة أبغض إلى اليهودية من تعدد الآلهة ، واليهود لا يفتئون يجهرون بوحدانية الله فى حماسة قوية ويندون بشرك الوثنية وبما يبدو فى الثالوث المسيحى من تثليث . وهم يجهرون بهذه الوحدانية فى أشهر صلواتهم وأكثرها انتشاراً بينهم صلاة شمع يسرائيل : « اسمعى يا إسرائيل ، الله إلهنا ، الله واحد » (شمع يسرائيل أدوناى إلوهينا أدوناى أحد)(٢٧) . وليس ثمة مكان بجواره فى هيكله أو عبادته إلى مسيح ، أو نبى ، أو قديس . وقد نهى أحبار اليهود الناس عن ذكر اسمه إلا فى أحوال جد نادرة يقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلة للسحر ، ولكى يتجنبوا النطق بهذا الاسم الرباعى يهوه كانوا يذكرون بدلا منه لفظ أدوناى أى الرب ، بل ويشيرون بأن يستعمل بدلا منه عبارات مثل : « الواحد المقدس » « الواحد الرحيم » « السماوات » « أبينا الذى فى السماء » . وفى اعتقادهم أن الله قادر على صنع المعجزات وأنه يصنعها فعلا ، وخاصة على أيدى كبار الأحبار ؛ ولكن يجب ألا يظن أن هذه

المعجزات خرق لقوانين الطبيعة إذ ليس ثمة قوانين إلا إرادة الله ؛

وقد خلق كل شيء لغرض إلهي طيب : « فقد خلق الله القوقعة لمداواة الجرب ، والزجاجة لمداواة لسعة الزنبور ، والبعوضة لمداواة عضة الأفعى ، والأفعى لعلاج الاحتقان[٢٨] ، وبين الله والإنسان صلة لا تنقطع ؛ وكل خطوة يخطوها إنما يخطوها أمام ناظريه لا تخفى عنه ، وكل عمل يعمله الإنسان أو فكرة تجول بخاطره في خلال يومه يمجد بها الذات الإلهية أو يغضبها . والناس كلهم أبناء آدم ، ولكن « الإنسان قد خلق أولا وله ذنب كذنب الحيوان[٢٩] و « كانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجـوه القردة »[٣٠] . ويتكون الإنسان من جسم وروح ، فروحه من عند الله ، وجسمه من الأرض ، والروح تدفعه إلى الفضيلة ، والجسم يدفعه إلى الخطيئة . أو لعل دوافعه الشريرة قد أتت إليه من الشيطان ، ومن ذلك العدد الجم من الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان[٣١] . بيد أن كل شر قد يكون في نهاية الأمر خيراً ؛ ولولا شهوات الإنسان الأرضية لما كد الإنسان أو تناسل . وتقول إحدى الفقرات الظريفة « تعال نعز الخير لآبائنا ، فإنهم لو لم يأثموا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا »[٣٢] .

والخطيئة من فطرة الإنسان ، ولكن ارتكابها ليس موروثاً ، وقد قبل أحبار اليهود عقيدة سقوط الإنسان ، ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية . فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من الذنوب ، وإذا ما لقي من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو له أنه يستحقه على ذنوبه ، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذه الذنوب كلها ، أو قد يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى ، تؤهله للخير العميم في الدار الآخرة . ومن أجل هذا يجب على الإنسان كما يقول عقيباً أن يبتهج لكثرة ما يصيبه من سوء[٣٣] . أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان ؛ وغير الآثم بحق لا يموت أبداً[٣٤] . فالموت دين على البشرية الآثمة لباعث الحياة جميعها . ويقص

علينا مدرسن قصة مؤثرة عن موت الكائن مإير فيقول :

بينما كان الكوهن مإير يلقي موعظته الأسبوعية عصر يوم من أيام السبت إذ مات ولداه المحبوبان فجاءة في منزله . فغطتهما أمهما بغطاء ، وأبت أن تندبهما في اليوم المقدس . ولما عاد الكوهن مإير بعد صلاة المساء سأل عن ولديه لأنه لم يرهما في الكنيس بين المصلين ، فطلبت إليه أن يتلو الهبدلة (وهي دعاء يختتم به السبت) وقدمت له العشاء . ثم قالت له : « لدى سؤال أريد أن أسألك إياه . ائتمنني أحد الأصدقاء في يوم من الأيام على جواهر أحفظها له ، ثم أراد الآن أن يستعيدها فهل أردها إليه ؟ » فأجابها الكوهن مإير « ذلك واجب عليك بلا ريب » ؛ فأمسكت زوجته حينئذ بيده ، وسارت به إلى الفراش ورفعت عنه المغطاء . فأخذ الكوهن مإير ينتحب ولكن زوجته قالت له : لقد كانا وديعة لدينا إلى حين والآن قد أراد سيدها أن يسترد وديعته » .

ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب ، ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير في آراء الأحبار الدينية . فقد صوروا النار على أنها جهنم Ge Hinnom أوشاول(*) ،وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تتدرج في درجات العذاب . ولا يدخلها من المختتنين إلا أخبثهم[٣٦] ، وحتى الآثمون الذين يداومون على الإثم لا يعذبون فيها إلى أبد الآبدين ، بل إن « كل من يلقون في النار يخرجون منها مرة أخرى إلا فئات ثلاثا : الزاني ، ومن يفضح غيره أمام الناس ، ومن يسب غيره »[٣٧]. أما السماء فقد كانوا يسمونها جنة عدن Gen Eden ، وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية . فخمرها عصرت من كروم احتفظ بها من

(*) كان وادى هنم كومة من الأقذار في خارج أورشليم ، تظل النار متقدة فيه لمنع انتشار الأوبئة . أما شاول فقد كانت في رأيهم مكاناً مظلماً تحت الأرض يذهب إليه جميع الأموات .

الستة الأيام التى خلق فيها العالم ، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية ، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب فى وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه . بيد أن بعض أحبار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر[٣٨] .

وإذا ما فكر اليهود فى النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة الشعب لا نجاة الفرد . وذلك أنهم وقد شتتوا فى أنحاء العالم بضروب من القسوة لا يبررها فى ظنهم عقل ، وأخذوا يقوون أنفسهم باعتقادهم أنهم لا يزالون شعب الله المحبوب المختار ، فهو أبوهم ، وهو إله عادل ، ولا يمكن أن ينكث عهده لإسرائيل . أليسوا هم الذين أنزل عليهم كتابه المقدس الذى يؤمن به المسيحيون والمسلمون ويعظمونه ؟ وقد دفعتهم شدة يأسهم إلى درجة من الكبرياء اضطر معه أحبارهم الذين سموا بهم إلى تلك الدرجة أن ينزلوا بهم عنها بضروب اللوم والتأنيب . وكانوا فى ذلك الوقت كما هم الآن يتوقون إلى البلد الذى نشأت فيه أمتهم ، وكانوا يعزونها ويرون أنها المثل الأعلى لجميع البلدان ، ويقولون « إن من يمشى أربع أذرع فى فلسطين يعيش بلا ريب إلى أبد الآبدين ، ومن يعش فى فلسطين يطهر من الذنوب »[٣٩] . « وحديث من يسكنون فلسطين فى حد ذاته توراة »[٤٠] ، وأهم قسم فى الصلوت اليومية وهو الشمونة عسرا (الفقرات الثمان عشرة) تحوى دعاء بمجىء ابن داود ، الملك المسيح الذى يجعل اليهود كما كانوا أمة متحدة ، حرة ، يعبدون الله فى هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم القديمة

٢ — الشعائر الدينية

لم يكن ما يميز اليهود من غيرهم من الشعوب فى عصر الإيمان الذى نتحدث عنه ، والذى يحفظ عليهم وحدتهم وهم مشتتون ، هو عقيدتهم الدينية بل شعائرهم ، لم يكن هو العقيدة التى لم تفعل المسيحية أكثر من التوسع فيها والتى قبل الإسلام الكثير منها بل هو قواعد الطقوس والمراسم المعقدة تعقيداً ثقيلاً لم يكن فى مقدور

شعب غير هذا الشعب المتكبر ، السريع التأثر ، أن يظهر من الوداعة والصبر ما تتطلبه إطاعته والعمل بها . لقد كانت المسيحية تنشد الوحدة عن طريق توحيد العقيدة ، أما اليهودية فكانت تنشدها عن طريق توحيد الشعائر . وفى ذلك يقول أبا أريكا : « إن الشرائع لم توضع إلا لكى تؤدب الناس وترقق طباعهم بالعمل بها »[٤١] .

ولقد كانت الشعائر أولاً وقبل كل شىء هى قانون العبادة . ولما أن حلت المعابد اليهودية محل الهيكل استبدلت بالأضاحى الحيوانية القرابين والصلوات ، ولكنهم لم يكونوا يجيزون وضع صورة لله أو للآدميين فى المعابد كما لم يكونوا يجيزون وضعها فى الهيكل . ذلك أنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان ، وكذلك كانت الموسيقى الآلية المباحة فى الهيكل محرمة فى المعابد . وفى هذا تختلف المسيحية عن اليهودية وتتفق مع الإسلام ، فقد تكشف الدينان الساميّان عن تقوى قائمة وتكشفت المسيحية عن فن مقبض قاتم كذلك .

وكانت الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودى المتدين كل يوم ، بل يكاد يمارسها فى كل ساعة . وكانت صلوات الصباح تتلى من قلقطيرات (علب صغيرة محتوية على فقرات من الكتاب المقدس) مثبتة على الجباه والأذرع ولم يكونوا يطعمون طعاما دون أن يتلوا دعاء قصيرا قبله وصلاة للشكر طويلة فى نهايته . على أنهم لم يكونوا يكتفون بهذه الصلوات المنزلية ، ذلك أن الناس لا يرتبطون ويتماسكون إلا إذا اشتركوا معاً فى القيام بأعمال واحدة ، وكان أحبار اليهود يحاجون بما عرف عن الشرقيين من مبالغة أن « الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها فى الكنيس »[٤٢] . وكان أهم ما تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو « الشمونة عسرا » ، « والشمع يسرائيل ، وتلاوة من أسفار موسى الخمسة ، ومن سفر الأنبياء ، ومزامير داود ، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب

المقدس، وعلى « قديس Kaddish » (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات) ثم دعاء ختامى . ولا يزال هذا هو الأساس الجوهرى للشعائر التى تقام فى المعابد إلى يومنا هذا .

وأدق من هذه الشعائر وأكثر منها تفصيلاً القواعد الخاصة بالنظافة البدنية أو طقوس الطهارة . فقد كان أحبار اليهود يرون أن الصحة البدنية تعين على سلامة الروح[٤٣] ، ولهذا كانوا يحرمون على بنى دينهم أن يعيشوا فى مدينة ليس بها حمّام[٤٤] ، ويعينون للاستحمام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية كقولهم : « إذا اغتسل الإنسان بماء ساخن ولم يغتسل بعده بماء بارد كان مثله كمثل الحديد الذى يحمى فى تنّور ثم لا يوضع بعدئذ فى ماء بارد »[٤٥] ، فمثل الجسم كمثل الحديد يجب أن يُسقى ويُقسّى . ويجب أن يدهن الجسم بالزيت بعد الاستحمام[٤٦] . كذلك يجب غسل اليدين عقب الاستيقاظ مباشرة ، وقبل تناول كل وجبة من الوجبات وبعد تناولها ، وقبل الصلاة العامة وقبل القيام بكل شعيرة دينية . وكانت جثث الموتى ، والاتصال الجنسى ، والحيض ، والولادة ، والحشرات ، والخنازير ، والجذام (ومختلف الأمراض الجلدية) كانت هذه كلها حسب القواعد الدينية نجسة . ومن مس شيئاً منها أو أصيب به وجب عليه أن يتوجه إلى الكنيس ويؤدى فيه شعائر التطهير . وكانت المرأة تعد نجسة (أى لا يقترب منها زوجها) أربعين يوماً بعد أن تلد ولداً ذكراً ، وثمانين يوماً إذا كانت المولودة أنثى[٤٧] . ويجب وفقاً لما ورد فى الكتاب المقدس (فى الآيات من ٩ إلى ١٤ من الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين) أن تجرى عملية الختان للمولود الذكر فى اليوم الثامن بعد مولده ، وكان هذا الختان يعد قرباناً ليهوه وعهداً بينه وبين عباده ؛ ولكن انتشار هذه العادة بين المصريين الأقدمين ، والأحباش ، والفينيقيين ، والسوريين ، والعرب ، يوحى بأنها كانت إجراء صحيا يحتمه الجو الذى يساعد على النضوج والاهتياج الجنسى المبكرين ، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة

ويؤيد هذا الرأى ما يحتمه أحبار اليهود على بنى دينهم ألا يبقوا لديهم عبداً أكثر من اثنى عشر شهراً دون ختان(٤٨) .

ولقد يخيل إلى الإنسان وهو يقرأ بعض أجزاء من التلمود أنه كتاب مبسط فى الطب المنزلى أكثر مما هو كتاب فى الشرائع الدينية ، والحق أنه كان لا بد أن يجعل بمثابة موسوعة من النصائح للشعب اليهودى . ذلك أن يهود القرن الرابع والقرن الخامس بعد الميلاد كانوا كمعظم شعوب البحر المتوسط ينزلون عائدين إلى الخرافات والحيل الطبية التى تسود بين الشعوب المنعزلة الفقيرة ؛ ولقد تسرب كثير من هذا الطب الشعبى والخرافى إلى التلمود . غير أننا مع هذا نجد فى الجمارا البابلية وصفا غاية فى الجودة للمرىء ، والحنجرة ، والقصبة الهوائية ، والرئتين ، والأغشية السحائية ، وأعضاء التناسل . وقد وصفت فيه خراجات الرئتين ونليف الكبد ، والحرَض الجَبَنى وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً ؛ ومما أثبته الأحبار أن الذباب وأكواب الشرب قد تنقل العدوى(٤٩) ، كما أثبتوا أن التَّدْمام (أى الاستهداف للنزف) داء وراثى يجعل ختان أبناء المصابين به أمراً غير مستحب . لكن هذه الآراء قد اختلطت بها رقى سحرية لطرد الأرواح الخبيثة التى يحسبونها سبباً فى الأمراض .

ولقد كان أحبار اليهود ، مثلنا نحن جميعاً ، خبراء فى التغذية الصحية . وتبدأ القواعد الحكيمة للتغذية عندهم بالأسنان . فهذه فى رأيهم يجب ألا تخلع ، مهما اشتدت آلامها(٥٠) لأن « الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدماه القوة »(٥١) . وهم يمتدحون الخضر والفاكهة ما عدا البلح ويوصون بأكلها . أما اللحم فمن مواد الترف التى يجب ألا يتناولها سوى المتطهرين(٥٢) . ويجب أن يذبح الحيوان بحيث تقل آلامه إلى أقصى حد ، وبحيث يخرج الدم من اللحم ، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس . ومن أجل هذا يجب أن يعهد ذبح الحيوان لاتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدربين ، عليهم أن يفحصوا عن أحشائه

حتى يتأكدوا من أن الحيوان سليم من الأمراض . ويجب ألا يجمع فى الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن أو بين الأطعمة التى يدخل فيها هذان الصنفان ، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر فى المطبخ(٥٣) . ولحم الخنزير محرم ممقوت ، ولا يصح أكل البيض ، أو البصل ، أو الثوم إذا كان قد ترك بالليل منزوع القشر(٥٤) . ويجب الامتناع عن تناول الطعام فى غير أوقاته المحددة : « لا تنقر طول النهار كالدجاج »(٥٥) . و« الذين يموتون من الإفراط فى الأكل أكثر ممن يموتون من نقص التغذية »(٥٦) . « والأكل إلى سن الأربعين نافع للصحة ، أما بعد الأربعين فالشرب نافع لها »(٥٧) ؛ والاعتدال فى الشرب خير من الامتناع عنه بتاتاً ، فكثيراً ما يكون الخمر دواء نافعاً(٥٨) ، و« ليس ثمة سرور إلا به »(٥٩) . وقد أراد أحبار اليهود أن يسيروا فى موضوع التغذية إلى غايته فقالوا إن « من يطل المكث فى المرحاض يطل عمره » وأشاروا بأداء صلاة شكر كلما استجاب الإنسان لنداء الطبيعة(*)(٦٠) .

وكانوا يقاومون التنسك وينصحون بنى دينهم أن يتمتعوا بطيبات الحياة إذا لم يكن فيها ما هو محرم(٦١) . وقد فرض عليهم الصيام فى مواسم معينة وفى بعض الأيام المقدسة ، ولكن لعل الدين هنا قد اتخذ وسيلة للحض على العناية بالصحة . واقتضت حكمة الشعب أن يؤمر اليهود بأن يحتفلوا بالأعياد ويقيموا الولائم من آن إلى آن ، رغم نغمات الحزن والأسى التى كانت تسمع منهم حتى فى أفراحهم . « يجب على الإنسان أن يدخل السرور فى العيد على زوجته وآل بيته » . ويجب عليه إن استطاع أن يهيئ لهم ثياباً جديدة(٦٢) . ويبدو أن السبت — وهو أعظم ما ابتدعه اليهود — كان عبئاً ثقيلا عليهم فى أيام التلمود ، فقد كان ينتظر من اليهودى التقى أن يجعل كلامه أقل ما يستطيع ، وألا يوقد النار فى منزله ، وأن يقضى الساعات عاكفاً على الصلاة فى الكنيس . وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل

(*) أى كلما ذهب إلى المرحاض .

الوافى الممل عما يجوز عمله وما لا يجوز فى السبت . ولكن فتاوى الأحبار كانت تهدف إلى التقليل من أهوال التقوى أكثر مما تهدف إلى زيادتها . وكان ما فيها من الدقة يرمى إلى تلمس الأسباب المقنعة لحمل الإنسان على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله فى يوم الراحة .. يضاف إلى هذا أن اليهودى الصالح كان يجد سعادة خفية فى التمسك بشعائر السبت القديمة : فكان يبدؤه بقداس قصير . كان وهو محوط بأفراد أسرته وبأصدقائه (لأن هذا اليوم كان من الأيام التى يحلو فيها دعوة الأصدقاء) ، يمسك بيده كأساً مملوءة بالخمر ، يتلو عليها بعض الأدعية ، ثم يشرب بعضها ويناول الكأس لضيوفه وزوجته وأبنائه . ثم يأخذ بعدئذ الخبز ويباركه ، ويحمد الله « الذى يخرج الخبز من الأرض » ، ويعطى بعضه لكل من يجلسون معه على المائدة . ولا يجوز الصوم أو الحزن فى السبت .

وكانت أيام مقدسة كثيرة تتخلل العام وتتيح لليهود الفرص للاحتفال بالذكريات المقدسة أو للراحة المحببة . فمنها عيد الفصح اليهودى الذى يبدأ فى الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل) ويستمر ثمانية أيام يحيى فيها ذكرى فرار اليهود من مصر : وكانوا فى الأيام الأولى من العهد الذى أوحى فيه بالكتاب المقدس يسمونه عيد الخبز الفطير ، لأن اليهود قد فروا ومعهم العجين الذى يصنعون منه خبزهم دون أن يختمر . وكان هذا العيد يسمى فى أيام التلمود عيد المرور ، لأن يهوه وهو يقضى على البكور من أبناء المصريين قد « مر » بالبيوت التى رش من فيها من اليهود دم الحمل على قوائم أبوابها[٦٣] . وكان اليهود يحتفلون فى اليوم الأول من هذا العيد بوجبة عيد الفصح (السدر) ، فكان كل أب يرأس حفلة الصلاة لأسرته المجتمعة عنده ، ويقوم معهم بمراسم تذكرهم بأيام موسى البئيسة ، ينقل فى خلالها عن طريق الأسئلة والأجوبة القصة القيمة العزيزة إلى الأبناء الصغار وفى عيد العنصرة ، وموعده بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح يحتفل اليهود فى عيد شيوعوت بحصاد القمح وتجلى الله لموسى على الجبل فى سيناء . وفى اليوم الأول من

تشرين — وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية ، والشهر الأول من سنة اليهود المدنية — وهو يتفق بوجه عام مع الاعتدال الخريفي يحتفل اليهود بعيد رأس السنة ، وبهلال الشهر ، وينفخون فى قرن الحمل (الشفار أى الصفارة) إحياء لذكرى نزول التوراة ، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب ، واستعجالا لذلك اليوم السعيد حين يدعى جميع يهود العالم ليعبدوا الله فى أورشليم . ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام توبة وتكفير عن الذنوب ، وكان أتقياء اليهود فى هذه الأيام جميعها ما عدا اليوم التاسع منها يصومون ويصلون ، فإذا جاء اليوم العاشر المسمى يوم هاكبريم (يوم الغفران) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يحتذوا نعالا أو يقوموا بعمل أو يستحموا أو يقربوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، بل كانوا يقضون النهار كله فى الكنيس يصلون ، ويعترفون بذنوبهم ، ويستغفرون لها هي وذنوب بنى دينهم ، يستغفرون لهذه الذنوب بما فيها عبادة العجل الذهبى نفسه . وفى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين يحل عيد سوكوت أو عيد المظلات . وكان المفروض أن يقضى اليهود هذا العيد فى أخصاص إحياء لذكرى الخيام التى يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يوما التى قضوها فى البيداء . ولما وجد اليهود المشتتون صعابا جمة فى الاحتفال بعيد الحصاد هذا كما هو مفروض عليهم بالدقة ، أظهر أحبارهم ما يتصفون به من تسامح بأن فسروا السكة (الخيمة) بأنها كل ما يصح أن يرمز به للمسكن . وفى اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع شهر كسلو (ديسمبر) والسبعة الأيام التالية لهذا اليوم يقع عيد حَنُكة أو التكريس ، الذى يذكرهم بتطهير الهيكل من المكابيين (١٦٥ ق . م) ، بعد أن دنسه أنتيوخوس إپفانيز Antiochuc Epiphanes ؛ وفى الرابع عشر من آذار (مارس) يحتفل اليهود بعيد پوريم الذى أنجى فيه موردكى وإستر الشعب من مكر الوزير الفارسى هامان . وكانوا فى ذلك اليوم يتبادلون الهدايا والدعوات أثناء وليمة مرحة يشربون

فيها الخمر . وفى ذلك يقول رب ربا Rab Raba إن على الإنسان أن يشرب فى ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم « ملعون هامان » و « ملعون مورد كى »[٦٤] .

وليس من حقنا أن نظن أن هؤلاء اليهود التلموديين قوم مفرطون فى التشاؤم يحز فى نفوسهم احتقار من حولهم من الشعوب لمواهبهم ، تتقاذفهم أعاصير العقائد المتباينة ، يهيمون فى بيداء الآمال بالرجوع إلى بلادهم . ذلك أنهم وهم يعانون مرارة التشتت والظلم ، والندم والفقر ، كانوا يرفعون رؤوسهم عالية ، ويتذوقون لذة العمل والكفاح فى سبيل الحياة ، ويستمتعون بما يتحلى به نساؤهم المثقلات من جمال قصير الأجل وما فى الأرض والسماء من جلال مقيم . وفى ذلك يقول كوهنهم ماير : « يجب أن ينطق الإنسان فى كل يوم بمائة دعوة صالحة »[٦٥] . ويقول كوهن آخر قولا ما أجدرنا كلنا أن نعمل به « إذا مشى إنسان أربعة أذرع لا أكثر لم يطأطىء فيها رأسه أغضب الله ؛ ألم يرد فى الكتاب المقدس « مجده ملء كل الأرض »[٦٦] .

٣ ــ المبادئ الأخلاقية فى التامود

ليس التامود موسوعة من التاريخ ، والدين ، والشعائر ، والطب ، والأقاصيص الشعبية وحسب ، بل هو فوق هذا كله رسالة فى الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصناعة ، والمهن ، والتجارة[٦٧] ، وشئون المال ، والضرائب ، والملك والرق ، والميراث ، والسرقة ، والمحاكمات القضائية ، والقوانين الجنائية . وإذا شئنا أن نوفى هذا الكتاب حقه من البحث ، كان علينا أولا أن نلم بطائفة كبيرة العدد من العلوم المختلفة ، وأن نكتسب منها ما تهيؤه لعقولنا من الحكمة وسداد الرأى ، ونستخدم تلك الحكمة الجامعة فى الإلمام بأحكام هذا الكتاب فى الميادين المختلفة السالفة الذكر .

وأول ما نذكره أن التلمود أولا وقبل كل شىء قانون أخلاقى ، وأن هذا القانون

الأخلاقى شديد الاختلاف عن القانون الأخلاقى المسيحى وعظيم الشبه بالقانون الإسلامى ، حتى لتكفى نظرة خاطفة إليه لدحض الرأى السائد فى العصور الوسطى القائل بأنه ليس إلا قصة المسيحية فى تلك العصور . إن الأديان الثلاثة الكبرى متفقة فى أن المبادئ الأخلاقية الفطرية — غير الدينية — تصلح لأن تكون قواعد عملية للإنسانية ، وترى أن الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تحمل على المسلك الحسن والخلق القويم إلا عن طريق خوف الله . ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاقى على مبادئ رئيسية واحدة : أن لله عيناً تبصر كل شىء ، ويداً تسجل كل شىء ، وأن القانون الأخلاقى منزل من عند الله ، وأن الفضيلة تتفق فى آخر الأمر مع السعادة بما يناله المحسن بعد الموت من الثواب والمسىء من العقاب . ولم يكن من المستطاع فى الدينين الساميين فصل القوانين الثقافية والأخلاقية من الدين ، فلم تكن هذه القوانين تجيز التفرقة بين الجريمة والخطيئة ، أو بين الشر والشريعة الكنسية ، بل إن من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم . يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته ولاسمه جل جلاله .

وتتفق الأديان الثلاثة فضلا عن هذا فى بعض قواعد الأخلاق : تتفق فى حرمة الأسرة والمسكن ، وفيما يجب للآباء وكبار السن من تكريم وإجلال ، وفى حب الأبناء ورعايتهم ، وفى عمل الخير لجميع الناس . وليس ثمة شعب أكثر من اليهود حرصاً على تجميل الحياة العائلية ، ولقد كان عدم الزواج عن قصد من الآثام الكبرى فى اليهودية كما هو فى الإسلام(٦٨) ، وكان إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التى يحتمها الدين(٦٩) ، وتنص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها ٦١٣ قاعدة ، وفى ذلك يقول أحد المعلمين اليهود(٧٠) « إن من لا ولد له يعد من الأموات » ، ويتفق اليهودى ، والمسيحى ، والمسلم أن البشرية تصبح مهددة بالزوال إذا ما فقدت قوتها أوامر الدين التى تقضى بوجوب إنجاب الأبناء . على أن أحبار اليهود أباحوا تحديد عدد أفراد الأسرة فى

بعض الأحوال ، ويفضلون أن تكون السبيل إلى هذا هى منع الحمل ، وفى ذلك يقول بعضهم : « هناك ثلاث طبقات من النساء يجب عليهن أن يستعملن الأدوية الماصة : القاصر خشية أن يقضى الحمل على حياتها ؛ كيلا تكون النتيجة هى الإجهاض ، والمرضع حتى لا تحمل فتضطر إلى فطام الرضيع قبل الأوان فيموت الطفل »[٧١] .

وكان اليهود ، كما كان معاصروهم ، يكرهون أن يلدوا بنات ويسرون إذا أنجبوا الذكور ، ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذى يحمل اسم أبيه واسم الأسرة ، ويرث أملاكه ، ويعنى بقبره بعد وفاته ؛ أما البنت فسوف تتزوج فى بيت غريب وقد يكون بيتاً بعيداً ، ولا تكاد تتم تربيتها حتى يفقدها أبواها . لكن الآباء متى رزقوا الأبناء ، ذكورا كانوا أو إناثاً ، أعزوهم وأدبوهم تأديباً ممزوجاً بالحب وفى ذلك يقول أحد أحبارهم : « إذا كان لا بد لك أن تضرب طفلك ، فاضربه برباط حذاء »[٧٢] . ويقول آخر «إذا امتنع الإنسان عن عقاب طفل ، انتهت به الحال إلى الفساد المطلق»[٧٣] . وكان من الواجب على الآباء أن يتحملوا كل تضحية تتطلبها تربية الأبناء أى تثقيف العقل ، وتقويم الخلق بدراسة « الشريعة وأسفار الأنبياء » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن العالم ينجو بنَفَس تلاميذ المدارس »[٧٤] . فالسُكينة أو الحضرة الإلهية تتجلى فى وجوههم ، وفى نظير هذا يجب على الابن أن يعظم والديه ويحميهما بكل ما فى وسعه وفى جميع الأحوال .

والصدقات من الواجبات التى لا مفر من أدائها وإن « من يتصدق لأعظم ممن يقدم كل القرابين »[٧٥] . ولقد كان بعض اليهود أشحاء ، وبعضهم بخلاء إلى أقصى حدود البخل ، ولكنهم بوجه عام يفوقون سائر الشعوب فى هباتهم وتبرعاتهم ، وقد بلغ من سخائهم فى هذه الناحية أن اضطر أحبارهم إلى أن ينهوهم عن إعطاء أكثر من خمس أموالهم للصدقات ؛ ومع هذا فقد وجد عند

وفاة بعضهم أنهم قد أعطوا نصف ما يملكون رغم هذا التحريم[٧٦] . « لقد كانت تلوح على وجه أبا أومنا على الدوام هالة من الطمأنينة القدسية ؛ ذلك بأنه كان جراحا ولكنه لم يكن يرضى أن يمسك بيديه أجراً على عمله ، بل كان له صندوق فى ركن حجرة استشارته يستطيع من كان فى مقدوره أداء شىء من المال أن يضع فيه ما يرغب فى أدائه ... وحتى لا يعترى الخجل من يعجز عن أداء شىء منه »[٧٧] . وكان رب هونا « إذا جلس لتناول الطعام فتح أبوابه ونادى : من كان فى حاجة فليدخل ويطعم »[٧٨] . وكان شاما بن إلعى Chama ben Elai يطعم الخبز كل من يطلبه ويضع يده فى كيس نقوده كلما سار فى خارج داره حتى لا يحجم أحدعن سؤاله[٧٩] . ولكن التلمود كاد يؤنب التظاهر بالبذل ويشير بأن يكون سراً ويقول « إن من يعطى الصدقات سراً أعظم من موسى »[٨٠] .

ووجه رجال الدين كل ما أوتوا من علم وبلاغة لامتداح نظام الزواج الذى كان هو والدين الأساس الذى يقوم عليه صرح الحياة اليهودية كلها . ولم ينددوا بالشهوة الجنسية ولكنهم كانوا يخشون قوتها وبذلوا جهدهم فى كبح جماحها . فنهم من كان ينصح بأكل الملح مع الخبز « ليقل المنى »[٨١] ، ومنهم من كان يحس بأن الوسيلة الوحيدة لكبح جماح الشهوة الجنسية هو العمل المجهد مضافاً إلى دراسة التوراة ؛ فإذا لم يجد هذه الوسيلة « فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، وليلبس سود الثياب ، وليفعل ما تبتغيه نفسه ، ولكن عليه ألا يدنس اسم الله جهرة »[٨٢] . وعلى الإنسان أن يبتعد عن كل المواقف التى تثير شهوته ؛ فلا يكثر من الحديث مع النساء ، « ولا يمشى فى الطريق خلف امرأة ولو كانت زوجته ... وخير للإنسان أن يمشى خلف أسد من أن يمشى خلف امرأة »[٨٣] وتظهر فكاهة أحبار اليهود المبهجة مرة أخرى فى قصة رب كهنا Reb Kahan .

فقد كان مرة يبيع سلال النساء وإذا هو يتعرض لغواية الشيطان ؛ وأخذ يقاوم طبيعته راجيا أن ينطلق هذه المرة على أن يعود إذا نجا . ولكنه بعد أن تغلب

على نفسه لم يعد بل صعد إلى سقف بيت وألقى بنفسه من فوقه ؛ وقبل أن يصل إلى الأرض وصل إليه اليشع وأمسك به ولامه على أن اضطره إلى قطع مسافة أربعمائة ميل لكى يحول بينه وبين إهلاك نفسه[٨٤] .

ويلوح أن أحبار اليهود يرون أن البكورية لا بأس بها ، ولكن البكورية الدائمة هى بعنيها وقف النماء الطبيعى ، ويعتقدون أن كمال المرأة فى كمال الأمومة ، كما أن أسمى فضائل الرجل فضيلة الأبوة الكاملة . وكان من الواجب على كل أب أن يدخر بائنة لكل بنت من بناته ومهراً يمهر به كل ولد من أولاده عروسه حتى لا يتأخر زواج الولد والبنت تأخراً يضر بصحتهما . وكانوا يشيرون بالزواج المبكر — فى الرابعة عشرة للبنت وفى الثامنة عشرة للولد . وكان القانون يبيح زواج البنت إذ بلغت سنها اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وزواج الولد فى الثالثة عشرة من عمره . وكان يباح للطلاب المشتغلين بدراسة الشريعة أن يؤخروا زواجهم بعض الوقت . ومن الأحبار من كانوا يقولون إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الاقتصادى قبل أن يقدم على الزواج : « على الرجل أولا أن ينشئ البيت ، ثم يغرس الكرمة ، ثم يتزوج »[٨٥] . — ولكن هذا الرأى هو رأى الأقلية ولعله لا يتعارض مع الزواج المبكر إذا ما تكفل الأبوان بتدبير العون المالى المطلوب . وكانوا ينصحون الشاب بألا يختار زوجته لجمالها بل لصفاتها التى سوف تجعلها فى المستقبل أمًّا صالحة[٨٦] ، ويقولون « اهبط درجة فى اختيار الزوجة ، وأرق درجة فى اختيار الصديق »[٨٧] ، ومن يختر لنفسه زوجة من طبقة فوق طبقته يدع الناس إلى احتقاره .

وأجاز التلمود ، كما أجاز العهد القديم والقرآن ، تعدد الزوجات ؛ ومن أقوال أحد الأحبار فى هذا المعنى : « يستطيع الرجل أن يتزوج أى عدد من النساء يشاء » ولكن فقرة ثانية فى مقاله هذا تحدد عدد الزوجات بأربع ، وتطلب

فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ له زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى إذا أرادت هى الطلاق(٨٨) . ونظام تعدد الأزواج هذا تفترضه كذلك العادة القديمة التى يطالب اليهودى بمقتضاها أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته ؛ وأكبر الظن أن منشأ هذه العادة لم يكن هو العطف والشفقة فحسب ، بل كانت تقوم فوق ذلك على الرغبة فى الإكثار من النسل فى مجتمع ترتفع فيه نسبة الوفيات شأنه فى ذلك شأن كل المجتمعات التى قامت فى العصور القديمة والعصور الوسطى .

وبعد أن يسر الأحبار للرجل إشباع غريزته الجنسية على هذا النحو جعلوا الزنى من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام ، وكان منهم من يقول مع المسيح إن « الإنسان قد يزنى بعينيه »(٨٩) ، ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقال : « إن من يتطلع إلى خنصر امرأة لا أكثر قد ارتكب إثماً فى قلبه »(٩٠) . ولكن رب أريكا أرق من هؤلاء وأولئك قلبا إذ يقول : « يجد الإنسان فى كتاب سيئاته يوم الحشر كل شىء رآه بعينيه وأبى أن يستمتع به(٩١) .

وأبيح الطلاق برضا الطرفين ؛ فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق إلا برضاه ، وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقها بغير رضاها . وطلاق الزوجة الزانية أمر واجب ، كذلك يشار بطلاق الزوجة إذا ظلت عقيما عشر سنين بعد الزواج(٩٢) . ولم تكن مدرسة شماى تبيح طلاق المرأة إلا إذا زنت ، أما مدرسة هلل فقد أباحت للرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها « شيئاً معيباً » ؛ وكانت الغلبة فى أيام التلمود لرأى هلل ، وقد ذهب فيه عقيبا إلى حد بعيد فقال إن « فى وسع الرجل أن يطلق زوجته ، إذا وجد امرأة أخرى أجمل منها »(٩٣) . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته إذا عصت أوامر الشريعة اليهودية ، بأن سارت أمام الناس عارية الرأس ، أو غزلت الخيط فى الطريق العام ، أو تحدثت إلى مختلف أصناف الناس أو « إذا كانت عالية الصوت أى إذا كانت تتحدث فى بيتها ويستطيع جيرانها سماع ما تقول »(٩٤) ولم يكن عليه فى هذه الأحوال

أن يرد إليها بائنتها . ولم يكن هجر الرجل زوجته يوجب طلاقها منه[٩٥] ؛ وأباح بعض رجال الدين للزوجة أن تلجأ إلى المحكمة تطلب الطلاق من زوجها إذا قسا عليها ، أو كان عنينا ، أو أبى أن يؤدى الواجبات الزوجية ، أو لم ينفق عليها النفقة التى تليق بها[٩٦] ، أو كان مشوهاً أو نتناً[٩٧] . وكان الأحبار يحاولون تقليل الطلاق بأن يضعوا فى سبيله إجراءات قانونية معقدة ، ويفرضون فى جميع الأحوال — إلا القليل النادر منها — استيلاء الزوجة على البائنة والمهر ؛ ويقول الحاخام إلْعِزَر Eleazar « إن المذبح نفسه ليذرف الدمع على من يطلق زوجة شبابه »[٩٨] .

وجملة القول أن قوانين التلمود ، بوجه عام ، من وضع الرجال وأنها لذلك تحابى الذكور محاباة بلغ من قوتها أن بعثت فى نفوس أحبار اليهود الفزع من قوة المرأة ، وهم يلومونها ، كما يلومها الآباء المسيحيون ، لأنها أطفأت « روح العالم » بسبب تشوف حواء المنبعث عن ذكائها . وكانوا يرون أن المرأة « خفيفة العقل »[٩٩] ، وإن كانوا يقرون لها بأنها وهبت حكمة غريزية لا وجود لها فى الرجل[١٠٠] . وهم يأسفون أشد الأسف لما جبلت عليه المرأة من ثرثرة : « لقد نزلت على العالم عشرة مكاييل من الكلام ؛ أخذت المرأة منها تسعة ، وأخذ الرجل واحداً »[١٠١] . ونددوا بانهماكها فى السحر وما إليه من الفنون الخفية[١٠٢] ، وفى الأصباغ والكحل[١٠٣] . ولم يكونوا يرون بأساً فى أن ينفق الرجل بسخاء على ملابس زوجته ، ولكنهم كانوا يطلبـــون إليها أن تجمل نفسها لزوجها لا لغيره من الرجال[١٠٤] . وفى القضاء — على حد قول أحد الأحبار — « تعدل شهادة مائة امرأة شهادة رجل واحد »[١٠٥] ؛ وكانت حقوق النساء المِلْكية محددة فى التلمود بالقدر الذى كانت محددة به فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر ؛ فكاسبهن وما يؤول إليهن من ملك لهن حق لأزواجهن[١٠٦] ، ومكان المرأة هو البيت . ويقول أحد الأحبار المتفائلين إن المرأة فى « عصر المسيح الثانى ستلد

طفلاً في كل يوم »[١٠٧] وإن « الرجل الذى له زوجة خبيثة لن يرى وجه جهنم »[١٠٨] ، ويقول عقيبا من جهة أخرى إنه ليس أغنى من الرجل الذى له امرأة اشتهرت بأعمالها الطيبة[١٠٩]: ويقول أحد المعلمين اليهود إن « كل شيء يصدر عن المرأة[١١٠] » . وقد جاء فى أحد الأمثال العبرية : « إن كل ما فى البيت من نعم وبركات قد جاء إليه عن طريق الزوجة ، ولهذا فإن من الواجب على زوجها أن يكرمها . . . وليحذر الرجال من أن يبكوا المرأة ، فإن الله يعدّ دموعها »[١١١] .

ولقد جمع ناشر غير معروف فى أبهج جزء من أجزاء التلمود ، وهو الرسالة الصغيرة المسماة برقى أبوت Pirke Aboth (الأصول السياسية) ، حكم كبار الأحبار الذين عاشوا فى القرنين السابقين لمولد المسيح والقرنين التاليين له . وكثير من هـذه الأمثال يمتدح الحكمة وبعضها يعرفها ويحدد معناها !

قال بن زوما : من هو الحكيم ؟ هو الذى يتعلم من كل إنسان ... من هو القوى ؟ هو الذى يخضع ميوله (الخبيثة) ... من يسيطر على روحه خير ممن يستولى على مدينة . من هو الغنى ؟ هو الذى يسر بما قسم له . . . من هو الكريم هو الذى يكرم بنى جنسه[١١٢] . . . لا تحتقر إنساناً ولا تحتقر شيئاً ، فليس ثمة إنسان ليست له ساعته ، وليس ثمة شيء ليس له مكانه[١١٣] . . . لقد نشأت طول عمرى بين الحكماء ، ولقد وجدت أن لا شيء أحسن للإنسان من الصمت . . .[١١٤] .

وقد اعتاد الكوهن إلعيزر أن يقول : مثل من تزيد أفعاله على حكمته ، كمثل شجرة كثرت فروعها وقلت جذورها ، إذا هبت عليها الريح اقتلعتها وألقتها على وجهها . . . أما من تزد حكمته على أفعاله فمثله كمثل شجرة قلت أغصانها وكثرت جذورها لو أن رياح العالم كلها هبت عليها لما زحزحتها من مكانها[١١٥] .

الفصل الرابع

الحياة والشريعة

ليس التلمود من التحف الفنية ، ذلك بأن جمع أفكار ألف عام كاملة ووضعها فى مجموعة مترابطة متناسقة عمل لا يقوى عليه حتّى مائة حبر من الأحبار الصابرين . وما من شك فى أن كثيراً من المقالات قد وضعت فى غير موضعها من الكتاب ، وأن عدداً من الفصول قد وضع فى غير المقالات التى يجب أن يوضع فيها ، وأن موضوعات تبدأ ، ثم تترك ، ثم تبدأ من جديد على غير قاعدة موضوعة . وليس الكتاب ثمرة تفكير بل هو التفكير نفسه ، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه وكثيراً ما تترك النقط المتعارضة دون أن تحل وتفسر . وكأننا قد اجتزنا خمسة عشر قرنا من الزمان لننصت إلى نقاش أشد المدارس إخلاصا ونستمع إلى عقيبا ومإير ويهودا هنسيا ورب فى أثناء جدلهم العنيف . وإذا ما ذكرنا أننا فضوليون متطفلون ، وأن هؤلاء الرجال وغيرهم قد اختطفت ألفاظهم العارضة اختطافاً من أفواههم وقذف بها فى نصوص لم تكن معدة لها ، ثم أرسلت تجلجل خلال القرون الطوال ، إذ ذكرنا هذا استطعنا أن نعفو عما نجده فى هذه الأقوال من جدل ، وسفسطة ، وأقاصيص غير صادقة ، وتنجيم ، وحديث عن الجن والشياطين ، وخرافات ، ومعجزات ، وأسرار الأعداد ، وأحلام وحى ، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجا مهلهلا من الخيالات والأوهام ، والغرور الذى يغريهم ويأسو جراحهم ويخفف عنهم آلام آمالهم الضائعة .

وإذا ما اشمأزت نفوسنا من قسوة هذه القوانين ، ومن دقة هذه النظم وتدخلها فيما لا يصح أن تتدخل فيه ، وما يجازى به من يخرقها من شدة وبطش ، فإن من واجبنا ألا نحمل هذه المسألة محمل الجد ، ذلك أن اليهود لم يدعوا قط أنهم يطيعون

هذه الوصايا كلها ، وأن أحبارهم كانوا يغضون أبصارهم عما يجدونه فى كل صفحتين من كتابهم من ثغرات بين نصائحهم التى تدعو إلى الكمال ، وبين ما فى الطبيعة البشرية من ضعف خفى . وفى ذلك يقول أحد الأحبار الحذرين : « لو أن إسرائيل قد حرصت الحرص الواجب على سبت واحد لجاء ابن داود من فوره »(١١٦) . ولم يكن التلمود كتاب قوانين يطلب إلى اليهود إطاعتها جملة وتفصيلا ، بل كان سجلا لآراء الأحبار ، جمعه جامعوه ليهدوا به الناس إلى التقى على مهل ، ولم تطع الجماهير غير المثقفة إلا قلة مختارة من الأوامر التى جاءت بها الشريعة .

ويهتم التلمود اهتماما كبيراً بالشعائر الدينية ، ولكن بعض هذا الاهتمام كان رد فعل من اليهود لما بذلته الكنيسة المسيحية والدولة من محاولات لإرغامهم على التخلى عن شريعتهم . ولقد كانت هذه الشعائر سمة تميزهم ، ورابطة تجمع شتاتهم وتصل بين مختلف أجيالهم ، وشعارا يتحدون به عالما لا يعفو قط عنهم . وإنا لنجد فى مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين كلمات حقد على المسيحية ، ولكنها حقد على مسيحية نسيت رقة المسيح وظرفه ، مسيحية اضطهدت المتمسكين بشريعة أمر المسيح أتباعه بالعمل بها ، مسيحية يرى أحبار اليهود أنها حادت عن مبدإ التوحيد جوهر الدين القويم وأساسه الذى لا يتبدل . وإنا لنجد بين هذه الشعائر والطقوس المعقدة ، وهذا الجدل الشائك الطويل ، مئات من النصائح السديدة ، والبصيرة النفسانية ، تتخللها فى بعض الأحيان فقرات تعيد إلى الذاكرة جلال كتاب العهد القديم أو الحنان الصوفى الذى تراه فى العهد الجديد . وإن ما يمتاز به اليهودى من فكاهة شاذة غريبة الأطوار لتخفف عنه عبء هذا الدرس الطويل . انظر مثلا إلى ما يقوله أحد أحبارهم من أن موسى دخل متخفيا إلى الحجرة التى يلقى فيها عقيبا دروسه ، وجلس فى الصف الأخير ، ودهش من

كثرة القوانين التى استنبطها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية ، والتى لم يحلم بها قط كاتبها[١١٧] .

ولقد ظل التلمود أربعة عشر قرناً من الزمان أساس التربية اليهودية وجوهرها . وكان الشاب العبرانى ينكب عليه سبع ساعات فى كل يوم مدى سبع سنين ، يتلوه ويثبته فى ذاكرته بلسانه وعينه ؛ وكان هو الذى يكون عقولهم ويشكل أخلاقهم بما تفرضه دراسته من نظام دقيق ، وبما يستقر فى عقولهم من معرفة ، شأنه فى هذا شأن كتابات كنفوشيوس التى كان يستظهرها الصينيون كما يستظهر اليهود التلمود . ولم تكن طريقة تعلمه مقصورة على تلاوته وتكراره ، بل كانت تشمل فوق ذلك مناقشته بين المدرس والتلميذ ، وبين التلميذ والتلميذ ، وتطبيق القوانين القديمة على ما يستجد من الظروف . وقد أفادت هذه الطريقة حدة فى الذهن ، وتقوية للذاكرة ، وتثبيتاً للمعلومات ، ميزت اليهودى من غيره فى كثير من الميادين التى تتطلب الوضوح ، وتركيز الذهن ، والمثابرة ، والدقة ، وإن كانت فى الوقت نفسه قد عملت على تضييق أفق العقل اليهودى والحد من حريته . ولقد روض التلمود طبيعة اليهودى الثائرة المهتاجة ، وكبح جماح نزعته الفردية ، وبث فيه روح العفة والوفاء لأسرته وعشيرته ؛ ولربما كان « نير الشريعة » عبئاً ثقيلا على ذوى العقول السامية الكبيرة ، ولكنها كانت السبب فى نجاة اليهود بوجه عام .

وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس فى ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذى أبقى على شعب مطرود ، معدم ، مظلوم ، يتهدده خطر التفكك التام . ولقد فعل أحبار اليهود فى تشتتهم الواسع ما فعله أنبياؤهم للاحتفاظ بالروح اليهودية فى الأسر البابلى . فقد كان لا بد لهم من أن يعيدوا إليهم عزتهم وكبرياءهم ، وأن يعملوا على أن يستقر بينهم النظام ، ويثبتوا فى قلوبهم الإيمان ، ويحافظوا على أخلاقهم القويمة ، ويعيدوا إليهم سلامة العقول وصحة الأبدان اللتين حطمتهما

المحن الطوال[١١٨] . وبفضل هذا التأديب الشاق ، وعرس أصول التقاليد اليهودية فى صدر اليهودى بعد اقتلاعها ، عاد الاستقرار وعادت الوحدة ، عن طريق التجوال فى أطراف القارات والأحزان خلال القرون الطوال ؛ ولقد كان التلمود على حد قول هينى Heine وطناً متنقلا لليهود يحملونه معهم أينما ساروا . فحيثما وجد اليهود ، حتى وهم جالية واجفة فى أرض الغربة ، كان فى وسعهم أن يضعوا أنفسهم مرة أخرى فى عالمهم ، وأن يعيشوا مع أنبيائهم وأحبارهم ، وذلك بأن يرووا عقولهم وقلوبهم من فيض الشريعة . فلا غرابة والحالة هذه إذا أحبوا هذا الكتاب الذى نراه نحن أكثر تنوعاً واختلافاً مما كتبه مائة كاتب من أمثال منتانى Montaigne . ولم يكفهم الاحتفاظ بالكتاب كله ، بل احتفظوا بأجزاء صغيرة منه بحب يصل إلى درجة الجنون ، وكانوا يتبادلون قراءة نتف من هذا المخطوط الضخم ، وأنفقوا فى القرون المتأخرة أموالا طائلة لطبعه كاملا ، وبكوا حين كانت الملوك والبابوات ، والمجالس النيابية تحرم تلاوته ، أو تصادره ، أو تحرقه ؛ وابتهجوا حين رأوا روشلين Reuchlin وإرزمس Erasmus يدافعان عنه ، وعدوه فى أيامنا هذه أثمن ما تمتلكه معابدهم وبيوتهم ، واتخذوه ملجأ وسلوى ، وسجناً للروح اليهودية .

الباب السادس عشر

يهود العصور الوسطى

٥٦٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

المجتمعات الشرقية

كان لليهود وقتئذ شريعة ولكنهم لم تكن لهم دولة ؛ كان لهم كيان ، ولم يكن لهم وطن . ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام ٦١٤ مدينة مسيحية ، وإلى عام ٦٢٩ فارسية ، وإلى عام ٦٣٧ مسيحية مرة أخرى ، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام ١٠٩٩ حاضرة إسلامية . وفى ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون ، وانضم اليهود إلى المسلمين فى الدفاع عنها ، فلما سقطت فى أيدى الصليبيين سيق من بقى فيها حياً من اليهود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن آخرهم[1] ، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام ١١٨٧ أعقب ذلك ازدياد سريع فى عدد اليهود ، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلثمائة من أحبارهم الذين فروا من إنجلترا وفرنسا فى عام ١٢١١ استقبالا حسناً . لكن ابن نحمان لم يجد فيها بعد خمسين عاماً من ذلك الوقت إلا حفنة صغيرة من اليهود[2] ، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين .

وظل اليهود كثيرى العدد فى سوريا والعراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه فى بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام . وأضحت لهم فى ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية . ولقد ظلوا فى شئونهم الداخلية ،

كما كانوا فى عهد الملوك الساسانيين ، يتمتعون بالحكم الذاتى تحت إشراف الإجزيلارك (رئيس اليهود فى المهجر) ومديرى المجامع الدينية . واعترف الخلفاء المسلمون بالإجزيلارك فى كل من بلاد بابل ،وأرمينية ، والتركستان ، وفارس ، واليمن ، رئيساً لجميع اليهود فيها ؛ ويقول بنيامين التطيلى إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن « يقوموا واقفين فى حضرة أمير الأسر ، وأن يحيوه باحترام »[٣] . وكان منصب الإجزيلارك وراثياً فى أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود ، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً ، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه ، وأصبح مديرو المجامع العلمية بعد عام ٧٦٢ هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه .

وكانت الكليات الدينية فى سورا Sura وبمبديثا Pumbeditha تخرج الزعماء الدينيين والعقليين لليهود فى بلاد الإسلام ، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل لليهود فى البلاد المسيحية . وحدث فى عام ٦٥٨ أن أخرج الخليفة مجمع سورا العلمى من اختصاص الإجزيلارك القانونى ، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاؤن Gaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاؤنية ، وعهد الجاؤنيم فى الدين والعلم البابليين[٤] . ولما ازدادت موارد كلية بمبديثا وعظمت منزلتها لقربها من بغداد ، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاؤن ؛ وكاد اليهود فى جميع أنحاء العالم فيما بين القرن السابع إلى القرن الحادى عشر يستفتون الجاؤنيم فى المدينتين فيما يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية ، ونشأ لليهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانونى جديد .

وحدث فى الوقت الذى قامت فيه الجاؤنية انشقاق دينى فرق العالم اليهودى فى الشرق وزلزلت له أركانه — أو لعل هذا الانشقاق نفسه هو الذى حتم قيام الجاؤنية فى ذلك الوقت . ذلك أنه لما توفى الإجزيلارك سليمان ، طالب ابن أخيه عنن بن داود بحقه فى أن يخلفه فى منصبه ، ولكن زعماء سورا وبمبديثا طرحوا

مبدأ الوراثة وراءهم ظهريا ونصبوا حنانيا أخا عنن الأصغر إجزلاركا فى مكانه . فما كان من عنن إلا أن طعن فى الجاوئين ، وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسا خاصا به ، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينبذوا التلمود وألا يطيعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة . وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذى كان عليه الصدوقيون ؛ وكان شبيها بما ينادى به بعض الشيعة فى الإسلام من نبذ « السنة » النبوية واتباع القرآن وحده ، وما يطالب به البروتستنت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل . على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر فى أسفار موسى الخمسة ويشرحها شرحا يعد خطوة جريئة فى سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس . واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل فى الشريعة الموسوية وما يحاولونه فى تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة فى أيامهم ، وأصر على اتباع ما جاء فى الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها ، ولهذا سمى أتباعه بالقرائين(*) — أى « المتمسكين بالنصوص » وامتدح عنن عيسى وقال إنه رجل صالح لم يرغب فى نبذ شريعة موسى المدونة ، بل كل ما كان يطلبه أن ينبذ الناس قوانين الكتبة والفريسيين الشفوية . ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب فى وضع دين جديد ، بل كان يرغب فى تطهير الدين اليهودى وتدعيمه(٥) . وكثر اليهود القراءون فى فلسطين ، ومصر ، وأسپانيا ، ثم نقص فى القرن الثانى عشر ، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية آخذة فى الانقراض فى تركيا وجنوبى الروسيا ؛ وبلاد العرب . ونبذ القراءون فى القرن التاسع ما كان ينادى به عنن من تفسير حرفى لنصوص الشريعة ، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء فى الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله ، يجب أن تؤخذ على سبيل المجاز ، ولعلهم فى قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة المسلمين .

(*) من اللفظ الأرامى قرا أى النص وهذا اللفظ نفسه مشتق من قرأ ، ومنه أيضا القرآن .

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الربانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها ، وقالوا إن ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات أمثال « يد الله » وجاوس الله » يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقى ، بل إن بعضهم قد تغالى فى هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله ، وطول أطرافه ، ولحيته[٦] . ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبى البلخى Chivi al-Balchi كانت تنادى بأن أسفار موسى الخمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة[٧] . فى هذه البيئة التى تمتاز بالرخاء الاقتصادى ، والحرية الدينية ، والجدل العنيف أنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودى ذائع الصيت فى العصور الوسطى .

ولد سعديا بن يوسف فى قرية من قرى الفيوم فى عام ٨٩٢ . وشب فى مصر وتزوج فيها ثم هاجر منها إلى فلسطين فى عام ٩١٥ ، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل . وما من شك فى أنه كان طالبا مجدا ومعلما قديرا ، لأنه عين وهو شاب فى السادسة والثلاثين من عمره جاؤنا أى مديراً لكلية سورا . وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع فى الدين اليهودى القديم ، فآلى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون للدين الإسلامى — فيبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الاتفاق مع العقل والتاريخ . وأخرج سعديا فى حياته القصيرة التى لم تتجاوز خمسين عاماً مقداراً ضخماً من المؤلفات — معظمها — لا يماثلها فى سجل التفكير اليهودى فى العصور الوسطى إلا مؤلفات ابن ميمون . ومن هذه المؤلفات « الأجرون » وهو معجم آرامى للغة العبرية يعد أساسا للفلسفة العبرية ؛ ومنها « كتاب اللغة » وهو أقدم ما عرف من كتب فى نحو اللغة العبرية . وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التى يستخدمها جميع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية ، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس « لتكاد تجعله » أعظم شارح للكتاب المقدس فى جميع العصور[٨] » ؛ ويعد « كتاب الأمانات والاعتقادات » (٩٣٣) أعظم رد فى الدين اليهودى على الخارجين على هذا الدين .

ويؤمن سعديا بالوحى والتواتر معاً أى بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل ، ويطالب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحى والتواتر . فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحا مع حكم العقل ، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته . كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقة ؛ ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر . ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر . وليس من العقل فى شيء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة ، ولكن الفضيلة ، كما هو واضح ، لا يثاب عليها دائما فى هذه الحياة ؛ ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوّض ما يبدو فى هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهرى ؛ ولعل آلام الصالحين فى هـــذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبوه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم ، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة ، حتى ... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقومون بأحسن الأعمال الصالحة فى هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون فى أعماق قلوبهم أن ثمة حالا خيراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة المتعة ، وكيف يجوز لله الذى اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال فى النفس إذا لم يشأ أن تتحقق ؟(٩) ، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم فى الشرح والإيضاح ، بل إنه استعار منهم فى بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش . وقد انتشرت آراؤه فى جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون ، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون : « لولا سعديا لكادت التوراة أن تختفى من الوجود »(١٠) .

وهنا يجب أن نقر بأن سعديا كان رجلا فظا إلى حد ما ، وأن نزاعه مع الإجز يلارك داود بن زكاى قد أضر بيهود بابل . وكانت نتيجة هذا النزاع أن

أعلن داود فى عام ٩٣٠ حرمان سعديا ، وأن أعلن سعديا حرمان داود . ولما مات داود فى عام ٩٤٠ نَصَّب سعديا إجزيلاركاً جديداً ، ولكن المسلمين قتلوا هذا الإجزيلارك لأنه طعن فى النبى محمد . فما كان من سعديا إلا أن عيّن ابن القتيل خلفاً ، وقُتل هذا الشاب أيضاً ؛ وحينئذ قرر اليهود بعد أن فت فى عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً ، وبذلك انتهى عهد الإجزيلاركية البابلية الذى دام سبعة قرون . وكان تفكك الخلافة العباسية فى بغداد وقيام دول إسلامية مستقلة فى مصر ، وشمالى أفريقية ، وأسپانيا سبباً فى ضعف الروابط بين يهود آسية وأفريقية وأوربا وأصيب يهود بابل بما أصيب به الإسلام فى الشرق من ضعف اقتصادى بعد القرن العاشر الميلادى ، فأغلقت كلية سورا أبوابها فى عام ١٠٣٤ وحذت حذوها پمبديثا بعد أربع سنين ، وانتهى عهد الجاؤنية فى عام ١٠٤٠ ؛ وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر وأوربا ، ولما خرب المغول بغداد فى عام ١٢٢٨ كادت الجالية اليهودية البابلية أن تختفى من صفحات التاريخ .

وكان كثيرون من يهود الشرق قد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى أقاصى آسية الشرقية ، وبلاد العرب ، ومصر ، وشمالى أفريقية وأوربا ؛ فكان فى سيلان ٢٣٫٠٠٠ عبرانى فى عام ١١٦٥[11] ، وبقيت فى بلاد العرب عدة جاليات يهودية بعد أيام النبى ؛ ولما فتح عمرو بن العاص مصر فى عام ٦٤١ كتب إلى الخليفة يقول إن فى الإسكندرية أربعة آلاف من اليهود « أهل الذمة » . ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائين . وكان يهود مصر يستمتعون بالحكم الذاتى فى شئونهم الداخلية بزعامة النجيد أو أمير اليهود ، وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية فى حكومات الدول الإسلامية[12] . وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من بارى Bari فى إيطاليا ، ولكن

أحد أمراء البحر الأندلسيين المسلمين أسر سفينتهم وباعهم بيع الرقيق ، فبيع الحبر موسى وابنه حنوخ فى قرطبة ، وبيع سحرية فى الإسكندرية ، وبيع الحبر هوسيل فى القيروان . ثم أعتق كل واحد من هؤلاء الأحبار ، كما تقول الرواية ، وأنشأ فى المدينة التى بيع فيها مجمعاً علمياً . والشائع على الألسنة ، وإن لم يكن هذا مؤكداً ، أنهم كانوا من علماء سورا ؛ وأياً كانت نشأتهم فقد نقلوا العلم من يهود الشرق إلى الغرب ؛ وبينما كانت اليهودية فى آسية آخذة فى الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها فى مصر وأسبانيا .

الفصل الثاني

الجماعات اليهودية فى أوربا

اتخذ اليهود طريقهم إلى بلاد الروسيا فى العصور الوسطى من بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز ، وإلى ساحل البحر الأسود من آسية الصغرى مجتازين القسطنطينية . وظل اليهود فى تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء النكد من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر . وكان فى بلاد اليونان جماعات يهودية كبيرة وبخاصة فى طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظيمة . وهاجر اليهود شمالا إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية ، ثم ساروا بمحاذاة نهر الدانوب إلى بلاد المجر . وجاءت حفنة من التجار العبرانيين من ألمانيا إلى پولندة فى القرن العاشر لأن اليهود كانوا فى ألمانيا من قبل ميلاد المسيح . فكان فى متز Metz ، واسپير Speyer ، ومينز Mainz ، وورمز Worms ، واستر سبورج Strassbourg ، وفرنكفورت Fraokfort ، وكولونى جاليات يهودية كبيرة فى القرن التاسع ، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلتها التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير فى تاريخ اليهود الثقافى . ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا (٩٦٠ — ١٠٢٧) مجمعاً علمياً للأحبار فى مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلمود ، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل فى شريعة التلمود بدل أن يستفتوا فى ذلك جاونيم بابل .

وكان فى إنجلترا يهود فى عام ٦٩١[١٣] ، وجاء إليهم عدد آخر كبير منهم مع وليم الفاتح Will.am the Conqueror ، وبسط عليهم النورمان الفاتحون فى أول الأمر حمايتهم لما كانوا يمدونهم به من رءوس الأموال وما كانوا يقومون به من

من جباية الإيراد . وكانت جماعاتهم المقيمة فى لندن ، ونورتش Norwich ، ويورك ، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاة الأمور المحليين فى شئونها القانونية ، فكانت لا تخضع إلا للملوك أنفسهم . ووسعت هذه العزلة التخصائية الهوة بين المسيحيين واليهود ، وكانت سبباً من أسباب المذابح المدبرة التى حدثت فى القرن الثانى عشر .

وكان فى غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر ، وقبل أن يحل عام ٦٠٠ بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية فى جميع المدن الكبرى فى غالة ؛ واضطهدهم الملوك المروفنجيون بوحشية ، وأمرهم كلبريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحى على بكرة أبيهم وإلا فقأ أعينهم (٥٨١)[١٤] ؛ أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعا ، وصناعا ، وأطباء ، ورجال مال نافعين ، واختار يهوديا ليكون طبيبه الخاص ، وإن كان قد أبقى على القوانين التى تحرم اليهود من بعض الحقوق التى يتمتع بها غيرهم . وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها إنه استقدم فى عام ٧٨٧ أسرة قلونيموس Kalo ıyn os من لكا Lucea إلى مينز ليشجع الدراسات اليهودية فى دول الفرنجة ، ثم أرسل فى عام ٧٩٧ يهوديا مترجماً أو مفسراً مع بعثة سياسية إلى هارون الرشيد . وكان لويس التقى Louis the Pious يميل إلى اليهود لعملهم فى تنشيط التجارة ؛ وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم ؛ واستمتع اليهود فى فرنسا فى القرنين التاسع والعاشر بقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتعوا به بعدئذ قبل أيام الثورة الفرنسية ؛ وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص ، وما يفرض عليهم من القيود القانونية ، وما يصيبهم أحياناً من الاضطهاد القليل[١٥]. وكانت فى إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات يهودية منتشرة من ترانى Trani إلى البندقية وميلان ، وكان اليهود كثيرين فى بدوا بنوع خاص ، ولعلهم كان لهم أثر فى نشر فلسفة ابن رشد فى جامعتها . وكان فى سالرنو Salerno ، حيث أنشئت فى البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب فى

العصور الوسطى ، ستمائة يهودى[١٦] . منهم عدد من مشهورى الأطباء . وكان فى بلاط فردريك الثانى فى فجيا Foggia طائفة من العلماء اليهود ، وعين البابا الاكسندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) عدداً من اليهود فى المناصب الكبرى فى بيته[١٧] ، ولكن فردريك اشترك مع البابا جريجورى التاسع فى اتخاذ إجراءات ظالمة ضد يهود إيطاليا .

وكان يهود أسپانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim ، ويرجعون بأصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية[*] ؛ ولما اعتنق الملك ريكارد Recared الدين المسيحى الأصيل ، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء أتباع الكنيسة الأسپانية فى مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم ، فحرمت عليهم المناصب العامة ، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء أرقاء مسيحيين . وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع اليهود أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (٦١٣) ، وألغى الملك الذى خلفه على العرش هذا الأمر ، ولكن مجلس طليطلة الذى عقد فى عام ٦٣٣ أصدر قراراً ينص على أن اليهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين اليهودى يجب أن يفصلوا عن أبنائهم ، وأن يباعوا أرقاء . وأعاد الملك شنتيلا Chintila العمل بمرسوم سيزبوت (٦٣٥) ؛ وحرم الملك إجيكا Egica على اليهود امتلاك الأراضى كما حرم كل عمل مالى وتجارى بين أى مسيحى ويهودى (٦٩٣) . وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهودُ العرب حين جاءوا أسپانيا فاتحين فى كل خطوة من خطوات الفتح .

(*) يطلق اسم سفرد Sepharad فى سفر عبدية (الكتاب الأول الفصل ٢٠) على إقليم (لعله آسية الصغرى) نقل إليه الملك نابوخذ نصر (٥٩٧ ق . م) بعض اليهود ، ثم أطلق هذا اللفظ بعدئذ على بلاد أسپانيا . وكان يهود ألمانيا يسمون تسمية غير دقيقة أشكنازيم لا نتسابهم المزعوم إلى أشكناز Ashkenaz حفيد يافث بن نوح (سفر التكوين ، الأصحاح العاشر ، الآية ٣) .

وأراد الفاتحون أن يعمروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها ، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودى من آسية وأفريقية[١٨] ، وكاد سكان بعض المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود . ولما أن تحرر اليهود فى أسپانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادى انتشروا فى جميع ميادين الزراعة ، والصناعة ، والمال ، والمناصب العامة ؛ ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واتبعوا عاداتهم ، فلبسوا العمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة ، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من بنى عمومتهم الساميين . واستخدم عدد من اليهود أطباء فى بلاط الخلفاء والأمراء وعين أحد هؤلاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة .

فقد كان حسداى بن شبروط (٩١٥ — ٩٧٠) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ما كانه نظام الملك فى القرن التالى لملك شاه . وقد ولد حسداى فى أسرة ابن عزرا المثرية المثقفة ؛ وعلمه أبوه اللغات العبرية ، والعربية ، واللاتينية ؛ ودرس الطب ، وغيره من العلوم فى قرطبة ، وداوى الخليفة من أمراضه ، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة فى الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه فى الهيئة الدپلوماسية للدولة ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره كما يلوح . ثم عهدت إليه تباعاً أعمال أخرى ذات تبعات متزايدة فى حياة الدولة المالية والتجارية . على أنه لم يكن له لقب رسمى لأن الخليفة تردد فى منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس . ولكن حسداى قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب ، واليهود ، والمسيحيين على السواء ، وقد شجع العلوم والآداب ، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلا ثمن ، وجمع حوله ندوة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ؛ فلما مات تنافس المسلمون واليهود فى تكريم ذكراه .

وكان ثمة رجال غيره فى أنحاء أخرى من أسبانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه . ففى أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم والفلكى، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاخاماً أكبر لكل المجامع اليهودية فيها(١٩) ؛ وفى غرناطة نافس شمويل هلوى ابن نجـدلا Samuel Halevi ibn Naghdela حسداى ابن شبروط فى سلطانه وحكمته وفاقه فى علمه . وقد ولد شمويل فى قرطبة عام ٩٩٣ ونشأ فيها ، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربى ، وجمع بين هذين وبين الاتجار فى التوابل . ولما أن سقطت قرطبة فى أيدى البربر ، انتقل إلى مالقة ، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة . وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخط وحسن الأسلوب فزار شمويل ، وصحِبَه إلى غرناطة ، وأسكنه فى قصر الحمراء ، وجعله أمين سره . وما لبث شمويل أن أصبح أيضاً مستشاره ، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمويل بشىء فإن صوت الله يسمع فيما يشير به(٢٠) . وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمويل ، وبذلك أصبح شمويل فى عام ١٠٢٧ اليهودى الوحيد الذى شغل منصب وزير فى دولة إسلامية وحظى بهذا اللقب . ومما يسر هذا الأمر فى غرناطة أكثر منه فى أى بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة فى القرن الحادى عشر كانوا يهوداً(٢٠) . وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار ، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت فى عهد شمويل من النواحى المالية ، والسياسية ، والثقافية . وكان هو نفسه عالماً ، وشاعراً ، ونابغة فى الفلك ، والرياضة ، واللغات ، يعرف سبعاً منها ؛ وقد ألَّف عشرين رسالة فى النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات فى الشعر والفلسفة ، ومقدمة للتلمود ، ومجموعة من الأدب العبرى . وكان يقتسم ماله مع غيره من الشعراء ، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبيرول ، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب ، وأعان الجماعات اليهودية فى قارات ثلاث . وكان وهو وزير الملك حاخاماً لليهود ، يحاضر عن التلمود . ولقبه بنو ملته — اعترافاً منهم

بفضله — بالنجيد — الأمير (فى إسرائيل) . ولما توفى عام ١٠٥٥ خلفه فى الوزارة ، والنجادة ابنه يوسف بن نجدلا .

وكانت هذه القرون الثلاثة — العاشر ، والحادى عشر ، والثانى عشر — هى العصر الذهبى ليهود أسپانيا ، وأسعد عصور التاريخ العبرى الوسيط ، وأعظمها ثمرة . ولما أن افتدى موسى بن شنوك (المتوفى عام ٩٦٥ وأحد المهاجرين من بارى) من الأسر فى قرطبة ، أنشأ فيها بمعونة حسداى مجمعاً علميا ، ما لبث أن أصبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله . وافتتحت مجامع مثله فى أليسانة ، وطليطلة ، وبرشلونة ، وغرناطة . . . ؛ وبينما كادت المدارس اليهودية فى الشرق تقصر نشاطها على التعليم الدينى ، كانت هذه المدارس الأسپانية تعلّم فيما تعلّمه الأدب : والموسيقى ، والرياضيات ، والهيئة ، والطب ، والفلسفة[٢١] . وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسپانيا فى ذلك الوقت سعة وعمقاً فى الثقافة والظرف لم ينلهما إلا معاصروهم من المسلمين ، والبيزنطيين ، والصينيين . وكان مما يسربل الرجل المؤثر أو صاحب المركز السياسى بالعار ألا يلم بالتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والشعر[٢٢] . ونشأت فى ذلك الوقت أرستقراطية يهودية تزدان بمن فيها من النساء الحسان ؛ ولعلها قد أفرطت فى الاعتداد بتفوقها على غيرها ، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبهما واجبات من السخاء والفضل .

ويمكننا أن نؤرخ بداية تدهور يهود أسپانيا من سقوط يوسف بن نجدلا . ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه ، ولكنه لم يكن له ما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد — ونصفهم من المسلمين الأندلسيين — يرتضون أن يتولى أمورهم يهودى . من ذلك أنه جمع السلطة كلها فى يده ، وتشبه بالملك فى لباسه . وسخر من القرآن . وتحدث الناس بأنه لا يؤمن

بالله . ولهذا ثار العرب والبربر فى عام ١٠٦٦ وصلبوا يوسف ، وذبحوا أربعة آلاف من يهود غرناطة ، ونهبوا بيوتهم ، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد . وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاما من ذلك الوقت متأججة صدورهم بالحماسة الدينية ومتمسكين بأصول السنة ، وانتهى بقدومهم عصر أسبانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد . ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن اليهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خمسمائة عام من الهجرة ، إذا لم يظهر فى ذلك الوقت مسيحهم المنقذ المنتظر ، وأن هذه الأعوام الخمسمائة تنتهى بالحساب الهجرى فى عام ١١٠٧ ؛ وطلب الأمير يوسف إلى جميع يهود أسبانيا أن يعتنقوا الإسلام ، ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة [٢٣] . ولما خلف الموحدون المرابطين فى حكم مراكش وبلاد الاندلس الإسلامية (١١٤٨) ، خيروا اليهود والمسيحيين كما خير الملك سيز بوت اليهود قبل خمسمائة وخمسة وثلاثين عاما من ذلك الوقت بين الارتداد عن دينهم أو الخروج من البلاد . وتظاهر كثيرون من اليهود باعتناق الإسلام ، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمالى أسبانيا .

وهنا وجد اليهود في بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالا عما ظلوا يلقونه مدى أربعة قرون تحت حكم المسلمين . وأحسن الفنسو السادس والسابع ملكا قشتاله (الأذفونش) معاملة اليهود ، وجعلاهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون ، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (١١٠٧) فى طليطلة ، حيث كان ٧٢٫٠٠٠ يهودى ، قمعها بصرامة[٢٤] . وحدث فى أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين ، الأم والابنة ، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك چيمس الأول اليهود أن يستوطنوا ميورقة ، وقطلونية ، وبلنسية ، وكثيراً ما كان يمنح المستوطنين اليهود بيوتا وأرضين من غير ثمن[٢٥] . وكانت لهم فى برشلونة السيطرة على التجارة فى القرن الثانى عشر ، كما كان لهم نصف أراضيها الزراعية[٢٦] . نعم إن يهود

أسبانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة ، ولكنهم مع ذلك أثروا ، واستمتعوا فيها بالاستقلال فى شئونهم الداخلية . وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين ، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا فى الأعياد ، وكان بعض الملوك من حين إلى حين يشترك بالمال فى بناء المعابد اليهودية(٢٧) ، وكان فى وسع الإنسان أن يجد بين عامى ١٠٨٥ و ١٤٩٢ نفسها يهودا يشغلون المناصب الكبرى فى دول أسبانيا المسيحية منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيون ، ومنهم الوزراء أحياناً (٢٨) . واشترك رجال الدين المسيحيون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى هذه الألفة المسيحية(٢٩) .

وكانت بداية عدم التسامح الدينى بين اليهود أنفسهم . ذلك أن يهودا ابن عزرا المتولى شئون قصر ألفنسو السابع ملك ليون وقشتالة وجه فى عام ١١٤٩ قوة حكومة مليكه ضد اليهود القرائين فى طليطلة . ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقتئذ ، ولكن اليهود القرائين الأسبان الذين كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر (٣٠) . ودخل بعض الصليبيين أسبانيا فى عام ١٢١٢ ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها ، وكانوا فى أغلب الأحوال يحسنون معاملة اليهود ، ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود طليطلة وقتلت كثيرين منهم ، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنيهم ، ووضعوا حداً لاضطهادهم(٣١) ، وأدخل ألفنسو العاشر ملك قشتالة بعض المواد المجحفة باليهود فى قانونه الصادر عام ١٢٦٥ ، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام ١٣٤٨ ، وكان ألفنسو فى ذلك الوقت يستخدم طبيباً وخازناً لبيت المال يهودياً ، وأهدى إلى يهود أشبيلية ثلاثة من مساجد المسلمين ليجعلوها معابد لهم(٣٢) ، واستمتع بما خلعه العلماء اليهود والمسلمون على حكمه اللطيف من مجد . ولما احتاجت مغامرات بدرو الثالث pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه ، كان وزير ماليته وعدد آخر من موظفيه يهودا ، ولما ثار أعيان البلاد ومدنها على الملكية ، اضطر الملك

إلى إقصاء أعوانه اليهود عن مناصب الدولة ، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتيز Cortes (١٢٨٣) بألا يعين بعد ذلك الوقت أي يهودي في المناصب الحكومية .

وكانت خاتمة عهد التسامح الديني حين أصدر مجلس زمورا Zamora الديني (١٣١٣) قراراً بأن يلبس اليهود شـارة تميزهم من غيرهم ، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين ، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم خدم مسيحيون[٣٣] .

الفصل الثالث

الحياة اليهودية فى البلاد المسيحية

١ — الحكومة

لم تحتم المدن المسيحية فى العصور الوسطى — إذا استثنينا پالرم وقليلا ن المدن الأسپانية — أن يعيش من فيها من اليهود منعزلين عن سائر السكان . لكن اليهود كانوا فى العادة يعيشون فى عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهلين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامتهم الجسمية ووحدتهم الدينية . وكان كنيسهم مركز الحى اليهودى الجغرافى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود ، ولهذا ازدحمت المساكن حوله ازدحاماً كبيراً ، وأضر ذلك الازدحام بالصحة العامة والخاصة . وكانت الأحياء اليهودية فى أسپانيا تحتوى على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوى على أكواخ قذرة ، أما فى غيرها من بلاد أوربا فكادت المساكن أن تكون أحياء قذرة وبيئة مزدحمة بالسكان[٣٤] .

وكانت الجماعات اليهودية طوائف منعزلة شبه دمقراطية وسط عالم ملكى مطلق ، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر فى الانتخابات وفى الاختيار للوظائف فى جميع أنحاء العالم . وكان دافعوا الضرائب من الجماعات اليهودية يختارون أحبار الكنيس وموظفيه . وكانت فئة قليلة العدد من الكبار المنتخبين تكوّن بيت الدين أو المحكمة الشعبية ؛ وهذه المحكمة هى التى كانت تجبى الضرائب ، وتحدد الأثمان ، وتتولى القضاء ، وتصدر القرارات الخاصة بالطعام ، والرقص ، والأخلاق ، والملبس ، ولم تكن هذه القرارات تطاع على الدوام . وكان من حقها

أن تحاكم من يعتدون على القانون اليهودى من اليهود أنفسهم ، وكان لها موظفون ينفذون أوامرها ، وكانت العقوبات التى توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الدينى أو النفى ، وقلما كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التى توقعها ؛ وكانت المحكمة اليهودية تستعيض عن هذا الإعدام بالحرمان التام ؛ يصدر فى احتفال فخم مرعب توجّه فيه التهم ، وتصب فيه اللعنات ، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحى . وكان اليهود يسرفون فى استخدام الحرمان ، كما كان يفرط فيه المسيحيون ، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير . وكان رؤساء اليهود الدينيون — كما كان رؤساء الكنيسة المسيحيون — يضطهدون الملاحدة ، ويحرمونهم من حماية القانون ، ويحرقون كتبهم فى حالات نادرة(٣٥).

ولم تكن الجماعات اليهودية فى الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك . تؤدى إليه المال بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذى يحمى حقوقها الدينية والاقتصادية ؛ وكانت فيما بعد تؤدى المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتى بشؤنهم الداخلية . إلا أن اليهود مع ذلك . كانوا يخضعون لقوانين الدولة . وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة : وقد ورد فى التلمود أن « قانون البلد شريعة »(٣٦) ، وتقول إحدى فقراته : « صلوا لسلامة الحكومة ، فلولا خوف الناس منها لابتلع بعضهم بعضاً »(٣٧) .

وكانت الدولة تجبى من اليهود « الفرضة » أو ضريبة الرؤس ، وعوائد الأملاك . وكانت تصل أحياناً إلى ٣٣٪ من قيمتها ، وضرائب على اللحم ، والخمور ، والحلى ، والواردات ، والصادرات ؛ فضلا عن التبرعات «الاختيارية» للمساعدة على تمويل الحروب ، أو تتويج الملوك ، أو «مقدمهم» أو رحلاتهم . وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم فى القرن الثانى عشر ½ ٪ فى المائة من السكان

يؤدون للدولة ٨ ٪ من الضرائب العامة . وقد أدوا هم رُبع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية ، وأدوا فيما بينهم ٥٠٠٠ مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن[٣٨] . كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود ، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم ولمساعدة اليهود المضطهدين فى فلسطين . وكان الملك فى أى وقت من الأوقات يصادر أملاك « يهوده » بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب ؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع « رجال » الملك . وكان الملك إذا مات ينتهى العهد الذى قطعه بحماية اليهود ، ولم يكن من يخلفه على العرش يرضى بأن يجدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال ، قد يبلغ فى بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود فى الدولة[٣٩] . من ذلك مافعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجريف برندنبرج Margrave of Brandenburg فى عام ١٤٦٣ إذ أعلن أن كل ملك ألمانى جديد « يجوز له ، عملا بالسنن القديمة ، إما أن يحرق جميع اليهود ، أو يظهر لهم رحمته ، فينقذ حياتهم ، ويأخذ ثلث أملاكهم »[٤٠] ولقد لخص براكتن Bracton كبير المشترعين اليهود فى القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال : « ليس من حق اليهودى أن يكون له ملك خاص ، لأن ما يحصل عليه أيا كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك »[٤١] .

٢ — الشئون الاقتصادية

وكانت هناك فضلا عن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية . نعم إن اليهود لم يكونوا يمنعون بحكم القانون من تملك العقار ، ولم يكونوا يمنعون من تملكه بوجه عام ، وقد كانوا فى أوقات مختلفة فى العصور الوسطى يمتلكون أراضى واسعة فى بلاد الأندلس الإسلامية وأسبانيا المسيحية ، وفى صقلية ، وسيليزيا ، وبولندة ،

وإنجلترا ، وفرنسا(٤٢) ؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمراً غير ميسر من الوجهة العملية يزداد صعوبة على مر الأيام . ذلك أن اليهودى ، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين ، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود ، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستئجار عمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة . يضاف إلى هذا أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهودى أن يعمل فى يوم السبت ، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه من العمل فى يوم الأحد ، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة فى سبيله ؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودى أن يكون له منزلة فى النظام الاقتصادى لأن هذه المنزلة تتطلب منه أن يقسم يمين الولاء للمسيحية ، وأن يقوم بالخدمة العسكرية ، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح(٤٣) . ولما حكم القوط الغربيون أسپانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود ، « وأمم » الملك إجيكا جميع أملاك اليهود التى كانت ملكا للمسيحيين فى أى وقت من الأوقات ، وفى عام ١٢٩٣ حرم مجلس الكورتيز فى بلد الوليد بيع الأراضى لليهود ؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود فى كل وقت من الأوقات من احتمال طردهم من البلاد ، أو مهاجمتهم ، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأرضين أو العيش فى الريف . كل هذه الصعاب ثبطت همة اليهود فى الاشتغال بالزراعة ومالت بهم إلى حياة الحضر ، وإلى العمل فى الصناعة والتجارة والشئون المالية .

ونشط اليهود فى الشرق الأدنى وجنوبى أوربا فى الصناعة ، والحق أن اليهود كانوا فى معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعى الراقى من بلاد الإسلام إلى بيزنطية وإلى البلاد الغربية ، ولقد وجد بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela مئات من صانعى الزجاج فى أنطاكية ، وصور ؛ واشتهر اليهود فى مصر وبلاد

اليونان بجمال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من نوعها ، وكان فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر لا بعد يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ليشرفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة فى صقلية ؛ وكان اليهود فى تلك الجزيرة وفى غيرها من البلاد يشتغلون فى الصناعات المعدنية وبخاصة فى الصباغة وصناعة الحلى ، وظلوا يعملون فى مناجم القصدير فى كورنوول إلى عام ١٢٩٠[٤٤] . وانتظم الصناع العبرانيون فى أوربا الجنوبية فى طوائف للحرف قوية ، وكانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة ، أما فى أوربا الشمالية فقد احتكرت طوائف أرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات ؛ وأخذت الدول المختلفة واحدة فى إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين ، ونجارين ، وخياطين ، وحذائين ، وطحانين ، وخبازين ، وأطباء ؛ كما حرمت عليهم بيع الخمور ، والدقيق ، والزبد ، والزيت فى الأسواق[٤٥] ، وابتياع مساكن لأنفسهم فى أى مكان خارج عن الأحياء اليهودية .

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة وكان رب Rab ، العالم التلمودى البابلى ، قد وضع لبنى ملته شعارا يدل على ثاقب فكره : « تاجر بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر ؛ أما إن استغللت هذا القدر نفسه فى الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح »[٤٦] . وكان البائع اليهودى الجائل معروفا فى كل مدينة وبلدة ، والتاجر اليهودى معروفا فى كل سوق ومولد ؛ وكانت التجارة الدولية عملا تخصصوا فيه ، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادى عشر ، فكانت أحمالهم ، وقوافلهم ، وسفائنهم تجتاز الصحراوات ، والجبال ، والبحار ، وكانوا فى معظم الحالات يصحبون بضائعهم . وكانوا هم حلقة الاتصال التجارى بين بلاد المسيحية والإسلام ، وبين أوربا وآسية ، وبين الصقالبة والدول الغربية ؛ وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق[٤٧] ؛ وكان يعينهم على النجاح فى التجارة مهارتهم فى تعلم اللغات ، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على

فهم اللغة العبرية ، وتشابه عادات اليهود وقوانينهم ، واستضافة الحى اليهودى فى كل مدينة لأى يهودى غريب . ولهذا استطاع بنيامين التطيلى أن يجتاز نصف العالم وأن يجد له أينما حل موطنا . ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب البريد فى الدولة العباسية عام ٨٧٠ فى كتابه المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والفرنجية ، والأسبانية ، والصقلبية ، ويصف المسالك البرية والبحرية التى ينتقلون بها من أسبانيا وإيطاليا إلى مصر ، والهند ، والصين[٤٨] . وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان ، والعبيد ، والحرير المطرز ، والفراء ، والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى ، ويعودون منها بالمسك ، والند ، والكافور ، والتوابل ، والمنسوجات الحريرية[٤٩] . ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط ، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود ، وقضى فى القرن الحادى عشر على زعامة اليهود التجارية . وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها ، ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهنسية The Hansatic League موانيها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطى فى وجه التجارة اليهودية[٥٠] ، وقبل أن يحل القرن الثانى عشر أضحى الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية ، وكانت هذه التجارة حتى فى هذا المجال الضيق تحددها القوانين التى تحرم على اليهود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع[٥١] .

ـ فلم يكن لهم بد من العودة إلى شئون المال . ذلك أنهم وجدوا أنفسهم فى بيئة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجماهير أملاكهم الثابتة . أو أن يصادرها الملوك الجشعون ، فأرغمتهم هذه الظروف على أن يجعلوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك ؛ فعمدوا أولا إلى ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد ، ثم انتقلوا منه إلى تلقى المال لاستثماره فى التجارة ، ثم إلى إقراض المال بالربا .

وكانت أسفار موسى(٥٢) والتلمود(٥٣) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرمه بين اليهودى وغير اليهودى . ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل ، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحا نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة ، أخذ اليهود يقرض بعضهم بعضا المال عن طريق وسيط مسيحى(٥٤) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكا موصيا(*) فى المشروع وأرباحه — وهى وسيلة آجازها أحبار اليهود ، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين(٥٥) . وإذ كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يحرمان الربا ، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادرى الوجود قبل القرن الثالث عشر ، فإن المقترضين المسلمين والمسيحيين — ومنهم رجال الدين المسيحيون ، والكنائس والأديرة(٥٦) — كان هؤلاء المقترضون يلجأون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من المال . وحسبنا دليلا على هذا أن هارون اللنكلنى Aaron of Lincoln هو الذى قدم ما يلزم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian ، وبناء دير سانت أولبنز St. Albans(٥٧) العظيم . ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان فى القرن الثالث عشر ، واستعانوا بالوسائل التى أوجدها وسار عليها اليهود ، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم الثراء واتساع نطاق الأعمال . « ولم يكن المرابى المسيحى أقل صرامة » من مياه اليهودى « وإن لم يكن أولها فى حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذى يحتاجه الثانى من خطر القتل والسلب والنهب »(٥٨) فكان كلاهما يشدد النكير على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة ، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة .

فكان المرابون جميعاً تفرض عليهم ضرائب باهظة ، وكان اليهود منهم يتعرضون من حين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها . وقد سار الملوك على سنة

(*) الشريك الموصى هو الذى يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم تربح ، ويسميه أهل الريف فى مصر الشريك المرفوع . (المترجم)

السماح للمرابين بأن يتقاضوا رباً فاحشاً ، ثم يلجأون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال . وكان المرابون يتحملون نفقات كبيرة فى سبيل الحصول على أموالهم ، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكى يسمحوا له بالحصول على ما ماله[٥٩] . وحدث فى عام ١١٩٨ حين كانت أوربا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوسنت الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التى يطالب بها اليهود مدينيهم المسيحيين[٦٠] ؛ وأعفى لويس التاسع ، ملك فرنسا القديس ، جميع رعاياه من ثلث ما كانوا مدينين به لليهود لكى « يستنزل الرحمة على روحه وروح أسلافه »[٦١] . وكان ملوك الإنجليز فى بعض الظروف يصدرون خطابات إعفاء — يلغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما — لرعاياهم المدينين لليهود . ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات ، وأن يدوّنوا فى سجلاتهم المبالغ التى حصلوا عليها نظير وساطتهم فى هذا البر بالإنسانية[٦٢] . وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاقد على قرض ، وأنشأت ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه العقود ، ويراقبها ، ويستمع إلى القضايا الخاصة بها ؛ فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودى عن أداء الضرائب أو المطالب المفروضة عليه ، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه ، وصادرتها كلها أو بعضها ، وأنذرت مدينيه بأن يؤدوا إليها هى لا إليه ما عليهم من الديون[٦٣] . ولما أن فرض هنرى الثانى على سكان إنجلترا ضريبة خاصة فى عام ١١٨٧ ، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم ، والمسيحيون على عشرها ، وبذلك أدى اليهود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها[٦٤] . وكان اليهود فى بعض الأحيان « هم الذين يمولون المملكة »[٦٥] . وأمر الملك يوحنا فى عام ١٢١٠ أن يزجّ فى السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم — رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا — ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت ٦٦٫٠٠٠ مارك[٦٦] .

وعذّب الذين ظنوا أنهم لم يبوحوا بكل ما كان لديهم من أموال مكنوزة بأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقروا بحقيقة مدخراتهم(٦٧) . وفى عام ١٢٣٠ اتهم هنرى الثالث اليهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن بعضهم قد فعل ذلك حقاً) ، فصادر ثلث ما يمتلكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة ، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة ، أعيدت فى عام ١٢٣١ ؛ وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع من اليهود ٢٠٫٠٠٠ مارك فضى ، ثم انتزع منهم فى عام ١٢٤٤ ستون ألف مارك(*) — وهو مبلغ يوازى مجموع إيرادات التاج البريطانى السنوية . ولما أن استدان هنرى الثالث ٥٠٠٠ مارك من دوق كرنوول رهن له جميع يهود إنجلترا ضماناً لدينه(٦٨) . وتوالت على اليهود فيما بين عامى ١٢٥٢ و ١٢٥٥ سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من اليأس لم يروا معها بداً من أن يطلبوا أن يؤذن لهم بمغادرة إنجلترا جملة ، ولكن طلبهم هذا لم يلق قبولا(٦٩) . وحرم إدورد الأول فى عام ١٢٧٥ التعامل بالربا تحريماً باتاً ، ولكن الاقتراض لم ينقطع رغم هذا التحريم ، وإذ كان خطر ضياع المال قد ازداد بسببه ، فقد ارتفع سعر الفائدة ، ولذلك أمر إدورد بالقبض على جميع اليهود ومصادرة جميع أملاكهم ؛ وقبض كذلك على كثيرين من المرابين المسيحيين وشنق ثلاثة منهم . أما اليهود فإن مائتين وثمانين منهم قد شنقوا ، وطيف بجثثهم فى شوارع لندن ثم مزقت ، وقتل عدد آخر منهم فى المقاطعات الإنجليزية . وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة(٧٠) .

وأثرى أصحاب المصارف اليهود فى الفترات القلقة التى تخللت أوقات المصادرة ، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر ؛ فلم يقتصروا على تقديم المال اللازم لبناء القصور ، والكنائس الكبرى ، والأديرة ،

(*) كان المارك نصف رطل من الفضة ، أما قيمته الشرائية فأكبر الظن أنها كانت تعدل قيمته فى هذه الأيام خمسين مرة (٨٫٤٠ دولار أمريكى) .

بل شادوا لأنفسهم فوق ذلك بيوتاً فخمة ، فكانت تلك البيوت فى إنجلترا من أول ما بنى من البيوت بالحجارة . وكان بين اليهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول إلعزر : « الناس كلهم أكفاء عند الله — النساء والعبيد ، والأغنياء والفقراء »[٧١] . وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر ، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة ، فأخذوا يؤكدون ما على الجماعة من تبعات لجميع أفرادها ، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة ؛ نعم إنهم لم يندووا بالغنى ، ولكنهم أفلحوا فى رفع مكانة العلم حتى ساوت مكانة الثراء ؛ ووسموا الاحتكار والائتمار على التحكم فى الأسعار بميسم الخطايا[٧٢] ، وحرموا على بائع الأشتات أن يكسب أكثر من سدس ثمن الجملة[٧٣] ؛ وكانوا يراقبون الموازين والمقاييس ، ويحددون أقصى الأثمان وأقل الأجور ؛ لكن كثيراً من هذه النظم قد عجزت عن تحقيق الغرض المقصود منها ، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم فى البلاد الإسلامية أو المسيحية ، ووجد قانون العرض والطلب فى السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول جميع التشريعات .

٣ — الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات الكثيرة ، فكانوا يقرون بما على الثراء من واجبات اجتماعية ، ولعلهم أيضاً قد خافوا ثورة الفقراء أو لعنهم ، فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش فى بيئة يهودية[٧٥] . ومن بداية القرن الثانى المسيحى كان مشرفون رسميون يفرضون فى فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتتب بشىء من ماله « لصندوق العشيرة » الذى يعنى بالشيوخ ، والفقراء ، والمرضى ، وبتعليم اليتامى وزواجهم . وكانت واجبات الضيافة تقدم بالمجان وبخاصة للعلماء الجائلين . وفى

بعض الجماعات كان المسافرون اليهود إذا قدموا على بلد آواهم موظفون من الجماعات اليهودية فى بيوت الأفراد اليهود . وزاد عدد الجمعيات الخيرية اليهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى ، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات ، وملاجىء للأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين فى السن ، بل كانت هناك أيضاً منظمات تؤدى أموال الفداء للمسجونين ، وبائنات للعرائس الفقيرات ، وأجور الأطباء للمرضى ، وتعنى بالأرامل المعدمات ، وتدفن الموتى من غير أجر(٧٧) . وكان المسيحيون يشكون من شره اليهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من كرم اليهود(٧٨) .

وكانت الفروق بين الطبقات عند اليهود تظهر فى ثيابهم ، وطعامهم ، وحديثهم وفى مائة أخرى من أساليب حياتهم . فكان اليهودى البسيط يلبس قفطاناً طويل الكمين فوقه حزام ، وكان أسود اللون فى العادة ، كأنه رمز للحزن على هيكله المهدم وعلى بلاده ، لكن أثرياء اليهود فى أسپانيا كانوا يظهرون ثراءهم بلبس الثياب الحريرية ، وطالما حذرهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا التظاهر فى إثارة البغضاء والأحقاد . ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجمل فى الملبس أطاع الرجال اليهود أمره ولكنهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب ؛ ولما أن سألهم الملك فى ذلك أكدوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء(٧٩) ، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يجملون نساءهم بفاخر الثياب ، ولكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس ، وأنذروهن بأن مخالفة هذا الأمر تصبح سبباً للطلاق ، وأمر اليهودى ألا يصلى فى حضرة امرأة يرى الناس شعرها(٨٠) .

وكانت نواحى التلمود المتصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الازدحام فى أحياء المدن ؛ فعملية الختان ، والاستحمام كل أسبوع ، وتحريم الخمر وأكل اللحم الفاسد ، كلها وسائل وقت اليهود شرًّا الأمراض المنتشرة فى البيئات المسيحية

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان[٨١] . مثال ذلك أن الجذام كان منتشراً بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح ، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود ؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين[٨٢] . لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا في أحياء روما القذرة الموبوءة بالبعوض من مناقع كمبانيا Campagna .

وكانت حياة اليهودي تنعكس عليها من الناحية الأخلاقية تراثه الشرقي والقيود التي يفرضها عليه الأوربيون ؛ ففي كل مناحي الحياة حقوق له مهضومة ، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال ، يتهم بجرائم ليست له يد فيها ، ولهذا كله لجأ كما يلجأ الضعيف الجسم في كل مكان إلى الدهاء يتقي به الأذى . نعم إن أحبار اليهود كانوا ينادون في كل حين أن « خداع غير اليهودي شر من خداع اليهودي نفسه[٨٣] » ؛ ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة[٨٤] ؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يخادعون بكل ما يعرفونه من خداع . فرجال المصارف اليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرحمون مدينيهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عليهم من ديون ، وإن كنا لا ننكر أنه كان في العصور الوسطى ، كما كان في القرن الثامن عشر ، دائنون لا يقلون أمانة وإخلاصاً عن ماير أنسلم من آل روتشيلد . وكان بعض اليهود والمسيحيين ينحتون النقود ، أو يقبلون البضائع المسروقة[٨٥] ، ولكن كثرة استخدام اليهود في المناصب المالية الكبرى توحي بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يثقون بأمانتهم واستقامتهم ؛ وقلما كان اليهود يرتكبون جرائم العنف — كالقتل ، والسطو ، والسلب — ، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم في البلاد المسيحية منه في البلاد الإسلامية .

وكانت حياتهم الجنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بمبدإ تعدد

الزوجات ؛ وكانوا أقل ميـــلا للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل(*) . وكانت نساؤهم عذارى ذوات خفر وحياء ، وأزواجاً عاملات مجدات ، وأمهات مخصبات ذوات ضمائر حية ، وكان من أثر التبكير بالزواج أن قلت الدعارة بينهن إلى أقل حد يستطاع الوصول إليه عند بنى الإنسان[٨٦] . وكان العزاب نادرى الوجود بين رجالهم ، وكان من القواعد التى وضعها الحاخام آشير بن يحيال أن من حق الحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر ، ولم يكن منهمكاً فى دراسة الشريعة[٨٧] . وكان الآباء هم الذين ينظمون أمور الزواج ، وتقول إحدى الوثائق اليهودية الباقية من القرن الحادى عشر إنه كان يندر وجود فتيات « يبلغن من قلة الذوق أو من الوقاحة ما يجرأن معه على أن يبدين هواهن أو خيارهن » فى هذه الناحية[٨٨] . ولكن الزواج لا يكون قانونياً إلا برضاء الزوجين[٨٩] . وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهى صغيرة السن حتى وإن كانت فى السادسة من عمرها ؛ ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وكان من حق الفتاة أن تلغى هذا الزواج إذا شاءت[٩٠] . وكانت الخطبة إجراء رسمياً تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية ، ولا يمكن التفرقة بعدها بين الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية . وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج . وكان هذا المهر مبلغاً من المال يُجتَنَب من مال الزوج ويؤدى للزوجة إذا طلقها أو مات عنها . وبغير هذا المهر الذى لم يكن يقل عن مائتى زوزا Zuza (وهو قدر يكفى لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة) لا يصبح الزواج بعذراء صحيحاً من الوجهة القانونية .

(*) لسنا نعتقد أن المؤلف يريد أن يتهم الشرقيين بأنهم يميلون إلى اللواط أكثر من غيرهم من الشعوب . فقد سبق أن وصف اللواط عند اليونان وصفا لانرى موجبا لإعادته ، ونظن أنه إنما يريد أن يقارن اليهود — وهم شرقيون فى الأصل — بغيرهم من شعوب الشرق فيقول إن هذا الداء كان أقل انتشارا عند بعض الشعوب الشرقية . (المترجم)

وكان تعدد الزوجات سنّة جرى عليها أغنياء اليهود فى البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم فى البلاد المسيحية[٩١] . وتشير الآداب الدينية التى وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى « زوج » الرجل ، ولا تشير قط إلى « أزواجه » . وأصدر جرشم بن يهوذا جاخام مينز فى عام ١٠٠٠ م أمراً بحرمان كل يهودى يتزوج أكثر من واحدة ، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض أو كاد بين اليهود فى جميع أنحاء أوربا ما عدا أسبانيا . على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيما بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هى للرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية[٩٢] ، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود . وقد ألغى هذا القرار نفسه — قرار جرشم — ما كان للزوج قديما من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها ؛ وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود فى العصور الوسطى كان أقل منه فى أمريكا فى هذه الأيام .

وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية . ذلك أن الخطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية ، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما كانت تمتاز به الأسرة اليهودية ، وما تمتاز به الآن ، من « حرارة ، وكرامة ... وتفكير ، وتدبر ، وحب أبوى وأخوى »[٩٤] . فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته فى العمل ، وفى السرّاء والضرّاء ؛ وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءا من نفسه الكبرى ؛ وإذا أصبح أبا وكبر أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المدخرة وبعثوا فيه أعمق الوفاء . وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جسم امرأة غير زوجته دون الشعار ، ولم تكن تتاح له فى تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج . ويكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بادخار بائنات لبناته ومهور لأولاده ، وكان من البداهة عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله فى

السنين الأولى من حياتهم وحياتهن الزوجية . وكان ذلك يبدو له أكثر حكمة من ترك الشاب يستعد لقيود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسي الطليق . وكثيراً ما كان العريس يعيش مع عروسه في بيت أبيها — وقلما كان ذلك سببا في ازدياد سعادة الأسرة . وكان سلطان الأب الأكبر في البيت سلطانا مطلقا لايكاد يقل في ذلك عن سلطانه في رومه الجمهورية . فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينيا ، وأن يضرب زوجته ضربا غير مفرط ، فإذا ما أصابها بأذى جسيم فرضت عليه العشيرة غرامة تتناسب مع موارده ؛ وكان في العادة يمارس سلطانه بصرامة لا تطغى قط على عاطفة الحب القوية .

وكان مركز المرأة منحطاً من الوجهة القانونية ، عاليا من الناحية الأخلاقية . ولكن الرجل اليهودي يحمد الله ، كما يحمده أفلاطون ، لأنه لم يولد أنثى ، وكانت المرأة تجيب عن ذلك في تواضع جم : « وأنا أحمد الله الذي خلقني كما أراد »[٩٥] .وكان للنساء في المعبد موضع منعزل في الرواق أو خلف الرجال — وتلك تحية سمجة لمفاتنهن التي تلهي العابدين عن العبادة ، ولم يكن يحسبن في العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة . وكانت الأغاني التي يمتدح بها جمال المرأة تعد عملا غير لائق وإن كان التلمود قد أباحها[٩٦] . أما التغازل — إذا وجد — فلم يكن إلا عن طريق المراسلة ؛ ولقد نهى الأحبار عن التخاطب بين الرجال والنساء — حتى بين الزوجين — أمام الناس[٩٧] ، وقد أبيح الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل[٩٨] .

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته ، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها ، فإذا مات حصلت على قيمة بائنتها ، ومهر الزواج ؛ أما فيما عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور ، ورثة أبيهم الطبيعيين ؛ في أن ييسروا لها سبل الحياة الطيبة . ولم تكن البنات يرثن آباءهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور ؛ فإذا كان له اعتمدن على حبهم الأخوى ، وقلما كان يخيب فيهم

وجلاءهن[٩٩] . ولم تكن البنات يرسلن إلى المدارس ؛ فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إليهن أمراً شديد الخطورة . على أنهن رغم هذا كن يسمح لهن بأن يدرسن في بيوتهن ؛ فنحن نسمع عن عدد من النساء يلقين محاضرات عامة في الشريعة — وإن كانت صاحبة المحاضرة تستتر أحياناً عن المستمعين[١٠٠] . ولكن المرأة اليهودية الجديرة بالتكريم والإخلاص ، كانت تلقى بعد زواجها كل ما هي خليقة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادي وقانوني ، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله : « لا يكرم النساء إلا الكريم ، ولا يحقرهن إلا الحقير »[١٠١] .

وكانت صلات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلات الزوجية . فقد كان اليهودي بما عرف عن الرجل الساذج العادي من كبرياء ، يفخر بأبنائه وبقدرته على إنجاب الأبناء . وكان يقسم أغلظ أيمانه بأن يضع يده على خصيتي من يتلقى منه اليمين ، ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوربية(*)، ومعناها الشهادة أو البينة أو الشاهد نفسه . وكان كل رجل يؤمر بأن يكون له طفلان على الأقل ، وكان له في العادة أكثر من اثنين . وكان الطفل يلقى الإجلال الذي يليق بزائر قدم من السماء ، ومن ملك تجسد ؛ وكان الأب يلقى من التبجيل ما يكاد يجعله رسولا من عند الله ، فكان الولد يقف في حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس ، ويطيعه طاعة جزعة قلقة تتناسب مع كبرياء الشباب . وكان الولد أثناء الاحتفال بالختان يكرس إلى يهوه بمقتضى عهد أبراهام ، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية . وكان الولد ، إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره ، يدخل ميدان الرجولة ، ويفرض عليه كل ما تفرضه الشريعة على الرجال ، ويحدث ذلك في حفل رهيب يثبت فيه هذا ويؤكد .

(*) من كلمة Testes ومعناها الخصيتان . (المترجم)

وكان الدين يخلع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه ، ويخفف بذلك من واجبات الآباء .

٤ — الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية فى كل ناحية من نواحى القانون الأخلاقى . لا ريب إنه كانت فى الشريعة ثغرات ، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكى تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التى لا غنى عنها لكل شعب مغامر . ولكن يلوح أن الرجل اليهودى فى العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب ، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعاته وانحلالها . نعم إنها كانت تضيق عليه فى جميع مناحى الحياة ، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته ومدرسة تربيته والوسيلة التى لا بد منها لحياته .

وكان كل بيت فى بلاد اليهود كنيساً ، وكل مدرسة معبداً ، وكل أب كوهناً . فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة فى البيت . وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضى بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد . وكان من عادة الأب فى مساء يوم الجمعة أى ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته ، وأولاده ، وخدمه ، ويباركهم فرداً فرداً ، ويؤمهم فى الصلاة ، وفى القراءة من الكتب الدينية ، والأغانى المقدسة . وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنيه الاشتراع (الآيات ٤ — ٩ من الأصحاح السادس ، ١٣ — ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) تذكر اليهودى أن إلهه « واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته » . وكان يجاء بالولد إلى الكنيس من سن الرابعة وما بعدها ، حيث ينطبع

الدين في نفسه في أكثر السنين تأثيراً في تكوينه .

ولم يكن الكنيس معبداً دينيا فحسب ، بل كان فوق ذلك المركز الاجتماعي للعشيرة اليهودية ؛ والمعنى الحرفي للفظ سناجوج ، وإكليزيا ، وسينود ، وكلية هو مجتمع ؛ ولقد كان الكنيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال يسمى شوله Schule عند اليهود الإشكنازيين ، ثم أخذ على عاتقه في عهد التشتت عدداً كبيراً من الواجبات العجيبة المختلفة ، فكان من عادة بعضها أن ينشر في كل سبت ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع المنصرم ، وأن يجبي الضرائب ، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة ، وأن ينظر في شكاوى بعض الأفراد من البعض الآخر ، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل موعده حتى يستطيع من له حقوق في هذه الأملاك أن يعترض عليه . وكان الكنيس يوزع الصدقات العامة ، وكان في بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل . وكان مبناه على الدوام أجمل المباني في الحي اليهودي ؛ وكان في بعض الأحيان وبخاصة في أسبانيا وإيطاليا آية من آيات العمارة ، مزداناً أعظم زينة وأجملها ؛ وكثيراً ما كان ولاة الأمور المسيحيون يحرمون على اليهود إقامة معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية في المدينة ، وأمر البابا هونوريوس الثالث في عام ١٢٢١ بهدم معبد بهذا الوصف في بورج Bourges[١٠٣] .

وكان في أشبيلية في القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً ، وفي طليطلة وقرطبة ما لا يكاد يقل عن هذا العدد ، منها واحد شيد في قرطبة عام ١٣١٥ تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومي .

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت الدرس Beth ha midrash) بالإضافة إلى المدارس الخاصة والمعلمين الخصوصيين ، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر منها بين المسيحيين[١٠٤] وإن كانت أقل منها بين المسلمين . وكانت أجور المدرسين تؤديها الجماعات اليهودية عامة أو يؤديها الآباء ، ولكنهم كلهم كانوا خاضعين لرقابة

الجماعة المشتركة . وكان الأولاد يخرجون إلى المدارس مبكرين — قبل مطلع الفجر فى الشتاء ؛ ثم يعودون إلى بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور ، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يبقون حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم يأتون إلى المنزل للغداء ، ويعودون إلى المدرسة ظهراً ، ثم يستريحون بين الساعة الثانية والثالثة ، ثم يذهبون مرة أخرى إلى المدرسة ويبقون فيها إلى المساء ، ثم يطلق سراحهم أخيراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا ، ويصلوا ، وينامو ا ؛ وكذلك كانت حياة الغلام اليهودى حياة جدية شاقة(١٠٥) .

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودى هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة ؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا ، وفى الثالثة عشرة يأخذ فى دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود ، ومن شاء منهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجمارا من الثالثة عشرة إلى العشرين من عمره أو ما بعدها . وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلا من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد ، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود(١٠٦) . وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق التكرار ، وكانت التلاوة الجماعية قوية عالية إلى حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها(١٠٧) . أما التعليم العالى فكان مكانه اليشيبة أو المجمع العلمى ، وكان خريج هذا المجمع يسمى تلميذ حاخام أى عالما بالشريعة ؛ وكان يعفى عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة ، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حتما من الأحبار الرسميين(١٠٨) .

أما الحبر الرسمى فكان معلماً وقاضياً ، وكاهناً . وكان يطلب إليه أن يتزوج ، ولم يكن يتقاضى نظير القيام بواجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق ؛ وكان العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التى لا تمت بصلة إلى الدين ؛ وقلما كان يعظ ، لأن الوعظ كان متروكا لوعاظ متنقلين (مجديم)

يدربون على فنون البلاغة المرهبة ذات الأصوات المنغمة الطنانة الرنانة .
وكان فى مقدور كل فرد من المصلين أن يؤم الجماعة ، ويقرأ فقرات من الكتاب المقدس ، ويعظ ؛ ولكن هذا الشرف كان يختص به فى العادة أحد اليهود البارزين أو الذين لهم يد طولى فى الصدقات والأعمال الخيرية .
وكانت الصلاة عند اليهود المتمسكين بالدين عملا شديد التعقيد ، لا تؤدى على الوجه الصحيح إلا إذا غطى المصلى رأسه دليلا على الخشوع ، وربط على ذراعيه وجبهته علباً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (الآيات ١ — ١٦ من الأصحاح الثالث عشر) وتثنية الاشتراع (الآيات ٤ — ٩ من الأصحاح السادس ، و ١٣ — ٢١ من الأصحاح الحادى عشر) ، وثبت فى أطراف ثيابه أهدابا نقشت عليها أهم وصايا الرب . وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لابد منها لتذكر اليهود بوحدانية الله ، ووجوده ، وشرائعه . أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تمائم سحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة . وكانت الصلاة تختم بقراءة من ملف الشريعة الموضوع فى تابوت صغير فوق المذبح .

وكان اليهود فى المنفى لا يوافقون على إدخال الموسيقى فى الشعائر الدينية ، ويرون أنها قلما تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع ، ولكن الواقع أن بين الموسيقى والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب . ذلك أن التعبير المتحضر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشد الفنون إثارة للانفعالات النفسية ؛ ولقد عادت الموسيقى إلى الكنيس عن طريق الشعر ؛ ذلك أن البيتانيم Paitanim أو « الشعراء الجدد » العبرانيين شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقلة بالزخرف الصناعى كالأبيات المتجانسة أولى حروفها أو التى إذا جمعت الحروف الأولى منها كونت اسماً خاصاً أو جملة بعينها ، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة نغماتها وامتلاؤها بالحماسة الدينية التى أضحت عند اليهودى وطنية وديناً معاً . ولا تزال ترانيم إلعزر بن قلير (من القرن الثامن) الفجة القوية

تجد لها مكاناً فى طقوس بعض المعابد اليهودية . ولقد ظهرت أشعار مثلها عند يهود أسبانيا وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، منها واحدة يترنم بها كثيرون من اليهود يوم عيد الكفارة :

إذا أقبلت ملكوتك تشققت التلال عن أناشيد .
وضحكت الجزائر متهللة لأنها تنتسب إلى الله .
وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يثنون عليك .
حتى إذا سمعتها أبعد الشعوب نادت بك ملكاً متوجاً عليها[١٠٩] .

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (البيوطيم) فى الصلوات التى تقام فى المعابد ، كان ينشدها مرتل القداس ، وبذلك عادت الموسيقى إلى الشعائر الدينية . يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها فى كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتجل معظم نغماته ارتجالا ، ولكنها تتبع فى بعض الأحيان نماذج النغمات البسيطة الموضوعة للترانيم المسيحية[١١٠] . من ذلك أن النغمات المعقدة للأغنية العبرانية الذائعة الصيت المعروفة باسم كل نيدرى Kol Nidre (جميع الأيمان)[١١١] ، قد أخذت من مدرسة ديرسنت جول St. Gail الغنائية بسويسرا فى وقت ما قبل بداية القرن الحادى عشر .

على أن الكنيس اليهودى لم يحل فى قلب اليهودى محل الهيكل بكل معانى الحلول ، بل ظل أمله فى أن يقدم القربان ليهوه فى يوم من الأيام أمام قدس الأقداس على تل صهيون ، يلهب خياله ، ويتركه عرضة لخداع « المسيح الكذاب » فى مختلف الأوقات . من ذلك ما حدث فى عام ٧٢٠ حين أعلن شيريم Sereme وهو رجل سورى ، أنه هو المنقذ المنتظر ، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين . وغادر اليهود مواطنهم فى بابل وأسبانيا ليشتركوا فى هذه المغامرة ، ولكن القائم بها أسر ، وعرضه الخليفة يزيد الثانى على الجماهير على أنه مهرج دجال ، ثم أمر به فقتل . وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تزعم عوبديا بن

عيسى بن إسحق الأصفهانى ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف يهودى الحسام ، واستبسلوا فى الحرب بقيادته ، ولكنهم هزموا ، وقتل ابن عيسى فى المعركة وعوقب جميع يهود إصفهان بلا تمييز بينهم لانضمامهم إليه . ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى ثائرة أوربا حسبت الجماعات اليهودية أن انتصار المسيحيين سيعيد فلسطين إلى اليهود[١١٢] ، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة . وفى عام ١١٦٠ أثار داقيد الروئ يهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشليم ويرد إليهم حريتهم ؛ لكن حماه خشى أن يحيق الهلاك باليهود بسبب هذه الأفكار فما كان منه إلا أن ذبحه وهو نائم . ثم ظهر مسيح آخر فى جنوبى جزيرة العرب عام ١٢٢٥ وأثار اليهود إثارة حمقاء . وكتب ابن ميمون « رسالة إلى الجنوب » ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعى ، وذكّر يهود العرب بما أعقب هـــذه المحاولات الطائشة فى ماضى الأيام من هلاك ودمار[١١٣] ، ولكنه رغم هذا ارتضى الأمل فى المسيح المنتظر ، على أنه دعامة لا بد منها للروح اليهودية فى تشتتهم ، وجعل هذا الأمل إحدى العقائد الثلاث عشرة الأساسية فى الديانة اليهودية[١١٤] .

الفصل الرابع

كراهيـــة اليهود

ترى ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود ؟

لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسباباً اقتصادية ، ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً فى زيادة المنافسات الاقتصادية وستاراً لها ؛ فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يغضبهم من اليهود عدم إيمانهم بهذه الرسالة ، والمسيحيون الذين يؤمنون بألوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية . ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين يرون أن مما يخالف تعاليم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام أن يلقوا على شعب بأسره ، خلال القرون الطوال ، تبعة أعمال فئة قليلة العدد من يهود أورشليم فى آخر أيام المسيح . ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من اليهود رحبت بدخول المسيح أورشليم (الآية ٣٧ من الأصحاح ٢٩) وكيف حمل صليبه بيلاطس : « تبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللائى كن يلطمن وينحن عليه » (الآية ٢٧ من الأصحاح ٢٣) ، وكيف أن كل الجموع الذين «كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم » (الآية ٤٨ من الأصحاح ٢٣) ، ولكن هذه الشواهد القاطعة بعطف اليهود على عيسى كانت تنمحى ذكراها حين تتلى على المسيحيين قصة الآلام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر ، فكانت نيران الحقد تضطرم فى قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل فى تلك الأيام يحبسون أنفسهم فى أحيائهم وبيوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس فتؤدى إلى المذابح .

ونشأت حول هذا السبب الرئيسى من أسباب سوء التفاهم عشرات المئات

من أسباب الريبة والعداء . وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشئ من أسعار فائدة القروض ، وهي أسعار ترتفع كلما قلّت ضماناتها . ولما أن نمت الشئون الاقتصادية المسيحية ، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل ، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد فى الصدور ، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية[115] . وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة فى المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما . وتأصلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية فى الصدور فأصبح كل ما هو يهودى بغيضاً لبعض المسيحيين ، وكل ما هو مسيحى بغيضاً لبعض اليهود ، فأخذ المسيحيون يعيبون على اليهود عزلتهم ، ولم يغفروا لهم هذه العزلة التى كانت رد فعل لتمييز غيرهم عليهم . وما كان يوجه إليهم من اعتداء فى بعض الأحيان ، وبدت ملامح اليهود ، ولغتهم ، وآدابهم ، وأطعمتهم ، وشعائرهم ، بدت هذه كلها فى أعين المسيحيين غريبة كريهة . ثم إن اليهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون ، ويصوم أولئك حين يفطر هؤلاء ، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كما كان فى قديم الأيام ، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد ؛ وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر فى عيد فصح قريب قرباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذى يحزنون فيه لموت المسيح . ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غير يهودية ، أو يشربوا خمراً عصرته ، أو يستعملوا آنية لمستها[116] ، أو أن يتزوجوا إلا من يهوديات[117] . وكان المسيحى يفسر هذه القواعد القديمة — التى وضعت قبل نشأة المسيحية بزمن طويل — بأن اليهود يرون أن كل شىء مسيحى نجس ؛ ويتردد على هذا بأن الإسرائيلى نفسه لم يكن فى أغلب الأحيان يمتاز بنظافة جسمه أو أناقة ثيابه . ونشأت من عزلة هؤلاء وأولئك بعضهم عن بعض أقاصيص

سخيفة محزنة انتشرت بين كلا الطرفين . وكان الرومان قبل ذلك الوقت يتهمون المسيحيين بأنهم يذبحون أطفال الوثنيين ليقدموا دماءهم فى السر قرباناً لإله المسيحيين ، ثم أخذ المسيحيون فى القرن الثانى عشر يتهمون اليهود باختطاف أطفال المسيحيين ليقدموهم قرباناً إلى يهوه ، أو ليتخذوا دماءهم دواء ، أو يستعملوه فى صنع الخبز الفطير لعيد الفصح . واتهم اليهود بأنهم يسممون الآبار التى يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليثقبوه ويخرجوا منه دم المسيح[118] . ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود بثرائهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب اليهودى على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها فى أيدى اليهود . واتهمت اليهوديات بأنهن ساحرات ، وقيل إن كثيرين من اليهود من حزب الشيطان[119] . ورد اليهود على هذه الأقاصيص بأخرى مثلها عن المسيحين ، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه . وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود[120] ، وكان بحيا Bahya يثنى على الرهبنة المسيحية ، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبى محمد تنزع بالإنسانية إلى الكمال[121] ، ولكن اليهودى العادى لم يكن يستطيع فهم هذه المجاملات الفلسفية ، وبادل أعداءه حقداً بحقد .

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجنون السالفة الذكر ؛ فكثيراً ما كان اليهود يختلطون بالمسيحيين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التى تحرم هذا الاختلاط ، وكانوا أحيانا يتزاوجون وبخاصة فى أسبانيا وجنوبى أوربا . وكان العلماء المسيحيون واليهود يتعاونون فيما بينهم ، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتولى Anatoli ، ودانتى مع عمونيل[122] ؛ وكان المسيحيون يقدمون الهبات للمعابد اليهودية ، وفى مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة يهودية كبرى ينفق عليها من هبة وهبتها امرأة مسيحية[123] . وبدل يوم السوق فى ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً لليهود ؛ ووجدت الحكومات غير

الدينية أن اليهود عنصر نافع فى الأعمال التجارية والمالية فأولتهم حمايتها فى بعض الأوقات ، وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك فى بعض الأحيان أنها لم يعد فى مقدورها أن تحميهم من التعصب والعدوان(١٢٤) .

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة . ففى إيطاليا كانت تحمى اليهود بوصفهم « حراس الشريعة » الواردة فى العهد القديم وبوصفهم شهودا أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية وعلى « غضب الله » ؛ لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية ، وكثيرا ما كان يصدر عنها ذلك بحسن نية ، وقلما كانت تعتمد فى عملها هذا على ما لها من سلطان عام : من ذلك أن قانون ثيوذوسيوس Thedosian Code (٤٣٩) ، ومجلس كليرمنت Clermont (٥٣٥) ، ومجلس طليطلة (٥٨٩) كلها حرمت تعيين اليهود فى المناصب التى من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين . وأمر مجلس أورليان Orleans (٥٣٨) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس ، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم ، وحرّم استخدامهم فى المناصب العامة . وحرم مجلس لاتران Lateran الثالث (١١٧٩) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود ، وندد مجلس بزيير Beziers (١٢٤٦) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود ؛ وردّ مجلس أفنيون Avigon (١٢٠٩) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير « اليهود والعاهرات » من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ؛ وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الخدم المسيحيين ، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود ، وأمر بتجنبهم لنجاستهم (١٢٥) . وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود ؛ وأحرق شماس فى عام ١٢٢٢ على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين

اليهودى وتزوج بيهودية[١٢٦] . وحُرمت أرملة يهودية فى عام ١٢٣٤ من بائنتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحى قبل وفاته وأن هذا يلغى زواجهما[١٢٧] . وأصدر مجلس لاتران الرابع فى عام ١٢١٥ قراراً يحتم « على اليهود والمسلمين — ذكوراً كانوا أو إناثاً — فى كل ولاية مسيحية وفى جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم فى أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطئون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين ، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات » . ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاوزوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بلون خاص — ويكون ذلك بالنسبة للرجال فى غطاء الرأس أو الجبة ، وبالنسبة للنساء فى أقنعتهن . وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها رد على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد اليهود أو المسيحيين . وكان من نوع الشارة المميزة تعينه محلياً حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية . وكانت فى العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر ، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط فى مكان ظاهر فوق الملابس . ونفذ هذا القرار فى إنجلترا عام ١٢٧٩ ؛ أما فى أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا فى أوقات متباعدة قبل القرن الخامس عشر حين أخذ نيقولا القوزاوى Nickolas of Cusa وسان چيوڤنّى داكپسترانو San Giovanni de Capistrano يدعوان إلى التشدد فى تنفيذه بأكمله . وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد يهود قشتالة فى عام ١٢١٩ بمغادرة البلاد جملة إذا نفذ هذا القانون ؛ ووافق ولاة الأمور الدينيون على إلغائه ، وكثيراً ما كان الأطباء والعلماء ، ورجال المال ، والرحالة اليهود يعفون منه ، ثم أخذ العمل به يضعف قبل القرن السادس عشر وامتنع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية .

ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً فى العالم المسيحى . مثال ذلك أن جريجورى الأول ، نهى عن إرغام اليهود على

اعتناق الدين المسيحى رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين ، وحافظ على ما لهم من حق المواطنية الرومانية فى البلاد الخاضعة لحكمه[١٢٨] ؛ ولما أن استولى الأساقفة فى طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكى ينتفع بها المسيحيون أرغمهم جريجورى على أن يردوها إليهم كاملة[١٢٩]، وكتب إلى أسقف نابلى يقول : « لا تسمح بأن يضيق على اليهود فى أداء صلواتهم ، ودع لهم الحرية الكاملة فى مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها ، كما كانوا هم وآباؤهم يفعلون من زمن بعيد »[١٣٠] . وحث جريجورى السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التى تحرم استخدام اليهود فى المناصب ؛ ولما قدم إنچنيوس الثالث إلى باريس عام ١١٤٥ ، وسار فى موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التى كانت وقتئذ فى الحى اليهودى ، بعث اليهود إليه بوفد ليهدى إليه التوراة أو ملف الشريعة ، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتبطين ، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك[١٣١] . وكان البابا إسكندر الثالث على وئام مع اليهود واستخدم واحداً منهم فى إدارة شئونه المالية[١٣٢] ؛ وتزعم إنوسنت Innocent الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسى[١٣٣] ، ثم كرر فى ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التى تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال : « لا يحق لمسيحى أن يؤذى اليهود فى أجسامهم . . . أو يسلبهم أملاكهم . . . أو يتسبب فى إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم . . . أو يبتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم[١٣٤] . وأعفى جريجورى التاسع منشئ محكمة التفتيش(*) اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا تهديد المسيحيين ، أو ارتدوا إلى الدين اليهودى بعد أن تنصروا[١٣٥] ،

(*) أو ديوان التحقيق Inqusition كما يسميها بعض المترجمين . (المترجم)

ونبذ إنوسنت الرابع (١٢٤٧) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال :

لقد ابتدع بعض القساوسة ، والأمراء ، والنبلاء وكبار الأشراف ... أساليب تتنافى مع الدين ضد اليهود خداعاً منهم وتضليلا ، فحرموهم بلا حق من أملاكهم قوة واقتداراً ، واستولوا عليها لأنفسهم ، واتهموهم زوراً وبهتاناً بأنهم يقتسمون فيما بينهم فى يوم عيد الفصح اليهودى ، قلب غلام مذبوح . . . والحق أنهم فى حقدهم يعزون إلى اليهود كل حادث قتل أيا كان المكان الذى يقع فيه . وبسبب هذه التهم المختلفة وأمثالها تمتلىء قلوبهم غلا على اليهود ، فينهبون أموالهم . . . ويضطهدونهم بتجويعهم ، وسجنهم ، وتعذيبهم ، وإيذائهم بغير تلك الوسائل ، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام ، وبذلك أصبحت حال اليهود أسوأ مما كان عليه آباؤهم تحت حكم الفراعنة ، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحيين . وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التى عاش فيها آباؤهم من أقدم العهود التى يذكرها الإنسان . وإذ كان يسرنا ألا يلحقهم أذى ، فإنا نأمركم أن تعاملوهم معاملة ودية رقيقة ؛ فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم ، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى ، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل هذا الظلم فى المستقبل(١٣٧) .

غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذناً صماء ، واضطر جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٢ أن يكرر ما جاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استجابة لبعض الشعائر الدينية اليهودية ؛ وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً .فقرر ألا تقبل شهادة مسيحى على يهوى إلا إذا عززها يهودى . وإن ما أصدره البابوت بعد هذا العهد حتى عام ١٧٦٣ من أوامر مماثلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت تمتلىء به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجتث جذوره . ومما يدل على أن البابوات كانوا مخلصين فى دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

فى الدويلات البابوية من طمأنينة إذا قيست حالهم بحال بنى دينهم فى غير هذه الدويلات ، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد . ذلك أنهم لم يطردوا قط من روما أو من أفنيون البابوية مثل ما طردوا فى أوقات مختلفة من كثير من البلاد ؛ وفى ذلك يقول مؤرخ يهودى عالم : « لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بقى لليهود وجود فى أوربا بعد العصور الوسطى »(١٣٩) .

وكان اضطهاد اليهود بقوة فى أوربا أثناء العصور الوسطى متقطعاً ؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون مائتى عام على خطة العسف التى جرى عليها چستنيان ضد اليهود ، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على ما قدموا للفرس من معونة ، وبذل كل ما فى وسعه لإبادتهم ؛ وحاول ليو الإسورى Leo the Isaurian أن يفند الإشاعة القائلة بأنه يهودى بقرار أصدره عام ٧٢٣ يخير فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحى أو النفى ؛ فمن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أحرقوا أنفسهم فى معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له . وواصل باسيل الأول Basil I (٨٦٧ — ٨٨٦) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد ؛ وطالب قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩) اليهود بأن يقسموا أمام المحاكم المسيحية يميناً مذلة ظلت باقية فى أوربا حتى القرن التاسع عشر(١٤١) .

ولما دعا البابا إربان Urban الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٥ ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوربا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك فى أورشليم ؛ فلما قبل جدفرى البويونى Godfrey of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثأر لدماء المسيح من اليهود ولن يترك واحداً منهم حياً ؛ وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من اليهود . وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس فى أورشليم يجعل تنصير جميع اليهود فريضة أخلاقية على جميع المسيحيين(١٤٢) . وكانت خطة الصليبيين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

مواطن اليهود فى أوربا الشمالية ، وكان يهود ألمانيا قد اضطلعوا بدور رئيسى فى إنماء تجارة نهر الرين وانتهجوا خطة جيدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء . وكان الأسقف رودچر الأسپرى Rüdiger of Speyer ذا صلة وثيقة بيهود أبرشيته ؛ وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم وسلامتهم ؛ وأصدر الإمبراطور هنرى الرابع فى عام ١٠٩٥ عهداً مماثلا لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين مملكته[١٤٣] ؛ لذلك وقعت أنباء الحرب الصليبية ، والطريق الذى قررت اتباعه ، وتهديدات زعمائها ، وقع الصاعقة على تلك الجماعات اليهودية الآمنة المسالمة ، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم . ودعا أحبارهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام .

ولما وصل الصليبيون إلى أسپر جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس وأمروهم أن يقبلوا التعميد ، فلما أبوا قتلوهم عن آخرهم (٣ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ ولجأ غيرهم من يهود المدينة إلى الأسقف چوهنسن Johannsen . فلم يكتف هذا الأسقف بحمايتهم . بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذين اشتركوا فى مقتلة الكنيسة . ولما اقترب بعض الصليبيين من ترير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلبرت Egilbert . فعرض عليهم أن يحميهم على شريطة أن يعمدوا ، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط ، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقين بأنفسهن فى نهر الموزل Moselle (أول يونية سنة ١٠٩٦) . وفى مينز خبأ روثارد Ruthard كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودى فى سراديبه ؛ ولكن الصليبيين اقتحموها عليهم وقتلوا منهم ١٠١٤ ، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلا منهم بإخفائهم فى الكنيسة الكبرى (٢٧ مايو سنة ١٠٩٦) ؛ وقبل التعميد أربعة من يهود مينز ، ولكنهم انتحروا بعده بقليل . ولما اقترب الصليبيون من كولونى Cologne . خبأ المسيحيون اليهود فى منازلهم ، وأحرق الغوغاء الحى اليهودى ، وقتلوا من وقع فى أيديهم من اليهود القلائل ، فما كان من الأسقف هرمان

Hermann إلا أن نقل اليهود سراً من مخابئهم عند المسيحيين إلى منازل المسيحيين فى الريف وعرض بذلك حياته هو لأشد الأخطار . وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة ، وصادوا فريستهم فى القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من اليهود (يونية سنة ١٠٩٦) وكان عدد من قتلوا فى إحدى القرى مائتى يهودى ؛ وحاصر الغوغاء اليهود فى أربع قرى أخرى ، فقتل اليهود بعضهم بعضاً ، مفضلين هذا على التعميد ؛ وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال فى أثناء هذه الاعتداءات وقت مولدهم . وفى وورمز أخذ الأسقف ألبرانشز Allebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم ، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة ، فقتلوا الكثيرين منهم ، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها ، وفيها انتحر كثيرون من اليهود مفضلين الموت على ترك دينهم . ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام ، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد فى وسعه أن يصد أولئك الغوغاء ، وأشار عليهم بقبول التعميد ؛ وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة ، فلما عاد الأسقف وجدهم جميعاً إلا قليلا منهم قد قتل بعضهم بعضاً ، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلوا الباقين أحياء ؛ وبلغ مجموع من قتل فى مذبحة وورمز (٢٠ أغسطس سنة ١٠٩٦) نحو ثمانمائة من اليهود . وحدثت مذابح مثلها فى متز Metz ورنجزبرج Regensburg وبراهة Prague[١٤٤] .

وأنذرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية ؛ فقد أشار بطرس المبجل Peter The Venerable ، القديس رئيس دير كلونى Cluny على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين ، وقال له : « لست أطالبك بأن تقتل أولئك الخلائق الملاعين . . . لأن الله لا يريد محوهم من الوجود ، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قابيل قاتل أخيه ، ثم يبقوا ليلاقوا هواناً أقسى من العذاب ، وعيشاً أمر من الموت »[١٤٥] .

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم الخاطىء للمسيحية ، واكتفى لويس التاسع ، بفرض ضرائب باهظة على أغنياء اليهود ؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه المحن بالمصادرة وحدها ، فقد خرج راهب فرنسى يدعى رودلف من ديره بغير إذن ، وأخذ يدعو إلى ذبح اليهود فى ألمانيا . وفى كولونى قُتل شمعون « التقى » وبترت أطرافه ، وفى اسپير عذبت امرأة على العذراء لكى يقنعوها باعتناق المسيحية . وبذل الرؤساء الدينيون مرة أخرى كل ما فى وسعهم لحماية اليهود ، فأعطاهم الأسقف آرنلد أسقف كواونى قصراً حصيناً يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا ؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن ، ولكنهم قتلوا كل من فى أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية . وأدخل هنرى كبير أساقفة مينز فى بيته يهودا كان الغوغاء يطاردونهم ، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوهم أمام عينيه . واستغاث كبير الأساقفة بالقديس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً فى أيامه ، وأجاب برنارد بأن ندد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد لأعمال العنف الموجهة إلى اليهود . ولما واصل رودلف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير . ولما أن وجدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقليل مشوهة فى ورزبرج Wurzburg ، اتهم المسيحيون اليهود بأنهم هم الفاعلون ، وهاجموهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم ، وعنى المسيحيون بكثيرين غيرهم أصابتهم جروح فى هذا العدوان (١١٤٧) ، ودفن الأسقف القتلى فى حديقته(١٤٦) . وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية فى بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق ، وذبح اليهود فى كارنتان Carentan ، ورامرو Rameru ، وسلى Sully . وفى بوهيميا ذبح الصليبيون ١٥٠ يهودياً ؛ ولما أن انتهت موجة الذعر بذل رجال الدين المسيحيون المحليون كل ما فى وسعهم لمساعدة من بقوا أحياء من اليهود ؛ وأجيز لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

اليهودى ، دون أن توقع عليهم عقوبات الردة القاسية(١٤٧) .

وكانت هذه المذابح إيذانا بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام . من ذلك أن حادثة قتل وقعت فى بادن Baden عام ١٢٣٥ ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود ، فأدى ذلك إلى مذبحة منهم ؛ وفى عام ١٢٤٣ حرق جميع اليهود سكان بلتز Beltz القريبة من برلين وهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبزاً للتقدمة مقدساً(١٤٨) . وفى عام ١٢٨٣ أثيرت فى مينز فكرة ذبح أطفال المسيحيين فى بعض الشعائر اليهودية ، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم مما بذله ورنر كبير الأساقفة من جهود . وفى عام ١٢٨٥ أهاجت مثل هذه الشائعة أهل ميونخ Munich ، ولجأ ١٨٠ يهودياً إلى كنيس لهم ، فأشعل فيه الغوغاء النار ، واحترق المائة والثمانون بأجمعهم . وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون يهوديا فى أبرويزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسيحى ؛ وفى عام ١٢٩٨ حرق كل يهودى فى روتنجن Rottingen حتى قضى نحبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس . ونظم رندفلشخ Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا جميع اليهود وأمدهم بالسلاح . وأبادوا جميع الجالية اليهودية فى ورزبرج ، وذبحوا ٦٩٨ يهوديا فى نورمبرج Nuremberg ؛ ثم انتشرت موجة الاضطهاد فلم يمض إلا نصف عام حتى محى ١٤٠ كنيسا يهودياً(١٤٩) . وملأ اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكررة قلوب يهود ألمانيا ، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً ، فغادرت أسر يهودية كثيرة مينز ، وورمز ، واسپير ، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطين لتعيش فى بلاد المسلمين . وإذ كانت پولندا ولتوانيا تطلبان الهجرة إليها ، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت ، فقد بدأت هجرة بطيئة من يهود بلاد الرين إلى بلاد الصقالبة فى شرق أوربا .

وأضحى اليهود فى إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضمام إلى نقابات الصناع . ومنهم من أثروا من الربا وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله . وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسلح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود ، ورهنوا لهم فى نظير هذا المال ريع أرضهم ، واستشاط الزارع المسيحى غيظاً لرؤيته المرابين يثرون من كدحه . وحدث فى عام ١١٤٤ أن وجد الشاب وليم من أهل نردج Norwich قتيلا ، واتهم اليهود بمقتله لاستعمال دمه ، وهوجم الحى اليهودى فى المدينة ونهب وأحرق[١٥٠] . وحمى الملك هنرى الثانى اليهود ، وحذا حذوه هنرى الثالث ، ولكنه جمع منهم ٤٢٢٫٠٠٠ جنيه ضرائب وقروضاً أخرى على رؤوس أموالهم فى سبع سنين . وحدثت فى الاحتفال بتتويج رتشرد الأول فى إنجلترا (١١٩٠) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلصوا مما عليهم من ديون لليهود[١٥١] ، فتطورت إلى مذبحة امتدت إلى لنكولن Lincoln ، واستامفورد Stamford ، ولن Linn . وقتل الغوغاء ٣٥٠ منهم فى مدينة يورك فى العام نفسه وكان يقودهم رتشرد ده ملابستيا Richard de Malabestia ، وكان مستغرقاً فى الدين لليهود . ثم قام مائة وخمسون من يهود يورك يتزعمهم الحبر توم طوب Tom Tob بقتل أنفسهم[١٥٢] . وفى عام ١٢١١ غادر ثلثمائة من أحبار اليهود إنجلترا وفرنسا ليبدءوا حياة جديدة فى فلسطين ، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجر كثيرون من اليهود حين نفذ هنرى الثالث أمر الشارة اليهودية . وفى عام ١٢٥٥ راجت شائعة فى أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هيو Hugh قد أغرى بدخول الحى اليهودى ، ثم جلد ، وصلب ، وطعن بحربة ، بحضور جمع من اليهود المبتهجين . وعلى أثر هذه الشائعة هاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود ، وقبضت على الكوهن الذى قيل إنه كان على رأس الاحتفال ، وشدوه إلى ذيل جواد ، وجروه فى الشوارع ، ثم شنقوه . ثم قبض على واحد وتسعين

يهودياً وشنق منهم ثمانية عشر ، ونجا كثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل(*)(١٥٤) .

وأفلتت الجماهير من أيدى ولاة الأمور فى أثناء الحرب الأهلية التى نشرت الاضطراب فى إنجلترا بين عامى ١٢٥٧ ، ١٢٦٧ ، وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن ، وكنتربرى Canterbury ، ونورثمبتن Northampton ، وونشستر Winchtester ، وورسستر Worcester ، ولنكولن ، وكيمبردج ، فنهبت بيوتهم ودمرت ، وأحرقت العقود ، والسفاتج ، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لا يملكون شروى نقير(١٥٥) . وكان ملوك الإنجليز وقتئذ يقترضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين فى فلورنس وكاهورس Cahors ، وأصبحوا فى غير حاجة إلى اليهود ، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم . ولهذا أمر إدورد الأول من كان باقياً فى إنجلترا من اليهود وكانوا حوالى ١٦٠٠٠ يهودى أن يغادروا البلاد قبل أول نوفمبر من ذلك العام ، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون . وغرق الكثيرون منهم فى القناة الإنجليزية التى أرادوا أن يعبروها فى قوارب صغيرة ، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم ، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن عليهم أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام ١٢٩١(١٥٦) .

وفى فرنسا أيضاً تبدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب

(*) ولا تزال بكنيسة لنكولن آثار مزار أقيم فيها فى الماضى « لهيو الصغير » مصحوبة بالعبارة الآتية : « إن فى القصة حوادث كثيرة تلقى الشك على صحتها ، وإن وجود قصص مثلها فى إنجلترا وغيرها من البلاد ليدل على أن منشأها هو الحقد الناشئ من التعصب على اليهود فى العصور الوسطى ، والخرافة المنتشرة وقتئذ ، والتى لا يصدقها أحد قط فى هذه الأيام ، بأن قتل الأطفال كان من الشعائر الدينية فى عيد الفصح اليهودى . وقد قامت الكنيسة منذ القرن الثالث عشر بمحاولات لحماية اليهود من كراهية الغوغاء ومن هذه التهم بنوع خاص » .

الدينية على الأتراك فى آسية ، والملاحدة الألبجنسيين Albigensian فى لنجويدك Languedoc . فقام الأساقفة يلقون الخطب الدينية المثيرة للنفوس ؛ وكان من الشعائر المعتادة فى بزيير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحى اليهودى ؛ وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين فى عام ١١٦٠ بالكف عن هذه المواعظ الدينية ، ولكنه طلب إلى الجالية اليهودية أن تؤدى ضريبة خاصة فى أحد السعف من كل عام(١٥٧) . وفى طلوشه (طولوز) أرغم اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة فى يوم الجمعة الحزينة من كل عام ليتلقى صفعة على أذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيئتهم الأبدية(١٥٨) . وفى عام ١١٧١ أحرق عدد من اليهود فى بلوا Blois بحجة استخدامهم دماً مسيحيا فى شعائر عيد الفصح اليهودى(١٥٩) . ورأى الملك فليب أغسطس الفرصة سانحة ليبتز منهم المال محتجا بالدين ، فأمر بأن يسجن جميع من فى مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين(١٦٠) ، ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد أن افتدوا أنفسهم بمال كثير (١١٨٠) ؛ غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد ، وصادر جميع أملاكهم الثابتة ، وأهدى معابدهم للمسيحيين . وفى عام ١١٩٠ أمر بقتل ثمانين يهوديا فى أورنج Orange لأن ولاة الأمور فى المدينة شنقوا أحد عماله لقتله أحد اليهود(١٦١) ، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا عام ١١٩٨ ونظم أعمالهم المصرفية تنظيما يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة(١٦٢) . وفى عام ١٢٣٦ دخل الصليبيون المسيحيون الأحياء اليهودية فى أنجو Anjou وبواتو Poitou — وبخاصة ما كان منها فى بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulème — وأمروا بأن يعمد اليهود جميعاً ، فلما أبوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم حتى قضوا نحبهم(١٦٣) . وندد البابا جريجورى التاسع بهذه المذبحة ، ولكنه لم ينج اليهود من الموت . وأشار القديس لويس على رعاياه بألا يجادلوا اليهود فى أمور الدين ، وقال لجوانفيل Joinville إن من واجب كل شخص من غير رجال الدين : « إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحى بما لا يليق

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ ، ينفذه فى بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه[١٦٤] . وفى عام ١٢٥٤ نفى اليهود من فرنسا ، وصادر أملاكهم ومعابدهم ، ثم عاد فسمح بدخولهم إياها ، وردُّ إليهم معابدهم ، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فليب الجميل Philip the Fair (١٣٠٦) بسجنهم ، وصادر ما كان لهم من ديون ، وجميع ما كان لهم من متاع لم يستثن إلا ما كان عليهم من الثياب ، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف ، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من الطعام يوماً واحداً . وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدراً أغراه بأن يهدى معبداً يهودياً إلى سائق عربته[١٦٥] .

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو مائتى عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد . ولم يقع على اليهود فى پروڤانس Provence ، وإيطاليا ، وصقلية ، والإمبراطورية البيزنطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى ، واستطاعوا وقاية أنفسهم منها بالالتجاء إلى أسبانيا المسيحية . وكانت فترات الطمأنينة حتى فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا طويلة ، وكان اليهود يكثرون مرة أخرى ويثرى بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم . غير أن قصصهم كانت تنقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مُرّة ، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذى لا ينفك يهددهم ، وكان على كل يهودى أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه فى ساعة الاستشهاد[١٦٦] . وكانت حمى السعى إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار ، وكان لا بسو الشارة الصفراء يقابلون فى الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام ، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز فى نفوسها ويذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودّة ، ويترك فى أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التى تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاما لحادث صلب وحيد !

الباب السابع عشر

عقل اليهودى وقلبه

٥٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

الأدب

لقد ظلت روح اليهودى يتنازعها عاملان هما اعتزامه أن يشق طريقه فى عالم معاد له وشغفه بثمار العقل . فالتاجر اليهودى عالم فقده العلم ؛ يحسد الرجل الذى نجا من حمى الثراء ، والذى شغف فى هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم فى آفاق الحكمة ، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك . وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهبين إلى أسواق ترويس Troyes ، كانوا يقفون فى طريقهم ليستمعوا إلى راشى العظيم وهو يشرح التلمود[1] . وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم فى غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل ، ظلوا ينتجون النحويين ، وفقهاء الدين ، والمتصوفة ، والشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ، ولم يضارعهم فى آدابهم الواسعة وثرائهم العقلى إلا المسلمون فيما بين ١١٥٠ و ١٢٠٠[2] . وكان مما يسر لهم أسباب هذا النبوع أنهم يعيشون بين المسلمين أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعه فى العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم يغترفون من بحره الطامى فى العلوم والطب ، والفلسفة ، وبفضل وساطتهم أثاروا

عقل العالم الغربى المسيحى بما بثوا فيه من تفكير المسلمين .

وكان اليهود فى بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية فى حديثهم ونثرهم المكتوب ، أما شعراؤهم فقد استمسكوا فى شعرهم باللغة العبرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية ؛ وفى البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها ، ويكتبون فى آدابهم ، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم . وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين . وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحيوا اللغة العبرية من جديد ؛ وكان قد تعذر عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم فى اللغة العبرية ، ولكن علماءهم استطاعوا بعــد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورتى Masoretic (الذى قدسته التقاليد) وذلك بإضافة علامات للحركات ، وإشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح فى الهوامش ؛ وبفضل هذا العمل أصبح فى مقدور كل يهودى بعد ذلك الوقت أن يقرأ كتبه الدينية :

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبرى والمعجمات العبرية . ولفت شعر مناشة بن سروق (٩١٠ — ٩٧٠) وعلمه نظر حسداى بن شبروط ، فاستدعاه الوزير العظيم إلى قرطبة وشجعه على وضع قاموس لألفاظ الكتاب المقدس العبرية . ووضع يهوذا بن داود حيوج (حوالى عام ١٠٠٠ م) النحو العبرى على أساس علمى ، فى ثلاثة كتب باللغة العربية فى لغة الكتاب المقدس . وبزه فى هذا العمل تلميذه يونا بن جناح (٩٩٥ — ١٠٥٠) السرقسطى حين وضع بالعربية كتابه فى النقد الذى تقدم به النحو العبرى والمعجمات العبرية خطوات واسعة . ووضع يهوذا بن فريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته للغات العبرية ، والآرامية ، والعربية : وتقدم أبراهام الفاسى (حوالى عام ٩٨٠) اليهودى

القرائى خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجما أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها ورتبها على الحروف الأبجدية . وبز ناثان بن يحيل من علماء رومة (المتوفى عام ١١٦٠) سائر علماء المعاجم اليهود بوضعه معجما للتلمود . وفى نربونة ظل يوسف قمحى وولداه موسى وداود (١١٦٠ — ١٢٣٥) يعملون عدة أجيال فى هذه الميادين ؛ وظل محلول أو موجز Michlol داود قروناً عدة المرجع المعترف به فى النحو العبرى ، وطالما أعان مترجمى الملك جيمس للكتاب المقدس[٣] . تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود .

وأفاد الشعر اليهودى من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصيغ العربية ، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به ، وأنتج فى أسپانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أى ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين فى عصرهم . وأول هؤلاء الثلاثة هو سليمان بن جبيرول المعروف فى العالم المسيحى باسم الفيلسوف أڤسبرون Avicebron . وقد هيأته مأساته الشخصية لأن يكون هو المعبر عن مشاعر إسرائيل . وكان مولد هذا « الشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء » على حد قول هينى فى مالقة حوالى عام ١٠٢١ . وتوفى أبواه وهو صغير السن فنشأ فى جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب . وأعجب بشعره يقوتيايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً فى دولة — مدينة سرقسطة الإسلامية . وفى هذه المدينة وجد ابن جبيرول الحماية والهناءة إلى حين ، وأخذ يتغنى بمباهج الحياة . ولكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقوتيايل فاضطر ابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين يهيم على وجهه فى بلاد الأندلس الإسلامية ، فقيراً عليلا ، هزيلا إلى حد « يسهل معه على ذبابة أن تحملنى » . وأولاه صموئيل بن نجدلا ، وهو شاعر مثله ، حمايته وأواه فى غرناطة وفيها كتب سليمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره :

وكيف أتخلى عن الفلسفة ؟
لقد عقدت معها عهداً .
فهى أمى وأنا أعز أبنائها ؛
لقد طوقت عنقى بجواهرها . . . ؛
وستظل روحى تصبوا إلى
مراقيها السماوية ، ما دمت حيا . . .
ولن يقر لى قرار حتى أكشف منبعها[٥] ؛

وربما كان كبرياؤه قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل ؛ فعاد ، وهو لا يزال شاباً فى أخريات العقد الثالث من عمره ، إلى الفقر والتجوال ، حتى أذلت النكبات نفسه ، فهجر الفلسفة إلى الدين :

رباه ، ما الإنسان ؟ إنه جيفة دنسة تطؤها الأقدام .
إنه مخلوق كريه ، يفيض مكراً وخداعاً ،
إنه زهرة ذواية ، تدبل إذا مسها الحر[٦] .

وينجو شعره فى بعض الأحيان منحى عظمة المزامير المكتئبة الحزينة :

أنشر علينا السلام يا الله ،
وأسبغ علينا نعمتك السرمدية ؛
ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك ،
يا من نسكن إليه .
وسواء كنا نطوف بالأرض جيئة وذهاباً .
أو نقيم مكبلين بالأغلال فى المنفى الموحش .
فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين .
هاهنا مجدك يا رباه[٧] .

وخير كتبه كلها هو *كيتير ملخوت* (التاج الملكى) الذى ينادى فيه بعظمة الله كما كانت قصائده الأول تنادى بعظمته هو :

أفر منك إليك لأجد
مكاناً ألجأ إليه ، وفى ظلك
أختبئ من غضبك
إلى أن تهدأ سورتك ،
وأتعلق بأسباب رحمتك
حتى تستمع إلىّ وترثى لى ،
ولن أفك قبضتى
حتى تهبط علىّ نعمتك(٨) .

وقد اجتمع فى أسرة ابن عزرا بغرناطة ما كان للثقافة اليهودية فى أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحى : وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيعاً تحت رياسة شمويل بن نجدلا فى بلاط الملك : وكان بيته ندوة للآداب والفلسفة ونبغ ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشأوا فى هذا الجو العلمى ؛ فكان إسحق شاعراً ، وعالماً طبيعياً ، ومتبحراً فى التلمود ؛ وكان موسى ابن عزرا (١٠٧٠ — ١١٣٩) عالماً وفيلسوفاً ، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوى . وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوّجها أبوها إسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام . فما كان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة ، وهام على وجهه فى بلاد نائية يغذى بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة : « ألا فعيشى ، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد يمتصه غيرى ، وتنفسى بالند يستنشقه سواى . وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها ، وإن لم تكونى أنت وفية لى . إن قلبى ليطرب لغناء العندليب ، وإن كان المغنى يعلو على وينأى عنى »(٩) . ووجّه قيثارته آخر الأمر ، كما وجهها ابن جبيرول ، إلى الأغانى الدينية ، وأخذ ينشد مزامير من الاستسلام الصوفى .

وكان أبراهام بن مإير بن عزرا — الذى يَعُدّه براوننج Browning

المعبر عن فلسفة العصر الفكتورى — يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا ، ولكنه كان من أصدقائه المقربين . وقد ولد فى طليطلة عام ١٠٩٣ ، وعرف فى شبابه الفقر والجوع ، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم فى كل ميادينه . وأخذ هو أيضاً يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن مهنة إلى مهنة ، ولازمه سوء الحظ فى كل مهنة وكل مدينة ، وقال فى هذا بسخرية اليهودى المريرة : « لو اتجرت فى الشمع لما غربت الشمس ، ولو بعت أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر » . وسافر إلى إيران مجتازاً مصر والعراق ، ولعله قد ذهب أيضاً إلى الهند ، ثم عاد إلى إيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، وانجلترا . وبينا كان عائداً إلى أسپانيا فى الخامسة والسبعين من عمره إذ وافته منيّته ، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعره ونثره . وكانت مؤلفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التى طاف بها — ألف فى العلوم الرياضية ، والفلكية ، وفى الفلسفة ، والدين ؛ وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة ، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة ، والفصول ، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغنى بجمال النجوم . وقد صاغ فى صور شعرية أفكاراً لم يكن يخلو منها مكان ما فى عصر الإيمان ، واستبق نيومن Newman بهذه الترنيمة العبرية :

يا إله الأرض والسماء ، منك الروح والجسد !
لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما فى الإنسان من ضياء قدسى . . .
إن أيامى بين يديك ، وأنت تعرف الخير لى
وتهبنى بقوّتك خير عون لى حيث أخشى الوقوف
وسترك يحجب عن العيون آثامى ورحمتك درعى الواقى
ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك(١٠)

وخير ما يشتهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

القديم . وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة ، وأنها موحى بها من عند الله ، ولكنه فسر العبارات الممجدة للخالق تفسيراً مجازياً . وكان أول من قال أن سفر إشعيا لم يكتبه نبي واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء ؛ ويعدّه اسپنوزا واضع أساس النقد العقلى للكتاب المقدس(١١) .

وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبيهم يهودا هليفى (١٠٨٦ — ١١٤٧) . وقد ولد فى طليطلة بعد عام من استيلاء الفنسو السادس ملك قشتالة عليها . فنشأ فيها آمناً فى كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتسامحاً فى أيامه . وأعجب ابن عزرا بإحدى قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه فى غرناطة ، حيث استضافه موسى وإسحق ابنى عزرا فى منزلها . وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذيع فى جميع الأوساط اليهودية فى أسپانيا . وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح ، وشبابه الموفق السعيد ؛ وأخذ يتغنى بالحب ، بكل ما عرف من الشـعراء الجوالين المسلمين أو البروفنساليين ، وبكل ما فى نشيد الأنشاد من قوة ورنين . وقد حوت « حديقة بهجته » مقطوعة من الشعر الملتهب حماسة تعد أمرح الفقرات فى هذه الطرفة الغزلية الرائعة :

ادن منها أيها الحبيب ، لِمَ تتوانى عن أن تطعم بين حدائقها ؟
انثن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها .
إن تفاحتى صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرها ،
وهى تخبئ لك فى قلائدها ثماراً شهية تتلألأ كالنور . . . .
ولولا قناعها ، لاستحت منها نجوم السماء(١٢)

وترك هليفى ضيافة ابنى عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين فى المجمع العلمى اليهودى بهذه المدينة ؛ فدرس الطب ، وأصبح من الأطباء غير النابهين ؛ ثم أسس معهداً للغة العبرية فى طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس . ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء . فلما تقدمت به السن طغى

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ما كان يرفل فيه من نعيم ، فأخذ يتغنى بشعبه ، وبأقرانه ، ودينه ؛ وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن يختم حياته فى فلسطين :

أى مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجمال والجلال والكبرياء !
ليت لى جناحى نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعى ثراك !
إن قلبى فى الشرق ، وإن كنت مقيما فى الغرب[١٣] .

ولم يكن يهود أسپانيا المنعمون فيها يرون فى هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة ، ولكن هليفى كان مخلصاً فى أقواله . فقد استودع أسرته فى أيد أمينة عام ١١٤١ م ، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشليم . وأتت الرياح بمالا تشتهى سفينته فحولتها عن طريقها ودفعتها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية اليهودية ، ورجته ألا يجازف بالذهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ فى أيدى الصليبيين . وبعد أن أقام فى الإسكندرية وقتا ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ، ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى دمشق حيث اختفى ذكره من التاريخ . وتقول إحدى الأقاصيص أنه ذهب إلى أورشليم ، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خرَّ راكعا ، وقبّل الأرض ، فداسته حوافز جواد يركبه أعرابى وقضت على حياته[١٤] . ولكننا لا نعرف هل وصل حقا إلى مدينة أحلامه ؛ وكل الذى نعلمه علم اليقين أنه كتب فى دمشق « أغنية لصهيون » ولعله كتبها فى آخر سنة من حياته ، وكان جوت الشاعر الألمانى يعدها من أعظم القصائد فى أدب العالم كله[١٥] :

ألا ترغبين يا صهيون فى أن تبعثى بتحياتك من صخورك المقدسة
إلى شعبك الأسير الذى يحييك لأنه البقية الباقية من أبنائك ؟ ...

ألا ما أجش صوتى وأنا أندب أحزانك ولكنى حين أبصر حريتك فى

أوهام أحلامى تنساب من صوتى النغمات حلوة شجية كنغمات القيثارة المعلقة على شاطئ نهر بابل . . . ألا ليتنى أستطيع أن أصب روحى حيث صبت روح الله فى أبنائك القديسين فى الأزمان السابقة ! لقد كنت منزل الملوك وعرش الله ، ولست أدرى كيف يحتل العبيد الآن العرش الذى جلس عليه أبناؤك من قبل ؟

* * *

منذا الذى يرشدنى للبحث عن الأماكن التى أطل منها الملائكة بجلالهم على رسلك وأنبيائك فى الأزمان القاصية ؟

ومنذا الذى يهب لى جناحين أطير بهما لأضع حطام قلبى بين خرائبك وأستريح من تجوالى ؟

سأولّى وجهى نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتز بها كما يعتز الناس بالذهب الثمين . . .

إن هواءك يبعث الحياة فى نفسى ، وذرات ترابك هى المسك الشذى ، وأنهارك تفيض بالعسل المصفى

وما أعظم بهجتى إذا استطعت أن أجىء إلى معابدك المخربة عارياً حافى القدمين ! حيث احتفظ بالتابوت ، وحيث سكن الملائكة المكرمون فى المخابئ المظلمة . . .

يا صهيون يا ذات الجمال الذى ليس بعده جمال ، لقد اجتمع فيك الحب والبهاء ، إن أرواح أبنائك تتجه فى حنان نحوك ؛ وكانت أفراحك بهجتها ومسراتها ، وها هى ذى الآن تبكى فى منفاها البعيد أسى وحسرة على خرائبك ، وتتوق لرؤية مرتفعاتك المقدسة ، وتسجد فى صلواتها خاشعة نحو أبوابك ، إن

الرب ليحب أن يختارك لتكونى مسكنه الأبدى ، وطوبى لمن اختاره الرب وأنعم عليه بالراحة فى داخل أبهائك :

وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المجيدة تنتشر ، ومن يطلع عليه فجرك الوضاء كاملا صافياً من سماء المشرق :

وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينيه المتهللتين نعيم أبنائك المحررين ، ويرى شبابك يتجدد كعهدنا به فى قديم الزمان[١٦] .

الفصل الثانى

مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبى فى أسپانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدى التمسك بالدين كما كان شعراؤهم فى سنى الاضمحلال ؛ فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً ، حسياً ، رقيقاً ؛ وينطقون بفلسفة توفق فى ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليونانى . ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المتشددون فى دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسپانيا المسيحية ؛ وازدهرت المجامع العلمية اليهودية فى ظل التسامح المسيحى فى طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر . لكن اليهود لم يكن حظهم فى فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسپانيا ؛ فقد كانوا يزدحمون فى أحيائهم الضيقة وهم وجلون ، ويبذلون خير مواهبهم فى دراسة التلمود ؛ ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين ؛ ولم يشكوا قط فى أصوله ، بل انهمكوا فى دراسة الشريعة .

وأضحى المجمع العلمى الذى أنشأه جرشوم فى ميز من أوسع المدارس نفوذاً فى ذلك العصر ، اجتمع فيه مئات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم فى نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظلوا يكدحون فى هذا العمل جيلين من الزمان . وقام بمثل هذا العمل فى فرنسا الحاخام شلومو بن يصحق (١٠٤٠ — ١١٠٥) ، ويسميه بنو ملته راشى تدليلا له وقد أخذوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه . وقد ولد راشى فى تروى من أعمال شمبانيا ، وتعلم فى المدارس اليهودية فى ورمز ، وميز ، واسپير ، ثم عاد إلى تروى وأخذ يعول أسرته ببيع الخمور ، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه . وقد أنشأ مجمعاً علمياً فى تروى مع أنه لم يكن حاخاما رسمياً ، وظل يعلم فيه أربعين

سنة ، ووضع بالتدريج شروحا للعهد القديم والمشنا ، والجمارا ولم يحاول ، كما حاول بعض العلماء الأسبان ، أن يجد فى النصوص الدينية آراء فلسفية ، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيراً اغترفه من بحر عامه الصافى الخضم ، بلغ من تقدير بنى دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه . وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعوه إلى مقام القديسين ، وأخذت الجماعات اليهودية فى جميع أنحاء أوربا يرسلون إليه يستفتونه فى المسائل الدينية والشرعية ، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية . وأحزنته فى شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى . وواصل عمله بعد وفاته أحفاده شمويل ، ويعقوب ، وإسحق أبناء مإير ، وكان يعقوب أول « التوسافيت » ، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خمسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافوت أو « إضافات » .

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر جستنيان قراراً بتحريمه (٥٥٣) لأنه «خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر ، والتجديف»(١٧) . ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئذ وجود التلمود ؛ ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الآرامية اللتين كتب بهما ، وظل اليهود سبعمائة عام كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم — يقرءونه بجد يخيل إلينا معه أنهم قد نسوا معه الكتاب المقدس . لكن حدث فى عام ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Nicholas Donin ، وهو يهودى اعتنق المسيحية ، إلى البابا جريجورى التاسع معروضاً يتهم فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعذراء ، وتحريض على الغش والخداع فى معاملة المسيحيين . وما من شك فى أن بعض هذه التهم صحيح ، لأن جامعى الكتاب فى جدهم المتواصل قد عظموا التنائم والأمور التى تعظما جعلهم يضمون إلى الأجزاء الشعبية من الجمارا وفى أجزاء

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأحبار الغضاب على نقد المسيحيين للدين اليهودى[١٨] . ولكن دونين ، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه ، أضاف من عنده عدة تهم أخرى ، لايمكن إثباتها : منها أن التلمود يجيز غش المسيحى ، ويحبذ قتله ، مهما بلغ من صلاحه ؛ وأن أحبار اليهود يجيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التى أقسموا على الوفاء بها ، وأن يقتلوا كل مسيحى يدرس الشريعة اليهودية . فما كان من جريجورى إلا أن أمر بأن يرسل إلى الرهبان الدومنيك أو الفرنسيس كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود فى فرنسا ، وإنجلترا ، وأسپانيا ، ثم أمر أولئك الرهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدقة وعناية ، فإذا تبينوا أن هذه التهم صحيحة فليحرقوها . ولم نعثر فيما وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد هذا الأمر ، ولكنا نعرف أن لويس التاسع أمر يهود فرنسا بأن يسلموا كل ما لديهم من نسخ التلمود وإلا كان جزاؤهم الإعدام ، ثم استدعى أربعة من أحبارهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب فى نقاش على أمام الملك ، والملكة بلانش Blanche ، ودونين ، واثنين من الفلاسفة المدرسيين — وليم الأوفرنى William of Auvergne ، وألبرتس مجنس Albertus Magnus[١٩] . ودام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود (١٢٤٠) ، وشفع ولتر كرنوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens لليهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها ؛ فلما مات كبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الرهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك . واقتنع الملك برأيهم هذا فأمر بمصادرة جميع نسخ التلمود ، فجىء بها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة وألقيت فى النار (١٢٤٢) . ثم صدر أمر بابوى فى عام ١٢٤٨ يحرم تملك التلمود فى فرنسا ، وضعفت بعد ذلك دراسة التلمود والآداب العبرية فى جميع أنحاء فرنسا عدا پرڤانس .

وحدث مثل هذا النقاش فى برشلونة عام ١٢٦٣ ؛ ذلك أن ريمند الپنيافورتى

Rayond of Penafort وهو راهب دومنيكى يشرف على محكمة التفتيش في أرغونة وقشتالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين . وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات فى اللغة العبرية فى معاهد اللاهوت بأسبانيا المسيحية ، وساعده فى هـــذا يهودى متنصر يدعى پول المسيحى Paul the Christian ؛ وأمدا فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحى واليهودى فنظم الراهب نقاشاً بين پول والحاخام موسى بن نحمان الجيرونى أمام چيمس الأول ملك أرغونة . وجاء ابن نحمان إلى النقاش على كره منه ، لأنه كان يخشى النصر بقدر ما كان يخشى الهزيمة . ودام الجدل أربعة أيام كان الملك فى أثنائها مبتهجاً ، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة . وفى عام ١٢٦٤ أمرت لجنة دينية بجمع كل ما فى أرغونة من نسخ التلمود ، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن فى الدين المسيحى ثم ردت الكتب إلى أصحابها(٢٠) ؛ وتحدث ابن نحمان عن الدين المسيحى فى تقريره الذى كتبه للمعابد اليهودية فى أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارات خيل إلى ريمند أن فيها طعناً شديداً على هذا الدين(٢١) ؛ فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل ، ولكن چيمس لم يحرك ساكناً إلا عام ١٢٦٦ حين خضع لإلحاح البابا فنفى ابن نحمان من أسبانيا . وتوفى ذلك الحبر فى فلسطين بعد عام من نفيه .

الفصل الثالث

العلوم عند اليهود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود أن تنحصر كلها فى بلاد الإسلام ؛ ذلك أن المقيمين فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين للاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران ، ولهذا لجأوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه . وتلك كلها ظروف هى أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم . غير أن الدين اليهودى كان يشجع على دراسة الفلك ، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة . وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليهود فى بابل فى القرن السادس التقديرات الفلكية بالأرصاد المباشرة للقبة السماوية . وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس ، والشهور على أوجه القمر ؛ وسموا الشهور بأسماء بابلية ، وجعلوا بعض الشهور «كاملة» عدة كل منها ثلاثون يوماً ، وبعضها «ناقصة» عدة كل منها تسعة وعشرون ، ثم وفقوا بين التقويمين القمرى والشمسى بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة ، وسادسة ، وثامنة ، وحادية عشرة ، ورابعة عشرة ، وسابعة عشرة ، وتاسعة عشرة فى كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً . وكان يهود فى الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوقى الذى يبدأ فى عام ٣١٢ ق . م . أما فى أوربا فقد اتخذوا فى القرن التاسع «التاريخ اليهودى» الحالى المعروف باسم «سنة العالم Anno mundi» والذى يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون فى عام ٣٧٦١ ق . م . وبهذا كله أصبح التقويم اليهودى لا يقل سخفاً وقدسية عن تقويمنا نحن(*) .

(*) يريد التقويم المسيحى . (المترجم)

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود فى بلاد الإسلام العالم ما شاء الله (المتوفى حوالى عام ٨١٥) . وقد ترجم چيرار القريمونى Gerard of Cremona كتابه فى الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال العالم المسيحى ؛ ورسالته فى الأثمان هى أقدم مؤلف علمى موجود الآن باللغة العربية ؛ وكانت أعظم رسالة فى العلوم الرياضية فى ذلك العصر[٢٢] هى رسالة أبراهام بن حيا البرشلونى (١٠٦٥ — ١١٣٦) فى الجبر ، والهندسة ، وحساب المثلثات وهى المعروفة باسم هيورها مشيحه . وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة فى علوم الرياضة ، والهيئة ، والبصريات ، والموسيقى ، كما ألف فى التقويم أقدم رسالة باللغة العبرية باقية إلى الآن . ولم يجد أبراهام ابن عزرا ، فى الجيل التالى ، تعارضاً بين كتابة الشعر ، والتبحر فى التحليل التركيبى . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العبرية لا العربية . وبفضل هذه الكتب ، وفيض من الكتب الأخرى التى ترجمت من العربية إلى العبرية غزت العلوم والفلسفة الإسلامية المجتمعات اليهودية فى أوربا ووسعت نطاق حياتها الذهنيـــة إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة .

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية ، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج ، فكتبوا عدة رسائل قيمة فى الطب ، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالا فى أوربا المسيحية . ولقد ذاعت شهرة إسحق إسرائيلى (٨٥٥ — ٩٥٥ ؟) فى طب العيون بمصر ذيوعاً عين بسببه الطبيب الخاص للأغالبة فى القيروان . وكانت مؤلفاته الطبية ، بعد أن ترجمت من العربية إلى العبرية واللاتينية ، تعد أهم المراجع الطبية فى أوربا بأجمعها ، وكانت تستعمل كتباً للدراسة فى سالرنو . وباريس ، ونقل عنها بيرتن Burton ، بعد حياة دامت سبعمائة عام ، فيما كتبه عن تشريح السوداء (١٦٢١) . وتصف الروايات المتواترة إسحق بأنه لم يكن يأبه بالمال ، وبأنه عازب عنيد فى

عزوبته ، وبأنه عاش مائة عام كاملة . وأكبر الظن أنه كان من معاصريه. آساف ها يهودى ، وهو المؤلف الخامل الذكر لمخطوط كشف منذ وقت قريب ، ويعد أقدم مؤلف طبي باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم ؛ ويشتهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجرى من الشرايين إلى الأوردة ؛ ولو أنه طافت بعقله وظيفة القلب لاستبق بذلك هارفى Harvey [٢٣] إلى كشف الدورة الدموية بأكملها :

وسيطر على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (١١٦٥). الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية : فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم رسالة فى الرمد فى القرن الثانى عشر ، وألف الكوهين العطار (١٢٧٥ ؟) كتاباً فى الأقراباذين لا يزال يستعمل حتى الآن فى العالم الإسلامى : وكان الأطباء اليهود فى جنوبى إيطاليا وفى صقلية إحدى المسالك التى انتقل بها الطب العربى إلى سالرنو . ذلك أن شباتاى بن أبراهام (٩١٣ – ٩٧٠) المعروف باسم ونولو والمولود أترانتو وقع أسيراً فى يد المسلمين ، فدرس الطب العربى فى پالرم ، ثم عاد ليمارس مهنته فى إيطاليا . ودرس بنفنوتس جراسس ، أحد يهود أورشليم ، فى سالرنو ، وأخذ يعلم فيها وفى منپلييه وكتب رسالة فى طب العيون (١٢٥٠ ؟) كان العالم الإسلامى والعالم المسيحى على السواء يريانها أهم رسالة فى أمراض العين . وقد اختيرت هذه الرسالة بعد ٢٢٤ عاما من نشرها أول كتاب يطبع فى موضوعها .

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة فى جنوبى فرنسا تدرس منهاجا فى الطب ، وكان من بين الأغراض التى تبتغيها من هذه الدراسة أن تمكن رجال الدين من كسب المال من غير طريق الدين . وقد ساعد الأطباء اليهود الذين تدربوا فى منبلييه على إقامة مدرسة منبلييه الطبية الشهيرة ؛ ولما عين يهودى مديرا لتلك الكلية فى عام ١٣٠٠ جر ذلك على الشعب اليهودى حقد الأطباء فى جامعة

باريس ، واضطرت جامعة منبلييه أن تغلق أبوابها فى وجه اليهود (١٣٠١) ونفى الأطباء العبرانيون فيمن نفى من اليهود من فرنسا فى عام ١٣٠٦ . غير أن الطب المسيحى كان فى ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم بتأثير الأطباء اليهود والمسلمين وما ضربوه لغيرهم من مثل طيبة . ذلك أن الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التى تقول إن المرض ينشأ من حلول الشياطين بالجسم ، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصا قائما على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف إيمان الناس بقوة مخلفات الأولياء والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبنية على خوارق الطبيعة .

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم وكنائسهم تلك المخلفات والتى تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب ، فحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود فى داخل بيوت المسيحيين ، فقد كانت ترتاب فى أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم ، وكانت تخشى تأثيرهم فى العقول المريضة . وفى عام ١٢٤٦ حرم مجلس بزيير على المسيحيين استخدام أطباء يهود ؛ وفى عام ١٢٦٧ حرم مجلس ڤينا على الأطباء اليهود أن يعالجوا مسيحيين ؛ غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار المسيحيين من الانتفاع بمهارة اليهود ؛ مثال ذلك أن البابا بنيفاس Boniface الثامن حين مرض بعينيه استدعى لعلاجه إسحق بن مردخاى (٢٤) ؛ وكان ريمند للى Raymond Lullys يشكو من أن بكل دير طبيبا يهوديا ، وهال مبعوث بابوى أن يجد أن هذه هى الحال أيضا فى كثير من أديرة النساء ؛ وكذلك ظل ملوك أسبانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام فرديناند وإزبلا ؛ وكتب ششت بنڤنيست Sheshet Benveniste البرشلونى طبيب جيمس الأول ملك أرغونة (١٢٣١ — ١٢٧٦) أهم رسالة فى أمراض النساء فى زمانه ؛ ولم يفقد اليهود زعامتهم الطبية فى البلاد المسيحية إلا بعد أن استخدمت الجامعات المسيحية فى القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة على العقل .

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلا من الشعب اليهودى ، وكان من حقه أن يفيد منه لسعة انتشاره وكثرة تنقله . بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة فى القرن الثانى عشر . وهذان هما پتاحيا الراتسبونى Petschya of Ratisbon وبنيمين التطيلى ، وقد كتبا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما فى أوربا والشرق الأدنى . فقد غادر بنيمين سرقسطة فى عام ١١٦٠ ، وطاف على مهل ببرشلونة ، ومرسيلية ، وجنوا ، وپيزا ، ورومة ، وسالرنو ، وبرنديزى ، وأترنتو ، وكورفو ، والقسطنطينية ، والجزائر الإيچية ، وأنطاكية ، وكل مدينة هامة فى فلسطين ، وبعلبك ، ودمشق ، وبغداد ، وبلاد الفرس . ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندى ، والبحر الأحمر إلى مصر . وصقلية ، وإيطاليا ومنها براً إلى أسپانيا . ووصل إلى موطنه فى عام ١١٧٣ حيث مات بعد قليل . وكان أكثر ما يهتم به هو الجماعات اليهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والخصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية . وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركو پولو التى كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، ولكنها فى أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة . وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً ، ولاتزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى اليهود[٢٥].

الفصل الرابع

نشأة الفلسفة اليهودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة . والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم . وتكون إرادة الإيمان هى المسيطرة على العقل فى عهود الفقر والفوضى لأن الشجاعة فى تلك العصور هى كل ما يحتاجه الناس ؛ أما فى عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقى والتقدم ؛ وعلى هذا فإن الحضارة فى انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان ، « والصراع بين العلم والدين » . وفى هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الاضداد وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هى أن ترى الحياة فى كليتها ؛ ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين . وفى عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل ، تميل الفلسفة إلى الدين ، وتستخدم العقل فى الدفاع عن الإيمان ، وتصبح ديناً متنكراً . وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التى اقتسمت فيما بينها حضارة البيض فى العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء ، ورأيناه أكثر انطباقا على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء ، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء . وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء فى بلاد الأندلس الإسلامية .

وللفلسفة الإسلامية فى العصور الوسطى مصدران هما الدين العبرانى ، والتفكير الإسلامى . وكانت كثرة المفكرين اليهود ترى أن الدين والفلسفة متشابهان فى محتوياتهما ونتيجتهما ، وأن كل ما يختلفان فيه هو الوسيلة والصورة : فالذى يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعلمه الفلسفة على أنه حقيقة يثبتها

العقل ؛ وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة فى بيئة إسلامية ، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العربية ، ومن شروح المسلمين ؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء . وكما أن الأشعرى وجه سلاح العقل ضد المعتزلة ، وأنقذ بذلك العقيدة السنية فى الإسلام ، كذلك فعل سعديا الذى غادر مصر إلى بابل فى نفس العام (٩١٥) حين تحول الأشعرى من الشك إلى اليقين ، وأنقذ الدين العبرانى بطول جداله ومهارته فيه ، ولم يستخدم سعديا أساليب المتكلمين المسلمين فحسب ، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها[٣٦] .

وكان لانتصار سعديا من الأثر فى الدين اليهودى ببلاد المشرق ، ما كان لانتصار الغزالى فى الإسلام ببلاد الشرق ، فقد عمل هذا الانتصار ، مضافاً إلى الاضطراب السياسى والاضمحلال الاقتصادى ، على خنق روح الفلسفة العبرانية فى الشرق . وكملت القصة فى أفريقية وأسبانيا ، ففى القيروان وجد إسحق إسرائيلى بين مشاغله فى الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير . فقد وضع رسالة فى التعاريف أفاد منها منطق المدرسيين مصطلحات جمة ، وعرّفت رسالته فى العناصر التفكير العبرانى بكتاب أرسطو فى الطبيعة ، وأحل كتابه فى النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلهى التقدمى من الله إلى العالم المادى ، أحل هذه النظرية محل قصة الخلق كما وردت فى سفر التكوين ؛ وكان هذا من مصادر القبّالة اليهودية .

وكان أثر ابن جبيرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً . ولقد كان من الطرف التاريخية أن المدرسيين كانوا ينقلون أقواله فى هالة من الإجلال والتقدير ويسمونه أفسبرون ويحسبونه مسلماً أو مسيحياً . ولم يعرف الناس أن ابن جبيرول وأفسبرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salomon Munk فى عام ١٨٤٦[٣٧]. وكاد ابن جبيرول نفسه أن يهيئ تقول الناس لهذا الخلط إذ حاول

أن يكتب الفلسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين اليهودى . فقد أخذ كل مقتبساته فى مجموعة أمثاله المسماه مختار اللآلى من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلا من هذه المقتبسات ، وإن كانت القصص الشعبية اليهودية تحتوى على ثروة كبيرة من الحكم القوية التى تعد من جوامع الكلم . ومن هذه اللآلئ لؤلؤة كنفوشية إلى أبعد حد : «كيف يستطيع الإنسان أن يثأر من عدوه ؟ بزيادة صفاته الطيبة »[٢٨] . وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته فى إصلاح الصفات الخلقية التى ألفها ابن جبيرول كما يلوح وهو فى سن الرابعة والعشرين حين تكون الفلسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان . وقد اشتق الشاعر الشاب بأساليب فى الاشتقاق اصطناعية جميع الفضائل والرذائل من الحواس الخمس ، فأدى به هذا إلى نتائج غاية فى السخف . ولكن الذى يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع فى عصر الإيمان قانوناً للأخلاق لا يعتمد على العقيدة الدينية[٢٩] .

وبهذه الجرأة عينها امتنع جبيرول عن أن يقتبس فى أهم كتبه كلها وهو كتاب « مقور حايم » من الكتاب المقدس ، أو التلمود ، أو القرآن . وكان هذا البعد عن القومية هو الذى جعل الكتاب بغيضاً لأحبار اليهود ، كما جعله فى ترجمته اللاتينية المسماة « منبع الحياة Fous Vitae » عظيم الأثر فى العالم المسيحى . وقد قبل ابن جبيرول فى هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التى تسرى فى الفلسفة الإسلامية كلها ، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذى يؤكد عمل الإرادة عند الله والإنسان . ويقول ابن جبيرول فى كتابه إن علينا أن نفترض وجود الله بوصفه الهيولى الأول ، والجوهر الأول ، والإرادة الأولى إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة فى أى شىء على الإطلاق ، ولكننا لا نستطيع قط معرفة صفات الله . ولم يخلق الله الكون فى زمان معين ، بل هو ينساب فى فيض متصل متدرج من ذات الله . وكل شىء فى الكون : ما عدا

الله وحده يتكون من مادة وصورة ، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام ، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى إلا فى الفكر وحده[٣٠]. وقد رفض أحبار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا ، وقالوا إنها هى المادية المقنعة ، ولكن الكسندر الهاليسى Alexander of Hales ، والقديس بونافنتور St. Bonaventure ودنز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأوّلية الإرادة . وقال وليم الأوفرونى عن ابن جبيرول إنه « أنبل الفلاسفة أجمعين » ، وظنه مسيحياً صالحاً .

أما يهودا هليفى فقد رفض كل تفكير فلسفى وقال عنه إنه من عبث العقل ، وكان يخشى كما يخشى الغزالى أن تقوض الفلسفة دعائم الدين ؛ وليس هذا لأنها تشك فى عقائده ، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله ، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب ، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان . وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودى ، وتسرُّب الآراء الإسلامية إلى اليهود ، وهجمات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود ، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب فى الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها ، ونعنى به كتاب الخزرى (١١٤٠ ؟) الذى عرض فيه آراءه فى صورة قصة شبيهة بالمسرحيات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودى . وكان من حسن حظ هليفى أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية ، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلمين ؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفا ، وملاًّ ، وكوهنا ؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل . فحين يقتبس المسلم والمسيحى من كتاب اليهود المقدس ويقران أنه كلام الله يصرفهما الملك ويستبقى الكوهن اليهودى ، ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعلم فيه ملكا مطواعا مختتناً أصول الدين اليهودى وشعائره . ويقول التلميذ الملكى لمعلمه : « لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم

إلا تفاصيل عن الجنة والنار »[٣١] . ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العبرية لغة الله ، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا لليهود ، وإن أنبياء اليهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليڤى من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسموات لقياسهم المنطقى ومقولاتهم ، مع أن العقل البشرى لايعدو أن يكون جزءاً من عالم المخلوقات المعقد وهو جزء هش متناه فى الصغر . . والعاقل (وليس حتما أن يكون متعلماً) هو الذى يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية ، ويستمسك بالعقيدة التى جاءه بها الكتاب المقدس ، ويؤمن ويصلى ببساطة الطفل[٣٢] .

ولكن افتتان الناس بالعقل قد بقى على الرغم من هليڤى ، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين اليهودى . فلقد كان أبراهام بن داود (١١١٠ — ١١٨٠) مستمسكا بدينه استمساك هليڤى ، يدافع عن التلمود ضد اليهود القرائين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود فى الدولة الثانية ، ولكنه كان يتطلع ، كما تطلع العدد الذى يخطئه الحصر من المسيحيين ، والمسلمين ، واليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلى استخدام الفلسفة لإثبات أصول دينه . وقد ولد كما ولد هليڤى فى طليطلة ، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب . وقد رد على هليڤى فى كتابه العربى **كتاب العقيدة الرفيعة** بمثل ما رد به أكويناس فيما بعد على أعداء الفلسفة المسيحيين ، فقال إن الدفاع السلمى عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب المحاجة المنطقية ، ولا يمكن أن نعتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين ، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمن قليل (١١٢٦ — ١١٩٨) ، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان (١١٣٥ — ١٢٠٤) ؛ والقـــديس تومس أكويناس بعده بمائة عام (١٢٢٤ — ١٢٧٤) ، فبذل كل ما وسعه من جد للتوفيق بين دين آبائه وبين فلسفة أرسطو . ولو أن الفيلسوف اليونانى شهد ذلك لسره أن يتلقى هذه التحية الثلاثية ، أو أن يعرف أن الفلسفة اليهودية لم تعرفه

إلا من ملخصات الفارابى وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق الترجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة . وكان ابن داود أكثر من القديس توماس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيلى المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها ، لا النفس الفردية ، هى الخالدة(٣٣) . وهنا كان يحق لهليفى أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود ، .فلقد بدأت الفلسفة اليهودية ، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام ، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى ، وها هى ذى تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك . وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيلى الذى وقفه ابن داود ، ويواجه فى شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل فى صراعه مع الدين .

الفصل الخامس

ابن ميمون ١١٣٥ - ١٢٠٤

ولد أعظم عظماء اليهود فى العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء الممتازين هو الطبيب والقاضى ميمون بن يوسف. وسمى الغلام موسى ، وكان من الأقوال المأثورة بين اليهود قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى » . وقد عرف بين الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميمونى . ولما أن أصبح من أحبار اليهود الذائعى الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رمبم ، وعبر العالم المسيحى عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides . وتقول إحدى القصص التى يغلب على الظن أنها من الخرافات الذائعة إن الغلام أظهر عدم الميل للدرس ، وإن أباه الذى خاب فيه رجاؤه سماه « ابن الجزار » وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الحاخام يوسف ابن مجاشن[٣٤] . ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثانى فى آداب الدين وآداب الكتاب المقدس ، والطب ، والعلوم الرياضية ؛ والهيئة ، والفلسفة . وكان ثانى اثنين هما أعلم أهل زمانه ؛ ولم يكن يضارعه فى علمه إلا ابن رشد . ومن أغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين ولدا فى مدينة واحدة ولم يكن بين مولدهما إلا تسع سنين لم يجتمع أحدهما بالآخر كما يلوح ، ويبدو أن ابن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه[٣٥] .

واستولى البربر على قرطبة فى عام ١١٤٨ وهدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ،وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنفى ؛ فغادر ابن ميمون أسبانيا فى عام ١١٥٩ هو وزوجته وأبناؤه ، وأقاموا فى فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون[٣٦] ، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً .

وبرر ابن ميمون تظاهره بالإسلام بين اليهود المهددين بالخطر فى مراكش. بقوله إنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداء عملياً بل كل. ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها ، وإن المسلمين أنفسهم. يعرفون أنهم غير مخلصين فى النطق بها وإنما يفعلون ذاك ليخادعوا جماعة من المتعصبين[٣٧] . لكن كبير أحبار اليهود فى فاس لم يوافقه على هذا القول ، وكان جزاؤه أن قتل فى ١١٦٥ . وخشى ابن ميمون أن يلقى هذا المصير نفسه فسافر إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية (١١٦٥) ومصر القديمة حيث عاش حتى وافته منيته . وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم أطباء زمانه ، فاختير طبيباً خاصاً لنور الدين على أكبر أبناء صلاح الدين ، وللقاضى الفاضل البيسانى وزير صلاح الدين . واستخدم ابن ميمون نفوذه فى بلاط السلطان لحماية يهود مصر ، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد[٣٨] . وفى عام ١١٧٧ عين ابن ميمون نجيداً أو زعيما لليهود فى القاهرة ، ثم أفهمه أحد الفقهاء المسلمين (١١٨٧) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه عقوبة القتل التى هى جزاء المرتدين . ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال إن الرجل الذى أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحق[٣٩] .

وفى سنى العمل المتواصل التى أقامها بالقاهرة ألف معظم كتبه . ومن هذه المؤلفات عشرة كتب فى الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط ، وجالينوس ، وديسقوريدس ، والرازى وابن سينا . وقد اختصر فى كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسمائة عبارة قصيرة تشمل كل فرع من فروع الطب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية ، وكثيراً ما كان ينقل عنه فى أوربا ويصدر ما ينقل بتلك العبارة : « قال الحبر موسى » . ووضع مقالة فى تدبير الصحة للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ ومقالة أخرى فى الجماع لسلطان حماة الملك المظفر تقى الدين أبى سعيد عمر

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجماع من الوجهة الصحية ، وعن عجز القوة الجماعية ، وعن الانتصاب الدائم ، وعن الأدوية المقوية للباه .

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها فى موضوع واحد منها مقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القتالة(*) ، ومقالة فى الربو(**) ، وأخرى فى البواسير ، ورابعة فى السوداء — ومقالة جامعة فى شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، على أقوال لا تتفق مع عقائد هذا الزمان السريعة التبدل — المعصومة من الخطأ — كقوله إنه إذا كانت الخصية اليمنى أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً [٤١] ؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة فى مساعدة المرضى ، ببحثها الذى يمتاز بالتسامح والمجاملة فى الآراء المتعارضة ، وبما يسرى فيها من طابع الحكمة والاعتدال فى النصح ووصف الدواء . ولم يكن ابن ميمون يصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء[٤٢] . وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج[٤٣] . وكان يظن أن الخمر تفيد الصحة إذا شربت باعتدال[٤٤] ، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تدرب على الاتزان العقلى والخلقى وعلى الهدوء وهما الصفتان اللتان تؤديان إلى صحة الجسم وطول العمر[٤٥] .

وبدأ ابن ميمون فى الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا ، وظل يكدح فى هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية ، والطبية ، والأسفار الخطرة براً وبحراً . ولما نشر هذا الشرح فى القاهرة عام ١١٥٨ باسم **كتاب السراج** رفع ابن ميمون من فوره — وكان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره — إلى منزلة بين شراح التلمود لا تسمو عليها إلا منزلة راشى ، وذلك

(*) تعرف بالمقالة الفاضلة لأنها موجهة إلى القاضى الفاضل . (المترجم)

(**) وضعت لمريض نبيل . (المترجم)

بفضل ما يمتاز به من الوضوح ، وغزارة المادة ، وصدق الأحكام : وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديدة وسماه متحدياً مستثير آ *مشنا التوراة* ، وقد رتب فيه فى نظام منطقى ، وإيجاز واضح ، كل ما حوته أسفار موسى الخمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا ما عدا النزر اليسير . ويقول فى مقدمة الكتاب : « لقد سميت هذا الكتاب مشنا التوراة (تكرار الشريعة) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة (الأسفار الخمسة) لأول مرة ، ثم يقرأ هذه المجموعة ، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من غير أن يحتاج فى ذلك إلى الرجوع إلى أى كتاب آخر »[٤٦]، وقد أغفل فيه بعض ماورد فى التلمود من قواعد خاصة بالفأل والطيرة ، والتمائم ، والتنجيم ، فكان بذلك من بين مفكرى العصور الوسطى القلائل الذين لم يؤمنوا بالتنجيم[٤٧] . وقد قسم الأوامر الواردة فى الشريعة والبالغ عددها ٦١٣ أربعة عشر قسما وضع لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل قانون بل أخذ على نفسه بيان ضرورته المنطقية أو التاريخية . ولم يترجم إلى الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلا كتاب واحد ، وهو مجلد ضخم نستطيع به أن نتبين ضخامة الكتاب الأصلى كله .

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذى صدر بعده وهو : *دلالة الحائرين* ، أن ابن ميمون لم يكن من الذين يجهرون بالإلحاد . بل إنه قد حاول جهده لكى يرجع المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس إلى علل طبيعية ، ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ فى أسفار موسى الخمسة موحى به من الله ، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار رجال إسرائيل[٤٨] . ولعله كان يشعر بأن اليهود لا يستطيعون أن يكون اعتقادهم فى الكتاب المقدس أقل شأناً من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه ، ولعله هو أيضا كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعى بغير الاعتقاد فى قدسية أصل القانون

الأخلاق . وكان ابن ميمون وطنيا شديد الحب لوطنه لا يقبل فى عقيدته جدلا « يجب على جميع بنى إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد فى التلمود البابلى ، وعلينا أن نرغم اليهود فى جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التى قررها حكماء التلمود »(٤٩) . وكان أكثر حرية إلى حد ما من معظم المسلمين والمسيحيين فى أيامه ، فكان يعتقد أن غير اليهودى المتمسك بأهداب الفضيلة ، المؤمن بوحدانية الله ، يدخل الجنة ، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفرة اليهود من سفر التثنية أو التركمادا ؛ ويقول إن اليهود الذين ينبذون الشريعة اليهودية يجب أن يقتلوا ؛ و « من رأيى أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التى بلغت من القحة والجرأة ما جعلها تخالف أمراً من أوامر الله يجب أن يعدموا »(٥٠) . وقد استبق أكويناس فى الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة « أن القسوة على من يضلون الناس سعياً وراء الزهو والخيلاء إنما هى رحمة بالعالم »(٥١) ، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التى يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقة بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الأبناء للآباء ، وخرق حرمة السبت(٥٢) . ولعل أحوال اليهود حين هاجروا من مصر القديمة ، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لا وطن لها ، تقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرر وضع هذه القوانين . ولقد كانت حالة اليهود المزعزعة المضطربة فى أوربا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة ؛ ولكن الآراء المسيحية ، والعادات اليهودية أيضاً فى أغلب الأحيان ، كانت أرحم من القوانين اليهودية فى هذه الأمور (قبل أيام محكمة التفتيش) .

وإن فى نصيحة ابن ميمون التى يسديها إلى يهود زَمانه لجانباً من هذه الروح أفضل من الجانب الصارم السالف الذكر : « إذا قال الكفرة لبنى إسرائيل :

أسلمونا أحدكم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا إليهم واحداً من أبناء إسرائيل »[٥٣] .

وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالِم وهو ينحدر إلى الشيخوخة ، فقد أيد فى هذه السن قول أحبار اليهود إن « اللقيط العالم (بالشريعة) يسبق الكوهن الأكبر الجاهل » . وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات فى كل يوم لكسب العيش وتسعا لدراسة التوراة . وكان يعتقد أن البيئة أقوى أثراً من الوراثة ، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة الصالحين العقلاء من الناس . وينصح طالب العلم بألا يتزوج حتى يكتمل علمه ، ويتخذ له حرفة ، ويشترى له منزلا[٥٥] ، وعندئذ يصح له أن يتزوج أربع نساء ، ولكنه لا يصح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة كل شهر .

« نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام ، ولكن من واجب العالم أن يصطنع القداسة فى هذه العلاقة أيضاً ، فعليه ألا يكون على الدوام مع زوجته كما يفعل الديك ، بل يجب عليه أن يؤدى الواجب الزوجى فى ليلة الجمعة . . . ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا فى حالة سكر ، أو فتور ، أو حزن ، وألا تكون الزوجة نائمة فى ذلك الوقت[٥٦] » .

وهكذا ينشأ آخر الأمر الحكيم الذى :

« يتصف بالتواضع الجم ، ولا يكشف رأسه أو جسمه . . . ولا يرفع صوته فوق الحد الواجب إذا تكلم ، حديثه مع الناس جميعاً ظريف . . . يتجنب المبالغة والتصنع فى الحديث ، يعدل فى حكمه على الناس ، يؤكد فضائل غيره ، ولا يتحدث عن أحد بسوء[٥٧] » .

ولا يذهب إلى المطاعم إلا عند الضرورة القصوى : « فالرجل الحكيم لا يأكل إلا فى بيته ومن مائدته »[٥٨] . وهو يدرس التوراة فى كل يوم حتى

يموت ، ويحذر ألا يخدعه أحد بأنه المسيح ، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتى ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق ، وإلى الوفرة ، والأخوة ، والسلام : « تفنى جميع الأمم أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر »[٥٩] .

وغضب أحبار اليهود من مشنا التوراة ، فقلما كان فى وسع أحد منهم أن يعفو عما يرمى إليه من إحلال كتابه محل التلمود مع ما فى هذا من جرأة ، وقد استاء كثيرون من اليهود مما عزى إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها . ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً فى عصره ، فارتضاه جميع يهود الشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم ، وخيل إلى الناس فى جيل من الزمان أن الجاؤنية قد عادت إلى الوجود : ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت ، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالى ؛ فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجّه جهوده للعمل على أن يعيد إلى حظيرة الدين اليهودى من أغرتهم الفلسفة أو أغوتهم جماعات الملاحدة من اليهود القرائين فى مصر ، وفلسطين ، وشمالى أفريقية ؛ وأصدر إلى العالم اليهودى بعد عشر سنين من الكد أشهر كتبه كلها وهو : **دلالة الحائرين** (١١٩٠) ، وقد كتبه باللغة العربية بحروف عبرية ثم ترجم إلى اللغة العبرية وسمى : **مورة نبوخيم** ، ثم ترجم كذلك إلى اللاتينية وأثار عاصفة من أشد العواصف الذهنية فى القرن الثالث عشر .

ويقول فى مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة فى الكتب المتنبئة ، أى فى العهد القديم . ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقراته ذات معان متعددة : حرفية ، ومجازية ، ورمزية . فمنها ما إذا أخذ بمعناه الحرفى كان عقبة كؤوداً فى سبيل المخلصين لدينهم ،

ولكنهم إلى هذا يحترمون العقل أعظم مواهب الإنسان . أولئك ينبغى ألا يخيروا بين الدين بلا عقل أو العقل بلا دين . وإذ كان العقل قد غرسه الله فى الإنسان ، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوحى الإلهى ، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا — فى رأى ابن ميمون — أننا نأخذ بمعناها الحرفى بعض العبارات الموائمة للعقلية الخيالية التصويرية التى هى من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس . ولقد قال أحبارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً . . . ولقد وردت قصة هذا الخلق بعبارات مجازية حتى يستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ماله من مواهب ، وما عليه إدراكه من ضعف . أما المتعلمون فيفهمونه فهماً مختلفاً عن فهم هؤلاء[٦١] .

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث فى الذات الإلهية فيستنتج مما فى الكون من شواهد التنظيم المحكم أن عقلا سامياً يسيطر على هذا الكون ، ولكنه يسخر من الرأى القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان[٦٢] ، فالأشياء لم توجد إلا لأن الله ، وهو مصدرها وحياتها ، موجود : « ولو أمكننا أن نفترض أنه غير موجود لاستتبع هذا أن لا شىء غيره ممكن الوجود » . وإذ كان لابد بهذه الطريقة من وجود الله ، فإن وجوده متلازم مع جوهره : و « الشىء الذى يحتوى فى ذاته على ضرورة وجـوده ، لا يمكن أن يكون لوجوده علة أيا كانت(*) »[٦٣] . وإذ كان الله عاقلا ، فلابد أن يكون غير ذى جسم ؛ وعلى هذا فكل ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شىء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً . والحق ، كما يقول ابن ميمون (ولعله يحذو فى قوله هذا حذو المعتزلة)، أننا لا نستطيع

(*) ولقد صاغ ابن سينا هذه القضايا المنطقية ؛ وأخذها عنه القديس توماس أكويناس ثم كيفها اسبنوزا حتى توائم فكرة الهيولى الذاتى الوجود .

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود ، بل إن الصفات غير الجسمية التى نصفه بها — كالعقل ، والقدرة على كل شيء ، والرحمة ، والحب ، والوحدة ، والإرادة — كلها من نوع الجناس فهى إذا وصف بها الله كان لها معنى غير معناها إذا ما وصف بها الإنسان . ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضبط إذا وصف بها الله ، وليس فى وسعنا أن نعرفه ، ولا ينبغى لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو أن نثبت له شيئاً من أى نوع كان . فإذا قيل فى الكتاب المقدس إن الله أو الملائك « كلم » الأنبياء ، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً ، والنبوة هى تنمية المخيلة إلى أقصى درجات النماء » ، وهى فيض « الذات الإلهية » عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية ، فالذى يقصه الأنبياء لم يحدث فى الواقع وإنما حدث فى هذه الرؤيا أو الحلم ، وعلينا أن نفسره فى معظم الأحوال تفسيراً مجازياً[٦٤] « ولقد قال بعض حكمائنا فى وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود ، وإنما خلقه الشعراء خلقاً . . . ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق »[٦٥] . وهذا الإلهام التنبوئى فى مقدور أى إنسان إذا نمّى مواهبه إلى أقصى حدود النماء ، ذلك بأن العقل البشرى إلهام مستمر ، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة .

وبعد فهل خلق الله العالم فى زمان معين ، أو أن الكون ذا المادة والحركة ، كما يظنه أرسطو ، أزلى ؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يحتار فيه العقل ؛ فليس فى وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه ؛ وإذن فلنستمسك بعقيدة آبائنا القائلة بخالقه[٦٦] ، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة فى سفر التكوين تفسيراً مجازياً رمزيا : فآدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح ، وحواء هى المادة المنفعلة وهى مصـــدر كل شر ، والأفعى هى الخيال[٦٧] . ولكن الشر ليس له وجود ذاتى موجب ، وإنما هو انتفاء الخير ؛ وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء ؛ ومن الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإنسان أو وجهة النظر الضيقة ؛ وقد تكشف النظرة الكونية فى كل شر ما هو خير للكل أو ما هو فى

حاجة إليه[٦٨] . وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التى تجعل منه إنساناً بحق ؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً ؛ والله يعلم مقدماً بهذا الاختيار ، ولكن ليس هو الذى يقرره ويحتمه .

وهل الإنسان مخلد ؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه ، فهو يتجنب هذا السؤال فى كتاب دلالة الحائرين ، ولا يشير إليه إلا بقوله « إن النفس التى تبقى بعد الموت ليست هى النفس التى تعيش فى الإنسان حين يولد »[٦٩] .. وهذه النفس أو العقل « المنفعل » وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته ؛ أما الذى يبقى فهو « العقل المكتسب» أو « العقل الفعال » الذى وجد قبل الجسم ، وليس وظيفة من وظائفه على الإطلاق[٧٠] . وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تنكر كما يبدو الخلود الفردى . ولقد أنكر ابن ميمون فى *مشنا التوراة* فكرة بعث الجسم وسخر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقوريا ، وقال إن تصويرها على هذا النحو فى الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلا لها بما يناسب خيال جمهرة الناس وحاجاتهم[٧١] . وأضاف فى *دلالة الحائرين* إلى قوله هذا أن : الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصاؤها إلا حين تكون قوى كائنة فى الجسم[٧٢](*) ؛ وينطوى قوله هذا ، كما يبدو ، على أن الروح غير المادية التى تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردى . وقد أثارت هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن بعث الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية فى الإسلام واليهودية . ولما كتب *دلالة الحائرين* بالحروف العربية أثار عقول العلماء فى العالم الإسلامى ؛ فقام عبد اللطيف ، وهو عالم من علماء المسلمين ، يسفهه لأنه « يهدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل التى يخيل إلى الناس أنه يدعمها بها »[٧٣] . وكان صلاح الدين وقتئذ منهمكا فى حرب حياة أو موت من الصليبيين ؛ وكان السلطان من المستمسكين طول حياته بأصول

(*) وقد استمد أكويناس من هذا فكرته القائلة إن المادة هى «أصل الانفرادية» !

الدين ، وكان فى هذا الوقت ، بوجه خاص ، أكثر بغضاً للإلحاد منه فى أى وقت آخر لأن الإلحاد فى ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية ، والمسلمون منهمكون فى حرب مقدسة ، بأشد الأخطار . ولهذا أمر فى عام ١١٩١ بإعدام السهروردى ، وهو صوفى زنديق ؛ ونشر ابن ميمون فى الشهر نفسه مقالة فى بعث الموتى عبّر فيها مرة أخرى عن تشككه فى عقيدة الخلود الجسمى ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب .

وسكنت هذه الزوبعة إلى حين ، وانصرف هو إلى عمله الطبى وإلى كتابة فتاوى دينية أو أخلاقية وصلت إليه من العالم اليهودى . ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون ، وكان وقتئذ يترجم **دلالة الحائرين** إلى اللغة العبرية ، أنه يرغب فى زيارته حذره من أن يظن أنه سيحدثه فى أى موضوع علمى ولو مدة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار لأن عمله اليومى يجرى على النحو الآتى : « فأنا أقيم فى الفسطاط بينما يقيم السلطان فى القاهرة على بعد مسيرة يومى سبت(*) (ميل واحد ونصف ميل) . وواجباتى نحو نائب السلطان جد ثقيلة ؛ فعلى أن أزوره فى كل يوم فى الصباح الباكر ، وإذا ما كان هو ، أو أحد أبنائه ، أو أى فرد فى داخل حريمه ، منحرف المزاج ؛ فلن أجرؤ على مغادرة القاهرة بل على أن أقيم معظم النهار فى القصر . . . ولا أعود إلى الفسطاط إلى ما بعد الظهر . . . وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع . ولكنى أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس ، من رجال الدين ، وموظفى الدولة ، والأصدقاء ، والأعداء . . . فأنزل عن دابتى ، وأغسل يدى ، وأرجو مرضاى أن يصبروا على حتى أتناول بعض المرطبات — وتلك هى الوجبة الوحيدة التى أتناولها كل أربع وعشرين ساعة . ثم أستقبل مرضاى . . . وأظل كذلك إلى أن يحل الليل ،

(*) مسيرة السبت مسافة يبلغ مقدارها ألفى ذراع وهى التى يصرح لليهودى أن يمشيها فى يوم السبت وتعادل المسافة بين النهاية القصوى للمعسكر والتابوت (الآية الرابعة من الأصحاح الثالث من سفر يشوع) . (المترجم) .

وقد أستمر على ذلك فى بعض الأحيان حتّى تمضى من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين ، فأصف لهم الدواء وأنا مستلق على ظهرى من فرط التعب ، حتّى إذا جن الليل تكون قواى قد خارت حتّى لا أستطيع الكلام . ولهذا لن يستطيع إسرائيلى أن يجتمع بى على انفراد إلا فى يوم السبت . فنى ذلك اليوم يقبل علىّ جميع المصلين ، أو الكثرة الغالبة منهم على أقل تقدير ، بعد صلاة الصبح ، ليتلقوا علىّ بعض العلم . . . ونظل ندرس معاً حتّى الظهر ثم نفترق[٧٤] .

وقد أنهك هذا الجهد قواه قبل الأوان . وقد طلب إليه رتشرد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الخاص ، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه .

وأدرك وزير صلاح الدين ما حل به من الضعف فسمح له أن يعتزل منصبه ورتب له معاشاً ، ثم توفى عام ١٢٠٤ فى التاسعة والستين من عمره ، ونقلت رفاته إلى فلسطين ولا يزال قبره قائما فى طبرية .

الفصل السادس

الحرب الميمونية

لقد أحسّ العالم الإسلامى والعالم المسيحى بتأثير ابن ميمون كما أحسّ به العالم اليهودى ، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون **دلالة الحائرين** بإشراف معلمين من اليهود ؛ وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس فى جامعتى منبلييه وپدوا ، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسى ووليم الأوفرنى يقتبسان منه فى جامعة باريس . واقتفى ألبرنس ماجنس أثر ابن ميمون فى كثير من المسائل ، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر فى آراء الحبر موسى ليفندها إن لم يكن لغرض آخر . وكان اسپنوزا ينتقد التفسير المجازى للكتاب المقدس الذى يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس ، ولعله وهو يفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ ؛ ولكنه مع ذلك كان يصف الحبر العظيم بأنه « أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل »[٧٥] ، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله[٧٦] .

أما فى الدين اليهودى نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً ، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً : فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى فى منصب النجيد وطبيب البلاط عام ١٢٠٥ ؛ وخلفه أيضاً حفيده داود بن أبراهام ، وابن حفيده سليمان بن أبراهام فى زعامة يهود مصر . واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بتقاليد ابن ميمون فى الفلسفة ، وأتى على الناس حين من

الدهر أصبح فيه تطبيق آراء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام المجاز والاستعارة فى تفسيره استخداماً يبلغ حد الشعوذة ، ورفض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية ، نقول أصبح هذا كله هو الطراز الحديث . فقيل مثلا إن قصة إبراهيم وسارة ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة ، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا غرض رمزى وحقيقة رمزية(٧٧) . وبدا أن صرح الدين اليهودى كله يوشك أن ينهار على رأس أحبار اليهود . وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة : قاومها شمويل الفلسطينى ، وأبراهام بن داود البسكويبرى of Posqières ، ومابر بن تادرس هليفى أبو العافيـــة الطليطى ، ودون أستروك اللونلى Don Astruc of Lunell ، وسليمان بن أبراهام من يهود منبلييه ، وجناح بن أبراهام جيروندى الأسبانى ، وكثيرون غيرهم . واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه « بيع الكتاب المقدس للإغريق » ، وشنوا الغارة على المحاولة التى تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود ، ونددوا بتشكك ابن ميمون فى عقيدة الخلود ، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازى لا يحرك أية نفس نحو التقى والصلاح . وانضم أتباع القبلة الصوفية إلى المهاجمين ودنسوا قبر ابن ميمون(٧٨) .

وفرقت الحرب الميمونية شمل الجماعات اليهودية فى جنوبى فرنسا فى الوقت الذى أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الزندقة الألبجنسية . وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية ، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد فى الجامعات ، كذلك خطا الكوهن سليمان ابن أبراهام من يهود منبلييـــه خطوة لم تكن مألوفة من قبل فصب لعنته على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرســـون العلوم والآداب النجسة ،

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً — ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحيين على الجماعات اليهودية بحجة أنها تحمي جماعة العقليين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعامة داود قمحى ، ويعقوب بن مخير تبون بأن أقنعوا يهود لونل ، وبزيير ونربونة فى پروڤانس ، ويهود سرقسطة فى أسپانيا بأن يحرموا سليمان وأتباعه من الدين . فلما فعلوا هذا خطا سليمان خطوة أجرأ من الأولى وأكثر منها إثارة إلى الدهشة : ذلك أنه وشى إلى محكمة التفتيش فى منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً . ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التى أمكن الحصول عليها فى احتفال عام فى منبلييه عام ١٢٣٤ وفى باريس عام ١٢٤٢ ثم أحرق التلمود نفسه فى باريس بعد أربعين يوماً .

وأثارت هذه الحوادث حنق أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف ، فقبضوا على كبار المشايعين لسليمان فى منبلييه ، واتهموهم بالوشاية بأبناء دينهم اليهود ، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم ؛ ويلوح أن سليمان نفسه قد قتل(٧٩) . وندم الكوهن جناح على اشتراكه فى إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه ، وكفر عن عمله هذا علناً فى كنيسها ، وحج تائباً إلى قبر موسى بن ميمون ؛ ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أى علم من العلوم النجسة . وأيده فى هذا ابن نحمان وآشر بن يحيل ، حتى إذا كان عام ١٣٠٥ أصدر سليمان بن أبراهام بن أردوط ، الزعيم القوى المبجل ليهود برشلونه ، قراراً بحرمان كل يهودى يعلم أى علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب ، أو أية فلسفة غير يهودية ، أو يجرؤ على دراسة شىء منها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ؛ وكان رد أحرار منبلييه أن حرموا كل يهودى يمنع

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية[٨٠] . ولم يكن لكلا القرارين أثر فى دائرة واسعة ، فقد ظل شبان اليهود فى أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة. ، غير أن ما كان لأردوط وأشر فى أسبانيا من نفوذ ، وازدياد الاضطهاد والخوف فى جميع أنحاء أوربا الخاضعة وقتئذ لمحاكم التفتيش ، دفعا الجاليات اليهودية إلى ما كانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية . وضعفت عندهم دراسة العلوم ، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هى المسيطرة على المدارس العبرية ، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفزع الدينى والعداء الشامل ، توارت هذه الروح فى الصوفية والتقوى الدينية .

الفصل السابع

القبــــلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أينما كانت ؛ ذلك أن العلم يضيق الآمال ، ولا يستطيع أن يتحمل عبأه راضين إلا من أسعدهم الحظ . وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة ، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون ، ستاراً من آلاف الخرافات ، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر ، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين ، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرقى والتمائم ، وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال ، وأضاءوا ظلمة النوم وغموضه بما وضعوه من تفسير للأحلام ، وتبينوا فى الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية .

والتصوف اليهودى قديم قدم اليهود أنفسهم ، تأثر بالأثنينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور ، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهى بعملية الخلق ، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسراراً ، وبالثيوصوفية الغنوسطية (مذهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله) السائدة فى سوريا ومصر ، والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك فى صحتها (الأپوكريفا) ، وبالشعراء والمتصوفة فى الهند ومصر ، وبكنيسة العصور الوسطى المسيحية . لكن مصادرها الأساسية كانت كامنة فى عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم . ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه ، شروح سرية لقصة الخلق الواردة فى سفر التكوين وفى الأصحاحين الأول والعاشر من سفر حزقيال ؛ وقد حرّمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفرد موثوق به . وكان الخيال حرًّا طليقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم ، وما سوف يكون بعد فناء

العالم . وكانت نظرية فيلون القائلة بأن الحكمة الإلهية هى أداة الله الخالقة للكون مثلا سامياً لهذه الأفكار الفلسفية . وكان للإسينيين كتابات سرية ، يحرصون على كتمانها عن سواهم ، وكانت الكتب العبرانية غير المعترف بصحتها ككتاب الأعياد تنشر بين الناس أقوالا خفية عن خلق العالم ، وجعلت أسماء يهوه التى لا يصح النطق بها ذات قوى خفية ، وكانت حروفه الأربعة — التترجرام — تهمس فى الآذان على أن لها معنى خفيا ، وتأثيراً معجزاً ، لا تنقل إلا العقلاء ذوى الأفهام الناضجة . وكان عقيبا يقول إن أداة الله فى خلق العالم هى التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفيا وقوة خفية . وكان بعض الجأونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه القوى الخفية ، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى الطبيعة . وكان العلماء يعبثون بضروب السحر الأسود والأبيض — أى القوى العجيبة التى يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح بالملائكة أو الشياطين . وكان لا ستحضار الأرواح ومعرفة الحظ بفتح الكتاب المقدس ، والتعاويذ ، والتمائم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ، والقرعة ، كان لهذه كلها شأنها فى الحياة المسيحية : وقد شملت كتب اليهود جميع عجائب التنجيم ، فكانت النجوم فى هذه الكتب حروفاً هجائية وكتابات فى السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها (٨١) .

وظهر فى وقت ما فى القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات الأسرار الخفية فى بابل يعرف باسم سفر يصيرا — أى كتاب الخلق . وكان الأتقياء المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هليفى يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله نفسه . ومما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بوساطة عشرة سفروتات Sefiroth — أعداد أو أصول هى : روح الله ، وفيوض ثلاثة منها : الهواء ، والماء ، والنار ،

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد إلى اليمين . وهذه الأصول هى التى حددت محتويات العالم ، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرون الصور والأشكال التى يستطيع بها العقل البشرى فهم عملية الخلق . وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد أحبار اليهود البابليين حوالى عام ٨٤٠ هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا ، ثم انتقلت منها إلى ألمانيا ، وپروڤانس ، وأسپانيا . وأكبر الظن أن ابن جبيرول قد تأثر بها فى نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم . واتخذ أبراهام بن داود « التقاليد السرية » وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية . وأكبر الظن أن ابنه إسحق الضرير وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا سفر هباهير أو كتاب الضوء (١١٩٠ ؟) ، وهو شروح صوفية للأصحاح الأول من سفر التكوين . وقد استبدلا فى هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الربانى الواردة فى سفر يصيرا بفكرة الضوء ، والحكمة ، والعقل . وعرض هذا التثليث للعقل الإلهى بوصفه ثالوثاً يهودياً[٨٢] . وعرض العزر من يهود ورمز (١١٧٦ — ١٢٣٨) ، وأبراهام بن شمويل أبو العافية (١٢٤٠ — ١٢٩١) هذه العقيدة السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود . وقد استخدما فى وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهوانى والزواج التى كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان .

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشر كانت كلمة قبلة قد عم استعمالها لوصف العقيدة السرية فى جميع مظاهرها ونتائجها . وفى عام ١٢٩٥ نشر موسى بن شم طوب من علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى *سفر زوهر* أو *كتاب المجد* وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاى أحد علماء القرن الثانى ، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكشفوا لقرائه المستترين الأسرار التى كانت من قبل محتفظا بها إلى أيام المسيح المنتظر :

وقد جمعت فى الزوهر كل عناصر القبلة : فكرة الإله الشامل لكل شىء الذى لا يعرف إلا عن طريق الحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهوه — التتراجرامتون — ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح وكيفية ظهوره ، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعانى الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعمال الكتابات الجفرية ، والحروف الأولى من العبارات التى إذا جمعت كونت اسماً خاصاً ، وقراءة الكلمات عكساً لا طرداً ، والتفسير الرمزى لنصوص الكتاب المقدس ، والقول بأن حمل المرأة خطيئة وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق . وقد شوه موسى الليونى عمله حين جعل شمعون بن يوحاى يشير إلى خسوف حدث فى رومة عام ١٢٦٤ ويقول بعدة آراء لم تكن ، كما يلوح ، معروفة قبل القرن الثالث عشر ، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس ؛ ولكنه لم يخدع زوجته ؛ وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى فى شمعون خدعة مالية بارعة[٨٣] . وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة ، وجازى بعض القبليين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آراءهم هم معزوة إليه .

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى ، وظل *الزوهر* وقتاً ما كتابا يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود ، بل إن بعض القبليين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بال قديم ، مفرط فى التقطيع المنطقى ؛ وتأثر بعض علماء التلمود ، ومنهم ابن نحمان العالم النحرير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية . وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة ، وبأنها وحى من عند الله انتشاراً واسعاً بين يهود أوربا[٨٤] . وبقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ فى مؤلفاتهم العلمية والفلسفية ، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبى فى سخف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة اليهود إلى المسيحيين فافتتن

بها بعض مفكريهم ؛ فأخذ عنها ريمند للى Raymond Lully (١٢٣٥ ؟ — ١٣١٥) أسرار الأعداد والحروف فى كتابه Ars Magna وحسب بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ — ١٤٩٤) أنه قد وجد فى القبلة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح(٨٥) ، واغتذى براسلسس Pracelsus ، وكورنليوس Cornelius ، وأجريا Agrippa ، وربرت فلد Robert Fludd وهنرى مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها ، وأقر يوهانس روشلين Johonnes Rcuchlin (١٤٥٥ — ١٥٢٢) بأنه قد سرق من القبلة بحوثه الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم Jakob Böhme (١٥٧٥ — ١٦٢٤) . وإذا كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى فى الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نابها لليهود ، وأرغمتهم فى سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة ، واليائسون السيئو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه .

الفصل الثامن

العتق

لقد وجد يهود العصور الوسطى فى عزلة جماعاتهم ، وفيما تسبغه عليهم شعائرهم وعقائدهم من سلوى ، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية ، وزوال خداع عقيدة المسيح المنقذ المنتظر ، ومما كان ينتابهم من الاضطهاد حينا بعد حين ، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة . فكانوا يحتفلون بمظاهر التقى بالأعياد التى تذكرهم بتاريخهم ، وبخطوبهم ، ومجدهم التليد ، وعدلوا فى صبر وأناة احتفالاتهم التى كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية . فكان القراءون المتقرضون يحتفلون بالسبت فى البرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج ، ولكن معظم اليهود كانوا يستقدمون أصدقاء لهم من المسيحيين أو زائرين ليبقوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة ، وكان أحبارهم يغضون النظر عن هذه المخالفة ؛ وكانوا يغتنمون كل فرصة لإقامة المآدب يظهرون فيها سخاءهم وأبهتهم : فكانت الأسرة تقيم وليمة يوم ختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد ، وفى خطبة ابن أو بنت أو زواجهما ، أو زيارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد دينى . وأصدر رجال الدين أوامر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنهوا من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلا ، وعشر نساء ، وخمس بنات ، وجميع أقارب الداعى حتى الطبقة الثالثة . وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملا ، لا يسمحون أن يقطعها يوم السبت نفسه . وكان العروسان يتوجان بالورد ، والريحان ، وأغصان الزيتون ، وينثر فى طريقهما النقل والقمح ، وتنثر فوقهما حبوب الشعير رمزاً للإخصاب ؛ وكانت الأغانى والنكات تصاحب كل مرحلة من

مراحل هذا الحادث ، وفى أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممتهن يستأجر ليتم للحاضرين سرورهم . وكانت نكات هذا المهرج فى بعض الأحيان صادقة إلى حد القسوة ، ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هلل الظريف : « إن كل زوجة جميلة »(٨٦)

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضى يحتفل بانقضائه وحلول جيل آخر مكانه ، ويبتهج بمولد أبناء أبنائه ، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة . ونحن نشاهد وجوه أولئك اليهود الشيوخ فى صور ربمرانت Rembrandt : نشاهد ملامحهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد ، ولحاهم تنفث الحكمة ، وعيونهم قد انطبعت فيها الذكريات الحزينة ، ولكنها قد رققها الحب الحنون : وليس فى صفات المسلمين والمسيحيين الخلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشيب عند اليهود ، الحب الذى يتغاضى عن جميع الزلات ، وهداية العقول المجربة للعقول غير الناضجة ، والكرامة التى تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرتضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة .

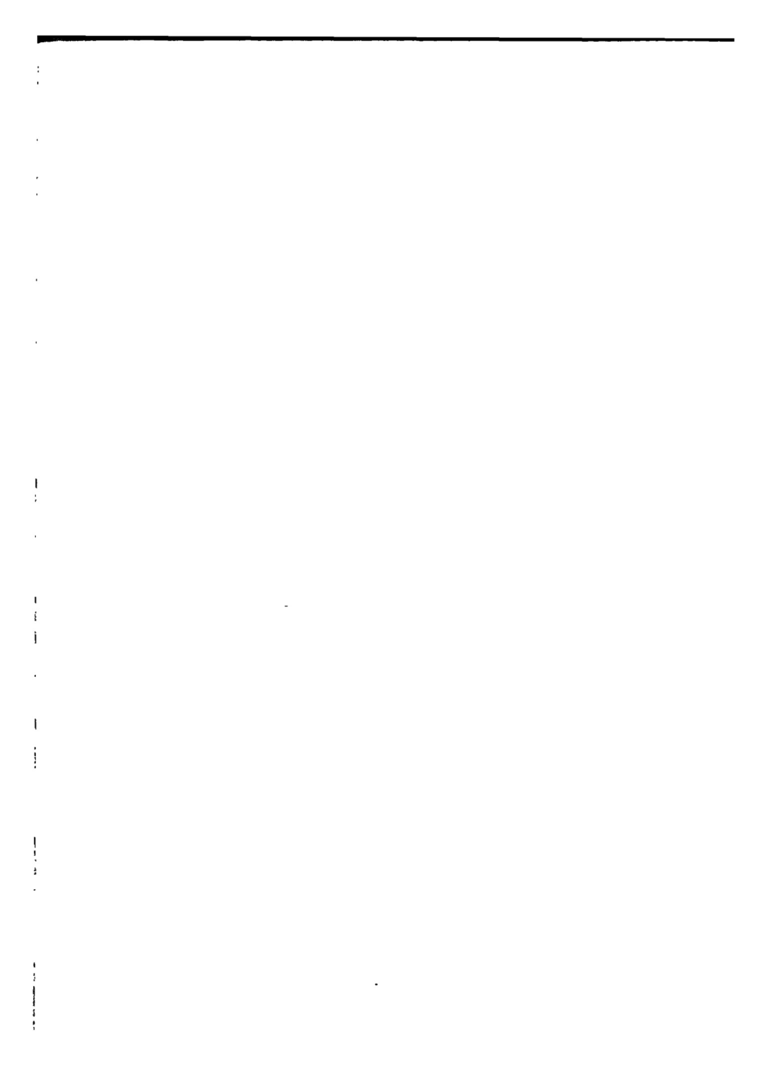
واليهودى إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب ، بل يترك لهم فوق ذلك نصائحه الروحية : « كن أول من يذهب إلى الكنيس » ، وها هى ذى وصية إلعزر (١٣٣٧) من أهل مينز تقول : « لا تتكلم فى أثناء الصلاة ، وردد الاستجابات ، واعمل الخير بعد الصلاة » .

وها هى ذى آخر وصايا اليهودى :

غسلونى ، ومشطوا شعرى ، ودرموا أظافرى ، كما كنت أفعل فى حياتى ، كى أسير طاهراً إلى مقرى الأبدى كما كنت أسير إلى الكنيس كل سبت . وضعونى فى الثرى على يد أبى اليمنى ، فإذا ضاق المكان قليلا فإنى واثق من أنه يحبنى حبا يجعله يفسح لى مكاناً بجانبه(٨٧) .

فإذا ما لفظ الشخص نفسه الأخير أقفل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

أو أقربائه مقاماً فاه وأغمض عينه ، ثم تغسل جثته وتضمخ بالأدهان العطرة ، وتلف فى قماش التيل النقى النظيف . ويكاد كل يهودى أن يكون عضواً فى جمعية للدفن ، تأخذ الجثة ، وتعنى بها ، وتقوم بآخر الشعائر الدينية ، وتصحبها إلى قبرها . وكان حملة بساط الرحمة يسيرون فى الجنازة حفاة ، وتسير النساء أمام النعش ، ينشدن نشيداً حزيناً ، ويدققن طبلة . وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسير فيها إلى المقبرة . وكان تابوت الميت يوضع عادة بالقرب من توابيت الموتى من أقاربه ، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو « الرقود مع الآباء » و « الاجتماع بالأهل » . ولم يكن المشيعون يستولى عليهم اليأس ، فقد كانوا يقولون إنه وإن مات الأفراد فإن بنى إسرائيل لن يموتوا .



الكتاب الرابع

العصور المظلمة

٥٦٦ — ١٠٩٥

الحوادث التاريخية فى الكتاب الرابع

٤٨٦ — ٧٥١	:	الأسرة المروفنجية فى غالة .
٤٩٠ - ٥٤٣	:	القديس بندكت .
٥٢٠ — ٥٦٠	:	نشأة المجامع العلمية الأيرلندية .
٥٢١ — ٥٩٨	:	القديس كولمبا .
٥٤٣ — ٦١٥	:	القديس كولمبان .
٥٦٨ — ٧٧٤	:	مملكة اللمبارد فى إيطاليا .
٥٦٨ وما بعدها	:	تأسيس مدينة البندقية .
٥٨٢ — ٦٠٢	:	موريق إمبراطوراً على الدولة الرومانية الشرقية .
٥٩٠ — ٦٠٤	:	البابا جريجورى الأول العظيم .
٥٩٠ — ٦١٦	:	إثلبرت ملك كنت .
٥٩٧	:	أوغسطين ينشر المسيحية فى إنجلترا .
٦٠٠ — ١١٠٠	:	الترنيمة الجريجورية .
٦٠٢ — ٦١٠	:	اغتصاب فوقاس .
٦١٠ — ٦٤١	:	هرقل يجلس على عرش الدولة الشرقية .
٦٢٥ — ٦٩٠	:	بولس الإيجينى ، الطبيب .
٦٢٩ — ٦٣٨	:	وجوبرت ملك الفرنجة .
٦٤٠	:	الصقالبة يدخلون بلاد البلقان .
حوالى ٦٥٠	:	بيوولف ؛ كيدمون ، الشاعر
٦٥١	:	تأسيس أوتل دييه (فندق الله) فى باريس .
٦٧٣ — ٧٣٥	:	بيد الموقر ، المؤرخ .
٦٨٠ — ٧٥٤	:	بنيفاس ، رسول إلى ألمانيا .
٦٨٧ — ٧١٤	:	پپين الأصغر يحكم الفرنجة .
٦٩٧	:	الدوج الأول فى البندقية .
٧١٣ — ٧١٦	:	أناستيوس الثانى إمبراطور الدولة الشرقية .
٧١٧ — ٧٤١	:	ليو الثالث الإسورى ، إمبراطور الشرق .
٧٢٦ وما بعدها	:	حركة محطمى الصور فى بيزنطية .
٧٣٥	:	مدرسة يورك .
٧٣٥ — ٨٠٤	:	الكوين ، المربى .
٧٥١ — ٧٦٨	:	پپين القصير يحكم الفرنجة .
٧٥١ — ٩٨٧	:	أسرة كرولنجيه من ملوك الفرنجة .
٧٥٦	:	هبة پپين تثبت قوة البابوات الزمنية .
٧٦٨ — ٨١٤	:	شارلمان ملك الفرنجة .

٧٧٢ — ٨٠٤ : حروب شارلمان ضد السكسون .
٧٧٤ : شارلمان يضم تاج لمباردية .
٧٧٤ — ١٢٠٠ : الطراز المعمارى الرومانى .
٧٧٦ — ٨٥٦ : رابانوس موروس ، المربى .
٧٧٨ : شارلمان فى أسبانيا ؛ رولان فى ونسفال .
٧٨٠ — ٧٩٠ : إيرينى وصية على العرش فى القسطنطينية .
٧٨٧ : الدنمرقيون يبدؤون غاراتهم على إنجلترا .
٧٩٥ : الدنمرقيون يبدؤون غاراتهم على أيرلندة .
٧٩٧ — ٨٠٢ : إيرينى « إمبراطور » الشرق .
٨٠٠ : البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية .
٨٠٢ : بلغاريا تحت حكم خان كروم .
٨١٣ — ٨٢٠ : ليو الخامس إمبراطور الشرق الأرمنى .
٨١٤ — ٨٤٠ : لويس الأول ملك الفرنجة التقى .
٨١٥ — ٨٧٧ : چون اسكوتس أرچينا ، الفيلسوف .
حوالى ٨٢٠ : الفرياجيون يدخلون الروسيا .
٨٢٩ : إجبرت يؤسس الحكومة السباعية الإنجليزية السكسونية ويصبح ملكاً على إنجلترا .
٨٢٩ — ٨٤٢ : ثيوفيلوس الأول إمبراطور الشرق .
٨٤١ — ٩٢٤ : غارات الشماليين على فرنسا .
٨٤٣ : تجزئة فردون ؛ لدفج يصبح أول ملوك ألمانيا .
٨٤٥ — ٨٨٢ : هنكمار أسقف ريمس .
٨٤٨ وما بعدها : مدرسة سلرنو الطبية .
حوالى ٨٥٠ : كتاب كل ؛ ليو السالونيكى ، العالم الرياضى .
٨٥٢ — ٨٨٨ : بوريس الخان والقديس البلغارى .
٨٥٧ — ٨٩١ : فوتيوس بطريق القسطنطينية .
٨٥٨ — ٨٦٧ : البابا نقولاس الأول .
٨٥٩ : روريك أمير الروسيا العظيم .
٨٦٠ — ٩٣٣ : هرلد هارفاجر أول ملوك النرويج .
٨٦٢ : الفجياريون فى نوفجرود .
٨٦٣ : بعثة سيريل ومثوديوس إلى المورافيين .
٨٦٧ — ٨٨٦ : باسيل الأول يؤسس أسرة مقدونية .
٨٧١ — ٩٠١ : ألفرد الأكبر .
٨٧٢ : الشماليون يستعمرون أيسلندة .
٨٧٥ — ٨٧٧ : شارل الأصلع ، إمبراطور الغرب .
٨٨٦ : الشماليون يحاصرون باريس .
٨٨٦ — ٩١٢ : ليو السادس الحكيم ، إمبراطور الغرب .

٨٨٧ وما بعدها : السجل الإنجليزى — السكسونى
٨٨٨ : أدو ملك فرنسا .
٨٩٣ — ٩٢٧ : سميون إمبراطور البلغار .
٨٩٩ — ٩٤٣ : المجر يعيثون فى أوروبا فساداً .
٩٠٥ : سانكو الأول يؤسس مملكة نبرة .
٩١٠ : تأسيس دير كلونى .
٩١١ : كنراد الأول ملك ألمانيا ، رُولو دوق نورمنديا .
٩١٢ — ٩٥٠ : قنسطنطين السابع پورفيرو جنتيوس .
حوالى ٩١٧ : الديوان اليونانى .
٩١٩ — ٩٣٦ : هنرى الأول الصياد ملك ألمانيا .
٩٢٥ — ٩٨٨ : القديس دنستان .
٩٢٨ — ٩٣٥ : ڤنسسلاس الأول ملك بوهيميا .
٩٣٠ : تأسيس الألثنج الأيسلندى .
٩٣٤ — ٩٦٠ : هاكون الصالح ملك النرويج .
٩٣٦ — ٩٧٣ : أتو الأول ملك ألمانيا .
٩٥٠ : أوج الحضارة الأيرلندية فى العصور الوسطى .
٩٥٥ : أتو يهزم المجر على وادى لك .
٩٦١ : دير القديس لاڤرا على جبل آثوس .
٩٦٢ : أتو الأول إمبراطوراً على الغرب .
٩٦٣ : أتو يخلع البابا يوحنا الثانى عشر .
٩٦٣ — ٩٦٩ : نقفور فوقاس إمبراطور الشرق .
٩٦٥ — ٩٩٥ : هاكون « الإيرل العظيم » ملك النرويج .
٩٦٨ : هرسويزا ، المؤلف المسرحى .
٩٧٣ — ٩٨٣ : أتو الثانى إمبراطور ألمانيا .
٩٧٥ — ١٠٣٥ : سانكو العظيم ملك نبره .
٩٧٦ : معجم سويداس .
٩٧٦ — ١٠١٤ : بريان بورمها ملك منستر .
٩٧٦ — ١٠٢٦ : باسيل الثانى إمبراطور الشرق .
٩٧٦ — ١٠٧١ : كنيسة القديس مرقس فى البندقية .
٩٨٠ — ١٠١٥ : ڤلادمير الأول ملك كيف .
٩٨٣ — ١٠٠٢ : أتو الثالث إمبراطور ألمانيا .
٩٨٧ — ٩٩٦ : هيوكاپت يؤسس الأسرة الكاپتية من ملوك فرنسا .
٩٨٩ : الروسيا تعتنق المسيحية .
٩٩٢ — ١٠٢٥ : بولسلاف الأول أول ملوك پولندة .
٩٩٤ وما بعدها : الإصلاح الكلونى للأديرة .

٩٩٧ – ١٠٣٨ : القديس استيفن ملك المجر .
٩٩٩ – ١٠٠٣ : البابا سلفستر الثانى (جربرت) .
١٠٠٠ : ليف إركسون فى « ڤنلندة » .
١٠٠٢ – ١٠٢٤ : هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا .
١٠٠٧ – ١٠٢٨ : فلبرت أسقف شارتر .
١٠٠٩ – ١٢٠٠ : الطراز الرومانسى الألمانى .
١٠١٣ : سوين الدنمرقى يفتح إنجلترا .
١٠١٤ : بريان بورمها يهزم الشماليين فى كلنتارف .
١٠١٥ – ١٠٣٠ : القديس أولاف ملك النرويج .
١٠١٦ – ١٠٣٥ : كنوت ملك إنجلترا .
١٠١٨ – ١٠٨٠ : ميخائيل پسلوس ، المؤرخ .
١٠٢٢ – ١٠٨٧ : قسطنطين الأفريقى ، المترجم .
١٠٢٤ – ١٠٣٩ : كنراد الثانى إمبراطور ألمانيا .
١٠٢٨ – ١٠٥٠ : زوئى وثيودورا يحكمان الدولة الشرقية .
١٠٣٣ – ١١٠٩ : القديس أنسلم .
١٠٣٤ – ١٠٤٠ : دنكان الأول ملك اسكتلندة .
١٠٣٥ – ١٠٤٧ : مجنوس الصالح ملك النرويج .
١٠٣٩ – ١٠٥٦ : هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا .
١٠٤٠ – ١٠٥٢ : ماكبث المغتصب ملك اسكتلندة .
١٠٤٠ – ١٠٩٩ : ردريجو ديار السيد .
١٠٤٣ – ١٠٦٦ : إدورد المعترف ملك إنجلترا .
١٠٤٦ – ١٠٧١ : كنيسة القديس أمبروز فى ميلان .
١٠٤٨ وما بعدها : دير چومييج .
١٠٤٩ – ١٠٥٤ : البابا ليو التاسع .
١٠٥٢ : وفاة إيرل جدون ، السياسى .
١٠٥٤ : انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الرومانية .
١٠٥٥ – ١٠٥٦ : ثيودورا إمبراطورة على الشرق .
١٠٥٦ – ١١٠٦ : هنرى الرابع إمبراطور ألمانيا .
١٠٥٧ – ١٠٥٩ : إسحق كمنينوس إمبراطور الشرق .
١٠٥٧ – ١٠٧٢ : بطرس دميان أسقف أستيا .
١٠٥٨ : ملكلم الثالث ملك اسكتلندة يخلع مكبث .
١٠٥٩ – ١٠٦١ : البابا نقولاس الثانى ؛ تأسيس مجمع الكرادلة .
١٠٦٠ : روبرت جوسكارد دوق أپوليا .
١٠٦١ – ١٠٩١ : فتح النورمان لصقلية .

١٠٦٣ : الأمير هارولد يفتح ويلز .

١٠٦٣ وما بعدها : كنيسة بيزا الكبرى .

١٠٦٦ : هارولد ملك إنجلترا ؛ واقعة هيستنجس ، فتح النورمان لإنجلترا .

١٠٧٣ — ١٠٨٥ : البابا جريجورى السابع هلدبراند .

١٠٧٥ : المرسوم المناهض لتولية غير رجال الدين ، حرمان هنرى الرابع .

١٠٧٧ : هنرى الرابع فى كنوسا .

١٠٨١ — ١١١٨ : ألكسيوس الأول إمبراطور الشرق .

١٠٨٥ : نهب ربرت جوسكارد لرومة .

الباب الثامن عشر

العالم البيزنطى

٥٦٥ — ١٠٩٥

الفصل الأول

هرقل

إذا حولنا الآن نظرنا من الجانب الشرقى للنزاع الدائم بين الشرق والغرب ، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تنتابها محنتان فى وقت واحد : تمزقها الانقسامات فى الداخل ، ويهاجمها الأعداء من جميع الجهات فى الخارج . فقد كان الآفار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضى الإمبراطورية وبلدانها ؛ وكان الفرس يستعدون لاجتياح آسية الغربية ؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا ، واستولى اللمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (٥٦٨) . وفشا الطاعون فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى عام ٥٤٢ وعاد إليها مرة أخرى فى عام ٥٦٦ ؛ وعمتها المجاعة فى عام ٥٦٩ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل الاتصال ، ووقفت فى سبيل التجارة ، وقضت على الآداب والفنون .

وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية ، ولكن المشاكل التى واجهتهم لم يكن فى وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع . وقاتل جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال ؛ ولم تكد الآلهة تضن على تيبريوس الثانى بكل ما لديها من الفضائل ، ولكنها اختصرته بعد حكم عادل قصير . وهاجم موريق الآفار الغزاة بشجاعة ومهارة ، ولكنه لم يلق من الأمة إلا قليلا من التأييد ، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة فراراً من الخدمة العسكرية ؛ ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه . وتزعم فوقاس الذى عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامة على الأشراف والحكومة (٦٠٢) ، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه ؛ وأبى الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل ابنها هى به ؛ فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع بها أعين الشعب ، وألقيت جثثهم فى البحر . وذبحت الإمبراطورة قسطنطينة ، وبناتها الثلاث ، وكثير من الأشراف ، وكان مقتلهم مصحوباً فى العادة بضروب من التعذيب ، بعد محاكمة أو بغير محاكمة ، فسملت أعينهم ، واقتلعت ألسنتهم من أفواهم ، وبترت أطرافهم ، وارتكبت الفظائع التى تكررت فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية .

وأفاد كسرى الثانى من هذا الاضطراب ، وجدد الحرب القديمة حرب الفرس واليونان ، وعقد فوقاس الصلح مع العرب ، ونقل الجيش البيزنطى كله إلى آسية ؛ ولكن الفرس هزموه فى كل واقعة التقوا به فيها ، واستولى الآفار على جميع الأراضى الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلا منها ، دون أن يلقوا مقاومة ، واستغاث أشراف العاصمة بهرقل إمبراطور أفريقية اليونانى ، ودعوه لينقذ الإمبراطورية وينجى أملاكهم . لكنه اعتذر محتجا بكبر سنه ، وأرسل إليهم ابنه . وجهز هرقل الأصغر عمارة بحرية ، جاء بها إلى البسفور ،

وخلع فوقاس ، وعرض جثة المغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ، ونودى به إمبراطوراً (٦١٠) . .

وكان هرقل خليقاً باسمه ولقبه ، فقد شرع بعزيمة سميه هرقل الأسطورى بعيد تنظيم الدولة المحطمة ، وقضى عشر سنين يعمل لإحياء روح الشعب المعنوية ، ويعيد قوة الجيش ، وينظم موارد الخزانة ، ووهب الأرض للزراع على شريطة أن يؤدى أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية : وفى هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم (٦١٤) ، وتقدموا إلى خلقدون (٦١٥) ؛ ولم ينقذ عاصمة الدولة وأوربا إلا الأسطول البيزنطى . ولم يمض بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جحافل الآفار على القرن الذهبى ، وأغاروا على أرباض العاصمة ، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء . وكانت نتيجة خسارة الأراضى الخصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب عن المدينة ، وأرغمت الحكومة على قطع إعانات الغذاء عن الأهلين (٦١٨) ، وفكر هرقل فى يأس أن ينقل جيشه إلى قرطاجنة ، وأن يحاول منها استرجاع مصر . ولكن الأهلين والقساوسة منعوه من المسير ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة الكنيسة اليونانية بفائدة ، يمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشليم[٣] . ولهذا تصالح هرقل مع الآفار ثم زحف آخر الأمر لقتال الفرس .

وكانت الحروب التى أعقبت هذا الزحف آيات فى التفكير والتنفيذ . فقد واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات ، هزم فيها كسرى عدة مرار ، وحاصر فى أثناء غيابه جيش من الفرس ، وجحافل من الآفار ، والباغار والصقالبة مدينة القسطنطينية (٦٢٦) ؛ فسير هرقل جيشاً هزم الفرس فى خلقدون ، ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة . ودق هرقل أبواب طيسفون ، وسقط كسرى الثانى ، وطلبت فارس الصلح ، وردت

كل ما كان كسرى قد استولى عليه من الإمبراطورية اليونانية ، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين .

ولم يكن هرقل خليقاً بمصيره الذى جلله العار فى سن الشيخوخة . فبينا هو يبذل ما بقى لديه من نشاط فى إصلاح شئون الإدارة بعد أن هد المرض قواه إذ انقضت قبائل العرب على بلاد الشام (٦٣٤) ، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى ، واستولت على بيت المقدس (٦٣٨) ، ثم استولت على مصر بينا كان الإمبراطور يعانى سكرات الموت (٦٤١) . وكانت فارس وبيزنطية قد جرت كلتاهما الخراب على الأخرى بحروبها العوان . وواصل العرب انتصاراتهم فى أيام قنسطانس Constans الثانى (٦٤٢ — ٦٦٨) ؛ وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبراطورية ، فقضى آخر سنى حياته فى الغرب ثم قتل فى سرقوسة . وكان ابنه قسطنطين الرابع پجنونوتس Pognonotus أقدر منه أو أسعد حظاً . ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى فى خلال السنين الخمس الحاسمة (٦٧٣ — ٦٧٨) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوربا « النارُ الإغريقية » التى ورد ذكرها وقتئذ لأول مرة . وكان هذا السلاح الجديد ، الذى يعزى اختراعه إلى كلسنيوس Calcinius السورى من نوع قاذفات اللهب المستخدمة فى هذه الأيام ، فهو مزيج حارق من النفط ، والجير الحى ، والكبريت ، والزفت ، يلقى على سفن العدو أو جيوشه فى سهام ملتهبة ، أو يصب عليها من أنابيب ، أو يقذف فى صورة كرات من الحديد مغطاة بالكتان ونسالته المغموسة فى الزيت ، أو يوضع فى قوارب صغيرة وتشعل وتوجه إلى العدو . وأفلحت الحكومة البيزنطية فى الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنين من الزمان ، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإثما دينياً ؛ غير أن المسلمين كشفوا آخر الأمر هذا السر ، واستخدموا « النار الإسلامية » فى حرب الصليبيين . وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس فى العصور الوسطى فى العالم كله إلى أن اخترع البارود .

وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى فى عام ٧١٧ ، فعبر جيش من العرب والفرس عدته ثمانون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها . ثم جهز العرب فى الوقت نفسه عمارة بحرية مؤلفة من ألف وثمانمائة سفينة ، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة ، ودخلت هذه العمارة البحرية البسفور ، وكانت تظلل المضيق ، على حد قول أحد الإخباريين ، كأنها غابة متحركة . وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن جلس على عرش الإمبراطورية فى هذه الأزمة ، بدل ثيودوسيوس Theodosius الثالث الضعيف العاجز ، قائد محنك هو ليو « الإسورى » Leo The Isaurian ، وشرع ينظم وسائل الدفاع ، فوزع قطع الأسطول البيزنطى بمهارة وحنكة ، وتأكد من أن كل سفينة قد زودت بكفايتها من النار الإغريقية ؛ فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى اشتعلت النار فى كل سفينة من سفن العرب ، فلم تكد تبقى على واحدة منها . ثم هجم الجيش اليونانى على المحاصرين ، وانتصر عليهم نصراً حاسماً ارتد المسلمون على أثره إلى بلاد الشام .

الفصل الثاني

محطمو الصور والتماثيل الدينية

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris فى قليقية ؛ ويقول ثيوفان Theophanes إنه ولد فى هذا الإقليم من أبوين أرمنيين ؛ ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية ، وأخذ يربى الضأن ، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستنيان الثانى . وأصبح ليو فيما بعد جنديا فى حرس القصر ، ثم قائداً لفيلق الأناضول ، ثم اختاره الجيش إمبراطوراً ، والجيش كما لا يخفى لا يرد له اختيار ؛ وكان ليو رجلا طموحاً ، قوى الإرادة ، مثابراً ، صبوراً ؛ وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرار جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه ؛ كما كان بعد ذلك سياسيا محنكا ، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشئ من التطبيق العادل للقوانين العادلة ، وأصلح نظام الضرائب ، وخفض من أعباء رقيق الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضى على الفلاحين ، وعمر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر فى القوانين ، ووضعها على أساس إنشائى حكيم ، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأوتوقراطى .

ولعله قد تشبعت نفسه وهو فى صباه بآسية بفكرة رواقية متزمتة عن الدين سرت إليه من المسلمين ، واليهود ، والمانيين ، واليعاقبة ، ومن تعاليم القديس بولس ، وكان يمقت عكوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل ، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالخرافات . ولقد نهى العهد القديم فى صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الأصحاح الرابع من سفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا : « تمثالا منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه بهيمة ما مما على الأرض .... الخ » . وكانت الكنيسة فى أول أمرها تكره الصور والتماثيل

وتعدها بقايا من الوثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثنى الذى يهدف إلى تمثيل الآلهة . ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر فى القسطنطينية والشرق الهلنستى ، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية . ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين ، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم ؛ فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور . ولم يعظم الناس الصور التى يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظموا معها خشبة الصليب — حتى لقد أصبح الصليب فى نظر ذوى العقول الساذجة طلسما ذا قوة سحرية عجيبة . وأطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار ، والصور ، والتماثيل المقدسة ، إلى معبودات ، يسجد الناس لها ، ويقبلونها ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفى . وفى البلاد التى تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص ، كنت ترى الصور المقدسة ، فى كل مكان — فى الكنائس ، والأديرة ، والمنازل ، والحوانيت — ، وحتى أثاث المنازل ، والحلى ، والملابس نفسها لم تخل منها . وأخذت المدن التى تتهددها أخطار الوباء ، أو المجاعة ، أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية أو على من فيها من الأولياء والقديسين بدل أن تعتمد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث ؛ وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ، ونادت مجالسها ، بأن الصور ليست آلهة ، بل هى تذكر بها فحسب[٤] ، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة .

وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط فى التدين من جانب الشعب . وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، وحز فى نفسه ما كان يوجهه المسلمون ، واليهود ، والشيع المسيحية المنشقة من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين المتمسكين بدينهم . وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة ، ويضمن تأييد النساطرة ، واليعاقبة ،

فعقد مجلساً من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقتهم فى عام ٧٢٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وحرم تصوير المسيح والعذراء ، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن الرهبان وصغار القساوسة احتجوا عليه ، وثار عليه الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة ، لأنهم قد روعهم وأثار غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز رموز دينهم . ونادت قوات الثوار فى بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر ، وسيرت أسطولا ليستولى على العاصمة . ودمر ليو هذا الأسطول ، وزج زعماء معارضيه فى السجون ؛ وفى إيطاليا ، التى لم تنمح منها فى يوم من الأيام أساليب العبادات الوثنية ، أجمع الشعب كله تقريبا على معارضة المرسوم ؛ وطردت مدائن البندقية ، ورافنا ، وروما عمال الإمبراطورية ، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجورى الثانى وصب اللعنة على محطمى الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإمبراطور . وانضم بطريق القسطنطينية إلى الثائرين ، وحاول بانضمامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن الدولة ؛ فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (٧٣٠) ، ولكنه لم يعتد عليه ، وبلغ من رأفة الإمبراطور فى تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته فى عام ٧٤١ تحتفظ بمظلاتها وفسيفسائها سليمة .

وسار ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) على نهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف « كبرونيموس Copronymus » (المشتق من الدبال) . وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق فى القسطنطينية (٧٥٤) ، حرم عبادة الصور والتماثيل ؛ ووصفها بأنها عمل « ممقوت » ، وقال إن « الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها » . ولعن « الفنان الجاهل الذى يشكل بيديه النجستين ما لا يصح أن يؤمن

به الناس إلا بتلويهم »(٥) ، وأمر بأن يمحى أو يدمر كل ما فى الكنائس من صور وتماثيل . ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال ، فسجن من قاومه من الرهبان أو سلط عليهم ألوان العذاب ، فسملت الأعين ، واقتلعت الألسنة ، وجدعت الأنوف مرة أخرى ؛ وعذب البطريق وقطع رأسه (٧٦٧) . وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنرى الثامن فيما بعد ، فأغلق أديرة الرهبان والراهبات ، وصادر أموالها ، وحول مبانيها إلى أغراض غير دينية ، ووزع أرضها على محاسيبه . وجمع عامل الإمبراطورية فى إفسوس ، بموافقة الإمبراطور ، رهبان الولاية وراهباتها ، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (٦) . وظل هذا الاضطهاد يجرى فى مجراه خمس سنين (٧٦٣ — ٧٧١) .

وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) على أن يقسم بالجرى على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر . وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيته الضعيفة ؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً (٧٨٠ — ٧٩٧) ، ورشح أرملته إيرينى وصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد . وحكمت إيرينى الإمبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير . وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ، فأنهت فى هدوء عهد تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والأصنام ، وسمحت للرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم ، ودعت رجال الدين فى العالم المسيحى إلى مجمع نيقية الثانى (٧٨٧) ، حيث أعاد ٣٥٠ من الأساقفة ، بزعامة مندوبى البابا ، تعظيم الصور المقدسة — لا عبادتها — وقالوا إنها تعبيـر مشروع عن التقى والإيمان المسيحيين .

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد فى عام ٧٩٠ ؛ ولما رأى أن أمه لا ترغب فى أن تتخلى له عن سلطانها خلعها ونفاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب الظريف على فعلته ، فأعادها إلى بلاطه ، وأشركها معه فى حكم

الإمبراطورية (٧٩٢) ؛ فلما كان عام ٧٩٧ عملت على سجنه وفقء عينيه ، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها « إمبراطوراً » لا إمبراطورة . وظلت خمس سنين تصرف شئون الإمبراطورية بحكمة ودهاء ، فخفضت الضرائب ، ووزعت الهبات على الفقراء ، وأنشأت المؤسسات الخيرية ، وجملت العاصمة . وأحبها الشعب ورحب بها ، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال . وخرج عليها فى عام ٨٠٢ محطمو الصور والتماثيل ، وخلعوها ، ونادوا بنقفور وزير ماليتها إمبراطوراً . واستسلمت إيرينى لمصيرها فى هدوء ، ولم تطلب إلى الإمبراطور أكثر من ملجأ أمين يليق بمقامها ، فوعدها أن يجيب طلبها ، ولكنه نفاها إلى لسبوس ، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالخياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت ، لا تكاد تجد درهماً أو صديقاً . وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها ، ورفعتها الكنيسة إلى مقام القديسين .

الفصل الثالث

نظرة عامة فى أحوال الإمبراطورية

٨٠٢ — ١٠٥٧

إذا أردنا أن نلقى نظرة شاملة على الحضارة البيزنطية نقدرها بها تقديراً صادقاً تطلّب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات — ولسنا نقصد بذلك ما دبروه ودبرنه من دسائس القصور، والثورات، والاغتيالات، بل نقصد سياستهم، وتشريعاتهم، وجهودهم الطويلة لحماية الإمبراطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين فى الجنوب، والصقالبة والبلغار فى الشمال. وتمثل هذه الصورة من بعض نواحيها البطولة الصادقة: فقد حافظت الإمبراطورية خلال صروف تاريخها، وتقلباته، ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص، على القسط الأكبر من التراث اليونانى: احتفظت بالنظام الاقتصادى ثابتاً متصلا، وظلت الحضارة قائمة كأن من ورائها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة لبركليز وأغسطس، ودقلديانوس وقسطنطين. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فهى صورة مؤسية لقواد يرقون إلى السلطة الإمبراطورية على أشلاء منافسيهم، ثم لا يلبثون أن يقتلوا مثلهم، ولمظاهر الأبهة والترف، والعيون المسمولة، والأنوف المجدوعة، والبخور والتقى والغدر، ومن أباطرة وبطارقة لا ضمير لهم يناضلون ليقرروا هل تحكُمُ الإمبراطوريةَ القوّةُ أو الأساطيرُ، السيف أو الكلام. وهكذا نمرّ بنقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١) وحروبه مع هارون الرشيد، وميخائيل الأول (٨١١ — ٨١٣) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هزموه، وليو الخامس الأرمنى (٨١٣ — ٨٢٠) الذى حرم مرة أخرى عبادة الصور والتماثيل والذى اغتيل وهو ينشد ترنيمة للكنيسة، وميخائيل

الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) الأمى « المتلجلج » الذى عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها(٧) ، وثيوفيلس (٨٢٩ — ٨٤٢) المشترع المصلح ، والملك البناء ، والإدارى الحى الضمير الذى أحيا سنّة اضطهاد محطمى التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته ثيودورا التى حكمت البلاد نيابة عنه حكما قديراً (٨٤٢ — ٨٥٦) وأنهت عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكّير » (٨٤٢ — ٨٦٧) الذى أسلم الإمبراطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولا ثم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف القدير بعد وفاتها . ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عدا سابقة العنف ، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية .

فقد ولد باسيل المقدونى (٨٦٢ ؟) بالقرب من هدريانوبل Hadriaople من أسرة أرمنية من الزراع . وأسره البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب فى البلاد التى كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية . ثم فر منهم وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، واتخذ سبيله إلى القسطنطينية ، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائسا لخيوله لأنه أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه . وصحب سيده فى بعثة إلى بلاد اليونان ، وهناك استلفت نظر الأرملة دنيليس Danielis وحصل على بعض ثروتها . ولما رجع إلى العاصمة روض جوادا جموحا يملكه ميخائيل الثالث ، فأدخله الإمبراطور فى خدمته ، وظل يرتقى فيها حتى صار رئيس التشريفات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان باسيل على الدوام قديرا فيما يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة لها ؛ فلما أن طلب ميخائيل زوجا لعشيقته ، طلق باسيل زوجته القروية ، وأرسلها إلى تراقية مع بائنة طيبة ، وتزوج يودوسيا Eudocia التى ظلت فى خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقته ، ولكن المقدونى ظن أنه يستحق العرش جزاء له على فعلته ، فأقنع ميخائيل بأن بارداس يأتمر به ليخلعه ، ثم قتل بارداس بيديه الضخمتين (٨٦٦) ، وكان

ميخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل إمبراطوراً وترك له جميع شئون الحكم . ولما هدده ميخائيل بعزله ، دبر باسيل اغتياله وأشرف على هــذا الاغتيال بنفسه ، وانفرد هو بالإمبراطورية (٨٦٧) . وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لذوى الكفاية حتى فى عهد الملكيات الوراثية المطلقة ، وهكذا أنشأ ابن الفلاح الأمى غير المثقف بتذلله وجرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهدا ، وبدأ حكما دام تسع عشرة سنة امتاز بالإدارة الحازمة ، والقوانين الصالحة ، والقضاء العادل ، والخزانة الغاصة بالمال ، وببناء الكنائس والقصور الجديدة فى المدينة التى استولى عليها . ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته ؛ ولما أن مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد ، انتقل الملك من بعده بهدوء غير معهود إلى ولده .

وكان ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) مكملا لما فى أبيه من نقص : كان متعلما ، كثير القراءة ، ميالا لعدم الحركة ، دمث الأخلاق ؛ ويقول الثرثارون المغتابون إنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل ، ولعل يودوسيا نفسها لم تكن متأكدة من أبوته . ولم يكسب لنفسه لقب « الحكيم » بشعره ولا برسالته فى الدين ، والإدارة ، والحرب ، بل كسبه بإعادته تنظيم شئون الحكم الإقليمى والكنسى ، وصياغة القوانين البيزنطية ، وتنظيمه الدقيق للصناعة . ومع أنه كان تلميذا للبطريق العالم فوتيوس Photius معجبا به ، وكان هو نفسه خاشعاً تقيا ، فقد هز مشاعر رجال الدين ، وسلى الشعب ، بأربع زيجات ، ماتت منها الأوليان دون أن تنجبا أبناء ؛ وأصر ليو على أن يكون له ولد لأن هذا هو السبيل الوحيدة لوقاية الدولة من حرب الوراثة ، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية للكنيسة الزواج الثالث ، وأصر ليو على رأيه ، وتزوجت زوى Zoe زوجته الرابعة إصراره بولد .

وسمى قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٨) البرفيروجنتس — « المولود

الأرجون » — أى فى الشقة المبطنة بالبرفيرى المخصصة لأن تستخدمها الإمبراطورات الحاملات . وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبى ، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية . وألف لأبنه كتابين فى فن الحكم : أحدهما فى ولايات الدولة وثانيهما *كتاب فى الاحتفالات* يصف فيه ما يطلب إلى الإمبراطور من المراسم وآداب اللياقة . وأشرف على جمع مؤلفات فى الزراعة ، والطب ، والطب البيطرى ، وعلم الحيوان ، ووضع « تاريخا للعالم مستمدا من المؤرخين » بجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين ، وازدهرت الآداب البيزنطية بفضل تشجيعه ومناصرته ، ولكنه كان ازدهار على طريقتها المصقولة الهزيلة .

وربما كان رومانوس الثانى (٩٥٨ — ٩٦٣) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه . وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano ؛ وظن أنها دست السم لحميها وعجلت موت رومانوس ؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعا وعشرين سنة أغوت إلى أحضانها القائد الزاهد نقفور الثانى فوقاس ، واغتصب القائد العرش وغضت هى النظر عن ذلك الاغتصاب . وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) (٩٦١) ؛ ثم أخرجهم من قبرص فى عام ٩٦٥ ، ومن أنطاكية فى عام ٩٦٨ ؛ وكانت هذه الانتصارات هى التى زلزلت أركان الخلافة العباسية . وطلب نقفور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود فى حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم ؛ ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه بحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء ؛ ولو أنه فعل لكان محتملا أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايتها الحقيقية بمائة عام . وفقد نقفور مطامعه وآوى إلى قصره ليعيش فيه معيشة المتعبدين الزاهدين . وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشبيهة بحياة الأديرة فاتخذت لها خليلا القائد تزيميسيس Tzimisces . وقتل هذا القائد نقفور (٩٦٩) واستولى

بعد قتله على العرش وغضت النظر عن هذا الجرم ، ولكن القاتل ندم على فعلته ، ونبذ خليلته ، ونفاها من البلاد ، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة .

وكان الإمبراطور الذى خلفه على العرش من أقوى الشخصيات فى تاريخ بيزنطية . وقد ولد باسيل الثانى لرومانوس وثيوفانو فى عام ٩٥٨ ، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتزيمبسيس ؛ ثم بدأ (٩٧٦) وهو فى الثامنة عشرة من عمره حكما منفرداً دام خمسين عاما . واكتنفته فى بداية حكمه المتاعب من كل جانب : فأخذ كبير وزرائه يأتمر به ليغتصب عرشه ، وأمد سادة الإقطاع الذين اعتزم أن يفرض عليهم الضرائب المتآمرين عليه بالمال ، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas Sclerus قائد جيش الشرق ، فأخمد بارداس فوقاس ثورته ، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمبراطوراً ؛ وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما استولى عليه منهم تزيميسيس فى بلاد الشام ، وبلغت قوة البلغار أوجها ، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب . وقلم باسيل أظفار الفتنة ، واسترد أرمينية من المسلمين ، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً . وبعد أن تم له النصر على البلغار فى عام ١٠١٤ وسمل عيون ١٥,٠٠٠ أسير ، ولم يترك إلا عينا واحدة لكل مائة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة فى عودتها إلى صمويل قيصر البلغار ؛ وأطلق عليه اليونان اسم قاتل البلغار (بلغاراكتونوس Bulgaroctonus) ولعل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً به . ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على « الذين أثروا على حساب الفقراء » . فحاول بما سنه من القوانين فى عام ٩٩٦ أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار . وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين فى صقلية حين وافته المنية فجاءة وهو فى الثامنة والستين من عمره . ولم تبلغ الإمبراطورية منذ أيام هرقل ما بلغته فى

فى أيامه من السعة ، ولم يكن لها منذ عهد جستنيان مثل ماكان لها فى عهده من القوة .

ودب الضعف مرة أخرى فى جسم الإمبراطورية فى عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٢٨) . ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات ، فأقنع رمانوس أرجيروس Romanus Argyros أن يتزوج زوى Zoe كبراهن ، وكانت سنها وقتئذ تقرب من الخمسين . وحكمت زوى بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمبراطور طوال عهد رومانوس الثالث (١٠٢٨ — ١٠٣٤) ، وميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤٢) ، وميخائيل الخامس (١٠٤٢) ، وقسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٥) ؛ ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكماً أصلح من حكمها . فقد شنت الأختان حرباً شعواء على الفساد فى الدولة والكنيسة ، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال ؛ ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة ٥٣٠٠ رطل من الذهب (٢٢٦,٠٠ ر٢ ريال أمريكى) كان قد خبأها فى حوض ماء ؛ ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis ، وُجد فى حجراته مخبأ يحتوى مائة ألف رطل من الفضة (٢٧,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى)[٩] . ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة ، وجلست الأختان زوى وثيودورا قاضيتين فى أعلى محكمة فى الدولة ، ووزعتا العدالة الصارمة بالقسطاس المستقيم . ولم يكن أحد يضارع زوى فى نزاهتها ؛ من ذلك أنها لما تزوجت قسطنطين التاسع وهى الثانية والستين من عمرها ، وكانت تعرف أن براعتها فى تزيين نفسها بالأصباغ لا تكاد تحتفظ لها إلا بالشىء القليل من جمالها الظاهرى ، سمحت لزوجها الجديد أن يأتى بعشيقته اسكلرينا لتعيش معه فى القصر الإمبراطورى . واختار الإمبراطور حجراته بين حجراتهما ، ولم تكن زوى تزوره قط إلا بعد أن تتأكد أنه بمفرده[١٠] . ولما ماتت زوى (١٠٥٠) آوت ثيودورا إلى دير للراهبات ؛

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعى فيها الحكمة وسلامة الذوق ، فاختار لمعاونته رجالا من ذوى الكفاية والثقافة ، وأعاد تجميل كنيسة أياصوفيا ، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء ، وناصر الآداب والفنون . ولما مات (١٠٥٥) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العذراء ثيودورا من مأواها فى الدير ، وتوجتها على الرغم منها إمبراطورة . وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ فى الرابعة والسبعين من عمرها ؛ ولكنها ماتت فى عام ١٠٥٦ ميتة مفاجئة ، وضربت الفوضى على أثر موتها أطنابها فى البلاد ، فنادى الأشراف بميخائيل السادس إمبراطوراً ، ولكن الجيش فضل عليه القائد إسحق كمنينوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب ميخائيل ، ودخل كمنينوس العاصمة فى عام ١٠٥٧ إمبراطوراً . وهكذا قضى على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً ، كان قوامه العنف ، والحرب ، والزنى ، والتقى ، والإدارة الممتازة .

واعتزل إسحق كمنينوس الملك بعد عامين ، ورشح خلفاً له قسطنطين دوكاس Constantine Ducas ، وآوى هو إلى دير ؛ ولما توفى قسطنطين (١٠٦٧) حكمت أرملته يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة ، ولكن مطالب الحرب كانت تحتاج إلى قائد أعظم منها قوة ، وأشد حزماً ، ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً . وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية يجلله العار ؛ ثم خلع ، وسجن ، وسملت عيناه ، وترك يموت من جروحه التى لم يعن بها أحد . ولما جلس على العرش كمنينوس الأول (١٠٨١) ابن أخى إسحق كمنينوس خيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار ، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (١٠٧٦) وأخذوا يزحفون على آسية الصغرى ، وكانت قبائل البتزيناك Patzinak والكومان Cuman تقترب من القسطنطينية من الشمال ، والنورمان يهاجمون

الحصون البيزنطية الأمامية فى البحر الأدرياوى . وكان الجيش والحكومة يفت فى عضدهما الخيانة ، والعجز ، والفساد ، والجبن . وواجه ألكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء ، فوجّه عملاءه إلى إيطاليا الخاضعة للنورمان ليثيروا فيها الفتن ؛ ومنح البندقية ميزات تجارية على أن تعينه بأسطولها على النورمان ، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الجيش ، ونزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وانتصر فى عدة معارك بفضل مهارته فى الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء ، ووجد بين هذه المشاغل الخارجية وقتاً استطاع أن يعيد فيه تنظيم الدولة ووسائل الدفاع عنها ، ووهب بهذا كله الإمبراطورية المتداعية حياة دامت مائة عام أخرى. فلما كان عام ١٠٩٥ لجأ إلى حيلة دبلوماسية بارعة كان لها أثر بعيد . ذلك أنه استغاث بالغرب لمساعدة الشرق المسيحى ؛ وعرض فى مجلس بياسنزا أن تعوذ الكنيستان اليونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوربا ضد المسلمين ؛ وكانت هذه الاستغاثة هى وغيرها من العوامل التى أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية المعروفة بالحروب الصليبية ، والتى قدر لها أن تنقذ بيزنطية ثم تقضى آخر الأمر عليها .

الفصل الرابع

الحياة فى بيزنطية (٥٦٦ – ١٠٩٥)

وصلت الإمبراطورية اليونانية مرة أخرى فى بداية القرن الحادى عشر إلى ما كانت عليه من القوة والثروة والثقافة فى أوج مجدها أيام جستنيان ، وذلك بفضل ما كان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحنكة سياسية ، فانتزعت من المسلمين آسية الصغرى ، وبلاد الشام الشمالية ، وقبرص ، ورودس ، وخلقيدية ، وإقريطش (كريت) ؛ وعاد جنوبى إيطاليا فأصبح بلاد اليونان الكبرى Magna Grecia تحكمه القسطنطينية ، واستُردّت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة ، وسيطرت التجارة والصناعة البيزنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط ، وانتصر المذهب المسيحى اليونانى فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتعان بنهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى ٢ر٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار من نقود هذه الأيام[١١] .

وكانت القسطنطينية نفسها فى أوج عزها ، تفوق روما القديمة والإسكندرية ، وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها فى التجارة والثروة ، والترف والجمال ، والرقة والفن . وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأنفس[١٢] من الأسيويين والصقالبة – الأرمن ، والكبدوكيين ، والسوريين ، واليهود ، والبلغار ، واليونان أنصاف الصقالبة ، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكنديناويين ، والروس ، والطليان ، والمسلمين ؛ وتغشيهم طبقة رقيقة من الأشراف اليونان . وكان فى داخل الإطار الخارجى المكون نصفه من الذهب ونصفه من الوحل ، والذى تدور فيه الحياة المنتجة الخصيبة فى العاصمة البيزنطية

ألف نوع ونوع من المنازل – ذات السقوف الهرمية والسطوح أو القباب – ذات شرفات ، وبوائك ، وحدائق أو عرائش ؛ وأسواق غاصة بحاصلات العالم كله ، وألف شارع وشارع ضيق موحل تحف به المساكن والحوانيت ، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة ، والأروقة الظليلة ، مليئة بالتماثيل تتخللها أقواس النصر ؛ وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب محروسة فى أسوار حصينة ؛ وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذى الثلاثة الأجنحة ، وقصر باسيل الأول الجديد ، وقصر نقفور فوقاس الريفى المؤدى بدرج من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ بحر مرمرة ؛ وكنائس « بعدد ما فى السنة من أيام « كما يقول أحد الرحالة » ، بعضها تحف فنية غاية فى الإبداع ، ومذابح تضم أثمن ما فى العالم المسيحى من مخلفات وأكثرها تعظيما وإجلالا ؛ وأديرة لا يستحى من فيها من فخامة مظهرها ، تضطرب من داخلها بالقديسين ذوى الكبرياء ، وكنيسة أياصوفيا التى تجدد زينتها على الدوام ، تتلألأ فيها الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد فى جنباتها الترانيم الرنانة التى لا تترك شكا فى النفوس .

وكان فى داخل قصور الأشراف وكبار التجار بالمدينة ، وبيوت الريف المقامة فى مؤخرتها على شاطئ البحر ، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التى لا تحرمها العادات والتقاليد السامية : رخام من كل صنف ولون ، وصور على الجدران وفسيفساء ، وتماثيل وخزف جميل ، وسجف تنزلق على عصى من الفضة ، وأقمشة مصورة على الجدران ، وطنافس ، وحرائر ، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج ، وصحاف من الفضة والذهب ؛ فى هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطى ، رجال ونساء حسان الوجه والقوام ، عليهن أثواب من الفراء والحرير الجميل اللون الموشى بالمخرمات ، لا ينقصن فى رشاقتهن ، ومغامراتهن الحبية ، ودسائسهن عن أهل باريس وفرساى فى عهد آل بوربون . ولم تعرف

النساء قبل ذلك العهد مساحيق أبهى أو عطوراً أذكى أو جواهر أثمن أو تصفيفاً للشعر أجمل مما عرفته نساء ذلك العصر . وكانت النار تبقى متقدة فى القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التى يتطلبها تعطير الملكات والأميرات[١٣] . ولم تكن الحياة فى أى وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً ، وأكثر حفلات ، واستقبالات ، ومناظر ، وألعاباً ، واستمساكا بالمراسم ، وأشد مراعاة لآداب اللياقة منها فى ذلك الوقت . وكان الأرستقراط المتأصلون فى أرستقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضمار السباق ، أو وجدوا فى بلاط الإمبراطور ، يتباهون بأثوابهم الجميلة ، وإذا ساروا فى الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يبالون بالراجلين الفقراء فكسبوا بذلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من أجله لعنة رجال الدين الذين كانوا يخدمون الله فى آنية وعلى مذابح من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول ربرت الكلارى Robert of Clari إن القسطنطينية فى ذلك الوقت كانت تحتوى على « ثلثى ثروة العالم كله » ؛ « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطلى « من السكان اليونان وكأنهم كلهم أبناء ملوك »[١٥] .

ووصفها أحـــد كتاب القرن الثانى عشر فقال : « إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن فى ثرائها ، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً فى رذائلها »[١٦] . ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكانا فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء . فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة ، وفى نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى الدين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما ، وظل إخصاء الأطفال لاتخاذهم خصياناً فى بيوت الحريم وأعمال الإدارة ، واغتيال المطالبين بالعرش أو الذين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عيونهم ، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة ، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التى لا تنقطع . وكانت جماهير

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانقسامات العنصرية ، والطائفية ، والدينية ، كانت هذه الجماهير متقلبة لا يقر لها قرار ، متعطشة للدماء ، تضطرب وتثور من آن إلى آن ، ترشـوها الدولة بوجبات الطعام المكونة من الخبز والزيت والخمر بلا ثمن ؛ ويسليها سباق الخيل ، ومصارعة الوحوش ، والرقص على الحبال ، والتمثيليات الصامتة الفاحشة البذيئة فى الملاهى ، والمراكب الإمبراطورية أو الكنسية فى الشوارع . وكانت قاعات الميسر لا يخلو منها مكان ، وتكاد بيوت العاهرات توجد فى كل شارع ، بل كانت فى بعض الأحيان « تلاصق أبواب الكنائس »(١٧) . واشتهرت نساء بيزنطية بدعارتهن وورعهن ، كما اشتهر رجالها بحدة الذكاء والطموح والتجرد من الضمير . وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، والعرافة ، والاتصال بالشياطين ، والتمائم ذات القوة المعجزة . وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل اختفاء اللغة اللاتينية . وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سيل من الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية ، ولم يستعيضوا عنها إلا بالألفاظ الجوفاء . ومع هذا فإن الكثرة الغالبة من الرجال والنساء فى هذا المجتمع المتطرف فى دينه وشهواته كانوا مواطنين ومؤدبين وآباء محتشمين يسكنون بعد لهو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان ، ويؤدون الأعمال الدنيوية وهم كارهون . وهؤلاء الأباطرة الذين كانوا يسملون عيون منافسيهم يغدقون الصدقات على المستشفيات وملاجئ الأيتام ، والعجزة ، ونزل المسافرين المجانية(١٨) . وكانت طبقة الأشراف ، التى يخيل إلى الناس أن الترف والراحة ديدنها وشغلها الشاغل كل يوم ، تضم مئات من الرجال يقبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيرة يختلط بها الطمع فى الكسب والإنشاء ، واستطاعوا بطريقة ما ، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات وما يحاك حولهم من الدسائس ، أن ينقذوا الدولة من كل كارثة تلم بها ، وأن

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهده العالم المسيحى فى العصور الوسطى .

وكانت البيروقراطية التى أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت فى مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة فى إدارة شئون الحكم ؛ وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة . وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكرى (استراتيجوس Strategos) ، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت بها الأنظمة البيزنطية لمواجهة الغزو الإسلامى . واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتى وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية ، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً فى النظام دون أن يلقى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب بهما العاصمة ؛ فبينا كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريق ، والغوغاء ، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطى . وبينا كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين ، وبينا كان غرب أوربا يتعثر فى فوضى عدد كبير من قوانين القبائل الهمجية ، كان العالم البيزنطى يعض بالنواجذ على تراث چستنيان ويوسع نطاقه ؛ فكانت قوانين چستين الثانى Justin II وهرقل « الجديدة » ، والقوانين « المختارة » التى سنها ليو الثالث ، والمراسيم الملكية التى نشرها ليو السادس ، وقوانين هذا الإمبراطور الجديدة الأخرى ، كانت كل هذه قد كيفت مجموعات قوانين چستنيان كى تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة . ووهبت كتب القوانين العسكرية ، والكنسية ، والبحرية ، والتجارية ، والريفية ، الأحكام القضائية فى الجيش والكنيسة ، والأسواق والثغور ، والضياع ، والبحار ، نظاماً وثقة بين الناس ، وجعلتها خليقة بأن يعتمد عليها ؛ وكانت مدرسة القانون فى القسطنطينية فى القرن الحادى عشر المركز الثقافى للشئون غير الدينية فى العالم المسيحى . وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم رومة — ألا وهو

القانون الرومانى — خلال ألف عام من الأخطار والتغيرات ، حتى إذا ما بعث بعثا جديداً فى بولونيا Bologna فى القرن الثانى عشر أحدث انقلاباً عظيما فى القانون المدنى لأوربا اللاتينية والقانون الكنسى للكنيسة الرومانية . وكان القانون البحرى البيزنطى الذى سنه ليو الثالث والمستمد من الأنظمة البحرية لرودس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى ؛ وقد أصبح فى القرن الحادى عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه فى جمهوريتى ترانى Trani وأملفى Amalfi الإيطاليتين ، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانونى فى عالمنا الحاضر .

أما القانون الريفى فكان محاولة صادقة جديرة بالثناء للوقوف فى وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفلاحين الأحرار . فقد وهب هذا القانون قطعاً صغيرة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين ؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجند على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية ، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من آسية إلى تراقية وبلاد اليونان . وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة ، ترغمهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم فى داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم فى خارجها ؛ وعلى هذا النحو استقر القوط فى تراقية وإلبريا ، واللمبارد فى پانونيا ، والصقالبة فى تراقية ومقدونية وبلاد اليونان ؛ ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كان الجنس الصقلبى هو الجنس الغالب فى البلوبونيز ، وحتى كثر عدد الصقالبة فى أتكا وتساليا . وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء ؛ فحرمت الشرائع الإمبراطورية بيع الأرقاء الذين يتضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر . وكان عمل العبيد فى القسطنطينية مقصوراً فى الواقع على العمل فى المنازل ، أما فى غيرها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة .

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التي لا تكاد تفترق عن قانون نيوتن في الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إليها الملكيات الصغيرة ، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق ؛ ثم لا يلبث هذا التركيز على مر الزمن أن يتفجر ، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة ، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد . ولقد كانت معظم الأراضي الزراعية في بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناتوي dynatoi أي « الرجال الأقوياء » ، أو الكنائس ، أو الأديرة ، أو المستشفيات التي ينفق عليها من أرضين أوصى بها إليها الأتقياء الصالحون من الناس . وكانت هذه الأراضي يفلحها رقيق الأرض ، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية ، ولكنهم مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية . وكان ملاك الأرض تحيط بهم بطانة من الموالي ، والحراس ، وعبيد المنازل ، ويحيون حياة الترف المنعم في بيوت الريف أو قصور المدن . وترى ما في حياة أولئك الملاك من خير وشر في قصة السيدة دنيلس Danielis محسنة باسيل الأول . ذلك أنها حين جاءت لزيارته في القسطنطينية كان ثلثمائة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذي جاءت فيه من بتراس Patras . وحملت معها لمحسوبها الإمبراطوري هدايا أثمن مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمبراطور البيزنطي : منها أربعمائة شاب ، ومائة خصي ، ومائة عذراء . ومنها أربعمائة قطعة من النسيج المنقوش نقشاً فنياً ، ومائة قطعة أخرى من التيل الرفيع (تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع في عقلة غاب) ، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب . وقد تخلت هذه السيدة في أثناء حياتها عن كثير من ثروتها ، فلما دنت منيتها أوصت بما بقي لديها منها إلى ابن باسيل ، ووجد ليو السادس أنه قد وُهب ثمانين بيتاً ومزرعة في الريف ، وأكداساً من النقود

والجواهر والصحاف والأثاث الثمين ، والمنسوجات الغالية ، وما لا يحصى من الماشية ، وآلافاً من العبيد[١٩] .

ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور بهذه الهدايا اليونانية ؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملايين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطانا ، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شـديداً على أى ملك أو إمبراطور . ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو . من ذلك أن شتاء ٩٢٧ — ٩٢٨ القارس قد أعقبه قحط ووباء ، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد ، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش . ولهذا أصدر رومانوس نائب الإمبراطور « مرسوماً جديداً » يندد فيه بالملاك ويصفهم بأنهم « أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء » ؛ وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التى ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف « الثمن المجزئ » ؛ وأجاز لكل من باع أرضه أن يشترى فى خلال ثلاث سنين ما باعه منها بالثمن الذى باعه به ، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر ؛ وظل تركيز الملكية يجرى فى مجراه ، وزاد الطين بلة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن — إلى القسطنطينية إن استطاعوا — وإلى المعيشة من الإعانات الحكومية . وجدد باسيل الثانى النضال بين الأباطرة والأعيان ، فأصدر فى عام ٩٩٦ مرسوماً يبيح للبائع أن يستعيد فى أى وقت ما باعه من الأرض بالثمن الذى باعه به ؛ وألغى عقود الأراضى التى استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام ٩٣٤ ، وأمر بأن تعود هذه الأراضى من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير ثمن . واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين ، ونشأ من ذلك فى الشرق البيزنطى فى أزمنة غير متصلة ، قبل بداية القرن الحادى عشر ، نظام معدل من أنظمة الإقطاع : لكن جهود الأباطرة لم تذهب

كلها أدراج الرياح ، ذلك أن من بقوا من الزارع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع ، والبساتين ، والكروم ، والمناحل ، والمراعى ، ونشأت فى ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه فى العصور الوسطى ، وكان تقدم الزراعة البيزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر يضارع تقدم الصناعة فى تلك البلاد .

واصطبغت الإمبراطورية الشرقية فى ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوربا اللاتينية الواقعة فى شمال جبال الألب ، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون بجد فى الكشف عن مناجم الرصاص ، والحديد ، والنحاس ، والذهب واستغلالها . وكانت القسطنطينية ومائة مدينة غيرها — أزمير ، وطرسوس ، وإفسوس ، ودورزو ، وراجوسا ، وپتراس ، وكورنثة ، وطيبة ، وسلانيك ، وهدريانوبل ، وهرقلية ، وسليمبريا — تتردد فيها أصوات دابغى الجلود ، وصانعى الأحذية ، والسروج ، والأسلحة والصياغ ، وصناع الحلى ، وطارقى المعادن ، والنجارين ، والحفارين على الخشب ، وصانعى العجلات ، والخبازين ، والصباغين ، والنساجين ، والفخرانيين ، وصانعى الفسيفساء ، والنقاشين . وكانت القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فى القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجارى تكاد تضارع فى سرعة حركتها وجنونها أية حاضرة من الحواضر فى هذه الأيام : وظلت العاصمة اليونانية ، بالرغم من المنافسة الفارسية تتزعم العالم الأبيض فى إنتاج المنسوجات الرفيعة والحريرية ، ويليها فى هذا أرجوس ، وكورنثة ، وطيبة . ونظمت صناعة النسيج أحسن تنظيم ، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد ، أما غيرها من الصناعات فكانت تستخدم صناعاً أحراراً . وكان صعاليك القسطنطينية وسلانيك يحسون

بسوء حالهم ، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد ، محبة للكسب ، متصدقة ، مجدة ، ذكية ، محافظة أشد المحافظة . وانتظمت الصناعات الكبرى بصنّاعها ، وفنّانيها ، ومديريها ، وتجارها ، ومحاميها ، ورجال مالها فى جماعات نقابية — سستماتا Sytemata — تحدرت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس ، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة فى الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية . وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها ، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشترياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعتها ، وشروط البيع ؛ وكان مفتشون حكوميون يراقبون أعمالها وحساباتها ، وكانت القوانين فى بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور . أما الصناعات الصغرى فكانت تُترك للصناع الأحرار وللنشاط الفردى . وقد أفادت الصناعة البيزنطية من هذا نظاماً ، ورخاء ، واتصالا ، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع ، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة[٢٠] .

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعضيدها ، وبمراقبة الأهوسة ، والموانئ وتنظيم التأمينات والقروض بضمان السفن ، وتَشِنُّ حرباً شعواء على القرصنة ، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوربا ثباتاً . وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل فى جميع الأعمال التجارية — فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع ، وتحتكر تجارة الحبوب والحرير ، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات ، وضرائب على المبيعات[٢١] . وكادت هى تدعو غيرها من الدول إلى أن تحل محلها فى سيادتها التجارية القديمة على بحر إيجة والبحر الأسود بسماحها إلى التجار الأجانب — الأرمن ، والسوريين ، والمصريين ، والأملفيين والبيزيين ، والبنادقة ، والجنويين ، واليهود ، والروس ، والقطلانيين — بنقل

معظم بضائعها هى ، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة فى العاصمة أو بالقرب منها : وكان الربا مباحاً ، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة باثنى عشر أو عشرة ، أو ثمانية عشر فى المائة ، أو بأقل من ذلك فى بعض الأحيان . وكان رجال المصارف كثيرى العدد ، ولعل المرابين فى القسطنطينية لا المرابين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفاتج القابلة للتحويل[٢٢] ، ووضعوا أوسع نظام للائتمان عرفه العالم المسيحى قبل القرن الثالث عشر .

الفصل الخامس

النهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وحذقه ، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم ، إحياء عجيب للآداب والفنون فى القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية ، فإن ما فيها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الرومانى . فأضحت اللغة اليونانية فى الشرق البيزنطى من أيام هرقل هى لغة الحكومة ، والأدب ، والشعائر الدينية ، ولغة الحديث اليومى . وأصبح التعليم كله يونانيا ، وكان كل حر من الذكور ، وكثير من النساء ، بل وكثير من الأرقاء ، يتلقى قدراً ما من التعليم ؛ وأحيا قيصر بارداس Caesar Baradas (٨٦٣) جامعة القسطنطينية التى تركت لتضمحل وتموت ، كما تركت الآداب بوجه عام ، خلال ما حدث من الأزمات فى عهد هرقل ، وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج فى فقه اللغة ، والفلسفة ، وعلوم الدين ، والهيئة ، والرياضة ، والأحياء ، والموسيقى ، والآداب ؛ وحتى ليبانيوس الوثنى ولوشيان الكافر كانا متعنمين . وكان التعليم فى العادة من غير أجر للطلاب ذوى المؤهلات ، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسين . وكثرت فى البلاد دور الكتب العامة والخاصة ، وظلت تحتفظ بروائع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التى جر عليها النسيان ذيوله فى الغرب المضطرب .

وكان انتقال التراث اليونانى فى هذا النطاق الواسع منها للعقول ومقيداً لها معاً . فقد كان من جهة مقوياً للتفكير وموسعاً لمداه ، ومشجعاً على الخروج من

أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة ، والجدل الديني . ولكن ثراءه نفسه كان عائقاً له من الابتكار ، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم . وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن توائم النساء المثقفات ذوات الفراغ ؛ والرجال المثقفين الذين لا يعملون . وكانت هذه الآداب هلنستية لا يونانية ؛ ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلبها . وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التي كسبها في مراحله الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم ، وكان محطمو الصور والتماثيل الدينية أتقى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة في ذلك العهد شديدي التسامح إلى حد عجيب .

وشهدت الإسكندرية عصراً آخر من عصور النهضة العلمية شبيها بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يحللون اللغة ، ويبحثون ويلخصون في علم العروض ، ويؤلفون الكتب المجملة ، والتواريخ العالمية ، ويجمعون المعاجم والموسوعات والدواوين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas **الديوان اليوناني** . وفيه (٩٧٦) جمع سويداس معجمه الكبير الغزير المادة . وألف ثيوفانيس (حوالي ٨١٤) وليو الشماس (المولود في عام ٩٥٠) تاريخين قيمين لأيامهما والأيام القريبة منها ، وألف بولس الإيجيني Paul of Aegina (٨١٥ — ٨٩٠) موسوعة في الطب جمعت بين نظريات المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Oribasius ، وتتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب ، وعن البواسير ، وعن قنطرة المثانة ، واستخراج الحصاة منها ، والإخصاء ؛ ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتي الأطفال في حمام حار[٢٣] .

وكان أعظم العلماء البيزنطيين في هذه القرون الثلاثة معلماً خامل الذكر معدماً يدعى ليو السلانيكي (حوالي ٨٥٠) ، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد . ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون في حرب من

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظماء المسلمين ، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة . وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك فى نقاش مسائل هندسية فى قصره . وأعجب الخليفة بعلمه ، واستمع بشغف عظيم إلى ما قاله عن معلمه ، وأرسل من فوره يدعو ليو إلى بغداد وإلى الثراء والجاه . واستشار ليو فى ذلك موظفاً بيزنطياً ، ثم استشار هذا الموظف الإمبراطور ، ثيوفيلس ، فأسرع هذا إلى تعيين ليو أستاذاً . وكان ليو ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف فى الرياضة والهيئة ، والتنجيم ، والطب ، والفلسفة ويعلّمها . وعرض عليه المأمون عدة مسائل فى الهندسة والهيئة وسُرّ من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألفى رطل من الذهب إذ أعاره ليو إلى أجل قصير . ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليو كبيراً لأساقفة ســلانيك لكى يبعده عن متناول يد المأمون(٢٤) .

وكان ليو ، وفوتيوس Photius ، وپسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة . فأما فوتيوس (٨٢٠ ؟ — ٨٩١) أعلم أهل زمانه فقد ارتقى فى خلال ستة أيام من رجل عادى إلى بطريق ، فكان بذلك من رجال التاريخ الدينى ، وأما ميخائيل بسلوس (١٠١٨ ؟ — ١٠٨٠) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور ، مستشاراً للملوك والملكات ، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين ، فى وسعه أن يبهر الناس فى كل موضوع ؛ ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش دينى وكل ثورة فى القصر . ولم يكن يسمح بحبه الكتب أن يطغى على حبه الحياة ؛ وكان يعلّم الفلسفة فى جامعة القسطنطينية ، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة ؛ ثم دخل ديراً ، فلما وجد حياة الأديرة أهدأ من أن تطاق عاد إلى الدنيا ، وكان رئيساً للوزراء من ١٠٧١ إلى ١٠٧٨ ؛ ووجد من وقته متسعاً للكتابة فى السياسة ، والعلوم ، والنحو ، واللاهوت ، وفقه القانون ، والموسيقى والتاريخ . ويسجل كتابه المعروف

باسم كرونوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان الدسائس والمخازى التى، حدثت فى مائة عام (٩٧٦ — ١٠٧٨) بصراحة ، وحماسة وكبرياء (فقال عن قسطنطين التاسع إنه كان « رهين إشارة بسلوس »[٢٥]) . وها هى ذى فقرة من وصفه للثورة التى أعادت ثيودورا إلى العرش فى عام ١٠٥٥ نضربها مثلا لما قلناه :

وكان كل (جندى فى الجمع) مسلحاً : فكان واحد منهم يحمل بلطة قصيرة اليد ، وآخر يحمل بلطة حربية ، وثالث يحمل قوساً ، ورابع يحمل حربة . وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة ، وأخذوا جميعاً يهرولون ، اضطراب عظيم . . . إلى مسكن ثيودورا . . . ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة ، وأصمت أذنيها عن سماع صياحهم . وترك الغوغاء النصح ولجأوا معها إلى العنف ، فاستل بعضهم خناجرهم ، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوها ، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس ، وألبسوها ثياباً فخمة ، وأركبوها جواداً ، وأحاطوا بها ، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث قدم لها جميع السكان عظماؤهم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء ، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم[٢٦] .

وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغته رسائل شيشرون ، وكانت خطبه ، وأشعاره ، وكتبه حديث الناس فى زمانه ؛ وكانت ملحه الخبيثة ونكاته القاتلة حافزاً مثيراً وسط علم معاصريه الجم الثقيل . وإذا ما وازناه هو وفوتيوس وثيوفانيس بأبناء الكوين Alcuin ، وبراباني Rabani وأبناء جربرت Gerbert الذين كانوا يعيشون فى الغرب فى أيامه ، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل .

وكان الفن أبرز نواحى النهضة البيزنطية . ذلك أن حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية قد حرمت فى خلال الفترة الواقعة بين ٧٢٦ و ٨٤٢ تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت المجسم أو بالصور وإن كانت فى الثانية أقل صرامة

منها فى الأولى.. ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بأن حررته من الاقتصار الممل على الموضوعات الكنسية ، ونبهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية وتصويرها وتزيينها. فقد اتخذ موضوعات لفنه بدل الآلهة الأسرة الإمبراطورية ، والأشراف المناصرين لها ، والحادثات التاريخية ، ووحوش الغاب ، ونبات الحقول وفاكهتها ، وما يجرى فى البيوت من حوادث تافهة . وأنشأ باسيل الأول فى قصره النيا Nea أو الكنيسة الجديدة ، « وزينها كلها » على حد قول كاتب معاصر « باللآلئ الجميلة ، والذهب ، والفضة البراقة ، والفسيفساء ، والحرير ، والرخام مما لا تحصى أنواعه »[٢٧] .

ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التى أزيح عنها الستار حديثاً فى كنيسة أياصوفيا . وقد أعيد بناء قبتها الوسطى فى عام ٩٧٥ بعد أن دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتى تمثل المسيح جالساً على قوس قزح ، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء فى عام ١٠٢٨ . وكانت هذه الكنيسة الضخمة تنبعث فيها الحياة الدائمة ، كما تنبعث فى الكائنات الحية ، بموت أجزائها وتجديدها . واشتهرت أبوابها البرنزية التى وضعت فيها عام ٨٣٨ بجمالها الممتاز شهرة جعلت ذوى الشأن يأمرون بأن تصنع فى القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتى كازينو Monte Casino ، وكنيسة أملفى ، وباسلقا سان پولو القائمة فى خارج أسوار رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع فى القسطنطينية عام ١٠٧٠ قائماً حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطى .

وكان القصر الملكى أو « القصر المقدس » الذى كانت النيا مُصَلاّه مجموعة متزايدة من الحجرات ، وأبهاء الاستقبال ، والكنائس والحمامات ، والأجنحة المنعزلة ، والحدائق ، والدهاليز ذات العمد ، والأبهاء . وقلما جلس إمبراطور على العرش إلا أضاف إليه شيئاً جديداً . وخلع ثيوفياس على هذه المجموعة مسحة شرقية جديدة بأن أضاف إليها حجرة للعرش تعرف باسم التريكنكوس Triconchos

وهو اسم مشتق من المحاريب الشبيهة بالأصداف والتى تكوّن ثلاثة من جوانبها — وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسين . وقد شاد فى الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلؤة وفى الجهة الجنوبية منها عدة من البلياقا Beliaka أو حجرات الشمس ، والكاملات وهى حجرات ذوات سقف من الذهب ، وعمد من الرخام الأخضر ، وفسيفساء غاية فى الرونق تمثل على أرضية من الذهب رجالا ونساء يجمعون الفاكهة . وهذا النقش نفسه قد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء أشجاراً بارزة من ورائها سماء من الفسيفساء الذهبية ، وتفوقه كذلك أرض بهو التوافق الذى تحسبه مرجاً مليئاً بالأزهار . وأطلق ثيوفيلس العنان لذوقه الغريب الشاذ وافتتانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان فى قصره بمجنورا Magnaura ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبى المقعد الملكى حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها تحت قدميه : فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبى قامت الحيوانات الخرافية ، ووقفت الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها ، وزأرت ، وغنت الطيور أغانى آلية(٢٨) . وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التى كانت فى قصر هارون الرشيد ببغداد .

وكان المال الذى ينفق فى تزيين القسطنطينية يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية فى الدولة . ولكن ما بقى من هذا المال كان يكفى لتزيين عواصم الولايات زينة أقلّ من زينة العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة العدد ، وعاد إليها ثراؤها : ففى القرن العاشر أنشئ دير لفرا Lavra ودير إفرون Iviron فى آثوس Athos وفى القرن الحادى عشر أقيم دير دافنى Daphni للراهبات بالقرب من اليوسيس Eleusis . وتعد فسيفساؤه التى لا تكاد تفترق عن الفسيفساء اليونانية والرومانية القديمة أجمل مثل للطراز البيزنطى

الأوسط . واشتركت بلاد الكرج ، وأرمينية ، وآسية الصغرى فى هذه الحركة ، وأمست مراكز أمامية للفن البيزنطى . واستثارت المبانى العامة فى أنطاكية إعجاب المسلمين ، وأنشئت فى بيت المقدس كنيسة الضريح المقدس ، ولما يمض على انتصارات هرقل إلا قليل ؛ وفى مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العربى وبعده كنائس ذات قباب متواضعة فى حجمها ولكنها مزدانة أجمل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية ، والبطليموسية ، والرومانية ، والبيزنطية من حذق فى أشغال المعادن ، والعاج ، والخشب ، والنسيج لم ينتقص منه شىء . وأخرج اضطهاد محطمى الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام ، وآسية الصغرى ، والقسطنطينية إلى جنوبى إيطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم ؛ وبفضل هؤلاء اللاجئين ، والتجار الشرقيين ازدهر الطراز المعمارى والزخرفى البيزنطى فى بارى ، وأترنتو ، وبنفنتو ، ونابلى ، وروما نفسها . وظلت رافنا يونانية فى فنها ، وأخرجت فى القرن السابع الفسيفساء الضخمة التى نشاهدها فى سانت أبولينارس St. Appolinaris فى كلاس Classe . وظلت سلانيك بيزنطية ، وزينت كنيسة أياصوفيا بصور مقبضة للقديسين من الفسيفساء نحيلة كالقديسين الذين صوّرهم الجريكو El Greco .

وأخرجت النهضة البيزنطية فى جميع هذه الأراضى والمدن ، كما أخرجت فى العاصمة نفسها ، سيلا من الروائع الفنية فى الفسيفساء والنقش الدقيق ، والفخار ، والمينا ، والزجاج ، والخشب ، والعاج ، والبرنز ، والحديد ، والجواهر ، والأقمشة المنسوجة ، والمصبوغة ، والمنقوشة ، بمهارة يفخر بها العالم كله . وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكوابا من الزجاج الأزرق ، نقشت عليها تحت سطحها : أغصان وأوراق أشجار ، وطيور ، وصور آدمية ؛ وآنية زجاجية ، ذات رقاب مطلية بالمينا عليها زخارف عربية الطراز وأزهار ؛ وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حدا جعلها هى خير ما أهداه الأباطرة البيزنطيون إلى

رؤساء الدول الأجنبية . وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة ثمين الثياب والشيلان ، والحبريات ، والجبب الدلماشية(*) التي تبرز مفاخر فن النسيج البيزنطي . وكانت « عباءة شارلمان » في كنيسة متز والحرير الرقيق الذي وجد بآخن Aachen في تابوت ذلك الملك من هذا الطراز . وكان مصدر نصف الفخامة التي تحيط بالإمبراطور البيزنطي ، وكثير من الرهبة التي ترفع من مقام البطريق ، وبعض الأبهة التي تكسو المُخَلِّص » والعذراء والشهداء في شعائر الكنيسة ؛ كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التي أنفقت فيها حياة عدد من الصناع ، وازدانت بفن القرون الطوال ، وخير ما أخرجه البر والبحر من أصباغ . واحتفظ صائغو الحلي الذهبية وقاطعو الجواهر بذروة مجدهم الفني حتى القرن الثالث عشر ، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس بالبندقية مليئة بثمار فنهم .

ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التي وجدت في كنيسة القديس اوقا والمحفوظة في كلية الدراسات العليا Collège de Hautes Etudes في باريس ؛ ورأس المسيح المتوهج المنقوش في فسيفساء ديسيز في كنيسة أياصوفيا ؛ والفسيفساء الكبيرة الحجم التي تغطي أربعين ياردة مربعة ، والتي استخرجت في اسطنبول عام ١٩٣٥ من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين (٢٩). ولما خفت حدة محطمي الأصنام ، وفي الأماكن التي لم تصل إليها حركتهم ، غذت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائي الفردي ، والتي تكتنفها أحياناً أطر منقوشة بالميناء أو الجواهر . وليس في تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة « رؤيا حزقيال » التي يحتويها مجلد من عظات جريجوري نزيانزين محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس(٣٠) ، أو الصور الإيضاحية الأربعمائة التي يحتويها مخطوط « المناجاة » (Monologus) المحفوظ في الفاتكان (حوالي

(*) نوع من الجبب يلبسها شمامسة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفتها أحياناً والاسم مشتق من مقاطعة دلماشيا على البحر الأدرياوي . (المترجم)

عام ١٠٠٠) ؛ أو صور داود فى كتاب التراتيل المحفوظ بباريس (حوالى عام ٩٠٠) . نعم إن هذه الصور لا تراعى فن المنظور ، ولا تعنى بإبراز الأشكال بطريق الضوء والظل ، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوى البراق ، وبالخيال الحى ، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشرى والحيوانى ، وبالعدد الجم المؤتلف من الوحش والطير ، والنبات والزهر ، تتخلل القديسين والأرباب ، وبالفساقى ، والعقود والإيوانات — فيها طيور تنقر الفاكهة ، ودببة ترقص ، ووعول وعجول تتشابك قرونها فى النضال ، وفهد يرفع ساقه الخبيثة يمثل بها الحرف الأول من جملة دينية[٣١] .

ولقد عرف صانعو الفخار البيزنطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالميناء ، وذلك بأن يضعوا على الطين المحروق والقاعد المعدنى أكسيداً معدنيا إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقا ووقاية . وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة ، حيث اختفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم عاد إلى الظهور فى القرن الثالث بعده . وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال الميناء من رصائع للصور ، ومن صور للقديسين ، وصلبان ، ومن علب لحفظ المخلفات ، وأكواب ، وكؤوس للقرابين ، وجلود كتب ، وزينات للسروج وغيرها من العدد . وقد أخذت بيزنطية من فارس الساسانية منذ ذلك العهد البعيد وهو القرن السادس ، فن الميناء المقسم : وذلك بأن تصب العجينة الملونة فى السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن ؛ وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرفى . ومن أعظم الأمثلة لفن الميناء المقسم وأوسعها شهرة علبة لحفظ المخلفات صنعت (حوالى عام ٩٤٥) لقسطنطين برفيروجنتس محفوظة الآن فى لمبورج Lemburg وهى بيزنطية بنوع خاص فى دقة صنعها وفى أمانة صانعها ، وفى نقوشها الزخرفية الموفورة .

وليس ثمة فن من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

البيزنطى وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنائس عقد فى عام ٧٨٧ قد وضع القانون القائل بأن : على المصورين أن ينفذوا ، وعلى رجال الدين أن يقرروا ، الموضوعات ويشرفوا على عمليات تنفيذها »[٣٢] . ومن ثم كانت النزعة الجدية المكتئبة لهذا الفن ، وضيق دائرة موضوعاته ، والتكرار الممل فى أساليبه وأنماطه ، وندرة مغامراته فى عالم الواقعية ، والفكاهة ، والحياة الشعبية ؛ ولم يكن لهذا الفن نظير فى تنميقه ولألائه ، ولكنه لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطى الناضج من تنوع وقوة ، ومن نزعة دنيوية شائنة . ومن أجل هذا النقص عينه تزيد دهشتنا من انتصاراته وتأثيره ، فقد كان العالم المسيحى على بكرة أبيه من كيف إلى فارس يقر له بالزعامة ، ويتملقه بتقليده ؛ وحتى الصين نفسها كانت بين الفينة والفينة تنحنى له إجلالا وتكريما . ولقد كان فى أشكاله السورية نصيب مع الفن الفارسى فى تكوين موضوعات الفن الإسلامى فى العمارة ، والفسيفساء ، والزخرف . وشكلت البندقية فنها على صورة فن القسطنطينية ، كما حذا الفن فى كنيسة القديس مرقس حذو كنيسة الرسل فى تلك المدينة ؛ وظهر فن العمارة البيزنطية فى فرنسا ، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن . وكانت المخطوطات المزخرفة فى كل مكان شاهداً على ما للفن البيزنطى من أثر فيه ، وأخذ البلغار عن بيزنطية دينها وزخارفها ؛ ولما اعتنق ڤلادمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشر سبل واسعة دخل منها الفن البيزنطى إلى الحياة الروسية .

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشر هى السائدة فى أوربا المسيحية فى النظم الإدارية والدبلوماسية ، وجباية الأموال ، وفى الأخلاق ، والثقافة ، والفن . وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها مجتمع يماثلها فى فخامة زينتها ، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما فى دينها . وكانت هذه الحضارة ، كما كانت كل حضارة أخرى . تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد ، وكان ما فى محاريبها وقصورها من ذهب ورخام هو

عرق العمال الذين يكدحون فى الأرض قد تبدل وتجسم . وكانت ثقافتها ، ككل ثقافة سواها فى زمانها ، قاسية؛ وكان فى وسع الرجل الذى يخر راكعاً أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موريق أمام عينى أبيهم . وكان فى هذه الثقافة شىء من الضحالة ، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطى بناء ضخماً من الخرافات الشعبية ، ومن التعصب ، ومن الجهل يتصف به غير الأميين ، وكان نصف(*) هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل ؛ ولم يكن يسمح لعلم أو فن أن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل ، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تضيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم . فليس ثمة كتاب فى الأدب البيزنطى أثار خيال بنى الإنسان ، أو خلده على مدى الزمان . ذلك أن العقل اليونانى فى العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظيم الذى انحدر إليه من الأيام الخالية ، وسجن فى المتاهة الدينية التى فقدت فيها بلاد اليونان المحتضرة مسيحية المسيح ، فعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم . وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعا لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أو على كلمة واحدة ، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى فى كل خروج على الدين خيانة للدولة .

لكننا لانزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل ؛ ترى ما هى الموارد الخفية ، وما هى القوة الحيوية الكامنة ، التى أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس فى آسية ، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا ؟ لعل العقيدة الدينية التى أضعفت الدفاع عن الدولة باعتماد أهلها على مخلفات القديسين ومعجزاتهم قد بثت بعض النظام والتأديب فى شعب ديدنه الصبر ، وإن انتابته فى فترات نوبات من

(*) طلب جيش « الوحدة » العسكرية الشرقية فى عام ٦٦٩ أن يكون للإمبراطورية ثلاثة أباطرة فى وقت واحد ليتفق هذا مع الثالوث الدينى(٣٧)

الاضطراب ، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهبها التبديل .
وقد أكسبتها البيروقراطية الخالدة بهيئتها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تنل
منهما جميع الحروب والثورات ، وحافظت على السلام فى الداخل ، ونظمت
اقتصادياتها ، وجبيت الضرائب التى أمكنت الإمبراطورية من أن توسع
رقعتها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام جستنيان . وأكبر الظن أن
موارد الخلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت
أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة ، ولقد كان ضعف نظام
الحكومة الإسلامية ، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوفاء
بحاجات الدولة ، سبباً فى تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها ، على حين
أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام .

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية : أولها أنها ظلت
ألف عام حصناً حصيناً وقى أوروبا هجمات الفرس والدولة الإسلامية فى
المشرق ، وثانيها أنها احتفظت فى أمانة بالنصوص التى أعيد فيها تسجيل
آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم ، وأسلمتها كاملة إلى أوروبا
حيث بقيت حتى نهبها الصليبيون فى عام ١٢٠٤ . وجاء الرهبان الفارون
من وجه محطمى الصور والتماثيل المقدسة بالمخطوطات اليونانية إلى جنوبى
إيطاليا ، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية ؛ وغادر
الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبيين على
السواء ، واستقروا أحياناً فى إيطاليا ، وكانوا هم الحاملين لبذور الآداب
القديمة ؛ وهكذا أخذت إيطاليا عاما بعد عام تستكشف بلاد اليونان من
جديد ، وظل الناس يغترفون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى ثملوا .
وثالثها وآخرها أن بيزنطية هى التى أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير
الهمجية إلى المسيحية ، وضمت قوة الجسم الصقلبى التى لا حد لها إلى روح
أوروبا وحياتها ومصائرها .

الفصل السادس

البلقان (٥٥٨ — ١٠٥٧)

على بعد بضعة أميال لا أكثر فى شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق يحتقرون الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم . ولم تكد موجة الهون تتراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الآفار مخترقين جنوبى الروسيا (٥٥٨) واسترقوا جموعا من الصقالبة ، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الإلب (٥٦٢) ، ودفعوا اللمبارد أمامهم إلى إيطاليا (٥٦٨) ، وعاثوا فى بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحى منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية . وبسط الآفار سلطانهم فى وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البلطى إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية فى عام ٦٢٦ وكادوا يستولون عليها ؛ وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم ؛ فغلبهم شارلمان على أمرهم فى عام ٨٠٥ ، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئا .

وكان البلغار ، وهم فى أصلهم خليط من الدم الهونى ، والأجرى Ugrian والتركى ، يكونون قبل ذلك الوقت جزءاً من إمبراطورية الهون فى الروسيا ؛ وأقام فرع منهم بعد موت أتلا Atilla مملكة لهم — « بلغاريا القديمة » — على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية . وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية ، وظلت مزدهرة حتى خربها التتار فى القرن الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم فى القرن الخامس نحو الجنوب الغربى إلى وادى الدن Don ، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع ، وهى قبيلة اليونجر Uiigurs ، نهر الدانوب (٦٧٩) ، وأسست مملكة بلغارية ثانية فى موئيزيا

Moesia واسترقّوا من فيها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلبي . وبلغت الدولة الجديدة أوّجها فى عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم Krum (٨٠٢) ، وهو رجل جمع إلى شجاعة الهمج دهاء المتحضرين . وغزا الخاقان مقدونية — إحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية — ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب ، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسماة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية . وكال له الإمبراطور نقفور الصاع صاعين وأحرق پلسكا Pliska عاصمة كروم (٨١١) ؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليونانى فى كمين نصبه له فى أحد ممرات الجبال ، وقتل نقفور ، واتخذ من جمجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه . ثم حاصر القسطنطينية فى عام ٨١٣ ، وأحرق أرباضها ، وضرب تراقية ، وفعل بها ما فعلته الجيوش التى غزتها فى عام ١٩١٣ . وبينا هو يعدّ العدة لهجوم آخر إذ انفجر أحد أوعيته الدموية وقضى على حياته . وعقد ابنه أمورتاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية ، واعتنق البلغار المسيحية فى عهد الخان بوريس Boris (٨٥٢ — ٨٨٨) . وآوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة ، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر ڤلادمير ، ويُجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سميون Simeon (٨٩٣ — ٩٢٧) ؛ وعاش بوريس حتى عام ٩٠٧ ، وأصبح هو أول قديس قومى لبلغاريا . وكان سميون من أعظم ملوك زمانه ، فقد وسّع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدرياوى ، ولقب نفسه « إمبراطوراً وحاكما مطلقا لجميع البلغار واليونان » ، وشن الحرب عدة مرار على بيزنطية ، لكنه حاول أن يدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية ، وأن يجمّل عاصمته فى أقاليم الدانوب بروائع الفن اليونانى . ويصف أحد معاصريه مدينة برسلاڤ Breslav بأنها « من أعجب ما تقع عليه العين » ، مليئة « بالقصور والكنائس الشامخة » الكثيرة الزخرف ؛ ولقد كانت فى القرن الثالث عشر أكبر مدينة

فى بلاد البلقان كلها ؛ ولا تزال خربات قليلة باقية منها . وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سميون . وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلائق مسالمين شيوعيين ؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها فى عام ٩٣١ ؛ وأعاد الإمبراطور يوحنا تزيمسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمبراطورية اليونانية فى عام ٩٧٢ ؛ وفتح باسيل الثانى بلغاريا الغربية فى عام ١٠١٤ ، وبذلك أضحت بلغاريا (١٠١٨ — ١١٨٦) مرة أخرى ولاية تابعة لبيزنطية .

وفى أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر . والراجح أن المجر كانوا ، كما كان البلغار ، من تلك القبائل التى يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول) ، والتى كانت تضرب فى البلاد المصاقبة لحدود الصين الغربية . وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هونى وتركى كثير لطول اختلاطهم بهذين العنصرين . وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغتى الفين (أهل فنلندة) والسمويد Somoyeds . وقد هاجروا فى القرن التاسع الميلادى من سهوب الأورال وبحر الخزر (قزوين) إلى الأراضى المجاورة لنهرى الدن والدنيبر Dneiper والبحر الأسود ، حيث كانوا يعيشون بفلح الأرض فى الصيف ، وصيد السمك فى الشتاء ، واقتناص الصقالبة وبيعهم عبيداً إلى اليونان فى جميع فصول العام . وبعد أن أقاموا فى أكرانيا ستين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى فى اتجاه الغرب . وكانت أوربا وقتئذ فى الدرك الأسفل من حياتها ؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية ، ولم يقف فى وجههم جيش قوى . لهذا اجتاح المجر بسرابيا Bessarabia وملدافيا Moldavia (البغدان) فى عام ٨٨٩ ، وشرعوا فى عام ٨٩٥ فى فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا (المجر) بقيادة زعيمهم أرپاد Arpad . وفى عام ٨٩٩ عبرت جموعهم جبال الألب وانقضت على إيطاليا ، وأحرقوا پاڤيا Pavia وكنائسها الثلاث والأربعين

جميعها ، وذبحوا أهلها ، وظلوا عاماً كاملا يعيثون فى شبه الجزيرة فساداً ، ثم فتحوا پنونيا Pannonia ، وأغاروا على پاڤاريا Bavaria (٩٠٠ — ٩٠٧) ، وحربوا كارنثيا Carinthia (٩٠١) ، واستولوا على موراڤيا Moravia (٩٠٦) ، ونهبوا سكسونيا ، وثورنجيا Thuringia ، وسوابيا Swabia (٩١٣) ، وألمانيا الجنوبية ، والألساس Alsace (٩١٧) ، وانقضوا فجاءة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر اللك Lech أحد روافد الدانوب (٩٢٤) . وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا إلى خالقهم بالدعاء والصلاة ، لأن هؤلاء المغيرين كانوا لا يزالون أقواماً وثنيين ، ولاح أن العالم المسيحى مقضى عليه لا محالة . ولكن المجر هُزِموا عند جوثا Gotha فى عام ٩٣٣ ، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة ، ثم غزوا إيطاليا مرة أخرى فى عام ٩٤٣ ، ونهبوا برغنديا فى عام ٩٥٥ . وانتهى الأمر فى ذلك العام نفسه بأن هزمتهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أتو Otto الأول فى معركة حاسمة فى لكفلد Lechfeld أو وادى اللّك بالقرب من مدينة أوجزبرج Augsburg ، واستطاعت أوربا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس الصعداء بين خرباتها بعد أن حاربت فى قرن واحد (٨٤١ — ٩٥٥) النورمان فى الشمال ، والمسلمين فى الجنوب ، والمجر فى الشرق .

وبعد أن خضع المجر أضحت أوربا أكثر أمناً مما كانت لاعتناقهم الدين المسيحى (٩٧٥) . ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج بلاد هنغاريا فى الإمبراطورية البيزنطية التى عادت وقتئذ توسع رقعتها ، ولهذا اختار المذهب المسيحى اللاتينى لكى يسالمه الغرب ، وزاد على ذلك بأن زوج ابنه استيفن من جزيلا Gisela ابنة هنرى الثانى دوق پاڤاريا . وأمسى استيفن الأول (٩٩٧ — ١٠٣٨) شفيعاً لهنغاريا وراعيها وأعظم ملوكها ؛ فقد نظم شئون المجر على غرار النظام الإقطاعى الألمانى ، وقوى الأساس الدينى الذى أقام عليه المجتمع الجديد بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلفستر Sylvester الثانى (١٠٠٠) .

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلاده ، وأنشأوا الأديرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية ؛ وبهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات الهمجية إلى نور الحضارة ؛ ولما أن أهدت الملكة جزيلا صليباً إلى صديق لها ألمانى كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية .

وكان أقدم موطن معروف للصقالبة إقليم من روسيا كثير المناقع تحيط به كيف ، ومهيلف Mohilev ، وبرست لتوفسك Brest Litovsk ، وكانوا من عنصر هندى أوربى يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية . وكانت أقوام من البدو تجتاح بلادهم من آن إلى آن ، وكثيراً ما كانوا يُسْتَرَقُّون ، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقر والظلم ، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلابا أشداء ، وفاقت خصوبة نسائهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات ، والأمراض والحروب ، التى لم ينطفىء لها سعير . وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين ، ويعيشون من صيد الحيوان ، ورعيه ، وصيد السمك ، وتربية النحل ؛ وكانوا يبيعون العسل ، والشمع ، والجلود ؛ ثم استسلموا آخر آخر الأمر لحياة الزراعة والاستقرار . وكانوا هم أنفسهم يطارَدُون ويُدفعون إلى المناقع والغابات التى يتعذر الوصول إليها ، ثم يؤسرون بوحشية ، ويباعون بلا رحمة ؛ ولهذا تخلقوا بأخلاق زمانهم ، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال ؛ وإذ كانوا يعيشون فى أقاليم باردة رطبة ، فقد اعتادوا أن يدفئوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية ؛ ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذى يحرم الخمور[٣٤] . وكانت أبرز عيوبهم هى السكر ، والقذارة ، والقسوة ، وحب السلب والنهب . وكان الادخار ، والحذر ، وسعة الخيال تتذبذب فيهم بين الفضيلة والرذيلة ؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طيبى القــلوب ، أسخياء ، حسنى العشرة ، مولعين بالألعاب ، والرقص والموسيقى ، والغناء . وكان زعماؤهم كثيرى الازواج ، أما الفقراء فكانوا يقتصرون على واحدة ، وكانت النساء

ـ اللاتى يشترين بالمال أو يؤسرن فى الحروب ليتخذن زوجات ـ وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن[٣٥] . وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاما غير وثيق العرى فى عشائر ثم تنتظم العشائر فى قبائل . ولربما كان للشعائر أملاك مشتركة فى مراحل الرعى الأولى[٣٦] ، ولكن قيام الزراعة ـ التى تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط ، والكفاية فى التربة المختلفة الخصوبة : ثماراً غير متساوية ـ أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أوالأسر وكثيراً ما كان الصقالبة يتفرقون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية ، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية : البولندية والونديشية Wendish ،والتشكية ، والسلوڤاكية فى الغرب ، والسلوفينية والصربيكرواتية Serbo-Croat ، والبلغارية فى الجنوب ، والروسية الكبرى ، والروسية البيضاء ، والروسية الصغرى (الروثينية والأكرانيةRurhenian & Ukrainian) فى الغرب . على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قدظلوا يفهمون كل واحدة منها ؛ وكانت جامعة اللغة والعادات بين الصقالبة ، مضافة إلى سعة بلادهم ، وكثرة مواردهم ، وحيويتهم الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم ، والانتقاء الصارم ، والطعام البسيط الخشن ، كانت هذه كلها سبباً فى ازدياد قوة الصقالبة الآخذة فى الانتشار .

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوبا وغربا فى هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان فى شمالى ألمانيا ووسطها . وانجذب الصقالبة نحو هذا الفراغ ، ودفعهم إليه دفعاً الهون الغزاة ، فانتشروا غربا وعبروا نهر الفستيولا Vistula ، ونهر الإلب نفسه ؛ وكانوا فى هذه الأرض هم الوند Wend ، والبولنديين ، والتشك ، والفلاخ Vlache ، والسلوفاك الذين نعرفهم فيما بعد . وحدث فى أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية غمر ريف اليونان ، وأغلقت المدن بابها دونه ، ولكن دما صقلبيا غزيراً امتزج بالدم الهلينى . وجاءت حوالى عام ٦٤٠ قبيلتان صقلبيتان ذواتى قربى هما الصربى Srbi ،

والكزوباتى Chrobati ، واستوطنتا بانونيا وإليركم Illyricum من جديد . واعتنق الصرب المذهب اليونانى المسيحى ، واعتنق الكروات المذهب الرومانى . وأضعف هذا الانقسام الدينى ، الذى عاق الوحدة الجنسية واللغوية ، الأمة أمام جيرانها ، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين الاستقلال تارة ، والخضوع لبيزنطية أو بلغاريا تارة أخرى ، إلى أن كان عام ٩٨٩ فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلادمير الصربى ، وأسره ، ثم زوجه بابنته كسارا Kossara وسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Zita ، على أن يكون فيها أميراً من قبل ڤلدمير . ذلك هو موضوع أقدم الروايات القصصية الصربية *فلدمير وكسارا* التى ألفت فى القرن الثالث عشر . واحتفظت المدن الساحلية فى دلماشيا القديمة — زارا ، واسپالاتو Spalato ، وراجوسا Ragusa بلغتها وثقافتها اللاتينيتين ، أما بقية بلاد الصرب فأضحت صقلبية . وحرر الأمير ڤواسلاف صربياً فى عام ١٠٤٢ ولكنها عادت فاعترفت بسيادة بيزنطية فى القرن الثانى عشر .

ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجيبة تمامها فى أواخر القرن الثامن أمست أوربا الوسطى ، وبلاد البلقان ، والروسيا بأجمعها بحراً صقلبياً تصطدم أمواجه بحدود القسطنطينية ، وبلاد اليونان ، وألمانيا .

الفصل السابع

مولد الروسيا (٥٠٩ — ١٠٥٤)

لم يكن الصقالبة إلا آخر الأقوام الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون فى تربة الروسيا الخصبة ، وسهوبها الرحبة ، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة ؛ ويأسون لمناقعها العفنة ، وغاباتها المانعة ، وافتقارها إلى المعاقل الطبيعية التى تصد الأعداء الغازين ، وصيفها الحار ، وشتائها البارد . فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد لا بعد على أقل سواحلها جدباً أى على شاطئ البحر الأسود الغربى والشمالى نحو عشرين بلدة — ألبيا Albia ، وتانيس Tanais ، وثيودوسيا Theodocia ، وبنتيكپيوم Panticapium (كرتش Kerch) . واقتتلوا مع السكوذيين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصروهم . وسرت إلى هؤلاء الأقوام — وأكبر الظن أنهم من أصل إيرانى — بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف — أناخارسيس Anacharsis ٦٠٠ ق . م — قدم إلى أثينة وتناقش مع صولون .

ثم أقبلت فى القرن الثانى قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هى قبيلة السرماتيين ، هزمت السكوذيين وسكنت ديارهم ؛ واضمحلت المستعمرات اليونانية فى هذا الاضطراب . ودخل البلادَ القوطُ من الغرب فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين ، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالى عام ٣٧٥ ؛ ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة ، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو — هم البلغار ، والآفار ، والصقالبة ، والخزر ، والمجر ، والپتزيناك Patzinaks ، والكومان Cumans ، والمغول . وكان الخزر من أصل تركى زحفوا فى القرن السابع مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبى الروسيا ، وأنشأوا

مُلْكا منظما امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ، وشيدوا عاصمة لهم هى مدينة إتيل Itil على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستراخان الحاضرة ، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودى. وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية ، ولكنهم فضلوا فى أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر ، وأطلقوا فى الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة ، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس — اثنتان للمسلمين ، واثنتان للمسيحيين ، واثنتان لليهود ، وواحدة للكفرة الوثنيين . وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين ، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى(٣٧) . واجتمع التجار على اختلاف أديانهم فى مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنيرة ، فنشأت هناك من ذلك تجارة منتعشة بين البحر البلطى وبحر قزوين ، وأصبحت إتيل فى القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية . وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria فى القرن التاسع ؛ وعجزت الحكومة عن أن تحمى مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة ، وذابت مملكة الخزر فى القرن العاشر وعادت إلى الفوضى العنصرية التى نشأت منها .

وجاءت من جبال الكربات فى القرن السادس هجرة من القبائل الصقلبية إلى هذا الخليط الضارب فى روسيا الجنوبية والوسطى . واستقرت هذه القبائل فى وادىى الدنيبر والدن ، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن Ilmen فى الشمال ، وظل أفرادها عدة قرون يتضاعفون ، وهم فى كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات ، ويقتلون الوحوش البرية ، وينشئون بلاد أكرانيا . وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشرى لا يضارعهم فيها إلا الهنود والصينيون . ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقرّ لهم قرار — يهاجرون إلى بلاد القفقاس والتركستان ، وإلى أقاليم أورال وسيبيريا ؛ ولا تزال

عملية الاستعمار هذه فى مجراها فى هذه الأيام ؛ ولا يزال البحر الصقلبى العجاج يدخل كل عام فى خلجان عنصرية جديدة .

وأقبلت على العالم الصقلبى فى بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها . ذلك أن أهل الشمال الإسكنديناويين كان فى وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونهما من هجماتهم على اسكتلندة ، وأيسلندة ، وأيرلندة ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وأسپانيا ؛ وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات مؤلفة من مائة أو مائتين من الرجال ، ينهبون بها الجماعات الضاربة حول البحر البلطى ، والفنلنديين ، والصقالبة ، ثم يعودون بجر الحقائب بالغنائم . وشاء هؤلاء الفيرنج چار Vaerinjar أو الفرنجيون Varangians (« أتباع » الزعيم) أن يحموا تلصصهم بالقانون والنظام فأقاموا مراكز محصنة فى طرقهم ، ثم استقروا بالتدريج وكانوا أقلية اسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراع خاضعين لهم . واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعى . ويبدو أن أولئك الحراس قد أحالوا أجورهم جزية ، وأضحوا سادة من استخدموهم[٣٨] ؛ ولم يكد ينتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نفجورود « الحصن الجديد » ، وبسطوا ملكهم حتى وصلو إلى كيف فى الجنوب . وارتبطت الطرق والمحلات التى كانوا يسيطرون عليها برباط غير وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية ، سميت روس Ros أو Rus وهى كلمة لا يزال اشتقاقها مثاراً للجدل الشديد . وربطت الأنهار العظيمة التى تخترق البلاد البحرين الأبيض فى الشمال والأسود فى الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة ، وأغرت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم ويبسطوا سلطانهم نحوالجنوب. وسرعان ما أخذ هؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم فى القسطنطينية نفسها . ثم حدث ما يناقض هذا ، حدث أنه لما أضحت التجارة على أنهار الدنيبر ، والفلخوف Volkhov ، ودوينا الغربى أكثر انتظاماً مما كانت قبل ، أقبل

التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية ، وأخذوا يستبدلون الفراء ، والكهرمان ، وعسل النحل ، وشمعه ، والرقيق ، بالتوابل ، والخمور ، والحرير ، والجواهر ، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية والبزنطية الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفى اسكنديناوة نفسها . ولما حالت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرقى دون وصول الحاصلات الأوربية مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة فى شرق هذا البحر ، واضمحلت مرسيليا ، وجنوا وپيزا فى القرنين التاسع والعاشر ، وازدهرت فى مقابل هذا فى الروسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك Smolensk ، وشرنيجوف Shernigov ، وكيف ، ورستوف Rostov بفضل التجارة الاسكنديناوية ، والصقلبية ، والإسلامية ، والبزنطية .

وخلع السجل القديم الروسى (القرن الثانى عشر) على هذا التسرب الاسكنديناوى شخصية تاريخية بقصته عن « الأمراء الثلاثة » : وخلاصتها أن السكان الفنلنديين والصقالبة فى نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتلون فيما بينهم بعد أن طردوا سادتهم الفرنجيين ، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا الفرنجيين أن يرسلوا لهم حاكما أو قائداً (٨٦٢) ، فجاءهم ، كما تروى القصة ، ثلاثة إخوة — روريك Rurik ، وسنيوس Sinues ، وتروڤور Truvor — وأنشأوا الدولة الروسية . وقد تكون هذه القصة صادقة رغم تشكك المتأخرين فيها ، وقد تكون طلاء وطنيا لفتح نفجورود على يد الاسكنديناويين . ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من أعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir ليستوليا على القسطنطينية ، وأن هذين الشماليين وقفا فى طريقهما ليستوليا على كيف ، ثم أعلنا استقلالهما عن روريك والخزر جميعاً .

وبلغت كيف فى عام ٨٦٠ من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية ؛ وأخفقت الحملة فى مهمتها ، ولكن كيف بقيت كما كانت مركزاً لروسيا التجارى والسياسى ، وجمعت تحت سلطانها بلاداً

واسعة ممتدة خلفها . وفى وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين — أسكولد Ascoled ، وأولج Oleg ، وإيجور Igor لاروريك حاكم نفجورود — هم الذين أنشأوا الدولة الروسية . ووسع أولج ، وإيجور ، وألجا Oelga — الأميرة القديرة أرملة أولج — وابنها المحارب اسفياتسلاف Sivatoslav (٩٦٢ — ٩٧٢) مملكة كيف حتى انضوت تحت لوائها القبائل الصقلبية كلها تقريباً ، ومدائن پولوتسك Polotsk ، واسمولنسك ، وشرنجوف ، ورستوف . وحاولت الإمارة الناشئة بين عامى ٨٦٠ ، ١٠٤٣ ست مرات أن تستولى على القسطنطينية . ألا ما أقدم زحف الروس على البسفور ، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط .

واعتنقت روس ، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها ، تحت حكم ڤلديمير الخامس (٩٧٢ — ١٠١٥) « دوق كيف الأكبر » ، الدين المسيحى (٩٨٩) . وتزوج فلاديمير أخت الإمبراطور باسيل الثانى ، وظلت الروسيا من ذلك الوقت إلى عام ١٩١٧ ابنة للدولة البيزنطية فى دينها ، وحروفها الهجائية ، وعملتها ، وفنها . وشرح القساوسة اليونان لڤلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين ، وما لهذه العقيدة من نفع فى تثبيت النظام الاجتماعى واستقرار الملكية المطلقة(٣٩) . وبلغت دولة كيف أوج عزها فى عهد يروسلاف Yaroslav (١٠٣٦ — ١٠٥٤) بن ڤلاديمير ، واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد الممتـــدة من بحيرة لدوجا Ladoga والبحر البلطى إلى بحر قزوين ، وجبال القفقاس ، والبحر الأسود ، وكانت الضرائب تجبى إليها من هذه البلاد . وامتصت فى جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلبى واللغة الصقلبية . وكان نظامها الاجتماعى أرستقراطياً صريحاً ، فكان الأمراء يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبـــلاء ، وطائفة أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكى dietski أو الأوتروكى Otroki أى الخدم أو الأتباع . ويلى هؤلاء فى المنزلة طبقة

التجار ، وأهل المدن ، ثم الزراع نصف العبيد ، ثم العبيد أنفسهم . وأقر كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا پراڤدا Raskaya Pravda أو الحق الروسى ، الثأر الشخصى والمبارزة القانونية ، وتبرئة المتهم بناء على أيمان الشهود ؛ ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدى اثنى عشر محلفين من المواطنين(٤٠) . وأنشأ ڤلاديمير مدرسة للأولاد فى كيف ، وأنشأ ياروسلاف مدرسة أخرى فى نفجورود . وكانت كيف وهى ملتقى السفن النهرية الآتية من أنهار يلخوف ، ودڤينا ، ودنيبر الأدنى تجبى الضرائب على جميع المتاجر المارة بها ، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تشيد أربعمائة كنيسة ، وكاتدرائية كبيرة — تضارع أياصوفيا — على الطراز البيزنطى . وجىء بالفنانين اليونان ليزينوا هذه المبانى بالفسيفساء ، والمظلمات وغيرها من ضروب الزينة البيزنطية ؛ ودخلت فيها الموسيقى اليونانية لتمهد السبيل إلى نصرة الأغانى الروسية الجماعية . وأخذت الروسيا ترفع نفسها على مهل من غمار الأوحال والتراب ، وتبنى القصور لأمرائها ، وتقيم القباب فوق أكواخ الطين ، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم على بناء جزائر صغرى من الحضارة فى بحر لم يخرج بعد من ظلمات الهمجية .

الباب التاسع عشر

اضمحلال الغرب

٥٦٦ — ١٠٦٦ م

بينا كان الإسلام يشق طريقه فى أنحاء العالم ، وبينا كانت بزنطية تفيق من الضربات التى بدت قاصمة لظهرها ، كانت أوربا تكافح للخروج من دياجير « العصور المظلمة » . وهذا تعبير غير دقيق فى وسع كل إنسان أن يعرّفه كما يهوى ؛ أما نحن فسنقصره تعسفاً منا على أوربا غير البيزنطية فى الفترة الواقعة بين موت بوئيثيوس Boethius عام ٥٢٤ ومولد أبيلار Abelard فى عام ١٠٧٩ . وظلت الحضارة البيزنطية مزدهرة خلال هذه الفترة رغم ما خسرته الدولة من أملاكها ومهابتها ؛ أما أوربا الغربية فكانت فى القرن السادس الميلادى مسرحاً لفوضى الفتوح ، والانحلال ، والعودة إلى الهمجية . نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة قد بقى فيها ، وإن كان معظمه صامتاً مخبوءاً فى عدد قليل من الأديرة والأسر ، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التى يقوم عليها النظام الاجتماعى كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال . ذلك أن الولع بالآداب ، والإخلاص للفن ، ووحدة الثقافة واتصالها ، وتجاوب العقول بعضها مع بعض تجاوباً يشحذها ويخصبها ، كل هذه الأسس قد انهارت أمام ضربات الحرب وويلاتها ، وأخطار طرق النقل ، والأساليب الاقتصادية فى البيئات الفقيرة ، ونشأة اللغات القومية ، واختفاء اللغة اللاتينية من بلاد الشرق واللغة اليونانية من الغرب . وعجلت فى القرنين التاسع والعاشر سيطرةُ المسلمين على البحر المتوسط ، وغارات النورمان ،

والحجر ، والمسلمين على السواحل الأوربية نزعة التخصص فى أساليب الحياة: ووسائل الدفاع وبداثية الفكر والكلام . وكانت ألمانيا وأوربا الشرقية ملتقى تيارات متعارضة من الهجرات ، واسكنديناوة معششاً للقراصنة ، وبريطانيا تجتاحها قبائل الإنجليز ، والسكسون ، والجوت ، والدنمرقيين ؛ وغالة يهاجمها الفرنجة ، والنورمان ، والبرغنديون ، والقوط ؛ وأسبانيا يتنازعها القوط الغربيون والمسلمون ؛ وكانت إيطاليا قد حطمتها الحروب الطوال التى دارت رحاها بين القوط والبيزنطيين ؛ وظلت البلاد التى وهبت نصف العالم الأمن والنظام تعانى خمسة قرون طوال مساوئ الانحلال فى الأخلاق والاقتصاد ، وأنظمة الحكم .

ومع هذا فإن شارلمان ، وألفرد Alfred ، وأتو الأول قد وهبوا فرنسا ، وإنجلترا وألمانيا فترات من النظام ، وكانوا حافزاً على السير إلى الأمام ؛ وأحيت إرچينا Erigena موات الفلسفة ، وجدد ألكوين Alcuin وغيره نشاط التعليم ، وأدخل جربرت Gerbert علوم المسلمين إلى بلاد المسيحية ؛ وأصلح ليو التاسع وجريجورى السابع نظم الكنيسة وبعثا فيها القوة ، ونشأ فى فن العمارة طراز الزخرف الرومانى ؛ وبدأت أوربا فى القرن الحادى عشر رقيها البطىء إلى ما وصلت إليه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أى إلى أعظم ما بلغته فى العصور الوسطى بأجمعها :

الفصل الأول

إيطـــاليا

١ — اللمبارد : ٥٦٨ — ٧٧٤

انطفأ سراج الحكم البيزنطى فى إيطاليا الشمالية بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على أثر غارات اللمبارد على تلك البلاد .

ويظن بولس الشماس — وهو واحد منهم — أن اللمبارد أو اللنجوباردى Longobardi قد سموا بهذا الاسم لطول لحاهم[1] ، وهم أنفسهم يعتقدون أن موطنهم الأصلى كان فى اسكنديناوة[2] ، ولهذا فإن دانتى ، وهو من نسلهم[3] ، يوجه الخطاب إليهم بهـــذا الوصف[4] . ونراهم على ضفاف نهر الإلب الأدنى فى القرن الأول الميلادى ، وعلى ضفاف الدنواب فى القرن السادس ، ويستخدمهم نارسيس Narses فى حروبه الإيطالية التى دارت رحاها عام ٥٥٢ ، ثم يعيدهم إلى پانونيا بعد أن يحرز النصر . ثم يشتد ضغط الآفار على اللمبارد من الشمال والشرق ، فيتحرك مائة وثلاثون ألفاً منهم فى عناء — رجالهم ونساؤهم وأطفالهم ، ومتاعهم — ويعبرون جبال الألب إلى « لمبارديا » سهول البو الخصيبة . ولعل نارسيس كان يستطيع وقف سيرهم ، ولكنه كان قد خلع وجلله العار قبل عام من ذلك الوقت ؛ كذلك كانت بيزنطية مشغولة عنهم بالآفار والفرس ؛ ولم يكن لديها من المال ما تنفقه فى أعمال البطولة التى يفيد منها غيرها . ولهذا فإنه لم يحل عام ٥٧٣ حتى استولى اللمبارد على ڤيرونا ، وميلان ، وفلورنس ، وپافيا — وقد أصبحت هذه المدينة الأخيرة عاصمة ملكهم ؛ وفى عام ٦٠١ استولوا على پدوا ، وفى ٦٠٣

على كرمونا Cremona ومنتوا Mantua ؛ وفى ٦٤٠ على جنوا . وانتزع ليوتبراند Liutprand أعظم ملوكهم (٧١٢ — ٧٤٤) راڤنا فى شرق إيطاليا ، واسپوليتو Spoleto فى وسطها ، وبنفنتو فى جنوبها ، وكان يطمح إلى جمع كلمة إيطاليا كلها تحت سلطانه . غير أن البابا جريجورى الثالث لم يكن يرضى أن تصبح البابوية أبرشية لمباردية ؛ فاستغاث بالبنادقة الذين لم يخضعوا للمبارد ، وأعاد هؤلاء راڤنا إلى بيزنطية . ولم ير ليوتبراند بدًّا من أن يقنع بحكم شمالى إيطاليا ووسطها أصلح حكم مرّ عليهما منذ أيام ثيودريك القوطى ، وكان هو مثل ثيودريك يجهل القراءة والكتابة(٥) .

وأنشأ اللمبارد حضارة خطت فى مدارج الرقى . وكانوا يختارون ملكهم ؛ وكان هذا يستشير فى شئون الحكم مجلساً من الأعيان ، ويعرض شرائعه عادة على جمعية شعبية مؤلفة من جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية . ونشر مليكهم راثارى Rathari (٦٤٣) كتاب قوانين جمعت بين البدائية والتقدمية : فكانت تبيح أداء الدية المالية جزاء للقتل ؛ وأرادت أن تحمى الفقراء من الأغنياء ، وكانت تسخر من السحر والشعوذة ، وتبيح حرية العبادة للكاثوليك ، والأريوسيين ، والوثنيين على السواء(٦) . وامتص الدم الإيطالى الغزاة الألمان عن طريق الزواج ، واتخذوا اللسان اللاتينى لغة لهم ، وترك اللمبارد آثارهم فى أماكن متفرقة : فى العيون الزرقاء ، والشعر الأشقر ، وفى قليل من الكلمات التيوتونية فى اللغة الإيطالية . ولما أن خبت حدة الفتوح واستقر القانون ، عادت التجارة — وهى العمل الطبيعى فى وادى نهر البو — سيرتها الأولى ؛ ولم يكد ينتهى عصر اللمبارد حتى أثرت مدائن شمالى إيطاليا وقويت واستعدت لتلقى الفنون وخوض الحروب عندما بلغت ذروتها فى العصور الوسطى . أما الأدب فكانت سوقه راكدة ، فلم يبق الدهر من أدب ذلك العصر وتلك الدولة إلا كتاباً واحداً ذا شأن — هو كتاب تاريخ اللمبارد لبولس الشماس (حوالى عام ٧٤٨) ؛

وهو كتاب ممل ، مشوه الترتيب ، ليس فيه مثقال ذرة من الفلسفة . ولكن لمبارديا طبعت اسمها على فن العمارة وشئون المال ؛ وكانت حرف البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطية من تنظيم وحذق قديمين . وكان لإحدى الجماعات ، وهي جماعة سادة كومو ، السبق في صياغة طراز « لمباردى » في العمارة جمعته من أصول متعددة ، وازدهر فيما بعد حتى أصبح هو الطراز الرومانسى .

ولم يمض جيل واحد على حكم ليوتبراند حتى تحطمت المملكة اللمباردية على صخرة البابوية . ثم استولى الملك إيستلف Aistulf على راڤنا في عام ٧٥١ ، وأنهى بذلك تبعيتها لبيزنطية ، وإذ كانت دوقية رومة قبل ذلك الوقت تابعة من الوجهة القانونية للولى المقيم في راڤنا فإن أيستلف طالب بحقه في ضم رومة إلى مملكته الآخذة في الاتساع . واستغاث البابا استيفن الثانى بقسطنطين كبرونيموس فبعث الإمبراطور اليونانى بمذكرة غير ذات خطر إلى أيستلف ؛ فما كان من استيفن إلا أن استغاث ببيبين القصير Pepin the Short ملك الفرنجة . وكان لهذه الاستغاثة نتائج ذات شأن لم تقف عند حد . ولاح لبيبين الأمل في بناء إمبراطورية له فعبر جبال الألب ، ونكل بإيستلف ، وجعل لمبارديا إقطاعية للفرنجة ، وأعطى جميع إيطاليا الوسطى للبابوية . وظل البابوات يقرون بالسيادة الرسمية لأباطرة الشرق ؛ أما إيطاليا الشمالية فقد قضى فيها على سلطان بيزنطية قضاء نهائيا . وقد حاول دسيدريوس Desiderius الملك اللمباردى التابع أن يسترد استقلال لمبارديا وفتوحها ؛ ولكن البابا هدريان الأول استدعى لمعونته فرنجيا جديداً ، وانقض شالمان على پاڤيا ، وأرسل دسيدريوس إلى أحد الأديرة وقضى على مملكة اللمبارد وجعلها ولاية تابعة للفرنجة .

٢ — النورمان فى إيطاليا (١٠٣٦ — ١٠٨٥)

وتركت إيطاليا الآن تعانى الانقسام والحكم الأجنبى مدى ألف عام ، لن نعنى بتسجيل تفاصيل حوادثها . وحسبنا أن نقول إن النورمان شرعوا فى ١٠٣٦ يفتحون إيطاليا الجنوبية وينتزعونها من الدولة البيزنطية . ذلك أنه كان من عادة أشراف نورمنديا أن يوزعوا أراضيهم على أبنائهم بالتساوى كما يفعل الفرنسيون فى هذه الأيام ، وكانت نتيجة هذا القانون فى نورمنديا أن تجزأت أملاك الأسر فى العصور الوسطى إلى ملكيات صغيرة على حين أن نتيجته فى فرنسا هى وجود أسر صغيرة . ولم يكن النورمان راغبين فى حياة الفقر الهادئة ، وكانوا إلى هذا لا يزالون يذكرون ما طبع عليه آباؤهم أهل الشمال من حب المغامرة والسلب والنهب ، ولهذا أجّر بعض شداد النورمان أنفسهم إلى أدواق إيطاليا الجنوبية المتنافسين المتنازعين ، وأظهروا ضروباً من البسالة فى حروبهم إلى جانب بنفنتو ، وسلرنو ، ونابلى ، وكپوا ، وإلى جانب أعدائها ، وأعطوا مدينة أفرسا Aversa جزاء لهم على أعمالهم . وترامى إلى مسامع غيرهم من شباب النورمان المتحمسين أن الأراضى تكسب بضربة أو ضربتين من سواعدهم ، فغادروا نورمنديا إلى إيطاليا . وسرعان ما أصبح من فيها من النورمان كثرة تستطيع أن تقاتل لحسابها ؛ ولم يحل عام ١٠٥٣ حتى أنشأ أجرأهم ربرت جوسكارد Robert Guiscard (أى العاقل أو الماكر) مملكة نورمندية فى إيطاليا الجنوبية . وكان ربرت هذا يتصف بكل الصفات التى تخلعها الأساطير على الأبطال . كان أطول من جميع جنوده ، وكان قوى الساعدين ، صلب الرأى ، جميل المحيا ، أشقر الشعر ، أصهب اللحية ، فخم الثياب ، سخى اليد ينثر الذهب نثراً ، قاسياً فى بعض الأحيان ، وباسلا على الدوام .

ولم يكن روبرت يعترف بغير قانون القوة والخداع ، فاجتاح كلبريا Calabria واستولى على بنفنتو ، وكاد يمشى إليها على جثة البابا ليو التاسع (١٠٥٤) ، وعقد حلفاً مع نقولا الثانى ، تعهد فيه أن يكون خاضعاً له وأن يؤدى له الجزية ، وأقطعه نقولا فى نظير ذلك كلبريا ، وأپوليا Apulia وصقلية (١٠٥٩) . وترك ربرت أخاه الأصغر روچر ليفتح صقلية ، واستولى هو على بارى Bari (١٠٧١) وطرد البيزنطيين من أپوليا . واغتاظ إذ وجد البحر الأدرياوى يعترض طريقه فأمل أن يعبره ليستولى على القسطنطينية ، ويصبح أقوى ملوك أوربا جميعاً . وأنشأ من فوره عمارة بحرية ، هزم بها الأسطول البيزنطى فى واقعة بحرية بالقرب من درزو (١٠٨١) ؛ واستغاثت بيزنطية بالبندقية ، فخفت هذه المدينة لنجدتها لأنها لم تشأ إلا أن تكون ملكة البحر الأدرياوى ؛ وأوقعت سفائنها الماهرة فى ضروب القتال هزيمة منكرة بعمارة جوسكارد البحرية فى عام ١٠٨٢ على بعد قليل من موضع نصره الذى ناله منذ وقت قصير . ولكن ربرت استطاع بنشاطه الشبيه بنشاط يوليوس قيصر نقل جيشه إلى دورزو Durazzo وهزم عندها جيوش الكسيوس الأول الإمبراطور اليونانى ، واخترق إپيروس وتساليا حتى كاد يصل إلى سلانيك . وبينا هو يوشك أن يحقق حلمه إذ تلقى دعوة حارة من البابا جريجورى السابع يستغيث به لينقذه من الإمبراطور هنرى الرابع . فما كان من ربرت إلا أن ترك جيشه فى تساليا ، وعاد مسرعاً إلى إيطاليا ، وحشد جيشاً من النورمان ، والطليان ، والمسلمين أنقذ به البابا ، وانتزع رومة من الألمان ، وأخمد ثورة قام بها الشعب على جيشه ، وترك هذا الجيش الحانق يحرق المدينة وينهبها ويخربها تخريباً لا يجاريه فيه تخريب الوندال أنفسهم لهذه المدينة (١٠٨٤) وعاد فى هذه الأثناء ابنه بوهمند Bohemond ليعترف بأن جيشه الذى كان فى بلاد اليونان قد مزقه ألكسيوس شر ممزق . وأنشأ القرصان القديم أسطولا ثالثاً هزم به أسطول البندقية بالقرب من جزيرة كورفو Corfu (١٠٨٤) ، واستولى على جزيرة

كفلونيا Cephalonia الأيونية ، ثم مات فيها ، بعدوى سرت إليه أو بالسم ، فى سن السبعين (١٠٨٥) . وكان هو أول القادة اللصوص فى إيطاليا (الكندتيرى Conedottieri) .

٣ — البندقية : (٤٥١ — ١٠٩٥)

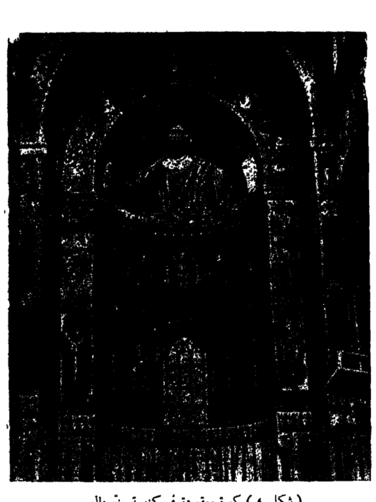
وبينا كانت هذه الأحداث تجرى فى مجراها إذ ولدت دولة جديدة فى الطرف الشمالى من شبه الجزيرة ، قدرلها أن تزداد قوة وعظمة حين كانت الفوضى تضرب بجرانها على الجزء الأكبر من إيطاليا . وتفصيل ذلك أن سكان أكويليا Aquileia ، وبدوا ، وبلونو Belluno ، وفلترى Feltre وغيرها من المدن فروا فى أثناء غارات القبائل الهمجية فى القرن الخامس والسادس — وبخاصة فى أثناء غارة اللمبارد فى عام ٥٦٨ — لينجوا بأنفسهم من الهلاك وينضموا إلى صيادى السمك المقيمين فى الجزائر الصغيرة التى كونها نهرا البياف Piav والأديج Adige فى الطرف الشمالى من البحر الأدرياوى . وبقى بعض هؤلاء اللاجئين فى هذه الجزائر بعد انتهاء الأزمة ، وأنشأوا فيها محلات : هرقلية ، وملامكو Melamocco وجرادو Grado ، وليدو Lido . . . وريڤو ألتو Rivo Alto (النهر العميق) . وقد أضحت هذه المحلة الأخيرة التى سميت فيها بعد ريالتو Rialto عاصمة حكومتهم المتحدة (٨١١) . وكانت قبيلة من الڤنيتى Veneti قد احتلت شمالى إيطاليا قبل عهد يوليوس قيصر بزمن طويل ؛ وأطلق اسم ڤنيزيا Venezia فى القرن الثالث عشر على المدينة الفذة التى نشأت حيث كان يقيم اللاجئون .

وكانت الحياة فيها شاقة فى بادئ الأمر ، فكان من الصعب الحصول على الماء العذب ، لأن قيمته لم تكن تقل عن قيمة الخمر . وأرغمت الظروف البنادقة — أهل ڤنيزيا — لأن يصبحوا أهل سفن وتجارة لاضطرارهم إلى استبدال القمح وغيره من السلع بما يحصلون عليه من البحر من سمك وملح ؛ وما لبثت

تجارة أوربا الشمالية والوسطى أن أخذت تنساب تدريجاً عن طريق الثغور البندقية . وأقر اتحاد المدن البندقية الجديد بسيادة بيزنطية عليه ليحمى نفسه من الألمان واللمبارد ، ولكن مركز هذه الجزائر المنيع فى مياهها الضحلة وتعذر الهجوم عليها براً أو بحراً لهذا السبب ، مضافاً إلى جد أهلها وجلدهم ، وازدياد الثراء الناتج من انتشار تجارتها ، كل هذا قد وهب الدولة الصغيرة سيادة واستقلالا غير منقطعين مدى ألف عام .

وظل اثنا عشر تريبوناً — يبدو أن كل واحد منهم كان يشرف على شئون جزيرة من الجزائر الاثنتى عشرة الكبيرة — يصرفون شئون الحكم حتى عام ٦٩٧ حين أحست هذه العشائر بحاجتها إلى سلطة عليا موحدة ، فاختارت أول دوج أو دوق أو زعيم doge, dux يتولى شئون الحكم حتى ينزله الموت أو تنزله الثورة عن عرشـــه . ودافع الدوج أجنلو بدور Agnello Badoer (٨٠٩ — ٨٢٧) عن المدينة ضد الفرنجة دفاعاً أظهر فيه من ضروب المهارة ما جعل الأدواق فيما بعد يُختارون من سلالته حتى عام ٩٤٢ . وثأرت البندقيـــة لنفسها فى عهد أرسلو Orsello الثانى (٩٩١ — ١٠٠٨) من غارات القراصنة الدلماشيين بأن هاجمت معاقلهم واستولت على دلماشيا ، وبسطت سيادتها على البحر الأدرياوى . وشرع البنادقة فى عام ٩٩٨ يحتفلون فى عيد الصعود من كل عام بهذا النصر البحرى وبهـــذه السيادة الاحتفال الرمزى المعروف عندهم باسم اسپوزالبزيا (sposalisia) : فكان الدوج يقذف فى البحر من سفينة مزينة زينة بهجة بخاتم مدشن ، وينادى باللغة اللاتينية : « إنا نتزوجك أيها البحر ، دليلا على سلطاننا الحق الدائم »(٧) . وسرَّ بيزنطية أن تقبل البندقية حليفاً لها مستقلا ، وكافأتها على صداقتها النافعة بامتيازات تجارية فى القسطنطينية وغيرها وصلت تجارة البندقية بفضلها إلى البحر الأسود بل تعدته إلى بلاد الإسلام نفسها .

وحدث فى عام ١٠٣٣ أن قضت أرستقراطية التجار على انتقال السلطة إلى

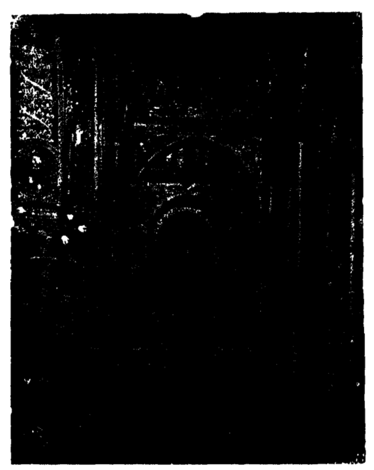


(شكل ٤) كوة معقودة فى كنيسة منتريال

الأدواق عن طريق الوراثة ، وعادت إلى مبدأ الانتخاب على يد جمعية من المواطنين ، وأرغمت الدوج على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ . وكانت البندقية فى ذلك الحين قد أصبحت تلقب « بالذهبية » (ڤنيسيا أوربا Venetia Aurea) ، واشتهر أهلها بثيابهم المترفة ، وبانتشار التعليم بينهم ، وبإخلاصهم لوطنهم وكبريائهم . وكانوا أقواماً نشطين راغبين فى الكسب ، ماهرين ، دهاة ، شجعاناً ، ميالين للنزاع ، أتقياء ، لا يحرصون على مبدأ ، يبيعون العبيد المسيحيين للمسلمين[٨] ، وينفقون بعض مكاسبهم فى بناء الأضرحة للقديسين . وكان فى حوانيت ريالتو صناع ورثوا من إيطاليا الرومانية حذق أهلها الصناعى ؛ وكانت تجارة محلية نشيطة تسير فى قنواتها ؛ هادئة ساكنة إلا من صيحات بحارة قواربها الأنيقة اللفظ ، وكانت موانئ الجزائر تحملها السفن المغامرة تحمل منتجات أوربا وبلاد الشرق . وكانت قروض الرأسماليين تموّل رحلات التجار البحرية . وتعود على أصحاب هذه الأموال بربح لا يقل عن عشرين فى المائة فى الأحوال العادية[٩] . واتسعت الهوة بين الأغنياء (المجيورى) والفقراء (المينورى) حين ازداد ثراء الأثرياء ، ولم ينقص فقر الفقراء إلا قليلا . ولم يكن أحد يظهر الرأفة بالسذج البسطاء ، فكان الكسب والثراء من نصيب الأسرع ، والظفر من نصيب الأقوى . فكان الفقراء يمشون على الأرض العارية ، وتنساب فضلات بيوتهم فى الشوارع إلى القنوات ؛ أما الأثرياء فقد شادوا القصور الفخمة ، وسعوا لكسب رضاء الله والناس بإقامة أفخم كنيسة كبرى فى العالم اللاتينى ، وتبدلت واجهة قصر الدوج ، التى شيدت أول مرة فى عام ٨١٤ واحترقت فى عام ٩٧٦ ، وتغير شكلها مراراً عدة قبل أن تستقر على شكلها الحاضر الذى هو مزيج رشيق من الزخرف الإسلامى والصورة التى هى من مميزات عصر النهضة .

وحدث فى عام ٨٢٨ أن سرق بعض تجار البنادقة من إحدى كنائس

الإسكندرية ما يظن أنه مخلفات القديس مرقس . واتخذت البندقية ذلك القديس شفيعاً لها وحاميها ونهبت نصف العالم لتوارى عظامه . وبدئ بإنشاء كنيسة القديس مرقص الأولى عام ٨٣٠ ثم دمرتها النار فى عام ٩٧٦ تدميراً رأى معه أرسيولو Orseolo الثانى أن يبدأ كنيسة جديدة أوسع منها رقعة . واستدعى لهذا الغرض فنانين من بيزنطية أقاموها على نمط كنيسة الرسول المقدس فى القسطنطينية — ذات سبع قباب فوق بناء صليبى . وظل العمل فيها جاريا نحو قرن من الزمان ؛ وتم البناء الرئيسى بشكله الحاضر تقريباً فى عام ١٠٧١ ، ودشن فى عام ١٠٩٥ . ولما فقدت مخلفات القديس مرقس حين شبت النار فى الكنيسة عام ٩٧٦ ، وهدد فقدها قداستها ، اتفق على أن يجمع المصلون فى الكنيسة فى يوم تدشينها ويدعوا الله أن توجد هذه المخلفات . وتقول إحدى الروايات المأثورة العزيزة على البنادقة الصالحين إن إحدى الأعمدة خر لدعواتهم ، وسقط على الأرض ، وكشف عن عظام القديس[١٠] . وتهدم البناء وأصلح مراراً ، وقلما مرت عشر سنين دون أن تشهد فيه تغييراً أو تحسيناً . وليست كنيسة القديس بطرس التى نعرفها الآن بنت تاريخ واحد أو عصر واحد ، بل إنها سجل من الحجارة والجوهر لألف عام ؛ فقد أضيفت فى القرن الثانى عشر واجهة من الرخام إلى جدرانها المقامة من الآجر ، وجيء بأعمدة مختلفة الأنواع من أكثر من عشر مدائن ، وقام الفنانون البيزنطيون الذين اتخذوا البندقية وطناً لهم بعمل فسيفساء الكنيسة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وأخذت أربعة جياد برنزية من القسطنطينية حين استولى البنادقة عليها فى عام ١٢٠٤ ، ووضعت فوق البوابة الرئيسية ؛ وأضاف الفنانون القوط فى القرن الرابع عشر أبراجاً ، وشبابيك مفرغة ، وستاراً للضريح المقدس ؛ وغطى مصورو عصر النهضة فى القرن السابع عشر نصف الفسيفساء بصور للجدران غير ذات شأن كبير . واحتفظ البناء العجيب فى خلال هذا التغيير كله وهذه القرون الطوال بمميزاته ووحدته —



(شكل ٥) مدخول كاپلا پلاتينا فى بلرم

فكان على الدوام بيزنطياً وعربياً ، منمقاً وشاذاً غير مألوف : فهو من خارجها شديد البريق ذو أقواس ، وأكتاف ، وأبراج مستدقة ، وأبواب ، والتفافات لولبية ، ورخام متعدد الألوان مغلف بالمعادن ، وطنف منحوتة ، وقباب بصلية الشكل . وهو من الداخل يحوى متاهة من العمد الملونة ، ومثلثات مطلية بين العقود ، ومظلات قائمة ، وخمسة آلاف ياردة موبعة من الفسيفساء ، وأرضية مرصعة باليشب والعقيق وغيرهما من الحجارة الكريمة ، وحظاراً زخرفياً خلف المذبح صنع عام ٩٧٦ فى القسطنطينية من المعادن الغالية والميناء ذات الحزوز ، مثقلة بألفين وأربعمائة قطعة من الجواهر ، ومقاماً خلف المذبح الرئيسى منذ عام ١١٠٥.. وقد عدت الرغبة الجامحة فى الزخرف طورها فى كنيسة القديس مرقس كما عدته فى كنيسة أياصوفيا ، فرأت أن تكرم الله بالرخام والحلى ، وأن تروع الإنسان ، وتؤدبه ، وتشجعه ، وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة المسيحية من بداية الخلق إلى نهاية العالم . وكانت كنيسة القديس مرقس أسمى وأخص ما عبر به عن أنفسهم أقوام لاتين استحوذ عليهم الفن الشرقى حتى ملك عليهم مشاعرهم .

٤ ــ الحضارة الإيطالية (٥٦٦ ــ ١٠٩٥)

ظلت إيطاليا الشرقية والجنوبية بيزنطية فى ثقافتها ، على حين أن بقية شبه الجزيرة قد نشأت فيها من تراث الرومان حضارة جديدة ــ عناصرها لغة جديدة ، ودين جديد ، وفن جديد . ذلك أن هذا التراث لم يفن كله رغم ما حل بالبلاد من غزو ، وفوضى ، وفقر . فأما اللغة الإيطالية فكانت هى اللاتينية الخشنة التى كانت تتكلم بها الجماهير فى العهد القديم ، وقد استحالت على مهل حتى أضحت أكثر اللغات رخامة . وأما المسيحية الإيطالية فكانت مؤلفة من وثنية خيالية جذابة ، وشرك عاطفى من القديسين الحماة المحليين ، وأساطير صريحة من

الخرافات والمعجزات . وكان الفن الإيطالى يرى أن الفن القوطى فن همجى ويستمسك بطراز الباسلقا ، (البناء الرومانى المستطيل الشكل) ، ثم عاد آخر الأمر فى عصر النهضة إلى الشكل الأوغسطى . ولم يزدهر نظام الإقطاع فى إيطاليا مطلقاً ؛ فالمدن لم تفقد قط سلطانها وتفوقها على الريف ؛ وكانت الصناعة والتجارة ، لا الزراعة ، هما اللتين مهدتا السبيل إلى الثراء .

ولم تكن رومة فى عهد من العهود مدينة تجارية ، ولذلك ظلت آخذة فى الضعف ؛ فقد اندثر مجلس شيوخها فى حروب القوط ، وأضحت نظم بلدياتها القديمة بعد سبعمائة عام من نشأتها أدوات جوفاء وأحلاماً تناقض روح الزمان ، ولم يكن فى وسع عامتها المؤلفين من خليط من الأجناس ، والذين يعيشون عيشة قذرة يخفف من قذارتها بعض الشىء الإباحية الجنسية والصدقات البابوية ، لم يكن فى وسع هؤلاء العامة أن يعبروا عن عواطفهم السياسية إلا بالثورات المتكررة على السادة الأجانب أو البابوات البغيضين . وكانت الأسر الأرستقراطية القديمة لا شغل لها إلا التنافس للسيطرة على البابوية أو التنازع مع البابوية للسيطرة على رومة . وبينا كان التربيونون — محامو الشعب — والقناصل وأعضاء مجالس الشيوخ هم الذين ينفذون القانون بالعصى والحراب ، أضحى النظام الاجتماعى يقوم الآن على أساس مزعزع من قرارات المجالس الكنسية ومواعظ الأساقفة ، ووكلائهم ، والمثل المريبة يضربها آلاف الرهبان المختلفى الأمم ، وهم طائفة قلما كانت غير متعطلة ، ولم تكن على الدوام عازبة . وكانت الكنيسة قد شنت الغارة على الاختلاط الجنسى فى الحمامات العامة ، وهجر الناس الأبهاء العظمى وحمامات السباحة الساخنة ، وزال من الوجود فن الطهارة الوثنى . وخُرِّبت قنوات الشرب الإمبراطورية من جراء الإهمال أو الحروب فأخذ الناس يشربون مياه التيبر[11] ؛ وعطلت حلبة مكسيموس Circus Maximus والكلسيوم Collosseum ذواتا الذكريات الدموية ، وأخــذت السوق العامة تعود فى القر

السابع مراعى للبقر كما بدأت ، وغطى الوحل أرض الكبتول ، وهدمت الهياكل القديمة والمبانى العامة ليؤخذ من أنقاضها ما تحتاجه الكنائس المسيحية والقصور من مواد ، وعانت رومة من أبنائها أكثر مما عانته من الوندال والقوط[١٢] ، وملاك القول أن رومة يوليوس قيصر قد ماتت ، وأن رومة ليو العاشر لم تكن قد ولدت بعد .

وتشتتت محتويات دور الكتب القديمة وتلفت ، وكادت الحياة الذهنية أن تنحصر فى الكنيسة . وهوى العلم تحت أقدام الخرافات التى تهب الفقر خيالا ورواء ؛ وظل الطب وحده يرفع رأسه عالياً تحتفظ منه الأديرة بما ورثته عن جالينوس . ولعل مدرسة طبية علمانية قد نشأت من دير للبندكتيين فى سلرنو فى القرن التاسع الميلادى ، فكانت هى التى سدت الثغرة القائمة بين طب الأقدمين وطب العصور الوسطى ، كما سدت إيطاليا الجنوبية الهلنستية الثغرة التى قامت بين ثقافة هذه العصور وثقافة اليونان : وكانت سلرنو مصحة منذ أكثر من ألف عام ؛ وقد وصفت الرواية المحلية المأثورة كلية أبقراط التى كانت بها ، فقالت إنها تتألف من عشرة معلمين أطباء منهم واحد يونانى وآخر مسلم ، وثالث يهودى[١٣] . وجاء قسطنطين « الأفريقى » وهو مواطن يونانى درس الطب فى مدارس المسلمين بأفريقية وبغداد — إلى مونتى كسينو Monte Cassino (التى أصبح فيها راهباً) ، وإلى سلرنو القريبة منها ، جاء إليهما ببضاعة عجيبة مثيرة من المعارف الطبية الإسلامية : وأسهمت تراجمه للكتب اليونانية والعربية فى الطب وغيره من الميادين فى إحياء العلم بإيطاليا ، حتى كانت مدرسة سلرنو حين وفاته حاملة لواء العلوم الطبية فى بلاد الغرب المسيحية .

وكان أهم ما أثمرته الفنون فى هذا العصر هو ابتداع الطراز الرومانسقى Romanesque فى العمارة (٧٧٤ — ١٢٠٠) . ذلك أن البنائين الإيطاليين وارثى التقاليد الرومانية فى الصلابة والبقاء زادوا سمك جدران الباسلقا ، وأنشأوا

فى الكنائس جناحاً متقاطعاً مع الصحن ، وأضافوا دعامات من أبراج أوعمد متلاصقة ؛ وأقاموا العقود التى يرتكز عليها السقف على عمد أو أكتاف متجمعة . وكان العقد الرومانسى الخالص يتكون من نصف دائرة بسيطة ، وهو شكل ذو مهابة عظيمة ، يصلح لجسر فوق فرجة أكثر مما يصلح لتحمل ثقل . وكان الدهليز فى الطراز الرومانسى الأول — والصحن والدهليز فى الطراز الرومانسى المتأخر — تعلوه عقود أى يتكون سقفه من بناء ذى أقواس . وكان البناء من الخارج خالياً فى العادة من الزخرف ومبنياً من الآجر المكشوف . وكان داخل البناء يتحاشى الزخرف الكثير الذى يميز الطراز البيزنطى وإن كان يزدان بقسط غير كبير من الفسيفساء ، والمظلمات ، والنقوش المنحوتة . وفيما عدا هذا كان الطراز الرومانسى رومانيا ، همه الثبات والمتانة لا الارتفاع القوطى والرشاقة القوطية ؛ يهدف إلى إخضاع الروح للتواضع المهدئ لها لا لرفعها إلى نشوة عليا تعصف بها .

وأخرجت إيطاليا فى هذه الفترة آيتين من روائع الفن الرومانسى : إحداهما كنيسة أمبرجيو Ambrogio المتواضعة فى ميلان ، والثانية الكتدرائية الضخمة فى بيزا . وقد أعاد الرهبان البندكتيون فى عام ٧٨٩ البناء الذى منع أمبروز أحد الأباطرة من دخول بابه ، ثم تهدم بعد ذلك مرة أخرى . ثم غير جيدو Guido كبير الأساقفة طرازه بين عامى ١٠٤٦ و ١٠٧١ تغييراً شاملا فبدله من باسلقا ذات عمد إلى كنيسة ذات عقود . وكان سقف دهليزها وصحنها قبل أيامه من الخشب ، فأقام لهما هو سقفاً معقوداً من الآجر والحجارة يرتكز على عقود مستديرة خارجة من أكتاف متراكبة . وكانت زوايا التقاطع الناشئة فى السقف المعقود من تقاطع العقود المبنية نفوسها « أضلاع » من الآجر ، وذلك أول مثل من السقف المعقود « المضلع » فى أوربا كلها .

ويخيل إلى الرائى أن واجهة كنيسة أمبرجيو تختلف كل الاختلاف عن

واجهة كتدرائية بيزا الكثيرة التعقيد ، ولكن عناصر الطراز فيهما واحدة .
وقد أقيمت هذه الكنيسة الكبرى بعد المعركة الحاسمة التى انتصر فيها
أسطول بيزا على أسطول العرب بالقرب من پالرم (١٠٦٣) ؛ إذ طلبت
المدينة إلى المهندسين بوشتو Buschetto (اليونانى ؟) ورينلدو Rinaldo
أن يخلدا ذكرى المعركة ، ويقربا بعض أسلاب النصر إلى العذراء ،
بأن يقيما معبداً تحسدها عليه إيطاليا على بكرة أبيها . وقد شيد البناء كله
تقريباً من الرخام . وأقيمت فوق المداخل الغربية أربع أكتاف لبواك
مفتوحة تقوم فى عرض الواجهة متكررة تكراراً يتجاوز الحد ؛ وجعل
لهذه المداخل فيما بعد (١٦٠٦) أبواب فخمة من البرنز . وكان فى الداخل
طائفة كبيرة من العمد الرشيقة — وهى غنائم مختلفة الأصول — تقسم
الكنيسة إلى صحن ودهاليز ؛ وتقوم فوق ملتقى جناح الكنيسة وصحنها
قبة إهليلجية غير جميلة الشكل . وكانت هذه أولى الكتدرائيات الكبرى
فى إيطاليا ، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التى أقامها الإنسان
فى العصور الوسطى .

الفصل الثانى

أسبانيا المسيحية (٧١١ — ١٠٩٥)

ليس تاريخ أسبانيا المسيحية فى هذه الفترة إلا حربا صليبية طويلة الأمد. منشأها تصميمها المتزايد على إخراج المسلمين منها . وكان هؤلاء المسلمون قوماً أغنياء أقوياء ، يمتلكون معظم الأراضى الخصبة ، وتسيطر عليهم خير الحكومات ؛ أما المسيحيون فكانوا فقراء ضعفاء ، وتربة بلادهم ضنينة ، وتفصلهم سلاسل الجبال عن سائر بلاد أوربا ، وتقسمهم إلى ممالك صغيرة ، وتشجع النعرة القومية الإقليمية ، والتطاحن بين الإخوة ، حتى لقد أريق من دماء المسيحيين على أيدى أهلها المسيحيين ذوى العواطف الثائرة أكثر مما أريق منها على أيدى المسلمين .

وكانت غارات المسلمين عليها فى عام ٧١١ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط ، والسويفى Suevi ، والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحى ، والكلت من سكان شبه الجزيرة ، دفعت هؤلاء إلى جبال الكنتبريان فى الشمال الغربى من أسبانيا وطاردهم المسلمون فى هذه الجبال ولكن قوة صغيرة بقيادة جوت بلايو Got Pelayo هزمتهم عند كفادنجا Covadonga (٧١٨) ، ومن ثم نادى ذلك القائد بنفسه ملكا على أستروورياس ، وأسس الملكية الأسبانية . واستطاع ألفنسو الأول (٧٣٩ — ٧٥٧) على أثر هزيمة المسلمين فى تور أن يمد الحدود الأستورية إلى جليقية Galicia ولوزيتانيا وبسكايا Biscaya . وضم حفيده ألفنسو الثانى (٧٩١ — ٨٤٢) ولاية ليون ، واتخذ أويدو حاضرة لمملكته .

وفى عهد هذا الملك وقعت حادثة كانت من أهم الحوادث فى تاريخ أسبانيا . ذلك أن أحد الرعاة سار بهداية نجم من النجوم — كما تقول الرواية — حتى

وجد فى الجبال تابوتاً من الرخام يعتقد الكثيرون أنه يحتوى على بقايا « الرسول يوحنا » أخى المسيح . وأقيم ضريح فى المكان الذى وجد فيه التابوت ، ثم شيدت فى مكان هذا الضريح كتدرائية فخمة فيما بعد ، وأضحى سنتياجو ده كمپستيلا Sontoagio de Compostela — « يوحنا قديس ميدان النجم » كعبة يحج إليها المسيحيون لا يفوقها فى قداستها إلا بيت المقدس ورومة ؛ وكان لهذه العظام أكبر الأثر فى إثارة الروح المعنوية عند الأسبان ، وجمع الأموال اللازمة لقتال المسلمين . وصار القديس يوحنا شفيع أسپانيا وحاميها . وأذاع اسم سنتياجو فى قارات ثلاث . وهكذا تصنع العقائد التاريخ وخاصة حين تكون هذه العقائد خاطئة ؛ والأخطاء هى التى يموت من أجلها الناس أشرف ميتة .

وإلى شرق استوريا ، وفى جنوب جبال البرانس مباشرة تقع نبرة Navarre وكان معظم أهلها من سلاسلة البشكنس ، وهم فى أغلب الظن خليط من كلت أسپانيا وبربر أفريقية . وقد أفاد هؤلاء من منعة جبالهم فنجحوا فى حماية استقلالهم من المسلمين ، والفرنجة ، والأسپان ، حتى أسس سانكو الأول جراسيا Sancaho Garacia مملكة نبرة واتخذ بمپلونا عاصمة لها . وكسب سانكو لنفسه لقب « العظيم » (٩٩٤ — ١٠٣٥) باستيلائه على ليون ، وقشتالة ، وأرغونة ؛ وأتى على أسپانيا المسيحية حين من الدهر أوشكت فيه أن تتحد ، ولكن سانكو أفسد قبيل وفاته ما عمله طول حياته بأن قسم مملكته بين أولاده الأربعة . ومن تاريخ هذا التقسيم تبدأ حياة مملكة أرغونه ؛ واستطاعت هذه المملكة أن تدفع المسلمين فى الجنوب ، وأن تضم إليها بالسلم نبرة فى الشمال (١٠٧٦) ، فلم يحل عام ١٠٩٥ حتى شملت رقعتها جزءاً كبيراً من وسط أسپانيا الشمالى . وفتح شارلمان فى عام ٧٨٨ مقاطعة قطلونيا — فى شمالى أسپانيا الشرقى حول برشلونة ؛ وظل يحكمها أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم « حددوا أسپانية » ؛ وكانت لغته القطلانية مزيجاً لطيفاً من فرنسية پروڤنسال ولغة قشتالة . وبدأت ليون الواقعة فى الشمال

الغربى تاريخها « بسانكو السمين Sancho the Fat » الذى بلغ من البدانة درجة لم يكن يستطيع معها السير إلا متكئاً على تابع له . ولما خلعه الأشراف لجأ إلى قرطبة حيث شفاه حسداى بن شبروط الطبيب اليهودى الشهير من شحمه ، ثم عاد سانكو إلى ليون يميس كما يميس دن كيشوت . واسترد عرشه (٩٥٩)[١٤] . وسميت قشتالة بهذا الاسم نسبة إلى قلعتها (كاستل Castle) . وكانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقضى حياتها تتأهب للحرب . وفى عام ٩٣٠ رفض فرسانها أن يظلوا طائعين لملوك أستورياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس Burgos عاصمة لها . وضم فرنندو الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٥) ليون وجليقية إلى قشتالة . وأرغم أميرى طليطلة وأشبيلية على أن يعطوه جزية سنوية ، ثم فعل ما فعله سانكو العظيم فأفسد جهوده بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ؛ وقد واصل هؤلاء بكل ما وهبوا من حماسة ما طبع عليه ملوك أسپانيا المسيحيون من تطاحن وحروب يقتل فيها الإخوة بعضهم بعضاً .

وأبقى الفقر الزراعى والتمزق السياسى أسپانيا المسيحيه متأخرة أشد التأخر عن منافسيها المسلمين فى الجنوب ومنافسيها الفرنجة فى الشمال فى نِعم الحضارة وفنونها . ولم تكن الوحدة حتى فى داخل كل مملكة من ممالكها الصغيرة إلا سحابة صيف لا تكاد تبدو حتى تنقشع ؛ فكان النبلاء يتجاهلون الملوك إلا فى أوقات الحرب ، ويحكمون من عندهم من رقيق الأرض والعبيد حكم سادة الإقطاع ؛ وكان رجال الكنيسة يؤلفون طبقة ثانية من الأشراف ؛ فكان الأساقفة هم أيضاً يمتلكون رقيق الأرض والعبيد ، ويتولون قيادة جندهم فى الحرب ، ويتجاهلون البابوات فى العادة ، ويحكمون المسيحيين الأسپان حكما يكاد يجعل منهم كنيسة مستقلة . واجتمع نبلاء ليون وأساقفتها عام ١٠٢٠ فى مجالس قومية وأخذوا يشرعون لمملكة ليون كما تشرع مجالس النواب . وأصدر مجلس ليون مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الذاتى ، فجعلها بذلك أول مدينة تحكم نفسها

فى أوربا أثناء العصور الوسطى وصدرت مراسيم مماثلة لهذا المرسوم تمنح غيرها من المدن الأسپانية هذا الحكم الذاتى نفسه ، وأكبر الظن أن الغرض من إصدارها هو إثارة حماستها وكسب أموالها فى الحروب القائمة مع المسلمين ، وبذلك قامت دمقراطية حضرية محدودة فى وسط النظام الإقطاعى الأسپانى ، وتحت سلطان الملـكية الأسپانية .

ويشهد تاريخ ردريجو (راى) دياز Roderigo (Rry) Diaz بما كانت عليه أسپانيا المسيحية فى القرن الحادى عشر من بسالة ، وفروسية ، وفوضى . وردريجو هذا يعرف عندنا باللقب الذى حباه به المسلمون وهو السيد أى الرجل النبيل أو الشريف أكثر مما يعرف بلقبه المسيحى وهو الكمپيدور El Campeador أى المهاجم أو البطل . وكان مولده فى بيڤار Bivar بالقرب من برغوس Burgos حوالى عام ١٠٤٠ ، ونشأ نشأة المغامرين المحاربين ، يقاتل أينما وجد سبب للقتال يدرّ المال . ولم يكد يبلغ سن الثلاثين حتى صار موضع إعجاب أهل قشتالة لمهارته وجرأته فى القتال ، وموضع ريبتهم لاستعداده أن يحارب المسلمين فى صف المسيحيين أو يحارب المسيحيين فى صف المسلمين ؛ ويبدو أن هذا وذاك كانا عنده سواء . وأرسله ألفنسو السادس ملك قشتالة ليأتى بالجزية المستحقة له من المعتمد ابن عباد الشاعر أمير أشبيلية ، ولكنه اتهم عند عودته بأنه احتفظ ببعض هذه الجزية لنفسه . فنفى من قشتالة (١٠٨١) وانضم إلى قطّاع الطرق ، ونظم جيشاً صغيراً من الجنود المغامرين ، وباع خدماته إلى من يشتريها من الحكام المسيحيين والمسلمين . فقد ظل ثمانى سنين فى خدمة أمير سرقسطة ووسّع رقعة أملاك المسلمين على حساب أرغونة . وفى عام ١٠٨٩ قاد سبعة آلاف من الرجال معظمهم من المسلمين ، واستولى على بلنسية وأرغمها على أداء جزية شهرية ، مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبى . وفى عام ١٠٩٠ قبض على كونت برشلونة ، ولم يطلقه إلا بعد أن افتدى بثمانين ألف دينار . ولما وجد بعد رجوعه من تلك

الحملة أن بلنسية قد أغلقت أبوابها دونه حاصرها عاماً كاملا ؛ فلما استسلمت له (١٠٩٤) ، نكث بكل الشروط التى ألقت بمقتضاها سلاحها ، وحرق قاضى قضاتها حياً ، ووزع أملاك سكانها على أتباعه ، وكاد يحرق زوجة قاضى القضاة وبناته لولا احتجاج أهل المدينة وجنوده على هذا العمل[١٥] . وكان السيد حين يقدم على هذه الأعمال وأمثالها إنما يسلك السبيل التى يسلكها أبناء زمانه ، ولكنه كفّر عن سيئاته بأن حكم بلنسية حكماً حازماً عادلا ، وجعلها حصناً منيعاً فى وجه جيوش المرابطين المسلمين . وحكمت زوجته يمينة jimena (١٠٩٩) المدينة بعد موته ثلاث سنين . وقد أحاله أعقابه المعجبون به ، بما حاكوه حوله من أقاصيص ، فارساً لا تحركه إلا رغبة مقدسة فى إعادة أسبانيا إلى المسيح . ويعظم الناس رفاته فى برغوس تعظيمهم للقديسين[١٦] .

ولم تستطع أسبانيا المسيحية ، وهى على هذه الحال من الانقسام ، أن تسترد البلاد من المسلمين إلا لأن أسبانيا الإسلامية قد فاقتها آخر الأمر فى التمزق والفوضى ؛ وكان سقوط خلافة قرطبة عام ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها ألفنسو السادس ملك قشتالة (الأذفنش) ، فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية (١٠٨٥) واتخذها عاصمة لملكه وعامل المسلمين المغلوبين بما جبل عليه المسلمون من كرم ، وشجع انتشار الثقافة الإسلامية فى أسبانيا المسيحية . .

الفصل الثالث

فرنسا (٦١٤ — ١٠٦٠)

مجيء الكارولنجيين : ٦١٤ ، ٧٦٨

لما جلس كلوتير Clotaire الثانى على عرش الفرنجة لاح أن مركز الأسرة المروفنجية وطيد ؛ ذلك أنه لم يحكم ملك قبله من ملوك هذه الأسرة دولة تضارع دولته فى الاتساع والوحدة ؛ ولكن كلوتير كان مديناً بقوته إلى أشراف أستراسيا وبرغندية ؛ وقد كافأهم على تأييدهم له بأن زاد من استقلالهم ووسع أملاكهم ، وبأن اختار واحداً منهم هو بيبين Pepin الأول الأكبر ليكون « ناظراً للقصر » . وكان ناظر القصر فى بادئ الأمر هو المشرف على القصر الملكي وناظراً على المزارع الملكية ؛ وزادت مهام منصبه حين عكف الملوك المروفنجيون على الدعارة والدسائس ؛ وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شئون المحاكم ، والجيش ، والمال . وحدّ الملك داجوبرت Dagobert (٦٢٨ — ٦٣٩) ابن كلوتير من سلطان ناظر القصر والأشراف وقتاما « فوزع العدالة بين الأغنياء والفقراء على السواء » كما يقول فرديجار Fredegart الإخبارى ، « وكان قليل النوم والطعام ، ولم يكن همه إلا أن يخرج الناس من مجلسه ممتلئة قلوبهم غبطة وإعجاباً[١٧] » . غير أن فرديجار يضيف إلى ذلك قوله : « وكانت له ثلاث ملكات وعدد كبير من الحظايا » كما كان « عبداً لشهواته[١٨] » . وعادت السلطة فى عهد خلفائه — الملوك الذين لا يفعلون شيئاً — إلى ناظر القصر . وهزم بيبين الثانى الأصغر منافسيه فى واقعة تسترى Testry (٦٨٧) ، واستبدل بلقب « ناظر القصر » لقب دوق الفرنجة وكبيرهم ، وحكم غالة جميعها ما عدا أكتين

Aquitaine . وحكم شارل مارتل Charles Martel (المطرقة) ، الذى كان بالاسم ناظراً للقصر ودوق أستراسيا ، غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع (٧١٧ — ٧١٩) . وهو الذى صد بعزيمته غارات الغاليين مستعيناً بالفريزيين والسكسون ، وهو الذى صد المسلمين عند تور وردهم عن أوربا . وأعان بنيفاس Boniface وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا ، ولكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضى الكنيسة ، وباع مناصب الأساقفة لقواد الجيش ، وأسكن جيوشه فى الأديرة . وقطع عنق راهب بروتستنتى[١٩] ، وحُكِم عليه فى مائة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم .

وأرسل ابنه پيپين الثالث ناظر قصر كلدريك الثالث بعثة إلى البابا زخرياس يسأله هل يأثم إذا خلع الإمعة المروفنجى وأصبح هو ملكاً بالاسم كما هو ملك بالفعل . وكان زخرياس وقتئذ فى حاجة إلى تأييد الفرنجة ضد مطامع اللمبارد فبعث إليه بجواب مطمئن يقول فيه إنه لا يأثم . فلما تلقى پيپين الرد عقد جمعية من الأشراف والمطارنة فى سواسون Soissons اختير فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة (٧٥١) ، ثم قص شعر آخر الملوك المروفنجيين البلداء وأرسله إلى دير . وجاء البابا استيفن الثانى فى عام ٧٥٤ إلى دير القديس دنيس St, Denis فى أرباض باريس ، ومسح پيپين « ملكاً بنعمة الله » . وهكذا انتهت الأسرة المروفنجية (٤٨٦ — ٧٥١) وبدأت الأسرة الكارولنجية (٧٥١ — ٩٨٧) .

وكان پيپين الثالث « القصير » حاكماً صبوراً بعيد النظر ، تقياً ، عملياً ، محبا للسلم ، لا يغلب فى الحرب ، متمسكاً بالأخلاق الفاضلة إلى حد لم يسبقه إليه ملك آخر فى غالة فى تلك القرون . وكان پيپين هو الذى مهد لشارلمان سبيل كل ما أتاه من جليل الأعمال ؛ وفى خلال حكمهما الذى دام ثلاثا وستين سنة (٧٥١ — ٨١٤) تحولت بلدهما نهائياً من غالة إلى فرنسا . وأدرك پيپين ما فى الحكم بغير معونة الدين من صعاب ، فأعاد إلى الكنيسة أملاكها ، وامتيازاتها

وحصانتها ، وجاء إلى فرنسا بالمخلفات المقدسة ، وحملها على كتفيه فى موكب فخم ؛ وأنقذ البابوية من الملوك اللمبارد ، ومنحها سلطات زمنية واسعة فى عهده المعروف باسم « عطية پيپين » (٧٥٦) ، وقنع بأن ينال فى نظير هذا لقب « النبيل الرومانى » وتحذيراً من البابا للفرنجة بألا يختاروا ملكاً إلا من سلالته . وتوفى پيپين فى عنفوان قوّته عام ٧٦٨ بعد أن أوصى بمملكة الفرنجة لولديه كارلومان Carloman الثانى وشارل الذى أصبح فيما بعد شارلمان على أن يحكماها معاً .

٣ — شارلمان : ٧٦٨ — ٨١٤

ولد أعظم ملوك العصور الوسطى عام ٧٤٢ فى مكان غير معروف . وكان يجرى فى عروقه الدم الألمانى وينطق باللسان الألمانى ، ويشترك مع قومه فى بعض الصفات — قوة الجسم ، والبسالة ورباطة الجأش ، والافتخار بالأصل ، والبساطة الخشنة التى تفصلها مئات السنين عن رقة الفرنسيين الحضرية المصقولة . وكان قليل العلم بالكتب وما فيها ، لم يقرأ منها إلا عدداً قليلا ، لكن ما قرأه منها كان من خيارها ، وحاول فى شيخوخته أن يتعلم الكتابة ولكنه لم يفلح فى ذلك كل الفلاح ، غير أنه مع هذا كان يستطيع التحدث باللغة التيوتونية القديمة واللاتينية الأدبية ، وكان يفهم اللغة اليونانية(٢٠) .

ولما مات كارلون الثانى فى عام ٧٧١ انفرد شارل بالحكم وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . وبعد سنتين من انفراده به بعث إليه البابا هدريان الثانى بدعوة عاجلة ليساعده على دسديريوس Desiderius اللمباردى الذى كان وقتئذ يغزو الولايات البابوية . ولبى شارلمان الدعوة وحاصر پاڤيا واستولى عليها ، ولبس تاج لمباردى ، وأيد عطية پيپين ، وارتضى أن يكون حامى الكنيسة فى جميع سلطاتها الزمنية . ولما عاد إلى عاصمته فى آخن بدأ سلسلة من الحروب عدتها ثلاث وخمسون — قادها كلها تقريباً بنفسه — يهدف بها إلى تأمين

دولته بفتح باڤاريا وسكسونية وجعلهما مسيحيتين ، والقضاء على الآڤار المشاغبين المتعبين ، وحماية إيطاليا من غارات المسلمين ، وتقوية حصون فرنسا حتى تستطيع الوقوف فى وجه مسلمى أسپانيا الذين يبغون بسط سلطانهم عليها . وكان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلاده وثنيين ، أحرقوا كنيسة مسيحية وأغاروا مراراً على غالة ؛ وكانت هذه الأسباب كافية فى رأى شارلمان لأن يوجه إليهم ثمانى عشرة حملة (٧٧٢ — ٨٠٤) ، قاتل فيها الطرفان بمنتهى الوحشيه . فلما هزم السكسون خيرهم شارلمان بين التعميد والموت وأمر بضرب رقاب ٤٥٠٠ منهم فى يوم واحد[٢١] ، وسار بعد فعلته هذه إلى ثيونڤيل ليحتفل بميلاد المسيح .

وبينا كان شارلمان فى پادر بورن Paderborn إذ استغاث به ابن العربى حاكم برشلونة المسلم فى عام ٧٧٧ لينصره على خليفة قرطبة . فما كان منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرانس ، وحاصر مدينة بمپلونا المسيحية ، وعامل البشكنس مسيحيي أسپانيا الشمالية الذين لا يحصى عديدهم معاملة الأعداء ، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها . غير أن الفتن الإسلامية التى وعد ابن العربى بإثارتها على الخليفة والتى كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر ، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة ، وترامى إليه أن السكسون ثائرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولونى Cologce ؛ فرأى من حسن السياسية أن يعود بجيشه إلى بلاده ، واخترق بهم فى صف طويل رفيع ممرات جبال البرانس . وبينا كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسڤال Roncesvalles من أعمال نبرة إذ انقضت على مؤخرة الفرنجة قوة من البشكنس ، ولم تكد تبقى على أحد منها (٧٧٨) ؛ وهناك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذى أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الذائعة الصيت *أغنية رولان* Chançon de Roland . وسير شارلمان فى عام ٧٩٥ جيشاً آخر عبر جبال البرانس ، واستولى به على شريط ضيق فى شمالى أسپانيا

الشرق وضمه إلى فرنسيا Francia . واستسلمت له برشلونة ، وأقرت أستراسيا ونبرة بسيادة الفرنجة عليهما (٨٠٦) . وكان شارلمان فى هذه الأثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (٧٨٥) ، وصد الصقالبة الزاحفين على بلاده (٧٨٩) ، وهزم الآفار وشتت شملهم (٧٩٠ — ٨٠٥) ، ثم أخلد فى السنة الرابعة والثلاثين من حكمه والثالثة والستين من عمره إلى السلام .

والحق أنه كان على الدوام يحب شئون الإدارة والحكم أكثر مما يحب الحرب ، ولم ينزل إلى ميدان القتال إلا ليفرض على أوربا الغربية ، التى مزقتها منذ قرون طوال منازعات القبائل والعقائد ، شيئاً من وحدة الحكم والعقيدة .

وكان فى أثناء هذا الحكم قد أخضع لسلطانه جميع الشعوب الضاربة بين نهر الفستيولا Vistula والمحيط الأطلنطى ، وبين البحر البلطى وجبال البرانس ، وإيطاليا كلها تقريباً ، والجزء الأكبر من بلاد البلقان . ترى كيف استطاع رجل واحد أن يحكم هذه المملكة المتباينة المترامية الأطراف ؟ الجواب أنه قد وهب من قوة الجسم والأعصاب ما يستطيع به أن يأخذ على عاتقه مئات التبعات ، والأخطار ، والأزمات ، وأن يتحمل ما هو أصعب على النفس من هذا كله وهو ائتمار أبنائه به ليقتلوه . وكان فى دمائه دم أو تعاليم پيپين الثالث الحذر الحكيم ، وشارل مارتل الذى لا يرحم ولا يلين ، وكان هو نفسه إلى حد ما مطرقة مثل مارتل . وقد وسع أملاكهما وحافظ عليها بما وضعه لها من نظام عسكرى قوى الدعائم ، وسندها بما أفاء عليها من ظل الدين وشعائره . وكان فى وسعه أن يضع لنفسه الأهداف الكبار ، وأن يهيئ الوسائل ويبتغى الغايات . وكان فى مقدوره أن يقود الجيوش ، ويقنع الجمعيات ، ويشرح صدور الأعيان ، ويسيطر على رجال الدين ، ويكبح جماح الحريم .

وقد جعل الخدمة العسكرية شرطاً لامتلاك أكثر من الكفاف من الأملاك ، وبهذا أقام الروح العسكرية المعنوية على أساس الدفاع عن الأرض

وتوسيع رقعتها ، وأوجب على كل حر إذا دُعى لحمل السلاح أن يمثل كامل العدة أمام الكونت المحلى ، وكان كل عامل نبيل مسئولا أمامه عن كفاية وحداته . وكان بناء الدولة يقوم على هذه القوة المنظمة يؤيدها كل عامل نفسانى تخلعه عليها قداسة صاحب الجلالة الذى باركه رجال الدين ، وفخامة الاحتفالات الإمبراطورية ، والطاعة التقليدية للحكم القائم الموطد الدعائم . وكانت تجتمع حول الملك حاشية من النبلاء الإداريين ورجال الدين — رئيس خدم البيت ، وقاضى القضاة وقضاة حاشية القصر ، ومائة من العلماء ، والخدم ، والكتبة . وكان مما قوى إحساس الشعب باشتراكه فى الحكم ما كان يعقده كل نصف عام من اجتماعات يحضرها الملاك المسلحون ، يجتمعون كلما تطلبت اجتماعهم الشئون الحربية أو غيرها فى مدن ورمز ، وڤلنسين ، وآخن ، وچنيڤ ، وپادربورن . . . وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة فى الهواء الطلق . وكان الملك يعرض على جماعات قليلة من الأعيان أو الأساقفة ما عنده من الاقتراحات التشريعية ؛ فكانت تبحثها وتعيدها إليه مشفوعة باقتراحاتها ثم يضع هو القوانين ويعرضها على المجتمعين ليوافقوا عليها بصياحهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحوال النادرة أن ترفضها الجمعية بالأنين أو القباع الجماعى . وقد نقل إلينا هنكمار Hincmar كبير أساقفة ريمس صورة دقيقة لشارلمان فى أحد هذه الاجتماعات ، فقال إنه كان « يسلم على أكابر الحاضرين ، ويتحدث إلى من لم يكن يراهم إلا قليلا ، ويظهر اهتماما ظريفا بالكبار ، ويلهو مع الصغار » . وكان يطلب إلى أسقف كل إقليم ورئيسه الإدارى أن يبلغ الملك فى هذه الاجتماعات عن كل حادثة هامة وقعت فى إقليمه منذ الاجتماع السابق ، ويضيف هنكمار إلى أقواله السابقة أن « الملك كان يرغب فى أن يعرف هل الأهلون فى أى ركن من أركان مملكته قلقون مستاءون ، وما سبب قلقهم واستيائهم »[٢٢] . وكان عمال الملك يواصلون نظام الاستعلامات الرومانية القديمة فيستدعون إليهم كبار المواطنين ويطلبون إليهم أن « يعطوا بيانات صحيحة »

معززة بالأيمان عما فى الإقليم الذى يزورونه من أملاك تفرض عليها الضرائب ، وعن حالة النظام فى هذا الإقليم وعما يقع فيه من الجرائم أو من فيه من المجرمين . وكانت شهادة جماعة الباحثين الذين يقسمون الأيمان تستخدم فى أرض الفرنجة فى القرن العاشر للفصل فى كثير من المشاكل المحلية الخاصة بالأملاك العقارية أو الجرائم . وقد نشأ من هذه الجماعات ، بعد تطورها على يد النورمان والإنجليز ، نظام المحلفين القائم فى هذه الأيام .

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة فى الشئون الروحية أسقف أو كبير أساقفة ، وفى الشئون الدنيوية قومس Comes (رفيق للملك) أو كونت . وكانت جمعية محلية من الملاك تجتمع مرتين أو ثلاث مرات كل سنة فى عاصمة كل مقاطعة لتبدى رأيها فى حكومة الإقليم وتكون بمثابة محكمة استئناف فيه . وكان للمقاطعات الواقعة على الحدود المعرضة للخطر حكام من طراز خاص يسمونهم جراف graf أو مار جريف margravc ، أو مرخرزوج Markherzog ، فكان رولان المرسستفالى Roland of Marcesvalics مثلا حاكم مقاطعة برتن Breton . وكانت كل الإدارات المحلية خاضعة لسلطان « مبعوثى السيد » missi dominici — الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين ، ويطلعون على أعمالهم ، وأحكامهم ، وحساباتهم ، ويمنعون الرشا ، والاغتصاب ، والمحاباة ، واستغلال النفوذ ، ويتلقون الشكاوى ، ويردون المظالم ، ويحمون « الكنيسة ، والفقراء ، والذين تحت الوصاية ، والشعب أجمع » من سوء استعمال السلطة أو الاستبداد ، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته . وكان العهد الذى عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن يوضع العهد الأعظم Magna Carta لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون . ومما يدل على أن هذا العهد كان يقصد به ما جاء فيه ما حدث لدوق إستريا Istria ، إذ اتهمه المبعوثون بارتكاب عدة مظالم ، واغتصاب الأموال ، فأرغمه

الملك على أن يرد ما اختلسه ، وأن يعوض كل مظلوم عما وقع عليه من ظلم ، ويعترف علناً بجرائمه ، ويقدم الضمانات التى تمنعه من تكرارها . وإذا ما غضضنا النظر عن حروب شارلمان كان هو أعدل الحكام الذين عرفتهم أوربا منذ عهد ثيودريك القوطى وأكثرهم استنارة .

وتعد القوانين الستة والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة فى العصور الوسطى . فهى لا تكون مجموعة منتظمة ، بل هى توسيع للقوانين « الهمجية » الأقدم منها عهداً وتطبيقها على الظروف والمطالب الجديدة . ولقد كانت فى بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليوتبراند اللمباردى : فقد أبقت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى ، والتحكيم الإلهى ، والمحاكمة بالاقتتال ، والعقاب ببتر الأعضاء[٢٤] ، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية ، أو من يأكل اللحم فى أيام الصوم الكبير — وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة[٢٥] . ولم تكن هذه كلها قوانين ، بل منها ما كان فتاوى ، ومنها ما كان أسئلة موجهة من شارلمان إلى موظفيه ، ومنها ما هو نصائح أخلاقية . وقد جاء فى إحدى المواد : « يجب على كل إنسان أن يعمل بكل ما لديه من قوة وكفاية لخدمة الله واتباع أوامره ، لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يراقب كل إنسان فى أخلاقه الخاصة »[٢٦] . وحاولت بعض المواد أن تقيم العلاقات الجنسية والزوجية بين أفراد الشعب على قواعد أكثر نظاماً مما كانت قبل ، على أن الناس لم يطيعوا هذه النصائح كلها ؛ ولكن القوانين والنصائح فى مجموعها تنم عن جهود صادقة لتحويل الهمجية إلى حضارة .

وشرع شارلمان للزراعة ، والصناعة ، والشئون المالية ، والتعليم ، والدين ، كما شرع لشئون الحكم والأخلاق . وكان حكمه فى فترة انحطت فيها الحالة الاقتصادية جنوبى فرنسا وإيطاليا إلى الحضيض من جراء سيطرة المسلمين على

البحر المتوسط . وفى هذا يقول ابن خلدون إن المسيحيين لم يكن فى وسعهم أن يسيروا لوحا فوق البحر[٢٧] ، وكانت العلاقات التجارية بأجمعها بين غربى أوربا وأفريقية وشرق البحر المتوسط غاية فى الاضطراب . وكان اليهود وحدهم هم الذين يربطون النصفين المتعادبين من البلاد التى كانت أيام حكم رومة عالما اقتصاديا موحدا . وبقيت التجارة قائمة فى أوربا الخاضعة لحكم الصقالبة وبيزنطية ، وفى شمالها التيوتونى . كذلك كانت القناة الإنجليزية وكان بحر الشمال يموجان بالمتاجر ، ولكن هذه التجارة الأخيرة أيضاً اضطربت أحوالها قبل موت شارلمان ، وقد أوقعها فى هذا الاضطراب غارات أهل الشمال وقرصنتهم .

وكاد أهل الشمال يغلقون ثغور فرنسا الشمالية ، والمسلمون يغلقون ثغورها الجنوبية ، حتى أضحت لهذا السبب جزيرة منفصلة عن العالم ، وبلداً زراعياً ، واضمحلت فيها طبقة التجار الوسطى ، فلم تبق هناك طبقة تنافس كبار الملاك فى الريف ؛ وكان مما ساعد على قيام نظام الاقطاع فى فرنسا هبات شارلمان للأراضى وانتصار الإسلام .

وبذل شارلمان جهوداً جبارة لحماية الفلاحين الأحرار من نظام رقيق الأرض الآخذ فى الانتشار . ولكن قوة الأشراف والظروف القاهرة المحيطة به أحبطت جهوده . وحتى الاسترقاق نفسه اتسع نطاقه وقتاً ما نتيجة لحروب الكارولنجيين ضد القبائل الوثنية . وكانت أهم موارد الملك مزارعه الخاصة التى كانت مساحتها تتسع من حين إلى حين نتيجة المصادرة ، والهبات ، وعودة بعض الأراضى إلى الملك ممن يموتون بغير ورثة ، واستصلاح الأراضى البور . وقد أصدر للعناية بهذه الأراضى قانوناً زاعيا مفصلا أعظم تفصيل يشهد بعنايته التامة فى بحث جميع موارد الدولة ومصروفاتها . وكانت الغابات والأراضى البور ، والطرق العامة ، والموانى وجميع ما فى الأرض من معادن ملكا للدولة[٢٨] . وشجع ما بقى فى البلاد من تجارة بكافة السبل ؛ فبسطت الدولة حمايتها على الأسواق ، ووضع

نظام دقيق للموازين والمقاييس والأثمان ، وخُفِّفت المكوس . ومُنعت المضاربات على المحاصيل قبل حصادها ، وأُنشئت الطرق والجسور أو أُصلحت ، وأنشئ جسر عظيم على نهر الرين عند مينز ، وطهرت المسالك المائية لتبقى مفتوحة على الدوام ، واختطت قناة تصل الرين بالدانوب حتى يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود . وحافظت الدولة على ثبات النقد ، ولكن قلة الذهب فى فرنسا واضمحلال التجارة أدّيا إلى استبدال الجنيه الفضى بجنيه شارلمان المعروف باسم السوليدس Solidus .

وامتدت جهود الملك وعنايته إلى كل ناحية من نواحى الحياة ، فأسمى الرياح الأربع بأسمائها التى تعرف بها الآن ؛ ووضع نظاماً لإعانة الفقراء ، وفرض على النبلاء ورجال الدين ما يلزمه من المال لهذا المشروع ، ثم حرم التسول وجعله جريمة يعاقب عليها القانون[٢٩] . وهاله انتشار الأمية فى أيامه حين لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة غير رجال الدين ، كما هاله انعدام التعليم بين الطبقات الدنيا من هذه الطائفة ، فاستدعى علماء من الأجانب لإعادة مدارس فرنسا إلى سابق عهدها ؛ فأغرى بولس الشماس على أن يأتى إليه من منتى كسينو ، وألكوين من يورك (٧٨٢) ، ليعلما فى المدرسة التى أنشأها شارلمان فى القصر الملكى بآخن . وكان ألكوين هذا (٧٣٥ — ٨٠٤) رجلا سكسونياً ، ولد بالقرب من مدينة يورك ، وتعلم فى مدرسة الكتدرائية وهى المدرسة التى أنشأها الأسقف إجبرت فى تلك المدينة ؛ وقد كانت بريطانيا وأيرلندة فى القرن الثامن متقدمتين من الناحية الثقافية عن فرنسا . ولما بعث أفا Offa ملك مرسية Mercia ألكوين فى بعثة إلى شارلمان ألح شارلمان على ألكوين أن يبقى عنده ، وسر ألكوين أن يخرج من إنجلترا حين كان « الدنمرقيون يتلفون أرضها ، ويدنسون الأديرة بما يرتكبونه فيها من الزنى »[٣٠] ، فآثر البقاء ؛ وبعث إلى إنجلترا وغيرها من البلاد فى طلب الكتب والمعلمين ، وسرعان ما أضحت مدرسة القصر مركزاً نشيطاً من

مراكز الدرس ، ومراجعة المخطوطات ونسخها ، كما أضحت مركزاً لإصلاح نظم التربية إصلاحاً عم جميع المملكة . وكان من بين طلابها شارلمان نفسه ، وزوجته ليوتجارد Liutgard ، وأولاده وابنته جزيلا Gisela ، وأمين سره اجنهارد Eginhard ، وإحدى الراهبات ، وكثيرون غيرهم . وكان أكثرهم شغفاً بالتعليم ؛ فكان يحرص على العلم حرصه على تملك البلاد ؛ يدرس البلاغة وعلوم الكلام ، والهيئة ؛ ويقول اجنهارد إنه بذل جهوداً جبارة ليتعلم الكتابة « وكان من عادته أن يحتفظ بالألواح تحت وسادته . حتى يستطيع فى أوقات فراغه أن يمرن يده على رسم الحروف ؛ ولكن جهوده هذه لم تلق إلا قليلا من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود فى آخر سنى حياته »[٣١] . ودرس اللاتينية بنهم شديد ، ولكنه ظل يتحدث بالألمانية مع أفراد حاشيته ؛ وقد وضع كتاباً فى نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج من الشعر الألمانى القديم .

ولما ألح ألكوين على شارلمان ، بعد أن قضى فى مدرسة القصر ثمانى سنين ، أن ينقله إلى بيئة أكثر منها هدوءاً ، عينه الملك على كره منه رئيساً لدير تور (٧٩٦) ؛ وهناك حشد ألكوين الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة والإنجيل التى قام بها چيروم أحد آباء الكنيسة اللاتين ، ومن الكتب اللاتينية القديمة ، بحيث تكون أكثر دقة من النسخ المتداولة وقتئذ . وحذت الأديرة الأخرى حذو هذا الدير . وبفضل هذه الجهود كانت كثير من أحسن ما وصل إلينا من النصوص القديمة من مخطوطات هذه الأديرة فى القرن التاسع الميلادى ؛ وقد احتفظ لنا رهبان العصر الكارولنچى بما لدينا من الشعر اللاتينى كله تقريباً عدا شعر كاتلس Catullus ، وتيبلس Tibullus ، وبروپرتيوس Propertius ، وبما لدينا من النثر اللاتينى كله تقريباً ما عدا كتابات ڤارو Varro ، وتاستس Tacitus ، وأپوليوس Apuleius[٣٢] . وكانت كثير من المخطوطات الكارولنچية جميلة الزخرفة يزينها فن الرهبان وصبرهم الطويل ؛

وكان من آثار هذه الكتب المزخرفة التى أخرجتها مدرسة القصر أناجيل « ڤينا » التى كان أباطرة ألمانيا المتأخرون يقسمون عليها أيمان تتويجهم .

وأصدر شارلمان فى عام ٧٨٧ إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها « توجيهات لدراسة الآداب » ، يلوم فيها رجال الدين على ما يستخدمونه من « اللغة الفظة » و « الألسنة غير المهذبة » ويحث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغير رجال الدين على السواء القراءة والكتابة . ثم أصدر توجيهات أخرى فى عام ٧٨٩ يدعو فيها مديرى هذه المدارس أن « يحرصوا على ألا يفرقوا بين أبناء رقيق الأرض وأبناء الأحرار ، حتى يمكنهم أن يأتوا ويجلسوا على المقاعد نفسها ليدرسوا النحو ، والموسيقى ، والحساب » . وفى عام ٨٠٥ صدرت تعليمات أخرى تهيئ لهذه المدارس تعليم الطب ، وتعليمات غيرها تندد بالخرافات الطبية . ومما يدلنا على أن أوامره لم تذهب أدراج الرياح كثرة ما أنشئ فى فرنسا وألمانيا الغربية من مدارس فى الكنائس والأديرة ؛ فلقد أنشأ ثيودلف Theodulf أسقف أورليان مدارس فى كل أبرشية من أسقفيته ، رحب فيها بجميع الأطفال على السواء ، وحرم على القساوسة الذين يتولون التدريس أن يتناولوا أجوراً [٣٣] ، وذلك أول مثل للتعليم العام المجانى فى التاريخ كله . ونشأت مدارس هامة ، متصلة كلها تقريبا بالأديرة ، فى خلال القرن التاسع فى تور ، وأوكسير Auxer ، وباڤيا ، وسانت جول ، St. Gall ، وفلدا Fulda ، وغنت Ghent وغيرها من المدن . وأراد شارلمان أن يوفر حاجة هذه المدارس إلى المعلمين ، فاستقدم العلماء من أيرلندة ، وبريطانيا ، وإيطاليا . ومن هذه المدارس نشأت فى المستقبل الجامعات الأوربية .

على أننا يجب ألا نغالى فى تقدير القيمة العقلية لذلك العهد . فلقد كان هذا البعث المدرسى أشبه بيقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافى الذى كان قائماً وقتئذ فى القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، فلم يثمر هذا البعث كتاباً كباراً من

أي نوع كان . وكتابات ألكوين الشكلية مملة ، مقبضة ، خانقة ؛ وليس فيها ما ينفى عنه تهمة التحذلق والتباهى بالعلم ، وتدل على أنه إنسان لطيف يستطيع أن يوفق بين السعادة والتقى ؛ وليس فيها ما يدل على هذا وينفى ذاك إلا بعض رسائله وأبيات من شعره . ولقد أنشأ كثير من الناس أشعاراً فى أثناء هذه النهضة العلمية القصيرة الأجل ، منها قصائد ثيودلف التى فيها قدر كاف من الجمال على طريقتها الضعيفة الخاصة بها . غير أن الأثر الأدبى الخالد الوحيد الذى خلفه ذلك العهد هو الترجمة المختصرة البسيطة لشارلمان التى كتبها اجنهارد . وهى تحذو حذو كتاب سوتنيوس Seutonius حياة القياصرة Lives of the Caesars ، بل إن الكتاب الأول ليقتطف بعض فقرات من الثانى يصف بها شارلمان . على أننا يجب أن نغفر كل شيء للمؤلف الذى يصف نفسه فى تواضع جم بأنه « همجى ، لا يعرف إلا قليلا من لسان الرومان »[٣٤] ، وما من شك رغم هذا الاعتراف فى أنه رجل عظيم المواهب ، لأن شارلمان عينه أستاذاً لقصره ، وخازناً لبيت ماله ، واتخذه صديقاً مقرباً له ، واختاره ليشرف على كثير من العمائر فى حكمه الإنسانى العظيم ، ولعله قد اختاره لتخطيطها .

وشيدت قصـــور للإمبراطور فى أنجلهيم Ingelheim ونجمجين Nijmegen ، وأقام فى آخن عاصمته المحببة القصر والكنيسة الصغيرة الذائعى الصيت اللذين تعرضا لأكثر من ألف من الأخطار وظلا قائمين حتى دمرتهما قنابل الحرب العالمية الثانية . وقد أقام المهندسون المجهولون تلك الكنيسة على نمط كنيسة سان ڤيتال San Vitale براڤنا وهى التى أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية والسورية ؛ فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية جانحة فى الغرب . وقد أقيمت فوق البناء المثمن قبة مستديرة ، وقسم البناء من الداخل عدة أقسام بطابقين من عمد مستديرة « وزينت بمصابيح من الذهب والفضة ، وحظار ، وأبواب من البرنز المصمت ، وأعمدة وبوارق جيء بها من رومة ورافنا »[٣٥] ، وبنقش فسيفسائى ذائع الصيت فى القبة .

وكان شارلمان سخيا غاية السخاء على الكنيسة ، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها ، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم . وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين ، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس ؛ وإن ما فى أقواله من القوة لينفى عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية . فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين فى البلاد الأجنبية ، وكان يصر فى مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة فى معاملة رعاياهم المسيحيين(٣٦) . وكان للأساقفة شأن كبير فى مجالسه ، وجمعياته ، ونظامه الإدارى ، ولكنه كان ينظر إليهم ، رغم احترامه الشديد لهم ، على أنهم عماله بأمر الله ، ولم يكن يتردد فى أن يصدر أوامره لهم ، حتى فى المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق . ولقد ندد بعبادة الصور والتماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها ، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد فى أبرشيته ، ولم تكن توجيهاته للبابوات أقل من هداياه لهم ، وقضى على ما يحدث فى الأديرة من تمرد ، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء ليمنع « الدعارة ، والسكر ، والشره » بين الراهبات . سأل القساوسة فى أمر وجهه لهم عام ٨١١ عما يقصدون بقولهم إنهم ينبذون العالم على حين « أننا نرى » بعضهم يكدحون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل ، ليزيدوا أملاكهم ، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة ، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدى لهذه الأغراض نفسها ، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين ، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورثتهم الشرعيين » . على أنه رغم هذا قد أبقى لرجال الدين محاكمهم الخاصة ، وأمر بأن يؤدى إلى الكنيسة عشر غلة الأرض ، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج ، والوصايا ، وأوصى هو نفسه بثلثى ضياعه لأسقفيات

مملكته(٣٧) ، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا « هبات » قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة .

وقد أثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة فكرة من أجَلّ الأفكار فى تاريخ الحكم : ألا وهى استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى تستند إلى كل ما كان لروما الإمبراطورية والبابوية من هيبة ، وقداسة ، واستقرار . ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التى لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً ، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيع حريتهم هم أيضاً . ولسنا نعرف من الذى لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا أو منذا الذى وضع خطة هذا التتويج ، وكل ما نعرفه أن ألكوين ، وثيودلف وغيرهما من الملتفين حوله قد تناقشوا فى إمكانه ، ولعلهم هم الذين خطوا فيه الخطوة الأولى ، أو لعل مستشارى البابا هم الذين فكروا فى هذا الأمر . وقامت فى سبيل تنفيذه صعاب شديدة : فقد كان إمبراطور الروم يلقب وقتئذ بلقب الإمبراطور الرومانى ، وكان أحق الناس من الوجهة التاريخية بذلك اللقب ، ولم يكن للكنيسة حق معترف به فى حمل الألقاب أو نقلها من شخص إلى آخر ، ولربما كان منح اللقب لشخص منافس لبيزنطية سبباً فى إشعال نار حرب عاجلة عوان بين المسيحيين فى الشرق وإخوانهم فى الغرب ، حرب تترك أوربا الخربة غنيمة سهلة للفتوح الإسلامية . غير أن الأمر قد يسره بعض التيسير أن إيرينى جلست على عرش أباطرة الروم (٧٩٧) ؛ فقد قال البعض وقتئذ إنه لم يعد هناك إمبراطور روما ، وإن الباب أصبح مفتوحاً لكل من يطالب باللقب ، فإذا ما نفذت هذه الخطة الجريئة قام مرة أخرى إمبراطور رومانى فى الغرب ، تقوى به المسيحية اللاتينية وتتوحد ، فتستطيع مقاومة انشقاق بيزنطية وتهديد المسلمين ، ولعل ما فى اللقب الإمبراطورى من رهبة وسحر يمكن

أوربا الهمجية من أن تعود أدراجها خلال القرون المظلمة وترث حضارة العالم القديم وثقافته وتنشر المسيحية فى ربوعه .

وحدث فى السادس والعشرين من ديسمبر عام ٧٩٥ أن اختير ليو الثالث بابا ؛ ولم يكن شعب رومة يحبه ، وكان يتهمه بعدة فعال خبيثة ، ثم هاجمه العامة فى الخامس والعشرين من إبريل عام ٧٩٩ ، وأساءوا معاملته ، وسجنوه فى دير . لكنه هرب من سجنه ، وفر إلى شارلمان فى پادربورن وطلب إليه أن يحميه . وأحسن الملك استقباله ، وأعاده إلى رومة مع حرس "مسلح"، وأمر البابا ومتهميه أن يمثلوا أمامه فى تلك المدينة فى العام المقبل . ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ٨٠٠ ، واجتمعت فى أول ديسمبر جمعية من الفرنجة والرومان ، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها . وأقسم ليو اليمين وتهيأت السبيل إلى إقامة احتفال فخم بعيد الميلاد . فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين ، وهما اللباس الذى كان يرتديه كبراء الرومان ، ثم أخرج ليو على حين غفلة تاجاً مطعماً بالجواهر ووضعه على رأس الملك . ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجبه عليهم الشعائر القديمة التى يقوم بها كبراء الشعب الرومانى لتأييد هذا التتويج ، فنادوا ثلاث مرات : « ليحيى شارل الأفخم ، الذى توّجه الله إمبراطوراً عظيماً للرومان لينشر بينهم السلام ! » . ومسح رأس الملك بالزيت المقدس ، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبراطوراً وأغسطس ، وتقدم إليه بمراسم الولاء التى ظلت محتفظاً بها للإمبراطور الشرقى منذ عام ٤٧٦ .

وإذا جاز لنا أن نصدق اجنهارد ، فإن شارلمان قد قال له إنه ما كان ليدخل الكنيسة لو أنه عرف أن ليو ينوى تتويجه إمبراطوراً . ولربما كان قد عرف الخطة بوجه عام ، ولكنه لم يرض عن السرعة التى تمت بها والظروف المحيطة

بها وقت إتمامها ، ولعله لم يكن يسره أن يتلقى التاج من بابا ، فيفتح بقبوله منه باباً للنزاع الذى دام قروناً طوالا بين البابا والإمبراطور ، وأيهما أعظم مكانة وأقوى سلطاناً : المعطى أو آخذ العطية ، ولعله فكر أيضاً فيما سوف يجره ذلك من نزاع مع بيزنطية فى المستقبل . ثم أرسل شارلمان عدة رسائل وبعوث إلى القسطنطينية يريد بها أن يأسوا الجرح الذى أحدثته هذه الفعلة ، وظل زمناً طويلا لا ينتفع بلقبه الجديد ، حتى كان عام ٨٠٢ فعرض الزواج على إيرينى ليكون ذلك وسيلة يجعل بها لقبيهما المشكوك فيهما شرعيين(٣٩) ؛ ولكن سقوط إيرينى عن عرشها أفسد هذه الخطة اللطيفة . وأراد بعد ذلك أن يقلل من خطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودى مع هارون الرشيد ، وقد أيد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من الفيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة فى بيت المقدس . ورد الإمبراطور الشرقى على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد ، وانتهى الأمر فى عام ٨١٢ حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية .

وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام ، فقد قوى البابوية والأساقفة إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من الهبة الكنسية ، وأتاحت حوادث عام ٨٠٠ لجريجورى السابع وإنوسنت الثالث أن يقيما على أساسها كنيسة أقوى من الكنيسة السابقة ، وقوت شـارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم لأنها جعلته وليا لله فى أرضه ، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهى فى الحكم ، ووسعت الهوة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية ، لأن أولاها لم تكن ترغب فى الخضوع إلى كنيسة رومانية متحالفة مع إمبراطورية منافسة لبيزنطية . ولقد كان استمرار شارلمان فى اتخاذ آخن لا رومة عاصمة له شاهـداً على انتقال السلطة السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوربا الشمالية ، ومن الشعوب اللاتينية إلى التيوتون . وأهم من هذا كله أن تتويج شارلمان أقام الإمبراطورية

الرومانية المقدسة عمليا وإن لم يقمها من الوجهة النظرية . وكان شارلمان ومستشاروه يرون أن سلطته الجديدة إحياء للسلطة الإمبراطورية القديمة ، على أن الصبغة الجديدة الخاصة بهذا النظام لم يعترف بها إلا فى عهد أتو Otto الأول ، كما أنها لم تصبح « مقدسة » إلا حين ضم فردريك باربرسا Frederik Barbarossa لفظ مقدس sacrum إلى ألقابه فى عام ١١٥٥ . وجملة القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت — على الرغم من تهديدها للعقول وللمواطنين — فكرة نبيلة ، وحلماً من أحلام الأمن والسلام ، وعودة للنظام والحضارة إلى عالم أنقذ من براثن الهمجية ، والعنف ، والجهل .

وأصبحت المراسم الإمبراطورية تكتنف الإمبراطور فى المهام الرسمية ؛ فكان عليه أن يلبس أثواباً مزركشة ، ذات مشبك ذهبى ، وحذاءين مرصعين بالجواهر ، وتاجاً من الذهب والجوهر ، وكان على زائريه أن يسجدوا أمامه ليقبّلوا قدمه أو ركبته ؛ هذا ما أخذه شارلمان عن بيزنطيه وما أخذته بيزنطية عن طيسفون . غير أن إجنهارد يؤكد لنا أن ثيابه — إذ استثنينا ما ذكرناه عنها آنفاً — لم تكن تختلف إلا قليلا عن ثياب الفرنجة العادية : كانت تتألف من قميص من التيل ، وسروال قصير لا شىء تحته ، ومن فوق القميص والسروال القصير قباء من الصوف ربما كانت له أهداب من الحرير ، وجورب طويل مربوط بشريطين يغطى ساقيه ، وحذاءين من الجلد فى قدميه ؛ وكان يضيف إليها فى الشتاء معطفاً ضيقاً من جلود ثعلب الماء(*) أو الفنك(**) ، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه لا يفارقه أبداً . وكان طول قامته ست أقدام وأربع بوصات ، وكانت بنيته تتناسب مع هذا الطول . وكان أشقر الشعر ، شَقَذ العينين(†) ، أشم الأنف ،

(*) أو سَمُّور الماء وهو حيوان يعيش فى البر والبحر معاً وله من أصابع رجليه جلدة تعاونه على السباحة Otter (عن معجم الدكتور شرف) .

(**) أو ثعلب الصحراء marten (عن معجم الدكتور شرف) .

(†) يقال رجل شقذ إذا كان شديد البصر سريع الإصابة بالعين . (عن الفراء) . المترجم

له شاربان وليست له لحية « جليلا مهيب الطلعة على الدوام »[٤٠] . وكان معتدلا فى طعامه وشرابه ، يمقت السكْر أشد المقت ، جيد الصحة على الدوام مهما تعرض لتقلبات الجو ومهما قاسى من الصعاب . وكثيراً ما كان يخرج للصيد ، أو يمارس ضروب الرياضة العنيفة على ظهور الخيل ؛ وكان سباحاً ماهراً ، يحب الاستحمام فى عيون آخن الدفيئة . وقلما كان يدعو الناس إلى الولائم ، لأنه كان يفضل الاستماع إلى الموسيقى أو قراءة كتاب فى أثناء الطعام . وكان يعرف قيمة الوقت كما يعرفها كل عظيم : وكان يستقبل زائريه ويستمع إلى قضاياهم فى الصباح وهو يرتدى ثيابه أو يلبس حذاءيه ؟.

وكان من وراء مهابته وجلاله عاطفة قوية وهمة عالية ، ولكنه كان يسخّر عاطفته وهمته لتحقيق أغراضه ويوجههما بذكائه وثاقب بصره . ولم تستنفد حروبه التى ترى على نصف المائة قوّته وحيويته . وكان إلى هذا كله شديد العناية بالعلوم والقوانين ، والآداب ، وعلوم الدين لا تفتر حماسته لها على مر السنين ؛ وكان يسوؤه أن يبقى جزء من الأرض لم يستول عليه أو أى فرع من فروع العلم لم يضرب فيه بسهم . وكان شريف النفس من بعض الوجوه ؛ وكان يزدرى الخرافات ، ويحرّم أعمال المتنبئين أو العرّافين ، ولكنه صدّق كثيراً من الأعاجيب الأسطورية ، وبالغ فى مقدرة الشرائع على إصلاح أخلاق الناس وعقولهم . ولقد كان لهذه السذاجة النفسية بعض المحاسن : فقد كان فى تفكيره وحديثه صراحة ونُبل قلَّما نراهما فى رجال الحكم .

وكان يسعه أن يكون قاسياً إذا تطلبت سياسة الدولة القسوة ، وأشد ما كانت قسوته فيما بذله من جهود لنشر الدين المسيحى ؛ ولكنه مع هذا كان عظيم الرأفة ، كثير الإحسان ، وفياً مخلصاً لأصدقائه ، ولقد بكى بالدمع عند وفاة أولاده ، وبنته ، والبابا هدريان . ويرسم لنا ثيودلف فى قصيدة له عنوانها « حكم شارل » صورة لطيفة للإمبراطور فى بيته ، فيقول إنه إذا قدم من أعماله

أحاط به أبناؤه ، فيخلع عنه ابنه شارل عباءته ، ويأخذ ابنه لويس سيفه ، وتعانقه بناته الست ، ويأتين له بالخبز ، والخمر ، والتفاح ، والأزهار ؛ ويدخل الأسقف ليبارك طعام الملك ، ويقترب منه ألكوين ليبحث معه ما لديه من الرسائل ؛ ويهرول إجنهارد الضئيل الجسم هنا وهناك كأنه نملة ، ويأتيه بكتب ضخمة[٤١] . وقد بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الزواج ، وقال إنه لا يطيق فراقهن ؛ ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتماء في أحضان العشاق وجئن بعدة أبناء غير شرعيين[٤٢] . وقد قابل شارلمان هذه الأعمال منهن بنفس سمحة ، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه ، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى ، وأربع عشيقات أو حظايا . ذلك أن حيويته الموفورة جعلته شديد الإحساس بمفاتن النساء ، وكانت نساؤه يؤثرن أن يكون للواحدة منهن نصيب منه على أن يكون لها رجل آخر بمفردها . وقد ولدت له نساؤه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شرعيون[٤٣] . وغض من في حاشيته ومن في رومة من رجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحي مثله من قيود الأخلاق المسيحية .

وكان شارلمان وقتئذ على رأس دولة أعظم من الإمبراطورية البزنطية لا يعلو عليها في عالم الرجل الأبيض إلا دولة الخلفاء العباسيين ؛ ولكن كل توسع في حدود الإمبراطوريات أو العلوم يخلق مشاكل جديدة . فلقد حاولت أوربا الغربية أن تحمي نفسها من الألمان بإدماجهم في حضارتها ؛ غير أن ألمانيا كان عليها في هذا الوقت أن تحمي نفسها من أهل الشمال ومن الصقالبة ؛ وكان الملاحون من أهل الشمال قد أنشأوا لهم مملكة في جتلنده Jutland قبل عام ٨٠٠ م وأخذوا يغيرون على سواحل فريزيا Frisia . وأسرع إليهم شارل من رومة ، وأنشأ الأساطيل والقلاع عند الشواطئ والأنهار ، وأقام حاميات في الأماكن المعرضة للأخطار ؛ ولما أغار ملك جتلندة على فريزيا عام ٨١٠ صُدَّ عنها ، ولكن شارلمان هاله أن يشهد من قصره في نربونة بعد قليل من ذلك الوقت ، إذا جاز لنا أن

تصدق أخبار راهب سانت جول ، سفن القراصنة الدنمرقيين فى خليج ليون »

ولعله قد تنبأ ، كما تنبأ دقلديانوس من قبل ، بأن إمبراطوريته الواسعة فى حاجة إلى الدفاع السريع عنها فى عدة مواضع فى وقت واحد ، فقسمها فى عام ٨٠٦ بين أولاده الثلاثة — بيبين ، ولويس ، وشارل . ولكن بيبين توفى فى عام ٨١٠ ، وشارل فى عام ٨١١ ؛ ولم يبق من هؤلاء الأبناء إلا لويس ، وكان منهمكا فى العبادة انهماكا بدا معه أنه غير خليق بأن يحكم عالما مليئا بالاضطراب والغدر . غير أن لويس رغم هذا قد رفع باحتفال مهيب فى عام ٨١٣ من ملك إلى إمبراطور ونطق المليك الشيخ قائلا : « حمداً لك يا إلهى إذا أنعمت علىّ بأن أرى بعينى ولدى يجلس على عرشى »(٤٤) .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت أصيب الملك الشيخ وهو يقضى الشتاء فى آخن بحمى شديدة نتج عنها التهاب البلورة ، وحاول أن يداوى نفسه بالاقتصار على السوائل ؛ ولكنه توفى بعد سبعة أيام من بداية المرض بعد أن حكم سبعا وأربعين سنة وعاش اثلتين وسبعين (٨١٤) ، ودفن تحت قبة كتدرائية آخن ، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية . وما لبث العالم كله أن أسماه كارولس ماجنس Carolus Magnus أو كارل در جروس Karl der Grosse أو شارلمان Charlemagne (أى شارل العظيم) ؛ ولما حل عام ١١٦٥ ومحا الزمان جميع ذكريات عشيقاته ضمته الكنيسة التى أحسن إليها الإحسان كله فى زمرة الصالحين المنعمين .

٣ — اضمحلال الكارولنجيين

كانت النهضة الكارولنجية فترة من فترات البطولة المتعددة فى العصور المظلمة ، ولولا ما اتصف به خلفاء شارلمان من عجز وما شجر بينهم من نزاع لكان من المستطاع أن تقضى هذه الفترات قبل مجىء أبلار بثلاثة قرون على ظلمات تلك

العصور ، وعلى فوضى بارونات الإقطاع ، وعلى النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة ومزقها شر ممزق ، وعلى غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين التى أدى إليها هذا النزاع الأخرق. لكن رجلا بمفرده ، وحياة بمفردها لم يكفيا لإقامة حضارة جديدة . يضاف إلى هذا أن تلك النهضة القصيرة الأجل كانت نهضة كنسية ضيقة أشد الضيق ، فلم يكن للمواطن العادى فيها نصيب ، وما أقل من كان يعنى بها من النبلاء ، وما أقل من كان منهم يشغل نفسه بتعلم القراءة . وما من شك فى أن شارل نفسه ملوم إلى حد ما على انهيار دولته . فلقد أفاء على رجال الدين من الثراء ما جعل سلطان الأساقفة ، بعد أن رفعت يده القوية عنهم ، يرجح سلطان الإمبراطور ؛ ولقد اضطرته أسباب حربية وإدارية أن يمنح الحاكم والبارونات فى الأقاليم قدراً من الاستقلال شديد الخطورة . ثم إنه جعل مالية الحكومة الإمبراطورية ذات الأعباء الجسام تعتمد على ولاء هؤلاء الأشراف الغلاظ واستقامتهم ، وعلى ما تدره أراضيه ومناجمه من إيراد غير كبير ، ولم يكن فى وسعه أن يعمل ما عمله أباطرة الروم فينشئ بيروقراطية من الموظفين المدنيين مسئولين أمام السلطة المركزية دون غيرها ، وقادرين على النهوض بأعباء الحكم مهما تكن شخصية الإمبراطور وأتباعه ، فلم يكد يمضى على وفاته جيل واحد حتى أقيل رسل الإمبراطور الذين بسطوا سلطانه فى الولايات أو تجاهل الولاة وجودهم ، وألقى الأعيان المحليون عن كاهلهم سلطان الحكومة المركزية . وملاك القول أن حكم شارلمان كان عملا جليلا من أعمال العباقرة يمثل الرقى السياسى فى عصر وفى رقعة من الأرض يعمهما الاضمحلال الاقتصادى .

وإن الألقاب التى أطلقها المعاصرون لخلفائه عليهم لتكفى وحدها لأن تقص علينا قصتهم : لويس التقى Louis the Pious ، وشارل الأصلع Charles the Bald ، ولويس المتلعثم Louis the Stammerer وشارل البدين Charles

the Fat ، وشارل الساذج Charles the Simple . فأما لويس « التقى »(*) (٨١٤ — ٨٤٠) فكان كأبيه طويل القامة ، بهى الطلعة ؛ وكان متواضعاً ، رقيق الحاشية ، خيِّراً كريماً ، مفرطاً فى اللين إفراط يوليوس قيصر . وكان قد تربى على أيدى القساوسة فجعلته هذه التربية شديد الاهتمام بالمبادئ الأخلاقية التى كان يزاولها شارلمان باعتدال . من ذلك أنه لم تكن له إلا زوج واحدة ولم يكن له قط حظايا ، وأنه طرد من حاشيته عشيقات أبيه وعشاق أخواته ، ولما احتجت أخواته على عمله هذا حبسهن فى أديرة الراهبات . وأرغم القساوسة على أن يعملوا بأقوالهم ، وأمر الرهبان أن يحيوا الحياة التى توجبها عليهم قواعد البندكتين ، وحاول أن يقضى على المظالم والاستغلال أينما وجدا ، وأن يصلح ما كان فاسداً من قبل . وقد أعجب الناس به لانحيازه إلى الضعفاء على الأقوياء فى جميع الأحوال .

وأحس لويس أن عادات الفرنجة توجب عليه تقسيم دولته فقسمها إلى ممالك يحكمها أبناؤه — پيپن ، ولوثير Lothaire ، ولويس « الألمانى » (وسنسميه لدفج فيما بعد) . وقد رزق لويس من يوديت Juidith زوجته الثانية ابناً رابعاً يعرف فى التاريخ باسم شارل الأصلع ؛ وكان لويس يحبه حباً لا يكاد يقل عن افتتان الأجداد بأحفادهم ، ويريد أن يعطيه قسطاً من إمبراطوريته بعد أن يلغى التقسيم الذى عمله فى عام ٨١٧ ؛ لكن أولاده الثلاثة الكبار عارضوا فى هذا وشنوا على أبيهم حرباً داخلية دامت ثمانية أعوام . وأيدت كثرة النبلاء ورجال الدين هذه الفتنة ، ثم خرجت عليه القلة التى ظلت موالية له عند ما تأزمت الأحوال فى رُتفلد Rothfeld (القريبة من كلمار Colmar) والتى عرفت فيما بعـــد باسم لوچنفلد Lügenfeld أى ميدان الأكاذيب . فلما رأى ذلك لويس أمر من بقى من أنصاره أن يتركوه وشأنه وأن يهتموا بحماية أنفسهم ، ثم استسلم لأبنائه

(*) وكلمة Pious الإنجليزية (ومثلها تقى العربية) ترجمة خاطئة تأيدها طول الزمن لكلمة pius اللاتينية التى تعنى موقر ، أمين رحيم ، لطيف ، وكثيراً من المعانى الأخرى .

(٨٣٣) ، فلما تم لهم ذلك سجنوا يوديث وجزوا شعرها ، وأودعوا شارل الصغير فى دير ، وأمروا أباهم أن ينزل عن العرش وأن يكفر علنا عما فعل . وجيء بلويس إلى كنيسة بسواسون يحيط به ثلاثون أسقفا ، وأرغم فى حضرة لوثير ابنه وخلفه على أن يخلع ملابسه حتى وسطه ، وأن يسجد على قطعة من نسيج الشعر ويقرأ جهرة اعترافاً بجريمته . ثم لبس مسوح الندم الرمادية اللون ، وقضى سنة فى أحد الأديرة . وحكمت فرنسا من تلك اللحظة أسقفية موحدة قامت بين الأسرة الكارولنجية المتفككة .

واشمأز الشعب من سوء معاملة لوثير لأبيه لويس ؛ واستجاب كثيرون من النبلاء وبعض رجال الدين لنداء يوديث حين طالبت بإلغاء قرار الخلع ، ودب النزاع بين الإخوة الثلاثة ، وأطلق پيپن ولدفج أباهما ، وأجلساه على عرشه ، وأعادا يوديث وشارل إلى أحضانه (٨٣٤) . ولم يثأر لويس لنفسه ، بل عفا عن كل من أساءوا إليه . ولما مات پيپن (٨٣٨) قسمت الدولة تقسيما جديداً لم يرض عنه لدفج ، وهجم على سكسونيا ، ونزل الإمبراطور الشيخ مرة أخرى إلى ميدان القتال ، وصد المهاجمين ، ولكنه مرض من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان ، وتوفى بالقرب من إنجلهايم Ingelheim (٨٤٠) . وكان من آخر الألفاظ التى نطق بها رسالة يصفح بها عن لدفج ، ويدعو لوثير ، وقد أصبح إمبراطوراً ، أن يحمى يوديث وشارل .

وحاول لوثير أن ينزل شارل ولدفج منزلة الأتباع ، ولكنهما هزماه عند فنتناى Fonteney (٨٤١) ، وأقسما عند استراسبرج يمين الولاء المتبادلة المشهورة بأنها أقدم وثيقة كتبت باللغة الفرنسية . لكنهما وقعا مع لوثير فى عام ٨٤٣ معاهدة ڤردون ، وقسموا فيما بينهم إمبراطورية شارلمان أقساماً ثلاثة تنطبق بوجه التقريب على إيطاليا ، وألمانيا ، وفرنسا الحالية . فاختص لدفج بالأراضى المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، واختص شارل بالجزء الأكبر من فرنسا وبولايات

الحدود الأسبانية ، وأعطى لوثير إيطاليا والأراضي المحصورة بين الرين شرقاً ، والشلد Scheld ، والساءون Saône والرون غرباً . وسميت هذه الأراضي الغير المتجانسة ، والممتدة من هولندة إلى بروڤانس باسم لوثير — فكانت أرض لوثير ، أو لوثرنجيا Lutheringia . أو لوثرنجار Lutharingar ، أو لورين Lorraine . ولم تكن ذات وحدة جنسية أو لغوية ، فكان لا بد أن تصبح ميداناً للقتال بين ألمانيا وفرنسا ، وكثيراً ما استبدلت سيداً بسيد فيما تقلب عليها من نصر وهزيمة أريقت فيهما الدماء أنهاراً .

وفي خلال هذه الحروب الداخلية الكثيرة الأكلاف ، والتي أضعفت الحكومة ، وأنقصت السكان ، والثروة ، والروح المعنوية في أوربا الغربية ، غزت القبائل الإسكنديناوية في سعيها إلى التوسع وبسط السلطان بلاد فرنسا فاكتسحتها بموجة همجية واصلت وأتمت الخراب والذعر اللذين جاءا في أعقاب الهجرات الألمانية قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون . فبينا كان أهل السويد يتسربون إلى الروسيا والنرويجيون يضعون أقدامهم في أيرلندة ، والدنمرقيون يفتحون إنجلترا ، كان خليط من أهل اسكنديناوة ، في وسعنا أن نسميهم الشماليين أو أهل الشمال ، يغيرون على مدائن فرنسا القائمة على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار . واستحالت هذه الغارات بعد موت لويس التقي حملات قوية تقوم بها أساطيل مؤلفة من أكثر من مائة سفينة ، يسيرها ملاحون محاربون . وقاست فرنسا في القرنين التاسع والعاشر سبعا وأربعين من هذه الهجمات الشمالية ؛ ونهب المغيرون في عام ٨٤٠ مدينـــة رون Rouen ، وبدأوا مائة عام من الهجمات على نورماندى ؛ وفي عام ٨٤٣ دخلوا مدينة نانت Nantes وذبحوا أسقفها وهو قائم للصلاة أمام مذبحه ، وفي عام ٨٤٤ صعدوا في نهر الجارون Garonne إلى طلوشة Toulouse . وفي عام ٨٤٥ صعدوا في نهر السين إلى باريس ، ولكنهم تركوا المدينة وشأنها بعد أن أخذوا جزية مقدارها سبعة آلاف رطل من الفضة .

وبينا كان المسلمون يهاجمون رومة استولى أهل الشمال على فريزيا فى عام ٨٤٦ وأحرقوا دوردرخت Dordreeht ، ونهبوا ليموج Limoges . ثم حاصروا بوردو Bordeaux فى عام ٨٤٧ ، ولكنهم ردوا عنها . وأعادوا الكرة عليها فى عام ٨٤٨ ، واستولوا عليها فى هذه المرة ، ونهبوها ، وقتلوا أهلها ، وأحرقوها عن آخرها . وفى العام الذى تلاه وجهوا مثل هذه الضربات إلى بوڤيه Beauvais وبايو Bayeux ، وسانت لو St. Lu ، ومو Meaux ، وإيفرو Evreux ، وتور Tours وفى وسعنا أن نصور ما حل بهذه البلاد من رعب إذا قلنا إن تور نهبت فى أعوام ٨٥٣ ، و ٨٥٦ ، و ٨٦٢ ، ٨٧٢ ، و ٨٨٦ ، و ٩٠٣ ، و ٩١٩[٤٥] ، وإن باريس نهبت عامى ٨٥٦ ، و ٨٦١ ، وأحرقت فى عام ٨٦٥ . وجهز الأساقفة فى أورليان وشارتر Chartres جيشين صدوا بهما المغيرين (٨٥٥) ؛ ولكن القراصنة الدنمرقيين خربوا أورليان فى عام ٨٥٦ . وفى عام ٨٥٩ اخترق أسطول شمالى مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط ، ونهب المدن الواقعة على ضفاف الرون من مصبه حتى مدينة ڤالنس Valence شمالا ، ثم عبر خليج جنوا ، ونهب پيزا وغيرها من المدن الإيطالية . ولما قاومتهم قلاع النبلاء الحصينة فى أماكن متفرقة فى طريقهم نهبوا أو أتلفوا كنوز الكنائس والأديرة غير المحمية ، وكثيراً ما أحرقوها بما فيها من مكتبات ، ولم ينج القساوسة والرهبان من القتل فى بعض الأحيان . وكان الناس فى تلك الأيام الحالكة يدعون ربهم فى صلواتهم قائلين : « اللهم أنقذنا من شر أهل الشمال »[٤٦] ! وكأنما كان المسلمون على موعد مع الشماليين فاستولوا على قورسقة وسردينية فى عام ٨١٠ ، ونهبوا ساحل الرڤييرا الفرنسى فى عام ٨٢٠ ، وخربوا أرل Arles فى ٨٤٢ ، واستولوا على ساحل فرنسا الواقع على البحر المتوسط وبقى فى أيديهم حتى عام ٩٧٢ .

ترى ماذا كان يفعل الملوك والأشراف خلال هذه الأعوام الخمسين

المليئة بالتدمير والتخريب ؟ فأما الأشراف فقد كان لديهم من المشاغل ما يكفيهم ، ولم يكونوا يرغبون فى أن يخفوا لمساعدة أقاليمهم ، ولم يستجيبوا إلا استجابات ضعيفة لما وجه إليهم من نداء للعمل الإجماعى . وأما الملوك فكانوا فى شغل شاغل بحروبهم فى سبيل التملك أو الاستيلاء على تاج الإمبراطورية ، وكانوا أحياناً يشجعون الشماليين فى غاراتهم على سواحل منافسيهم . وحدث فى عام ٨٥٩ أن اتهم هنكمار كبير أساقفة ريمس شارل الأصلع علناً بالإهمال فى الدفاع عن فرنسا . وخلف شارل فيما بين ٨٧٧ و٨٨٨ ملوك أكثر منه ضعفاً — لويس الثالث ، وكارلومان ، وشارل البدين . وتعاونت أحداث الزمان والمنايا فتوحدت مملكة شارلمان مرة أخرى تحت حكم شارل البدين ، وأتيحت للإمبراطورية المحتضرة فرصة أخرى للدفاع عن حياتها . ولكن أهل الشمال استولوا على نجمجن Nijmegen وأحرقوها فى عام ٨٨٠ ، واتخذوا من كورتراى Courtrai وغنت قلاعاً لهم حصينة ، وفى عام ٨٨١ أحرقوا لياج Liége ، وكولونى ، وبن Bonn وپروم Prüm ، وآخن ؛ وفى عام ٨٨٢ استولوا على تريير Trier ، وقتلوا كبير أساقفتها الذى قاد المدافعين عنها ؛ وفى السنة نفسها استولوا على ريمس ، وأرغموا هنكمار على أن يقاتل ويموت . وفى عام ٨٨٣ استولوا على أمين Amiens ، ولكنهم انسحبوا منها بعد أن أخذوا اثنى عشر ألف رطل من الفضة من كارلومان . وفى عام ٨٨٥ استولوا على رون ، وساروا فى النهر صعداً إلى باريس فى سبعمائة سفينة عليها ثلاثون ألف رجل . وقاد حاكم المدينة الكونت أودو Odo أو أود Eudes ، وأسقفها جزلان Gozlin المدافعين عنها ، وقاوموا المغيرين مقاومة باسلة . وظلت باريس مضروباً عليها الحصار ثلاثة عشر شهراً هاجم المدافعون عنها المحاصرين اثنتى عشرة مرة ؛ وانتهى الأمر بأن أدى شارل البدين إلى الشماليين ٧٠٠٠ رطل من الفضة بدل أن يخف لإنقاذ المدينة ، وأذن لهم فوق ذلك أن يسيروا فى نهر السين صعدا ويقضوا الشتاء فى برغندية التى نهبوها نهباً

ترتضيه نفوسهم . ثم خلع شارل وتوفى عام ٨٨٨ ، واختير أودو ملكاً على فرنسا ، وصارت باريس بعد أن ثبتت قيمتها من الوجهة الحربية الفنية مقر الحكومة .

وحمى شارل الساذج الذى خلف أودو على العرش (٨٩٥ — ٩٢٣) إقليم السين والساءون من المغيرين ، ولكنه لم يرفع يده ضد غازات الشماليين على بقية فرنسا ، ثم لم يكتف بهذا بل أسلم إلى رولف Rolf أو رولو Rollo أحد زعماء النورمان فى عام ٩١١ أقاليم رون ، وليزيو Lisienx ، وإفرو Evreux . وكان النورمان قد استولوا عليها من قبل . ووافق النورمان على أن يؤدوا عنها للملك ما يؤديه أمراء الإقطاع عن أملاكهم ، ولكنهم كانوا يســخرون منه وهم يقومون بمراسم الولاء التقليدية . وارتضى ليو أن يُعَمَّد ، وحذا رجاله حذوه ، ثم استقروا على مهل وأصبحوا زراعاً ومتحضرين . وهكذا بدأت نورمنديا بأن كانت ولاية فى فرنسا فتحها أهل الشمال .

ولقد وجد الملك الساذج حلا لمشكلة باريس إن لم يكن لغيرها من المشاكل ؛ ذلك أن النورمان أنفسهم سيصدون بعد ذلك الوقت من يحاولون دخول السين من المغيرين . أما فى غير هذا الجزء من فرنسا فلم تنقطع غارات الشماليين ، فنهبت تشارتر فى عام ٩١١ ، وأنجير Angers فى عام ٩١٩ ، ونهبت أكتين Aquitaine ، وأوفرنى فى عام ٩٢٣ ، كما نهبت آرتوا وإقليم بوفيه فى ٩٢٤ . وفى هذا الوقت نفسه تقريباً دخل المجر برغندية فى عام ٩١٧ بعد أن خربوا جنوبى ألمانيا ، واجتازوا الحدود الفرنسية ، ثم اجتازوها راجعين دون أن يلقوا مقاومة ، ونهبوا الأديرة القريبة من ريمس وسان Sens وأحرقوها (٩٣٧) ، واخترقوا كأرجال الجراد الفتاك أكتين (٩٥١) وأحرقوا ضواحى كورتراى ، وليون ، وريمس (٩٥٤) ، ونهبوا برغندية على مهل . وأوشك صرح النظام الاجتماعى فى فرنسا أن ينهار تحت هذه الضربات المتكررة التى كالها له الشماليون والهون . وفى ذلك يقول أحد المجامع الدينية المقدسة فى عام ٩٠٩ :

لقد أقفرت المدن من السكان ، وخربت الأديرة وأحرقت ، وأضحت البلاد فى عزلة . . . وكما كان الناس الأولون يعيشون بغير قانون . . . فكذلك يفعل الآن كل إنسان ما يبدو حسناً فى نظره غير آبه بالشرائع البشرية والدينية . . . فالأقوياء يظلمون الضعفاء ، والعالم ملىء بالعنف والقسوة على الفقراء ، وأملاك الكنائس تنهب . . . ويلتهم الناس بعضهم بعضاً كما يفعل السمك فى البحر[٤٧] .

وكان آخر الملوك الكارولنچيين — لويس الرابع ، ولوثير الرابع ، ولويس الخامس ملوكاً حسنى النية ، ولكنهم لم يكن لهم من القوة ما لا بد منه لإقامة نظام دائم من ذلك الخراب الشامل . ولما مات لويس الخامس ولم يكن له أبناء (٩٨٧) ، بحث أعيان فرنسا ورجال الدين فيها عن زعيم لهم من أسرة أخرى غير الكارولنچيين ، حتى وجدوا هذا الزعيم المنشود من نسل مركيز من نوستريا Neustria يحمل ذلك الاسم العظيم الدلالة وهو ربرت القوى Robert the Strong (المتوفى عام ٩٦٦) . وكان أودو منقذ باريس ابن هذا المركيز ، وكان هيو الأكبر Hugh the Great أحد أجداده (المتوفى عام ٩٥٦) قد حصل بالشراء أو الحرب على الإقليم المحصور بين نورمنديا ، والسين ، واللوار كله تقريباً وكان فيه أميراً إقطاعياً ، واجتمع له فيه من الثروة والسلطان ما لم يجتمع للملوك . وورث هيو كابت Hugh Capet ابن هيو هذا جميع تلك الثروة وذاك السلطان ، وورث ، كما يلوح ، العزيمة التى كسبتهما . وعرض أدلبرو Adalbero كبير الأساقفة ، بإرشاد العالم الداهية جربرت ، أن يكون هيو كابت ملكاً على فرنسا . فاختير لهذا المنصب بالإجماع (٩٨٧) وبدأت بذلك الأسرة الكابتية التى حكمت ابناً أو أباً أو حكم فروعها مملكة فرنسا إلى عهد الثورة الكبرى .

٤ — الآداب والفنون ٨١٤ — ١٠٦٦

لعلنا قد غالينا فى وصف ما أحدثته غارات الشماليين والمجر من أضرار ، ذلك أن حشدها كلها فى حيز قليل توخياً للإيجاز يجعل صورة الحياة فى تلك الأوقات قاتمة فوق ما تستحق ، مع أنها لم تكن تخلو بلا ريب من فترات ساد فيها الأمن والسلام ؛ فقد ظلت الأديرة تشاد خلال هذا القرن التاسع الرهيب ، وكثيراً ما كانت مراكز للصناعة الناشطة ، وازدادت مدينة رون قوة بفضل اتجارها مع بريطانيا رغم ما أصيبت به من غارات وحرائق ؛ وسيطرت كولونى وميتز على التجارة المارة بنهر الرين ؛ ونشأت فى فلاندرز مراكز غنية صناعية وتجارية بمدن غنت ، وإيبرس Ypres ، وليل Lille ، ودويه ، وآراس Arras ، وتورناى Tournai ، وديناند Dinant ، وكمبريه ، ولييج ، وڤلنسين .

وأصيبت مكتبات الأديرة بخسائر فادحة فى كنوزها القديمة من جراء هذه الغارات ، وما من شك فى أن كثيراً من الكنائس التى أنشئت فيها مدارس عملا بقرار شارلمان قد دمرت ، وإن كانت مكاتب قد بقيت فى الأديرة أو الكنائس القائمة فى فلدا ، ولورسن Lorsch ، وريشنو Reichenau ، وميتز ، وترير ، وكولونى ، ولييج ، ولأون Laon ، وريمس ، وكوربى Corbie ، وفلبرى Fleury ، وسانت دنيس ، وتور ، وببيو Bobbio ، ومونتى كسينو ، وسانت جول . . . واشتهر دير البندكتيين فى سانت جول بمن كان فيـه من الكتاب ، كما اشتهر بمدرسته وكتبها ، وفيه كتب نتكر بلبولوس Notker Balbulus — الألكن — (٨٤٠ — ٩١٢) ترانيم بديعة ممتازة وسجل راهب سانت جول ، وفيه ترجم نتكر لبيئو Notker Labeo — الغليظ الشفة — (٩٥٠ — ١٠٢٣) كتب بوئيثيوس ، وأرسـطو وغيرها من الكتب القديمة

إلى اللغة الألمانية ؛ وأعانت هذه التراجم — وهي من أول ما كتب بالنثر الألماني — على تثبيت تراكيب اللغة الجديدة وقواعدها .

وحتى في فرنسا الجريحة كانت مدارس الأديرة تضيء حلكة هذه العصور المظلمة . فقد افتتح ريمي الأوكسيري Remy of Auxerre مدرسة عامة في باريس عام ٩٠٠ ؛ وأنشئت في القرن العاشر مدارس أخرى في أوكسير وكوربي ، وريمس ، ولييج . وأسس الأسقف فلبير Fulbert (٩٦٠ — ١٠٢٨) بمدينة تشارتر حوالي ١٠٠٦ مدرسة أصبحت أشهر مدارس فرنسا كلها قبل أيام أبلار ؛ ففيها وضع سقراط المبجل — كما كان تلاميذه يسمونه — قواعد تدريس العلوم ، والطب ، والآداب القديمة ، بالإضافة إلى علوم الدين ، والكتاب المقدس ، والطقوس الدينية . وكان فلبير هذا رجلا كريم الطبع ، عظيم الإخلاص ، صبوراً صبر أولى العزم من الرسل ، محسناً متصدقاً إلى أقصى حد . ولقد تخرج في مدرسته — قبل ختام القرن الحادي عشر — علماء أمثال چون السلزبوري John of Salisbury ، ووليم الكنشي William of Conches ، وبرنجار التوري Berengar of Tours ، وجلبرت ده لاپريه Gilbert de la Porréa . وفي هذه الأثناء وصلت مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان أوج مجدها في كمپيني Compiègne تارة وفي لأون تارة أخرى بفضل ما حباها به شارل الأصلع من عون وتشجيع .

فقد استدعى شارل إلى مدرسة القصر في عام ٨٤٣ علماء أيرلنديين وإنجليز في مختلف العلوم ، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة في العصور الوسطى ، رجل يبعث وجوده في ذلك الوقت الشك في صواب استبقاء اسم « العصور المظلمة » حتى على القرن التاسع نفسه ، بله غيره من القرون .

ويكشف اسمه عن أصله كشفاً مضاعفاً ، فهو چوهان اسكوتس إريوچينا Johannes Scotus Eriugina أى چون الأيرلندى المولود فى إرين Erin . وسنسميه نحن إرچينا Erigena وكفى . ويبدو أنه لم يكن من رجال الدين ، ولكنه كان رجلا متبحراً فى العلوم ، يجيد اللغة اليونانية ، مغرماً بأفلاطون والآداب القديمة ، حلو الفكاهة إلى حد ما . وتحدثنا إحدى القصص — التى يبدو من سياقها كله أنها من مخترعات الأدباء — أن شارل الأصلع ، كان يطعم معه فى يوم من الأيام فسأله : ما الفارق بين الأبله والأيرلندى quid distat inter sottum et Scottum ؟ فأجابه چون — كما تروى القصة — : « المنضدة »[٤٨] . ولكن شارل رغم هذا كان يحبه حبا جما ، وكان يشهد محاضراته ، وأكبر الظن أنه كان يستظرف إلحاده . ويفسر چون العشاء الربانى فى كتابه عن القربان المقدس بأنه عمل رمزى ، ويتضمن هذا ارتيابه فى وجود المسيح بحق فى الخبز والخمر المقدسين . ولما أخذ الراهب الألمانى جتسشولك Gottschalk ينادى بمبدإ الجبرية المطلقة وينكر تبعاً لذلك مبدأ حرية الإرادة فى الإنسان ، طلب هنكمار كبير الأساقفة إلى إرچينا أن يرد عليه كتابة . فأجابه هذا إلى ما طلب وكتب رسالته المسماة الجبرية الإلهية De Divina praedestinatione (حوالى عام ٨٥١) . وقد بدأها بإطراء الفلسفة إطراء عظيما فقال : « من يشأ أن يبحث جاداً عن علل الأشياء جميعها ويحاول كشفها ، يجد جميع الوسائل الموصلة إلى العقيدة الصالحة الكاملة فى العلم والتدريب اللذين يطلق عليهما اليونان اسم الفلسفة » . وينكر الكتاب فى واقع الأمر مبدأ الجبرية ، ويقول الإرادة حرة عند الله وعند الإنسان ، وإن الله لا يعرف الشىء ، ولو عرفه لكان هو سببه . وكان رد إرچينا أكثر إلحاداً من أقوال جتسشولك ، وأنكره مجلسان من مجالس الكنيسة فى عامى ٨٥٥ و ٨٥٩ ، وأودع جتسشولك فى دير قضى فيه بقية حياته ، أما إرچينا فقد حماه الملك .

وكان ميخائيل الألكن إمبراطور بيزنطية قد بعث إلى لويس التقى فى عام ٨٢٤ مخطوطا يونانيا لكتاب يسمى **الحكومة الكنونية السماوية** . ويعتقد المسيحيون المتدينون أن مؤلفه هو ديونيشيوس « الأريوپاجى » Disnysius the "Areopagite" . وأحال لويس التقى المخطوط إلى دير سانت دنيس ، ولكن أحداً ممن فيه لم يستطع ترجمة لغته اليونانية ، فقام إرچينا بهذه المهمة إجابة لطلب الملك . وتأثر بالترجمة أعظم التأثر ، وأعاد الكتاب إلى المسيحية غير الرسمية الصورة التى ترسمها الأفلاطونية الجديدة للكون المتولد أو المنبعث من الله فى مراحل مختلفة أو درجات من الكمال آخذة فى النقصان ، والذى يعود ببطء وبدرجات متفاوتة إلى الله مرة أخرى .

وأصبحت هذه هى الفكرة الرئيسية التى يدور حولها أعظم مؤلفات چون **التقسيم الطبيعى** (٨٦٧) . ففى هذا الكتاب نجد بين كثير من السخف ، وقبل أبلار بقرنين من الزمان ، إخضاعاً جريئاً لعلوم الدين والوحى إلى العقل ، ومحاولة للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، وفيه يقر چون بصحة الكتاب المقدس ، ولكنه يقول إنه لما كان معناه فى كثير من أجزائه غامضاً ، فإن الواجب يقضى بتفسيره حسبما يمليه العقل — ويكون ذلك عادة بفهم نصوصه على أنها رموز أو استعارات . ويقول إرچينا فى هذا : « إن السلطان يُستمد أحياناً من العقل ولكن العقل لا يُستمد أبداً من السلطان ، ذلك بأن كل سلطان لا يرضى عنه العقل السليم يبدو ضعيفا ، ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى تأييد السلطان أيا كان نوعه لأنه يستند إلى قوته »(٤٩) . « ويجب ألا نحتج بآراء آباء الكنيسة ... إلا إذا كان لا بد لنا من الاحتجاج بآرائهم لتقوية حججنا أمام الناس الذين لا يحسنون الاستدلال ، ولهذا يخضعون للسلطان لا للعقل »(٥٠) . فهاهو ذا عصر العقل يتحرك فى أرحام عصر الإيمان .

ويعرف چون الطبيعة بأنها : « اسم عام يطلق على جميع الأشياء التى

تكون وغير التي تكون » أى على جميع الأجسام ، والعمليات ، والمبادئ ، والعلل ، والأفكار . وهو يقسم الطبيعة إلى أربعة أنواع من الكائنات :

(١) ذاك الذى يَخلُق ولكنه لا يُخلَق — أى الله . (٢) ذلك الذى يُخلَق ويَخلُق — أى العلل الأولى ، والمبادئ ، والنماذج الأولى ، والأفكار الأفلاطونية ، والكلمة ؛ وهى التى يتكون من عملياتها عالم الأشياء المفردة ، (٣) ذلك الذى يُخلَق ولا يَخلُق — أى عالم الأشياء المفردة السالفة الذكر ، (٤) ذلك الذى لا يَخلُق ولا يُخلَق — أى الله بوصفه الغاية النهائية التى تستوعب كل شىء . فالله هو كل شىء كائن بحق ، لأنه يكوِّن الأشياء جميعها ويتكوَّن من الأشياء جميعها » . وليس ثمة عملية خلق فى وقت بذاته ، لأن هذا القول يتضمن تغيراً فى الله . « فإذا سمعنا أن الله قد أوجد كل شىء ، فيجب ألا نفهم من هذا القول إلا أن الله حال فى كل شىء — أى يوجد بوصفه جوهر كل الأشياء »(٥١) . « والله نفسه لا يدركه عقل من العقول ، وليس الجوهر المكنون لكل شىء والذى خلقه الله مما يمكن إدراكه ، وكل الذى نراه هو الأعراض لا الجواهر »(٥٢) — أى صور الأشياء التى تدركها الحواس والعقول لا حقائقها التى لا تعرف ولا يمكن معرفتها — كما يقول كانْت Kant فيما بعد . وليست الخصائص المحسوسة فى الأشياء متأصلة فى الأشياء نفسها ، وإنما تتكوّن من الأشكال التى ندركها بها . « فإذا قيل لنا إن الله يرغب ، ويحب ، ويختار ، ويرى ، ويسمع ... فيجب ألا نفكر إلا فى أن حقيقته وقوّته اللتين لا يستطاع وصفهما يُعَبَّر عنهما بمعان تتفق معنا فى طبيعتها » — أى موائمة لطبيعتنا ، « حتى لا يجد المسيحى الحق التقى ما يقوله عن الخالق ، فلا يقول شيئاً عنه ليعلم به النفوس الساذجة »(٥٣) . ولمثل هذا الغرض لا الشىء سواه نستطيع أن نتحدث عن الله كأنه ذكر أو أنثى ، وليس « هو » هذا ولا ذاك(٥٤) . فإذا فهمنا لفظ « الأب » بمعنى المادة الخلاقة أو جوهر الأشياء جميعها ، و « الابن »

على أنه الحكمة الإلهية التى تتكون أو تحكم بمقتضاها الأشياء كلها ؛ والروح على أنه الحياة أو حيوية الخلق ، إذا فهمنا هذه الثلاثة على هذا النحو جاز لنا أن نفكر فى الله على أنه ثالوث . وليست الجنة والنار مكانين ، بل هما أحوال النفس ، فالنار هى الشقاء المنبعث من الخطيئة ، والجنة هى السعادة المنبعثة من الفضيلة والنشوة المنبعثة من الرؤيا الإلهية (إدراك الألوهية) التى تتكشف من الأشياء جميعها للنفس التقية(٥٥) . وليست جنة عدن مكاناً على الأرض ، بل هى حالة كهذه من حالات النفس(٥٦) . والأشياء جميعها خالدة : فللحيوانات أيضاً ، كما للآدميين ، نفوس تعود بعد الموت إلى الله أو إلى الروح الخالق الذى انبعثت منه(٥٧) . والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث ، وموجة مدية لا تغلب نحو الداخل تجذب الأشياء جميعها فى آخر الأمر إلى الله .

لقد وجدت فلسفات شر من هذه الفلسفة وفى عصور النور ، ولكن الكنيسة حسبتها تموج بالإلحاد والزندقة . ولهذا طلب نقولاس الأول إلى شارل الأصلع فى عام ٨٦٥ إما أن يبعث بجون إلى رومة ليحاكم أو أن يفصله من مدرسة القصر . « حتى لا يستمر فى تسميم الذين يسعون لطلب الخبز »(٥٨) . ولسنا نعرف نتيجة هذا الطلب ، غير أن إنجليزياً من أهل مالمزبرى Malmsbury يروى « أن جوهان اسكوتس جاء إلى إنجلترا وإلى ديرنا ، كما تقول الأخبار ؛ وأن الأولاد الذين يعلمهم كانوا يَشُكُّونه بأقلامهم الحديدية » ، وأنه مات من أثر هذا العمل . وأكبر الظن أن هذه القصة حلم من أحلام تلميذ كان يتمنى تحقيقه . ولقد تأثر بإرچينا فلاسفة من أمثال جربرت ، وأبلار ، وجلبرت ده لاپوريه على غير علم منهم ، غير أنه بوجه عام قد نسى فى غمار الفوضى الضاربة أطنابها فى ذلك العصر المظلم . ولما أن رفع ستار النسيان عن كتابه فى القرن الثالث عشر حكم مجلس سنس Sens بتحريمه (١٢٢٥) وأمر البابا هونوريوس Honorius الثالث

بأن ترسل نسخه جميعها إلى رومة وأن تحرق فيها .

ووقف الفن الفرنسى فى هذه الأوقات المضطربة جامداً لا يتحرك ، فقد ظل الفرنسيون يشيدون كنائسهم على نظام الباسلقا رغم ما ضربه لهم شارلمان من أمثلة . وفى عام ٩٩٦ أصبح أحد الرهبان والمهندسين الإيطاليين ويدعى وليم من أبناء فلبيانو Volpiano رئيساً لدير فيكامب Fécamp النورمانى . وقد جاء معه من إيطاليا بكثير من أساليب الطراز النورمانى والرومانسى ، ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذى بنى دير چوميج Jumiéges الكنسى (١٠٤٥ — ١٠٦٧) ؛ وفى عام ١٠٤٢ دخل رجل إيطالى آخر يدعى لانفرانك Lanfranc الدير النورمانى فى بك Bec ، وسرعان ما جعله مركزاً علمياً نشطاً ، يهرع إليه طلاب بلغوا من الكثرة ما اضطر القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة له . وقد خطط لانفرانك هذه الأبنية ، ولعله قد استعان على تخطيطها بمن هم أكثر منه خبرة بهذا العمل . ولم يبق حجر واحد من حجارة هذا البناء ، ولكن دير الرجال فى جائن Abbaye aux Hommes at Gaen (١٠٧٧ — ١٠٨١) لا يزال قائماً إلى اليوم يشهد بقوة الطراز الرومانسى الذى تطور فى نورماندى على أيدى لانفرانك ومن جاء بعده .

وشيدت فى القرن الحادى عشر كنائس جديدة فى جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز ، زينها الفنانون بصور الجدران وبنقوش الفسيفساء والتماثيل . وكان شارلمان قد أمر بأن يطلى داخل الكنائس ويلون ليستفيد من ذلك المؤمنون ؛ وزينت قصور آخن وأبهاؤها بالمظلمات ، وما من شك فى أن كثيراً من الكنائس قد حذت حذو هذه القصور . وقد دمرت آخر قطع من مظلمات آخن فى عام ١٩٤٤ ، ولكن نقوشاً شبيهة بما كان على جدرانها لا تزال باقية فى كنيسة سان چرمان St. Germain فى أوكسير . ولا تختلف هذه النقوش فى شكلها عن النقوش التى تزدان بها مخطوطات ذلك العصر ولا عن طرازها أو حجمها .

وقد كتب رهبان مدينة تور فى عهد شارل الأصلع نسخة ضخمة ملونة من الكتاب المقدس وأهدوها إلى الملك ؛ ولا تزال هذه النسخة محفوظة فى قسم المخطوطات اللاتينية بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١ . وأجمل من هذا المخطوط إنجيل « لوثير » الذى كتبه فى ذلك الوقت رهبان تور أيضاً . كذلك أخرج رهبان ريمس فى هذا القرن التاسع كتاب تراتيل « أوترخت Utrecht » الذائعة الصيت — ويتألف هذا المخطوط من ١٠٨ ورقة من الجلد الرقيق ويحتوى على مزامير داود وعقيدة الرسل مزدانة بكثير من صــور الحيوانات على اختلاف أنواعها وبعدد لا يحصى من الأدوات وصور المهن والأعمال . وتصطبغ هذه الصور الحية بصبغة من الواقعية الشديدة بدلت فن التصوير الدقيق الذى كان من قبل جامداً مستمسكا بالتقاليد .

٥ — نشأة الأدواق : ٩٨٧ — ١٠٦٦

وبرزت فرنسا التى كان يحكمها هيوكابت (٩٨٧ — ٩٩٦) فأصبحت وقتئذ أمة منفصلة عن غيرها ، ولم تعد تعترف بسيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عليها ، ولم تعد قط إلى أوربا الغربية الوحدة التى وهبها إياها شارلمان اللهم إلا فترة قصيرة فى أيام نابليون وهتلر . ولكن فرنسا التى كانت فى أيام هيوكابت لم تكن فرنسا القائمة فى أيامنا هذه ؛ فقد كانت أكتين وبرغندية دوقيتين مستقلتين بالفعل ، وظلت لورين بعدئذ سبعة قرون جزءاً من ألمانيا . وكانت فرنسا فى ذلك الوقت موطناً لأجناس مختلفة ولغات متعددة : فكانت فرنسا الشمالية فلمنكية أكثر منها فرنسية ، وكان فى دمها عنصر ألمانى كبير ؛ وكان سكان نورماندى من الشماليين ، وكانت بريطانى كلتيه غير ذات صلة بسائر البلاد ، يسيطر عليها لاجئون من بريطانيا ؛ أما بروفانس فكانت فى جنس أهلها ولغتهم « ولاية » رومانية غاليّة . كذلك كانت فرنسا المجاورة

لجبال البرانس قوطية ، وقطالونيا الخاضعة من الوجهة الرسمية للملكية الفرنسية قوطية أيضا كما يدل على ذلك اسمها « قطالونيا » . وكان نهر اللوار يقسم فرنسا الى إقليمين ، مختلفين فى الثقافات واللغات . وكان العمل الذى اضطلعت به الملكية الفرنسية هو مزج هذه الأجناس واللغات المختلفة ، لينشئوا من أكثر من عشرة شعوب أمة موحدة ؛ ولقد تطلب هذا العمل ثمانمائة عام .

وأراد هيوكابت أن يهيئ الظروف لوراثة للعرش منظمة ، فتوج ابنه ربرت ملكا معه فى السنة الأولى من حكمه . ويُعَد « ربرت التقى » (٩٩٦ — ١٠٣١) من الملوك الأوساط غير المبرزين[٦٠] ، ولعل سبب اشتهاره بهذه المكانة الوسطى أنه كان يتجنب مجد الحروب . مثال ذلك أنه لما قام النزاع بينه وبين هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا بشأن الحدود عقد اجتماعاً معه وتبادل وإياه الهدايا ، ووصل معه إلى اتفاق سلمى . وكان ربرت رءوفاً بالضعفاء والفقراء يحميهم قدر استطاعته من الأقوياء غير ذوى الضمير ، ومثله فى هذا كمثل لويس التاسع ؛ وهنرى الرابع ، ولويس السادس عشر . وقد أغضب الكنيسة بزواجه من برثا Bertha ابنة عمه (٩٩٨) ، وصبر على الحرمان وعلى سخرية الذين كانوا يعدونها ساحرة ، ولكنه انفصل عنها آخر الأمر وعاش بعدئذ بائساً حزيناً إلى آخر أيام حياته . ويحدثنا المؤرخون أن الناس حزنوا عليه أشد الحزن عند مماته[٦١] ، وشبت نار حرب للوراثة بين ولديه ، انتصر فيها هنرى الأول (١٠٣١ — ١٠٦٠) أكبرهما ، ولكنه لم ينل النصر إلا بمعونة ربرت دوق نورماندى . ولما انتهى هذا الصراع الطويل (١٠٣١ — ١٠٣٩) كانت المملكة قد وصلت إلى درجة من الفقر فى المال والرجال لم تقو معها على منع تقطع أوصالها بفعل النبلاء الأقوياء المستقلين .

وانقسمت فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ م ، بفعل كبار الملاك الذين كانوا يضمون إليهم تدريجياً ما يحيط بهم من الأراضى ، إلى سبع إمارات كبرى يحكم كلا منها كونت أو دوق . وهذه الأقسام هى أكتين ، وطلوشة ، وبرغندية ، وأنجو ،

وشمبانيا ، وفلاندرز ، ونورمندية . وكان هؤلاء الأذواق أو الكونتات في جميع الحالات تقريباً ورثة زعمـــاء أو قواد منحهم الملوك الميروفنچيون أو الكارولنجيون ضياعاً جزاء لهم على خدماتهم الحربية أو الإدارية . وكان الملك قد أصبح يعتمد على هؤلاء الكبراء فى تجييش الجيوش وحماية ولايات الحدود ؛ ولم يكن بعد عام ٨٨٨ يسن القوانين للمملكة جميعها ، أو يجبى منها الضرائب ؛ بل كان الأدواق والكونتات يسنون القوانين ، ويجبون الضرائب ، ويشنون الحروب ، ويفصلون فى القضايا ويعاقبون ، ويكادون يكونون سادة مستقلين فى ضياعهم ، لا يدينون للملك إلا بولاء اسمى ، ولا يؤدون له إلا خدمة عسكرية ذات نطاق محدود . واقتصرت سلطة الملك فى وضع القوانين ، والفصل فى القضايا ، وفى الشئون المالية ، على ضياعه الملكية الخاصة ، وهى التى سميت فيما بعد جزيزة فرنسا Ile de France وتشمل إقليمى الساءون والسين الأوسط الممتدين من أورليان إلى بوفيه ومن تشارتر إلى ريمس .

وتقدمت نورمندية دون سائر الدوقيات المستقلة استقلالا نسبياً بأن نمت نموًّا سريعاً إلى أقصى حدود السرعة فى قوتها وسلطانها ، فلم يمض عليها قرن واحد بعد تسليمها لأهل الشمال حتى أصبحت أكثر ولايات فرنسا مغامرة ومخاطرة — ولعل السبب فى ذلك هو قربها من البحر وموقعها بين إنجلترا وباريس . وكان أهل الشمال وقتئذ مسيحيين متحمسين للمسيحية ، لهم أديرة ومدارس أديرة ، وكانوا يتناسلون باستهتار ما لبث أن دفع شـباب النورمنديين إلى إنشاء ممالك جديدة من الولايات القديمة . ذلك أن بحارة الشمال كانوا حكاماً أقوياء لا يبالون بالمبادئ الأخلاقيـة ولا يرعون فى الوصول إلى أغراضهم ضميراً ، ولكنهم قادرون على أن يحكموا بيد من حديد شعباً مشاكساً ، مضطرباً ، مكوَّناً من الغاليين والفرنجة ، والشماليين . ولم يكن ربرت الأول (١٠٢٨ — ١٠٣٥) قد أصبح بعد دوقا لنورمندية حين وقعت عينه فى عام ١٠٢٦ على هارلت Harlette ابنة

دباغ فى فالبز Falaise ؛ فلما رآها أضحت عشيقته العزيزة جرياً على إحدى السنن الدنمرقية القديمة ، وسرعان ما أنجبت له ولداً يعرف عند معاصريه باسم وليم النغل William the Bastard وعنـدنا نحن باسم وليم الفاتح Wiliam the Conqueror . ولما اشتد على ربرت وخز ضميره لكثرة ما ارتكب من الذنوب غادر نورمندية فى عام ١٠٣٥ ليحج حجة التوبة إلى أورشليم ، واستدعى قبل سفره أكابر الأعيان ورجال الدين وقال لهم :

« أقسم بديني ألى ان أتركِكم دون أن أولى عليكم سيداً ؛ إن لى ابنا نغلا سيكبر بفضل الله ، وإنى لقوى الرجاء فى أن يكون من أحسن الناس صفات ، ورجائى أن تقبلوه سيداً عليكم ؛ وليس يهمكم قط أنه لم يولد من زواج شرعى فهذا لن يؤثر فى قدرته على الحكم . . . أو فى توزيع العدالة بين الناس . وهأنذا أعيّنه وارثاً لعرشى ، وأخلع عليه من هذه اللحظة دوقية نورمندية بأكملها »(٦٢) .

وتوفى ربرت فى طريقه إلى أورشليم ، وحكم الأشراف وقتاً ما بالنيابة عن ابنه . ولما شبت فتنة فى البلاد تحاول خلعه أخمدها بوحشية ممزوجة بالكرامة ، فقد كان رجلا يجمع بين الدهاء والبسالة ، بعيد النظر فى وضعه خطط المستقبل ، ملاكاً لأصدقائه ، وشيطاناً على أعدائه . وكان يسمع تهكم الناس على مولده ويقبل هذا التهكم بصدر رحب ، وكان من حين إلى حين يمضى بعض ما يكتب باسم وليم النغل Guiielmus Nothus ؛ ولكنه حين حاصر ألنسون Alencon وعلق المحاصرون الجلود على جدرانهم إشارة إلى حرفة جده قطع أيدى من وقع فى يديه من الأسرى وأرجلهم ، وفقأ أعينهم ، وقذف المدينة من مجانيقه بهذه الأعضاء . وأعجبت نورمندية بوحشيته وحكمه الصارم ، وعمها الرخاء . فقد حد وليم من استغلال الأشراف للفلاحين ، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنية ، وكان يعنى عناية الأتقياء الصالحين بواجباته الدينية ، وجلل أباه العار بإخلاصه لزوجته إخلاصاً لم يسبق

له مثيل ، وقد أولع بحب ماتلده Matilda الجميلة ابنة بلدوين Baldwin كونت فلاندرز ؛ ولم يؤثر فيه أن لها والدين وزوجا لا يزال على قيد الحياة وإن كان منفصلا عنها . غير أنها ردت وليم وكالت له الإهانات وقالت « إنها تفضل أن تكون راهبة محجبة على أن تتزوج بنغل »[٦٣] ؛ ولكنه لم يزجع عن حبها ، ونالها آخر الأمر وتزوجها رغم تشهير رجال الدين ؛ وترتب على ذلك أن جرّد الأسقف مالجر Malger والأب لانفرانك رئيس الدير لأنهما ذما هذا الزواج ، وحرق في سورة غضبه جزءاً من دير بلك . ثم أقنع لانفرانك البابا نقولاس الثانى بأن يصادق على الزواج ، وأراد وليم أن يكفر عما فرط منه فبنى فى جائن دير الرجال النورمندى الذائع الصيت ، وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز ؛ وكان قد وقع قبل ذلك الوقت فى عام ١٠٤٨ اتفاقاً مع ملك فرنسا . وبعد أن حمى جناحيه بهاتين الوسيلتين وزينهما شرع وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره فى فتح إنجلترا .

الباب العشرون

نهضة الشمال

٥٦٦ – ١٠٦٦

الفصل الأول

إنجلترا (٥٧٧ – ١٠٦٦)

---

١ – ألفرد والدنمرقيون (٥٧٧ – ١٠١٦)

لم يلق فتح الإنجليز والسكسون والجوت لإنجلترا بعد واقعة دورهام Deorham (٥٧٧) إلا مقاومة يسيرة ، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيما بينهم ؛ فأقام الجوت مملكة فى كنت Kent ، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك فى مرســية ، ونورثمبرلاند ، وأنجليا الشرقية East Anglia ؛ وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى فى وسكس Wessex ، وإسكس Essex ، وسسكس Sussex أى فى سكسونيا الغربية ، والشرقية ، والجنوبية . وكانت هذه الممالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هى التى تكون فيها « تاريخ إنجلترا » حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالختل فى مملكة واحدة تحت حكمه .

وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة – مملكة الإنجليز –

بدأت غزوات الدنمرقيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فيها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها ؛ وفي ذلك يقول السجل الإنجليزي السكسوني : « جاءت في عام ٧٨٧ ثلاث سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية ... وقتلت الأهلين — وكانت هذه أولى سفن الدنمرقيين التي جاءت تطلب أرض شعب الإنجليز » . وأغارت على نوثمبرلند Northumberland في عام ٧٩٣ حملة دنمرقية أخرى ، وخربت دير لندسفارن Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه . وفي عام ٧٩٤ دخل الدنمرقيون نهر وير Wear ، ونهبوا ويرموث Wearmouth وچرو Jarrow حيث كان يكدح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت . وفي عام ٨٣٨ هاجم المغيرون أنجليا الشرقية East Anglia وكنت Kent ؛ وفي عام ٨٣٩ رابط أسطول للقراصنة مؤلف من ٣٥٠ سفينة في نهر التامز ، بينا كان بحارته ينهبون كنتربرى Canterbury ولندن . وفي عام ٨٦٧ — فتحت قوة من الدنمرقيين والسويديين مقاطعة نورثمبرلند ، وقتلت آلافاً من « الإنجليز » ، وخربت أديرتها ، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شتتها . وخيمت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها ، وهي البلدة التي حبت شارلمان بألكوين ؛ ولم يحل عام ٨٧١ حتى كان معظم إنجلترا الممتد في شمال نهر التامز خاضعا للمغيرين . واتجه جيش دنمرقي بقيادة جثرم Guthrum نحو الجنوب في ذلك العام نفسه ليهاجم ردنج Reading عاصمة وسكس ؛ والتقى إثلرد Ethelred مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدنمرقيين عند آشدون Ashdown وهزموا المغيرين ؛ ولكن إثلرد جرح جرحاً مميتاً في معركة ثانية عند مَرتن Merton وولى الإنجليز الأدبار .

وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهو في الثانية والعشرين من عمره (٨٧١) . ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أمِّيًّا illiteratus ؛ وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يعرف اللغة اللاتينية ! ويبدو أنه كان مصابا

بالصرع ، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء فى يوم زفافه ، ولكنه كان صياداً قوياً ، وسيم الطلعة ، رشيقاً ، يفوق إخوته فى الحكمة والمهارة الحربية . فلما مضى شهر على تتويجه ، زحف بجيشه الصغير على الدنمرقيين الذين كانوا عند ولتن Wilton ولكنه هزم فيها هزيمة منكرة اضطرته إلى شراء الصلح من عدوه لينقذ بذلك عرشه ؛ غير أنه انتصر فى معركة حاسمة عند إثندون Ethandun (إدنجتن Edington الحالية) فى عام ٨٧٨ اجتاز بعدها نصف الجيش الدنمرقى القناة الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة ؛ أما بقية الجيش فقد وافق بمقتضى معاهدة ودمور Wedmore . على ألا يتجاوز رجاله شمالى إنجلترا الشرقى فى البلاد التى سميت فيما بعد دين لو Danelaw .

ويقول أسر وهو كاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية « يقصد نهبها » ، وفتح البلاد ، ونادى بنفسه ملكاً عليها وعلى مرسية بالإضافة إلى وسكس ؛ ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكى يقاوم بها الدنمرقيين . فلما تم له ذلك وجه عنايته — كأنه شارلمان صغير — إلى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد . فنظم الجيش تنظيما جديداً ، وأنشأ عمارة بحرية ، ووضع قانوناً موحداً لممالكه الثلاث ، وأصلح نظام القضاء ، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء ، وأنشأ مدناً وبلداناً جديدة ، وأعاد بناء القديمة ، وشاد « بالحجارة والخشب أبهاء وغرفاً ملكية » ، لموظفى حكومته الآخذين فى الازدياد(٢) . وقد خصص جزءاً من ثمانية أجزاء من إيراد الدولة لإعانة الفقراء ، وجزءاً آخر مثله للتعليم . وأنشأ فى ردنج عاصمة ملكه مدرسة فى قصره ، وجاد بالمال بسخاء على أعمال التعليم والدين التى تقوم بها الكنائس والأديرة . وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بذاكرته إلى أيام صباه حين كانت « الكنائس غاصة بالكنوز والكتب . . . قبل أن تخرب وتحرق » بفعل الدنمرقيين ؛ أما الآن : « فقد انحط التعليم بين الإنجليز انحطاطاً كانت نتيجته

أن عدداً قليلا جداً منهم . . . هم الذين يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجليزية ، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية »[٣] . وقد بعث إلى البلاد الخارجية فى طلب العلماء — بعث فى طلب الأسقف أسر Asser من ويلز ، وإرچينا Erigena من فرنسا ، وكثيرين غيرهم — ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه . وكان يؤسفه أنه لم يجد من قبل إلا قليلا من الوقت يخصصه للقراءة ، ولهذا فقد أقبل الآن على الدراسات الدينية والعلمية إقبال الرهبان . وقد ظل يلاقى صعوبة فى القراءة ، ولكنه كان « يأمر رجالا يقرأون له ليلا ونهاراً » . أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد وكاد غيره من الأوربيين ، فعمـل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجليزية ، وجد هو نفسه فى ترجمة كتاب سلوى الفلسفة The Consolation of Philosphy لبوثثيوس Boetius ، وكتاب العناية بالرعى Pastoral Care لجريجورى ، وكتاب التاريخ العام Universal History لأوروسيوس Orosius وتاريخ إنجلترا الكنسى Ecclesiastical History of England لبيد Bede ؛ وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغانى شعبه ، وعلمها أولاده ، وشارك المغنين فى بلاطه فى إنشادها .

ووصلت غزوة دنمرقية جديدة إلى كنت فى عام ٨٩٤ ؛ وبعث دنمرقيو والدين لوالى الغزاة بالمدد ؛ وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت ، الذين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد ، حلفا مع الدنمرقيين . وانقض إدورد ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره ، وشتت أسطول ألفرد الجديد شمل الأسطول الدنمرقى (٨٩٩) وتوفى الملك بعد عامين من هذه الواقعة ، ولم تكن سنة قد تجاوزت الثانية والخمسين . وليس فى وسعنا أن نوازنه برجل جبار مثل شارلمان لأن الرقعة التى كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة ، ولكنه ضرب

للأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية — تقواه ، واستقامته الخالية من التباهى ، واعتداله ، وجلده ، وإخلاصه لشعبه ، وشغفه بالاستزادة من التعليم — ضرب لها بهذه الصفات مثلا ، وبعث فيها روحا ، تلقتها بأعظم الشكر ونسيتها بعد قليل . وقد أعجب به فلتير إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال : « لست أظن أنه كان فى العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر »(٤) .

وواصل الإسكنديناويون هجومهم على إنجلترا فى أواخر القرن العاشر ، فأغارت قوة من الفيكنج (القراصنة النرويجيين) بقيادة أولاف تريجفسون Olaf Tryggvesson على سواحل انجلترا فى عام ٩٩١ . وعجز الإنجليز بقيادة الملك إثلرد (٩٧٨ — ١٠١٣) (الملقب بردلس Redeless أى غير المنتصح لأنه أبى أن يعمل بمشورة أعيان البلاد) فنفح الغزاة برشا سخية متتابعة ١٠,٠٠٠ ، ١٦,٠٠٠ ، ٢٤,٠٠٠ ، ٣٦,٠٠٠ ، ٤٨,٠٠٠ رطل من الفضة جمعتها دينجلد Danegeld المخرب الوقح من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا . وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يفاوض نورمندية فى عقد حلف معه ، وتزوج إما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندية ، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة . وادعى إثلرد أن الدنمرقيين يأتمرون به ليقتلوه ، ويقضوا على برلمان الأمة الويتناجمور Witenagemor فأمر بقتل كافة من فى الجزيرة من الدنمرقيين أينما وجدوا (١٠٠٢) . ولسنا نعلم إلى أى حد نفذ هذا الأمر بحذافيره ، وأكبر الظن أن جميع من كانوا فى انجلترا من الذكور القادرين على حمل السلاح قد قتلوا هم وبعض النساء ، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمرقة ، وأقسم سوين أن يثأر لمقتلها ، فغزا إنجلترا فى عام ١٠٠٣ ، وأعاد الكرة عليها بجميع قواه فى عام ١٠١٣ . وتخلى نبلاء إثلرد عنه ، ففر إلى نورمندية ، وأصبح سوين ملك إنجلترا وسيدها . غير إن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت سوين (١٠١٤) ، وتخلى عنه الأعيان مرة أخرى ، وعقدوا الصلح مع كنوت

Cnut بن سوين (١٠١٥) . ومات إثلرد فى لندن وهى محاصرة ، وحارب إدمند ذو الجانب الحديدى Edmund Ironside ببسالة ولكن كنوت تغلب عليه عند أسندون Assandun (١٠١٦) . وارتضت إنجلترا بأجمعها كنوت ملكا عليها ، وتم بذلك للدنمرقيين فتح إنجلترا .

٣ ـ الحضارة الإنجليزية ـ السكسونية ٥٧٧ — ١٠٦٦

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسى ؛ فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون ، ولغتهم ، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها فى إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقاً لا يستطاع معه فهم نظام الحكم فى البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول . ولقد تبدلت فى أثناء الفترات الخالية من الأحداث ، بين حرب وحرب ، وبين جريمة وجريمة ، أساليب الحرث والزرع والتجارة ، وبعثت الآداب بعثاً جديداً ، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل .

وليس فى التاريخ أساس لذلك القول الخداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الدمقراطية . ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزى السكسونى قد استولوا على الأرض الزراعية ، فلم يحل القرن السابع الميلادى حتى كان عدد قليل من الأسر يمتلك ثلثى تلك الأراضى[٥] ، ولم يحل القرن الحادى عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الخاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة . وفى أثناء الغزو الدنمرقى نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم فى نظير حمايتهم ، ولم يحل عام ١٠٠٠ بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجاراً من محصولهم أو من كدحهم إلى أحد السادة الملاك[٦] . وكانت هناك « اجتماعات للمدينة » و « اجتماعات للشعب » . « واجتماعات المائة » وهى اجتماعات كانت بمثابة جمعيات أو محاكم للمقاطعة . ولكن لم يكن يسمح بحضورها إلا لملاك الأراضى . وأخذت هذه ال

يضعف سلطانها وتقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن ، ويحل محل معظمها محاكم النبلاء فى ضياعهم . وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا فى يد الويتنأجموت Witenagemot القومى — « مجلس العقلاء » — وهو جمعية صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء ، والأساقفة ، وكبار وزراء التاج ؛ وبغير موافقة هذا البرلمان الأبله لم يكن ملك إنجليزى يختار أو يبقى على عرشه ، أو يضيف قيراطا إلى مزارعه الخاصة التى كان يستمد منها إيراده المستديم ؛ ولم يكن فى وسعه أن يسن قانونا ، أو يصدر حكما قضائياً ، أو يشن حرباً ، أو يعقد صلحا إلا بموافقته (٧) . وكان أعظم سند للملكية ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبين الكنيسة من حلف غير رسمى . ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل الفتح النورمندى وبعده كانت تعتمد على رجال الدين فى كل ما يتصل بالتعليم العام ، والنظام الاجتماعى ، والوحدة القومية ، وبالإدارة السياسية نفسها . وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبرى Glastonbury كبير مستشارى الملكين إدمند Edmund (٩٤٠ — ٩٤٦) وإدرد Edred (٩٤٦ — ٩٥٥) ، وقد حمى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء ، وكان جريئاً فى نقد الملوك والأمراء ، ولذلك نفاه الملك إدوج Edwig (٩٥٥ — ٩٥٩) من البلاد ، ثم أعاده إدجر Edgar (٩٥٩ — ٩٧٥) إليها ، وهو الذى وضع التاج على رأس إدورد الشهيد Edward the Martyr (٩٧٥ — ٩٧٨) ، وشاد كنيسة القديس بطرس فى جلاستنبرى ، وشجع الفنون والتعليم ، وتوفى وهو كبير أساقفة كنتربرى فى عام ٩٨٨ . وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعدونه أعظم قديسيهم قبل تومس آبكت Thomas à Becket .

ونشأت الشرائع ببطء فى هذه الحكومة المفككة . وقد وجدت فى القانون الألمانى القديم ، بعد أن عدل لفظه وظروفه ، كفايتها . وبقيت فى هذا القانون عادات تبرئة المتهم بشهادة شهود يقسمون بأنه برىء ، كما بقيت فيه الدية ،

والتحكيم الإلهى ، ولكن عادة المحاكمة بالاقتتال لم تكن معروفة فيه ؛ وكانت الدية فى القانون الإنجيلى (الإنجليزى) تختلف اختلافا له دلالته . فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثرمزا Thrimsas (نحو ١٣٫٠٠٠ دولار أمريكى) ، ودية الأسقف ١٥٫٠٠٠ ، ودية النبيل أو رجل الدين ألفين ، ودية الفلاح الحر ٢٦٦ . وكان القانون الإنجليسكسونى يقضى بأن يغرم الإنسان شلناً أو شلنين إذا تسبب فى جرح إنسان جرحا يبلغ طوله بوصة واحدة ، وثلاثين شلناً إذا قطع جزءاً من أذن ؛ على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكفى لابتياع خروف . وكان قانون إثلبرت يعاقب الزانى بأن يؤدى إلى زوج من زنى بها غرامة ويبتاع له زوجة أخرى[٨] . وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودى به « خارجاً على القانون » فتصادر أملاكه لصالح الملك ، ويباح دمه . ولم يكن يسمح بالدية فى بعض الحالات ، وكانت توقع بدلا منها عقوبات صارمة : الاسترقاق ، والجلْد ، والإخصاء ، وبتر اليدين أو القدمين ، أو الشفة العليا ، أو جدع الأنف ، أو صلم الأذن ، أو إعدام المذنب بشنقه ، أو قطع رأسه ، أو حرقه ، أو رجمه ، أو إغراقه فى الماء ، أو إلقائه فى هوة سحيقة[٩] .

وكان النظام الاقتصادى شبيها بالقانون فى بدائيته ، وكان أقل تقدماً منه فى بريطانيا الرومانية . وكانت جهود كثيرة قد بذلت فى تقطيع الغابات وتجفيف المناقع ، ولكن إنجلترا كانت لا تزال فى القرن التاسع تشغل نصفها الغابات ، والمروج ، والمناقع ، وكانت الحيوانات البرية — الدببة ، والحلاليف ، والذئاب — لا تزال تجوس خلال الغابات . وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء . وكان الاسترقاق فى بعض الحالات مآل المذنبين أو المجرمين ؛ وكان فى وسع الأزواج أو الآباء أن يبيعوا أزواجهم أو أبناءهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم ؛ وكان جميع أبناء الأمة أرقاء ولو كان آباؤهم من الأحرار . وكان فى مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد ، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهى حامل منه .

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة ، وإذا قتله غريب ذهبت ديته القليلة إلى مالكه ، وإذا أبق ثم قبض عليه كان يستطاع جلده حتى يموت[١٠] وكانت أهم تجارة فى برستل Bristol هى تجارة الرقيق . وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين ، فكانت البلدان كفورا ؛ والمدن بالدنا غير كبيرة[*] فكانت لندن ، وإكستر ، ويورك ، وتشستر ، وبرستل ، وجلوسستر ، وأكسفورد ، ونروج Norwich ، وورستر ، ونشستر كانت هذه كلها بلدانا صغيرة ولكنها نمت نمواً سريعاً بعد زمن ألفرد ، ولما أن جاء الأسقف مليتس فى عام ٦٠١ ليعظ فى لندن لم يجد إلا « عدداً قليلامن السكان الوثنيين»[١١] ، فى البلدة التى كانت إحدى الحواضر فى أيام الرومان ، ثم عادت إلى النماء فى القرن الثامن بفضل مركزها الحربى المشرف على نهر التاميز ، حتى أصبحت فى عهد كنوت عاصمة البلاد القومية .

وكانت الصناعة تعمل عادة للسوق المحلية ؛ غير أن صناعتى النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدما من سائر الصناعات ، وكانتا تصدران منتجاتهما إلى بلاد القارة الأوربية . وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة ، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن . وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن ، ولكن بعض الملوك سكوا فى ذلك القرن نقوداً فضية ، منها شلنات ومنها جنيهات ؛ وكانت أربعة شلنات فى إنجلترا فى القرن العاشر تكفى لشراء بقرة وتكفى ستة لشراء ثور[١٢] . وكانت الأجور منخفضة بهذه النسبة نفسها ، وكان الفقراء يسكنون فى أكواخ خشبية ذات سقف من القش ، ويعيشون على الخضر ، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات أيام الآحاد . وكان الأغنياء يزينون قصورهم

(*) وقد احتفظ [illegible] من البلدان الإنجليزية بمقاطع أنجليسكسونية فى بدايتها — tun (town) بلدة ، ham (home) وطن ، Wick (house) منزل أو خور ، Thorp (قرية) ، hamb ([illegible]) .

الساذجة الخشنة بستائر مصورة ، ويدفئون أجسامهم بالفراء ، ويجملون أثوابهم بالتطريز ، ويزينون أنفسهم بالجواهر .

ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أضحت فى بعض العصور المتأخرة من تاريخ انجلترا ، فنحن نسمع الشىء الكثير عن الخشونة والفظاظة ، والوحشية ، والكذب ، والغدر ، والسرقة وغيرها من العادات المتأصلة ، ويعترف القراصنة النورمان الذين أغاروا على انجلترا فى عام ١٠٦٦ ، ومنهم من لم يكونوا أبناء شرعيين ، بأنهم دهشوا من انحطاط المستوى الخلقى والثقافى عند ضحاياهم . وكان جو انجلترا الرطب يغرى الإنجليز — السكسون بالإفراط فى الطعام والشراب ، وكانت « حفلة الجعة » عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعياد . ويصف القديس بنيفاس الإنجليز فى القرن الثامن وصفاً بهيجاً لا يخلو من المغالاة فيقول « إن المسيحيين والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات ، ولا يزالون يعيشون عيشة الدعارة والزنى كما تعيش الخيل الصاهلة والحمر الناهقة »(١٣) ، وكتب فى عام ٧٥٦ إلى الملك إثلبولد Ethelbald يقول :

« لو أن احتقارك للزواج المشروع كان يهدف إلى الطهارة لكان أمراً محموداً ، أما وأنتم منغمسون فى الترف ، وترتكبون الزنى مع الراهبات أنفسهن ، فإن ذلك الاحتقار أمر مرذول يسربلكم العار . . . ولقد سمعنا أن نبلاء مرسية كلهم تقريباً يحذون حذوكم ، فيهجرون أزواجهم الشرعيات ، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات . . . خذوا حذركم من هذا . . . إذا كانت أمة الإنجليز . . . تحتقر الزواج المشروع ، وتسارع إلى الزنى ، فلا بد أن يؤدى هذا الاتصال إلى وجود شعب دنىء يحقر الله ، وستجر الخراب والدمار على البلاد بهذا التهتك وهذه الأخلاق المرذولة » .

وكان من حق الزوج فى القرون الأولى من حكم الإنجليز — السكسون أن يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غيرها . وقد ندد مجمع هرتفورد Hertford

الدينى (٦٧٣) بهذه العادة ، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية ، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن فى بعض الأحيان . ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم فى الكتب ، ولكن لم يجدن فى ذلك ما يحول بينهن وبين تأثيرهن فى الرجال واجتذابهم لهن . فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المتشامخات ، ويستشيرون زوجاتهم فى السياسة العامة[١٥] . وقد ظلت إثالفلد ابنة ألفرد ، وهى ملكة ونائبة عن الملك ، جيلا من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحا ، أنشأت فيه المدن ، وأحكمت وضع الخطط الحربية ، وانتزعت من الدنمرقيين دربى ، وليستر ، ويورك . ويقول عنها وليم من أهل مالمزبرى إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها ، فأبت بعد ذلك عناق زوجها ، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم لمتعة وقتية تؤدى بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة »[١٦] . وكانت تعيش فى مرسية وقتئذ (حوالى ١٠٤٠) جدجيفا Godgifa زوجة إيرل ليوفريك Earl Leofric . ودارت حول اسمها جديفا Godiva الذى اشتهرت به فيما بعد كثير من القصص الممتعة الجذابة ، وأقيم لها تمثال فى كوفنترى Coventry (*) .

وعانى التعليم ، كما عانى كل شىء سواه ، الأمَرَّين من جراء الفتح الإنجليزى — السكسونى ، ثم أخذ ينهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحى . فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop مدرسة فى دير ويرزموث Wearsmouth حوالى عام ٦٦٠ ، كان بيد Bede من خريجيها ؛ وأنشأ إجبرت مدرسة ومكتبة فى كنيسة يورك (٧٣٥) ، صارت أهم مركز للتعليم الثانوى فى انجلترا ، وأضحت انجلترا فى النصف الثانى من

(*) وقد ورد فى هذه القصة أن ليوفريك رضى أن يعفى المدينة من ضريبة باهظة إذا خرجت هى إلى الشوارع راكبة وعارية . والعالم كله يعرف بقية القصة .

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم فى أوربا الواقعة شمال جبال الألب .

ويتجلى إخلاص معلمى الأديرة وظرفهم فى شخصية بيد الموقر The Venerable Bede أعظم علماء زمانه (٦٧٣ — ٧٣٥) وقد لخص هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال :

بيد خادم المسيح ، قس دير الرسولين المباركين ، بطرس وبولس ، القائم فى ويرزموث وچرو . وإذ كنت قد ولدت فى إقليم ذلك الدير فقد أدخلنى أهلى فيه وأنا فى السابعة من عمرى لأربى على يدى رئيسه المبجل بندكت بسكوب ، ولقد قضيت حياتى كلها بعد ذلك الوقت فى هذا الدير ، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس ، والمحافظة على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية فى الكنيسة ؛ وكنت أستمتع على الدوام بتلقى العلم أو بالتدريس أو بالكتابة . . . حتى عينت شماساً فى التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أصبحت قساً فى سن الثلاثين . . . وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراسة الكتاب المقدس والأعمال الآتية . . .(١٧) .

وكلها باللغة اللاتينية ، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس ، ومواعظ ، وثبتا بالحوادث العالمية وتواريخها ، ورسائل فى النحو ، والرياضيات ، والعلوم ، والدين ، وأهم من هذه كلها كتابه فى *التاريخ الكنسى للأمة الإنجليزية* (٧٣١) . ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة فى أنه ليس سجلاً جافاً للحوادث ؛ وربما كان فى الجزء الأخير منه مثقلا فوق ما يجب بأخبار المعجزات ، وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه ، مدفوعاً إلى هذا بسذاجته البريئة الطاهرة ، شأن العقل الحبيس من سن السابعة ؛ ولكنه رغم هذا كله قصة واضحة خلابة ، تسمو فى أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

البسيطة ، كما نرى ذلك فى وصفه للفتح الأنجليسكسونى(١٨). وكان بيد رجلا مفكراً حى الضمير ، يعنى أشد العناية بتواريخ الحوادث ، وهو فى العادة دقيق فيما يورده منها ؛ يعين المراجع التى يعتمد عليها ، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى ، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « لست أريد أن يقرأ أبنائى أكذوبة واحدة »(١٩) ، ونرجو أن يكون قصده بأبنائه تلاميذه السمائة الذين علمهم . وقد توفى بعد ست سنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر ، والتى جمع فى سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان :

« وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطفت عليه فأسقيته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل فى يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك » .

ويذكر بيد أن الناس فى زمانه كانوا يتحدثون فى إنجلترا بخمس لغات : الإنجليزية ، والبريطانية (الكلتية) ، والأيرلندية ، والبكتية (الاسكتلندية) ، واللاتينية . فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles) ، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلا ، وكان يفهمها الفرنجة ، والنرويجيون ، والدنمرقيون ، فقد كان هؤلاء الأقوام الخمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية ، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها . وكان ثمة أدب أنجليسكسونى جدير بالاعتبار من القرن السابع ، وليس لنا مصدر نعتمد عليه فى تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزءه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية فى إنجلترا الحروف اللاتينية (واستبدلتها بحروف شمالى أوربا التى كانوا يكتبون بها من قبل) ، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمرقية كثيراً من دور الكتب ، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية . يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجليسكسونية كانت قصائد

وثنية ، وكان يتناقلها جيلا بعد جيل شعراء مغنون مستهترون بعض الاستهتار فى حياتهم وحديثهم ، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إليهم . ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذى كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجليسكسونى — وهى شرح منظوم لسفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما فى الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروى خروج آدم من الجنة . وهنا تسرى فى الشعر الحياة ، ومن أكبر أسبابها أن الشيطان يصوّر فى صورة الثائر المنفعل المتحدى ، ولعل ملتن Milon قد وجد هنا لمحة بنى عليها وصفه للشيطان فى قصيدته . ومن القصائد الأنجليسكسونية ما هو مراث ؛ فقصيدة « الجائل » مثلا تتحدث عن الأيام السعيدة الخالية فى قصور الأشراف ؛ أما الآن وقد مات النبيل « فقد أقفرت هذه الأرض الثابتة كلها » وأصبح « أكثر ما يثير الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة »[٢٠] ؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذا التعبير لا نستثنى من ذلك شعر دانتى نفسه . وأكثر ما تتغنى به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهى حين تفعل هذا ممتعة قوية . و« أنشودة واقعة ملدون Maldon » (حوالى ١٠٠٠) لا ترى فى هزيمة الإنجليز شيئاً غير البطولة ؛ والمحارب القديم برهتود Byrhtood ، وهو واقف أمام جسد سيده القتيل « يبث الشجاعة » فى قلوب السكسون حين أحدق العدو بهم بعبارات كعبارات مالورى Malory وتسبقها فى الزمن :

كلما نقصت قوانا زادت أفكارنا صلابة ، وقلوبنا حدة ، وتضاعفت أمزجتنا . وهاهو ذا أميرنا مسجى على الأرض ، لقد قطعوه وأماتوه ! ألا فلتحل الأحزان والأشجان أبد الدهر بالرجل الذى يغادر وطيس القتال ! لقد تقدمت بى السنون ، ولكننى لن أبرح هذا المكان ؛ إنى أريد أن أرقد إلى جانب مولاى ، إلى جانب الرجل الذى أعزه[٢١] .

ونظن أن بيولف Belowulf أطول القصائد الأنجليسكسونية وأنبلها قد ،

أنشئت فى القرن السابع أو الثامن ، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٠٠٠ يوجد الآن فى المتحف البريطانى . ويبدو أن أبياتها البالغ عددها ٣١٨٣ بيتاً هى القصيدة بأكملها . والشعر غير مقفى ولكنه موزون متجانسة أوائل ألفاظه ، مصوغ فى لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها فى هذه الأيام . والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال ، وخلاصتها أن بيولف أمير القيط (القوط ؟) فى جنوبى السويد يعبر البحر ليطلق سراح هرثجار Hrothgar ملك الدنمرقة من التنين جرندل Grendel ؛ وبعد أن يغلب جرندل وأم جرندل نفسها ، يعود بطريق البحر إلى قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلا مدة خمسين عاماً . ويظهر وقتئذ تنين ثالث يقذف باللهب ويعيث فساداً فى أرض القيط ، فيهاجمه بيولف ، ويصاب فى هذا الهجوم بجرح مميت ، فيخف صديقه وجلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان على قتل التنين . ويموت بيولف من أثر جرحه ، وتحرق جثته على كومة الحريق . وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه ؛ فالتنين الذى تتحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان البرى الذى يكمن فى الغابات المحيطة بمدن أوربا ، وفى وسعنا أن نعفو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش فى تلك الصورة الخرافية ، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأقاصيص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم .

وبعض فقرات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجزائها ، كأنما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضع فى أجزاء متفرقة منها سطراً يشعر بالتقى والصلاح . غير أن جو القصيدة وحوادثها جو وثنى خالص وحوادث وثنية خالصة . ولقد كان الحب ، والحياة ، والمعارك الحربية على الأرض هى التى يعنى بها أولئك « النساء الحسان والرجال البواسل » ، ولم يكونوا يعنون بجنة هادئة وراء القبور . ويقول المؤلف فى بداية القصيدة بعد

أن يدفن سلد Scyld الملك الدنمرقى كما يدفن قراصنة الشمال فى قارب يدفع إلى البحر وهو خال من الملاحين : « لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذى تلقى هذا العبء » . غير أن جو القصيدة ليس بالجو الوثنى المرح ، بل تسرى فيها من أولها إلى آخرها روح نكدة ، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التى أقيمت فى بهو هرنجار . وفى وسعنا أن نلمح فى ثنايا أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أنين العازف على القيثار :

ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر . . . وأخذ يتحدث عن جرحه ، وعما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرائها على الموت ؛ وأدرك أن منيته قد دنت . . . ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب ، يريدون أن يعبروا عن أحزانهم ، وأن يرثوا الملك ، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل ؛ فأخذوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة ببطولته فى أثناء حياته ، ويمتدحون أعماله الباسلة المجيدة . . . ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رأفة ورحمة ، وأرقهم فى معاملة شعبه ، وأحرصهم على كسب الثناء . . . ومن أجل هذا كان خليقاً بالإنسان أن يثنى على سيده وصديقه . . . وأن يحبه بكل قلبه ، إذا ما حان أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغادر هذا العالم .

وأكبر الظن أن بيولف أقدم ما بقى لدينا من القصائد فى أدب بريطانيا ، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة ٦٨٠) هو أقدم الأسماء فى هذا الأدب . ولسنا نعرفه إلا من فقرة طريفة فى كتاب بيد ، فقد جاء فى كتاب التاريخ الكنسى [٢٣] أنه كان فى دير هوتبى Whitby أخ ساذج يجد فى الغناء من الصعوبة ما يحمله على الهرب إلى مكان يختبئ فيه كلما جاء دوره فى الغناء. وخيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر فى مرقده أن ملكا قد جاءه وقال له : « غن لى شيئاً يا كيدمون ! » فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء ، فأمره الملك أن يغنى ؛ وحاول كيدمون الغناء ، ولشد ما دهش من نجاحه ، ولما استيقظ فى

الصباح تذكر الأغنية ، وأعاد غناءها ، ولهذا أخذ يحاول قرض الشعر ونظم سفرى التكوين ، والخروج ، والأناجيل شعراً « صاغه » كما يقول بيد « بألفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب » . ولم يبق من هذه الأشعار كلها إلا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية . وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf (ولد حوالى عام ٧٥٠) وهو شاعر مغن في بلاط نورثمبرلند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأن ينظم عدة قصص دينية مختلفة — « المسيح » و « أندرياس Andreas » و « يوليانا » ، ولكن هذه القصص تبدو ، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها ، ميتة لا حياة فيها لكثرة ما بها من الصناعة والمحسنات اللفظية .

ويجيء النثر الأدبي في جميع الآداب بعد الشعر في الترتيب الزمني ، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الخيال ، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً « وهم لا يعرفون » قبل أن يتسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فنا من الفنون . وأوضح شخصية في نثر إنجلترا الأدبي هي شخصية ألفرد ، فتراجمه ومقدماته يضفي عليها الإخلاص والبساطة كثيراً من البلاغة ، وهو الذي بذل من الجهد في نشر « ملف الأسقف Bishop's Roll » الذي كان محفوظا عند قساوسة كنيسة ونشستر ، فاستحال على يديه أقوى وأوضح أقسام *السجل الأنجليسكسوني* أول كتاب قيم في النثر الإنجليزي . وليس ببعيد أن يكون معلمه أسر Asser هو الذي كتب الجزء الأكبر من *حياة ألفرد* ، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيما بعد (حوالى عام ٩٧٤) ؛ ومهما يكن من شأنها فهي مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز لاستبدال اللغة الإنجليزية باللغة اللاتينية في الكتب التاريخية والدينية ، على حين أن « القارة » الأوربية التي كانت لا تزال تستحي من أن تكتب مثل هذه المؤلفات الكريمة باللغة « العامية » .

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

من تصوير المعانى ، وتجميل الأشياء ذات النفع المادى . فقد أنشأ ألفرد مدرسة للفن فى أثلنى Alhelney ، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً يحذقون الفنون والصناعات ، « ولم ينقطع فى أثناء حروبه الكثيرة » كما يقول أسر « عن أن يعلّم عماله فى صناعة الذهب وصناعه فى جميع الحرف »(٢٥). ولم يقنع دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقديسين ، فأخذ يمارس بجد صناعتى الحديد والذهب ، وكان إلى هذا موسيقيا بارعا ، صنع لكنيسة جلاستنبرى أرغناً ذا مزامير . وقامت فى البلاد الصناعات الفنية الدقيقة فى الخشب ، والمعادن ، والميناء المقسمة ، واشترك قاطعو الجواهر مع الخمارين فى صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر فى رثول Ruthwell وبيو كاسل Bewcastle (حوالى عام ٧٠٠) ؛ وصب تمثال من الشبه للملك كدولو Cadwallo (المتوفى سنة ٦٧٧) ممتط صهوة جواد بالقرب من لدجيت Ludgate . وكانت النساء ينسجن أغطية الفراش ، والأقمشة التى تزدان بها الجدران ، والمطرزات ، من الخيوط البالغة غاية الدقة(٢٦) . وزخرف رهبان ونشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب أدعية فى القرن العاشر . وشادت ونشستر نفسها ويورك كنائس من الحجر منذ عام ٦٣٥ ؛ وجاء بندكت بسكوب بالطراز اللمباردى إلى إنجلترا من الكنيسة التى أقامها فى ويرزموث عام ٦٧٤ ؛ وأعادت كنتربرى فى عام ٩٥٠ بناء الكنيسة التى بقيت فيها من أيام الرومان . وينقل لنا بيد أن كنيسة بندكت بسكوب قد ازدانت بالنقوش المصنوعة فى إيطاليا ؛ « وأن كل من دخلها ، وإن كان جاهلا لا يعرف شيئاً من العلوم والمعارف ، لا يسعه أينما ولى وجهه إلا أن يتأمل مناظر المسيح وقديسيه التى لا يبلى جمالها . . . وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب أن من واجبه محاسبة نفسه حساباً عسيراً »(٢٧) . وقصارى القول أن القرن السابع قد شهد نهضة فى البناء فى بريطانيا ؛ ذلك أن الأنجليسكسون كانوا قد أتموا فتوحهم ، والدنمرقيون لم يبدءوها ، وأصبح البناءون الذين كانوا من قبل يبنون

بالخشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التى تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة . ولكننا يجب ألا ننكر أن يندكت قد استقدم من غالة البنائين ، وصانعى الزجاج ، وصائغى الذهب ؛ وأن الأسقف ولفرد Wilfrid قد جاء بالمثالين والنقاشين من إيطاليا لزخرفة كنيسته التى شادها فى هكسهام Hexham فى القرن السابع ؛ وأن إنجيل لندسفارن Lindisfarne (حوالى عام ٧٣٠) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو تحمسهم للتبشير إلى تلك الجزيرة القفرة القريبة من ساحل نورثمبرلاند . وقضى مجىء الدنمرقيين على هذه النهضة القصيرة الأجل ، ولم يواصل فن العمارة الإنجليزية الصعود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والجلال حتى استقر سلطان الملك كنوت فى إنجلترا على أساس مكين .

٣ — بين فتحين ١٠١٦ — ١٠٦٦

لم يكن الملك كنوت فاتحاً وكفى ، بل كان إلى هذا حاكما قديراً . ولسنا ننكر أنه لوث بداية حكمه بأعمال القسوة : فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسيد Edmund Ironside وأمر بذبح أخى إدمند ليمنع بذلك عودة الملوك الأنجليسكسون إلى العرش . لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبناءه لا يزالون أحياء فى رون Rouen ، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه (١٠١٧) . وكانت هى وقتئذ فى الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقبلت الخطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة ، وحلف مع دوق نورمندية أخى إما ، وعلى عرش مكين أمين . وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وبركة . فقد كبح جماح الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرقوا وحدتها ، ووقى البلاد شر الغزاة فى المستقبل ، ووهبها اثنى عشر عاماً من السلم غير المنقطعة . واعتنق الملك الدين المسيحى ، وشاد كثيراً من الكنائس ، وأقام نصباً تذكارياً

فى أسندون **Assandun** إحياء لذكرى الأنجليسكسون والدنمرقين الذين حاربوا فى ذلك المكان ، وحج بنفسه إلى قبر إدمند ، ووعد بأن يتبع قوانين انجلترا وأنظمتها القائمة فيها ، ووفى بوعده فيما عدا حالتين اثنتين : فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التى أفسدها الأعيان الأتوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو ، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبير مستشارى التاج ، وأنشأ طائفة من العمال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل فى جعل حكومة البلاد ثابتة مستمرة ؛ وكان عماله كلهم تقريباً ، بعد سنى حكمه الأولى المزعزعة ، من الإنجليز . وقد جمع بين تاجى الدنمرقة وانجلترا ، ثم أصبح فى عام ١٠٢٨ ملكاً على النرويج ، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر .

وكان الغزو الدنمرقى حلقة فى سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفى الامتزاج العنصرى اللذين انتهيا بالفتح النورمندى وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزى . فقد امتزجت دماء الكلت والغاليين ، والإنجليز والسكسون والجوت ، والدنمرقيين والنورمان ، بالزواج أو بغيره من الوسائل ، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد فى زمن الرومان ، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار ، خلقت منهم قراصنة عهد الملكة إلزبث الصخابين ، وفاتحى العالم الصامتين فى القرون التالية . ولقد جاء الدنمرقيون إلى انجلترا ، كما جاء إليها الألمان وأهل الشمال ، بحب للبحر يكاد يبلغ درجة الوجد والهيام ، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار فى أقاصى البلاد . أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدنمرقيين كارثة على البلاد ، وقف فى أثنائها فن البناء فلم يخط خطوة إلى الأمام ، واضمحل فن زخرفة الكتب فيما بين عامى ٧٥٠ ، ٩٥٠ ؛ كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التى شجعها ألفرد ، وفعلت غزوات الشماليين ما فعلته فى غالة نفسها فأخذت تقضى على أعمال شارلمان المجيدة .

ولو أن أجل كنوت طال لأمكنه أن يصلح الأضرار التى أنزلها مواطنوه بالبلاد ، ، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً ، فلما مات كنوت عام ١٠٣٥ ولما يتجاوز سن الأربعين ؛ وخلعت النرويج نير الدنمرقيين على الفور ، واضطر هارثكنوت Harthacnut بن كنوت الذى عينه قبل موته ولياً لعهده أن يكرس كل جهوده لحماية الدنمرقة من غزو النرويجيين ؛ وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هرلد هيرفوت Herald Harefoot إنجلترا خمس سنين ؛ ثم مات ؛ وحكمها هارثكنوت عامين توفى بعدها سنة ١٠٤٢ ؛ واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن إثرل وإما الباقى على قيد الحياة ، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكسونى غير الشقيق وارثاً لعرش انجلترا .

ولكن إدورد المعترف Edward the Confessor (١٠٤٢ — ١٠٦٦) كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أى دنمرقى آخر غريباً عنها . فقد نقله أبوه إلى نورمندية وهو فى العاشرة من عمره ، وقضى ثلاثين عاماً فى بلاط النورمنديين ، وتربى على أيدى أعيانهم وقساوستهم ونشأوه على التقى والصراحة . وجاء الملك الجد إلى انجلترا بلغته وعاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين ، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظفى الدولة ورؤسائها الدينيين ، وتلقوا هبات ملكية ، وشادوا فى انجلترا قصوراً نورمندية منيعة . ولم يخفوا ازدراءهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية ، وبدءوا الفتح النورمندى قبل وليم الفاتح بجيل من الزمان .

ولم يكن يستطيع أن ينافسهم فى التأثير فى الملك الرقيق المطواع إلا رجل واحد هو إيرل جدون Earl Godwin حاكم وسكس ومستشار الدولة الأول فى عهد كنوت وهرلد وهارثكنوت . وكان إيرل جدون واسع الثراء حكيما ، داهية فى الديبلوماسية صبوراً عليها ، فصيح اللسان ، قوى الحجة ، بارعاً فى الأعمال الإدارية ؛ فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين فى التاريخ

الإنجليزى . وقد رفعت تجاربه فى شئون الحكم منزلته فوق منزلة الملك نفسه . وأضحت ابنته إديث Edith زوجة إدورد ، ولولا أن إدورد لم يكن له خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جد ملك من الملوك . ولما أن تزوج تستج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز ، وأصبح سوين Soweyn ملكا على الدنمرقة أنشأ إيرل جدون بهذه الصلات الزوجية حلفاً ثلاثيا جعله أقوى رجل فى أوربا الشمالية كلها لا نستثنى من ذلك التعميم مليكه نفسه . لكن أصدقاء إدورد النورمنديين أثاروا فى نفسه عوامل الغيرة ، فعزل جدون ، وفرّ الإيرل إلى فلاندرز ، كما خرج ابنه هرولد Harold إلى أيرلندة وحشد فيها جيشا ليقاتل به إدورد المعترف (١٠٥١) . ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم ، فطلبوا إلى جدون أن يعود ، ووعدوه بتأييد جنودهم له . وغزا هرولد إنجلترا ، وهزم جيوش الملك ، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبى الغربى وعاث فى أرضه فساداً ، ثم انضم إلى والده وزحفا معاً إلى أعالى نهر التامز ، وثار الشعب فى لندن على حكامه واستقبل الغزاه بالترحاب ، وفرّ الموظفون ورجال الدين النورمنديون ، واجتمع وتنأجمور (مجلس من أعيان الإنجليز وأساقفتهم ، واستقبل جدون استقبال الظافرين ، واسترد جدون سلطانه السياسى وما صودر من أملاكه (١٠٥٢) ، ولكنه مات بعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر .

وعُيِّن هرولد إيرل وسكس ، وخلف أباه فى بعض ما كان له من سلطان . وكان وقتئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، طويل القامة ، بهى الطلعة ، قوى البنية ، شهماً ، مقداماً جريئاً ، قاسياً فى الحروب ، كريماً فى السلم ، شن حملة جريئة خاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجلترا ، وقدم رأس جروفيد Gruffydd زعيم ويلز هدية إلى الملك المسرور المروع (١٠٦٣) . وفى فترة هادئة من حياته العاصفة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ولتام Waltham (١٠٦٠) ، وإعانة

الكلية التى نشأت من مدرسة هذه الكنيسة ، واتجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذى لا يفترق فى شيء عن أبطال الروايات .

وأهم ما حدث فى عهد إدورد من الناحية المعمارية هو الشروع فى بناء دير وستمنستر (١٠٥٥) . وكان الملك قد ألِفَ الطراز المعمارى النورمندى أثناء حياته فى رُوَن Rouen ، فلما أن أمر ببناء الدير الذى أصبح فيما بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا ، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندى الرومانسى على نسق كنيسة الدير العظيمة التى بدئ فى تشييدها قبل ذلك الوقت بخمس سنين لا أكثر فى چومييج Jumièges ، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمنديا قبل أيام وليم . وكان بناء دير وستمنستر إيذانا ببداية نهضة معمارية أوجدت فى إنجترا أجمل المبانى الرومانسية فى أوربا بأجمعها .

وفى مقبرة وستمنستر دفن إدورد فى بداية سنة ١٠٦٦ ذات الأحداث الجسام . واجتمع الويتناجور فى السادس من يناير واختار هرولد ملكا على إنجلترا . وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمندية يطالب بالعرش ويستعد للحرب . وكانت حجة وليم أن إدورد قد وعده فى عام ١٠٥١ أن يوصى له بتاج إنجلترا جزاء له على إيوائه وحمايته فى نورمندية ثلاثين عاما . ويخيل إلينا أن هذا الوعد قد بذل حقاً[٢٨] ؛ ولكن إدورد إما أن يكون قد نسيه ، وإما أنه ندم على ما بذله ، فأوصى قبل وفاته بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا . وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذا الوعد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan ؛ ولكن هرولد — كما يقول وليم — قد قبل منه مرتبة الفروسية أثناء زيارة له فى رون (فى تاريخ لا نعرفه الآن) ، فأصبح بذلك « رجل » وليم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع ، وأنه وعد بأن يعترف به وارثاً لعرش إدورد ويؤيده فى المطالبة به . واعترف هرولد بهذا الوعد[٢٩] ولكن قسمه أيا كان لم يكن من شأنه فى هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشيء ،

فاختاره ممثلو تلك الأمة بكامل حريتهم ملكاً عليهم ، واعتزم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار . ولجأ وليم إلى البابا ، وحكم الكسندر الثانى بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد مغتصب ، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية ، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعى فى عرش إنجلترا ، وبارك غزوة وليم المرتقبة ، وبعث إليه بعلم مدشن وخاتم يحتوى على شعرة من رأس القديس بطرس فى داخل ماسة[٣٠] . وقد سر هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات فى عروش الملوك وفى خلعهم ، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشر سنين من ذلك الوقت على هنرى الرابع ملك ألمانيا ، ولم تكن ثمة صعوبة فى استخدامها مع الملك چون عام ١٢١٣ . وانضم لانفرانك رئيس دير بك إلى وليم فى دعوة أهل نورمندية — أو على الأصح أهل جميع الأقطار — لشن حرب مقدسة على الملك المحروم .

ولاقى هرولد فى كهولته الخيرة جزاء ما ارتكبه فى شبابه من آثام : ذلك أن أخاه تستج الذى نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه ، ولهذا انضم تستج إلى وليم ، وحشد جيشاً فى شمال البلاد ، وأقنع هارلد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه ، ووعده فى نظير ذلك بعرش إنجلترا . وبينما كانت عمارة وليم البحرية المؤلفة من ١٤٠٠ سفينة تقلع من نورمندية إذ أغار تستج وهاردرادا على نورثمبرلند . واستسلمت لهما مدينة يورك ، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على إنجلترا ، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجند وهزم الغزاة من الشمال عند جسر استامفورد Stamford Bridge (فى ٢٥ سبتمبر) ، وقتل فى هذه الواقعة تستج وهاردرادا ، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لقلتها عن الوقوف فى وجه جيش وليم ، وأشار عليه جميع ناصحيه بالتريث . ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً ، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمى الأرض التى خربها هو من قبل والتى أصبح

يخبها اليوم . والتقى الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيستنجس Hastings (١٤ اكتوبر) ونشبت بينهما معركة دامت تسع ساعات . واخترق أحد السهام عين هرولد فأعماه الدم ، ووقع على الأرض ، ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً ، فقطع أحدهم رأسه ، وآخر ساقه ، ونثر ثالث أحشاء هرولد فى ميدان القتال . ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار ، وأعقبت هذه الهزيمة مذبحة وفوضى بلغ من هولهما أن الرهبان الذين كلفوا فيما بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديث سوانزنك Edith Swansneck التى كانت عشيقته ، فتبينت جثة عشيقها المبتورة الأطراف ، ودفنت قطعها فى كنيسة ولتام التى بناها فى حياته . ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا فى يوم عيد الميلاد من عام ١٠٦٦ .

الفصل الثاني

ويلز ٥٢٥ – ١٠٦٦

فتح فرنتينس Frontinus وأجركولا Agrtcola بلاد ويلز وضمها إلى رومة فى عام ٧٨ م . ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت ويلز حريتها ، وخضعت على كره منها لحكم ملوكها . واحتل غربى ويلز مستعمرون أيرلنديون فى القرن الخامس ، ثم جاء إليها فيما بعد آلاف من البريطانيين فارين من الأنجليسكسون الذين فتحوا جزيرتهم . ووقف زحف الأنجليسكسون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذى لم يخضعوه اسم ويلهاس Wealhas — « الأجانب » . ووجد الأيرلنديون والبريطانيون فى ويلز سلالة كلتية من جنسهم ، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru « أبناء وطن واحد » . وصار هذا هو اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم . وكان هؤلاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعى كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم فى هذا شأن معظم الشعوب الكلتية — البريطانيين ، والكورنيين Cornish (سكان كورنوول الحالية) ، والأيرلنديين ، والجيليين Gaels سكان شمالى إسكتلندة ، وقد بلغ من حرصهم على هذا النظام أن أصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ، ويرتابون أشد الارتياب فى كل شخص أو شعب يجرى فى عروقه الدم الأجنبى . ولم يكن سخاؤهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية ، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام ، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبهم للموسيقى والغناء والوفاء للأصدقاء ، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلا من كل فتاة أميرة ومن نصف الرجال ملوكا .

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم. ولم يكن هؤلاء

الشعراء هم عرافى شعبهم ومؤرخيه ومستشارى ملوكه فحسب ، بل كانوا إلى ذلك شعراءه . وقد خلد الزمان اسمى اثنين من هؤلاء الشعراء هما تليزن Talesin وأنورين Aneurin ؛ وقد عاش كلاهما فى القرن السادس الميلادى . وكان هناك مئات غيرهما ، وعبرت القصص التى نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطانى ، ووصلت فى صورة مصقولة إلى فرنسا . وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينيين ، لم يكن يسمح لأحد أن ينتمى إليها إلا بعد مران صارم دقيق فى معارفه . وكان كل من يريد الدخول فى زمرتهم يسمى ما بينوج Mabinog ، وكانت الموضـــوعات التى يدرسها تسمى ما بينوجى Mobinogi ، ولهذا أطلق اسم ما بينوجيون Mabinogion على ما بقى من قصصهم[٣١] . ولا ترجع هذه القصص فى صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر ، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت الذى لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد ويلز . وهى قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنيه تشهد بأن الأهلين كانوا من عباد الطبيعة ، مليئة بالحيوانات الغريبة والحادثات المدهشة ، يسودها جو نكد من النفى ، والهزيمة ، والموت ؛ ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف .االذين نشهدهما فى قصص الإدا Eddas الأيسلندية Icelandic ، والساجا Sagas خرافات أهل الشمال ، والنيبيلنجنليد Nibelungelied . وقد نشأ فى عزلة جبال ويلز أدب خيالى يفيض بالولاء للأمة ، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم . وكان لهذا الأدب شأن فى نشأة الفروسية ، والقصص العجيبة التى تتحدث عن الملك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل الذين أقسموا أن « يقضوا على الوثنين ويقيموا دين المسيح» .

ودخلت المسيحية ويلز فى القرن السادس ، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس فى الأديرة والكنائس . وقد جاء الأسقف العالم أسر الذى كان أمين سر الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت داڤد وكنيسته فى مقاطعة پمبروك

Pembrokeshire . وتحملت هذه المزارات والمستقرات المسيحية الهجمات الأولى للقراصنة النورمنديين حتى طردهم الملك رودرى الأكبر Rhodri (٨٤٤ — ٨٧٨) وأنشأ فى الجزيرة أسرة ملكية قوية . ووحّد الملك هيول الصالح Hywel The Good (٩١٠ — ٩٥٠) ويلز كلها ووضع لها قانوناً موحداً منظماً . ولاقى جرفيد آب ليولين Grulfydd ab Llywelyn (١٣٠٩— ١٠٦٣) من النجاح أكثر مما كان يجب أن يلقاه ؛ فلما أن هزم مرسية Mercia أقرب المقاطعات الإنجليزية إلى ويلز ، أعلن عليه هرولد ، الذى أصبح فيما بعد ملكاً على إنجلترا ، حرباً دفاعية لصد عدوانه ، وفتح بلاد ويلز ، وضمها إلى بريطانيا (١٠٦٣) .

الفصل الثالث

الحضارة الأيرلندية ٤٦١ - ١٠٦٦

كانت أيرلندة في الفترة الواقعة بين موت القديس پاترك والقرن الحادى عشر مقسمة إلى سبع ممالك ، منها ثلاث فى ألستر Ulster ، أما الباقية فهى كنوت Connought ، ولينستر Leinster ، ومنستر Munster ؛ وميث Meath . وكانت هذه الممالك تحارب بعضها بعضاً فى أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة ؛ ولكننا نسمع من بداية القرن الثالث الميلادى عن غارات يشنها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية ، وعن محلات أيرلندية فى هذه السواحل . ويسمى الإخباريون هؤلاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots - ويبدو أن هذا اللفظ لفظ أيرلندى معناه الجوالون ؛ وإذا ذكر هذا اللفظ متصلا بهذه الفترة من الزمن فمعناه الأيرلنديون . ولم تنقطع الحروب فى أثنائها ؛ وظلت النساء حتى عام ٥٩٠ يُطلبن إلى الاشتراك فى القتال ، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غيرهم ممن هم أكثر اعتياداً له ، وكان ثمة قانون يماثل فى جوهرة قوانين « البرابرة » الذين يسكنون القارة الأوربية ، ويشرف على تنفيذ البرهون Brehons - وهم قضاة من رجال القانون مدربون أحسن تدريب ، كانوا منذ القرن الرابع يعلّمون فى مدارس الحقوق ويؤلفون رسائل قانونية باللغة الجيلية Gaelic[٣٣] .

ونجت أيرلندة كما نجت اسكتلندة من الفتوح الرومانية ، ولهذا فإنها لم تتح لها نعمة الاستمتاع بالقانون الرومانى وبالحكومة المنظمة ، فلم يفلح قانونها يوما من الأيام فى استبدال الأحكام القضائية بعادات الثأر والانتقام ، أو التأديب بالانفعال . وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلى ، ولم تفلح قط فى

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة .

وكانت الأسرة هي الوحدة التي يقوم عليها المجتمع وشئونه الاقتصادية ، ويتألف من عدة أسر بطن ، ومن عدة بطون عمارة ، ومن عدة عمائر قبيلة . وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد ، وأخذت كثير من الأسر تضيف اسم القبيلة التي تنتمي إليها Ui أو O' (حفيد) للدلالة على نسبها ، فأسرة أونيل مثلا تقول إنها تنسب إلى نيال جلندبه Mial Glundubh ملك أيرلندة فى عام ٩١٦ . واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضف إليه إلا لفظ ماك Mac أى ابن . وكانت معظم الأراضى فى القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العمائر[٣٤] ، وكانت الأملاك الفردية الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية[٣٥] ؛ ولكن الملكية الفردية انتشرت فى البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادى ، وسرعان ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد يمتلك أفرادها ضياعاً واسعة ، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار ، وطبقة صغيرة من مستأجرى الأرض ، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئك المستأجرين[٣٦] . وظل الأيرلنديون فى القرون الثلاثة التى أعقبت دخول المسيحية فى البلاد (٤٦١ — ٥٧٠) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية ، أما من الناحية الثقافنة فقد كانوا فى أغلب الظن أرقى جميع الشعوب التى تسكن فى شمال جبال البرانس والألب .

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة : تدفق العلماء الغاليين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية فى القرن الخامس ، وازدياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغاليين ، ونجاة أيرلندة قبل القرن التاسع من الهجمات الأجنبية . وقد افتتح فيها الرهبان ، والقساوسة ، والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات ؛ منها مدرسة فى كلونارد Clonard أنشئت فى

عام ٥٢٠ كانت تضم ٣٠٠٠ طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايعين لوطنهم[٣٧]) ؛ ومدارس أخرى فى كلنماكنويس Clonmacnois (٥٤٤) ، وكلنفرت Clonfert (٥٥٠) ، وبنجور Bangor (٥٦٠) . وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد للطلاب مناهج تستمر اثنى عشر عاماً تؤدى إلى درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وتشمل دراسات للكتاب المقدس ، وأصول الدين ، والآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، ونحو اللغة الجيلية وآدابها ، وعلوم الرياضة والهيئة ، والتاريخ والموسيقى ، والطب والقانون[٣٨]. وكان ينفق على فقراء الطلبة ممن لا يستطيع آباؤهم أن يعولوهم من الأموال العامة ، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لخدمة الدين ، ولهذا لم يكن الأيرلنديون يضنون بأى بذل فى سبيل إعداد الطلاب لهذه المهنة . وظلت هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم بهذه اللغة يختفى من أوربا الغربية بزمن طويل . وقد درس ألكوين فى مدرسة كلنماكنويس ، وفى أيرلندة تعلم جون اسكوتس إرجينا John Scotus Erigena اللسان اليونانى الذى جعله موضع إعجاب شارل الأصلع فى فرنسا .

وكان مزاج هذا العصر وآدابه يساعدان على نشأة الأقاصيص والروايات الغرامية ، لكن بعض العقول كانت تتجه إلى العلوم الطبيعية فى أماكن متفرقة من البلاد ، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungal العالم الفلكى ، وفرجيل Fergil العالم فى الهندسة النظرية الذى علم قومه أن الأرض كروية ، ودكويل Dicuil العالم الجغرافى الذى أعلن كشف أيسلندة على أيدى الرهبان الأيرلنديين فى عام ٧٩٥ ؛ والذى أوضح شدة الضوء فى منتصف ليالى الصيف الأيرلندى بقوله إن فى وسع الإنسان أن يجد وقتئذ من الضوء ما يمكنه من تنقية البراغيث من قميصه[٣٩] . وكان النحويون كثيرى العدد ، ويكفى سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض فى أيرلندة كان فى ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه فى أى مكان آخر . كذلك كان الشعراء كثيرين ، وكانت لهم فى المجتمع منزلة عالية ،

وكانوا فى العادة يجمعون إلى قرض الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والمحاماة ويجتمعون فى مدارس للشعر حول شاعر نابه ، ولهذا ورثوا كثيراً مما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية فى البلاد من سلطات وامتيازات خاصة . وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع ، وكانت تعتمد فى العادة على ما تهيئه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين(٤٠) . وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قوميين مشهورين : فلان ماك لونين Flann Mac Lonain ، وكنث Kenneth ، وأهارتجان O'Hartigan ، وإيوكيد أفلين Eochaid 'Flainn ، وماك لياج Mac Liag الذى اتخذه الملك بريان بورو Brain Boru شاعر بلاطه .

واتخذت قصص أيرلندة فى ذلك العصر صورة أدبية ، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولا قبل أيام پتريك ، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويا ثم صيغت وقتئذ قالب من النثر الموزون ، والشعر الغنائى ، وما من شك فى أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها فى قالبها الأدبى ، وإن لم تصل إلينا مخطوطة إلا بعد القرن الحادى عشر . ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تخلد ذكرى آباء الشعب الأيرلندى الأسطوريين . فمنها طائفة « فِنِّية Fenian » أو « أسيانية Ossianic » تقص فى شعر حماسى مثير مغامرات البطل الخرافى فن ماك — كهيل Finn Mac Cumhail وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو الفنيين Finians . وتعزو الروايات المتداولة معظم هذه القصائد إلى أسيان Ossian بن فن Finn ، الذى عاش ، كما تقول الروايات ، ثلثمائة عام ومات أيام القديس پتريك ، بعد أن وهب القديس قسطا من عقله الوثنى . وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولين Cuchulain الملك الأيرلندى ، الذى نشهده فى مائة منظر داعر من مغامرات الحرب والحب . وأجمل قصة فى هذه المجموعة تروى قصة ديردر Deirdre ابنة فليم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

ومضمونها أن قسا درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً من النكبات لبلادها ألستر ؛ ويرفع الشعب عقيرته قائلا : « فلتذبح » ، ولكن الملك كونور يحميها من غضب الشعب ، ويربيها ، ويعتزم الزواج بها . وتزداد الفتاة جمالا على مر الأيام ، ثم تبصر ذات صباح الفتى ناأويز Naoise الوسيم يلعب الكرة مع غيره من الشبان ، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ وتعيدها إليه ، و « ضغط على يدى وهو مبتهج » . وتؤثر هذه الحادثة فى عواطفها الناضجة فترجو خادمتها الخاصة قائلة : « أى مربيتى الرقيقة ، إذا كنت تحبين لى الحياة ، فاحملى منى رسالة إليه ، وقولى له أن يأتى ليتحدث إلىّ سرًّا فى هذه الليلة » . ويقبل ناأويز ويغترف من حبها حتى يسكر ، ثم يأتى إليها هو وأخواه إينل Ainnle وأردان Ardan فى الليلة الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة . ويقع أحد ملوك اسكتلندة أسير هواها ، فيخفيها الإخوة الثلاثة فى شعاب الجبال ، ثم يبعث الملك كونور بعد حين رسالة يقول فيها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا إلى إيرين Erin . ويوافق ناأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحنينه إلى وطنه ومسارح صباه ، وإن كانت ديردر تحذره عاقبة هذه العودة وتنذره بأن الملك سيغدر به . وما كادوا يصلون إلى أيرلندة حتى هاجمهم جنود كونور ؛ ويقاتل الإخوة قتال الأبطال ، ولكنهم يخرون جميعاً صرعى ، ويطير لُب ديردر من شدة الحزن ، فتلقى بنفسها على الأرض وتمتص دماء حبيبها ، وتنشد هذه الأغنية الحزينة :

بينا كان أعيان ألبا Alba (اسكتلندة) ذات يوم يقصفون ويمرحون

إذ طبع ناأويز فى السر قُبلة

على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone ،

ثم بعث إليها بظبية وثابة ،

ظبية من ظباء الغاب وتحت قدمها خشف ،
ثم أقبل عليها زائراً
وهو عائد من جيش إنفرنس Inverness ،
فلما سمعت هذا ، اكتوى قلبى بنار الغيرة ،
ودفعت زورقى الصغير فوق الموج
ولم أبال هل قدّر لى أن أحيا أو أموت .
ونزلا إلى الماء فى إثرى
إينل وأردان ، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق ،
وجاءا بى مرة أخرى إلى البر ،
وهما فتيان يغلبان مائة من الأبطال ،
وقطع لى ناأويز عهداً صادقاً
وأقسم بسلاحه ثلاث أيمان مغلظة
ألا يمسّ وجهى مرة أخرى
حتى يذهب من عندى إلى جيش الموتى
يا ويلها ، لو أنها سمعت فى هذه الليلة
أن ناأويز مسجى فى التراب
إذن لزرفت الدمع مدرارا
ولبكيت معها سبع مرات .

وتختتم أقدم صيغة من صيغ قصة « ديردر ذات الأشجان » بخاتمة قوية فى سذاجتها : « وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة ، وضربت برأسها الحجر فتحطمت جمجمتها ولاقت حتفها »[٤١] .

وكان الشعر والموسيقى وثيق الصلة فى أيرلندة ، شأنهما فى غيرها من البلاد فى حياة العصور الوسطى . فكانت الفتيات يغنين وهن ينسجن أو يغزلن

أو يحلبن الأبقار ؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسيرون إلى ميدان القتال ؛ والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعيهم ، وكانت أحب الآلات الموسيقية هي القيثارة ، وكانت تتألف عادة من ستين وتراً ، يعزف عليها بالأنامل ، وكانت التمپان timpan كماناً ذات سبعة أوتار تضرب بالريشة أو القوس ؛ وكانت آلات موسيقى القرب تعلق فى الكتف وتنفخ بالفم ؛ ووصف چيرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٨٥) العازفين الأيرلنديين على القيثارة بأنهم أحسن من سمع من العازفين ، وهو إطراء عظيم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقى .

وليس أجمل ما أثمره الفن الأيرلندى فى ذلك العصر كأس آرداع Ardagh الذائعة الصيت (حوالى عام ١٠٠٠) التى اجتمعت فيها ٣٥٤ قطعة من الفضة ، والذهب ، والكهرمان ، والبلور ، والميناء المقسمة ، والزجاج ؛ بل إن أجمل منها « كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوى الأناجيل الأربعة مخطوطة فى القرن التاسع على الرق بأيدى رهبان أيرلنديين فى بلدة كلز من أعمال ميث Mcath أو فى جزيرة أيونا Iona ، وهو الآن من أعظم ما تمتلكه كلية ترنتى Trinity College بدبلن . وجاء طراز تزيين الكتب البيزنطى والإسلامى إلى أيرلندة عن طريق الاتصال البطىء بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود ، وبلغ فيها درجة الكمال فى فترة قصيرة من الوقت . ولم يكن لصور الإنسان والحيوان فى تزيين الكتب بأيرلندة إلا شأن ضئيل ، مثله فى هذا كمثل هذا الفن عند المسلمين ، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوى نصف الحرف الأول . وكانت الروح السارية فى هذا الفن هى أن يؤخذ حرف من الحروف أو شكل زخرفى واحد ، ويمد فوق أرضيه زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مبهج حتى يكاد يغطى الصفحة بتمامها فى نسيج متشابك أشبه بالمتاهة . وليس فى المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا ، ويصفه

جرلد Girld من كتاب ويلز — وهو الذى لا ينفك يظهر غيرته من أيرلندة — بأنه من عمل الملائكة المتخفين فى أثواب البشر(٤٢) .

وإذ كان هذا العصر الذهبى فى أيرلندة نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التى أرجعت سائر أوربا مئات السنين إلى الوراء ، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التى قضت فى فرنسا وانجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أحرزه هذان البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة . ولعله قد ترامى إلى أهل النرويج والدنمرقة — وكانوا لا يزالون وثنيين — أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب ، والفضة ، والحلى ، وأن انقسام البلاد السياسى يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة . وحدثت غزوة تجريبية فى عام ٧٩٥ ولكنها لم تسبب للبلاد خسارة تذكر ، غير أنها أيدت ما كان يشاع عن عدم مقدرة هذه الفريسة على صد الغزاة ؛ ثم أعقبتها غزوات أخرى أكبر منها فى عام ٨٢٣ نهب فيها الغزاة كورك Cork وكلوين Cloyne ، وخربوا ديرى بنجور Bangor وموفيل Moville وذبحوا رجال الدين . ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام الأخير من غزوة أو غزوات ؛ استطاعت جيوش صغيرة باسلة أن تصد فيها الغزاة فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينما حلوا . واستقرت جماعات من الغزاة الشماليين قرب شاطئ البحر ، وأنشأوا مدائن دبلن ، ولمرك Limerick ، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشمالى . واتخذ مليكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس پتريك عاصمة لملكه الوثنى ، وتوّج زوجه الوثنيـــة على مذبح كنيسة القديس كيران St. Kieran فى كلونمأكنيوس(٤٣) . وحارب ملوك أيرلندة متفرقين غزاة بلادهم ، ولكنهم كانوا فى الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً . فقد قبض ملاخى Malachi ميث على ثورجست وأماته غرقاً (٨٤٥) ، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أحد الأمراء النرويجيين أسس فى عام ٨٥١

مملكة دبلن التي ظلت تابعة لأهل الشمال حتى القرن الثاني عشر . وقضت هذه الغزوات المتتابعة على عصر العلم والشعر ، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة ، وكان الجنود المسيحيون والوثنيون فى خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها ، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشتتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال ، « ولم يمارس شاعر ، أو فيلسوف ، أو موسيقى فنه المعتاد فى تلك البلاد » كما يقول مؤرخ أيرلندى قديم(٤٤) .

وظلت الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه الممالك ويؤلف منها أمة موحدة . كان بريان بورمها أو بورو Brian Borumha or Boru (٩٤١ — ١٠٩٤) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster ، وزعيم عمارة دجاس Dalgas . وحارب الأخوان جيشاً دنمرقياً بالقرب من تبريرى Tipperary (٩٦٨) ومزقاه شر ممزق ، ولم يرحما فلوله المنهزمة ؛ ثم استوليا على لمرك ، وقتلا كل من عثرا عليه فيها من الشماليين . ولكن اثنين من صغار الملوك — ملوى ملك دزمند Molloy of Desmond ودوناثان ملك هاى كاربرى Donavan of Hy Carbery — خشيا أن يستولى الأخوان الزاحفان على مملكتيهما فعقدا حلفاً مع المهاجرين الدنمرقيين ، واختطفا ماهون وقتلاه (٩٧٦) . وأوقع بريان ، وقد أصبح الآن ملكاً ، هزيمة ثانية بالدنمرقيين ، وقتل ملوى . وصمم على توحيد أيرلندة كلها ، ولم يتردد فى اتباع أية وسيلة توصله إلى هذه الغاية ، فتحالف مع الدنمرقيين مالكى دبلن ، وهزم بمعونتهم ملك ميث ، ونودى به ملكاً على أيرلندة كلها (١٠١٣) . ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً ، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة ، ويصلح الجسور والطرق ، وينشئ المدارس والكليات ، ويقر النظام ويقضى على الجرائم . ولقد وصف الخلف ذوو الخيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه « السلم الملكية » قصة كثيراً ما نراها فى غير هذه المناسبة ،

فقالوا إنه كان فى مقدور الفتاة المثقلة بالحلى والجواهر أن تطوف فى أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أى أحد بأذى . وحشد أهل الشمال بأيرلندة فى هذه الأثناء جيشاً آخر ، زحفوا به على الملك الطاعن فى السن ، والتقى بهم الملك الإيرلندى عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن فى يوم الجمعة الحزينة فى الثالث والعشرين من إبريل عام ١٠١٤ وهزمهم ، ولكن ابنه مروغ Murrogh قتل فى أثناء المعركة ثم ذبح بريان نفسه فى خيمته .

وحلّت السلم — وهى الترف الذى لا يستمتع به إلا المحظوظون — فى البلاد المنكوبة إلى حين ، وانتعشت الفنون والآداب من جديد فى القرن الحادى عشر ، وظهر فى خلاله كتاب لينستر the Book of Leinster وكتاب التراتيم وهما لا يكادان يقلان فى جمال زخرفهما عن كتاب كلز نفسه . وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير فى مدارس الأديرة ، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد ، فقد عادت الأمة فانقسمت إلى ممالك متعادية ، وأنهكت قواها فى الحروب الداخلية ، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا فى عام ١١٧٢ أن من السهل عليها أن تفتح « جزيرة الدكاترة والقديسين » — وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها .

الفصل الرابع

اسكتلندة ٣٢٥ — ١٠٦٦

هاجرت فى أواخر القرن الخامس قبيلة من الاسكتى Scotti الجبليين من شمالى أيرلندة إلى الجزء الجنوبى الغربى من اسكتلندة ، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذى المناظر الجميلة الخلابة الواقع فى شمال نهر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها . وأخذت ثلاث قبائل أخرى تنازعها على امتلاك «كالدونية Caledonia » القديمة هذه : البكت Picts وهى قبيلة كلتية استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth ، والبريطانيون وهم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكسون واستقروا بين نهر درونت Derwent وخليج كليد Firth of Clyde ، والآنجلز Angles أو الإنجليز الضاربون بين نهر تين Tyne وخليج فورث . ومن هؤلاء كلهم تألفت الأمة الأسكتلندية : وهى أمة إنجليزية فى لغتها ، مسيحية فى دينها ، نارية فى مزاجها كالأيرلنديين ، عملية كالإنجليز ، ماكرة ، قوية الخيال ككل كلتى » .

وكان الاسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخلوا عن نظامهم القائم على صلة القربى ، ولا يرغبون فى أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة . ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات فى شدته إلا ولاؤهم للقبيلة ، وفخرهم بولائهم لها ، وشدة مقاومتهم لأعدائهم الأجانب . وعجزت رومة عن فتح بلادهم ، بل إن سور هدريان الذى أقيم بين سلواى Solway والتين (١٢٠ م) ، وسور انطونينس بيوس Antoninus Pius ، الذى يبعد ستين ميلا نحو الشمال بين خليجى فورث وكليد (١٤٠) ، وحروب سپتميوس سڤيرس Septimius Severus (٢٠٨) أو ثيودوسيوس Theodosius (٣٦٨) ، بل إن هذه كلها لم تجد نفعاً فى القضاء

على الغزوات المتكررة التى كان يشنها البكت الجياع من حين إلى حين على البريطانيين . وفى عام ٦١٧ استولى السكسون بقيادة إدون ملك نورثبريا على معقل البكت الجبلى الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (إدنبره) ، وفى عام ٨٤٤ ضم كنث ماك ألبين Kenneth Mac-Alpin البكت والاسكتلنديين تحت سلطانه ؛ وفى ٩٥٤ استردت القبائل إدنبره ، واتخذتها عاصمة لها ؛ وفى ١٠١٨ استولى ملكولم الثانى على لوثيان Lothian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد) ، وضمها إلى مملكة البكت والاسكتلنديين . وبدا أن الكلت قد ضمنوا لأنفسهم السيادة على البلاد ؛ ولكن غزو الدنمرقيين لإنجلترا دفع آلافاً من « الإنجليز » إلى جنوبى اسكتلندة ، وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسونى قوى إلى دماء الأسكتلنديين .

وجمع دنكان الأول Duncan I (١٠٣٤ — ١٠٤٠) هذه الشعوب الأربعة كلها — البكت ، والاسكت Scotts ، والكلت البريطانيين ، والأنجليسكسون — وكون منها مملكة واحدة هى مملكة اسكتلندة . ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل لقائده مكبث Macbeth ، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش Gruoch كانت حفيدة كنث الثالث . واغتال مكبث دنكان (١٠٤٠) ، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان . واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندة بين عامى ٨٤٤ و ١٠٥٧ اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً للغذاء والماء ، والحرية والسلطان . ولم تجد اسكتلندة فى تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه ترف الحضارة ونعمها ؛ فقد اغتصب المغيرون الشماليون جزائر أوركنى Orkney ، وفارو Faroes ، وشتلندة Shetlnd ، وهبريده Hebrides ؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشمال (الفيكنج Vikings) الشداد الذين كانوا يبسطون سلطانهم وينشرون بنى جنسهم فى أنحاء العالم الغربى

الفصل الخامس

أهل الشمال The Northmen : ٨٠٠ — ١٠٦٦

١ — قصص الملوك The Kings' Saga

يلوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيقى أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat ، وحلوا فى البلدين محل الكلت الذين حلوا من قبل محل شعب شبيه باللابلانديين والإسكيمو(٤٥) . وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلاتى Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة — ومعناها منقع دان أوولايته ؛ وتركت قبيلة اسويونس Suiones ، إحدى القبائل القديمة التى وصفها تاستس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة ، تركت هذه القبيلة اسمها فى اسم بلاد السويد Sweden (اسفريج Sverige) ، وفى اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn ؛ وليس معنى لفظ النرويج (نورج Norge) إلا الطريق الشمالى . وأصبح لفظ اسكانى Scané وهو الاسم الذى أطلقه پلنى Pliny الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia فى اللغة اللاتينية ، ونشأ منه لفظ إسكنديناوه Scandinavia الذى يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة فى دمائها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً . وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال فى الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة ، فعمد الشبان أو غير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم ، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام ، أو العبيد ، أو الأزواج ، أو الذهب ، ولم يكونوا لجوعهم يرعون قانوناً أو حدوداً للأقاليم ؛ فاجتاح أهل

النرويج اسكتلندة ، وأيرلندة ، وأيسلندة وجرينلندة ؛ وأهل السويد الروسيا ؛ والدنمرقيون إنجلترا وفرنسا .

ولا يسعنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكر فى هذه العجالة آلهة تلك البلاد وملوكها بالتفصيل ؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم Gorm (٨٦٠ — ٩٣٥) وهب دنمرقة وحدتها ؛ وإن ابنه هارلد بلوتوث (صاحب السن الزرقاء) Harald Bluetooth (٩٤٥ —٩٨٥) جعل المسيحية دينها ؛ وإن سوين فورك بيرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard (٩٨٥ — ١٠١٤) فتح إنجلترا ورفع دنمرقة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول أوربا الكبرى . وجعل الملك أولاف اسكتكوننج Olaf Skottconung (٩٩٤ — ١٠٢٢) المسيحية دين السويد ، ومدينة أبسالا Uppsala عاصمة ملكه . وكانت بلاد النرويج فى عام ٨٠٠ مؤلفة من إحدى وثلاثين إمارة ، تفصلها بعضها عن بعض الجبال ، والأنهار ، والخلجان الطويلة الضيقة العميقة (الفيوردات) ، ويحكم كلا منها زعيم من المحاربين ، وظلت كذلك حتى عام ٨٥٠ حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black أحد دؤلاء الزعماء من عاصمته ترندهيم Trondheim وأخضع لحكمه معظم الزعماء الآخرين ، وصار أول ملوك النرويج . وخرج على ولده هارلد هارفاجر Harald Haarfager (٨٦٠ — ٩٣٣) الزعماء المتمردون ، ورفضت جيدا Gyda التى خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد أن يفتح جميع بلاد النرويج ، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى يتم هذا الفتح ، وأتمه بالفعل فى عشر سنين ، وتزوج بعدها بجيدا وبتسع نساء غيرها . ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له — « صاحب الشعر الأشقر »[٤٦] . وحكم هاكون الصالح Haakon the Good (٩٣٥ — ٩٦١) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام سبعاً وعشرين سنة ، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن «السلم طالت حتى أصبحت أخشى أن توافينى منيتى فى شيخوختى وأنا على فراشى فى عقر دارى »[٤٧] .

وحكم هاكون آخر — الإيرل الأكبر The Great Earl النرويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاما (٩٦٥ — ٩٩٥) ؛ ولكنه أغضب الزراع الأحرار فى شيخوخته باتخاذه بناتهم محظيات له ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين ، فاستقدم أولئك الزراع الأحرار أولاف ترجفسون Olfat Tryggvesson ونادوا به ملكاً عليهم .

وكان أولاف بن ترجف حفيد أحد أبناء هارالد ذا الشعر الأشقر ؛ وكان « رجلاً شديد المرح والمجون » — كما يقول سنورى الأيسلندى Snori of Iceland — طروباً ، أنيساً ، محباً للاجتماع بالناس ، جواداً كريماً ، متأنقاً فى لباسه . . . بديناً ، قويا ، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة فى الرياضة البدنية من كل من سمعنا به من أهل الشمال »[٤٨]. وكان فى مقدوره أن ينتقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجذفون ، ويلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف ، ويقذف بحربتين فى وقت واحد ، و « يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة »[٤٩] . وكان كثير المنازعات والمغامرات ؛ وقد اعتنق المسيحيـــة وهو فى الجزائر البريطانية ، وأصبح أعظم دعاتها قسوة ؛ فلما جلس على عرش النرويج (٩٩٥) هدم المعابد الوثنية ، وشاد الكنائس المسيحية ، وظل يعيش مع عدد من الزوجات . وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة ، وأصروا على أن يقرّب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضى بذلك الشعائر القديمة ، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم ؛ فلم يكن منهم إزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحى . ولما استمسك واحد منهم يدعى راند Rand بدينه الوثنى ، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعباناً فى حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار ، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه ، وقضى على حياته[٥٠] . وخطب أولاف لنفسه سجريد Sigrid ملكة السويد ، فوافقت على الخطبة ، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثنى ، فما

كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازه فى وجهها وقال لها : « وما الذى يرغمنى على أن أتخذك زوجة وأنت عجوز شمطاء ، سليطة كافرة ؟ » . فردت عليه سجفريد بقولها : « سيكون فعلك هذا سبباً فى موتك يوماً من الأيام » . وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السويد والدنمرقة ، وإيرل إرك النرويجى Eric Earl of Norway الحرب على أولاف ، وهزماه فى معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن Rügen ، وألقى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم ، ولم يظهر له أى أثر بعد (١٠٠٠) ، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين .

وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (١٠١٦) ، كما أعاد النظام ، وعدل فى قضائه ، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحى . ويصفه اسنورى Sonri بقوله إنه « كان رجلا صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد ، لا يتكلم إلا قليلا ، سخياً ، ولكنه شره فى جمع المال » مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسرارى[٥١] . ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحرار لأنه فضل الوثنية على المسيحية ، وسمل عينى زارع آخر[٥٢]. وائتمر الزراع به مع كنوت ملك الدنمرقة وإنجلترا ، فسيرا عليه خمسين سفينة وطردا أولاف من النرويج (١٠٢٨) ؛ ولكن أولاف عاد إليها بجيش ، وحارب لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Sticklesand ، فهزم ومات متأثراً بجراحه (١٠٣٠) . وشاد من جاء بعده من النرويجيين كنيسة فى موضع المعركة تخليداً لذكره ، واتخذوه القديس الشفيع للنرويج . واسترد ابنه ماجنس الصالح Magnus the Good (١٠٣٥ — ١٠٤٧) مملكته ، ووهبها قوانين عادلة وحكماً صالحاً . وحكم حفيـــده هارلد الصارم Harald the Stern (١٠٤٧ — ١٠٦٦) حكماً عادلا خالياً من الرحمة دام حتى استولى وليم النورمندى على إنجلترا .

وحدث فى عام ٨٦٠ أن أعاد جماعة من الشماليين قدموا من النرويج

أو الدنمرقة كشف جزيرة أيسلندة ، ولم يسؤهم كثيراً أن يجدوها شديدة الشبه ببلادهم فى ضبابها وفيوردآتها . وهاجرت جماعات من النرويجيين إلى الجزيرة فى عام ٨٧٤ فراراً مما كانوا يعانونه من استبداد هارلد هارفاجر ، ولم يحل عام ٩٣٤ حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها فى جميع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية . وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثنجها thing أو جمعيتها ، ثم أنشىء فى عام ٩٣٠ ثنجها العام أو برلمانها الموحد . وكان من أقدم الهيئات فى تاريخ الحكم النيابى ، وبفضله كانت أيسلندة فى ذلك الوقت هى الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرية فى العالم كله . ولكن ذلك العنفوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سبباً فى الهجرة إلى الجزيرة ، وقيام هذا المجلس النيابى فيها ، أضعف من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة ، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم فى ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهى فى أراضيهم ، وما لبثوا أن جددوا فى أيسلندة المنازعات التى جعلت بلاد النرويج شوكة فى جانب ملوكها . وجعل الثنج العام (Allthing) المسيحية الدين الرسمى للبلاد فى عام ١٠٠٠ ؛ ولكن الملك أولاف القديس ساءه أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل أيسلندة لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويئدون أطفالهم . ولعل طول ليالى الشتاء وشدة بردها كانا السبب فى نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها تفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التى تروى فى أرض الشماليين .

وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف أيسلندة شاهد أحد ربابنة السفن النرويجيين ويدعى جنبچورن ألفسون Gunnbjorn Ulfsson سواحل جرينلندة وأنشأ فيها ثورولد Thorwald وولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام ٩٨٥ . ثم كشف بچرن هرچلفسن Bjerne Herjulfsson لبرادور Labrador فى عام ٩٨٦ ، وفى عام ١٠٠٠ نزل ليف Leif بن إرك الأحمر إلى القارة الأمريكية ،

ولسنا نعرف أكان الموضع الذى نزل فيه هو لبرادور ، أم نيوفوندلند Newfoundland ، أم رأس كد Cod ؛ وقضى ليف إركسن Lief Ericsson الشتاء فى « ڤنلند Vinland » (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلندة ؛ وفى عام ١٠٠٢ قضى أخوه ثوروولد هو وثلاثون رجلا عاماً كاملا فى ڤنلندة . وتروى حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام ١٣٩٥ فى « قصة أولاف ترجڤسون » التى كتبها اسنرى استرلوسون Snorri Sturluson (١١٧٩ — ١٢٤١) قصة خمس حملات مختلفة شنها أهل الشمال على قارة أمريكا بين عامى ٩٨٥ و ١٠١١ . وقد جاء كرستفر كولمبس Christopher Columbous ، كما يقول هو نفسه ، إلى أيسلندة ، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال عن الدنيا الجديدة[٥٣].

٣ — الحضارة الڤيكنجية (حضارة القراصنة الشماليين)(*)

كان النظام الاجتماعى يقوم بين أهل الشمال ، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة ، على التأديب العائلى ، والتعاون الاقتصادى ، والإيمان الدينى . وقد جاء فى فقرة من بيولف أن « لاشىء يقضى على وشائج القربى عند صاحب البصيرة »[٥٤]. وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت ، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلقى على يديهم مزيجاً من التأديب والحب : ولم يكن عندهم أسماء أسر ، بل كان كل ولد يكتفى بأن يضيف إلى اسمه اسم أبيه : أولاف هرالدسون ، ماجنس أولافسون ، هاكون ماجنسون . وكان أهل اسكنديناوة

(*) لفظ ڤيكنج مشتق من لفظ فيك فى لغة أهل الشمال الأقدمين ومعناه شرم أو فيورد . ويظهر لفظ ڤيك بهذا المعنى نفسه فى نارڤيك Narvik ، وشلزويج Schleswig ، وريكجافيك Reykjavik ، وبرويك Barwick ، وويكلو Wicklow وغيرها . ومعنى لفظ ڤيكنجر Vikingr أحد الذين أغاروا على البلاد الملاصقة للفيوردات ، وستعنى « الحضارة الڤيكنجية » فى هذا الفصل ثقافة الشعوب الأسكنديناوية فى « عصر الڤيكنج » بين عامى ٧٠٠ و ١١٠٠ من التاريخ الميلادى .

قبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمن طويل ، إذا أرادوا أن يسموا طفلا صبوا عليه ماء رمزاً لدخوله فى حظيرة الأسرة .

وكان التعليم عندهم ذا صبغة عملية : فكانت البنات يتعلمن الفنون فى المنزل ، وكان منها عصر الجعة ؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة ، والمشى على مزالق الجليد ، وأشغال الخشب والمعادن ، والمصارعة ، والتجذيف ، والانزلاق ، ولعبة الكرة والصولجان hockey (والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الخطاف) ، والقنص ، والرمى بالأقواس والسهام ، والضرب بالسيوف ، والطعن بالحراب ، وكان القفز من ضروب الرياضة المحببة ، وكان فى وسع بعض النرويجيين أن يقفزوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامتهم ، وأن يسبحوا فى الماء عدة أميال ؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد(٥٥) . وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين . وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء ، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهى عادة القيثارة . ونقرأ فى إلدر أدا Elder Adda أن الملك جنار Gunnar كان يستطيع العزف على القيثارة بأصابع قدميه ، ويستطيع بها أن يسحر الأفاعى .

وظل أغنياؤهم متعددى الزوجات حتى القرن الثالث عشر ، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج ، وكثيراً ما كان ذلك عن طريق الشراء ؛ غير أن أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب(٥٦) ، فإذا تزوجت الفتاة بغير إرادة والديها عد زوجها خارجاً على القانون ، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوها . وكان فى وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء ، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان فى مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه . وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق أحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل — كأن تلبس المرأة سراويل قصيرة ، أو يلبس الرجل قميصاً مفتوحاً عند صدره . وكان

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلقى عقاباً — أى دون أن يثير خصاماً دموياً — أى رجل يضبطه فى علاقة غير شريفة بزوجته[٥٧] . وكان النساء يكدحن ولكنهن بقى لديهن من الأناقة ما يكفى لأن يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلهن ، وكان الرجال ذوو السلطان فى الحياة العامة أذلاء كما هى العادة فى بيوتهن : ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة فى اسكنديناوة الوثنية كانت أعلى منها فى اسكنديناوة المسيحية[٥٨] . فلم تكن فيها أم الخطيئة بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل ، وكان لها حق الثلث — وحق النصف بعد عشرين عاماً من زواجها — فى كل ما يكسبه زوجها من مال ؛ وكان يستشيرها فى أعماله المالية ، وكانت تختلط فى بيتها مع الرجال بكامل حريتها .

وكان العمل مما يشرف صاحبه ، وكان لجميع الطبقات منه نصيب : وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى ، وصيد الحيوان من ضرورات الحياة لا من أسباب متعتها . ألا فليتصور القارئ ما استلزمه من كدح وقوة إرادة تقطيع غابات السويد وتذليل تربة منحدرات تلال النرويج المتجمدة وفلحها ؛ وليست حقول القمح فى منسوتا Minnesota إلا وليدة التربة الأمريكية ذللها صبر النرويجيين . وكانت الضياع الكبيرة قليلة العدد ، حتى لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد فى كثرة عـــدد ملاكها من الزراع الأحرار . وكان هناك نوع من التأمين غير المكتوب يقلل من وقع الكوارث على أولئك الزراع : فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه على بنائه من جديد ، وإذا نفقت مواشيه بسبب المرض من « فعل الله » منحوه ما يعادل نصف ما خسره . وكان كل شمالى تقريباً ذا حرفة ، وكان بارعاً بنوع خاص فى النجارة ، غير أن الرجل الشمالى كان متأخراً فى استخدام الحديد الذى لم يدخل بلادهم إلا فى القرن الثامن ، فلما دخلها صنعوا منه أنواعاً مختلفة من العدد ، والأسلحة ، والزخارف ، صنعوها قوية جميلة من البرنز ، والفضة ، والذهب[٥٩] ، وكثيراً ما كانت الدروع والسيوف المزخرفة

الجميلة النقش ، والأقراط ، والدبابيس ، والسروج جميلة يتباهون بها . وكان بناءو السفن الشماليون يبنون الزوارق والسفن الحربية ؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين ، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها ، فكانت مستوية القاع لتزيدها ثباتاً ، محددة فى جؤجؤها لتدمر ، فن العدو ؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أقدام وست ، وطولها بين ستين قدماً ومائة وثمانين ، يدفعها الشراع حيناً والمجاذيف فى معظم الأحيان — ويبلغ عددها فى الجانب الواحد من جانبيها عشرة مجاذيف أو ستة عشر ، أو ستين مجذافاً . وهذه السفن الساذجة هى التى حملت الرواد ، والتجار ، والقراصنة ، والمحاربين من أهل الشمال فى أنهار الروسيا منحدرة فيها إلى بحر الخزر والبحر الأسود ، وعبرت بهم المحيط الأطلنطى إلى أيسلندة ولبرادور .

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات : الجارل Jarl والإيرل ، وطبقة البندى bondi أو الملاك الفلاحين ، وطبقة العبيد ؛ وكانوا يلقنون أبناءهم فى صراحة (كما يفعل الحراس فى جمهورية أفلاطون) أن انتماء كل إنسان إلى طبقته أمر قررته الآلهة لا يجرؤ على تبديله إلا غير المؤمنين[٦٠] . وكان الملوك يختارون ممن يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، وولاة الأقاليم من طبقة الجارل . وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية ، وهما من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة ، كان يسير معه جنباً إلى جنب نظام دمقراطى عجيب يجعل من ملاك الأراضى مشترعين وقضاة فى جمعيات محلية يعقدها أصحاب البيوت ، وجمعيات قروية تعقد فى الولايات ، وجمعية قومية عامة أو برلمان . لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لا حكومة رجال فحسب ، العنف فيها من الأمور الشاذة النادرة ، والأحكام القضائية هى القاعدة العامة . نعم إن قصص تلك البلاد مليئة بحوادث الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء ، ولكن الافتداء حتى فى عصر الفيكنج ، عصر الدم والحديد ، قد أخذ يحل محل الانتقام الفردى ، ولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار . وكان

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال ، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف الطبيعية ، على الخضوع للسلم والنظام . فكان الزانى يعاقب بالإعدام شنقاً أو تطؤه الخيل حتى يموت ، وكان جزاء الحريق العمد هو إحراق مرتكبه وهو مصلوب ، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حى معلق بنفس الطريقة ، والثائر على الحكومة يشد إلى جوادين يسيران فى اتجاهين متضادين حتى يمزق جسمه ، أو يربط خلف ثور برى يجره حتى يقضى نحبه[٦١] . ولعل فى هذا العقاب الوحشى دليلا على أن القانون لم يحل بعد محل الانتقام الشخصى ، وكل ما فى الأمر أنه جعله من حق المجتمع نفسه . وحتى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون ، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة ؛ وجدير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحرى مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية Hanseatic League[٦٢]. وقد كتبت قوانين النرويج فى عهد مجنس الصالح (١٠٣٥ — ١٠٤٧) على رق سمى بسبب لونه « الإوزة الشهباء » ! ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن ، ويحتوى على أوامر مستنيرة للإشراف على الموازين والمقاييس ، ومراقبة رجال الشرطة للأسواق والثغور ، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين[٦٣] .

وقد عاون الدين القانون والأسرة على جعل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين . ولم تكن الآلهة التيوتونية مجرد أساطير لأهل الشمال ، بل كانت أرباباً حقيقيين تهاب وتحب ، وتتصل اتصالا وثيقا بالآدميين بآلاف المعجزات وحوادث الغرام . ذلك أن النفوس البدائية فى دهشتها وورعها قد خولت جميع قوى الطبيعة ومجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية ، يتطلب أقواهم أن يسترضى على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم . وكان مجمع الآلهة مزدحماً بهم : كان فيه اثنا عشر إلها ذكراً ، واثنتا عشرة إلهة أنثى ؛ وكثير من مختلف المردة (الجوتون Jotun) وأرباب الأقدار (نورن Norn) ،

ورسل الآلهة والساقون (الفلكيرى Valkyries) ، وبينهم عدد من العرّافات ، وصغار العفاريت ، والساحرات . فأما الآلهة فلم يكونوا أكثر من آدميين مكبرين ، يولدون مثلهم ، ويجوعون ، وينامون ، ويمرضون ، وينفعلون ، ويحزنون ويموتون ؛ ولا يفوقون الآدميين إلا فى أحجامهم ، وطول أعمارهم ، وعظيم قواهم . ومن هؤلاء أودين Odin (وودن Woden الألمانى) أبو الآلهة كلهم ، الذى كان يسكن بجوار بحر آزوف (آزاق) Azov فى أيام قيصر ؛ وهناك أنشأ أسجارد Asgard أو حديقة الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت لديه الرغبة فى تملك الأرضين ففتح بلاد أوربا الشمالية . على أنه لم يسلم من التحدى ولم يكن قادراً على كل شىء ؛ فقد عنفه لوكى Loki أشد التعنيف(٦٤) ، وتجاهله ثور Thor ولم يعبأ به . فأخذ يذرع الأرض فى طلب الحكمة ، واشترى بأحد عينيه جرعة من ينبوع الحكمة . ثم اخترع الحروف الهجائية ، وعلم خلقه الكتابة ، والشعر ، والفنون ، ووضع لهم القوانين . وقبل أن تنتهى حياته على ظهر الأرض عقد جمعية من السويديين والقوط ، وجرح نفسه فى تسعة أماكن من جسمه ، فمات ورجع إلى أسجارد ليعيش فيها إلها .

وكان ثور فى أيسلندة أعظم من أودين ، فقد كان فيها إله الرعد ، والحرب ، والعمل ، والقانون ، وكانت السحب السوداء حاجبيه السوداوين ، وكان الرعد صوته ، والبرق مطرقته يلقى بها من السماء . وكان للشعراء الشماليين معه كثير من المزاح ، كما يمزح اليونان مع هيفستوس Hephaestus وهرقل ، ولعلهم قد أخذوا منذ ذلك الوقت البعيد يتشككون فى آلهتهم تشكك هومر فى آلهته ، وكانوا يتمثلونه فى جميع أنواع المآزق والأعمال الشاقة المضنية ؛ ومع هذا فقد بلغ من حب الأيسلنديين له أن واحداً من كل خمسة منهم تقريبا كان يغتصب اسمه بـ ثورلف Thorolf ، ثوروالد Thorwald ، ثورشتين Thorstein . . .

وكان بلدور Baldur بن أودين عظيما فى القصص وأقل مقاماً من أودين وثور

فيما يلقاه من العبادة . كان « ذا بهاء فى صورته وملامحه . . . وكان أرق الآلهة ، وأكثرهم حكمة ، وأفصحهم لساناً(٦٥) ؛ وكادت هذه الصفات تغرى المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه ؛ ويقال إنه رأى حلماً مزعجا ينبئه باقتراب منيته ، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلهة فرجا Frigga إلى جميع أنواع الجماد ، والحيوان ، والنبات ، أن تقسم أغلظ الأيمان ألا يمسّ أحدها بسوء ؛ فكان جسده الفخم المجيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية ، وكان الآلهة يسلون أنفسهم بأن يقذفوه بالحجارة والسهام ، والفؤوس والسيوف ؛ فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه ، ولا تترك فى جسده أثراً . غير أن فرجا قد فاتها أن تأخذ عهداً على « شجيرة صغيرة تدعى المقاس »(*) ألا تمسه بسوء لأنها ظنتها أضعف من أن تؤذى إنساناً ما . فما كان من لُكِيى الوقح المحب للوقيعة بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً ، وأقنع إلهاً كفيفاً أن يلقيه على بلدور ، ونفذ العسلوج فى جسده فقضى عليه ، ثم ماتت زوجته نب Nep من فرط حزنها عليه ، وحرقت جثتها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة(٦٦) .

وكان الفلكيرى — الذين يختارون القتلى — هم الذين يحق لهم أن يحددوا أجل كل نفس . وكان الذين يموتون ميتة دنيئة يلقون فى ممالك هل Hel ، إلهة الموتى ؛ أما الذين يموتون فى ميدان القتال فيأخذهم الفلكيرى إلى فلهلا Valhalla — « بهو الصفوة » ، حيث يصبحون أبناء أدوين فيعودون مرة أخرى ذوى قوة وجمال ، يقضون نهارهم فى حروب البسالة وليلهم فى شرب الجعة . ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشمالية المتأخرة) أعلنت فيه الحوتون — شياطين الاضطراب والدمار الرهيبة — الحرب على الآلهة ، وقاتلتها قتالاً هلكت فيه هذه وتلك عن آخرها . وفى هذا العصر ، عصر غسق الآلهة ، تهدم الكون كله : ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس ، والكواكب ، والنجوم ،

(*) وتسمى أيضاً الدبق والدابوق Mistletoe . (المترجم)

بل شمل فى النهاية الڤلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب ؛ ولم يبق إلا الأمل وحده — الأمل فى أن مر الوقت البطىء سوف تنشأ منه أرض جديدة ، وسماء جديدة ، وعدالة خير من العدالة السابقة ، وآلهة أعظم من أودين وثور. ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية ، وإلى الضربات الشديدة التى كالها المليكان أولاف Olafs من أجل المسيح ؛ أو لعل شعراء الفيكنج قد أخذوا يشكون فى آلهتهم ويواورنهم التراب .

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها فى جمالها وفتنتها إلا أساطير اليونان . وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هى صورتها فى تلك القصائد العجيبة التى سميت خطأ باسم الإدا Edda(*) . وخلاصة قصتها أن راهباً كشف فى عام ١٦٤٣ فى مكتبة كبنهاجن الملكية مخطوطاً يحتوى عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة ؛ ووقع هذا الراهب فى خطإ مزدوج فسماها إدا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالى عام ١٠٥٦ — ١١٣٣) وهو عالم أيسلندى من رجال الدين . والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها فى النرويج وأيسلندة ، وجرينلندة كتاب غير معروفين فى أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثانى عشر ، وأن سيمند ربما يكون قد جمعها ولكنه لم يؤلفها ، وأن الإدا لم يكن اسمها . ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات ، ويوفق بين هذه الأخطاء بأن يسمى القصائد الإداء الشعرية أو الإدا الكبرى . وهى فى معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلهة الاسكنديناويين أو الألمان ؛ وفيها نلتقى لأول مرة بسيجورد الڤلسنجى Sigurd the Volsung وغيره من الأبطال

(*) وقد وردت هذه الكلمة أول ما وردت فى جذاذة ترجع إلى القرن العاشر وتعنى فى هذه الجذاذة جدة الأم . وكان من عجائب الأيام أن أصبح معناها علم العروض النرويجى وإن استعملها بهذا المعنى استرى استرلسون حين كتب بهذا العنوان (١٢٢٢) رسالة عن الأساطير النرويجية ومن فن الشعر . وهذه الرسالة هى المعروفة لدينا باسم الإدا النثرية أو الصغرى .

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخذوا صورة أوضح من صورتهم هنا فى الڤولسنجساجا Volungasaga والنيبلنجنليد Nibelungenlied.
وأعظم قصائد الإدا قوة هى قصيدة الڤولسپا Voluspa التى تصف فيها البنية ڤولڤا فى صورة فخمة قاتمة خلق العالم ، وآخرته المنتظرة ثم بعثه فى آخر الأمر . وتختلف عن هذه القصيدة فى الأسلوب « أغنية الواحد الأعلى » التى يصوغ فيها أودين ، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتقى بجميع أنواع الناس ، ما تمليه عليه حكمته من أمثال ليست كلها من الأمثـال الخليقة بالآلهة :

لقد طرقت أماكن كثيرة مبكراً فوق ما يجب أو بعد فوات الأوان ؛ قبل أن تعدّ الجعة أو بعد أن استنفدها الشاربون[٦٧] . . . خير أنواع السكْر هو الذى يستعيد كل إنسان بعده قواه العقلية[٦٨] . يجب ألا يثق الإنسان بأقوال فتاة ولا بأقوال امرأة ، لأن الخطيئة قد غرست فى صدورهن[٦٩] ؛ . . . هذا ما حدث لى حين حاولت إغواء تلك الغادة الفطنة ؛ . . . ولم أكسب من هذه الغادة شيئاً[٧٠] . . . النهار يمدح فى المساء ، والسيف بعد أن يجرب ، والمرأة بعد أن تحرق جثتها[٧١] . . . كثيراً ما يعاقب الإنسان على الألفاظ التى يتحدث بها إلى غيره[٧٢] . . . واللسان هو سم الرأس[٧٣] . تجنب النزاع مع مَن هو شر منك واو اقتصر نزاعك معه على ثلاثة ألفاظ ، وكثيراً ما يستسلم خير الرجلين إذا ما ضر به شرهما[٧٤] . . . يجب أن يكون الإنسان حكيما فى اعتدال وألا يسرف فى الحكمة . . . لا تدع إنساناً يعرف مصيره قبل حلوله ، لأن عقله يأمن بذلك من المشاغل . . . إن ذا العقل قلما يبتهج قلبه[٧٦] (*) . . . خير البيوت بيتك ولو كان صغيرا[٧٧] . . . وخير المناظر منظر مصطلى الإنسان ومنظر الشمس[٧٨] .

وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقلها الناس شفويا حتى

(*) شبيه بهذا المعنى قول الشاعر العربى :
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهـالة بالشقاوة ينعم (المترجم)

القرن الثانى عشر ، ثم دونت فى ذلك القرن . وكانت الحروف الهجائية فى عصر الفيكنج هى حروف أوربا الشمالية كما كانت هى حروف ألمانيا وإنجلترا الأنجليسكسونية . وكانت هذه الرموز (ومعناها الحرفى « الأسرار الخفية ») الأربع والعشرون تكون أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية واللاتينية المطبعية المائلة . وكان فى وسع الأدب فى ذلك العصر أن يستغنى عن الحروف ، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يؤلفون قصائدهم ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويتلونها ، ويتناقلها عنهم الناس شفويا ؛ وكانوا فى هذه القصائد يتغنون بالآلهة التيوتونية و « عصر الأبطال » (من القرن الرابع إلى القرن السادس) الذى بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على أوربا . وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطع صغيرة من هذه الأغانى ، وبكثير من أسماء الشعراء . وأشهر هؤلاء كلهم هو سجفات ثوردارسون Sigvat Thordarsson الذى كان شاعراً ومستشاراً صريحا فى بلاط سانت أولاف . وكان شاعر آخر يدعى إجيل اسكلاجرمسون Egil Skallagrimsson (٩٠٠ — ٩٨٣) ، أشهر رجال زمانه فى أيسلندة — كان محارباً شجاعاً ، وشريفاً فردى النزعة ، وشاعراً جياش العاطفة . وقد فقد فى كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريقاً ، وكاد يقضى عليه الحزن لولا أن أقنعته ابنته بأن يستعيض عن ذلك بكتابة قصيدة . فعمل بإشارتها وكتب قصيدته المعروفة باسم « ثكل الابن » Sonartorrek التى يندد فيها بالآلهة ويتحداهم ويتهمهم بموت ولده . وهو يأسف لأنه لا يستطيع أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء . ثم يهدأ مزاجه حين يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الأحزان وكفى بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر ؛ ثم يرضى بحظه فيعتزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية فى مجالس بلاده[٧٩]

وما من شك فى أن آداب ذلك العصر تغالى فى وصف ما كان يسود مجتمع الفيكنج من عنف ، شأنها فى ذلك شأن الصحافة والتاريخ اللذين يخدعان القارئ

بالتحدث عما هو شاذ غير عادى ويهملان سير الحياة البشرية السوى . لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التى كانت تعيش فيها اسكنديناوة فى الزمن القديم اضطرت الأهلين إلى أن يخوضوا معركة حامية فى سبيل العيش لا يبقى فيها إلاّ أصلبهم عوداً ، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غير المقيدة فى البحار المفتوحة ، نشأ من هذه العادات قانون أخلاقى على غرار قانون نيتشة يدين بالشجاعة التى لا ترعى مبدأ ولا ضميراً . قال فيكنج لصاحبه : « قل لى أى دين تؤمن به ؟ » فأجابه بقوله « إنى أومن بقوتى » . وأراد جولد هارلد Gold Harald أن يكون له عرش النرويج ، ورأى أن يناله بالقوة ، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله : « فكّر فى أمرك واعرف هل تستطيع أن تبذل من قوة الرجولة ما يحقق مطمعك ، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريئاً ، ثابتاً ، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه »(٨١) . ومن هؤلاء الناس من كانوا يجدون فى القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم ، ومنهم من كان يعتريهم وجد ونشوة فى القتال تعرف عندهم باسم برسركس جانجر berserksgangr أى « طريقة برسرك » . وكان البرسركيون — أو أصحاب قمصان الدببة — مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قمصان من الزرد ، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة ، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ثائرون ، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم(٨٢) . وكانت الفلهالا محرمة على غير الشجعان ، ومن يمت فى القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطاياه .

وهكذا تعوّد « رجال الفيوردات » شظف العيش والألعاب العنيفة ، ثم ساروا فى سفائنهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك فى الروسيا ، وبمرانيا Pomerania ، وفريزيا ، ونورمندية ، وإنجلترا ، وأيرلندة ، وأيسلندة ،

وجرينلندة ، وإيطاليا ، وصقلية . ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان المجر ، بل كانت بمثابة اندفاع حفنات متهورة من الرجال يرون كل ضعف جرماً ، وكل قوة عملا صالحاً ، يشتهون الأرض ، والنساء ، والثراء ، والسلطان ، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض . ولقد بدأوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً . فمنهم رولو Rollo الذى وهب نورمنديا نظاماً مبدعاً خلاقاً ، ومنهم وليم الفاتح الذى وهب إنجلترا هذا النظام نفسه ، وروجر الثانى منشئه فى صقلية . ولقد مزجوا دمهم الشمالى الجديد بدماء الشعوب التى أضعفتها الحياة الريفية الرتيبة فبعثوا فيها قوة ونشاطاً ، ألا إن التاريخ قلما يفنى من لا يستحق الفناء ، وإن احتراق نُفَايات الزروع ليخصب تربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الجديد .

الفصل السادس

ألمـانيا : ٥٦٦ — ١١٠٦

١ — تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشماليين المرحلة الأخيرة فى غارات البرابرة التى تدفقت من ألمانيا قبل الوقت الذى نتحدث عنه بخمسة قرون ، وقطعت أوصال الدولة الرومانية ، وقسمتها إلى أمم أوربا الغربية ، وخليق بنا أن نسأل الآن عن مصير الألمان الذين بقوا فى ألمانيا نفسها .

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة — القوط ، والوندال ، والبرغنديين ، والفرنجة ، واللمبارد — إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين ، فتحرك الوند Wend الصقالبة غرباً من ولايات البحر البلطى ليملأوا ذلك الفراغ ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسى ، كما هو الآن الحد السياسى ، بين العالم الصقلبى والعالم الغربى . فقد كان فى غرب الإلب والسال Saale من بقى من القبائل الألمـانية : السكسون فى شمالى ألمانيا الوسطى ، والفرنجة الشرقيون فى حوض الرين الأدنى ، والثورنجيون بين هؤلاء وأولئك ، والباڤاريون Bavarians (الذين كانوا يسمون المركونيين من قبل) فى حوض الدانوب الأوسط ، والسوابيون Swabians (الذين كانوا يسمون السويفيين) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعلين وفيما بينهما ، وعلى طول جبال چورا Jura الشرقية والألب الشمالية . ولم تكن فى أوربا بلاد تسمى ألمانيا ، بل كل ما كان فيها قبائل ألمانية ، وقد وهبها شارلمان وقتاً ما وحدة مشئوها الفتح ، ومستلزمات النظام المشترك ، ولكن انهيار الإمبراطورية الكارولنجية فكك هذه الروابط ، وظل الوعى القبلى والنزعة المحلية

يمنعان كل عامل يؤدى إلى المركزية حتى أيام بسمارك ، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذى يعانى الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى :

وأقامت معاهدة فردون (٨٤٣) فى واقع الأمر لويس أولدفج Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا ، وأضافت معاهدة مرسن Mersen (٨٧٠) إلى أملاكه بلاداً جديدة ، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين نهرى الرين والإلب ، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine ، وأسقفيات مينز ، وورمز ، واسبير Speyer . وكان لويس حاكما وسياسياً من الطراز الأول ، غير أنه كان له ثلاثة أولاد ، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته ، وضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد عشر سنين أغار فيها الشماليون على مدائن الرين ، واختير بعدها آرنلف Arnulf ، وهو ابن غير شرعى لكارلومان Carloman ابن لويس ، ملكا على « فرنسيا الشرقية Fast Francia » (٨٨٧) ورد الغزاة على أعقابهم . ولكن لويس « الطفل » (٨٩٩ — ٩١١) الذى خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من أن يصد المجر الذين اجتاحوا باڤاريا (٩٠٠) وكارنثيا (٩٠١) ، وسكسونيا (٩٠٦) ، وثورنجيا (٩٠٨) ، وأليمانيا Alemannia (٩٠٩) ؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات ، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها . وجهز أدواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية ، ونال الأدواق بفضل الجيوش المؤلفة على هذا النحو استقلالهم الفعلى عن التاج ، وأنشئوا ألمانيا الإقطاعية . ولما مات لويس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كنراد الأول دوق فرنكونيا (٩١١ — ٩١٨) على عرش البلاد ، وكانوا قد نجحوا فى أن يكون لهم هم حق اختيار الملك . وأنهك كنراد قواه فى النزاع مع

هنرى دوق سكسونيا ، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصى باختيار هنرى ليخلفه على العرش . وصد هنرى الأول ، المسمى « بالصائد » لشغفه بصيد الطير ، قبائل الونْد الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد المجر ، وهزمهم فى عام ٩٣٣ ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه المجيدة .

وكان أتو الأول الأكبر (٩٣٦ — ٩٧٣) شارلمان ألمانيا ، ولم تكن سنه حين جلس على العرش قد تجاوزت الرابعة والعشرين ، ولكنه كان فى هذه السن الصغيرة مليكا بحق فى مظهره ومخبره ، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين ، وفرنكونيا ، وسوابيا ، وبافاريا ، بأن يؤلفوا حاشيته فى حفل تتويجه الفخم فى آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة ، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء ، وأغروا هنرى أخاه الأصغر بأن يشترك معهم فى مؤامرة تعمل لخلعه . وكشف أتو هذه المؤامرة ، وقضى عليها ، وعفا عن هنرى ، ثم ائتمر هنرى به مرة أخرى ، وعفا عنه للمرة الثانية ؛ وأقطع المليك الداهية دوقيات جديدة لأصدقائه وأقاربه ، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً . ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا فى العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع ، والملكية . وانحاز الأساقفة الألمان إلى جانب الملك فى هذا النزاع ، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه فى الشئون الإدارية ، بل كان منهم فى بعض الأحيان قواد جنده . وكان الملك يعين الأساقفة ورؤساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظفى الحكومة ، فأصبحت الكنيسة الألمانية بهذه الوسيلة نظاما قومياً بحتا لاترتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط . واتخذ أتو الدين المسيحى قوة لتوحيد البلاد فصهر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية .

وهاجم أتو الونِد استجابة لرغبة أساقفته ، وحاول أن يرغمهم بالسيف على اعتناق المسيحية . وأرغم ملك الدنمرقة ودوق پولندة وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعى . وكان يطمع فى أن يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولهذا رحب بالدعوة التى وجهتها إليه أدليد الحسناء أرملة لوثير ملك إيطاليا لينقذها مما لحق بها من الإهانة على يدى برنجار الثانى المليك الجديد . وخلط أتو بمهارته بين السياسة والغرام ؛ فغزا إيطاليا ، وتزوج بأدليد ، وسمح لبرنجار أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألمانى (٩٥١) . وأبى الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بألمانى إمبراطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيداً لإيطاليا ، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون . وخرج على كنراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كنراد ، فعاد أتو إلى ألمانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمبراطوراً ألا يظل ملكاً . ولما أن غزا المجر ألمانيا مرة أخرى (٩٥٤) رحب بهم لودلف وكنراد وأمدهم بمن يرشدهم فى غزوهم ؛ وقطع أتو دابر الفتنة ، وعفا عن لودلف ، وأعاد تنظيم جيشه ، وأوقع بالمجر عند لخفلد Lechfeld القريبة من أجزبرج Augsburg هزيمة منكرة (٩٥٥) ؛ أفاءت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام . وصرف أتو بعدئذ جهوده إلى شئون البلاد الداخلية — فأعاد النظام إلى نصابه ، وقضى على الجرائم ، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود ، وجعلها أعظم الدول رخاء فى تلك الأيام .

وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبراطورية حين استعانه البابا يوحنا الثانى عشر على برنجار (٩٥٩) . فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة ، ودخل رومة من غير قتال ، وتوجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً رومانياً على الغرب فى عام ٩٦٢ . ثم ندم البابا على فعلته ، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف بما وعده به من

إعادة إكسرخسية(*) براڤنا إلى البابوية . واتخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فزحف على رومة ، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة ، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (٩٦٣) . واقتصرت أملاك البابا وقتئذ على دوقية رومة وإقليم سابينا ، واندمجت بقية إيطاليا الوسطى والشمالية فى إمبراطورية رمانية مقدسة أضحت إقطاعية من إقطاعيات التاج الألمانى . وكان ملوك ألمانيا يتخذون من هذه الحوادث حجة يبنون عليها إدعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم ، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً فى الغرب إلا إذا توجه البابا .

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يتقى ما عسى أن يعقب موته من الفوضى ،فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثانى إمبراطوراً معه (٩٦٧) ، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثانى إمبراطور بيزنطية (٩٧٢) ، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج ؛ ثم توفى أتو ولما يتجاوز الستين من عمره ، ولكنه قام فى هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (٩٧٣) ، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها . وصرف أتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) جهوده فى ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات فى هذه المحاولة منهوك القوى قبل الأوان . وكان أتو الثالث (٩٨٣—١٠٠٢) وقتئذ طفلا فى الثالثة من عمره ، فحكمت البلاد أمه وجدته أدليد نائبتين عنه مدة ثمان سنين , وأدخلت ثيافانو فى. أثناء نفوذها الذى دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنطية إلى البلاط الألمانى ، وبثت روح النهضة التى بدأها أتو فى الآداب والفنون .

(*) الإكسرخسية Exarchate مقاطعة يحكمها إكسرخس Exarch . والإكسرخس اسم كان يطلق قديماً على نائب الإمبراطور فى إيطاليا ؛ ومنصبه شبيه بمنصب الأسقف ، ومعناه لغة القائد . (المترجم)

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره (٩٩٦ م) شرع يحكم البلاد بنفسه . وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين ، فعرض أن يتخذ روما عاصمة لملكه ، ويجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك فى حكمها الإمبراطور والبابا . وفسر أعيان رومة ولمباردية وسوقتها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمى إلى إقامة حكم بيزنطى ألمانى فى إيطاليا ، ولهذا وقفوا فى وجه أتو ، وأقاموا فى البلاد «جمهورية رومانية» وقلم أتو أظفار الفتنة ، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها ، ثم عين جربرت بابا فى عام ٩٩٩ ؛ ولكن حياة أتو التى لم تزد على اثنتين وعشرين سنة ، وبابوية جربرت التى دامت أربع سنين ، كانتا أقصر من أن تمكناه من تنفيذ سياسته بحذافيرها ؛ يضاف إلى هذا أن أتو ، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما ، قد وقع فى حب استفانيا Stephania أرملة كرسنتيوس ، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته ، ولما أحس المليك الشاب أن الموت يسرى فى عروقه أخذ يبكى ويندم ، حتى قضى نحبه فى ڤيتربو Viterbo ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره[٨٣] .

وبذل هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهده ليعيد إلى الملك قوته فى إيطاليا وألمانيا ، حيث قوى حكم الغلامين الصغيرين سلطان الأدواق وجرأ عليهما الدول المجاورة لهما . وبدأ بكنراد الثانى (١٠٢٤—١٠٣٩) حكم الأسرة الفرنكنونية أو السالية من الأباطرة . وقد أعاد السلام إلى إيطاليا وضم إلى ألمانيا مملكة برغندية أو آرليس Aries . ودفعته حاجته إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنبه عليها ضميره ، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و «كاد يفلح فى أن يبر بقسمه»[٨٤] . وبلغت الإمبراطورية فى عهد ابنه هنرى الثالث (١٠٣٩ —١٠٥٦) ذروة مجدها . وقد عرض فى «يوم الغفران» من عام ١٠٤٣ فى كنستانس Constance أن يعفو عن كل من أساء إليه ، وحض رعاياه أن يطهروا صدورهم من كل حقد ورغبة فى الانتقام . وقد أفلح

بفضل مواعظه وقدوته الحسنة — وبفضل سلطانه فى أغلب الظن — فى أن يقضى على كثير من منازعات الأدواق ، وتعاون مع « المدنة الإلهية » فى نشر ظل عهد ذهبى قصير الأجل على أوربا الوسطى . وقد ناصر العلوم ، وأنشأ المدارس ، وأتم كنائس اسبير ، ومينز ، وورمز . ولكنه لم يكن قديساً يعمل للسلام الدائم ، فقد ظل يحارب المجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها ، وخلع ثلاثة من المتنافسين على البابوية ، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر ، ولم يكن فى أوربا كلها من يماثله فى سلطانه ، ولكنه اندفع بسلطانه فى آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأدواق جميعاً . غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة ، وخلف لهنرى الرابع بابوية معادية ، ومملكة مضطربة .

وكان هنرى فى الرابعة من عمره حين توج ملكا فى آخن وفى السادسة حين توفى أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حتى عام ١٠٦٥ حين أعلن أن الغلام وهو فى الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد ، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبراطورية كفيلة بلا ريب بأن تذهب بعقل أى شاب ، وأصبح بطبيعة الحال يؤمن بالسلطة المطلقة ، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس . وسرعان ما وجد نفسه فى خصام أو حرب مع هذا أو ذاك من النبلاء الذين كادوا لعجزه أن يقطعوا أوصال دولته . ذلك أن السكسون قد أغضبتهم الضرائب المفروضة عليهم ، وأبوا أن يردوا أراضى التاج التى يدعيها لنفسه ، وظل يحاربهم حربا منقطعة دامت خمسة عشر عاما (١٠٧٢ — ١٠٨٨) ؛ ولما أن هزمهم فى عام ١٠٧٥ أرغم قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحربيين أن يمشوا حفاة مجردين من السلاح بين صفين من جنده ، ويقدموا مراسم الاستسلام عند قدميه . وفى تلك السنة نفسها أصدر البابا جريجورى السابع مرسوماً يعارض به حق غير رجال الدين فى تعيين الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، واستمسك هنرى بالسوابق المتبعة منذ مائة عام ، ولم يشك مطلقا فى أن تعيين هؤلاء وأولئك من

حقه ، وظل عشر سنين يحارب جريجورى حربا دبلوماسية وعسكرية ، لم تنته إلا بموته ، وكانت من أشد الحروب هولا فى تاريخ العصور الوسطى. وانتهز نبلاء ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطتهم الإقطاعية ، وعاد السكسون الذين استذلهم الملوك إلى ثورتهم . وانضم أبناء هنرى إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس ميتز بهنرى الخامس ملكا فى عام ١٠٩٨ ، وأسر الابن أباه وأرغمه على النزول عن العرش (١١٠٥) ، ثم فر الأب وأخذ يحشد جيشاً جديداً ، لكنه مات فى لييج فى السنة السابعة والخمسين من عمره (١١٠٦) ؛ ولم يجد البابا باسكال Paschl الثانى من حقه أن يمنح رجلا محروماً مات دون أن يتوب دفنة مسيحية ، ولكن أهل لييج تحدوا البابا والملك وشيعوا جنازة هنرى الرابع فى موكب ملكى فخم وواروه التراب فى كنيستهم الكبرى .

٢ ـ الحضارة الألمانية ٥٦٦ – ١١٠٦

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتهيئها للحضارة . لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد ، تأوى إليها الوحوش الكاسرة ، وتعوق الاتصال والوحدة ، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات ، ولعلهم أسرفوا فى هذا التقطيع ، ودام الكفاح فى سكسونيا بين الأهلين وبين الأشجار التى تنمو بطبيعتها كلما قطعت ، والمناقع التى تنشر الأوبئة — دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا فى القرن الثالث عشر . وتوالت الأجيال جيــلا بعد جيل والزراع المجدون البواسل يطاردون الوحوش ، وينقصون من أطراف البرارى القاحلة ، ويذللون الأرض بالفأس والمحراث ، ويغرسون أشجار الفاكهة ، ويربون قطعان الماشية ، ويعنون بالكروم ، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة ، والأزهار والموسيقى والجعة . وكان المعدنون ستخرجون من الأرض الملح ، والحديد ،

والنحاس ، والرصاص ، والحرف اليدوية القائمة فى الضياع ، والأديرة ، والمنازل ، تقرن الحذق الرومانى إلى الألمانى ؛ والتجارة تنمو ويطرد نشاطها فى الأنهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطى : وكسب السكان المعركة العظيمة آخر الأمر ؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة فى شرائع البلاد وفى دماء الأهلين ، ولكن الثغرة التى كانت قائمة بين فوضى القرن الخامس القبلية ونهضة القرن العاشر التى بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر ، وصارت ألمانيا فيما بين ٩٥٥ و ١٠٧٥ أكثر بلاد أوربا رخاء ، لا يضارعها فى هذه الناحية إلا شمالى إيطاليا التى أخذت القانون والنظام عن الملوك الألمان . وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال ترير ، وميتز ، وكولونى تقدمها ، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفـــة فى اسپير ، ومجدبرج ، وورمز ؛ وبدأنا حوالى عام ١٠٥٠ نسمع عن مدينة نورمبرج .

وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها فى ذلك العصر ؛ فقد افتتحت مدارس — أو بالأحرى كليات فى أديرة فُلدا ، وبجرنسى Tegernse ، وريخنو Reichenan ، وجندرسهايم Gandersheim ، وهيلدسهايم Hildesheim ، ولورسخ Lorsch . ولما عين ربانوس موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ ؟ — ٨٥٦) رئيساً لدير فلدا العظيم فى بروسيا بعد أن أتم دراسته تحت رعاية ألكوين فى تور ، رفع مكانة مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها فى جميع أنحاء أوربا حتى أضحت اما رؤوماً للعلماء ولاثنين وعشرين معهداً تنتسب إليها . وقد وسع منهاجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية ، وندد بالخرافات التى كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية[٨٥] . ونمت دار الكتب فى فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة فى أوربا ؛ وهى التى أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس ، وأمنيانوس مارسلنوس Ammaianus Marcellinus . وثمة رواية غير موثوق بصحتها تعزو إلى ربانوس أنشودة « جئت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus » التى تنشد وقت

تدشين البابوات والأساقفة والملوك[٨٦] ، وافتتح سانت برونو St. Bruno ، الذى كان دوق لورين وكبير أساقفة كولونى ثم أصبح مستشاراً لإمبراطوريا لأتو الأكبر ، مدرسة فى القصر الملكى ليدرب فيها طبقة من الموظفين الإداريين ، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة .

ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب فى ذلك الوقت ؛ وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريبا من رجال الدين ، وكانت لغة الكتابة هى الألمانية . وكان أعظم شعراء العصر الألمان هو ولفريد استرابو Walafrid Strabo (٨٠٩ — ٨٤٩) وهو راهب سوابى فى ريخنو . وكان وقتاً ما مربياً لشارل الأصلع فى قصر لويس التقى بآخن . وقد وجد له فى يوديث الحسناء الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنيرة . ولما عاد إلى ريخنو ليتولى رياسة ديرها صرف جهوده كلها فى الدين ، والشعر ، وفلاحة البستاتين ، وقد وصف لنا فى قصيدة له ممتعة فى العناية بالحدائق De cultura hortorum كل عشب وزهرة من الأعشاب والأزهار التى كان يربيها ويشغف بها .

وكان أعظم من ينافسه فى الأدب الألمانى فى تلك القرون راهبة تدعى هرسويذا Hroswitha ، وهى واحدة من كثيرات من النساء اللاتى امتزن فى ذلك العصر بثقافتهن ورقتهن . وقد ولدت حوالى عام ٩٣٥ ، ثم دخلت دير البندكتيين فى جندرسهايم Gandersheim . وما من شك فى أن مستوى التعليم فى ذلك الديركان أرقى مما نتوقع ، ذلك أن هرسويذا قد درست شعراء رومة الوثنية ، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح ، وكتبت بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد تراجم لبعض القديسين ، كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر . ولكن كتبها التى خلدت ذكرها هى ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حذت فيها حذو ترنس Terence

وتقول هى إن الغرض الذى كانت ترمى إليه من كتابتها هو « أن تجعل الهبة الصغيرة التى حباها بها الله ، تخرج بدافع الإخلاص صوتاً ضئيلا تحمد به الله »(٨٧) . وتقول إنه يحزنها ما فى المسالى اللاتينية من بذاءة وثنية ، وإنها تحب أن تعرض على القراء بدلا منها مسالى مسيحية ؛ ولكن مسرحياتها نفسها تدور حول حب دنس لا يكاد يخفى ما ينطوى عليه من شهوة جثمانية . وخير مسرحياتها القصيرة هى مسرحية أبراهام ، وفيها يغادر ناسك مسيحى صومعته ليعنى بابنة أخ له يتيمة . ثم تفر الفتاة مع شخص أغواها لا يلبث أن يهجرها ، فتصبح من العاهرات . ويقتفى أبراهام أثرها ، ويدخل عليها حجرتها متخفياً . وتقبله ، فتعرفه ، وترتد عنه فى خجل ، ويدور بينهما حوار شعرى رقيق يقنعها به أن تقلع عن حياة الرذيلة وتعود معه إلى بيتهما . ولسنا نعرف هل مثلت هذه المسرحيات القصيرة أو لم تمثل ، ذلك أن المسرحيات الحديثة لم تكن صدى لمسرحيات ترنس وأمثالها ، بل نشأت من حفلات الكنيسة « وطقوسها الخفية » بعد أن امتزجت بها « مساخر» الممثلين الجائلين الصامتة .

ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر ، والتمثيل ، وكتابة التاريخ فحسب ، بل إنها فوق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال . فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيزنطية والكارولنجية ، وشجعتهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا فى ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجمال الممتاز . ويكاد برنولد Bernewald الذى كان أسقف هلدسهايم من ٩٩٣ إلى ١٠٢٢ أن يكون فى حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر : فقد كان مصوراً ، وخطاطاً ، وصانعاً للمعادن والفسيفساء ، وحاكماً إدارياً ، وقديساً . وقد جعل المدينة التى يعيش فيها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم . وبفضل معونتهم ، ويده الصناع أخرج صلباناً محلاة بالجواهر ، وماثلات من الذهب والفضة منقوشة عليها صور للحيوان والنبات ، وكأساً من كؤوس القربان

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجمال الثلاث عاريات كعادتهن[٨٨] ، وكانت الأبواب الذائعة الصيت التي صنعها فنانوه لكنيسته أولى الأبواب المعدنية فى العصور الوسطى التى صبت صباً بدل أن تصنع من ألواح مستوية ملصقة على الخشب . أما فن العمارة المحلية فلم يكن قد بدت فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التى ازدانت بها المدن الألمانية فى عصر النهضة ؛ غير أن مبانى الكنائس قد أخذت فى ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من الخشب إلى الحجارة ، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الخاصة بالأجنحة ، وأمكنة المرتلين ، والصحن ، والأبراج ، وبدأت وقتئذ كنائس هيلدسهايم ، ولورسخ ، وومز ، وميئز ، وتريبر واسپير ، وكولونى . وكان النقاد الأجانب يشكون مما يتصف به هذا الفن الربنى — الرومانسى من سقوف خشبية مستوية ، وإفراط فى الزخارف الخارجية ، ولكن هذه الكنائس تعبر أصدق تعبير عما فى الخلق الألمانى من قوة وصلابة وعن روح ذلك العصر الذى يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة .

الباب الحادى والعشرون

صراع المسيحية (٥٢٩ — ١٠٨٥)

الفصل الأول

القديس بندكت حوالى ٤٨٠ — ٥٤٣

شهد عام ٥٢٩ إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونتى كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة فى المسيحية اللاتينية . وقد ولد منشؤه بندكت النرسيائى Benedict of Nursia فى بلدة اسپليتو Spoleto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الآخذة فى الانقراض . ولما أرسل إلى رومة ليتعلم ، هاله مارآه فيها من الفساد الجنسى ، أو أنه كما يقول البعض أحب ولم يفلح فى حبه ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خمسة أميال من سبياكو Subiaco فى التلال السبينية ، واتخذ له صومعة فى كهف أسفل هاوية وعاش فيها بضع سنين فى عزلة الرهبان . وتحدثنا محاورات البابا جريجورى الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسى المرأة :

« التى بعث الشيطان ذكراها إلى قلبه ، وألهب بهذه الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله . . . حتى كادت تغلبه لذة الحب ، وفكر فى أن يهجر البرية ثم لطف الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه ، وأبصر كثيراً من شجيرات العوسج والحسك تنمو بالقرب منه ، فخلع ثيابه وألقى بنفسه فى وسطها وأخذ يتمرغ فيها

مدة طويلة ، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق وأصبح فى حال يرثى لها ، وهكذا داوى جراح نفسه بجراح قلبه » .

وبعد أن عاش فى هذه البرية الموحشة بضع سنين واشتهر بين الناس بزهوه وثباته على تقواه ، ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرهم ؛ ولما أنذرهم بأن حكمه سيكون صارماً ، لم يزدهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم ، فلم ير بدا من إجابتهم إلى طلبهم والانتقال معهم إلى ديرهم . ولما قضى معهم أشهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم فى النبيذ ، فعاد إلى حياة العزلة ، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره ، ويطلبوا هدايته ، وجاء بعض الآباء بأبنائهم ، ومنهم من كانوا من أهل رومة نفسها ، ليتلقوا عليه العلم ، فلم يحل عام ٥٢٠ حتى قام حول كهفه اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً . ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطيقونه ، انتقل مع أشد أتباعه حماسة إلى مونتى كسينو وهو تل يرتفع ١٧١٥ قدماً عن سطح البحر ، ويطل على بلدة كسينوم Cassinum القديمة التى تبعد عن كپوا أربعين ميلا جهة الشمال الغربى . وهناك هدم معبداً وثنياً ، وأنشأ فى مكانه (حوالى ٥٢٩) ديراً ووضع أساس الحكم البندكتى الذى اهتدت به فيما بعد معظم الأديرة فى بلاد الغرب .

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطأوا حين حذوا حذو نساك الشرق وعزلتهم ، لأن مناخ أوربا الغربية ونشاط أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقا عليهم مثبطا لعزيمتهم ، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم ؛ فلما جاء بندكت لم يحرم التنسك ولم ينتقد النساك ، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعيا لا فرديا ؛ خاليا من التنافس والتظاهر ، يخضع فى كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة ، ويقف عند الحد الذى إذا تعداه أضر بصحة الجسم أو بالعقل .

ولم يكن يطلب ، حتى ذلك الوقت ، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أى قسم . فأحس بندكت أن الواجب يقضى على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد ، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف ، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الأيمان . وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتعهد كتابة بالبقاء فى الدير على الدوام ، وإصلاح أخلاقه ، وطاعة رؤسائه ؛ ثم يضع الراهب الجديد هذا القسم الكتابى بنفسه على المذبح ، بعد أن يوقعه ويشهد عليه فى احتفال رهيب . ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه وكان الرهبان هم الذين يختارون رئيس ديرهم ، وكان عليه أن يستشيرهم فى جميع الشئون الخطيرة ، ولكنه هو وحده الذى يتخذ القرار الأخير ، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون : ولم يكن لهم أن يتكلموا إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة ، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال ، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض . ولم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئا « سواء كان كتابا ، أو لوحاً ، أو قلماً — أو شيئا على الإطلاق . . . بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكا مشاعا »[٣] . وكان عليهم أن يغفلوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق . وكان من واجب رئيس الدير :

ألا يميز بين الأفراد فى الدير . . . فلا يفضل الحر المولد عمن جاء من بين الأرقاء ، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول ، إذ لا فضل لأحدنا على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً : . . لأن الله لا يعظم الأشخاص[٤] .

ويجب على من فى الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة ، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تتسع له موارد الدير ، وأن « يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه »[٥] ؛

ومن واجب كل راهب أن يعمل — فى الحقول أو الحوانيت ، وفى المطبخ ،

وحول البيت ، وينسخ المخطوطات . . . ولم يكن الرهبان يأكلون شيئا حتى منتصف النهار ، وفى أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلا حين تغرب الشمس ، وكانوا فى الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة فى اليوم ، وفى أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتئذ طويل . وكان النبيذ مباحاً أما لحم كل حيوان ذى أربع فكان محرما عليهم . وكانت أوقات العمل أو النوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجماعية . وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى « ساعات كنسية » — أى ساعات للصلوات كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدها . فكان على الرهبان أن يستيقظوا فى الساعة الثانية صباحا ، ويذهبوا إلى المعبد القائم فى الدير ، ويرتلوا ، أو ينشدوا « تسبيحة الليل » وهى قراءة من الكتاب المقدس ، وأدعية ، ومزامير ؛ فإذا طلع الفجر اجتمعوا « لصلاة السحر » أو « تسبيحة الصباح » . وفى الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة — صلاة الساعة الأولى ؛ وفى التاسعة يجتمعون للصلاة الثالثة ؛ وفى منتصف النهار يصلون الصلاة « السادسة » ؛ وفى الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة ؛ وفى الغروب يصلون صلاة المساء ؛ وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهى الصلاة الختامية ؛ وكان وقت النوم هو بداية الليل ، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعى وينامون بملابسهم العادية وقلما كانوا يستحمون(٦) .

وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التى يتبعها الرجل الكامل المسيحية :

١ — يجب أولا أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه ، وكامل روحه ، وكامل قوته ؛

٢ — وعليه أن يحب جاره كما يحب نفسه (٣) وعليه ألا يقتل . . . . وألا يزنى . . . أو يسرق . . . أو يطمع . . . أو يشهد زوراً . . . (٨) وعليه أن يعظم الناس جميعاً . . . . (١١) وأن يطهر جسمه . . . . (١٣) وأن

يحب الصوم . . . (١٤) وأن يعين الفقراء . . . (١٥) وأن يكسو العرايا . . . (١٦) وأن يزور المرضى . . . (٣٠) وألا يتسبب فى الأذى وأن يصبر عليه . . . (٣١) وأن يحب أعداءه . . . (٣٣) وألا يكون مولعاً بكثرة الكلام . . . (٦١) وألا يرغب فى أن يسمى قديساً . . . ولكن عليه آن يكون من القديسين . . . (٧١) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن يصافيه قبل أن تغرب الشمس . . . (٧٢) وألا يقنط من رحمة الله[٧] . . .

وكان دير البندكتيين ملجأ يواسى المنكوبين فى عصور الحرب والفوضى ، والشك والتجوال ، يلجأ إليه الفلاحون المعدمون أو المنكوبون ، والطلاب الذين يتوقون إلى مأوى هادئ ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجه ، ويقول لهم : « تخلوا عن كبريائكم وحريتكم ، تجدوا هنا الأمن والسلام » . فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين فى جميع أنحاء أوربا ، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة ، لا يخضع إلا للبابا وحده ، وهى بمثابة جزائر شيوعية فى بحر من الفردية عجاج . وكانت القواعد والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول فى العصور الوسطى . وكان دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء ، فقد نهبه اللمبارد الهمج فى عام ٥٨٩ ؛ فلما انسحب اللمبارد عاد إليه الرهبان ، ثم دمره المسلمون فى عام ٨٨٤ ؛ فأعاد الرهبان بناءه ؛ ونهبه الجنود الفرنسيون فى عام ١٧٩٩ ، وهدمته قنابل الحرب العالمية الثانية وقذائفها ، حتى سوته بالأرض فى عام ١٩٤٤ . وهاهو ذا اليوم (١٩٤٨) يعيد بناءه مرة أخرى رهبان القديس بندكت بأيديهم ، فهو كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وأزهرت من جديد .

الفصل الثانى

جريجورى الأكبر ٥٤٠ ؟ — ٦٠٤

بينا كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون آمنين مسالمين فى مونتى كسينو ، كانت الحرب القوطية (٥٣٦ — ٥٥٣) تجتاح إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها وتترك الفوضى والفاقة أينما حلت . واضطربت الحال الاقتصادية فى المدن وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق فى رومة نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثى الإمبراطورية ، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لايتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذى عينين وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسى ، ولهذا أصدر جستنيان فى عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن « يختار الأساقفة والرجال المشهورون فى كل ولاية الأشخاص اللائقين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية »[٨] ولكن جثة جستنيان لم تكد تبرد فى مثواها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (٥٦٨) شمالى إيطاليا مرة أخرى إلى الهمجية وإلى المذهب الأريوسى وهددت صرح الكنيسة كله وزعامتها فى إيطاليا بأشد الأخطار . وخلقت هذه الأزمة رجلا ، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للعبقرية من أثر عظيم :

ولد جريجورى فى رومة قبل موت بندكت بثلاث سنين ، وهو ينتمى إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد قضى صباه فى قصر جميل على سفح تل كثيليا Caelian . ولما توفى أبوه ورث عنه ثروة طائلة ، وارتقى بسرعة فى سلم المناصب السياسية فكان فى الثالثة والثلاثين من عمره عمدة لرومة ، ولكنه لم يجد

فى نفسه ميلا للشئون السياسية ، ولهذا فإنه حين أتم السنة التى يحق له فيها أن يتولى منصبه ، وأيقن ، كما يبدوا من أحوال إيطاليا ، ومما كان يردده الناس على الدوام ، أن آخرة العالم قد اقتربت[٩] ، أنفق معظم ثروته فى إنشاء سبعة أديرة ، ووزع ما بقى منها صدقات للفقراء ، وتخلى عن جميع مظاهر طبقته ، وحول قصره إلى دير للقديس أندر St. Andrew وصار أول راهب فيه ، وأخذ نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة ، ولم يطعم فى معظم أيامه إلا الخضر والفاكهة ، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذى يحتم فيه الصيام خيل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضى عليه لا محالة : غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث السنين التى قضاها فى الدير ويقول إنها أسعد سنى حياته :

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون « شماساً سابعاً » فى خدمة البابا بندكت الأول ، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثانى سفيراً له فى البلاط الإمبراطورى بالقسطنطينية . وظل بين ألاعيب السياسة وأبهة القصور يعيش معيشة الراهب فى عاداته ، وطعامه وصلواته[١٠] ، وإن كان مع ذلك قد خبر العالم وما فيه من مكر وخداع خبرة أفاد منها كثيراً . واستدعى مرة أخرى إلى رومة عام ٥٨٦ . وعين رئيساً لدير القديس أندرو ، ثم فشا فى عام ٥٩٠ طاعون دملى مروع قضى على عدد كبير من أهل رومة وكان بلاجيوس من ضحاياه ، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجورى ليخلفه ؛ وكان يعز على جريجورى أن يترك ديره فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على اختياره للمنصب الجديد ، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة ، وبينا كان جريجورى يعد العدة للهرب ، ألقى القبض عليه ، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس حيث أقامه جريجورى آخر ، أو هكذا يقولون ، بابا[١١] .

وكان وقتئذ فى الخمسين من عمره ، وقد دب الصلع فى رأسه فى هذه السن المبكرة . وكان كبير الرأس أسمر اللون ، أقنى الأنف ، خفيف شعر اللحية ، أصدأه ، قوى

الإحساس ، حلو الحديث ، ماضى العزيمة ، رقيق العاطفة ؛ وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أتلفت صحته ، فكان يشكو عسر هضم ، وحمى بطيئة خفيفة ، وداء النقرس . وعاش فى القصر البابوى كما كان يعيش فى الدير – يلبس ثوب الرهبان الخشن ، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة ، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين فى حياتهم العامة . ولم يمنعه انهماكه فى معظم أوقاته فى مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان . من ذلك أنه أبصر فى يوم من الأيام شاعراً جوالا على باب قصره ومعـــه أرغن وقرد . فأمر جريجورى الرجل بالدخول ، وقدم له الطعام والشراب(١٣) . ولم يكن ينفق إيرادات الكنيسة فى تشييد صروح جديدة بل أنفقها فى الصدقات ، وفى الهبات للمعاهد الدينية فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وفى افتداء أسرى الحروب . وكان يوزع على كل أسرة فقيرة فى رومة كل شهر قدراً من الحبوب ، والنبيذ ، والجبن ، والزيت والسمك ، واللحم ، والثياب ، والمال . وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ فى كل يوم إلى العجزة والمرضى ؛ وكانت رسائله غاية فى الصرامة لرجال الكنيسة المهملين ، ولكبار الحكام السياسيين ، ولكنها كانت تفيض رقة وحناناً للمنكوبين : من فلاح يشتغل فى أرض الكنيسة ، إلى أمة تريد أن تدخل الدير ، أو سيدة شريفة يؤنبها ضميرها على ما اقترفت من آثام . وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ ، راعياً يعنى بقطيعه ، وكان للبابا الصالح الحق كل الحق فى أن يؤلف كتابه المسمى Liber Pastoralis curae (٥٩٠) ، وهى كتاب موجز فى النصائح يسديها إلى الأساقفة ، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة ، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه فى تصريف الشئون الكنسية ، والسياسة البابوية ، والأعمال الزراعية ، والخطط العسكرية ، وتأليف الرسائل الدينية ، والنشوة الصوفية ، والاهتمام الشديد بآلاف تفاصيل الحياة البشرية . وقد خلع على منصبه السامى

ما يتصف به الدين من تواضع ، فلقب نفسه فى أولى رسائله الباقية لدينا اليوم « خادم خدم الله » servus servorum Dei ، وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل .

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم ، والإصلاح الصارم الشديد ، وقد بذل جهوداً جبارة فى قمع التسرى والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين ، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية ، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان . وأصلح قانون القداس ولعله كانت له يد فى نشأة النشيد « الجريجورى » ، وقمع ما كان قائماً فى ضياع البابا من استغلال ، وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين ، ولكنه لم يتوان عن جمع إيراد أملاك الكنيسة بالحزم والسرعة ، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتنقون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة ، وقبل للكنيسة الأراضى التى كان يهبها لها الأشراف الذين أقضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم [١٤] .

وكان فى هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم فى الشئون السياسية ، يغلبهم فى معظم الأحيان ويغلبونه فى بعضها ، ولكنه ترك فى آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و « ميراث بطرس » (أى الولايات البابوية فى إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله . وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم ، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العملية ؛ مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسپليتو مدينة رومة — وكان فى حرب مع نائب الإمبراطور فى رافنا — عقد جريجورى صلحاً مع الدوق دون أن يستشير فى ذلك نائب الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه ، ولما أن حاصر اللمبارد مدينة رومة اشترك جريجورى فى تنظيم الدفاع عنها .

غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها فى الشئون الدنيوية ، ويعتذر لجماعات المصلين لعجزه عن أن يلقى عليهم عظات تريح بالهم بين المتاعب الدنيوية التى

تشغل باله هو ، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيما أتيح له من سنى الهدوء القلائل إلى نشر الإنجيل فى أوربا ، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا المتمردين ، وأعاد المذهب الكاثوليكى السليم إلى أفريقية ، وتلقى تحويل أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكى ، وكسب انجلترا لهذا المذهب دون أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها . ولما أبصر وهو رئيس دير القديس أندرو بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع فى أحد أسواق الرقيق فى رومة دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية :

« من بياض إهابهم ، ووسامة وجوههم ، وجمال شعرهم ، فأخذ يتأملهم لحظة وجيزة ، ثم سأل ، كما يقولون ، عن الإقليم أو البلد الذى جىء بهم منه . ولما قيل له إنهم جاءوا من بريطانيا ، وإن هذه هى صور أهلها ، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون . . . فلما أجيب بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلا . . . واأسفاه ! إنى ليحزننى أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع ملك الظلام ، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالية من الجمال الداخلى » . ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام ، فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles ، فلما سمع هذا قال : « ألا ما أجدرهم بهذا الاسم(*) لأن لهم وجوهاً كوجوه الملائكة ، وخليق بأولئك الرجال أن يرثوا مع الملائكة ملكوت السموات[١٥] ».

ثم تقول القصة بعدئذ – وهى أطرف من أن تصدق – إن جريجورى استأذن البابا پلاجيوس الثانى أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى انجلترا ، فلما آذن له البابا بذلك بدأ رحلته ، ولكنه وقف عن مواصلة الرحلة حين سقطت جرادة على الصفحة التى كان يقرأها فى الكتاب المقدس ؛ فصاح من فوره لوكستا Locusta ، « إن معنى هذا loca sta » – أى أقم فى مكانك[١٦] .

(*) يشير إلى ما بين Angles أى الإنجليز و Angels أى الملائكة من تجانس . (المترجم)

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا ، فلما كان عام ٥٩٦ أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان فى دير القديس أندرو. فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدراجهم ، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكسون ، فقد قيل لهم إن « أولئك الملائكة » وحوش مفترسة ، القتل عندهم أفضل من الأكل ، متعطشون لدماء الآدميين ، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين . وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى رومة ، ولكن جريجورى أنبه على ما فعل وشجعه على العودة ، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فأتم بالسلم فى عامين اثنين ما فعلته رومة بالحرب فى تسعين عاما ، ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره .

ولم يكن جريجورى فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم ، كما أنه لم يكن من الكتاب أصحاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذى الأسلوب الممتع الجذاب . ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر فى عقلية الناس فى العصور الوسطى ، وكانت تعبر عن هذه العقليه أصدق تعبير ؛ ولهذا فإن كتابات أوغسطين وجيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمين . وقد خلف وراءه كتباً فى الدين تواثم عقلية الجماهير ، حوت من السخف الكثير ما يحير الإنسان فلا يدرى هل كان يؤمن بهذا الإدارى العظيم حقا بما يكتبه ، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفوس الساذجة الأثيمة أن تؤمن به . وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت — وهى فى واقع الأمر أنشودة ساحرة من التبجيل لا يدعى فيها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تمييز الناقد البصير . وخير تراثه الأدبى هو رسائله الثمانمائة ، ففيها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته فى مائة من الميادين ، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه . وقد أحب الشعب محاوراته لأنه يعرض عليهم فيهـا أعجب القصص عن رؤى رجال الدين فى إيطاليا ، ونبوءاتهم ، ومعجزاتهم ، على أنها حقائق تاريخية . ففيها

يقرأ القارئ عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم ، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الخلق ، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب ، وعن أطعمة تنزل وتتكاثر بفعل المعجزات ، وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة . ويتكرر فى هذه المحاورات ذكر المخلفات وما لها من قوة ، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التى قيل إن بطرس وبولس قد قيدا بها ؛ وكان جريجورى يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة ، ويهدى برادة منها إلى أصدقائه ؛ وقد كتب مع هدية من هذا النوع إلى صديق مصاب بالرمد : « احرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار ، لأن هذه الهدية بعينها قد أتت بكثير من المعجزات » (١٧) . وقصارى القول أن مسيحية الجماهير قد استحوذت على عقل البابا العظيم وقلمه .

وكانت أعظم محاضراته فى ميدان الدين هى كتابه Magna Moralia — وهو شرح لسفر أيوب فى ستة مجلدات . وهو يروى هذه المسرحية على أنها تاريخ حقيقى فى كل سطر من سطوره ، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث فى كل سطر عن معنى مجازى أو رمزى ، ويختمها بقوله إنه يجد فى سفر أيوب جميع آراء أوغسطين الدينية . ويعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معان ، وأنه فى حد ذاته نظام كامل من الحكمة والجمال ، وأن على كل إنسان ألا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية اليونانية والرومانية القديمة . على أن بعض آيات الكتاب المقدس فى رأيه يكتنفها الغموض ، وأنها كثيراً ما تصاغ فى لغة شعبية تضويرية ، ولهذا فهى فى حاجة إلى أن تعنى بتفسيرها عقول مدربة ، والكنيسة وهى الأمينة على التقاليد المقدسة هى وحدها التى يحق لها أن تقوم بهذا التفسير والعقل الفردى أداة ضيقة مولعة بالتقسيم ، لم توجد لتعالج الحقائق التى تسمو على الحواس ، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا ،

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه » . وليس في مقدور أفهامنا أن تعرف الله ، وكل ما في وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو ؛ و « يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خليق به لمجرد أنه يمكن أن يقال عنه »[١٩] ولهذا لايحاول جريجورى محاولة صريحة أن يثبت وجود الله ، ولكنه يقول إن في وسعنا أن نشير إلى وجوده بالتفكير في النفس البشرية : أليست هي القوة الحية وهادية الجسم ؟ ثم يقول جريجورى : « وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس . . . في هذه الأيام أرواحاً تفارق أجسامها »[٢٠] . ومأساة الإنسان الكبرى هي أنه قد فسدت فطرته بتأثير الخطيئة الأولى ، فمالت به إلى الشر ، وهذا التكوين الروحى الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى الولد بفعل التناسل الجنسى : فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم . وليست النار اسماً على غير مسمى ، بل هي هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خلق العالم . وهي نار لا ينطفىء لظاها مجسمة ، ولكن في مقدورها رغم ذلك أن تطهر الأرواح والأجسام ؛ وهي أبدية ولكنها لا تفنى المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم ، ويضاف إلى آلامهم في كل لحظة يقضونها متألمين رعبهم مما ينتظرونه من آلام مقبلة ، ومن مشاهدة ما يلاقيه أحباؤهم المذنبون من هول العذاب ، ويأسهم من النجاة ، أو من السماح لهم بالفناء[٢١] . وأوضح جريجورى بطريقة أقل إرهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذى يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التى عفا الله عنها . وهنا يفعل جريجورى ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله ، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح بنفسه ، وما للقاء الربانى من قوة خفية عجيبة في نجاتهم ، وهي قوة في متناول جميع التائبين المسيحيين .

ولعل تعاليم جريجورى الدينية تنعكس عليها صحته المعتلة كما تنعكس عليها فوضى زمانه : فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها في عام ٥٩٩ يقول « قضيت أحد

عشر شهراً قلما غادرت فيها فراشي ، ينتابني فيها النقرس والقلق المؤلم . . .
إلى حد صرت أرجو معه النجاة منه بالموت » ، وكتب في عام ٦٠٠ مرة
أخرى : « أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين ، وقد اشتد بي الألم إلى حد
أكاد أعجز معه عن مغادرة سريري مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها
بالقداس . وأنا أحس في كل يوم بأنني على حافة القبر وأني في كل يوم
أرد عنه » . وكتب في عام ٦٠١ : « لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه
الفراش ، وما أعظم اشتياقي إلى الموت »[٢٢] . وجاءه الموت في عام ٦٠٤ .

لقد كان جريجوري المسيطر على أواخر القرن السادس ، كما كان
جستنيان المسيطر على بدايته ، وكان له في هذه الحقبة أثر في الدين لا يعلو
عنه إلا أثر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم يكن جريجوري من
رجال العلم ولا من المتبحرين في الدين . ولكن هذه البساطة هي التي
جعلت له في عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذي كان يهتدي
بهديه في تواضع فاتن جذاب . أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول
من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل[٢٣] ، فبينا كانت
يده تدير شئون إمبراطورية مشتتة ، كان تفكيره منصرفاً إلى فساد الطبيعة
البشرية وغواية الشياطين التي لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض ، وإلى
نهاية العالم القريبة . وكان يخطب خطباً قوية في تلك العقائد الدينية المرعبة
التي ظلت تغشى عقول الناس قروناً عدة ، وكان يؤمن بجميع المعجزات
الواردة في القصص الشعبية الخرافية ، وبكل ما يعزى لمخلفات القديسين ،
وصورهم ، وأورادهم من تأثير سحري ؛ ويعيش في عالم مليء بالملائكة ،
والشياطين ، والسحرة والأشباح ؛ وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً
قائماً على أساس العقل ، وكان العلم في رأيه مستحيل الوجود في الكون ، وكان
الدين الرهيب هو وحده الذي بقي فيه . وقد ارتضت القرون السبعة التي جاءت
بعدُ هذه النظرية ، وحاول الفلاسفة المدرسيون جهدهم أن يصوروها بصورة

تتفق مع العقل ، وكانت هى الأساس الموئس الذى بنيت عليه المملكة الإلهية .

ولكن هذا الرجل بعينه الذى يؤمن بالخرافات ويبادر إلى تصديقها ، والذى حطمت جسمه تقواه المرعبة الرهيبة ، هذا الرجل كان فى قوة إرادته وفى قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم ، لا ينثنى عن قصده ، صارماً فى أحكامه ، حازماً ، عملياً ، محباً للنظام وإطاعة القانون ، وضع للأديرة قانوناً ، كما وهبها بندكت حكماً ، أقام سلطة البابوية الزمنية ، وحررها من سلطان الإمبراطورية ، وصرف شئونها بحكمة واستقامة جعلتا الناس يرون فيها ملاذاً يهرعون إليه فى العصور العاصفة المقبلة . وقد اعترف بفضله وقدسه من جاء بعـــده من البابوات ولقبه الخلف المعجب به « جريجورى العظيم » .

الفصل الثالث

الشؤون السياسية للبابوية ٦٠٤ — ٨٦٧

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور عليهم أن يستمسكوا بكل ما كان يستمسك به من أهداب الفضيلة ، أو يحتفظوا بكل ما كان له من سلطان ؛ بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع لسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور ، وكثيراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون أن يقاوموا هذا السلطان . وكان الإمبراطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقذها من أعدائه الفرس ، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذى المذهب اليعقوبى — القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة ، — وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكثلكة الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتين . ومن أجل هذا أصدر فى عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة . ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على هذا الاقتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين « مسألة أتركها للنحويين لأنها من المسائل القليلة الخطر »(٢٤) . ولكن رجال الدين فى الغرب نددوا بموقفه هذا ؛ ولما أصدر الإمبراطور كنستانس Constans الثانى منشوراً (٦٤٨) يبدى فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول ، فأمر الإمبراطور حاكم راقنا أن يقبض على البابا ويأتى به إلى القسطنطينية ؛ ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور نفى إلى شبه جزيرة القرم ، وبقى بها إلى أن مات فى عام ٦٥٥ . ورفض المجلس المسكونى السادس الذى اجتمع فى القسطنطينية عام ٦٨٠ المذهب الجديد وحكم على البابا هونوريوس بأنه يحابى الخارجين على الدين(٢٥) ، ووافقت الكنيسة الشرقية التى آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام

ومصر التي تدين بمذهب اليعقوبيين ، على هذا الحكم ، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وجيزة فى سماء الشرق والغرب جميعاً .

ولكن إذلال البابوية المتكرر على أيدى أباطرة الشرق ، وما حل بيزنطية من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين فى آسية وأفريقية وأسبانيا ، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط ، وعجز القسطنطينية أو راقنا عن أن تحمى الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات اللمبارد ، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة فى النماء والقوة . وخشى البابا استيفن الثانى (٧٥٢ — ٧٥٧) أن يستولى اللمبارد على رومة فيحط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللمبارد ، فاستغاث بالإمبراطور قسطنطين الخامس ، ولكن الإمبراطور لم يغثه ، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة ، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسة غاية فى الخطر . فقد لبى پيپين القصير نداءه ، وأخضع اللمبارد ، ونفح البابوية « هبة پيپين » التى أغنتها إذ منحتها جميع إيطاليا الوسطى (٧٥٦) ؛ وبفضلها قامت سلطة البابوات الزمنية . وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان ، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسحه أحد البابوات . وهكذا أضحت أسقفية جريجورى الأول التى لا حول لها ولا طول من أعظم الدول فى أوروبا . ولما مات شارلمان (٨١٤) ، انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن ، فأخضع رجال الدين فى فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم ، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان .

وكان الأساقفة فى بادئ الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومنازعاتهم . ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك فى ألمانيا ، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكا واسعة ، وحصل الأساقفة والقساوسة على سلطات

إقطاعية كادوا يستقلون بها عن البابوات . ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستياءهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ « الأحكام البابوية الكاذبة » ، وهى مجموعة الأحكام التى قوت فيما بعد سلطان البابوية ، والتى كانت تهدف فى بادئ الأمر إلى تقرير حق الأساقفة فى أن يستأنفوا أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم . ولسنا نعرف متى صدرت هذه الأحكام ولا أين صدرت ، ولكن أغلب الظن أنها جمعت فى مدينة متز عام ٨٤٢ . وكان واضعها قس فرنسى تسمى باسم إزدورس مركاتور Isdorus Mercator . وكانت هذه المجموعة غاية فى البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو البابوات ، عدداً من المراسيم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من كلمنت الأول (٩١ — ١٠٠) إلى ملخيادس Melchiades (٣١١ — ٣١٤) . وكان الغرض الذى تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة تقضى بألا يخلع أى أسقف من منصبه ، وألا يدعى أى مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع ، وألا يفصل فى أية مسألة من المسائل الكبرى ، إلا بعد موافقة البابا . وتدل هذه الشواهد على أن البابوات جميعاً ، حتى الأولين منهم ، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمى المطلق بوصفهم خلفاء المسيح فى الأرض . وكان البابا سلفستر الأول (٣١٤ — ٣٣٥) يوصف فى هذه الأحكام بأنه قد أصبحت له بمقتضى « هبة قسطنطين » السلطة الزمنية والدينية الكاملتين على جميع أوربا الغربية ، وأن « هبة پيپين » بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس ، وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقباً من زمن بعيد لحق يرجع فى أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه . ومما يؤسف له أن كثيراً من الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس . ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس .

ولقد كان فى وسع كل من أوتى قدراً من العـلم أن يكشف عن هذا التزوير ، ولكن البحث العلمى كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر ، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التى تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة رومة الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذاك من البابوات المتأخرين ، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد ، . ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم(*) .

وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور « الأحكام الكاذبة » قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأناً فى تاريخ البابوية ، تلك هى شخصية نقولاس Nicholas الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) وكان نقولاس قد تلقى تعليماً عالياً فذا فى قانون الكنيسة وتقاليدها ، وتدرب على مهام منصبه السامى بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات . وكان يضارع جريجورى الأول والثانى العظيمين فى قوة الإرادة ، ويفوقهما فى سعة مطامعه ونجاحه الوصول إليها . وقد أقام منطقه على قضيتين يقبلهما وقتئذ جميع المسيحيين : وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة رومة ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد فى تسلسل متصل ، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا ، ممثل الله على ظهر الأرض ، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين — حكاماً كانوا أو محكومين — فى شئون الدين والأخلاق إن لم تكن فى جميع الشئون . ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة ، ولم يجرؤ أحد فى البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها ، وكل ما كان يرجوه الملوك ورؤساء الأساقفة ألا يحملها محمل الجد أكثر مما يجب .

لكنه خيب رجاءهم : ذلك أنه لما أراد لوثير الثانى ملك لورين أن يطلق

(*) ولقد كشف لورنزوفلا فى عام ١٤٤٠ ، بما لا يترك مجالا للشك ، عما فى هذه الأحكام الكاذبة من تزوير ، ولهذا فإن جميع الطوائف مجمعة فى هذه الأيام على أن هذه الوثائق التى كانت مثاراً للجدل وثائق مزورة (٢٦)

زوجته ثيوثيرجا Theutherga ويتزوج عشيقته ولدرادا حقق الرؤساء الدينيون مملكته رغبته ، فلجأت ثيوثيرجا إلى البابا نقولاس ، وأرسل البابا مبعوثيه إلى متز لينظروا فى الأمر . ونفح لوثير أولئك المبعوثين برشا سخية ليؤيدوا الطلاق ، وحمل كبير أساقفة ترير وكولونى هذا القرار إلى البابا ؛ ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس ، وأصدر قراراً بحرمان كبيرى الأساقفة ، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويعيد زوجته إلى عصمته ؛ فعصى لوثير الأمر وزحف على رومة بجيشه . وأقام نقولاس ثمانى وأربعين ساعة صائماً مصلياً ، وخانت لوثير على أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا .

وحدث أن هنكمار كبير أساقفة ريمس وأعظم الرؤساء الدينيين فى أوربا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفاً يدعى راثراد Ratherad من منصبه ، فلجأ الأسقف إلى نقولاس (٨٦٣) ؛ فأعاد البابا النظر فى قضيته ، وأمر بإعادة راثراد إلى منصبه ؛ ولما تردد هنكمار فى تنفيذ حكم البابا هدده بأن يصدر قرار بالحرمان على جميع أبرشيته ، وهو قرار يقضى بوقف الصلوات فى جميع كنائسها . واستشاط هنكمار غضباً ، ولكنه خضع . وكان نقولاس يكتب للملوك ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى ، ولم يجرؤ أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية . وقد ثبت من التطورات المقبلة أن الأحكام التى أصدرها البابا كانت كلها تقريباً فى جانب العدالة ، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان هو السراج الوهاج الذى أنار دياجير الظلام والملجأ الحصين فى ذلك العصر المنحل ، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها فى أقاليم أوسع رقعة من التى كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها .

الفصل الرابع

الكنيسة اليونانية : ٥٦٦ - ٨٩٨

لم يكن فى وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف رومة لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام ٨٧١ عن دعواهم بأن لهم السيادة على رومة ومن فيها من البابوات . لقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة ، ويعصون أوامرهم ، بل ويشهرون بهم ؛ ولكن الأباطرة هم الذين كانوا يعينونهم فى مناصبهم ، ويخرجونهم منها ، ويدعون المجالس الكنسية إلى الانعقاد ، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة ، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين . ولم يكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الدينى المطلق فى العالم المسيحى الشرقى إلا سلطان الرهبان ، ولسان البطريق ، واليمين التى يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يبتدع بدعة ما فى الكنيسة .

وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وقتئذ فى القسطنطينية - بل فى بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبيها . وكان عدد هذه الأديرة فى القسطنطينية وحدها يفوق عددها فى الغرب ، حتى لقد استحوذت نزعة التنسك على بعض أباطرة بيزنطية أنفسهم ، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور ، ويستمعون فى كل يوم إلى القداس ، ويتقشفون فى طعامهم ، ويندمون على خطاياهم كلما اقترفوها . وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً فى اتساع الأديرة وكثرة عددها بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات فى أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم . وكان الرجال والنساء من أعلى

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة ، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التى تعفى بعدئذ من الضرائب ، ومنهم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه فى نظير ذلك مرتباً سنوياً . وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء ، وكان الناس يعزون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدرة على فعل المعجزات ، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل . وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم ، وفسقهم ، وتحزبهم ، وشرههم ، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام . وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب ، ويستمتعون بالثراء المادى ، بل يستمتعون أيضاً بنفوذ سياسى لم يكن يسع إمبراطوراً ما أن يتجاهله . وكان ثيودور (٧٥٩ — ٨٢٦) رئيس دير استوديون Studion فى القسطنطينية مثلا أعلى فى التقى والسلطان . وكانت أمه قد وهبته فى طفولته إلى الكنيسة ، فتطبع بجميع الطباع المسيحية إلى حد جعله يهنئ والدته أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها . وقد وضع لرهبانه قانوناً للعمل ، والصلاة ، والعفاف ، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت فى الغرب ؛ ودافع عن استعمال الصور الدينية ، وأنكر أمام الإمبراطور ليو الخامس بمنتهى الجرأة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة فى الشئون الكنسية . وقد نفى أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل فى منفاه يقاوم محطمى الصور الدينية إلى يوم وفاته .

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ما كان بين المذهبين فى هذه القرون من اختلاف فى اللغة والطقوس والعقائد ، وكان مثلهما فى هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم فى المكان وتنوع على توالى الأيام . فقد كانت الطقوس ، والأثواب الكهنوتية ، والآنية ، والزخارف المقدسة فى الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً ، وأكثر زخرفاً ، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

مثيلاتها فى الغرب . فكان ذراعا الصليب اليونانى مثلا متساويتين ، وكان اليونان يصلون وهم وقوف ، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين ؛ وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمروهم فى الماء المقدس ، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم ؛ وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان ؛ وكان القسيسون اللاتين يحلقون لحاهم ، أما اليونان فكانوا يرسلونها إرسالا يخلع عليهم مظهر التفكير ؛ وتخصص رجال الدين اللاتين فى الشئون السياسية ، أما اليونان فتخصصوا فى أمور الدين ؛ وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً فى بلاد الشرق الذى ورث عن اليونان شغفهم بتحديد ما لا حد له ؛ ولقد نشأت بأرمينية حوالى عام ٦٦٠ من مبادئ الإلحاد الغنوسطية التى نادى بها بردسانس Bardesanes فى بلاد الشام ، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن ، شيعة من البولسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس ، لا تؤمن بالعهد القديم ، ولا بالعشاء الربانى ، ولا تقول بتعظيم الصور المقدسة ولا برمزية الصليب . وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بذور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان ، وإيطاليا ، وفرنسا . وصبرت صبر أولى العزم على أقسى أنواع الاضطهاد ، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن فى طوائف الملخانى Molokhani ، والخليستى Khlysti ، والدخوبور Dukhobors .

وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة ، وما من شك فى أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التى أدخلت على العقائد النيقية فى طليطلة عام ٥٨٩ ، والتى تقول إن الروح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب ، والتى لم تقبلها الكنيسة اليونانية . وزادت الهوة بين الكنيستين . لقد كانت العقيدة النيقية تتحدث عن « الروح القدس الذى ينبعث من الأب » ، ex patre procedit وظل هذا القول كافياً مدى ٢٥٠ عاماً ؛

ثم حدث فى عام ٥٨٩ أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى طليطلة فجعله ex patri filioque procedit أى المنبعثة من الأب والابن . وارتضت غالة هذه الإضافة ، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ . واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه . ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين ، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً فى المذهب اللاتينى إلا فى القرن الحادى عشر .

وقام فى هذه الأثناء كفاح بين الإرادات أضيف إلى الكفاح بين الآراء ؛ فقد كان من بين الرهبان الذين فروا من وجه محطمى الأصنام راهب يدعى إجناثيوس Ignatius ابن الإمبراطور ميخائيل الأول . واستدعت الإمبراطورة ثيودورا هذا الراهب فى عام ٨٤٠ وعينته بطريقاً . وكان رجلا تقياً شجاعاً ، شنع على قيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه ، ولما أصر بارداس على معاشرة أرملة ابنه المحرمة عليه طرده إجناثيوس من الكنيسة ، فما كان من بارداس إلا أن نفى إجناثيوس ، ورفع إلى عرش البطريقية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهذيباً (٨٥٥) . كان فوتيوس (٨٢٠ ؟ — ٨٩١) يتقن علوم اللغة ، والخطابة ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ؛ وكانت محاضراته التى يلقيها فى جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح إليهم مكتبته وبيته . وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريقية قد تم موسوعة فى مائتين وثمانين بابا استعرض فى كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه . وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الآداب القديمة ، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق تعصب الشعب ، الذى عجز عن أن يفهم السر فى بقائه مرتبطاً برباط الود

والصداقة مع أمير كريت. واستاء رجال الدين فى القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجاءة من بين العلمانيين إلى مقام البطريقية ، وأرسل نقولاس الأول مبعوثيه إلى القسطنطينية لينظروا فى الأمر ، وقرر فى رسائله إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنسية لا يصح أن يفصل فيها فى أى مكان من غير موافقة البابا . وعقد الإمبراطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس ، وانضم مبعوثو البابا إلى المؤيدين ؛ فلما عادوا إلى رومة أنكر عليهم نقولاس عملهم واتهمهم بأنهم قد خرجوا على التعليمات التى وجهها إليهم ، وأمر الإمبراطور بأن يعيد إجناثيوس إلى منصبه ، فلما تجاهل الإمبراطور هذا الأمر أصدر قراراً بحرمان فوتيوس (٨٦٣) . وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس ؛ ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبراطور للمغيرين على أملاكه من الصقالبة والمسلمين :

« إنا نحن لم نغز كريت ، ولم نقفر نحن صقلية من أهلها ؛ ولم نخضع نحن بلاد اليونان ، ولم نحرق الكنائس فى ضواحى القسطنطينية ؛ وبينا يفتح هؤلاء الوثنيون (أملاكك) ويحرقونها ، ويخربونها ، تبعث إلينا أيها المغتر تهددنا بهول جيوشك . إنك تطلق بارباس Barabbas وتقتل المسيح[٢٧] » :

ودعا فوتيوس والإمبراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد ، وأصدر هـذا المجلس قراراً بحرمان البابا (٨٦٧) وشنع على « إلحاد » الكنيسة الرومانية ، ومن بينها انبعاث الروح القدس من الأب و الابن ، وحلق القساوسة للحاهم ، وتحريم الزواج على رجال الدين . وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله : « ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى فى الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم » .

وبينا كان الرسل اليونان يحملون هذا الهزل إلى رومة إذ تبدل الموقف فجأة (٨٦٧) بجلوس بازيل الأول على عرش الإمبراطورية . وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس ، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث . ونادى فوتيوس أن

الإمبراطور الجديد قاتل سفاح ، ورفض أن يمنحه العشاء الربانى . ورد عليه بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد ، ونفى فوتيوس ، وأعاد إجناثيوس ؛ ولما مات إجناثيوس بعد ذلك بقليل ، استدعى بازيل فوتيوس ؛ وأعاده مجلس كنسى إلى مقام البطريقية ، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا القرار (وكان نقولاس الأول قد مات) . وبهذا تأجل إلى حين انشقاق الكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطلى هذا الانشقاق .

الفصل الخامس

المسيحية تغزو أوربا (٥٢٩ — ١٠٥٤)

لم يكن أجل الحوادث فى التاريخ الدينى لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية فى الشرق والغرب على السواء . ذلك أنه لم يكد دين المسيح يجنى ثمار انتصاراته على الامبراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملحدة حتى انتزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساكا به ، انتزعها منه فى يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية(*) . نعم إن البطارقة ظلوا فى كراسيهم بأنطاكية ، وبيت المقدس ، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين ، ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم ، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية . فقد أقامت أرمينية ، والشام ، ومصر سلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية ورومة . واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحى لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة ، وكان الدير العظيم دير لاڤرا المقدس الذى أقيم على جبل آثوس Mt, Athos فى عام ٩٦١ يضارع فى عظمته البارثنون بعد أن استحال كنيسة مسيحية . وكان لا يزال بأفريقية فى القرن التاسع الميلادى عدد كبير من المسيحيين ، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين . أما أسبانيا فقد كان الجزء الأكبر منها فى عام ٧١١ قد خرج من أيدى المسلمين ، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها فى آسية وأفريقية وواصلت فتوحها فى أوربا .

(*) فى هذا القول كثير من المغالاة فالإسلام لا يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية ولا المبادئ الأخلاقية المسيحية وإن خالفها فى بعض مبادئها وحسبنا دليلا على هذا قول الله سبحانه وتعالى لنبيه : « وجادلهم بالتى هى أحسن » . (المترجم)

وأوشكت إيطاليا أن تقع فى أيدى المسلمين ، ولكنها بعد أن أفلتت منهم انقسمت بين المذهبين المسيحيين اليونانى واللاتينى ، وكاد دير مونتى كسينو يقوم على الحد الفاصل بين المذهبين ، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت حكم رئيسه دزيدورس (١٠٥٨ — ١٠٨٧) . فقد جاء إليه من القسطنطينية ببابين فخمين من البرنز ، ثم لم يكتف بهذا فجاء إليه أيضاً بصناع ، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء ، والزخارف فى المعادن والعاج والخشب . وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج فى النحو والآداب اليونانية والرومانية القديمة ، والآداب المسيحية واللاهوت ، والطب ، والقانون . وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية فى الإبداع على غرار النماذج البيزنطية ، ونسخوا بخطهم الجميل كتب رومة الوثنية القديمة ، ومنها طائفة يرجع الفضل فى بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان . وفى رومة لم تشأ الكنيسة فى عهـــد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة فى التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بقاءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها ، فدشن البانثينون لمريم العذراء ولجميع القديسين (٦٠٩) ، واســـتحال هيكل يانوس كنيسة للقديس ديونيشيوس ، وهيكل زحل (ساترن) كنيسة المخلّص . وجدد ليو الرابع (٨٤٧ — ٨٥٥) كنيسة القديس بطرس وزينها ، وبفضل ازدياد سلطان البابوية ، ومجىء الحجاج إلى تلك المبانى ، تمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم تل الفاتيكان القديم .

وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية . ذلك أن ملوك الأسرة المروفنجية لم يكونوا يرتابون فى قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم ؛ فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضى والأموال . وكانت الكنيسة فى فرنسا كما كانت فى غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء التائبين والوارثات العابدات الصالحات ؛ ولما حرم

شلبريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنترام Gunthram أمر التحريم بعد قليل . وكان من سخريات التاريخ أن رجال الدين فى غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالى الرومانى ، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحى يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم ويردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم فى الحروب[٢٨] . وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة فى غالة ، وأحسنهم تعليما ، وأقلهم فساداً فى الأخلاق ؛ وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صادقة مخلصة فى تعليم الشعب الذى كان يعانى الأمرين من شره كبرائه وملوكه ، وفى تقويم أخلاقه ، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست فى الرذيلة . وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية فى أبرشياتهم ، وكانت محاكمهم الملجأ المفضل للمتقاضين فى الشئون الدينية وغير الدينية أيضاً . وكانوا أينما وجدوا يبسطون حمايتهم على اليتامى ، والأرامل ، والمعدمين ، والأرقاء ؛ وكانت الكنائس تنشىء المستشفيات فى كثير من الأبرشيات ، ومنها hotel de Dieu — « نزل الله » — الذى افتتح فى باريس عام ٦٥١ . وقد اشتهر سان چرمان St. Germain ، أسقف باريس فى النصف الثانى من القرن السادس فى جميع أنحاء أوربا بما بذله من الجهود فى جمع الأموال — وإنفاق ماله الخاص — لتحرير العبيد . وقوى سيدونيوس أسقف ميتز جسور الرين . وهذب فليكس أسقف نانت مجرى اللوار ، وأنشأ ديديه Didier أسقف كاهور Cahor قنوات لنقل مياه الشرب ، وكان سان أجوبار St. Agobard (٧٧٩ — ٨٤٠) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحاً فى التدين ، وعدواً لدوداً للخرافات ؛ حرم المحاكمة بالمبارة أو التحكيم الإلهى ، كما حرم عبادة الصور ، وتفسير الزوابع على أنها من أعمال السحر ، وكشف عما فى محاكمة الساحرات من أخطاء فكان بهذا « أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء »[٢٩] . وكان هنكمار الأرستقراطى كبير أساقفة ريمس (٨٤٥ — ٨٨٢) رئيساً لنحو

عشرين من المجالس الكنسية ، وقد ألف ستة وستين كتاباً ، وكان رئيس وزراء شارل الأصلع ، وكاد ينشئ حكومة دينية فى فرنسا .

واتصفت المسيحية فى كل بلد بصفات أهله القومية ، فأصبحت فى أيرلنـدة صوفية ، عاطفية ، فردية النزعة ، انفعالية ؛ أدخلت فيها الجنيات ، والشعر ، وخيال الكلت العجيب الرقيق ؛ وورث القساوسة قوى الدرويد السحرية ، وأساطير الشعراء الغنائيين ، وكان النظام القبلى فى البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة — حتى كادت كل جهة فيها يكون لها « أسقف » مستقل . وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة ، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلما تزيد الواحدة منها على اثنى عشر راهباً يقيمون فى أديرة شبه منعزلة ، معظمها مستقلة بشئونها ومنتشرة فى أنحاء الجزيرة ، تعترف للبابا برياسة الكنيسة ، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجى من أى نوع كان . وكان الرهبان الأسبقون يعيشون فى صوامع منفصلة ، ويعمدون إلى التنسك والزهد ، ولا يجتمعون إلا فى أوقات الصلاة . وجاء بعدهم جيل آخر — « الطبقة الثانية من القديسين الأيرلنديين » — خرجوا على هذه التقاليد المصرية ، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية ، وينسخون المخطوطات ، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين . وتخرج فى المدارس الأيرلندية فى القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الذائعى الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندة ، وانجلترا ، وغالة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة . وقد كتب أحد الفرنجة فى عام ٨٥٠ يقول : « تكاد أيرلندة كلها تهرع جماعات إلى سواحلنا ومعها حشد من الفلاسفة »[٣٠] . وهكذا انعكست الآية واستُردَّ الدَّين ، فبعد أن طردت غارات الألمان على غالة وبريطانيا العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندة ، أخذ المبشرون الأيرلنديون يلقون بأنفسهم على فاتحى إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون ،

والترويجيين ، والدنمرقيين ، وعلى المسيحيين الأميين نصف الهمج فى غالة وألمانيا ، يحملون الكتاب المقدس بإحدى يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى ، ولاح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضى بالقوة . وبذلك كانت العصور المظلمة هى التى أشرقت فيها الروح الأيرلندية وتلألأت كما لم تتلألأ من قبل ولا من بعد .

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba ، ونحن نعرف الشىء الكثير عنه من سيرته التى كتبها له (حوالى عام ٦٧٩) أدمنان Adamnan أحد خلفائه فى أيونا Iona . وقد ولد كولمبا فى دنجال Donegal عام ٥٢١ ، وكان يجرى فى عروقه دم الملوك ؛ وكان كما كان بوذا قديساً فى وسعه أن يكون ملكا . وبدا عليه وهو طالب فى مدرسة موفيل Moville من الورع ما جعل معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkille أى عماد الكنيسة . وأنشأ مذ كان فى الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها فى درى Derry ، ودرو Durrow ، وكلز Kells . ولكنه لم يكن قديساً فحسب ، بل كان فوق ذلك مكافحاً « قوى البنية ، جهورى الصوت »[31] ، سبب له تهوره كثيراً من النزاع ثم إلى الحرب مع الملك ديرمويد Diarmuid ؛ ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها ، على حد قولهم ، ٥٠٠٠ رجل . وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أيرلنده (٥٦٣) ، وهو مصمم على أن يهدى إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل فى معركة كولدرفنا Cooldrevna . وأنشأ وقتئذ فى جزيرة أيونا القريبة من شاطئ اسكتلندة الغربى ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة . ومن هذا الدير نشر هو ومريدوه الإنجيل فى جزائر هبريده Hebrides ، واسكتلندة ، وشمال إنجلترا . وبعد أن هدى آلافا من الوثنيين إلى الدين المسيحى وزخرف ثلثمائة « كتاب نبيل » مات وهو يصلى عند المذبح فى الثامنة والسبعين من عمره .

وشبيه به فى روحه واسمه سانت كولمبان St Columban المولود فى لينستر Leinster حوالى عام ٥٤٣ . ولسنا نعلم عنه شيئاً حتى نجده وهو فى الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة فى جبال الفوج بفرنسا . وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه فى لكسويل Luxeuil :

يجب أن تصوم كل يوم ، وتصلى كل يوم ، وتعمل كل يوم ، وتقرأ كل يوم ؛ وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد ، وفى مجتمع يتألف من كثير من الإخوان ، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودماثة الأخلاق من رابع . . . . ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر فى الطريق[٣٣] .

وكانت العقوبات صارمة ، أكثر ما تكون بالجلد : ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس ، أو تبسم أثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى ؛ وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو الله قبل الطعام ، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة ، ومائة لمن يشترك فى نزاع ، ومائتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة[٣٣] . ولم يكن الناس يحجمون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابى ، فقد كان فى ديرمكسويل ستون راهباً ، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية . وكانوا يعيشون على الخبز ، والخضر ، والماء ؛ ويقطعون الغابات ، ويحرثون الأرض ، ويزرعون ويحصدون ، ويصومون ويصلون . وهنا أقام كولمبان نظام « الحمد الذى لا ينقطع iaux perennis » فقد كانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلا ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين[٣٤] . وكانت ألف دير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة فى العصور الوسطى .

ولم يكن المزاج الصارم الذى وضع هذه القواعد يجيز آراء غير هذه الآراء ؛ ولهذا ألفى كولمبان ، الذى يحرم النزاع ، نفسه فى نزاع متكرر مع الأساقفة الذين

يتجاهل سلطانهم ، ومع الموظفين الزمنيين الذين لا يقبل تدخلهم فى الشئون الدينية ، ومع البابوات أنفسهم . ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة فى بادئ الأمر ولكنها غيرته فى عام ٣٤٣ . ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين ، فلجأ هؤلاء إلى جريجورى الأكبر ، ورفض كولمبان أوامر البابا وقال : « إن الأيرلنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان » ، وأمر جريجورى أن يقر طريقة الأيرلنديين فى الحساب وإلا « فسيعد من الخارجين على الدين وتنبذه بازدراء كنائس الغرب »[٣٥] . ثم طرد الأيرلندى المتمرد من غالة (٦٠٩) ، لتشهيره بآثام الملكة برنهلد Brunhild : ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندة ؛ ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا ؛ وعبر كولمبان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل باڤاريا الوثنيين . ولسنا نعتقد أن كولمبان كان فى حقيقة أمره رهيباً كما يبدو من حكمه وسيرته ، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجثم فى اطمئنان على كتفيه وتدخل فى قلنسوته وتخرج منها[٣٦] . ثم ترك زميلا له أيرلندياً ليؤسس (٦١٣) دير سانت جول St Gall على بحيرة كنستانس ، وعبر هو ممر سان جوثار Sf Gothard Pass بعد أن عانى فى سبيل ذلك الأمرين ، وأسس دير ببيو Bobbio فى لمباورديا عام ٦١٣ حيث توفى بعد عامين فى صومعته المنعزلة التى كان يعيش فيها معيشة الزهد والتقشف .

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين فى بريطانيا فى عام ٢٠٨ ؛ كما يحدثنا بيد Bede عن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا Sardica (٣٤٧) ؛ كذلك ذهب جرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا فى عام ٤٢٩ ليقضى فيها على الزنادقة البلاجيين[٣٧] . ويؤكد لنا وليم الملمزبرى William of Malmesbury أن الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الذين هداهم

من البريطانيين يصرخون « حمداً لله » فى وجوههم[٣٨] . ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة ، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكسون ، فلم تعد تسمع عنها شيئاً بعدئذ حتى دخل أتباع كولمبا نورثمبرلند فى آخر القرن السادس ، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من رومة إلى إنجلترا . وما من شك فى أن البابا جريجورى قد علم من قبل أن إثلبرت ملك كنت الوثنى تزوج برتا Bertha الأميرة المروفنجية المسيحية . واستمع إثلبرت فى لطف ومجاملة إلى أوغسطين ، وظل غير مقتنع بحديثه ، ولكنه أطلق له حرية الوعظ ، وهيأ له ولزملائه الرهبان الطعام والمسكن فى كنتربرى . ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (٥٩٩) أن تقنع الملك باعتناق الدين الجديد ، وحذا حذوهما كثير من رعاياهما . وفى عام ٦٠١ بعث جريجورى بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتربرى الأجلاء الممتازين . واصطنع جريجورى اللين مع من بقى فى إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس ، بأن تحول عادة التضحية بالثيران فى يسر ولطف إلى « ذبحها لإنعاشهم لمديح الله »[٣٩] ، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر .

وأدخل مبشر إيطالى آخر يدعى پولينوس Panlinus المسيحية إلى نورثمبرلند (٦٢٧) . ذلك أن أزولد Oswald ملك نورثمبرلند دعا رهبان أيونا إلى المجىء إلى بلاده ليعظوا شعبه ، وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فمنحهم جزيرة لندسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرقى . وفيها أنشأ سانت إيدان St. Aidan (٦٣٤) ديراً خلد اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين المخلصين ، وبما أخرجه من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة . وهناك ترك سانت كثبرت St. Cuthbert (٦٣٥ ؟ — ٦٨٧) وراءه فى دير ملروز Melrose ذكريات طيبة لصبره ، وتقواه ، وفكاهته ، وحسن إدراكه . وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

وأمثالهم ، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب الكثيرة ، أقبل عدد كبير من المتنصرين حديثاً والمتنصرات إلى أديرة الرجال والنساء التي قامت وقتئذ في انجلترا . وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة العمل ، بكدحهم المتواصل في الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من حين إلى حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس . فتزعموا هنا ، كما تزعموا في فرنسا وألمانيا ، ركب الحضارة في كفاحه ضد المناقع والآجام ، وكما تزعموه في كفاحه ضد الأمية ، والعنف والدعارة ، والسكر ، والشره . وظن بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب ، وأن لأشراف قد أسرفوا في إنشاء الأديرة ليعفوا أملاكهم من الضرائب ، وأن أراضي الكنيسة المعفاة من الضرائب قد استغرقت من أرض إنجلترا الزراعية فوق ما يجب أن تستغرقه ؛ وإنذر البلاد بأنه لم يبق من الجنود من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو(٤٠) . وسرعان ما أثبت الدنمرقيون ، ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره في شئون الدنيا .

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها ، وعكر عليها صفوها ، حين اصطدم الرهبان البندكتيون المقيمون في جنوبي انجلترا والذين اتبعوا الشعائر الرومانيـة والتقويم الروماني ، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم الأيرلندي والشعائر الأيرلندية في الشمال . وحسم سانت ولفريد St Wilfrid بفصاحته في مجمع هوتبي Whitby المقدس (٦٦٤) هذا النزاع — وهو من الوجهة الفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح — في صالح رومة . وقبل الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار ، وأضحت الكنيسة الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الحبوس والهبات سلطة اقتصادية وسياسية ، واضطلعت بدور رئيسي في تحضير الشعب وحكم الدولة .

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلنديين والإنجليز . ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثمبري الذي تلقى تعليمه في أيرلندة اجتاز هو واثنا عشر من أعوانه المغامرين بحر الشمال في عام ٦٩٠ ، واتخذ

مقره الدينى فى أوترخت Utrecht ، وظل أربعين عاما يعمل لهداية الفريزيين إلى المسيحية . ولكن أولئك الملاك ذوى النزعة الواقعية رأوا فى وليبرورد يد پيپين الأصغر حاميه ونصيره ؛ ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثواهم الجحيم . ويروى أن ملكا فريزيا عرف هذا وهو يوشك أن يعمد ، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آبائه(٤١) .

وواصل رجل أقوى من وليبرورد هذه الحملة فى عام ٧١٦ . ذلك أن نبيلاً إنجليزيا وراهباً بندكتيا يدعى ونفريد (٦٨٠ ؟ — ٧٥٤) منحه البابا جريجورى الثانى اسم بنيفاس ولقّبه خالفاؤه الصالحون لقب « رسول ألمانيا » . وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzlar فى هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلهة ، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة ؛ ودهش الناس حين رأوا أنه ظل حيا فهرعوا إليه يطلبون التعميد . وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة فى ريخنو Reichenau (٧٢٤) ، وفلدا Fulda (٧٤٤) ، ولورسخ Lorsch (٧٦٣) . وعيّن بنيفاس كبيراً لأساقفة مينز فى عام ٧٤٨ ؛ فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لتقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادى والسياسى . ولما أتم رسالته فى هس وثورنجيا ، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الدين ، فدخل فريزيا يعتزم أن يتم العمل الذى بدأه وليبرورد ، وبعد أن ظل يكدح فى هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه الوثنيون وقتلوه . وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحى بين السكسون بالسيف والنار ، ورأى الفريزيون المعاندون أن لا مناص من الخضوع ، وتم بذلك فتح بلاد الذين فتحوا رومة على أيدى المسيحية الرومانية .

وكان آخر انتصارات الدين فى أوربا هو هداية الصقالبة . وتفصيل ذلك أن رستسلاف Rostislav أمير مورافيا رأى المسيحية اللاتينية تدخل بلاده وتغفل فى شعائرها لغة البلاد ، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

يستخدمون اللغة العامية فى عظاتهم وصلواتهم ، فبعث إليه الإمبراطور بأخوين هما مثوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشآ فى سلانيك ، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكلما لغة الصقالبة . ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدا أن الصقالبة ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغتهم تعبيراً كاملاً بالكتابة ، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون فى كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية . ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلبية وطريقة كتابتها ، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التى دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن التاسع ، فكان حرف B ينطق كما ينطق V ، H ينطق حرف I (وحرف E فى الإنجليزية) ، Ch كما ينطق الأسكتلنديون Ch ، وابتكر حروفاً صقلبية للأصوات التى لا تعبر عنها الحروف اليونانية . وترجم سيريل بهذه الحروف الهجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية ، وبدأ بهذا العمل لغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً .

ونشأ وقتئذ بين المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغى به كلتاهما أن تستحوذ على الصقالبة ؛ فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل ومثوديوس إلى رومة ، حيث ترهب سيريل ، ومرض ، ومات (٨٦٩) . أما مثوديوس فعاد إلى مورافيا كبيراً لأساقفتها من قبل البابا . وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلبية ، ثم حرمها استيفن الخامس ؛ واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا ، وبوهيميا ، وسلوفاكيا (وهى التى تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة) ، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وپولندا ؛ أما بلغاريا ، والصرب ، وروسيا فقد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلبية ، وقدمت ولاءها للكنيسة اليونانية ؛ وأخذت ثقافتها عن بيزنطية .

ولقد تأثرت هذه التغيرات الدينية بالاعتبارات السياسية . ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد به ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم وإياها برباط

وثيق . وفرض الملك هارولد بلوتوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحى على الدنمرقة (٩٧٤) ، ليكون جزءاً من الثمن الذى طلبه الإمبراطور أتو الثانى للصلح . وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونانية (٨٦٤) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما ، وكان انضمامه إليها لرغبته فى الاحتماء بها من توسع ألمانيا ، وجعل ڤلاديمير Vladimir الأول روسيا بلاداً مسيحية (٩٨٨) ليستطيع الزواج بأنا Anna أخت بازيل الثانى إمبراطور الروم ، وليحصل على جزء من بلاد القرم بائنة لها [٤٢] وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسلطان بطرق القسطنطينية ، ثم أعلنت استقلالها عنه فى القرن الثالث عشر ، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الامبراطورية الشرقية (١٤٥٣) ذات الشأن الأكبر فى العالم الأرثوذكسى اليونانى .

وكان الجنود المظفرون فى هذا الفتح المسيحى لأوربا هم الرهبان ، كما كانت الراهبات هن الممرضات فى هذه الحرب الدينية . ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضى البور وزراعتها ، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة الجسور على الجداول ، وشق الطرق ؛ ولقد أقاموا فى البلاد مراكز للصناعة ، وأنشأوا المدارس ، ونظموا الصدقات ؛ ونسخوا المخطوطات وجمعوا مكتبات متواضعة ، وبثـوا النظام الأخلاقى وروح الشجاعة والطمأنينة فى نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة . وكان بندكت الأنيانى يكدح ، ويحفر ، ويحصد بين رهبانه ، كما ظل الراهب ثيودلف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاما ، وقد بلغ من إخلاصه فى هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته بهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال .

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلا مثلا عليا للفضيلة ، والخشوع ، والجد ؛ وكان لابد من قيام

حملة فى كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التى شرعوا لأنفسهم قواعدها . كذلك كان بعض الرهبان ينهمكون فى نوبات موقوتة من التقى والخشوع ثم يصبحون غير صالحين لنظام الرهبنة بعد أن يفيقوا من نشوتهم وتضعف حماستهم . ومن الرهبان والراهبات من كانوا نذوراً جىء بهم إلى الأديرة وهم أطفال فى سن السابعة أو بعدها ، ومنهم من جىء بهم وهم رُضَّع فى المهد ؛ وقد ظلت هذه النذور حرمات لا يحل النكث بها حتى أباحت القرارات البابوية فى عام ١١٧٩ التحلل منها إذا بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره[٤٣] . وهال لويس التقى ما رآه من ضعف النظام فى الأديرة الفرنسية فدعا فى عام ٨١٧ إلى عقد جمعية قومية من رؤساء الأديرة والرهبان فى آخن ، وعهد إلى القديس بندكت الأنيانى أن يقرر السير فى جميع أديرة بلاده على القواعد التى وضعها القديس بندكت النورسيانى St Benedict of Nursia . وأخذ بندكت الجديد يواصل العمل بجد ، ولكن المنية وافته فى عام ٨٢١ ، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضى فى دولة الفرنجة ؛ وخربت غارات النورمان ، والمجر ، والمسلمين مئات من الأديرة ، وهام الرهبان على وجوههم فى العالم غير الدينى ، ولما عاد بعضهم إلى أديرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب ، جاءوا معهم إليها بطرائق الحياة فى خارجها . يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأديرة ، وعينوا هم رؤساءها ، واستولوا على إيرادها ، ولم يحل عام ٩٠٠ حتى تدهورت أديرة الغرب ، كما تدهورت الأنظمة كلها ، إلا القليل الذى لا يستحق الذكر منها ، فى أوربا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى . وليس أدل على هذا الانحطاط من قول سانت أدو رئيس دير كلونى (المتوفى عام ٩٤٢) « إن بعض رجال الدين فى الأديرة وفى خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء فى ساحاته نفسها ، بل فى تلك البيوت التى أنشأها المؤمنون الخاشعون لكى تكون ملاذاً للعفة والطهارة فى حرمها المسور ؛

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى »[٤٤] . ومن دير كلونى جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة .

ذلك أن اثنى عشر راهباً قد أنشأوا حوالى عام عام ٩١٠ ديرا فى هذا المكان بين تلال برغندية يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا . وفى عام ٩٢٧ أعاد أدو رئيسه النظر فى قواعده ليجعلها أشد صرامة من الناحية الأخلاقية وييسرها من ناحية الجهود الجسمية : فمنع التقشف الشديد ، وأوصى بالاستحمام ، ووفر الطعام ، وأجاز شرب الجعة والنبيذ ؛ ولكنه شدد فى الاستمساك بالأيمان القديمة التى يلتزم بها الرهبان الفقر ، والطاعة ، والعفة . وأنشئت أديرة أخرى على غراره فى أماكن أخرى من فرنسا ، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذى لا يقوم على أساس معروف ، ولا يخضع إلا خضوعاً غير وثيق إلى أسقف محلى أو سيد من الأشرف ، بل كانت الأديرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلونى يحكمها رؤساء يخضعون لرؤساء دير كلونى وللبابوات . وانتشرت بزعامة مايول Mayeul (٩٥٤ — ٩٩٤) ، وأدوياو Odilo (٩٩٤ — ١٠٤٩) ، وهيو Hugh (١٠٤٩ — ١١٠٩) حركة تآخى الأديرة من فرنسا إلى انجلترا ، وألمانيا ، وبولندة ، وهنغاريا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وانضمت كثير من الأديرة القديمة « إلى المجمع الكلونى » ، فلم يحل عام ١١٠٠ حتى كان نحو ألفى دير تعترف بأن دير كلونى أبوها وحاكمها .

وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو ، البعيدة عن تدخل الدولة ورقابة الكنيسة ، سلاحاً جديداً فى يد البابوية تسيطر به على رجال الدين فى خارج الأديرة ، ويسرت فى الوقت نفسه إصلاح نظام الرهبنة على أيدى الرهبان أنفسهم إصلاحاً ينطوى على الجرأة والشجاعة ، فكبحت أيد قوية ما كان فى الأديرة من اضطراب ؛ وتعطل ، وترف ، وفساد أخلاق ، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية ، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسى فى أراضيها ، إذ دعى أدو إلى إيطاليا ليصلح دير مونتى كسينو نفسه[٤٥] .

الفصل السادس

البابوية فى الحضيض (٨٦٧ ــ ١٠٤٩)

كانت رومة آخر المدن التى وصل إليها الإصلاح . ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعاب المراس حتى فى الوقت الذى كان فيه النسر الإمبراطورى يقبض بمخلبيه على الفيالقَ الضخمة يسيرها أينما شاء . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف ، ومكانة منصبهم السامية ، ورهبة دينهم ؛ ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء فى أيدى أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس . وكان الرومان أعز نفساً من أن يتأثروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم والاختلاط بهم ؛ فقد كانوا يرون فى خلفاء المسيح فى الأرض رجالا مثلهم يمرضون ، ويخطئون ، ويأثمون ، ويغلبون ، فلم تعد البابوية فى اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملجأ عاصماً للنجاة ، بل أضحت طائفة من العمال يجمعون الصدقات من أوربا لمساكين رومة . وكانت تقاليد الكنيسة تقضى بألا يختار البابا بغير رضاء رجال الدين فى رومة وأشرافها وجمهرة سكانها ، وتفرق حكام اسبوليتو ، وبنفنتو ، ونابلى ، وتسكانيا ، وأشراف رومة شيعاً وأحزاباً كما كانوا فى عهدهم القديم ، وكان الحزب صاحب اليد العليا فى المدينة يحيك الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه . وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية فى القرن العاشر إلى أحط مستوى وصلت إليه فى تاريخها كله .

من ذلك أنه فى عام ٨٧٨ دخل لامبر Lambert دوق اسپوليتو مدينة رومة على رأس جيشه ، وقبض على البابا يوحنا السابع ، وحاول أن يرغمه بتجويعه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية . وفى عام ٨٩٧ أمر البابا استيفن

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس Formosus (٨٩١ — ٨٩٦) من قبرها ، وترتدى الملابس الأرجوانية ، وتحاكم أمام مجلس كنسى بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة ، ثم يحكم بإدانتها ، وتجرد من ثيابها الكهنوتية ، وتبتر بعض أعضائها وتلقى فى نهر التيبر[٤٦] . وثارت فى العام نفسه ثورة سياسية فى رومة خلع على أثرها استيفن من منصبه ، وقتل فى السجن خنقاً[٤٧] . وظل كرسى البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل ، أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنىء ، وبقيت أسرة ثيوفيلاكت Theophylact ، أحد كبار الموظفين فى قصر البابا ، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها . واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تنجح فى اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسى البابوية (٩٠٤ — ٩١١)[٤٨] ؛ كما أفلحت زوجته ثيودورا فى تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ — ٩٢٨) . وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا ، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع[٤٩] ؛ وما من شك فى أنه كان زعيما ممتازاً فى الشئون الزمنية ، لأنه هو الذى عقد الحلف الذى رد زحف المسلمين على رومة فى عام ٩١٦ . وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جيدو Guido دوق تسكانيا ، وأخذا يأتمران لخلع يوحنا ، وعملا عن قتل أخيه بطرس أمام عينيه ، ثم زج البابا فى السجن حيث مات بعد أشهر قلية ميتة لا تُعلم أسبابها ، ثم رفعت مريوزا فى عام ٩٣١ يوحنا الحادى عشر (٩٣١ — ٩٣٥) إلى كرسى البابوية ، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعى من سرجيوس الثالث[٥٠] . وفى عام ٩٣٢ سَجَن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا فى قلعة سانت أنجيلو Sant' Angelo ، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شئون البابوية الروحية ، وظل ألبريك يحكم رومة اثنتين وعشرين سنة ، كان فيها الطاغية المسيطر على « جمهورية رومانية » . وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان Octavian

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان بابا بعد موت أجابتوس Agapetus الثانى . وتم له ما أراد ، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثانى عشر ، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهتك والدعارة فى قصر لاتبران Lateran[٥١] .

وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثانى عشر إمبراطوراً فى عام ٩٦٢ . فلما عاد إلى رومة فى عام ٩٦٣ بتأييد رجال الدين فيما وراء جبال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسى . واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة ، وأنه عين غلاما فى العاشرة من عمره أسقفاً ، وأنه زنى بخليلة أبيه ، وضاجع أرملته ، وابنة أختها ، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة . ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس ، أو أن يجيب عن هذه التهم ، وخرج للصيد ، فقرر المجلس خلعه ، واختار بالإجماع مرشح أتو لكرسى البابوية ، وكان هذا المرشح الذى أصبح البابا ليو الثامن (٩٦٣ — ٩٦٥) من غير رجال الدين . ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطورى فى رومة وبتر أعضاءهم ، وعمل على أن يعود إلى كرسى البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره (٩٦٤)[٥٢] . ولما مات يوحنا (٩٦٤) اختار الرومان بندكت الخامس لكرسى البابوية ، وأغفلوا شأن ليو . فعاد أتو من ألمانيا ، وخلع بندكت ، وأعاد ليو ، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة فى أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أى بابا فى المستقبل(*) . ولما مات ليو عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر خليفة له (٩٦٥ — ٩٧٢) . ثم سجن أحد أشراف الرومان بندكت السادس (٩٧٣ — ٩٧٤) ، وقتله خنقاً ، وفر بنيفازيو فرنكون Bonifazio Francone ، وكان قد نصب نفســـه بابا شهراً من

(*) تعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليو الثامن خارجا على البابوية ، ولا ترى لأعماله أو قراراته قيمة ما . .

الزمان ، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحمله . ثم عاد بعد تسع سنين من فراره ، وقتل البابا يوحنا الرابع عشر (٩٨٣ — ٩٨٤ .) ؛ وجلس على كرسى البابوية مرة أخرى ، ومات ميتة هادئة فى فراشه (٩٨٥) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد ، وأمسكت بزمام السلطة ، واختارت كرسنتيوس Crescentius قنصلا . فانقض أتو الثالث على رومة بجيش قوى لا تستطيع مقاومته ، وبتفويض من رجال الدين الألمان ، ليقضى على الفوضى بتنصيب راعى كنيسته الخاصة بابا باسم جريجورى الخامس (٩٩٦ — ٩٩٩) . وقضى الإمبراطور الشاب على الجمهورية ، وعفا عن كرسنتيوس ، وعاد إلى ألمانيا . وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية ، وخلع جريجورى (٩٩٧) . فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، ولكن كرسنتيوس سخر منه ، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا . فعاد أتو مرة أخرى ، وخلع يوحنا ، وسمل عينيه ، وقطع لسانه ، وجدع أنفه ، وأمر أن يطاف به فى شوارع رومة على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه . ثم قطعت رؤوس كرسنتيوس واثنى عشر من الزعماء الجمهوريين ، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو (٩٩٨)[٥٣] . وعاد جريجورى إلى كرسى البابوية ، وظل جالساً عليه حتى مات مسموماً ، فى أغلب الظن ، عام ٩٩٨ . وأجلس أتو فى مكانه رجلا أصبح من أنبه البابوات جميعا .

ولد جربرت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Aurillac من أعمال أوفرنى Auvergne (حوالى عام ٩٤٠) ، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة . ثم سافر إلى أسپانيا عملا بمشورة رئيس الدير ليدرس علوم الرياضة ، إلى أن كان عام ٩٧٠ فأخذه بوريل Borel كونت برشلونة معه إلى رومة ، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً . وقضى جربرت عاما فى التدريس بإيطاليا وكان أتو الثانى من بين طلابه فى ذلك الوقت أو بعده . ثم انتقل إلى ريمس ليتلقى علم المنطق فى مدرسة كنيستها ، وسرعان ما نراه

رئيساً لتلك المدرسة (٩٧٢ — ٩٨٢) . وكان يعلم طائفة من العلوم غريبة في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين ؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة ، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius . وكان يجمع الكتب حيثما ذهب ، وينفق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة ، ولعلنا مدينون له بما لدينا من خطب شيشرون[٥٤] . وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة ، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام « العربية » ، وكتب عن المعد والأسطرلاب ، وألف رسالة في الهندسة النظرية ؛ واخترع ساعة آلية ، وأرغنا يديره البخار[٥٥] . وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية[٥٦] .

ولما توفي أدلبيرو (٩٨٥) سعى جلبرت ليكون كبيراً لأساقفة ريمس ، ولكن هوكابت عين بدله أرنولف Arnulf ، وهو ابن غير شرعي من البيت الكارولنجي . ولما أخذ أرنولف يأتمر بهيو أصدر مجلس كنسي قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا ، واختار جربرت رئيساً للأساقفة (٩٩١) . ولكن قاصداً رسولياً أقنع مجمعاً دينياً عقد في مواسون Moisson بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جربرت من منصبه . فما كان من العالم المستذل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا ، حيث قوبل بأعظم مظاهر التكريم ، وهيأ عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبراطورية الرومانية واتخاذ رومة عاصمة لها . وعينه أتو كبيراً لأساقفة راڤنا ، ثم عينه بابا في عام ٩٩٩ . وتسمى جربرت باسم سلڤستر Sylvester الثاني ، كأنما أراد أن يقول إنه سيصبح سلڤسترا ثانياً لقسطنطين ثان يوحد العالم مرة أخرى ؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما ، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية ، ولكان من المحتمل أيضاً أن يصبح جربرت ملكا فيلسوفاً . ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على

عرش البابوية ، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً ، سمته استفانيا Stephania عينها التى سمت أتو .

وتدل الآمال التى كانت تخامرهما ، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل فى العالم حولها ، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهى فى العام المتمم للألف بعد الميلاد . فقد حدث فى بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسى أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل[٥٧] ، وظلت أقلية ضئيلة فى نهاية ذلك القرن تؤمن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب ؛ أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة ، وتعمل ، وتلعب ، وتأثم ، وتصلى ، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة . ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس فى عام ١٠٠٠ بل إننا لا نجد زيادة فى هبات الناس إلى الكنيسة[٥٨] .

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جربرت ، فأخذ أعيان تسكيولوم Tusculum متحالفين مع الأباطرة الألمان يشترون مناصب الأساقفة ، ويبيعون البابوية ، وقلما كانوا يحاولون التستر على عملهم هذا . وكان بندكت الثامن (١٠١٢ — ١٠٢٤) الذى رشحوه لهذا المنصب الأخير رجلا ذكياً قويا ؛ ولكن بندكت (١٠٣٢ — ١٠٤٥) الذى عين بابا فى الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش[٥٩] ، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من رومة . غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم ، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجورى السادس (١٠٤٥ — ١٠٤٦) بألف (أو ألفى) رطل من الذهب . وأدهش جريجورى رومة بأن كان بابا مثالياً أو أقرب ما يكون إلى المثالية . ويلوح أن الذى دفعه إلى ابتياع منصب البابوية هو رغبته الصادقة فى أن يصلح شأنها ويحررها ممن كانوا يسيطرون عليها . ولم يكن أمراء تسكيولوم راغبين فى هذا الإصلاح ، ولهذا أعادوا بندكت العاشر إلى كرسى البابوية ، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها . واستغاث القساوسة

الإيطاليون بالإمبراطور هنرى الثالث ليقضى على هذه المهازل ، فجاء إلى استترى Stütri القريبة من رومة وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلفستر فى السجن ، وقبل استقالة بندكت ، وخلع جريجورى لاعترافه بأنه ابتاع منصب البابوية . وأقنع هنرى المجلس بألا سبيل إلى انتشال الكنيسة من هذه الوهدة إلا بتنصيب بابا أجنبى تحت حماية الإمبراطور ؛ واختير لهذا المنصب أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت Clement الثانى (١٠٤٦–١٠٤٧) ، ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره ؛ كما قضت على خليفته دمسوس Damasus الثانى (١٠٤٧ – ١٠٤٨) الملاريا التى كانت وقتئذ تنتشر باستمرار من مناقع كمبانيا التى لم تجفف . ثم وجدت البابوية آخر الأمر فى ليو التاسع (١٠٤٩–١٠٥٤) رجلا يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة ، وعلم ، واستقامة ، وصلاح ، قلما رأت رومة نظيراً له من زمن بعيد .

الفصل السابع

إصلاح الكنيسة (١٠٤٩ - ١٠٥٤)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة فى ذلك الوقت : وهى المتاجرة بالمناصب فى محيط البابوية والأسقفية ، والزواج أو التسرى بين رجال الدين من غير الرهبان ، ووجود حالات متفرقة من الدعارة بين الرهبان أنفسهم .

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هى المظهر الكنسى لما يعاصره من فساد فى الشئون السياسية . ومن الناس الصالحين من كانوا هم أنفسهم مصدراً لهذه المتاجرة ؛ مثال ذلك أن أم جويبرت النوجنتى Guibert of Nogent كانت شديدة الرغبة فى أن تهبه للكنيسة ، فقدمت المال لرؤسائها لكى يجعلوه قساً فى إحدى الكنائس وهو فى الحادية عشرة من عمره . وإذ كان الأساقفة فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا يصرفون الشئون الروحية والزمنية جميعاً ، وكانوا يقطعون أرضين ، وقرى ، ومدناً فى بعض الأحيان ، ليستمدوا منها إيراداتهم ، فقد كان ذوو المطامع من الناس يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزمنيين ليظفروا بهذه المناصب ، وكان الشرهون من الرؤساء لا يتورعون عن ارتكاب كل مأثم للحصول على هذه الرشا . وحسبنا أن نذكر أن غلاماً فى العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة فى نربونة Narbonne نظير مائة ألف صليدى[٦١] ؛ وأن فيليب الأول ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق فى الحصول على منصب رئيس أساقفة بواسيه فى إخفاقه يقول : « أتركنى أجنى المال من منافسك ، ثم حاول أن تسقطه باتهامه بابتياع منصبه ؛ وسترى بعد ذلك كيف نرضيك »[٦٢] . وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التى سنها شارلمان فيعينون هم بانتظام أساقفة سان Sens ، وريمس ، وليون ، وتور ، وبورج Bourgcs ، أما فى

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذى يعينهم(٦٣) ، وأضحت كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة ، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم ؛ وكان أحد البارونات فى ألمانيا يمتلك ثمانى أسقفيات ويورثها أبناءه(٦٤) . ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالى عام ١٠٤٨) أن الذين يبتاعون كراسى الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجهات الرخامية فى الكنائس ، وألواح القرميد فى سقفها ، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم(٦٥) . وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين ، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين ، ويشنون الحروب ، ويغمضون أعينهم عن الرشا فى المحاكم الأسقفية(٦٦) ، ويعينون أقاربهم فى المناصب الكنسية ، ويعبدون المال من دون الله ، ويدينون له وحده بالطاعة والولاء . ويقول البابا إنوسنت الثالث فى وصف أحد رؤساء الأساقفة فى نارين إنه لديه كيسا من المال فى الموضع الذى كان يجب أن يكون فيه قلبه(٦٧) . وقد أصبح ابتياع الكراسى الأسقفية أمراً مألوفا يقبله الناس العمليون على أنه أمر عادى لاغضاضة فيه ؛ أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن سمعان المجوسى قد استحوذ على الكنيسة(٦٨) .

وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسرى . وكان زواج القساوسة فى القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً فى إنجلترا وغالة وشمالى إيطاليا ، وكان البابا هدريان الثانى نفسه متزوجاً(٦٩) ؛ وكتب راثريوس Ratherius أسقف فيرونا (فى القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون ، ولم يستهل القرن الحادى عشر حتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة(٧٠) . ومن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة ، وإن لم يتفق فى كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا ، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية ؛ وكان القس المتزوج أسمى منزلة من القس العزب فى مدينة ميلان(٧١) .

لأن ثانيهما كان يتهم بالتسرى — بل إن الرأى العام كان يتسامح فى التسرى نفسه أى فى اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً منتظماً . ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يحيون حياة لا غبار عليها من الناحية الأخلاقية ، وإنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة طاهرة نقية مخلصين لمن يرعونهم ، وإن كنا لا ننكر أنه كان فى أماكن متفرقة رجال شواذ يندى من فعالهم الجبين ، فهاهو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخارى Zachary فى عام ٧٤٢ أن الأسقفيات تعطى « للشرهين من غير رجال الدين ، وللزانين من القسيسين »[٧٢] ، وأن بعض الشمامسة « يحتفظون بأربع سرارى أو خمس »[٧٣] ، وقد اتهم بيد الموقر فى هذا القرن بعينه « بعض أساقفة » إنجلترا بأنهم « يضحكون ، ويهزلون ، ويروون الأقاصيص ، ويمرحون ، ويسكرون و . . . يحيون حياة الملذات والفسق »[٧٤] . وكثرت هذه التهم وأمثالها فى أواخر الألف السنة الأولى بعد الميلاد ؛ فهاهو ذا رالف جلابر Ralph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهله فى فسادهم الخلقى ، وها هو ذا راهب إيطالى يدعى بطرس داميان Peter Damian (١٠٠٧ — ١٠٧٢) يعرض على البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغالاة التى يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه ، ما يرتكبه القساوسة من رذائل ؛ وفى هذا الكتاب فصل عن « مختلف الخطايا المناقضة للطبيعية » . ويطالب داميان فى هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين .

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه فى منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أو لم يدركه ، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع ، وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبه لأحد أبنائه ، وأن هذا قد يؤدى إلى قيام طبقة وراثية

من رجال الدين فى أوربا تشبه مثيلتها فى بلاد الهند ، وأن ما يضفيه هذا السلطان الاقتصادى على القساوسة ذوى الأملاك يزيد فى قوتهم إلى الحد الذى تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم . ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبنى الإنسان ، وأن مستواه الأخلاق يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب ، وأن يضفى عليه مستواه هذا المكانة التى لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه . وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة ؛ وكان واحد منها — هو الذى عقد فى پاڤيا عام ١٠١٨ — قد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من الميراث على جميع أبناء القسيسين[٧٥] ، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون .

ووجد ليو التاسع أن كرسى الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصى به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم ، ولاستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة ، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذين يأتون بالأدعية ، والملتمسات ، والنذور إلى رومة ، ولهذا وضع نظاما لحماية الحجاج ، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها ، وشرع يضطلع بهذا الواجب الثقيل ، واجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج القساوسة . وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبتل الحصيف الذى أصبح فيما بعد جريجورى السابع ، ثم غادر رومة فى عام ١٠٤٩ ، معتزما أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس فى مدائن أوربا الكبرى . وسرعان ما أعادت هيبته الشخصية ، وصرامته غير المتكلفة ، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى فى قلوب الناس من إجلال ؛ فأخفت الرذيلة رأسها لمقدمه ، وارتعدت فرائص جدفرى اللورينى الذى نهب الكنائس وتحدى الملوك حين أصدر البابا قراراً بحرمانه ، وخضع صاغراً للجلد علناً أمام مذبح الكنيسة التى خربها فى فردان ، وتعهد بأن يصلح ما خربه منها ، وأخذ يعمل فى إصلاحها بيديه . وعقد ليو محكمة بابوية فى كولونى ، وقوبل فيها بجميع مظاهر

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألمانى . ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة فى ريمس ، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين ، وعن بيع المناصب الكنسية ، وانتهاب أملاك الكنيسة ، وتحلل رهبان الأديرة من قوانينها ، وانتشار الزندقة فى البلاد . وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياه ، فأخذ كل منهم ، واحداً بعد واحد ، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم ، يتهم نفسه . وأنبهم ليو أشد التأنيب ، وأعفاهم من مناصبهم ، وعفا عن بعضهم ، وحرم أربعة من حظيرة الدين ، واستدعى غيرهم إلى رومة ليكفروا علناً عن سيئاتهم . وأمر رجال الدين أن يخرجوا زوجاتهم وسراريهم ، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة . ثم أصدر مجلس رومة فضلا عن هذا قراراً يقضى بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وحرم بيع المناصب الكهنوتية ، ونهى رجال الدين عن أخذ الأجور نظير تقديم القرابين ، أو عيادة المرضى ، أو دفن الموتى . وأجرى مجلس عقد فى مينز (١٠٤٩) بإلحاح ليو ، إصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات فى ألمانيا . وعاد ليو إلى إيطاليا فى عام ١٠٥٠ ورأس مجلس فرشلى Vercelli وحرم فيه آراء برنير التورى Beregner of Tours الخارجة على الدين .

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمالى أوربا ما كان للبابوية من هيبة ومنزلة سامية ، وأعاد الإمبراطور الألمانى رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل ، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسپانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها ، وخطا بعض الخطوات فى سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة . ثم قام بحملات أخرى فى ألمانيا وفرنسا فى عامى ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ورأس جمعية كنسية عظيمة فى ورمز وأخرى فى مانتوا Mantua ؛ ولما عاد آخر الأمر إلى رومة اضطلع بذلك الواجب البغيض ، واجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح . ذلك أن الإمبراطور هنرى الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو ؛ ولكن پندلف Pandulf

دوق كپوا أبى أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه الدوقية واستمسك بها معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد . وطلب ليو أن يرسل إليه جيش ألمانى يساعده على طرد پندلف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعمائة رجل ، ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين ، وزحف بهم على النورمان ، وكاد فرسانهم وحدهم يبلغون ثلاثة آلاف من القراصنة المهرة فى الحروب . وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة ، وأسروه ، ثم ركعوا أمامه يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمسمائة من رجاله . وساقوه بعدئذ إلى بنفنتو ، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم ، ثم استبقوه سجيناً تسعة أشهر . وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق الحسام ، فحرم على نفسه أن يلبس غير الخيش ، وأن ينام إلا على بساط وحجر ، وكان يقضى اليوم كله إلا القليل منه فى الصلاة . وأدرك النورمان أنه مشرف على الموت ، فأطلقوا سراحه ، ودخل رومة بين تهليل الشعب وفرحه ، وعفا عن جميع الذين حرمهم ، وأمر أن يوضع تابوت فى كنيسة القديس بطرس ، وجلس بجواره يوماً واحداً مات بعده عند المذبح . وجاء العرج ، والبكم ، والمجذومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جثته .

الفصل الثامن

الانشاق الأكبر فى الشرق : ١٠٥٤

حدث الانفصال النهائى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية فى عهد جلوس سانت ليو على كرسى البابوية . وبينا كانت أوربا الغربية تتخبط فى ظلمات القرنين التاسع والعاشر ، وبؤسهما وجهالتهما ، كانت الإمبراطورية الشرقية ، تحت حكم أباطرتها المقدونيين (٨٦٧ — ١٠٥٧) ، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها ، وتسترد زعامتها فى جنوبى إيطاليا ، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد . واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البيزنطية قوة وكرامة ، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب فى حظيرة الكنيسة الشرقية ، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثيل ما كانت تدعيه البابوية المنحطة المعدمة من سلطان دينى مطلق على العالم المسيحى . وكان اليونان فى ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمان والأنجليسكسون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدنهم العنف وتتزعمهم فئة فاسدة من رجال الدين . وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البيزنطى ملكاً على الفرنجة ، واستيلاء البابوية على مقاطعة رافنا ، وتتويج البابا لإمبراطور منافس لإمبراطور الشرق ، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية — كانت هذه الحادثات السياسية التى تحز فى النفوس لا الاختلاف القليل بين العقائد هى التى شطرت العالم المسيحى شطرين أحدهما شرقى والآخر غربى .

فنى عام ١٠٤٣ عين ميخائيـــل كرولاريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية . وكان كرولاريوس هذا رجلا من أسرة نبيلة ، واسع الثقافة ، حاد الذهن ، قوى العزيمة . وكان فى الأصل راهباً ولكن الذى رفع من شأنه

هو تاريخه السياسى لا تاريخه الدينى . فقد كان كبير وزراء الإمبراطورية ، وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريقية ، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى رومة . وقد أذاع فى عام ١٠٥٣ رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يونانى يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة ، ولاستعمالها خبزاً فطيراً فى القربان المقدس ، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية . وأغلق كرولاريوس فى ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التى تستخدم الشعائر اللاتينية ، وحرم جميع القساوسة الذين يصرون على استخدامها . وبعث ليو ، وكان وقتئذ فى أوج سلطانه ، برسالة إلى كرولاريوس ، يطلب أن يعترف البطرق بسيادة البابوات ، ويصم كل كنيسة ترفض هذا الاعتراف بأنها « جميعية من الخارجين على الدين ، وجماعة من المنشقين ، ومعبد للشيطان »[٧٦] . ثم أرسل ليو وهو فى هذه الحالة النفسية رسلا إلى القسطنطينية ليناقشوا الإمبراطور والبطريق فى الفوارق التى تبعد فرعى المسيحية أحدهما عن الآخر . واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب ، ولكن كرولاريوس أنكر عليهم حقهم فى معالجة تلك المسائل . ثم مات ليو فى شهر إبريل من عام ١٠٥٤ وظل كرسى البابوية شاغراً مدة عام . حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم ، ووضعوا على مذبح كنيسة أياصوفيا قراراً بحرمان كرولايوس ، فما كان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبيها ، وكرر هذا المجلس جميع شكاوى الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية ، ولم تغفل فيها شكواها من حلق اللحى ، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى « كل من كانت له يد فى صياغته ، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها »[٧٧] . وبذلك تم الانشقاق بين الكنيستين ،

الفصل التاسع

جريجورى السابع هلدبراند (١٠٧٣ - ١٠٨٥)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات فى تاريخ الكنيسة .

وهلدبراند اسم ألمانى يوحى بأن صاحبه من أصل ألمانى ؛ ويفسره معاصرو جريجورى بأن معناه الشعلة الخالصة . وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضيعة فى قرية سوڤانو Sovano الواقعة فى مستنقعات تسكانيا (١٠٢٣ ؟) ، وتلقى تعليمه فى دير سانت مارى القائم على تل الأفنتين فى رومة ، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتيين . ولما أن خلع البابا جريجورى السادس من منصبه ونفى إلى ألمانيا فى عام ١٠٤٦ صحبه هلدبراند فى منفاه ليكون راعياً خاصاً ؛ وقد استفاد فى السنة التى قضاها فى كولونى الشىء الكثير عن ألمانيا ، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له فى الصراع الذى نشب فيما بعد بينه وبين هنرى الرابع ؛ ولم يمض على عودته إلى رومة إلا قليل من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل ، وعينه مديراً للولايات البابوية ، واختاره فى الوقت نفسه مندوباً للبابا فى فرنسا ؛ وفى وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية فى الشئون السياسية والدبلوماسية ؛ وظل البابا فكتور الثانى (١٠٥٥ - ١٠٥٧) واستيفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) يستخدمانه فى المهام الكبرى ؛ ولما ارتقى نقولاس الثانى عرش البابوية فى عام ١٠٥٩ ، وكان أكبر الفضل فى ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلدبراند نفسه ، عين هذا الراهب الذى لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح بعد قساً .

وكان هو الذى أقنع نقولاس ومجلس لاتران فى عام ١٠٥٧ بإصدار مرسوم

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة . وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان ، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر . وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه عن غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية ، وأن يعترف بامتلاكهم ما انتزعوه من الأرض ، ويوافق على مطامعهم ، نظير تعهدهم له بحمايته الحربية . ورفع هلدبراند في عام ١٠٧٣ إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة ؛ ولقد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش ، ولكن الكرادلة ، والقساوسة ، والشعب عامه نادوا قائلين : « إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا ! » . ولهذا رسم قسيسا ، ثم عين بابا ، واتخذ لنفسه ذلك اللقب المبجل — جريجوري .

وكان قصير القامة ، عادي الملامح ، حاد البصر ، عزيز النفس ، صلب الإرادة ، قويا في الحق ، واثقا من النصر ، تلهمه وتشحذ همته أربعة أغراض : أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين ، وأن يضع حداً لتولي غيرهم المناصب الدينية ، وأن يوحد أوربا كلها تحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البابوية ، وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك . وقد كتب في عام ١٠٧٤ إلى أعيان برغندية وساڤوي ، وإلى الإمبراطور هنري الرابع ، يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعتزم أن يقودها بنفسه ، فأما أعيان برغندية فلم يتحركوا لتلبية ندائه ، وأما هنري فقد حال تزعزع مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير في حرب صليبية .

وكان مجلس لاتران المنعقد برياسة نقولاس الثاني وهلدبراند في عام ١٠٥٩ قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية ، ونهى المسيحيين

عن حضور القداس الذى يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة فى بيته ، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات ، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين فى تسكانيا يدافعون عن مبدإ زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة . وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع . وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأى القائل إن القساوسة الذين يعيشون « آثمين » لا يستطيعون القيام بمراسم العشاء الربانى الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم ، مما اضطر البابوية إلى الرجوع فى دعوتها هذه إلى جماهير المصلين(٧٨) . ولما أصبح هلدبراند هو جريجورى السابع (١٠٧٣) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تنثنى ولا تعرف الملل ، فجدد مجمعٌ دينى عقد فى عام ١٠٧٤ قرارات ١٠٥٩ ، وأرسل جريجورى هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوربا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة ، وأباح لعامة الشعب ألا يطيعوا أمر من يخالفها من القساوسة ؛ وكان لهذه الأوامر هى الأخرى رد فعلى عنيف ، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلى عن مناصبهم على التخلى عن أزواجهم ، وعارض غيرهم فى تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم ، وتنبأوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسى السرى ، وأعلن أتو أسقف كنستانس بأنه يحبذ آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان ، فما كان من جريجورى إلا أن أصدر قراراً بحرمانه ، وأعفى رعاياه من إطاعة أوامره . وخطا جريجورى خطوة أخرى فى عام ١٠٧٥ فأمر أدواق سوابيا وكارنثيا ، وغيرهمَ من الأمراء أن يلجأوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم ؛ وأطاعه عدد من الأمراء الألمان ، وحرم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلوا عن أزواجهم من مناصبهم(٧٩) . ومات جريجورى دون أن يتم له النصر ، ولكن إربان الثانى ، وبسكال الثانى ،

وكلكستوس Calixtus الثانى أكدوا قراراته ونفذوها ، حتى إذا كان عام ١٢١٥ أصدر مجلس لا تران برياسة إنوسنت الثانى قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول .

وبدت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زاوج القسيسين . فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة ، وهو الرأى الذى يجمع عليه الملوك والبابوات ، اتضح أن رجال الكنيسة ، لا العلمانيين هم الذين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتفى الملوك بتنصيب الأساقفة ، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث فى ألمانيا) عصا الأسقفية وخاتمها — وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية . ولكن الملوك كان لهم رأى لا يقل عن هذا وضوحاً . فما دام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون (كما يسلم معظم الأساقفة الألمان ورؤساء الأديرة منهم) أن الملوك قد وهبوهم الأرض والدخل ، وألقوا عليهم التبعات الزمنية ، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلا — حسب قوانين الإقطاع — أن يكون أولئك الرؤساء الدينيون — أو الأساقفة منهم فى القليل — مدينين بمناصبهم وولائهم الزمنى للملوك ، كما ظلوا مدينين بها فى غير تذمر فى عهد قسطنطين وشارلمان . فإذا ما أعفوا من هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضى الألمانية — التى منحت فى السنين السابقة للأسقفيات والأديرة — عن سلطان الدولة[٨٠] ، وعما اعتاد أن يؤديه لها أصحابها من واجبات وخدمات . وارتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة اللمبارد المنتمون إلى أصل ألمانى والمدينون بمناصبهم إلى الألمان فى نيات جريجورى وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسى النسبى وإخضاعهم لكرسى رومة إخضاعاً تاماً . أما جريجورى نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعى للملك[٨١] ، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضى التى وهبها الملوك لهم[٨٢] ، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضى الكنيسة لغيرها . وشكا جريجورى من أن تعيين غير

رجال الدين فى المناصب الكنسية قد نشأت عنه معظم المفاسد الخاصة ببيع المناصب الكهنوتية ، والانغماس فى الشرور الدنيوية ، والفساد الخلقى وهى الآثام التى ظهرت فى الأبرشيات الألمانية والفرنسية . ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا ، وإلا صارت الكنيسة الغربية ، كما صارت الكنيسة الشرقية ، تابعاً ذليلا للدولة .

وكان من وراء هذا الصراع التاريخى صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية ، وهل من حق هذه أو تلك أن توحد أوربا وتحكمها . وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعى . ألم يقل الرسول بولس إن السلطات القائمة مقدرة من عند الله ؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية رومة ؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجورى عن وحدة الكل وعن النظام فيه ؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم — قبل حركة الإصلاح الدينى بزمن طويل — أن ينساب الذهب فى شكل أجور وهبات لكنيسة بطرس — من ألمانيا إلى إيطاليا[٨٣] ؛ وكانوا يرون أن السياسة البابوية ليست إلا جهوداً تبذلها رومة اللاتينية لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التى تزدريها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التيوتونية الهمجية . وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة فى الشئون الروحية ، ولكنهم يؤكدون سلطان الدولة فى الشئون الزمنية أو الدنيوية . وكان هذا يبدو فى نظر جريجورى ثنائية مختلة النظام ، ويرى أن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشئون المادية كما تعلو الشمس على القمر[٨٤] ، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة — أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله — فى جميع المسائل التى لها مساس بالعقيدة ، أو التعليم ، أو الأخلاق ، أو العدالة ، أو التنظيم الكنسى . ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمنياً بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها ، وذلك حين ارتضوا أن يمسحهم

البابوات أو يثبتوهم فى مناصبهم ؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ؛ ومن حق البابا وواجبه ، بوصفه خليفة الله فى أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال[٨٥] ؛ وقد تساءل جريجورى فى رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann أسقف متز : « منذا الذى يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ، ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ، ويرتكبون فى الحقيقة جميع أنواع الجرائم . . . ويطالبون بحقهم فى حكم من لا يقلون عنهم — أى الشعب — جشعاً وعماية وعجرفة لا تطاق ؟ »[٨٦] وقد بدا لجريجورى ، من نظرته إلى ما ساد أوربا من فرقة سياسية ، وفوضى ، وحروب ، أن لا نجاة لها من هذا البؤس الذى خيم عليها دهراً طويلا إلا بقيام نظام عالمى تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التى تعض عليها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها ، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية ، أوربية فى القليل ، إن لم تكن عالمية .

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية هى تحرر البابوية من السيطرة الألمانية ، والخطوة الثانية هى إخضاع جميع الأساقفة للكرسى البابوى ، إن لم يكن إخضاعاً تاماً ، فإلى الحد الذى يتحتم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبرشية بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران ، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا أيده رئيس الأساقفة أو البابا نفسه[٨٧] . وبدأ جريجورى عمله برسالة وجهها (١٠٧٣) إلى أسقف شالون Châlon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة . ثم وجه فى عام ١٠٧٤ رسالة عامة إلى الأسقفيات الفرنسية يدعوها إلى التشهير بجرائم الملك فى حضرته ، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية فى فرنسا إذ أبى فليب أن يصلح شأنه[٨٨] . وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون فى المناصب الدينية ،

ولكن الأساقفة الفرنسيين ساروا على حذر وتركوا النزاع يحسم فى ألمانيا نفسها .

واجتمع فى فبراير من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان فى رومة برياسة جريجورى ، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية ، وزواج رجال الدين ، وتعيين غيرهم فى المناصب الكنسية . وأسرع جريجورى بعد صدور هذه القرارات إسراعاً عجيباً فحرم خمسة أساقفة للمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، وكان هؤلاء الخمسة من مستشارى هنرى الرابع ، ثم أوقف أسقفى پاڤيا وتورين ، وخلع أسقف پياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف بامبرج Bamberg بالحضور إلى رومة ليبرئ نفسه من التهم الخاصة بالمتاجرة بالرتب الكهنوتية ، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة البابوية خلعه جريجورى دون أدنى مجاملة ، وطلب إلى هنرى بأدب ولطف أن يرشح شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامبرج . ولم يكتف هنرى بترشيح أحد رجال حاشيته المقربين بل إنه خلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن ينتظر موافقة البابا — وذلك إجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة ، فإن فيه تحدياً صريحاً لقرار مجمع رومة المقدس . وكأنما أراد هنرى أن يجعل رفضه مطالب جريجورى أوضح مما ظهر بتحديه هذا فعين أساقفة لابرشيات ميلان ، وفرمو Fermo ، وأسبليتو — وهى بلدان قريبة كل القرب من مقر البابا — وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته .

وبعث جريجورى فى شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى هنرى ، وأمر حامليها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية ينذرون فيها الملك بالحرمان إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع رومة المقدس. فلما تلقى هنرى الرسالة عقد مجلساً من الأساقفة الألمان فى ورمز (٢٤ يناير سنة ١٠٧٦) حضره أربعة وعشرون منهم ، وتخلف عنه بعضهم . وقبل أن ينعقد المجلس اتهم هيو Hugh أحد الكرادلة الرومان جريجورى بالفسق ، والقسوة ، والسحر ، وبأنه توصل إلى كرسى البابوية بالرشوة والعنف ، وذكر الأساقفة بأن العادات التى ظلت سارية

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمبراطور ألمانيا ، ولم يكن جريجورى قد طلب هذه الموافقة .. وكان مما شجع الإمبراطور على المضى فى خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت فى سكسونيا ، فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا ، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار ، وأيده مجلس من أساقفة لمباورديا عقد فى بياسنزا ، وبعث هنرى بهذا القرار إلى جريجورى مذيلا بهذه الحاشية المنتقاة : « من هنرى الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيف لا البابا »[٨٩] . وسلمت الرسالة إلى جريجورى فى مجمع مقدس برومة (٢١ فبراير سنة ١٠٧٦) ؛ وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم مائة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول ، ولكن جريجورى حماه ؛ وحرم المجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز ، وأصدر البابا حكماً مثلثاً بحرمان هنرى ، ولعنته ، وخلعه ، وأعفى رعاياه من يمين الطاعة له (٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦) . ورد هنرى على هذا بأن أقنع أساقفة أوترخت بأن يصبوا على جريجورى « الراهب الحانث » اللعنات من منبر الكنيسة . وروعت أوربا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً ، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة . وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية ، وسرعان ما تخلى الرأى العام عن الإمبراطور ، وعادت سكسونيا إلى الثورة ، ولما أن استدعى هنرى أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان فى ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالا يكاد يكون تاماً . بل كان ما حدث هو نقيض هذا فقد وجد الأشراف الألمان فى هذه الظروف فرصة سانحة لهم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا فى تريبور Tribur (١٦ أكتوبر سنة ١٠٧٦) ، ووافقوا على حرمان الإمبراطور ، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على مغفرة من البابا قبل اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٧٧ فإنهم سيرشحون خلفاً له على العرش . وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبى البابا فى

تريبور أن يجتمع مجلس فى أوجزبرج فى اليوم الثانى من فبراير عام ١٠٧٧ برياسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة .

ولجأ هنرى إلى اسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً . وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من ملكه ، فبعث بالرسل إلى رومة ، يعرض على البابا أن يأتى هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة ؛ ورد عليه جريجورى بأنه مزمع أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنرى فى رومة . وبينا كان البابا فى طريقه إلى تلك المدينة استضافته فى مانتوا ماتلدا كونتة تسكانيا وصديقته ومؤيدته ؛ وهنا عرف أن هنرى قد دخل إيطاليا ؛ وخشى جريجورى أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا ، فلجأ إلى قصر ماتلدا الحصين فى كانوسا Canossa ، القائم فوق جبال الأپنين بالقرب من رجيو إميليا Reggio Emilia . وهناك فى الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٠٧٧ ، وفى يوم من أيام الشتاء الذى لم تشهد إيطاليا مثيلا له فى برودته ، أقبل هنرى ، كما يقول التقرير الذى بعث به جريجورى إلى الأمراء الألمان :

« بنفسه إلى كانوسا . . . وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته . . . ووقف بباب القصر ، حافياً ، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف ، يتوسل إلينا والخوف يملأ قلبه أن نغفر له ونعفو عنه . وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثا فيها كل من حولنا لشقوته ، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم . . . فرفعنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى فى حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة »[٩٠] .

ولم يكن تردد جريجورى طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه ، بل إنه قد قرر مصالحة هنرى دون أن يستشير الأمراء الألمان ؛ وكان يعرف أنه إذا خرج هنرى عليه بعد أن عفا عنه ، ثم حرمه مرة أخرى ، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ما كان لحرمانه الأول ، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التى أيدوه بها من قبل ؛ ولن يسهل على العالم المسيحى أن يفهم كيف يأبى خليفة

المسيح أن يعفو عن هذا التائب الذليل . وكان هـذا الحادث نصراً روحياً لجريجورى ، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دبلوماسياً بارعاً لهنرى ، فقد استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجورى بعد ذلك إلى رومة وقضى العامين التاليين فى إصدار التشريعات الكنسية التى كانت تهدف قبل كل شىء إلى إرغام القساوسة على عدم الزواج . غير أن الأمراء الألمان نادوا برودلف أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (١٠٧٧) وبدا أن سياسة هنرى قد أخفقت . لكنه بعد أن تحرر من اللعنة البابوية لقى عطفاً جديداً من الشعب الذى لم يكن شديد الحب للأشراف ، فحشد جيشاً جديداً لتأييده ، وظلت ألمانيا عامين كاملين تمزقها الحروب الداخلية .وظل جريجورى يتذبذب طويلا ، ثم أعلن تأييده لرودلف وحرم هنرى مرة أخرى ، وحرم على المسيحيين أن يخدموه ، وعرض على كل من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياه (مارس سنة ١٠٨٠)[١٩] .

وفعل هنرى ما فعله من قبل لم يتحول عنه قيد شعرة . فجمع فى ميتز مجلساً من الأعيان والأساقفة الموالين له ، وخلع المجلس جريجورى ، وأيد مجلس من أساقفة ألمانيا وشمالى إيطاليا عقد فى بركسن Brixen قرار الخلع ، ونادى بجيبير Guibert كبير أساقفة رافنا بابا ، وعهد إلى هنرى أن ينفذ قراراته . واجتمع الجيشان المتعاديان على ضفاف نهر السال Saale فى سكسونيا (١٥ اكتوبر سنة ١٠٨٠) ، وهزم هنرى ولكن رودلف قتل فى المعركة . وبينا كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بشأن من يختارونه خلفاً له ، دخل هنرى إيطاليا ، واخترق لمبارديا دون أن يلقى مقاومة ، وجيش وهو يخترقها جيشاً آخر ، وضرب الحصار على رومة . واستغاث جريجورى بربرت جسكارد ولكن ربرت كان بعيداً عنه ، فاستغاث بوليم الأول وكان جريجورى قد وافق على فتحه إنجلترا وأيد هذا الفتح ، ولكن وليم لم يكن واثقاً من أنه لا يريد أن يفقد هنرى حجته الملكية . ودافع أهل رومة عن رئيسهم الدينى دفاع الأبطال ، ولكن هنرى استطاع أن يستولى

على جزء كبير من رومة وفيه كنيسة القديس بطرس ، وفر جريجورى إلى كاستلو سانتا أنجيلو Castello Sant Angelo . واجتمع مجمع مقدس فى قصر لاتران بدعوة من هنرى ، وخلع جريجورى وحرمه ، ونادى بجيبير بابا باسم كلمنت الثالث (٢٤ مارس سنة ١٠٨٤) ، وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنرى إمبراطوراً ، وظل هنرى سيد رومة عاماً كاملا .

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيزنطية فى عام ١٠٨٥ ، واقترب من رومة على رأس جيش مؤلف من ٣٦٫٠٠٠ رجل ، ولم يكن عند هنرى جيش يستطيع به ملاقاة هذه القوة ، ففر إلى ألمانيا ، ودخل ربرت العاصمة ، وحرر جريجورى ، ونهب رومة ، وخرب نصفها ، وأخذ معه جريجورى إلى مونتى كسينو . واشتد غضب العامة فى رومة على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه فى ذلك المكان . وعاد كلمنت إلى رومة متظاهراً بأنه البابا ، وذهب جريجورى إلى سالرنو ، وعقد فيها مجمعاً مقدساً آخر ، وحرم هنرى مرة أخرى ، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال : « لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم ، ولهذا فإنى أموت منفياً » : ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره ، ولكن النزاع المرير الذى خاض غماره قد حطم أعصابه وهد قواه ، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذى عفا عنه فى كانوسا رغبة فى الحياة . ومات جريجورى فى سالرنو فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٠٨٥ .

وبعد فلعله كان متغطرساً فوق ما يجب فى حبه للعدالة ، ومتحمساً فوق ما يجب فى كرهه للظلم ؛ وليس من حق الرجل العملى أن يرى ما فى مركز عدوه من عدالة ، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده ؛ ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجورى ، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح ، ولكنه حققه بروح أكثر اعتدالا من روح جريجورى وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة . ومع هذا فإن

إنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجورى ، ولقد تعلق هلدبراند بأعلى مما يستطيع إدراكه ، ولكنه رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة قبل أيامه . ولقد انتصر فى حربه العوان على زواج القسيسين ، وهى الحرب التى لم يقبل فيها مهادنة ، وبذلك أعد لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد . وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين فى المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً ، ولكن آراءه كانت لها الغلبة فى النهاية ، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية .. وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية فى العالم المسيحى ، وهو الذى وضع الخطة التى حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك . وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات ، من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم ؛ ولم تمض على موت جريجورى عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم ونبلاؤه بإربان الثانى زعيماً لأوربا جميعها فى ذلك المزيج المؤلف من المسيحية ، والإقطاع والفروسية ، والاستعمارية ، وهو المزيج المعروف عندنا باسم الحروب الصليبية .

الباب الثاني والعشرون

الإقطاع والفروسية

٦٠٠ – ١٢٠٠

الفصل الأول

نشأة الإقطاع

تجمعت فى الستة القرون التى أعقبت موت جستنيان ظروف عجيبة كان لها أثر بطىء فى التغير الأساسى الذى حدث فى الحيـــاة الاقتصادية فى عالم أوربا الغربية .

فقد اجتمعت بعض الظروف التى أشرنا إليها من قبل ومهدت السبيل إلى عهد الإقطاع . ذلك أنه لما أصبحت مدن إيطاليا وغالة غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، وأسر من « الموالى » ، وأعوان عسكريين . وزاد حركة التفرق التى تهدف إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة فى بلاد الريف قيام الأديرة التى كان رهبانها يفلحون الأرض ويشتغلون ببعض الصناعات اليدوية ؛ ولم تعد الطرق صالحة للاحتفاظ بوسائل النقل وتبادل المتاجر لما أصابها من التخريب بسبب الحروب والإهمال من جراء الفقر . ونقصت إيرادات الدولة بسبب كساد التجارة واضمحلال الصناعة ، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والملك والتجارة . واضطرت قصور الأعيان فى الريف بسبب العقبات القائمة فى سبيل التجارة أن تسعى للاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية ، فأضحى الكثير من الأدوات التى كانت تشترى من المدن تصنع فى الضياع الكبيرة منذ

القرن الثالث الميلادى . وتصف لنا رسائل سيدونيوس أبولينارس فى القرن الخامس سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع رحبة يفلحها مستأجرون نصف مستعبدين ، وقد أضحوا من ذلك الوقت البعيد يكونون أرستقراطية إقطاعية لها محاكمها الخاصة[1] وجيوشها[2] ولا يختلفون عن البارونات فى العهود المقبلة إلا فى قدرتهم على القيادة .

وكانت العوامل التى مهدت السبيل إلى قيام الإقطاع بين القرنين الثالث والسادس هى بعينها التى أقامته بين القرنين الساس والتاسع ؛ ذلك أن الملوك المروفنجيين والكارولنجيين أخذوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ؛ وأضحت هذه الإقطاعات فى القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الأسرة الكارولنجية . وأعادت غارات المسلمين ، والشماليين ، والمجر فى القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الألمـانية التى حدثت قبلها بستة قرون وزادتها قوة : فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها ، وأقام الأسقف أو البارون المحلى نظاماً فى مقاطعته وهيئة للدفاع عنها ، وظل محتفظاً بقوته ومحاكمه الخاصة . وإذ كان معظم المغيرين فرساناً فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كل منهم جواداً ، وأضحى الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة ، وهكذا نشأ فى فرنسا ، وانجلترا فى عهد النورمان ، وفى أسبانيا المسيحية ، طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، كما نشأت فى رومة القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعامة . ولم ير الشعب حرجاً فى هذه التطورات ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكرى يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب ، ومن الهجمات التى قد تنقض عليهم فى أى وقت كان ، ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم أقرب ما تكون إلى قصر البارون المنيع أو الدير الحصين ،

وم يرددوا فى تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم . وخليق بنا أن ندرك ما عساه يتولاهم من الرعب لو أنهم فهموا خضوعهم هذا ؛ فهاهم أولاء رجال أحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم ، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطالبون إليه فى نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم ؛ وكان من عادة البارون فى هذه الأحوال أن يقطع « رجُلَه » مساحة من الأرض يحتفظ بها بعقد يستطيع واهبها أن يلغيه فى أى وقت يشاء ، وقد أضحى هذا التملك المزعزع الصورة المألوفة لامتلاك رقيق الأرض إياها ، فكان الإقطاع بمقتضاه هو خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة فى مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

وليس من المستطاع تعريف الإقطاع تعريفاً جامعاً مانعاً ، فقد كانت له صور تبلغ المائة عدا فى مختلف الأزمنة والأمكنة . وكان منشأه فى إيطاليا وألمانيا ، ولكن تطوره الخاص به إنما حدث فى فرنسا . ولعله بدأ فى بريطانيا بتحويل البريطانيين إلى أرقاء أرض على أيدى الفاتحين الأنجليسكسون[٣] ، ولكن معظم خواصه فى تلك البلاد قد جاء بها الغاليون من نورمندية ، ولم ينضج هذا النظام النضج الكامل فى شمالى إيطاليا أو فى أسبانيا المسيحية ، ولذلك لم يستطع كبار الملاك فى الإمبراطورية الشرقية أن يثبتوا دعائم استقلالهم العسكرى والقضائى ، أو إقامة نظام الولاء المتدرج الذى بدا فى الغرب كأنه من مستلزمات الإقطاع . وبقيت أصقاع كبيرة من أوربا الزراعية خارج نطاق النظام الإقطاعى : كالرعاة وأصحاب الضياع الخاصة بتربية الماشية فى بلاد البلقان ، وشرقى إيطاليا ، وأسبانيا ؛ وزراع الكروم فى غربى ألمانيا ، وجنوبى فرنسا ؛ والزراع الأشداء فى السويد والنرويج ؛ وطلائع التيوبون فيما وراء نهر الإلب ؛ وأهل جبال الكربات ،

والألب ، والأبنين ، والبرانس . ذلك أنه لم يكن يتوقع أن تكون لقارة كأوربا ، تختلف أجزاؤها بعضها عن بعض أشد الاختلاف فى طبيعة أرضها وأحوالها الاقتصادية ، نظام اقتصادى موحد . وحتى فى داخل نظام الإقطاع نفسه كانت ظروف التعاقد ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف الأمم والملاك ، والأزمنة المختلفة ؛ ولهذا فإن البحث التحليلى الذى سنصفه فيما بعد ينطبق أكثر ما ينطبق على فرنسا وإنجلترا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

الفصل الثانى

التنظيم الإقطاعى

١ – العبيد

كان المجتمع فى تلك البلاد والأوقات يتكون من الأحرار ، ورقيق الأرض ، والعبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود النظاميين ، وأصحاب المهن ، ومعظم التجار والصناع ، والفلاحين الذين يملكون أرضهم ولا يلتزمون إلا بالقليل ، أو لا يلتزمون بشىء على الإطلاق ، لأى سيد إقطاعى ، ولا يستأجرونها من سيد نظير إيجار نقدى . وكان أولئك الفلاحون الملاك يكونون أربعة فى المائة من الزراع بإنجلترا فى القرن الحادى عشر ؛ وكانوا أكثر من هذا عدداً فى غربى ألمانيا ، وشمالى إيطاليا ، وجنوبى فرنسا . والراجح أنهم كانوا يكونون ربع الزراع فى أوربا الغربية(٤) .

ونقص عددالعبيد بازدياد عدد أرقاء الأرض ؛ وكان معظم عملهم فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر مقصوراً على الخدمة المنزلية ، ولا يكاد يكون لهم وجود أرض فرنسا الواقعة شمال نهر اللوار ، وأخذ عددهم يزداد فى ألمانيا فى القرن العاشر ، حين لم يكن الناس يتحرجون أو يؤنبهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقيرة فى الضياع الألمانية ، أو ليبيعوهم البلاد الإسلامية أو البيزنطية . كذلك كان التجار الصقالبة يختطفون المسلمين أو اليونان من الأراضى الممتدة على شواطئ البحر الأسود ، وسواحل آسية الغربية ، وإفريقية الشمالية ، ليبيعوهم للعمل فى الزراعة أو الخدمة المنزلية ، أو خصياناً ، أو سرارى ، أو عاهرات فى بلاد الإسلام والمسيحية . وراجت تجارة العبيد فى إيطاليا

بنوع خاص ، وأكبر الظن أنّ منشأ ذلك هو قربها من البلاد الإسلامية حيث كان فى وسع التجار أن يختطفوهم منها وهم مرتاحو الضمير ، فقد كان يلوح لهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم على البلاد المسيحية .

وقد خيل إلى الناس ، وفيهم رجال الأخلاق الشرفاء ، أن هذا النظام الذى ظل قائماً من بداية التاريخ المعروف نظام أبدى لا غنى عنه . ولسنا ننكر أن البابا جريجورى الأول أعتق اثنين من عبيده ، ونطق فى هذه المناسبة بعبارات خليقة بالإعجاب عما للناس جميعاً من حق طبيعى فى الحرية[٦] ، ولكنه مع ذلك ظل يستخدم مئات العبيد فى الضياع البابوية[٧] ، ويوافق على القوانين التى تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر[٨] . وقد حرمت الكنيسة بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين ، ولكنها أباحت استرقاق المسلمين والأوربيين الذين لم يعتنقوا الدين المسيحى . وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة ، وظل الاسترقاق قائماً فى أراضى الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادى عشر[٩] ؛ وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضى الكنيسة فى بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لا بقدر ما تساويه من المال ، فقد كان يعد العبد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمنى سواء بسواء ؛ وحرم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملاكهم ، وقرر أن ما قد يكون لهم وقت وفاتهم من مال مدخر يؤول إلى الكنيسة[١٠] ؛ وقد أوصى كبير أساقفة نربونة فى عام ١١٤٩ بعبيده المسلمين إلى أسقف بزيير Béziers[١١] . وكان القديس تومس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية فى عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم[١٢] . وكانت هذه الآراء متفقة مع أقوال أرسطو ، وموائمة لروح عصرها . وكانت القاعدة المقررة فى الكنيسة والتى تنص على أن أملاكها لا يمكن النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة فى السوق[١٣] ، كانت هذه القاعدة شراً على

عبيدها وأرقاء أرضها . فقد جعلت عتق العبيد والأرقاء فى بعض الأحيان أصعب فى أملاك الكنيسة منه فى أملاك غيرها[١٤] . غير أن الكنيسة مع هذا خطت خطوات متزايدة فى تقييد تجارة الرقيق ، وذلك بتحريم استرقاق المسيحيين فى الوقت الذى كانت المسيحية سريعة الانتشار .

ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الأخلاق ، بل كان نتيجة تطورات اقتصادية . فقد تبين أن الإنتاج الذى يؤدى إليه القسر الجسمانى المباشر أقل ربحاً وأشد صعوبة من الإنتاج الذى يكون الحافز عليه هو الرغبة فى التملك . ولقد ظل الاسترقاق قائماً ، وكانت كلمة Servus اللاتينية تطلق على العبد وعلى رقيق الأرض ، ولكن هذا اللفظ تطور مع الزمن واستحال إلى كلمة serf لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة villein ومعناها رقيق الأرض فأصبحت villain ومعناها الآن « وغد » ، وكما تطورت كلمة Slav ومعناها صقلبى إلى كلمة Slave أى العبد . ولقد كان رقيق الأرض لا العبد هو الذى يصنع الخبز لعالم العصور الوسطى .

٢ – رقيق الأرض

الأصل فى رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون يؤجرها له طول حياته ويبسط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدى له أجراً لها سنوياً من الغلات أو العمل أو المال . وكان فى وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء[١٥] ، وإذا مات لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضاه . وكان من حق هذا المالك فى فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلا عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالى ٤٠٠ ؟ ريال أمريكى) ؛ وكان مالكه أحياناً يبيعه (أى أن يبيع عمله) مجزءاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ؛ وكان فى وسع هذا الرقيق فى فرنسا أن يحل العقد الإقطاعى إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده ؛ أما فى إنجلترا فقد حرم من هذا الحق — حق مغادرة الأرض — وكان الذين يفرون

من أرقاء الأرض فى العصور الوسطى يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التى يعاد بها القبض على العبيد فى هذه الأيام .

وكانت الواجبات الإقطاعية التى يؤديها رقيق الأرض لمالكها متعددة مختلفة الأنواع ، وما من شك فى أن تذكرها وحده كان يحتاج إلى بعض الذكاء . (١) كان يؤدى فى العام ثلاث ضرائب نقدية . (ا) فرضة (ضريبة الرؤوس) وهى ضريبة صغيرة للحكومة عن طريق المالك (ب) وإيجاراً قليلا . (ج) ونفقة يقررها المالك كما يهوى وتؤدى إليه مرة أو أكثر من مرة فى العام (٢) وكان يؤدى للمالك كل عام جزءاً من محصوله وماشيته ، تبلغ عادة عشرها . (٣) وكان عليه أن يعمل عند المالك كثيراً من أيام السنة مسخراً من غير أجر ؛ وكان هذا النوع من الواجبات ميراثاً انحدر من النظم الاقتصادية القديمة ، حين كان الفلاحون مجتمعين يؤدون بعض الأعمال العامة كتقطيع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وشق القنوات ، وإقامة الجسور والحواجز ، بوصفها فرضاً واجباً عليهم للمجتمع أو للمالك . وكان بعض الملاك يتطلبون من الرقيق أن يعملوا عندهم ثلاثة أيام كل أسبوع فى معظم السنة ، وأربعة أيام أو خمسة كل أسبوع فى موسم الحرث أو الحصاد ؛ وكان من حقهم أن يطلبوا عند الضرورة عدة أيام أخرى لا يؤدون عنها إلا وجبات الطعام . ولم تكن هذه السخرة تفرض إلا على فرد واحد من الذكور فى كل أسرة (٤) وكان على رقيق الأرض أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ، ويصنع جعته ، ويعصر عنبه فى مصنع المالك ، أو تنوره ، أو خابيته ، أو معصرته ، وأن يؤدى له فى نظير كل عمل من هذه الأعمال أجراً قليلا (٥) وكان يؤدى أجراً آخر ليكون له حق صيد السمك ، أو اقتناص الحيوان البرى ، أو رعى ماشيته وحيوانه الأليف فى أراضى المالك (٦) وكان عليه أن يرفع قضاياه أمام محاكم صاحب الأرض ، وأن يؤدى فى نظير هذا رسماً يختلف باختلاف خطر القضية (٧) وكان عليه أن يلبى دعوة المالك فى الانضمام

إلى فيلقه إذا نشبت الحرب (٨) وإذا أسر المالك كان على الرقيق أن يشترك في أداء فديته (٩) وكان عليه فوق ذلك أن يشترك فى تقديم الهدايا القيمة المستحقة لابن المالك إذا رقى إلى مرتبة الفرسان (١٠) وكان يؤدى للمالك ضريبة عن كل ما يحمله من الغلات ليبيعه فى السوق أو المعرض (١١) ولم يكن من حقه أن يبيع جعته أوخمره إلا بعد أن يسبقه المالك بأسبوعين يبيع فيهما هو جعته وخمره (١٢) وكان عليه فى كثير من الأحيان أن يبتاع قدراً معيناً من خمر سيده كل عام ؛ فإذا لم يبتعها فى الوقت المناسب (كما تقول إحدى مواد قانون الضيعة) « صب المالك قدراً من الخمر يعادل أربعة جالونات فوق سطح الرقيق ، فإذا جرى الخمر إلى أسفل كان على الرقيق أن يؤدى ثمنه ، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شىء ما »[١٦] . (١٣) وكان عليه أن يؤدى غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابناً له ليتعلم تعليما عالياً أووهبه للكنيسة لأن الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة (١٤) وكان يؤدى ضريبة ، ويحصل على إذن من المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج عن نطاق الضيعة لأن المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة أو يخسرهم كلهم ، وكان لا بد من الحصول على هذا الإذن وهذه الضريبة فى بعض المزارع فى كل زواج أياً كان (١٥) ونستمع فى حالات فردية عن « حق الليلة الأولى » أى حق السيد فى أن يقضى مع عروس رقيق الأرض الليلة الأولى من زواجها ، ولكن الرقيق كان يسمح له أحياناً أن « يفتدى » عروسه بأجر يؤديه للسيد[١٨] ؛ وقد بقى حق الليلة الأولى بصورته هذه فى بافاريا حتى القرن الثامن عشر[١٩] . وكان المالك فى بعض الضياع الإنجليزية يفرض غرامة على الفلاح الذى تأثم ابنته ؛ وفى بعض الضياع الأسبانية كانت زوجة الفلاح التى يحكم عليها فى جريمة الزنى تؤول أملاكها كلها أو بعضها لصاحب الأرض[٢٠] (١٦) وإذا مات الفلاح ولم يكن له ولد يقيم معه عاد بيته وعادت أرضه إلى السيد تطبيقاً لحق الحكومة فى أن ترث من لا وارث له ؛ وإن

كان وارثه ابنة غير متزوجة لم يكن لها أن تستبقى الأرض إلا إذا تزوجت رجلا يقيم فى الضيعة نفسها ، وسواء كان للمتوفى وارث أو لم يكن له فقد كان من حق السيد إذا توفى المستأجر أن يستولى فى صورة ضريبة التركات على ماشية ، أو قطعة من قطع الأثاث أو ثوب من تركة المتوفى ، ولقس الأسقفية فى بعض الحالات أن يستولى على مثل رسوم الوفاة هذه[٢١]. ولم تكن رسوم الوفاة تحصل فى فرنسا إلا إذا لم يكن للمتوفى وارث يعيش معه فى بيته . (١٧) وكان عليه فى بعض الضياع وبخاصة فى ضياع الكنيسة أن يؤدى ضريبة سنوية وضريبة تركات للقائد الذى ينظم وسائل الدفاع الحربى عن المقاطعة .

وليس فى وسعنا أن نقدر مجموع الفروض الواجب على رقيق الأرض أداؤها بالنظر إلى هذه الرسوم والضرائب المتنوعة ، وهى رسوم وضرائب لم تكن كلها تحصل من كل أسرة . وقد قدرت فى ألمانيا فى خلال العصور الوسطى بثلثى محصولاته[٢١] ؛ وكانت قوة العادة ، التى هى ذات السلطان الأكبر فى الأنظمة الزراعية ، فى صالح رقيق الأرض ؛ فقد كانت الرسوم التى يؤديها نقداً وعيناً تنزع إلى الثبات كما هى على مر القرون[٢٢] رغم ازدياد غلة الأرض وانخفاض قيمة النقد . وكان كثير من القيود والفروض التى تثقل كاهل الرقيق فى العصور الوسطى يخففها أو يلغيها تسامح الملاك ، أو المقاومة الفعالة من جانب الأرقاء ، أو نسيانها على مر الزمان[٢٣] . ولعل ما يوصف به رقيق الأرض فى العصور الوسطى من بؤس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء الأكبر من الرسوم التى تنتزع منه بديلا من الإيجار النقدى الواجب أداؤه للمالك : وضرائب تؤدى للمجتمع لتمكنه من أداء الخدمات والأعمال العامة ، ولعل نسبتها إلى دخله كانت أقل من نسبة الضرائب التى نؤديها نحن فى هذه الأيام إلى حكومة الاتحاد ، وإلى الولاية ، والمقاطعة ، والمدرسة[٢٤](*) . ولقد كانت حال الفلاح المتوسط فى القرن الثامن عشر مماثلة

(*) يشير الكاتب هنا بطبيعة الحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم) .

لحال بعض الزراع الذين يقتسمون مع الملاك غلة الأرض التى يزرعونها فى الدول الحالية ، وكانت بلا شك خيراً من حال صعاليك الرومان فى عهد أغسطس[٢٥] . ذلك أن المالك فى ذلك الوقت لم يكن يعد نفسه مستغلا ، بل كان يعمل بجد فى المزرعة ، وقلما كان موفور الثراء . وظل الفلاحون حتى القرن الثالث عشر ينظرون إليه نظرة الإعجاب ، ونظرة الحب فى كثير من الأحيان ، وكانوا إذا ترمل السيد ولم ينجب أبناء يوفدون إليه الوفود يلحون عليه بأن يتزوج مرة أخرى ، حتى لا يترك الضيعة دون وريث من نسله ، فتسوء حالها إذا تعرضت لحرب الوراثة[٢٦] . وكان الإقطاع ، كما كانت معظم الأنظمة الاقتصادية والسياسية فى التاريخ ، ما لا بد له أن يكون لمواجهة مستلزمات المكان والزمان وفطرة الناس .

وكان كوخ الفلاح يقام من الخشب الهش الرقيق ، ويسقف عادة بالقش والعشب المتلبد ، وأحياناً بالحصباء . ولم نسمع قط عن نظام لمقاومة الحريق قبل عام ١٢٥٠ ، ومن أجل هذا كانت النار إذا اشتعلت فى أحد هذه الأكواخ أتت عليه وعلى كل ما فيه . وكان الكوخ فى كثير من الأحيان يتكون من حجرة واحدة ولا يزيد قط على حجرتين ، وبه مدفأة يحرق فيها الخشب ، وتنور ، ووعاء للعجين ، ومنضدة ، وبضعة مقاعد ، وصوان ، وصحاف ، وآنيـــة ، ومجمرة ، ومرجل ، وحمالة لتعليق الأوعية ، وحشية كبيرة من الريش أو القش قرب التنور مبسوطة على الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأبناؤهما ، وطارق الليل من الضيوف مختلطين بعضهم ببعض يدفئ بعضهم بعضاً . وكان فناء البيت مأوى الخنازير والدواجن ، وكانت النساء يعنين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، ولكن الفلاحين الكادحين كانوا يجدون فى تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا الأقاصيص أن الشيطان لا يقبل أرقاء الأرض فى الجحيم لأنه لا يطيق رائحتهم[٢٧] . وكان بالقرب من الدار فضاء مسور للحصان والأبقار ، وقد يكون فيه أحياناً خلايا للنحل وخن للدجاج ، وبالقرب منه كوم الروث يتكون من فضلات الحيوانات.

وأفراد الأسرة . وكان حول هذا كله أدوات الزرع والصناعات المنزلية ، وكان قط يحرس البيت من الفيران وكلب يشرف على هذا كله .

وكان الفلاح يرتدى قميصاً نصفياً من القماش أو جلد الحيوان ، وسترة من الجلد أو الصوف ، ومنطقة وسروالا ، وحذاء نصفاً أو عالياً ، وما من شك فى أنه كان يبدو بملابسه هذه شخصاً قوياً لا يختلف كثيراً عن فلاح فرنسا فى هذه الأيام . وليس من حقنا أن نصوره فى صورة الشخص المظلوم المغلوب على أمره ، بل علينا أن نتمثله بطلا يفلح الأرض ، قوياً صبوراً ، تحفظ عليه كيانه كما يحفظ كيان كل إنسان غيره عزة كامنة مهما كانت بعيدة عن العقل والمنطق . ولم تكن زوجته أقل منه كدحاً من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس . وكانت إلى هذا تنجب له الأبناء ؛ وإذ كان لهؤلاء الأبناء قيمة اقتصادية فى المزرعة فقد كانت تكثر منهن ؛ لكننا مع هذا نقرأ فى أقوال بلاجيوس الفرنسيى (حوالى ١٣٣٠) أن بعض الفلاحين « كثيراً ما كانوا يمتنعون عن مباشرة أزواجهم كيلا يلدن أبناء محتجين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا كثروا »[٢٨] .

وكان طعام الفلاح كافياً مغذياً — يتألف من منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر واللحم ؛ وإن كان بعض المؤرخين المتظرفين يرثون له لأنه كان يضطر إلى أكل الخبز الأسود — أى المصنوع من الدقيق غير المنخول[٢٩] . وكان يشترك فى حياة القرية الاجتماعية ، ولكنه لم تكن له متع ثقافية ؛ فلم يكن يعرف القراءة ، لأن فى وجود رقيق الأرض التى يعرفها إساءة إلى سيده الأمى . وكان يجهل كل شىء عدا الزرع ، وحتى هذا لم يكن بارعاً فيه . وكانت طباعه خشنة شديدة ، ولعله كان فظاً غليظ القلب . وقد اضطرته أحوال أوربا المضطربة أن يعيش عيشة الحيوان الطيب ، وفى الحق أنه استطاع أن يعيش على هذا النحو . فقد كان لفقره شرهاً ، ولخوفه قاسياً ، وللكبت الواقع عليه عنيفاً ، وكان جلفاً لأنه يعامل معاملة الأجلاف : وكان هو عماد الكنيسة ، ولكنه كان لديه من

الخرافات أكثر مما كان لديه من الدين ، وقد اتهمه بلاجيوس بأنه كان يخدع الكنيسة فلا يؤدى إليها عشورها ، ويهمل فى مراعاة أيامها المقدسة وأيام صومها ؛ ويشكو جوتييه ده كوانسى Gautier de Coincy (فى القرن الثالث عشر) من أن رقيق الأرض « ليس فى قلبه من خشية الله أكثر مما فى قلب الشاة ولا يأبه مطلقاً بقوانين الكنيسة المقدسة »(٣٠) . وكانت له لحظات فكاهته الثقيلة السمجة ، ولكنه كان فى حقله وفى بيته قليل الكلام ، صريح الألفاظ ، رزيناً ، يشغله كدحه المتواصل وأعماله الكثيرة عن أن يضيع جهوده فى الكلام أو الأحلام . وكان رغم خرافاته واقعى النزعة ، يدرك تصاريف الأقدار التى لا هوادة فيها ولا رحمة ، ويوقن أن الموت آت لا ريب فيه ، فقد كان جدب فصل من فصول العام يهلكه هو وحيواناته جوعا . وقد حدث بين عامى ٩٧٠و١١٠٠ ستون قحطاً حصدت الأهلين زرافات فى فرنسا ، ولم يكن فى وسع أى فلاح بريطانى أن ينسى ما حدث من القحط فى عامى ١٠٨٦و١١٢٥ فى انجلترا المرحة الطروب ؛ وقد روع أسقف تربيه فى القرن الثانى عشر حين رأى الفلاحين يذبحون جواده ويأكلون لحمه(٣١) . ثم زاد الفيضان والوباء والزلزال الطين بلة وأحالت الملهاة آخر الأمر مأساة .

٣ — مجتمع القرية

وكان جماعة من الفلاحين يتراوح عددهم بين خمسين وخمسمائة يتألفون من أرقاء الأرض ، ونصف الأحرار ، والأحرار ، يبنون قريتهم حول قصر السيد الإقطاعى فى الريف . ولم تكن بيوتهم منعزلة بعضها عن بعض بل كانت متجاورة داخل أسوار القرية لأن فى قربها أماناً لهم . وكانت القرية عادة جزءاً من ضيعة واحدة أو أكثر من ضيعة ، وكان السيد المالك هو الذى يعين الكثرة الغالبة من موظفيها ، ولم يكونوا يسألون إلا أمامه وحده ، ولكن الفلاحين كانوا يختارون لهم عمدة

أو رئيساً يتوسط بينهم وبين المالك وينسق نشاطهم الزراعى . وكانوا يجتمعون فى السوق فى فترات معينة ليتبادلوا السلع ، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة فى هذه الضيعة المكتفية بنفسها من الناحية الاقتصادية ، فقد كان البيت الريفى ينتج بنفسه ما يلزمه من الخضر وبعض ما يلزمه من اللحوم ، ويغزل صوفه أو كتانه ، وينسج معظم ما يحتاجه أفراده من الثياب . وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية ، ودابغ الجلود يصنع البضائع الجلدية ، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث ، وصانع العربات يصنع المركبات ، والقصارون ، والصباغون ، والبناءون ، وصانعو السروج ، والحذاؤون ، والصبانون . . . كان كل هؤلاء يعيشون فى القرية أو يأتون إليها ليقيموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه ، وكان القصاب العام أو الخباز ينافس الفلاح وزوجته فى إعداد اللحم والخبز .

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعى قائمة على الزراعة . وقد جرت العادة فى فرنسا وإنجلترا فى القرن الحادى عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول : أحدها يزرع قمحاً أو شيلما ، وثانيها شعيراً أو شوفانا ، ويترك الثالث بوراً . وكان كل حقل يقسم قطعاً مساحة كل منها نحو فدان إنجليزى أو نصف فدان يفصل كلا منها على الأخرى حاجز من أرض غير محروثة . وكان موظفو القرية يحددون لكل زارع عدداً مختلفاً من القطع فى كل حقل ويحتمون عليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهلون مجتمعين يقومون فى الحقل بالعمليات الزراعية كلها من حرث وتمهيد ، وغرس وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو أكثر كان يهدف إلى إعطائه نصيباً معادلا لنصيب غيره من الأراضى غير المتساوية الخصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية بدائية لا تزال آثار قليلة منها باقية فى هذه الأيام . وكان من حق كل فلاح يؤدى ما عليه من الواجبات الإقطاعيـــة بالإضافة إلى زرع

هذه القطع أن يقطع الأشجار ، ويرعى ماشيته ، ويجمع الكلأ الجاف من غابات الضيعة ، وأرض الكلأ المشاع فيها ، « وأرضها الخضراء » وكان له عادة حول كوخه ما يكفى من الأرض لإنشاء حديقة وغرس الأزهار .

ولم يكن علم الزراعة فى البلاد المسيحية الإقطاعية يضارع نظيره عند الرومان فى عهد كولمبلا Columbella أو عند المسلمين فى بلاد العراق أو الأندلس . وكانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق فى الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة ؛ وكان يتخذ من الطين الغضار(*) أو غيره من التراب والجير نوع من السماد البسيط ، فلم يكن يوجد فى ذلك الوقت مخصبات صناعية ، وكان ما يعترض النقل من صعاب يقلل استخدام روث الحيوان ، ولهذا كان رئيس أساقفة رون Rouen يلقى أقذار اسطبلاته فى نهر السين بدل أن ينقلها إلى حقوله القريبة منها فى دفيل Deville ، وكان الفلاحون يشتركون فى جمع دريهماتهم القليلة لشراء محراث أو زحافة يستعملونهما جميعاً . وظل الثور هو حيوان الجر عندهم حتى القرن الحادى عشر ؛ ذلك أن هذا الحيوان أقل نفقة من الحصان فى إطعامه ، وكان إذا كبرت سنه أكثر منه نفعاً إذا اتخذ طعاماً . ولكن صانعى السروج اخترعوا حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الطوق الجامد الذى يمكن الحصان من جر حمل ثقيل دون أن يختنق ؛ وإذا وضع هذا الطوق فى عنق الحصان أمكنه أن يحرث فى اليوم الواحد ثلاثة أمثال ما يحرثه الثور أو أربعة أمثاله . وإذ كانت سرعة الحرث مهمة فى الجواء المعتدلة الرطبة فقد أخذ الحصان فى القرن الحادى عشر يحل محل الثور ويفقد ما كان له من منزلة عالية جعلت الناس يحتفظون به من قبل للسفر ، والصيد ، والحرب(٣٢) . ودخلت السواقى أوربا الغربية أواخر القرن الحادى عشر ، وكانت مستخدمة قبل ذلك بزمن طويل فى بلاد الشرق الإسلامية(٣٣) .

(*) المارل ويسمى أيضاً بالثمن وهو نوع من الطين الخزفى غنى بكربونات الكلسيوم . (المترجم)

وكانت الكنيسة تخفف من كدح الفلاح بأيام الآحاد والأعياد التى كان « العمل الوضيع » فيها يعد إثماً من الآثام . وفى ذلك يقول الفلاحون : « إن أثوارنا تعرف متى يحل يوم الأحد ، وهى لذلك تأبى أن تعمل فى ذلك اليوم »[٣٤] . وكان الفلاح إذا فرغ من الصلاة فى ذلك اليوم يغنى ويرقص ، وينسى فى ضحكه الريفى العالى أعباء الوعظ والمزرعة الثقال . وكانت الجعة رخيصة الثمن ، وكان الحديث حراً طليقاً بذيئاً . وكانت أقاصيص خليعة عن النساء تختلط بالخرافات الرهيبة التى تروى عن القديسين . وكانت ألعاب عنيفة ككرة القدم ، والهوكى ، والمصارعة ، وقذف الأثقال يتبارى فيها رجل مع رجل . وكان قتال الديكة ، ومصارعة الثيران كثيرى الحدوث ، وكان تحمس النظارة يصل إلى غايته حين يحاول رجلان معصوبا العينين ، مسلحان بالعصى الغليظة أن يقتلا إوزة أو خنزيرا داخل دائرة مغلقة . وكان الفلاحون فى بعض الليالى يتزاورون ، ويلعبون ألعاباً داخل البيوت ، ويحتسون الخمر ، وكانوا فى العادة يقضون أوقاتهم داخل البيوت ، لأن الحارات لم تكن مضاءة ، وكانوا يأوون إلى الفراش مبكرين بعد أن تظلم الدنيا بقليل لأن الشموع كانت غالية الثمن . وكانت الأسرة إذا حل الشتاء بليله الطويل تأوى الماشية فى الكوخ وترحب بها وتفيد بما تحدثه فيه من الدفء .

وهكذا كان الفلاحون فى أوربا يطعمون أنفسهم ، وسادتهم ، وجنودهم ، وقساوستهم ، وملوكهم ، بكدحهم المتواصل وبسالتهم الصامتة ، لا بما تبعثه فى نفوسهم الحوافز الصالحة من مهارة وقدرة على الابتكار . وكانوا يجففون المناقع ، ويقيمون الجسور والحواجز ، ويقطعون أشجار الغابات ، ويطهرون القنوات ، ويشقون الطرق ، ويبنون البيوت ، ويوسعون نطاق دائرة الحضارة ، ويكسبون المعركة القائمة بين الغابة والإنسان . وإن أوربا الحديثة لمن خلقهم وصنع أيديهم ؛ ونحن إذا ما شاهدنا الآن تلك السياج الأنيقة ، والحقول المنظمة ، لا نستطيع أن

نتصور ذلك الكدح الطويل ، والمحن الشداد التى دامت عدة قرون ، والتى حطمت ظهور الرجال وقلوبهم ، والتى سخرت المواد الغفل التى تخرجها الطبيعة السخية على كره ، ووضعت بها الأسس الاقتصادية لحياتنا الحاضرة .

وكانت النساء أيضاً مجندات فى تلك الحرب العوان ، فقد كان خصبهن وصبرهن على إنجاب الأبناء وتربيتهم هما اللذين ذللا الأرض . وحارب الرهبان وقتا ما ، ولم يكونوا فى حربهم أقل بسالة من غيرهم ، فقد أقاموا أديرتهم مراقب أمامية فى القفار ، وأنشأوا من الفوضى نظاما اقتصاديا ، وبنوا القرى فى البرارى ، وبفضل هذه الجهود كلها رفرف علم الحضارة على ربوع أوربا فى نهاية العصور الوسطى بعد أن كان الجزء الأكبر من أرضها فى بداية تلك العصور أرضين غير منزرعة ، وغابات خالية من السكان ، وبرارى مقفرة ، ولعل هذا العمل ، إذا نظرنا إليه النظرة الصحيحة ، هو أشد كفاح ، وأنبل نصر ، وأعظم عمل تم فى عصر الإيمان .

٤ — المالك

فى كل نظام اقتصادى يسيطر الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أولئك الذين لا يستطيعونها إلا على الجهاد . وكان المسيطر على الرجال فى أوربا الإقطاعية هو السيد المالك — وهو باللغة اللاتينية dominus ، وبالفرنسية seigneur ، وبالرومانية senior وبالألمانية Herr ، وبالإنجليزية lord (أى السيد) وكانت أعماله تنقسم ثلاثة أقسام : أن يوفر وسائل الدفاع العسكرى عن أراضيه وسكانها ، وأن ينظم شئون الزراعة والصناعة والتجارة فى تلك الأراضى ، وأن يخدم سيده الأكبر أو مليكه فى الحرب . ولم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى وتمزق لطول عهده بالهجرة ، والغارات ، والنهب ، والحروب — لم يكن المجتمع قادراً على البقاء فى هذا النظام

إلا باستقلاله المحلى وكفاية موارده من الطعام والجنود ؛ ولهذا أصبح القادرون على تنظيم وسائل الدفاع وفلح الأرض هم سادتها وملاكها بطبيعة الحال ، وأضحى امتلاك الأرض وإدارتها مصدر الثراء والسلطان ، ونشأ عهد من الأرستقراطية مالكة الأرض دام إلى عهد الانقلاب الصناعى .

وكان المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه الإقطاع هو الولاء المتبادل الذى يتمثل فيما على رقيق الأرض أو التابع من التزامات اقتصادية وعسكرية لسيده ، وفيما على هذا السيد من واجبات مثلها لسيده الأعلى ، وفيما على هذا السيد الأعلى من واجبات للملك ، وفيما على الملك من واجبات نحو السيد الأعلى ، وفيما على هذه السيد الأعلى من واجبات للسيد الأصغر منه ، وفيما على هذا السيد الأصغر من واجبات لتابعه أو رقيق أرضه . وكان السيد يجزى أرقاءه على خدمتهم إياه أرضاً يستبقونها طوال حياتهم ، تكاد تكون ملكاً لهم . وكان يجيز لهم أن يستخدموا بأجر قليل أفرانه ، ومعاصره ، وطواحينه ، ومياهه ، وغاباته ، وحقوله ؛ وكان يستبدل بكثير من الواجبات التى تتطلب جهودهم العضلية قدراً قليلا من المال ، ويسمح بأن تسقط بعض الواجبات الأخرى على مر الزمان . ولم يكن ينزع الأرض من رقيقه إذا أعجزه المرض أو الشيخوخة — بل كان يعنى به عادة ويقدم له المعونة(٣٥) . ومن الملاك من كان يفتح أبوابه للفقراء فى أيام الأعياد ويطعم كل من يدخلها ؛ وكان ينظم وسائل المحافظة على القناطر ، والطرق ، والقنوات ، والتجارة ، ويجد الأسواق التى يصرف فيها ما زاد من منتجات الضيعة على حاجتها ، والأيدى العاملة للقيام بأعمالها ، والمال ليشترى به حاجاتها . وكان يأتى إليها بالسلالات الطيبة من الماشية ليربيها ، ويسمح لأرقائه أن يلقحوا ماشيتهم بالذكور الممتازة عنده ؛ وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه ، أو أن يقتله فى بعض الأماكن أو الأحوال ، دون أن يخش عقاباً ، ولكن شعوره بمصالحه الاقتصادية كان يكبح جماح وحشيته ، وكانت له فى أملاكه السلطات القضائية والعسكرية ،

وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التى تفرضها محاكم الضيعة ؛ ولكن معظم قضاة هذه المحكمة كانوا من أرقاء الأرض أنفسهم ، وإن كانت ترهبها سلطة المأمور التابع للشريف . ويتبين لنا مع تهافت الأرقاء على هذه الهيئات القضائية لتعفيه من الخدمات نظير ما يقدمه من المال — يتبين لنا من تهافتهم عليها أن قراراتها لم تكن شديدة الظلم . وكان فى مقدور كل رقيق يجد فى نفسه الجرأة الكافية أن يجهر برأيه فى محكمة الضيعة ، ومن الأرقاء من كانوا يجدون فى أنفسهم هذه الجرأة ، وقد أعانت هذه المحاكم بأحكامها الفردية ، وبغير قصد منها ، على إيجاد الحريات التى قضت آخر الأمر على عهد رقيق الأرض .

وكان فى وسع السيد الإقطاعى أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة ، وكان يعين فى هذه الحالة وكيلا له يشرف على أملاكه أى على ضياعه كلها ، وكان له فى كل منها ناظر أو مأمور ، وكان هو ينتقل من ضيعة إلى ضيعة ومعه أفراد أسرته ليستهلكوا غلاتها فى مواضع إنتاجها ؛ وقد يكون له قصر حصين فى كل واحدة منها . وكان قصر السيد الإقطاعى يرجع نشأته إلى معسكر الفيالق الرومانية المسور (Castellum, Castrum) أو إلى قصر الشريف الرومانى الريفى المحصن أو إلى حصن الزعيم الألمانى (burg) ، وكان يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم . وكان أبعد وسائل الدفاع عنه من الخارج خندق عريض عميق ؛ وكانت الأتربة الناتجة من حفره والتى تلقى فى الجهة الداخلية منه تكون حاجزاً عالياً تدق فيه عُمد مربعة يرتبط بعضها ببعض ليتكون منها سور متصل . وكان جسر متحرك مثبت طرفه الداخلى يؤدى إلى باب حديدى كبير أو باب آخر شبكى قبله ، يحمى مدخلا ضخماً فى سور الحصن . وكان فى داخل هذا السور اسطبلات ، ومطبخ ، ومخازن ، وأبنية صغرى ، ومخبز ، ومغسل ، وكنيسة صغيرة ، ومساكن للخدم ، مبنية كلها عادة من الخشب . وكان مستأجرو الضيعة يهرعون عادة هم وماشيتهم ومنقولاتهم إلى داخل

هذا السور . ويقوم فى وسطه البرج أو بيت المالك ؛ وهو فى معظم الأحوال برج مربع كبير مقام من الخشب أيضاً ؛ ولكنه قبل أن يستهل القرن الثانى عشر بنى من الحجارة واتخذ شكلا دائرياً ليسهل الدفاع عنه أكثر من ذى قبل . وكان الطابق الأدنى من هذا البرج مخزناً وجباً ، ومن فوقه يسكن المالك وأسرته . وقد نشأت من هذه الأبراج فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر قصور الأشراف فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وهى القصور التى كانت جدرانها الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك .

وكان البرج من داخله مظلماً ، ضيقاً ، محصوراً ؛ قليل النوافذ صغيرها ، وقلما كانت لها ألواح زجاجية . وكان الخيش أو الورق الملون ، أو المصاريع الخشبية ، أو شبابيك الشيش تمنع عنه معظم المطر والكثير من الضوء ؛ وكانت الشموع والمشاعل تستخدم فى الإضاءة الاصطناعية ، ولم تكن هناك فى معظم الأحوال إلا حجرة واحدة فى كل طابق من أطباقه الثلاثة ؛ وكانت السلالم أو الأبواب التى فى السقوف ، أو الدرج المتعرجة ، تصل أطباق البرج بعضها ببعض . وكان فى الطابق الثانى البهو الرئيسى ، الذى تعقد فيه محكمة المالك والذى يستخدم فضلا عن ذلك مطعماً ، وحجرة لجلوس الأسرة ، ونوم معظم أفرادها . وقد يكون فى إحدى أطرافها مصطبة مرتفعة ، يتناول عليها المالك ، وأسرته ، ومن يستضيفه طعامهم . أما غيرهم فكانوا يتناولون طعامهم على موائد متنقلة توضع أمام مقاعد فى ممرات هذا الطابق . فإذا حان وقت النوم وضعت الحشيات على الأرض أو على أسرة منخفضة من الخشب فى الممرات . وكان أهل الدار كلهم يناموں فى هذه الحجرة الوحيدة تحجبهم حواجز بعضهم عن بعض . وكانت الحجرات تطلى بالجير أو بالألوان الزيتية ، وتزين بالأعلام ، والأسلحة ، والدروع ، وكان من المستطاع وقاية الحجرة من التيارات الهوائية بالستائر أو الأقمشة المنقوشة . وكانت الأرض تبلط بألواح القرميد أو الحجارة ، وتغطى بالقش

أو أغصان الأشجار ؛ وكانت تدفأ من وسطها من موقد يحرق فيه الخشب .. وظلت الدار من غير مدخنة إلى أواخر العصور الوسطى ؛ وكان الدخان يخرج من فتحة بالسقف ، وكان من خلف المصطبة باب يوصل إلى « مشمسة » يستطيع السيد وأسرته وضيفه أن يستريحوا فيها ويستمتعوا بأشعة الشمس . وكان الأثاث هنا أدعى إلى الراحة منه فى الحجرات ، فقد كان فى هذه المشمسة بساط ، ومدفأة ، وسرير مريح .

وكان مالك الضيعة يرتدى جلباباً يتخذ عادة من الحرير الملون ، نقشت عليه رسوم هندسية أو نباتية ، وحرملة تغطى الكتفين وغير مشدودة يستطاع رفعها فوق الرأس ؛ وسروالا تحتياً (لباساً) قصيراً من فوقه سروال آخر (بنطلون) قصير أيضاً ؛ وجوربين قصيرين يرتفعان إلى الفخذين ، وحذاءين طويلين يرتفع طرفاهما الأماميين كأنهما مقدم سفينة . وكان يتأرجح من منطقته جراب وسيف ، وتتدلى عادة من عنقه مدلاة على شكل صليب . ولما أراد الأشراف الأوربيون أن يميزوا الفرسان ذوى الخوذ والدروع أحدهم عن الآخر فى الحرب الصليبية الأولى[٣٦] ، أخذوا عن المسلمين عادة[٣٧] تميز أرديتهم ، وحللهم ، وألويتهم ، ودروعهم ، وسروج خيلهم بنقوش خاصة أو شعائر حربية ، ومن ثم أنشأت الفروسية لنفسها رطانة عجيبة لا يفهمها إلا الفرسان والقائمون على شئون الفروسية[*]. ولم يكن المالك رغم هذه الزينات كلها بالإنسان المتعطل المتطفل ، فقد كان يستيقظ فى مطلع الفجر ، ويصعد إلى برجه ليتبين هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ،

(*) وسمى اللون الأصفر ، والأبيض ، والأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، والأسود : والبنفسجى ، على هذا الترتيب نفسه ، بالذهبى ، والفضى ، والسماوى ، والوردى ، والنباتى ، والرملى ، والأرجوانى . وكان الأزرق السماوى لوناً أخذ عن الشرق ، ومن ثم كان من أسمائه « ما وراء البحر » . وكان الصليبيون يزينون معاصمهم ورقابهم بأساور مزركشة بن الفرو — تصبغ عادة باللون الأحمر — (واللفظ الإنجليزى الذى يسمى به هذا اللون وهو **gules** مشتق من لفظ جولا اللاتينى ومعناه حلق) . وكافت الأديرة ، والبلدان ، والأمم ، تستخدم هذه الرموز فى القرن الثالث عشر كما تستخدمها الأسر ، وكانت الأسر القديمة تضع عادة فوق رموزها أو ألويتها شعاراً موجزاً جامعاً مثل : طاهر السريرة ؛ لا بالكثير ولا بالقليل .. الخ ..

وقد يذهب بعد ذلك للصلاة فى الكنيسة ، ثم « يتغدى » فى الساعة التاسعة صباحاً ، ويشرف بعدئذ على أعمال الضيعة الكثيرة ، ويشترك بنفسه فى بعضها ، ويصدر أوامره إلى الناظر ورئيس الخدم ، والسائس ، وغيرهم من أتباعه ، ويستقبل الزوار وعابرى السبيل ، ثم « يتعشى » معهم ومع أسرته فى الساعة الخامسة ، ويأوى عادة إلى فراشه فى الساعة التاسعة مساء . وكان هذا العمل الرتيب يتغير فى بعض الأيام إذا ذهب إلى الصيد ، ويتغير كذلك أحياناً قليلة إذا لعب « البرجاس » ، ويتغير من حين إلى حين إذا قامت الحرب . وكثيراً ما كان يقيم الولائم ، ويتبادل الهدايا الكثيرة مع الأضياف .

ولا تكاد زوجته تقل عنه عملا . فكانت تلد له كثيراً من الأبناء وتربيهم ، وكانت توجه الخدم الكثيرين ، وتلكمهم أحياناً ، وتلاحظ الخبز ، والمطبخ ، والمغسل ، وتشرف على عمل الزبد والجبن ، وعصر الجعة ، وتمليح اللحم لحفظه لأيام الشتاء ، وتعمل فى تلك الصناعات المنزلية الكبرى صناعات الخياطة ، والحياكة ، والغزل ، والنسيج والتطريز ، التى تعد بها معظم ملابس الأسرة ؛ فإذا خرج زوجها للحرب قامت هى بشئون المزرعة العسكرية والاقتصادية ، وكان ينتظر منها أن تمده بحاجاته المالية فى أثناء حروبه ؛ فإذا وقع فى الأسر كان عليها أن تدبر المال اللازم لافتدائه من كد رقيق أرضه ، أو من بيع جواهرها وأدوات زينتها ؛ وإذا مات زوجها وليس له ولد ذكر ، فقد تؤول إليها سيادة الضيعة . فتصبح هى سيدتها dame domina ، ولكنها كان ينتظر منها أن تتزوج مرة أخرى بعد زمن قليل لكى يؤدى للضيعة وللسيد الأكبر ما يلزمهما من الخدمة أو الحماية العسكرية . وكان السيد الأكبر يقصر اختيارها على عدد قليل من الخاطبين القادرين على أداء هاتين المهمتين . وكان فى مقدورها أن تصبح فى داخل قصرها مسترجلة أو صخابة ، وتبادل زوجها لطمة بلطمة : وكانت فى ساعات فراغها تلبس على جسمها القوى أثواباً فضفاضة من الحرير ذات أهداب من الفراء ، وتحتذى حذاءين

لطيفين ، وتغطى رأسها بغطاء جميل ، وتزدان بالحلى المتلألئة فتصبح بذلك كله قادرة على بعث نشوة الحب أو الأدب فى قلوب الشعراء الجوالين .

وكان أبناؤها يتلقون تعليما يختلف كل الاختلاف عن تعليم الجامعات . لأن أبناء الأشراف قلما كانوا يرسلون إلى المدارس العامة ، ولم يكن فى كثير من الحالات يبذل أى مجهود فى سبيل تعليمهم القراءة . ذلك أن القراءة والكتابة كانتا تتركان للقساوسة والكتبة الذين كانوا يستأجرون بأقل الأجور ، وأن الكثرة الغالبة من فرسان الإقطاع كانوا يحتقرون المعارف العقلية ، فقد تعلم جسكلين Guesclin مثلا ، وهو من أجل شخصيات الفروسية ، جميع فنون الحرب ، وتعود مواجهة كل تقلبات الجو بقلب ثابت ، ولكنه لم يعن أقل عناية بتعلم القراءة ؛ ولم يحتفظ الأشراف بتقاليدهم الأدبية إلا فى إيطاليا وبيزنطية . وكان ابن أسرة الفرسان يرسل السابعة من عمره ، بدل المدرسة ، ليكون وصيفاً فى بيت شريف آخر يتأدب فيه ويتعلم الطاعة ، والأخلاق الطيبة ، وطريقة اللبس ، وقانون الشرف الخاص بالفرسان ، ومما تتطلبه المثاقفة والحرب من حذق ، وربما أضاف القسيس المحلى إلى هذا شيئاً من التدريب على القراءة والحساب . وكانت البنات يتعلمن مائة من الفنون النافعة أو الجميلة ، ولم تكن الوسيلة إلى هذا تزيد على النظر والعمل . وكن يعنين بشئون الضيوف ، والفارس حين يعود من الحرب أو البرجاس ؛ فكن يحللن دروعه ، ويحضرن حمامه ، ويأتين له بالثياب التحتية والفوقية ، والعطور ، ويخدمنه وقت الطعام بأدب جم وتواضع ورقة مدروسة ؛ وكن هن ، لا الأولاد ، يتعلمن القراءة والكتابة ، وكان منهن كثرة يستمعن إلى الشعراء ، والقصاصين ، والمغنين وإلى نثر ذلك الوقت وشعره الإبداعيين .

وكثيراً ما كان بيت الشريف يشتمل على بعض المقطَعين أو الأتباع . فأما المُقْطَع فكان رجلا ينال من الشريف نظير خدمته العسكرية والشخصية ،

أو المعونة السياسية ، منفعة أو ميزة قيمة — وهى فى العادة مساحة من الأرض ومن عليها من أرقاء الأرض ، وفى هذه الحال يكون للمقطع حق الانتفاع بالريع ، أما الملكية فتبقى للشريف . وكان الرجل الذى يمنعه كبرياؤه أو تمنعه قوته من أن يكون رقيق أرض ولكنه أضعف من أن يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية ، يؤدى مراسم « الولاء » لشريف إقطاعى : يركع أمامه وهو أعزل عارى الرأس ، ويضع يديه فى يدى الشريف ، ويعلن أنه « رجل » ذلك الشريف (homme) (وإن كان يحتفظ بحقوقه بوصفه رجلا حراً) ، ثم يقسم على بعض المخلفات المقدسة أو على الكتاب المقدس أن يظل وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته . ثم يرفعه السيد ، ويقبله ، ويمنحه إقطاعية(*) ، ويعطيه رمزاً لهذه المنحة قشة ، أو عصا ، أو حربة ، أو قفازاً . ويصبح السيد من ذلك الحين ملزماً بحماية المقطع ، وصداقته ، والإخلاص له ، وتقديم المعونة الاقتصادية والقضائية ؛ وكان عليه ، كما يقول أحد المحامين فى العصور الوسطى ، ألا يهين هذا المقطع ، أو يغوى ابنته أو زوجته[٣٩] ، فإذا فعل كان من حق المقطع أن « يلقى القفاز » علامة على التحدى ، أى أنه أصبح خارجاً عن الولاء له — ومن حقه مع ذلك أن يحتفظ بإقطاعيته :

وقد يُقطع المقطَع « من باطنه » جزءاً من الأرض إلى مقطَع أقل منه تكون علاقته به وتبعاته نحوه هى نفس العلاقة والتبعات التى بين المقطع الأصيل والسيد . وكان فى وسع المقطع أن تكون له إقطاعيات من عدد من السادة ، وأن يكون مديناً لهم « بولاء بسيط »وخدمات محدوده ، ولكن عليه أن يدين لسيد أعلى « بولاء كامل» وخدمة كاملة فى السلم والحرب . وقد يكون السيد نفسه مهما عظم شأنه ، مقطعاً من قبل غيره من السادة إذا أخذ منه ملكا أو إقطاعية ، وقد يكون مقطعاً — أى مالكا لإقطاعية — من مقطع من سيد آخر . وكان السادة كلهم

(*) وهى بالإنجليزية fief ؛ والكلمة مشتقة من كلمة feudum اللاتينية ، وهذه مأخوذة من كلمة faibu الألمانية القديمة أو القوطية ، ومعناها الماشية . وهى ذات صلة بكلمة pecu اللاتينية ، ولقد أصبح لها مثلها معنى ثانوياً وهو البضائع أو النقود .

مقطعين من الملك . ولم تكن الرابطة الأولى فى هذه الصلات المعقدة هى الرابطة الاقتصادية ، بل كانت هى الرابطة العسكرية ، فقد كان الرجل يقدم الخدمة العسكرية والولاء الشخصى ، أو يدين بهما ، إلى سيد ، وكان ما يعطى له من الأرض جزاء له على خدمته وولائه لا أكثر ولا أقل . وكان الإقطاع من الوجهة النظرية نظاماً عظيما تتبادل بمقتضاه الأخلاق الطيبة ، يربط رجال المجتمع المعرض للخطر بعضهم ببعض برباط قوامه تبادل أداء الواجبات ، والحماية ، والإخلاص .

٥ — الكنيسة الإقطاعية

وكان مالك الضيعة فى بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير ؛ وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم ، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التى تجبى من الأبرشية ، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوى وتلك الأموال فى حاجة إلى المعونة المالية ؛ وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبة من الإيرادات الإقطاعية . وتراكمت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى ، وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوربا ؛ فقد كان دير فلدا مثلا يمتلك ١٥٫٠٠٠ قصر صغير من قصور الريف ، وكان ديرسانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض[٤٠]؛ وكان ألكوين فى تور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض[٤١]. وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرهما من الألقاب الإقطاعية ، ويسكون العملة ، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة ، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والإشراف الزراعى . وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحراب من المناظر المألوفة

فى ألمانيا وفرنسا . وكان رتشرد أمير كورنوول فى عام ١٢٥٧ يجهر بأسفه لخلو إنجلترا من « الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية »[٤٢].
وهكذا أضحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعى ، فألفت نفسها منظمة سياسية ، واقتصادية ، وحربية لا منظمة دينية وكفى . وكانت أملاكها « الزمنية » أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى مستمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات . وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع .

٦ - الملك

وكما كانت الكنيسة فى القرن الثانى عشر منشأة إقطاعية ذات حكومة دينية غرضها تبادل الحماية ، والخدمات ، والولاء ، تقوم بها طائفة من رجال الدين ويرأسها البابا سيدها الأعلى ، كذلك كان الحكم الزمنى الإقطاعى يتطلب لكى يبلغ تمامه رئيساً أعلى لجميع المقطعين ، وسيداً صاحب السلطان على جميع السادة الزمنيين ، أى أنه كان فى حاجة إلى ملك . وكان الملك من الوجهة الزمنية تابعاً لله ، يحكم بما له من حق إلهى ، بمعنى أن الله أجاز له أن يحكم ، ومن ثم فوضه فى أن يحكم . أما من الوجهة العملية فإن الملك قد ارتفع إلى عرشه بطريق الانتخاب أو الوراثة ، أو الحرب . نعم إن رجالا من أمثال شارلمان ، وأتو الأول ، ووليم الفاتح ، وفليب أغسطس ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى ، ولويس الجميل ، وسعوا سلطانهم الموروث بقوة الخُلق أو السلاح ؛ ولكن ملوك أوربا الإقطاعية لم يكونوا عادة حكاما لشعوبهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل الأقيال التابعين لهم ؛ فقد كان كبار الأشراف ورجال الدين هم الذين يختارونهم أو يوافقون على اختيارهم ، وكان سلطانهم المباشر محصوراً فى أملاكهم الإقطاعية أو ضياعهم ؛ أما فى غير هذه الأملاك والضياع من مملكتهم فقد كان رقيق الأرض أو التابع

الذى أقطع أرضاً يدين بالولاء للمالك الذى يحميه ، وقلما كان يدين بهذا الولاء للملك الذى كانت قوته الصغيرة البعيدة عنه عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المشتتة فى أنحاء المملكة . وعلى هذا فإن الدولة فى النظام الإقطاعى لم تكن إلا ضيعة الملك .

وذهب هذا التفتيت فى الحكم إلى أبعد حد فى غالة لأن الأمراء الكارولنجيين أضعفوا قواهم بتقسيم الإمبراطورية ، ولأن الأساقفة أخضعوهم لسلطان الكنيسة ، ولأن هجمات الشماليين على فرنسا كانت أشد هجمات هؤلاء الأقوام عنفاً . ولم يكن الملك فى هذا النظام الإقطاعى الكامل إلا « صاحب المقام الأول بين أنداد » ، لا يعلو عمن يحملون لقب الأمير ، والدوق ، والمركيز ، والكونت إلا قليلا ، ولكنه كان من الناحية العملية شبيهاً « بأشراف الدولة هؤلاء » ، فقد كان شريفاً إقطاعياً تقتصر موارده المالية على ريع أراضيه ، ويضطر إلى الانتقال من ضيعة ملكية إلى أخرى ليحصل على طعامه وشرابه ، ويعتمد فى الحرب والسلم على المعونة العسكرية أو الخدمة الدبلوماسية التى يؤديها له تابعوه الأغنياء ، ولم يكن هؤلاء يتعهدون له بأكثر من أربعين يوماً من العمل المسلح كل عام ، وكانوا يقضون نصف وقتهم فى الائتمار به لخلعه . وكان الملك يضطر إلى منح الضيعة فى إثر الضيعة لأقوياء الرجال ليكسب بذلك معونتهم أو يجزيهم على هذه المعونة ، حتى كان ما بقى من الأرض لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر أقل من أن يجعل لهم فوق أتباعهم الملاك من السيادة ما يؤمنهم على عرشهم ؛ ولما أن أورث هؤلاء الملاك أبناءهم ضياعهم ، وأنشأوا لأنفسهم شرطة ومحاكم ، وسكوا باسمهم النقود ، لما أن فعلوا هذا لم يجد الملك لديه من القوة ما يمنعهم من فعله ، ولم يكن فى وسعه أن يتدخل فى اختصاصات أتباعه القضائية فى أملاكهم إلا فى قضايا الإعدام التى تستأنف له ، ولم يكن من حقه أن يرسل موظفيه أو جباته إلى أملاكهم ، أو يمنعهم أن يعقدوا المعاهدات

المستقلة ، أو يشنوا الحروب من تلقاء أنفسهم . نعم إن ملك فرنسا كان من الناحية النظرية يمتلك جميع أراضى الملاك الذين يلقبونه سيدهم ، ولكنه لم يكن فى واقع الأمر إلا مالكاً من كبار الملاك ، ولم يكن حتماً أكبرهم ، ولم تكن أملاكه فى يوم من الأيام أكبر من أملاك الكنيسة .

وكما أن عجز الملوك عن حماية ممالكهم كان سبباً فى نشأة نظام الإقطاع ، كذلك كان عجز أمراء الإقطاع عن حفظ النظام فيما بينهم أو إقامة الحكومة الموحدة التى يتطلبها النظام الاقتصادى التجارى ، كان هذا العجز سبباً فى إضعاف السادة الإقطاعيين وتقوية الملوك . وكان تحمس الأشراف فى المنازعات الحربية فى أوربا الإقطاعية يلقى بهم فى غمار الحروب الخاصة والعامة حتى امتصت دماءهم-الحروب الصليبية ، وحرب الأعوام المائة ، وحروب الوردتين ، والحروب الدينية التى اختتمت بها هذه الحروب ، ومنهم من افتقروا وخرجوا على القانون فصاروا أشرافاً من قطاع الطرق ينهبون ويقتلون كما يشاءون ؛ وتطلبت المساوئ التى نشأت من الإفراط فى الحرية سلطة موحدة تحفظ النظام فى جميع أنحاء المملكة ؛ وأوجدت التجارة والصناعة فى خارج نطاق الرابطة الإقطاعية طبقة غنية متزايدة العدد ؛ ولم يكن التجار راضين عن الضرائب الإقطاعية ، وأخطار النقل داخل الممتلكات الإقطاعية ، وأخذوا يطالبون بأن تحل حكومة مركزية محل القوانين الخاصة . وتحالف الملك مع هذه الطبقة ومع المدن الآخذة فى النماء فأخذت هذه وتلك تمده بما يحتاجه من المال لتأييد سلطانه وتوسيعه ؛ وأخذ كل من يحس بالظلم أو الأذى من الأعيان يتطلع إلى الملك لينقذه ويرد الأذى عنه . وكان كبار الملاك من بين رجال الكنيسة أتباعاً للملك عادة وأوفياء له ، كذلك كان البابوات يجدون أن اتصالهم بالملك أيسر من اتصالهم بالأشراف المتفرقين الذين لا يستمسكون كل

الاستمساك بالقانون ، ولم يمنعهم من هذا الاتصال كثرة ما كان يحدث بينهم وبين الملوك من نزاع . واستطاع ملوك فرنسا وإنجلترا تؤيدهم هذه القوى المختلفة أن يجعلوا سلطتهم وراثية بعد أن كانت بالانتخاب ؛ وكانت وسيلتهم إلى هذا أن يتوج الواحد منهم ابناً أو أخاً له قبل وفاته ، وارتضى الناس هذه الملكية الوراثية بديلا من فوضى الإقطاع ؛ كذلك كان تحسين سبل الاتصال وازدياد تداول النقد مما جعل فرض الضرائب المنتظمة مستطاعاً ، وأمكن الملك بفضل موارده المتزايدة أن يحصل على ما يلزمه من المال لتقوية جيشه وزيادة عدده ؛ وانضمت طبقة رجال القانون الناشئة إلى العرش وقوته بفضل ما فى القانون الرومانى الذى عاد إلى الحياة من نزعة نحو المركزية ؛ فلم يحل عام ١٢٥٠ حتى أيد علماء القانون حق الملك فى أن يبسط سلطانه القضائى على كل من فى مملكته ، وحتى كان جميع الفرنسيين يقسمون يمين الولاء لمليكهم لا لسيدهم الإقطاعى . وبهذا كان لفليب الجميل فى آخر القرن الثالث عشر من القوة ما أمكنه من إخضاع أشراف بلاده ، بل وإخضاع البابوية نفسها ، لسلطانه .

وخفف ملوك فرنسا على أشراف بلادهم مرارة هذا الانتقال بمنحهم ألقاباً وامتيازات فى بلاطهم تعوضهم عن حقهم الخاص فى سك النقود ، وإصدار الأحكام القضائية ، وشن الحروب ؛ فكان كبار أتباعه يؤلفون هاشية الملك Curia regis ، وأصبحوا بذلك رجال بلاط لا أصحاب صولة ، واستحالت مراسم قصور الأعيان شيئاً فشيئاً إلى خدمات رسمية يقومون بها فى مجالس الملك ، وحول مائدته ، وفى غرفة نومه . وكان أبناء الأعيان وبناتهم يرسلون إلى قصر الملك ليخدموه أو ليخدموا الملكة بأن يكونوا خدما خصوصيين أو وصيفات ، وليتعلموا آداب البلاط ، وبذلك أصبح قصر الملك مدرسة لأبناء الأشراف

وكانت خاتمة الحفلات وأعظمها هى حفلة تتويج ملك فرنسا فى ريمس أو إمبراطور ألمانيا فى آخن أو فرانكفورت ، فنى هذه الحفلات كان صفوة الأعيان من جميع البلاد يجتمعون فى أثوابهم وعدتهم الفخمة الرهيبة ، وكانت الكنيسة تستخدم كل ما فى شعائرها من خفاء وجلال لإحاطة تتويج الحاكم الجديد بجميع مظاهر المجد والجلال ، وبهذا أضحت سلطة الملك سلطة إلهية ، لا يستطيع أحد أن يعارضها وإلا عد خارجاً صراحة على الدين . وأقبل الملاك الإقطاعيون على بلاط الملك الذى أخضعهم لسلطانه ، وأسبغت الكنيسة حقاً إلهياً على الملوك الذين حطموا زعامتها وسلطانها على أوربا بعد ذلك الوقت .

الفصل الثالث

شريعة الإقطاع

كانت العادات والشرائع فى الغالب شيئاً واحداً فى نظام الحكم الإقطاعى حيث كان القضاة والقائمون بتنفيذ القانون المدنى عادة أميين . فإذا ما ثارت مشكلة خاصة بالقانون أو العقاب ، سئل أكبر أعضاء المجتمع سناً عما جرت به العادة فى هذه المشكلة أيام شبابهم ، ولهذا كان المجتمع نفسه المصدر الرئيسى للقوانين . نعم إنه كان فى مقـــدور الشريف أو الملك أن يصدر الأوامر ، ولكن هذه الأوامر لم تكن قوانين ، وإذا ما طلب إلى الناس أكثر مما تجيزه العادات حالت بينه وبين مطالبه مقاومة الشعب عامة جهرة أو صمتاً[٤٣] . وكان لفرنسا الجنوبية قانون مكتوب ورثته عن الرومان ، أما فرنسا الشمالية حيث كان الإقطاع أكثر تغلغلا منه فى الجنوب ، فقد احتفظت فى الأغلب الأعم بشرائع الفرنجة ، ولما أن دونت هذه القوانين أيضاً فى القرن الثالث عشر ، أضحى تغييرها ، الذى كان من قبل صعباً ، أشد صعوبة مما كان ، ونشأت مائة قصة قضائية للتوفيق بين هذه القوانين وبين الحقيقة الواقعة .

وكان قانون الملكية الإقطاعى قانوناً فذاً معقداً ، يقر ثلاثة أشكال للملكية العقارية : (١) الملكية المطلقة غير المشروطة بشرط ما . (٢) الالتزام وهو منح غلة الأرض لا ملكيتها لتابع إقطاعى بشرط أداء الخدمة المفروضة على الشريف. و(٣) الإيجار — وهو الذى تعطى به غلة الأرض لرقيق الأرض أو مستأجرها على شريطة أن يقوم بأداء الالتزامات الإقطاعية . وكان الملك وحده حسب النظرية الإقطاعية هو الذى يستمتع بالملكية المطلقة ، أما كل من عداه ، ومنهم أسمى الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا

عنها الخدمة الواجبة . كذلك لم تكن ملكية السيد الإقطاعى للأرض مقصورة عليه وحده ، بل كان لكل واحد من أبنائه حق موروث فى أرض الآباء ، وكان له أن يحول دون بيعها(٤٤) . وكانت العادة المألوفة أن تؤول الأرض إلى أكبر الأبناء الذكور ، ذلك بأن هذه العادة التى لم تكن معروفة فى القانون الرومانى أو قوانين الأمم المتبربرة أصبحت موائمة لظروف النظام الإقطاعى ، لأنها تضع شئون الحماية العسكرية والإشراف الاقتصادى فى يد رئيس واحد ، يفترض فيه أنه أنضج أبناء الأسرة عقلا . أما الذكور الأصغر منه سناً فكانوا يشجعون على المغامرة لتملك ضياع أخرى فى أراضى غير أرض آبائهم ؛ وكان القانون الإقطاعى ، رغم ما فرضه على الملكية من قيود ، لا يقل عن أى قانون سواه احتراماً للملكية وقسوة فى عقاب من يعتدون على حقوقها . مثال ذلك أن أحد القوانين الألمانية كان ينص على أن من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التى تمسك أحد الجسور « يشق بطنه ، وتنتزع أمعاؤه ، وتلف حول القطع الذى أحدثه » ؛ وكان فى وستفاليا قانون ظل معمولا به حتى عام ١٤٥٤ يقضى بأن من يرتكب جريمة إزالة أحد معالم حدود أرض جاره ، يدفن فى الأرض إلى ما تحت رأسه ، ثم تسلط عليه أثوار ورجال لم يسبق لهم أن حرثوا أرضاً يحرثون رأسه ، « وللرجل الدفين أن ينقذ نفسه بخير وسيلة يستطيعها »(٤٦) .

وكانت الإجراءات القضائية فى القانون الإقطاعى تتبع فى الأغلب الأعم قوانين البلاد الهمجية ، وتعمل لاستبدال العقوبات القانونية العامة بالثأر الفردى . وكانت الكنائس ، والأسواق العامة ، « ومدن الالتجاء » تمنح حق الأماكن الحرم ؛ وكان من المستطاع بفضل هذه القيود أن يوقف الانتقام حتى يتدخل القانون فى الأمر . وكانت محاكم الضياع تنظر القضايا التى تقوم بين مستأجر ومستأجر ، أو بين مستأجر وسيد ؛ أما المنازعات التى تثور بين سيد وتابع له ، أو بين سيد وسيد ، فكانت تعرض على محلفين « من أعيان البارونية » وهم رجال

يجب ألا يقلوا فى المنزلة عن الشاكى نفسه[٤٧] ، وأن يكونوا تابعين للإقطاعية نفسها ، وممن يجلسون معه فى بهو إقطاعى واحد . وكانت محاكم الأسقفيات أو الأديرة تنظر فى قضايا رجال الدين ، أما الاستئناف الأعلى فكان يرفع إلى المحكمة الملكية المؤلفة من أعيان الدولة ، وكان يرأسها الملك نفسه أحياناً . وكان المدعى والمدعى عليه أمام محاكم الضياع يحبسان حتى يصدر الحكم فى قضيتهما . وكان المدعى الذى يخسر القضية المرفوعة أيا كان نوعها يعاقب بنفس العقوبة التى توقع على المدعى عليه إذا ثبتت عليه التهمة . وكانت الرشوة شائعة فى جميع المحاكم[٤٨] .

وظل التحكيم الإلهى معمولا به طوال عهد الإقطاع . وقد حدث فى عام ١٢١٥ أن فرض الاختبار بالحديد المحمى على بعض الخارجين على الدين فى كمبريه Cambrai ؛ فلما أصيبوا بحروق سيقوا إلى القائمة التى يشد إليها من يحرقون ، ولكن أحدهم أعفى من العقوبة ، كما يقولون ، لأنه أقر بذنبه ، فشفيت يده من فوره ، ولم يبق فيها أثر للحروق . وكان انتشار الفلسفة فى خلال القرن الثانى عشر ، وإقبال الناس من جديد على دراسة القانون الرومانى ، من أسباب كراهية الناس لهذا « التحكيم الإلهى » . واستطاع البابا إنوسنت الثالث أن يقنع مجلس لاترن الرابع فى عام ١٢١٦ بإلغاء هذا النوع من المحاكمة إلغاء تاماً ، وأدخل هنرى الثالث هذا الإلغاء فى القانون الإنجليزى (١٢١٩) ، كما أدخله فردريك الثانى فى قانون نابلى (١٢٣١) ؛ أما فى ألمانيا فقد ظلت الاختبارات القديمة معمولا بها حتى القرن الرابع عشر ؛ وقاسى سفنرولا Savonarola التحكيم الإلهى بالنار عام ١٤٩٨ فى فلورنس ، وعاد هذا التحكيم إلى الوجود فى محاكمة الساحرات فى القرن السادس عشر[٤٩] .

وشجع نظام الإقطاع السنَّة الألمانية القديمة ، سنة المحاكمة بالاقتتال ، وكانت هذه السنّة وسيلة للإثبات من ناحية ، وبديلا من الثأر الفردى من ناحية أخرى .

وأعاد النورمان هذه السنّة إلى بريطانيا بعد أن أهملت فى عهد الأنجليسكسون ، ثم ظلت ثابتة فى سجل القانون الإنجليزى حتى القرن التاسع عشر[٥٠] .
ومما يذكر فى هذا الصدد أن فارساً يدعى هرمان Hermann اتهم فارساً آخر يدعى جاى Guy بالاشتراك فى اغتيال تشارلس الصالح Charles the Good ملك فلاندرز ؛ فلما أنكر جاى التهمة دعاه هرمان إلى مبارزة قضائية ، وظل الرجلان يتقاتلان عدة ساعات ، حتى فقد كلاهما جواده وخسر سلاحه ، فانتقلا من المبارزة إلى المصارعة ، واستطاع هرمان أن يبرهن على عدالة التهمة بانتزاع خصيتى جاى من جسمه ، ويموت جاى بتأثير هذا الانتزاع[٥١] . ولعل الإقطاعيين قد استحوا من هذه العادات الهمجية ففرضوا قيوداً على حق المبارزة ظلت تتراكم على مدى الأجيال ؛ فكان يطلب إلى المدعى إذا أراد أن يحصل على حق الدعوة إلى المبارزة أن يتقدم بقضية مرجحة الكسب ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض القتال إذا أثبت أنه كان فى غير مكان الجريمة حين وقوعها ؛ ولم يكن لرقيق أرض أن يبارز حراً ، أو مجذوم أن يبارز سليماً ، أو ابن غير شرعى أن يبارز ابناً شرعياً ، وقصارى القول أنه لم يكن يصح لشخص أن يبارز إلا شخصاً مساوياً له فى مرتبته . وكانت قوانين بعض المجتمعات تمنح المحكمة حق منع أية مبارزة قضائية متى شاءت ؛ وكان رجال الدين ، والنساء ، والمصابون بأية عاهة جسمية يعفون من المبارزة ، ولكنهم كان لهم أن أن يختاروا « أبطالا » — أى مبارزين بارعين — ينوبون عنهم فى المبارزة .
ولذلك نسمع منذ القرن العاشر عن أبطال مأجورين يحلون محل الذكور المبارزين وإن كانوا صحيحى الأجسام ، ذلك بأنه إذا كان الله سيقضى فى الأمر حسب عدالة التهمة فقد يبدو أن شخصية المقتتلين لا شأن لها بهذا القضاء . وقد عرض أتو الأول مسألة عفة ابنته ، والنزاع القائم حول وراثة بعض الضياع ، ليفصل فيها أبطال مبارزون[٥٢] ، وكذلك لجأ ألفنسو العاشر ملك قشتالة إلى هذا النوع من المبارزة ليقرر هل يعمل بالقانون الرومانى فى

مملكته[٥٣] وكانت السـفارات تزود أحياناً بالأبطال المبارزين ليكونوا حاضرين إذا نشب نزاع دبلوماسى يجوز الفصل فيه بالمبارزة . وظل أبطال من هذا النوع يظهرون فى الاحتفال بتتويج ملوك الإنجليز حتى عام ١٨٢١ ؛ وقد أصبحوا قبل ذلك التاريخ من مخلفات الماضى ذوات الشكل الجميل ، ولكن هذا البطل المبارز كان يفترض فيه فى العصور الوسطى أن يلقى قفازه على الأرض ، ويعلن بصوت عال استعداده للمبارزة للدفاع عما للملك من حق إلهى فى تاجه[٥٤] .

وكان الالتجاء إلى الأبطال مما يحط من شأن المحاكمة بالاقتتال ، ولهذا حرمته الطبقات الوسطى الناشئة فى التشريعات العامة ، واستبدلت به فى القرن الثالث عشر القانون الرومانى فى أوربا الجنوبية ، وكثيراً ما نددت به الكنيسة ، وحرمه إنوسنت الثالث تحريماً قاطعاً (١٢١٥) ، ومنعه فردريك الثانى من أملاكه فى نابلى ؛ وألغاه لويس التاسع فى الأقاليم الخاضعة لحكمه خضوعاً مباشراً (١٢٦٠) ؛ وحرمه فليب الجميل (١٣٠٣) فى جميع أنحاء فرنسا . هذا والمبارزة لا تستمد أكبر أسباب نشأتها من الاقتتال القضائى بقدر ما تستمده من حق الناس القديم فى أن يثأروا لأنفسهم ممن يعتدون عليهم .

وكانت العقوبات الإقطاعية قاسية قسوة وحشية ، فكانت الغرامات لا يحصى لها عدد ، وكان السجن يستخدم وسيلة لحجز المتقاضين أكثر مما يستخدم عقاباً للمذنبين ، ولكن السجن كان فى حد ذاته تعذيباً للمسجون لما كان فى حجراته من حشرات ، وجرذان ، وأفاع[٥٥] ؛ وكان يحكم أحياناً على الرجال والنساء بالخناك أو الصلب علناً ، وأن يجعل المعاقب هدفاً لسخرية الجماهير ، أو يقذف بالطعام الفاسد أو يرجم بالحجارة ؛ وكان كرسى الاعتراف يتخذ عقاباً لمن يرتكبون بعض الجرائم أو الثرثارين أو النساء الساقطات ، فكان من يحكم عليهم بهذا العقاب يشدون إلى كرسى يربط بزافعة طويلة ثم يغرق بهم الكرسى فى مجرى مائى أو بركة . وكان الأشـداء من المذنبين يحكم عليهم أحياناً بالعمل فى السفن ،

فكانوا يساقون إليها عراة ، ولا ينالون إلا القليل من الطعام الذى لا يغنى من جوع ، ويشدون إلى المقاعد ثم يرغمون على التجذيف فيها حتى تخور قواهم ، فإذا امتنعوا أو توانوا جلدوا أشد الجلد وأقساه . وكان الجلد بالسوط أو العصا من العقوبات العادية . وكان جسم المذنب ووجهه أحياناً — يكوى ليوسم بحرف ما يرمز للجريمة . وكان الحنث فى الأيمان والتجديف يعاقبان أحياناً بحرق اللسان بقطعة من الحديد المحمى . وكان بتر الأعضاء أمراً مألوفاً ، فكانت اليدان ، أو القدمان ، أو الأذنان ، أو الأنف تقطع ، والعينا تسملان ، وكان من الوسائل التى لجأ إليها وليم الفاتح لمكافحة الجرائم « ألا يقتل إنسان أو يشنق لجريمة ارتكبها ، بل أن تفقأ عيناه ، وأن تقطع يداه ، وقدماه ، وخصيتاه ، حتى إذا ما بقى شىء من جسمه كان ذلك الشىء الباقى دليلا على جميع جرائمه وجوره »(٥٦) . وقلما كان التعذيب من العقوبات المعمول بها فى العصور الوسطى ، وإن كانت الشرائع الرومانية والكنسية قد أعادته إلى الوجود فى القرن الثالث عشر . وكان القتل والسرقة يعاقب عليهما أحياناً بالنفى ، وكان أكثر ما يعاقبان به هو قطع الرأس أو الشنق ، وكان عقاب القاتلات أن يدفن وهن على قيد الحياة(٥٧) . ويمكن عقاب الحيوان الذى يقتل آدميا بدفنه حياً أو بشنقه . وكانت المسيحية تدعو إلى الرأفة ، ولكن المحاكم الكنسية كانت تعاقب على الجرائم بنفس العقوبات التى توقعها المحاكم المدنية ؛ من ذلك أن محكمة دير سانت چنڤييڤ St. Geneviève حكمت بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة عقاباً لهن على السرقة(٥٨) : وبعد فلعل كبح جماح الخارجين على القانون فى العصور الهمجية ، كان يحتاج إلى تلك العقوبات الوحشية ، ولكن هذه العقوبات الوحشية نفسها بقيت حتى القرن الثامن عشر ، ولم تكن شر أنواع التعذيب هى التى يفرضها الأشراف على القتلة بل كانت هى التى يفرضها الرهبان المسيحيون على الأتقياء المارقين .

الفصل الرابع

الحروب الإقطاعية

نشأ الإقطاع ليكون نظاماً عسكريا لمجتمع زراعي غير مطمئن على نفسه ؛ وكانت فضائله حربية أكثر منها اقتصادية . وكان ينتظر من سادة الإقطاع وأتباعهم أن يدربوا أنفسهم على الحرب وأن يكونوا فى كل لحظة من اللحظات مستعدين لترك المحراث وانتضاء السيف .

وكان جيش الإقطاع هو الأداة الحكومية الإقطاعية ، تنظمه روابط الولاء الإقطاعي وينقسم انقساماً دقيقاً إلى طبقة فوق طبقة حسب درجات الشرف والمنزلة ؛ فالأمير ، والمركيز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورئيس الدير ، هم رؤساء الفرق ، وكان الفرسان Knights أو Chevaliers هم راكبي الخيل ، وكان الأتباع هم خدم البارونات أو الفرسان ، وكان حملة السلاح men-at-arms — الجيش المرابط فى المقاطعات أو القرى — يحاربون مشاة ، وكان من وراء الجيش الإقطاعي ، كما نراه فى الحروب الصليبية ، حشد من الخدم Varlets يتبعون الجند سيراً على الأقدام من غير نظام ولا قواد ، وكانوا يساعدون الجيوش على انتهاب المغلوبين ، ويريحون المعذبين ممن يسقطون فى حومة الوغى ، والجرحى من الأعداء بأن يجهزوا عليهم ببلطهم الحربية أو عصيهم الغليظة(٥٩) . ولكن الجيش الإقطاعي كان فى جوهره وأساسه هو الفارس مكرراً ، ذلك أن المشاة قد فقدوا منزلتهم العليا بعد معركة هدريانوبل (٣٧٨) ، ولم يستعيدوا هذه المنزلة إلا فى القرن الرابع عشر ، وكان الفرسان هم عماد الفروسية ، وكان اسمهم وكل ما يتصل به من الأسماء الأخرى Cavalry ، Chivalry ، Caballero ، Chevalier ، Cavalier مشتقاً من اسم الفرس .

وكان المحارب فى عهد الإقطاع يستخدم الحربة ، والسيف ، والقوس ، والسهم . وقد مد الفارس نفسه ووسع دائرتها حتى شملت سيفه ، وأطلق عليه اسما ينم على إعزازه وحبه ، وإن كان مما لا شك فيه أن الشعراء القصاصين هم الذين أطلقوا على سيف شارلمان اسم « المبتهجة » Joyeuse وعلى سيف رولان دورندل Durandel ، وعلى سيف الملك آرثر اسم Excalibur . وكان للقوس عدة أشكال فقد تكون قوسا بسيطة قصيرة ، تشد عند الصدر ، وقد تكون قوساً طويلة تشد نحو العين والأذن ، وقد تكون قوساً متقاطعة يشد وترها فى محز بمقبضها ، ثم تطلق فجأة ، وقد يستخدم أحيانا زند فى إطلاقها ، وتنطلق منها قذيفة من الحديد أو الحجر . وكانت القوس المتقاطعة أداة قديمة العهد ، أما القوس الطويلة فكان أول من اشتهر باستعمالها إدورد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) فى حروبه مع أهل ويلز . وكانت الرماية أهم عناصر التدريب العسكرى فى انجلترا كما كانت من أهم العناصر فى ألعاب الفروسية . وكان تطور القوس وإتقانها بداية تدهور النظام الإقطاعى من الناحية العسكرية ، ذلك أن الفارس كان يستنكف أن يحارب راجلا ، ولكن الرماة كانوا يقتلون جواده ، ويرغمونه على أن ينزل إلى الأرض التى لا تتفق وطبيعته . ووجهت آخر الضربات إلى الإقطاع فى القرن الرابع عشر بعد اختراع البارود والمدافع ، فقد أمكن بهما قتل الفارس المدرع وتدمير قصره من مساحة لا سلطان للفارس عليها لبعده عنها .

وإذ كان للمحارب الإقطاعى جواد يحمله ، فقد كان يسعه أن يثقل نفسه بالدروع ، ولهذا كان الفارس الكامل العدة فى القرن الثانى عشر يغطى جسمه بالزرد من عنقه إلى ركبتيه — تستره شبكة ذات أكمام لذراعيه ، وقلنسوة من الحديد تغطى كل رأسه عدا عينيه ، وأنفه ، وفمه ؛ وكانت ساقاه وقدماه تغطى بدروع من الزرد خاصة بها . فإذا كان فى الحرب غطى رأسه فضلا عن غطائه السالف الذكر بخوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمى أنفه . وظهرت فى

القرن الرابع عشر البيضة ذات الحافة الأمامية البارزة ، والدرع المصنوع من الصفائح المعدنية لحماية الفارس من القوس الطويلة أو المتقاطعة ، وبقيتا حتى القرن السابع عشر ؛ ثم بطل استعمال الدروع كلها تقريبا ليكون المحارب سريع الحركة . وكان للفارس ترس معلق فى عنقه ، يقبض عليه بيده اليسرى من سيور مثبتة فى سطحه الداخلى ، وكان هذا الترس يصنع من الخشب ، والجلد ، والأربطة الحديدية ، ويزدان فى وسطه بمشبك من الحديد المذهب ، وهكذا كان الفارس فى العصور الوسطى قلعة متحركة .

وكانت الحصون عادة هى أهم وسائل الدفاع وأجداها فى الحروب الإقطاعية . فكان فى وسع الجيش الذى يهزم فى ميدان القتال أن يجد له ملجأ داخل أسوار بيت الشريف ، وكان فى وسعه أن يقف من العدو وقفته الأخيرة داخل البرج . واضمحل علم الحصار فى العصور الوسطى لأن ما يلزم لدك أسوار الأعداء من تنظيم وعدد كان أغلى وأشق من أن يطيقه الفرسان أصحاب المكانة العالية ، ولكن فن المدمز والجندى الملغم ظل باقيا فى تلك العصور . كذلك قل شأن الأساطيل فى عالم كانت النزعة الحربية فيه أقوى مما تحتمله موارده . وقد ظلت السفائن الحربية شبيهة بسفائن الأقدمين — تحمل فوق سطوحها أبراج القتال ، ويدفعها بالمجاذيف الرجال الأحرار أو الأرقاء المشدودون إليها . وكان ما ينقص الرجل أو السفينة من القوة يستعاض عنه بالزينة ، فكان بناء السفن والفنانون فى العصور الوسطى يضعون على خشب السفينة طبقة من القار تقيه من تأثير الماء والهواء ، ثم يطلونها من فوقه بالألوان الزاهية الممتزجة بالشمع — بيضاء أو قرمزية أو زرقاء فى لون ماء البحر الشديدة الزرقة ، وكانوا يذهّبون جؤجؤها وأسيجتها ، ويقيمون فى مقدمها ومؤخرها تماثيل لأناس ، وحيوانات ، وآلهة . وكانت الأشرعة تلون بألوان زاهية ، بعضها أرجوانى ، وبعضها ذهبى ، وكانت سفينة السيد تنقش عليها شارة درعه .

وتختلف حروب العصور الوسطى عن الحروب القديمة والحديثة فى كثرة

عددها ، وقلة نفقاتها وعدد من يقتلون فيها . فأما كثرة العدد فكان سببها أن كل سيد كان يدعى لنفسه حق محاربة كل رجل لا تربطه به روابط الإقطاع ، كان كل ملك حراً فى أن يعمد إلى السرقة الشريفة سرقة أراضى غيره من الحكام . وإذا ذهب الملك أو الشريف إلى الحرب ، كان على أتباعه وأقاربه حتى الطبقة السابعة أن يتبعوه ويقاتلوا معه أربعين يوماً ، ولا يكاد يوجد يوم من أيام القرن الثانى عشر لم تكن فيه حرب فى جزء من أجزاء البلاد المعروفة الآن باسم فرنسا ، وكان أسمى ما يبلغه الفارس من الصفات أن يكون محارباً بارعاً ، وكان ينتظر منه أن يكيل أو يتلقى الضربات القوية فى سرور أو جلد ، وكانت أعظم أمنية له أن يموت ميتة المحارب فى « ميدان الشرف » ، لا « ميتة الأبقار » فى الفراش[٦٠] ، ولقد شكا برثولد الراتسبونى Berthold of Ratisbon من « قلة عدد السادة الذين يصلون إلى السن الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة »[٦١] ولكن راتسبون هذا كان من الرهبان .

ولم تكن الحرب شديدة الخطورة ، فهاهو ذا أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis يصف معركة بريمول Brémule (١١١٩) بقوله إنه « لم يقتل إلا ثلاثة من الفوارس التسعمائة الذين كانوا يحاربون »[٦٢] ، وقد أسر أربعمائة فارس فى معركة تنشبريه Tinchebrai (١١٠٦) ، التى كسب فيها هنرى الأول ملك إنجلترا بلاد نورمندية ، ولكن فارساً واحداً لم يقتل من فرسان هنرى . وفى واقعة بوڤين Bouvine (١٢١٤) وهى من الوقائع الحاسمة التى كانت أشد معارك العصور الوسطى هولا قتل مائة وسبعون فارساً من الألف والخسمائة الذين اشتركوا فى القتال[٦٣] . وكانت الدروع والقلاع تجعل الميزة فى الحرب للدفاع ؛ فقد كان من الصعب أن يقتل الرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض ، ولم يكن هذا العمل مما ترضى عنه الفروسية . كذلك كان أسر الفارس وقبول فديته أدنى إلى الصواب من قتله والتعرض للانتقام الدموى ؛ وها هو ذا فرواسار

Froissart يحزنه أن قتل فى إحدى المعارك « كثيرون من الأسرى كان مستطاعاً أن يجنى من افتدائهم ٤٠٠،٠٠٠ فرنك[٦٤] » . وكانت قواعد الفروسية ، والحكمة المتبادلة بين الفرسان بعضهم وبعض ، تحض على مجاملة الأسرى ، والاعتدال فيما يطلب من الفداء ، وكان من المعتاد أن يطلق سراح الأسير إذا وعد بشرفه أن يعود ومعه فديته قبل وقت معين ؛ وقلما كان فارس يحنث فى هذا الوعد[٦٥] . وكان الفلاحون هم الذين قاسوا أشد البلاء فى حروب الإقطاع . وكان كل جيش فى فرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، يغير على أراضى أتباع عدوه وأرقاء أرضه وينهب بيوتهم ويستولى على كل ما لم يجمع من الماشية فى داخل أسواره ، وكان كثيرون من الفلاحين بعد هذه الحروب يجرون محاريثهم ، وهلك الكثيرون منهم جوعا لقلة ما أنتجته الأرض من الحبوب .

وحاول الملوك والأمراء أن يحتفظوا بالسلم الداخلية فى فترات بين الحروب ، ونجح فى هذه المحاولات الأدواق النورمنديون فى نورمندية ، وإنجلترا ، وصقلية ؛ وكونت فلاندرز فى بلاده ، وكونت برشلونة فى قطلونية ، ونجح هنرى الثالث مدى جيل من الزمان فى ألمانيا ، وفيما عدا هؤلاء كانت الكنيسة صاحبة الفضل فى تقييد الحروب ، فقد أصدرت عدة مجالس كنسية فى فرنسا بين عامى ٩٨٩ و ١٠٥٠ قراراً بتحديد « سلم إلهية » وأنذرت كل من يستخدم العنف فى الحرب مع غير المقاتلين بالحرمان من حظيرة الدين . ونظمت الكنيسة الفرنسية حركة تدعو إلى السلام فى عدة مراكز مختلفة ، وأقنعت كثيرين من الأشراف بأن يمتنعوا عن الحروب الخاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكتف بهذا بل أقنعتهم فوق ذلك أن يشتركوا معها فى تحريمها ، وقام فلبرت أسقف تشارتر Fulbert of Chartres (٩٦٠ ؟ — ١٠٢٨) يحمد الله فى ترنيمة ذائعة الصيت لوجود فترة من السلام غير عادية . ورحبت الجماهير ترحيباً حماسياً بهذه الحركة ، وأخذ الصالحون يتنبأون بأنه لن تمضى خمس سنين حتى يكون جميع سكان العالم

المسيحى قد وافقوا على برنامج السلام(٦٦) ، وأعلنت مجالس الكنيسة الفرنسية من عام ١٠٢٧ وما بعدها « هدنة الله » ، ولعلها فى هذا كانت تذكر تحريم المسلمين للحرب فى الأشهر الحرم فقالت : على الناس جميعاً أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير ، وفى موسم الحصاد وقطاف الكروم (من ١٥ أغسطس إلى ١١ نوفمبر) ؛ وفى أعياد محددة ؛ وفى جزء من كل أسبوع — كان عادة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ؛ وأجازت هذه الهدنة فى صورتها النهائية قيام الحروب الخاصة أو الحروب الإقطاعية ثمانين يوماً فى السنة . وقد أثمرت هذه النداءات والإنذارات ثمرتها ، فقضى على الحروب الخاصة شيئاً فشيئاً بتعاون الكنيسة ، وبقوة الملوك المتزايدة ، ونشأة المدن والطبقات الوسطى ، واستنفاد النشاط العسكرى فى الحروب الصليبية ؛ وأضحت هدنة الله فى القرن الثانى عشر جزءاً من القانون المدنى والقانون الكنسى فى أوربا الغربية ، وحرم مجلس لاتران الثانى (١١٣٩) استخدام العدد الحربية ضد الناس(٦٧) ، واقترح جرهوه الريخرزبرجى Gerhoh of Reichersburg أن يحرم البابا جميع الحروب بين المسيحيين بعضهم وبعض ، وأن يُعرض كل ما يشجر من النزاع بين الحكام المسيحيين على التحكيم البابوى(٦٨) . ورأى الملوك أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ هذا الاقتراح ، فكانوا يثيرون الحروب القومية أكثر من ذى قبل كلما نقصت الحروب الفردية ، وكان البابوات أنفسهم فى القرن الثالث عشر ، وهم يحركون البيادق البشرية ليظفروا بالسلطان ، كان هؤلاء البابوات يستخدمون الحرب أداة من أدوات السياسة .

الفصل الخامس

الفروسية

من العادات الألمانية القديمة عادات التعلم العسكرى ، بعد أن تأثرت بأساليب المسلمين فى بلاد الفرس ، والشام ، والأندلس وبالأفكار المسيحية المتصلة بالخشوع والأسرار المقدسة ، من هذه كلها نشأ نظام الفروسية ، وهو نظام لم يبلغ حد الكمال ولكنه نظام نبيل كريم .

كان الفارس شخصاً شريف المولد — أى ينتمى إلى أسرة تحمل لقباً شريفاً وتمتلك أرضا . ولم يكن من حق جميع أصحاب « الأصول » (أى الذين يمتازون بانتسابهم إلى أسر نبيلة) أن يختاروا فرساناً أو يحملوا هذا اللقب ؛ فالأبناء غير الابن الأكبر — عدا أبناء الملوك — لم يكن لهم فى العادة إلا أملاك قليلة لا تفى بالنفقات التى تتطلبها الفروسية ، ولهذا يبقى هؤلاء ضمن الأتباع. إلا إذا حصلوا بجهودهم على أراضى وألقاب جديدة .

وكان الشاب الذى يتطلع إلى أن يكون فارسا يخضع لنظام تأديبى شاق طويل . فكان يعمل وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره وصيفا عند أحد السادة ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة أصبح تابعاً لهذا السيد ، يقوم بخدمته على مائدة الطعام ، وفى غرفة نومه ، وفى قصر الضيعة ، وفى المثاقفة أو القتال ، ويقوى جسمه وروحه بالتمارين والألعاب الشاقة الخطرة ، ويتعلم بالتقليد والتجربة كيف يستخدم أسلحة الحرب الإقطاعية . فإذا أتم تدريبه سلك فى نظام الفرسان فى حفل يشمل مراسم رهبية يبدؤها الطالب بالاستحمام بوصفه رمزاً للتطهير الروحى ولعله كان أيضاً رمزاً للتطهير الجسمى . وكان لهذا يمكن أن يسمى « فارس الحمام » تمييزاً له من « فرسان السيف » الذين تلقوا لقب الفروسية فى ميدان

القتال جزاء عاجلا لهم على بسالتهم . وكان يرتدى فى هذا الاحتفال قميصاً أبيض ، من فوقه رداء أحمر ومعطف أسود ، يمثل أولها ما يرجى أن يتصف به من نقاء الخلق ، وثانيهما الدم الذى قد يسفكه فى سبيل الشرف أو سبيل الله ، وثالثها الموت الذى يجب أن يكون متأهباً لملاقاته بلا وجل . وكان يصوم يوماً كاملا ثم يقضى ليلة يصلى فى الكنيسة ، ويعترف بذنوبه إلى أحد القسيسين ، ثم يحضر مراسم القداس ، ويأخذ العشاء الربانى ، ويستمع إلى موعظة عن واجبات الفارس الخلقية ، والدينية ، والاجتماعية ، والحربية ، ويتعهد فى خشوع أن يؤديها كلها . فإذا فعل هذا تقدم إلى المذبح ومعه سيف يتدلى من عنقه ، فيرفع القس السيف ويباركه ويضعه مرة أخرى فوق عنقه ، ثم يلتفت الطالب إلى الشريف الجالس الذى يريد أن يتلقى منه لقب الفروسة ، فيسأله هذا السيد ذلك السؤال الصارم : « لأى غرض تريد أن تنضم إلى هذا النظام ؟ إن كنت تبغى المال ، أو الراحة ، أو الشرف ، دون أن تعمل ما يشرف الفروسية ، فأنت غير خليق بها ، وستكون منزلتك فى نظام الفروسية كمنزلة القس المتاجر بالرتب الكهنوتية فى الأسقفية . ويكون الطالب وقتئذ متأهباً لأن يجيبه برد يؤكد له استعداده للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية . وحينئذ يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وفى ذراعيه ، وقفازين من زرد فى يديه ، ومهمازين فى حذاءيه(*) . ثم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطمات بعرض السيف على عنقه أو كتفه ، وقد يلطمه لطمة أخرى على خده ، وهى كلها رموز لآخر الإهانات التى يستطيع أن يتلقاها دون أن يثأر لنفسه ، ثم يمنح رتبة الفروسية بهذه الصيغة : باسم الله ، والقديس ميخائيل ، والقديس جورج أجعلك

(*) وكان المهمازان المصنوعان من الذهب هما علامة الفارس ، والمصنوعان من الفضة علامة تابعه ، وإذ قيل عن إنسان إنه « كسب مهمازيه » (الذهبيين) كان معنى هذا أنه بلغ رتبة الفروسية .

فارساً » . ثم يتسلم الفارس الجديد حربة ، وخوذة ، وجواداً ، فيحكم خوذته على رأسه ، ويقفز فوق جواده ، ويهز حربته ، ويلوح بسيفه ، ويخرج من الكنيسة راكباً ، ويوزع الهدايا على خدمه ، ويولم وليمة لأصدقائه .

وكان من حقوقه وامتيازاته وقتئذ أن يخاطر بحياته فى البرجاس الذى يتدرب فيه أكثر من ذى قبل على المهارة ، والجد ، والجرأة . وكانت بداية البرجاس فى القرن العاشر ، وكان أكثر ما ازدهر فى فرنسا ، وهو الذى سما ببعض العواطف الثائرة وضروب النشاط التى أفسدت حياة رجال الإقطاع . وقد يدعو إليه الملك أو شريف عظيم على لسان مناد للاحتفال بتنصيب فارس ، أو زيارة مليك ، أو زواج فرد من أفراد الأسرة المالكة . وكان الفرسان الذين يرغبون فى الاشتراك فى البرجاس يأتون إلى البلدة التى سيعقد فيها ، ويعلقون أسلحتهم خارج نوافذ حجراتهم ، ويثبتون دروعهم فى جدران الحصون ، والأديرة ، وغيرها من الأماكن العامة . وكان النظارة يبحثون هذه كلها ، وكان لهم أن يتقدموا بما لديهم من الشكاوى الخاصة بما أخطأ فيه كل متقدم للاشتراك فى اللعب ، فيستمع موظفو البرجاس إلى القضية ويحكمون بعدم أهلية المذنب من المتقدمين ، وفى هذه الحالة تكون « على ترسه أو درعه لطخة » . ويفد إلى هذا الجمع الحاشد المتحفز تجار الخيول ليعدوا الفارس للبرجاس ، وبائعو الخردوات ليحلوه هو وجواده بالحلل الجميلة ، والمرابون لافتداء من يسقطون فى الحلبة ، والعرافون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والممثلون الصامتون ، والشعراء الجائلون والمغنون ، والعلماء المتنقلون ، والنساء الخليعات ، والسيدات ذوات المقام السامى . وكان الحادث كله احتفالا بهيجاً فيه الغناء والرقص ، ومواعيد اللقاء ، والمشاجرات ، والمراهنات التى لا حد لها على المباريات .

وقد يدوم البرجاس إلى ما يقرب من أسبوع ، وقد لا يدوم إلا يوما واحداً . وقد قسمت الأيام فى برجاس عقد فى عام ١٢٨٥ ، فكان يوم الأحد يوم اجتماع

وعيد ، وخصص يوما الاثنين والثلاثاء للمثاقفة ، ويوم الأربعاء للراحة ، ويوم الخميس للبرجاس نفسه الذى أطلق اسمه على الحفل بوجه عام . وكانت حلبة الصراع ميدان بلدة أو فضاء فى أحد أطرافها تحيط به من بعض نواحيه مقاعد وشرفات يشاهد منها السراة الحفل وهم مرتدون أفخر ما كان فى العصور الوسطى من حلل . أما السوقة فكانوا يشاهدون الألعاب وهم وقوف حول الحلبة ، وكانت المقاعد تزدان بالنسيج المزركش ، والبيارق المستطيلة ، والدروع المنقوش عليها شارات الأسر الشريفة . وكان الموسيقيون يبدأون المباريات بالأنغام الموسيقية ، ويحيون بالنغمات العالية أبرع ما فى السباق من ضربات . وكان النبلاء والنبيلات ينثرون النقود على السوقة الواقفين فى الميدان ، فكان هؤلاء يتلقفونها وهم يصيحون « هبات ! » و « مرحى ! » .

ويدخل الفرسان قبل المباراة الأولى حلبة البرجاس فيمشون إلى الميدان فى حللهم وعددهم الفاخرة متباهين فى خطاهم ، ومن ورائهم أتباعهم على ظهور الجياد تقودها فى بعض الأحيان بسلاسل من الفضة أو الذهب السيدات اللائى سيحارب الفرسان تمجيداً لهن . وكانت العادة المألوفة أن يحمل كل فارس ترسه ، وخوذته أو حربته ؛ ولفاعة أو قناعا ، أو دثاراً ، أو شريطاً انتزعته السيدة المختارة من ثيابها .

وكانت المثاقفة معركة فردية بين فارسين يتباريان . وكانا يعدوان بجوادبهما متقابلين ويرمى كلاهما الآخر بحربته المصنوعة من الصلب . فإذا ما اضطر أحد المتبارين أن ينزل عن جواده فإن قواعد المباراة تتطلب أن يترجل الآخر ، وبهذا تدور المعركة بينهما راجلين وتستمر حتى يصبح أحدهما طالباً وقف القتال أو يضطر إلى الخروج منه لأنه تعب ، أو جرح ، أو مات ؛ أو حتى يطلب القضاة أو الملك وقفه . ثم يمثل المنتصر أمام القضاة ، ويتلقى فى وقار جم جائزة منهم أو من سيدة جميلة . وكانت تشغل عدة أدوار من هذا النوع اليوم كله . وكان الحفل يختتم باقتتال حق يصطف فيه الفرسان المتبارون جماعات متقابلة ويقتتلون اقتتالا حقيقياً ،

وإن كان يدور فى العادة بأسلحة مثلمة ، وقد أدى قتال من هذا النوع دار فى نيوس Neuss (١٢٤٠) إلى موت نحو ستين فارساً . وفى أمثال هذه المباريات كان يؤسر البعض ، وتؤخذ الفدية ممن يؤسرون كما يحدث فى الحروب الحقيقية سواء بسواء . وكانت جياد الأسرى وأسلحتهم غنيمة للمنتصرين ، فقد كان الفرسان يحبون المال أكثر مما يحبون القتال نفسه ؛ وقد ورد فى مجموعة الأقاصيص الفرنسية التى كتبت فى فرنسا بين منتصف القرن الثانى عشر وآخر القرن الثالث عشر(*) أن أحد الفرسان احتج على تحريم الكنيسة لألعاب البرجاس وقال إن هذا التحريم إذا نفذ حرمه من الوسيلة الوحيدة التى يكسب بها عيشه(٦٩) . فإذا انتهت جميع المباريات اجتمع الأحياء من الفرسان والنبلاء من النظارة فى حفل ليلى تعد فيه الولائم ، ويدور فيه الرقص والغناء ، ويستمتع فيه الفرسان الظافرون بتقبيل أجمل النساء ، ويستمع الحاضرون إلى القصائد والأغانى التى تؤلف تخليداً لانتصارهم .

وكان يطلب إلى الفارس من الوجهة النظرية أن يكون بطلا ، وسميدعاً(**) ، وقديساً ، وإذ كانت الكنيسة حريصة على ترويض الشرسين من الفرسان ، فقد أحاطت نظام الفروسية بمراسم وأيمان دينية . فقد كان الفارس يقسم أن يكون صادقاً فى القول ، وأن يدافع عن الدين ، ويحمى الفقراء والمساكين ، وينشر لواء السلم فى ولايته ، ويقاتل الكفرة . وكان مديناً لسيده الإقطاعى بولاء يرتبط به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ؛ ويتعهد أن يكون حارساً للنساء ، مدافعاً عن عفتهن ؛ وأن يكون أخاً لجميع الفرسان يبادلهم المجاملة وضروب المساعدة . وقد

(*) هى المعروفة باسم Fabliax ويبلغ عددها نحو مائة قصة معظمها تهكمى . (المترجم)

(**) ورد فى القاموس المحيط للفيروزبادى : السميدع : السيد ، الكريم ، الشريف ، السخى ، الموطأ الأكناف ، والشجاع . ولعل هذه أقرب ترجمة لكلمة gentleman وقد وردت فى بعض أشعار المعتمد . (المترجم)

يحدث فى إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان ، فإذا أسر واحداً منهم عامله معاملة الضيف . وهكذا كان الفرسان الفرنسيون الذين أسروا فى كريسى Crécy وبواتييه يعيشون أحراراً مستمتعين بالراحة والاطمئنان فى ضياع من أسروهم من الفرسان الإنجليز ، يشتركون مع مضيفيهم فى الولائم والألعاب ؛ وظلوا كذلك حتى افتدوا[٧٠] . ورفع الإقطاع الشرف الأرستقراطى ومطالب النبل عند الفارس إلى منزلة عالية علواً لا يستطيع أن يدركه ضمير السوقة — فكان يقسم ألا يتخلى عن البسالة الحربية والوفاء الإقطاعى ، وأن يضع نفسه إلى أقصى حد فى خدمة جميع الفرسان ، وجميع النساء ، وجميع الضعفاء والفقراء . وهكذا عادت الرجولة Virtus إلى معناها الذى كان لها عند الرومان بعد أن ظلت المسيحية ألف عام تؤكد الفضائل النسائية ؛ وبهذا كانت الفروسية ، رغم هالتها المسيحية ، انتصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ المسيحية ، ولقد كانت أوربا التى توالت عليها الهجمات من كل ناحية فى مسيس الحاجة إلى الروح الحربية مرة أخرى .

على أن هذا كله كان هو الفروسية من الوجهة النظرية ؛ وكان عدد قليل من الفرسان يستمسكون به فى حياتهم ، كما كان عدد قليل من المسيحيين يسمون إلى المستوى الرفيع الشاق من إنكار الذات . ولكن الطبيعة البشرية التى ولدت بين الغابات والوحوش قد لوثت هذا المثل الأعلى وذاك ، فهذا البطل الذى قاتل يوماً ما ببسالة فى ألعاب البرجاس أو فى ميدان القتال قد يكون فى يوم آخر سفاحاً غادراً ؛ وقد يفخر بشرفه كما يفخر بالريشة التى فى خوذته ، ويفعل ما فعله لانسلو Lancelot ، وترسترام Tristram ، وغيرهما ممن هم أكثر تأصلا فى الفروسية فيحطم بالزنى الأسر الطيبة . وقد يتشدق بحماية الضعفاء ، ثم يقتل الفلاحين العزل بحد السيف ؛ وكان يعامل العامل اليدوى الذى يعتمد عليه حصنه ومجده معاملة ملؤها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التى أقسم أن يعزها ويحميها بغلظة

فى كثير من الأحيان وبوحشية فى بعضها[٧١] . وقد يستمع إلى الصلاة فى الصباح ، ويسطو على كنيسة فى آخر النهار ، ويشرب حتى يفقد وعيه فى المساء . وهذا ما وصف به جلداس Gildas الفرسان البريطانيين الذين كان يعيش بينهم فى القرن السادس ، وهو القرن الذى يرى بعض الشعراء أن آرثر Arthur « والطبقة العظيمة من فرسان المائدة المستديرة » كانوا يعيشون فى خلاله[٧٢] . وكان الفارس يتحدث عن الولاء والعدالة ولكنه يملأ صفحات فرواسار Froissart بالغدر والعنف . وبينا كان الشعراء الألمان يتغنون بالفروسية ، تراهم لا ينقطعون عن اللكمات ، وإحراق الدور ، وقطع الطريق على المسافرين البريئين[٧٣] . ولقد دهش المسلمون من فظاظة الصليبيين وقسوتهم ، وحتى بوهمند Bohemund العظيم نفسه ، لما أراد أن يظهر احتقاره لإمبراطور الروم ، بعث له ببضاعة من الأنوف والإبهامات المقطعة[٧٤] . لقد كان هؤلاء شواذ ولكنهم كانوا كثيرين . ولسنا ننكر أن من السخف أن ننتظر من الجنود أن يكونوا قديسين ، ذلك أن إجادة التقتيل تتطلب فضائلها الفذة ، وهؤلاء الفرسان الغلاظ هم الذين طردوا الصقالبة من ضفاف نهر الأودر ، والمجر من إيطاليا وألمانيا ، وهم الذين روضوا أهل الشمال فكانوا هم النورمان ، وجاءوا بالحضارة الفرنسية إلى إنجلترا على شفار السيوف ، فكانوا ما لا بد أن يكونوا .

وكان ثمة عاملان هما اللذان خففا من همجية الفروسية ، ونعنى بهما النساء والمسيحية ، فأما المسيحية فقد أفلحت إلى حد ما فى تحويل تيار الخصام فى الفروسية إلى الحروب الصليبية ، ولعلها استمدت العون فى هذا التحويل من عبادة مريم العذراء أم المسيح ، فقد رفعت هذه العبادة منزلة الفضائل النسائية فخفضت بذلك من حدة تحمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء اللائى يعشن على ظهر الأرض ، واللائى لهن تأثير كبير فى الحواس وفى الأرواح ، قد كان لهن أثر أكبر من أثر مريم العذراء فى تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم

الأخلاق . وكثيراً ما حرمت الكنيسة ألعاب البرجاس ، ولكن الفرسان كانوا يغفلون أوامرها ويظهرون ابتهاجهم بهذا الإغفال ، وكانت النساء يحضرنه ، ولم يكن الفرسان يتجاهلون وجودهن ؛ وكانت الكنيسة غير راضية عن الدور الذى تضطلع به النساء فى حفلات البرجاس وفى الشعر ، وقام الصراع بين أخلاق السيدات النبيلات وبين التعاليم الأخلاقية التى تدعو إليها الكنيسة ، وانتصرت السيدات وانتصر الشعراء فى صراع عالم الإقطاع .

لقد وجد الحب العذرى ، الحب الذى يجعل من المحبوب مثلا أعلى ، فى كل عصر من العصور على الأرجح ، وكان فى شدته يتناسب إلى حد ما مع ما يوضع من العقبات وما يمضى من الزمن بين الشهوة وإشباعها . وقلما كان هذا الحب من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر سبب الزواج ، وإذا ما وجدنا هذا الحب منفصلا كل الانفصال عن الزواج فى عصر ازدهار الفروسية ، وجب علينا أن نعد هذه الحال أقرب إلى الطبيعة وإلى الأحوال السوية من أحوالنا الحاضرة . لقد كانت النساء فى معظم العصور ، وبخاصة فى عصر الإقطاع ، يتزوجن الرجال لما لديهم من مال ، ويعجبن بغير أزواجهن لما يتمتعون به من سحر وجمال . وكان الشعراء لفقرهم يتزوجون من الطبقات الدنيا ويحبون من طبقات بعيدة المنال ، ويتوجهون بأجمل أغانيهم إلى السيدات اللاتى لا يرجون أن يصلوا إليهن . وكان الفارق بين المحب وحبيبه فى العادة كبيراً إلى درجة يرى معها الناس أن أحفل الشعر بالعواطف الجياشة لا يعدو أن يكون تحية ظريفة للمحبوب . وكان السيد الإقطاعى المهذب يكافئ الشعراء الذين يتشببون بزوجته ؛ وشاهد ذلك أن الفيكونت ڤو Vaux ظل يستضيف الشاعر پير ڤيدال Peire Vidal بعد أن تغزل ثير بامرأته — بل بعد أن حاول أن يغويها[٧٥] — وإن كانت هــذه درجة من المجاملة لا يضح للشعراء عادة أن يجرؤوا عليها . وكان الشاعر المحب يرى أن الزواج ، إذ يتيح أكبر فرصة للمتعة بأقل قدر من الإغراء ، قلما يوجد الحب

العذرى أو يستبقيه بعد أن يوجد ؛ ويبدو أن دانتى التقى نفسه لم يحلم قط بأن يقرض الشعر الغزلى فى زوجته ، ولم يجد ما يعيبه فى التغزل بغيرها من النساء المتزوجات منهن وغير المتزوجات . وكان الفارس يرى ما يراه الشاعر من أن حب الفارس يجب أن تختص به سيدة أخرى غير زوجته ، وكانت هذه السيدة عادة زوجة فارس آخر(٧٦) . وكان معظم الفرسان يسخرون من هذا الحب العذرى ، ويعودون بعد وقت ما إلى أزواجهم ، ويسلون أنفسهم بالحروب . وقد نسمع عن فرسان يصمون آذانهم عن نداء النساء اللائى يعرضن عليهم حبهن العذرى(٧٧) . ولقد مات رولان Roland ، كما تحدثنا الأغنية Chanson وهو لا يكاد يفكر فى خطيبته أود Aude التى كادت تموت من الحزن حين جاءها خبر وفاته . كذلك لم يكن حب النساء كله حبا عذريا ؛ ولكن جرى العرف الذى كان متبعاً عند الكثيرات منهن أن يكون للسيدة حبيب ، أفلاطونى أو بيرونى(*) Byronic ، مضافا إلى زوجها . وإذا جاز لنا أن نصدق روايات الحب التى كتبت فى العصور الوسطى قلنا إن الفارس كان يقسم بأن يقوم بخدمة السيدة التى أعطته لونها(**) ليلبسه أو بأداء الواجب الذى يفرضه عليه حبها . وكان لها أن تفرض عليه مغامرات خطرة لتمتحن حبه أو لتبعده عنها ؛ وإذا ما قام بخدمتها على الوجه الأكمل كان المنتظر منها أن تكافئه على خدمته بعناق أو بما هو خير عنده من العناق ؛ ذلك هو « الجزاء » الذى كان يطلبه . وكان يوجه إليها كل ما يقوم به من أعمال حربية مجيدة ، وكان اسمها هو الذى يناديه فى ساعات القتال الحرجة ، أو حين يلفظ آخر أنفاسه . وتلك حالة أخرى من الحالات التى لم يكن فيها الإقطاع جزءا من المسيحية ، بل كان نقيضها ومنافسها . ذلك أن النساء اللاتى كن من الوجهة

(*) الحب الأفلاطونى معروف أما الحب البيرونى فنسبة إلى الشاعر الإنجليزى بيرون صاحب الحب الشهوانى الذى لم يكن يستحى منه ، وكان يقول إنه إنما يفعل جهرة ما يفعله غيره فى الخفاء . (المترجم)

(**) أى الشارة ذات اللون الخاص بها . (المترجم)

النظرية مقيدات فى حبهن بقيود شديدة ، قد أكدن بهذه الطريقة حقهن فى الحرية ، وشكلن بأنفسهن قانونهن الأخلاقى . وأخذت عبادة المرأة الشهوانية تنافس عبادة مريم العذراء الروحية ؛ ونودى بالحب على أنه أساس مستقل تقدر به قيم الناس ، وأوجد مثلا عليا لأداء الخدمات لهم ، وقواعد للسلوك ، وكان فيه تجاهل للدين معيب حتى فى الوقت الذى كان يأخذ عنه مصطلحاته وصوره .

وقد أثارت هذه التفرقة المعقدة بين الحب والزواج مشاكل كثيرة خاصة بالأخلاق وآداب السلوك . وكان المؤلفون يعالجون هذه المسائل فى تلك الأيام ، كما كانوا يعالجونها فى أيام أوفد بكل ما يتصف به الأخلاقيون من تدقيق وإتقان . وحدث فى وقت ما بين عامى ١١٧٤ و١١٨٢ أن ألف رجل يدعى أندرياس كيلانوس Andreas Capellanus أى القس أندرو — رسالة فى الحب ودوائه Tractatus de amore et de amoris remedio أورد فيها بين ما أورد من المسائل قانون الحب العذرى ومبادئه . ويقصر أندرو هذا الحب على الأشراف ، ويقول بلا حياء إنه هو هيام فارس هياماً محرما بزوجة فارس آخر ، ولكنه يذكر أن خواص هذا الحب هى الولاء والتبعية ، وخدمة الرجل للمرأة . وهذا الكتاب هو أهم المراجع التى يستشهد بها على وجود « محاكم الحب » التى كانت السيدات ذوات الألقاب يُستجوبن فيها ويقدمن القرارات الخاصة بالحب العذرى . وكانت زعيمة السيدات فى هذه الإجراءات أيام أندرو ، إذا كان لنا أن نصدق ما يقوله هو عن هذا ، هى الأميرة الشاعرة مارية Marie كونتة شمبانيا ، وكانت زعيمتها قبل وقتها بجيل هى أمها . وأكثر النساء فتنة فى المجتمع الإقطاعى هى إليانور Eleanor دوقة أكتين Aquitaine التى كانت فى وقت ما ملكة فرنسا ثم ملكة إنجلترا بعدئذ . وكانت هى وأمها قاضيتين ترأسان محكمة الحب فى مدينة بواتييه فى بعض القضايا[٧٩] وكان أندرو يعرف مارية حق المعرفة ، وكان قساً خاصا بها ، ويبدو أنه ألف كتابه ليذيع به

نظرياتها وأحكامها فى الحب ؛ ومن أقواله فيه إن « الحب يعلم كل إنسان أن يتحلى بكثير من ضروب الأخلاق الفاضلة » ؛ ويؤكد لنا أن أشراف بواتييه الغلاظ قد انقلبوا بفضل تعاليم مارية مجتمعا من كرائم السيدات وذوى المروءة والشهامة من الرجال .

وتحتوى قصائد شعراء الفروسية الغزلين عدة إشارات إلى محاكم الحب السالفة الذكر التى كانت تقيمها سيدات من الطبقة الراقية — كونتة نربونة Narbonne وكونته فلاندرز وغيرهما — فى بيير فو Pierrefeu وأفنيون Avignon وغيرهما من بلدان فرنسا[٨٠] . ويحدثنا المؤرخون أن عشر نساء ، أو أربع عشرة ، أو ستين منهن كن يجلسن للفصل فى القضايا التى تعرض عليهن ، ومعظمها يعرضه نساء ، وبعضها يعرضة وجال ؛ وكانت تلك المحاكم تفض المنازعات وتسوى الخلافات ، وتوقع العقاب على من يخرق القانون . وبمقتضى هذا الحق أصدرت مارية الشمبانية Marie of Champagne (كما يقول أندرو) فى السابع والعشرين من إبريل عام ١١٧٤ فتوى فى سؤال وجه إليها يقول فيه صاحبه : « هل يمكن وجود حب حقيقى بين الأشخاص المتزوجين؟ » فكان جوابها إنه لا يمكن وجوده ، وكانت حجتها فى ذلك أن « المحبين يعطون كل شىء بلا مقابل ، ولا يتقيدون فيما يعطون بموجبات الضرورة ؛ أما المتزوجون فإن ما عليهم من واجبات يرغمهم على أن يخضع كل منهم لرغبات زوجه »[٨١] . وقد أجمعت محاكم الحب كلها ، كما يقول أندرو ، على واحد وعشرين قانونا من « قوانين الحب » : منها (١) لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب . . . (٣) لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين فى وقت واحد (٤) لا يمكن أن يظل كل الحب على حال واحدة ، فهو إما أن يزيد وإما أن ينقص (٥) المنة التى يسديها صاحبها مرغما منة تافهة (١١) لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللاتى لا يحببن إلا بقصد الزواج . . . (١٤) إن السهولة المفرطة فى نيل الحبيب تحقر الحب ، أما الصعاب التى تعترض الحب فإنها ... ترفع من قدره ... (١٩) إذا بدأ الحب يتناقص فسرعان ما يزول ، وقلما يعود ... (٢١) يزداد الحب

على الدوام بتأثير الغيرة . . . (٢٣) الشخص الذى يقع فريسة الحب لا ينام إلا قليلا ولا يطعم إلا قليلا (٢٦) المحب لا يضن بشىء على حبيبه[٨٢] .

وكانت محاكم الحب هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ؛ ولكن رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعبأون بها ، وكان الفرسان العشاق يضعون لأنفسهم قواعدهم . غير أن الذى لا شك فيه أن ازدياد الثراء والتعطل قد أحاط الحب بأخيلة وآداب ومجاملات امتلأت بها قصائد شعراء الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفى ذلك يقول ڤلانى Villani شاعر فلورنس (١٢٨٠ ؟ — ١٣٤٨) « تكون فى فلورنس فى شهر يونية من عام ١٢٨٣ فى عيد القديس يوحنا بينا كانت المدينة سعيدة آمنة . . . اتحاد اجتماعى قوامه ألف شخص ، يرتدون كلهم بيض الثياب ، ويطلقون على أنفسهم اسم **خدام الحب** . وقد نظمت هـــذه الجماعة سلسلة من الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال الطبقة الوسطى يمشون على دقات الطبول وأنغام الموسيقى ، ويقيمون الولائم فى منتصف النهار وفى الليل . وقد ظلت محكمة الحب هذه قائمة نحو شهرين ، وكانت أجمل وأشهر ما أقيم من نوعها فى تسكانيا »[٨٣] .

نشأت الفروسية فى القرن العاشر ، وبلغت ذروتها فى القرن الثالث عشر ، وقاست الأمرين من وحشية حرب المائة السنين ، واضمحلت أشد الاضمحلال من جراء الأحقاد المريرة التى بددت شمل طبقة الأشراف الإنجليز فى حروب الوردتين ، ثم لفظت آخر أنفاسها فى وسط الأحقاد التى أثارتها الحروب الدينية فى القرن السابع عشر ؛ ولكنها تركت آثارها البارزة فى أوربا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحى الاجتماعية ، والتربوية ، والخلقية ، والأدبية ، والفنية ، واللغوية . وازداد عـــدد طبقات الفروسية — ربطة الساق ، والحمام ، والجزة الذهبية — وتضاعفت حتى بلغ عددها ٢٣٤ طبقة منتشرة فى بريطانيا ، وفرنسا ، وألمـــانيا ، وإيطاليا ، وأسپانيا ؛ وجمعت مدارس

كمدارس إيتن Eton ، وهرو Harrow ، وونشستر Winchester بين مثَل الفروسية الأعلى والتربية « الحرة » فى جهودها الموفقة فى تاريخ التربية لتثقيف العقل ، وتقوية الإرادة ، وتقويم الأخلاق . وإذ كان الفارس يتعلم الآداب ، والشهامة والمروءة ، فى حاشية النبيل أو المليك ، فقد كان ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى ؛ وليست المجاملات والرقة فى الوقت الحاضر إلا مزيجاً مخففاً من فروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد ازدهر الأدب الأوربى من أغنية رولان إلى دن كيشوت ، لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع الفروسية ؛ وكان الكشف الثانى لنظام الفروسية من العناصر الفعالة فى الحركة الأدبية الإبداعية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومهما يكن فى آداب الفروسية الخلقية من إسراف وسخافات ، ومهما كان الفرق كبيراً بين حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما ابتدعته الروح البشرية من نظم ، وإنها فن من فنون الحياة أبهى وأفخم من كل فن سواه .

وهكذا نرى أن الصورة التى رسمناها للإقطاع لم تقتصر على أن تكون صورة للاسترقاق فى الأرض ، وللأمية ، وللاستغلال ، والعنف ؛ بل كانت تجمع بين هذا كله وبين قدر يعدله من الفلاحين الأقوياء ، يقطعون أشجار الغابات ، ومن رجال متباهين أشداء فى لغتهم ، وحبهم ، وحروبهم ، وفرسان يقسمون بأن يكونوا شرفاء ، خادمين لمن يحتاجون إلى خدمتهم ، يجدون فى طلب المغامرات وأسباب الشهرة كما يجد غيرهم فى طلب الراحة والأمن ، يحتقرون الخطر والموت والجحيم ؛ ونساء صابرات كادحات ، يلدن ويربين الأبناء فى قرى الفلاحين ؛ وسيدات من ذوات الحسب والنسب الرفيع يمزجن دعواتهن الرقيقة لمريم العذراء بالحرية الجريئة فى التغنى بالشعر الشهوانى والحب العذرى — ولعل الفروسية كانت أقوى أثراً من المسيحية فى رفع منزلة المرأة . ولقد كان أهم ما اضطلع به الإقطاع من أعمال هو إعادة النظام السياسى والاقتصادى إلى أوربا

بعد أن توالت عليها الغارات والكوارث المخربة المقطعة لأوصالها مائة عام . ولقد أفلحت فى غرضها هذا ؛ ولما أن اضمحلت قامت على أنقاضها وتراثها مدنيتنا الحديثة .

وبعد فليست العصور الوسطى حقبة يحق للعالم أن ينظر إليها بتشامخ وازدراء . ذلك أنه لم يعد فى وسعه أن يشهر بما كان فيها من جهل وخرافات ، وتفكك سياسى ، وفقر اقتصادى وثقافى ؛ بل عليه بدلا من هذا أن يعجب كيف استطاعت أوربا أن تفيق من الضربات المتعاقبة التى كالها لها القوط ، والهون ، والوندال ، والمسلمون ، والمجر ، والشماليون ، واحتفظت فى وسط الاضطراب والمآسى بهذا القدر الكبير من الآداب والأساليب الفنية القديمة . ولا يسعه إلا أن يعجب بشارلمان ، وألفرد ، وأولاف ، وأتو ، وأمثالهم من الرجال الذين أقاموا من هذه الفوضى نظاماً ؛ كما يعجب ببندكت ، وجريجورى ، وبنيفاس ، وكولمبا ، وألكوين ، وبرونو ومن إليهم من الرجال الذين صابروا وصبروا حتى بعثوا الأخلاق والآداب من قفار تلك الأيام ؛ وبالمطارنة والصناع الذين استطاعوا أن يشيدوا الكنائس الكبرى ، والشعراء المجهولين الذين استطاعوا أن يُغَنُّوا فيما بين كل حرب وحرب ، وإرهاب وإرهاب . وكان لا بد للدولة والكنيسة أن تبدءا عملهما مرة أخرى من الدرك الأسفل ، كما بدأه رميولوس ونوما قبلهما بألف عام ؛ وكانت الشجاعة التى يتطلبها بناء المدن من الغابات ، وخلق المواطنين الصالحين من الهمج ، أعظم من أختها التى شادت شارتر ، وأمين ، وريمس فى الزمن الحديث ، أو هدأت حمى دانتى الانتقامية فصاغت منها شعراً موزوناً .

المراجـــع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجملة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XV

1. Abbott, G.F., *Israel in Egypt*, 43.
2. Baron, S., *Social and Religious History of the Jews*, I, 266; Gratez, H., *History of the Jews*, II, 566.
3. Socrates, *Ecclesiastical History*, iii; 20; Julian, *Works*, III, 51.
4. Abbott, 45.
5. Ammianus Marcellinus, *Works*, xxiii, 1.
6. Jerome, *Commentary on Isaiah*, vi, 11-18, in Baron, I. 261.
7. Baron, I, 255.
8. Baeder, Gershom *Jewish Spiritual Heroes*, III, 46.
9. Talmud, Yebamoth, 37b.
10. Friedländer, L., *Raman Life aud Manners under the Early Empire*, III, 173.
11. Gregory of Tours *History, of the Franks*, 1916, viii, 1.
12. References to the Mishna will be by tractate, chapter, and section; to the (Babylonian) Gemara by tractate and folio sheet.
13. Baba Kama, 60b.
14. Megilla, 16b.
15. Tanhuma, ed. Buber, Yitro. sect. 7, in Moore, G. F., *Judiasm in the First Centuries of the Christian Era*, II, 242.
16. Menachoth, 99b.
17. Pesikta Rabbati, 10, 4. in Newman, L., and Spitz, S., *Talmudic Anthology*. 300.
18. Chagiga, 10a.
19. Examples in Moore, I, 259.
20. Berachoth. 6b.
21. Aboda Zara, 8b; Newman, 81.
22. Chagiga, 3b.
23. Succah, 52b.
24. Barachoth, 6a.
25. Aboda Zara, 3b.
26. Mechilta, 65a, on Exod. xix, 18.
27. From Deut. vi, 4.
28. Shebouth, 77b.
29. Erubin, 18a.
30. Bereshit Rabbah on Gen. xxiii, 9.
31. Berachoth, 6a
32. Aboda Zara, 5a.
33. Sifre on Deut. 32.
34. Shebuoth, 55a.
35. Midrash Mishle, 28, in Newman,
36. Genesis Rabbah, xlviii, 8.
37. Babo Metzia, 58b.
38. Berochoth, 34a.
39. Ketuboth, 111a.
40. Wayyikra Rabboh, 34. in Newman, 108.

41. Bereshit Rabbah, 44,1, in Newman, 292.
42. Quoted in Cohen, A.,*Everyman's Talmud*, 89.
43. Aboda Zara, 20b.
44. Kiddushin, 66d.
45. Shebuoth, 41a,
46. In Cohen, A., 258.
47. Leviticus xxi, 2-5.
48. Yebamoth, 48b,
49. Ketuboth, 27 : Cohen, A., 257,
50. Pesachim, 113a,
51. Shebuoth, 152,
52. Pesachim, 49b.
53. Exod. xxiii, 19 ; xxiv, 26 ; Deut xiv, 21,
54. Nidda, 17.
55. Yoma, 75.
56. Shebuoth, 33.
57. Ibid., 152a.
58. Baba Bathra, 58b.
59. Pesachim, 109a.
60. Berachoth, 55a, 60b.
61. Taanith, 11a.
62. Pesachim, 108.
63. Exod. xii, 13.
64. Megilla on Esther, 7b, in Moore, II, 51.
65. In Oesterley, W.O., and Box, G. H., *Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism*, 149.
66. Kiddushin, 31a; Isaiah vi, 8.
67. Baba Bathra, 8b; Baron, I,277-8.
68. Berachoth, 16a.
69. Gen. i, 28 ; Kiddushin, 29.
70. Genesis Rabbah, lxxi, 6.
71. Yebamoth, 12b; Himes, N. E., *Medical History of Contraception*, 72.
72. Baba Bathra, 72.
73. Exodus Rabbah, i, 1.
74. Harris, M. H., ed., *Hebraic Literature : Translation form the Talmud, Midrashim, and Kabbala*, 336.
75. Baba Bathra, 9a,
76. Ketuboth, 50a, 67,
77, Taanth, 22.
78. Ibid., 20b.
79, Graetz., II, 486, 545.
80. Baba Bathra, 9.
81. Gittin, 70a.
82. Chagiga, 16a.
83. Berachoth, 61a.
84. Kiddushin, 29b.
85. Sota. 44a
86, Taanith, iv, 8.
87. Yebamoth, 63a.
88. Ibid., 65a, 44a.
89. Pesikta Rabbati, 25, 2, in Newman, 3.
90. Berachoth, xxiv, 1.
91. Kiddushin, 4.
92. Yebamoth, xlv, 1 ; 64b.
93. Gittin, ix, 10.
94. Ketuboth, vii, 6.
95. Cohen, A., 179,
96. Ketuboth, 77a ; Neuman, A.A., *The Jews in Spain*, Philadelphio, 1942, II, 59.
97. Yebamoth, xxi, in Beader,III. 66.
98. Gittin, 90b.
99. Kiddushin, 80b.
100. Nidda, 45.
101. Kiddushin, 49b.
102. Yoma. 83b.
103. Mikvaoth, 9b, in Cohen,A., 17
104. Hai Gaon in Newman, 540.
105. Yebamoth, 88.
Ketubcth 47b.
107. Shebuoth, 30b.
108. Erubin, 41b.
109. Baeder, III, 15.

110. Bereshit Rahbah, xvii, 7·
111· Harris, M: H· *Hebraic Literature* 340·
112. Pirke Aboth, iv, 1.
113. Ibid., iv, 3.
114. Ibid., i, 17.
115. Ibid., iii, 17.
116. Shemot Rabbah, xxv, 16 Newman, 897.
117. Menachoth 29b, in Moore,II,187.
118. Renan, E., *Origins of Christianity : The Christian Chruch*, 131 ; Baron, I, 305-6.

CHAPTER XVI

1. Graetz, III, 308.
2. Abrahams, Israel *Jewish Life in the Middle Ages*, 219.
3. Benjaman of Tudela, *Travels*, in Komroff, M.,ed.,*Contemporaries of Marco Polo*, 290.
4. Graetz, III, 90. Others date the Gaonate from 589 : cf. Oesterley and Box, 209.
5. Graez, III, 133.
6. Ibid., 148.
7. Druck, D., *Yehuda Halevy*, 66.
8. Baron' I, 353.
9. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, 35. 42f.
10. Malter, H., *Saadia Gaon*,279,291
11. Benjamin of Tudela, in Komroff 310.
12. Baron, I, 318.
13. Friedländer, III, 181.
14. Dill, Sir S., *Roman Society in Gaul in the MerovenglanAge*,246
15. Groetz, III, 143, 161, 241, 389.
16. Benj. of Tudela, in Komroff,260.
17. Ibid., 257.
18. Ameer Ali, Sayed, *The Spirit of Islam*, 260.
19. Druck, 26.
20. Dozy, R., *Spanish Islam*, 597f.
21. Abbott, G. F., 71.
22· Abrbhams, *Jewish Life*, 366.
23. Dozy, 721.
24. Graetz, III, 617.
25. Neuman, A., *Jews in Spain*, I,5,
26. Ibid., 164.
27. Ibid., II, 184.
28. Ibid., II, 221 ; Graetz. III, 281.
29. Neuman, II, 221.
30. Graetz, III, 360f.
31. Baron II, 37 ; Graetz, III, 506.
32. Neuman, II, 149.
33. Ibid.. 247.
34. Abrahams, *jewish Life*, 67.
35. Solom Asch in Browne, Lewis, ed., *The Wisdom of Israel*, 698.
36. Baba Kama, 113a.
37. Pirke Aboth, iii, 2.
38. Baron, II, 17.
39. Ibid., 26.
40. Ibid.
41. Bracton, *De Legibus*, vi. 51, in Baron, II, 24
42. Pollock, F., and Maitland, F.W., *History of English Law before Edward I*, 1, 455,
43. *Cambridge Medieval History*, II, 602.
44. Ricard, T.A., *Man and Metals*, II, 602.
45. Abrahams, *Jewish Life*, 241.
46. Rapaport, S., *Tales and Maxims from the Talmud*, 147.
47. Graetz, III, 229.
48. Arnold, Sir, T., and Guillaume, A., *The Legacy of Islam*, 102.
49. Pirenne, H., *Medieval Cities*,258.
50. Baron, II, 8f.
51. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
52. Deut. xxiii, 20.
53. Baba Metzia, v, 1-2, 11.
54. Abrahams, *Jewish Life*, 110

55. Baron. II. 120.
56. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 134.
57. *Cambridge Medieval History*, VII 644.
58. Ibid., 646.
59. Neuman, A., I, 202; Lacroix, P., *Manners Customs and Dress during. the Middle Ages*, 451.
60. Coulton, G. G., *Medieval Panorama*, 352.
61. Abbott, *Israel*. 113.
62. Lacroix, *Manners*, 451.
63. Ashley, W. J. *Introduction to English Economic History and Theory* 202.
64. Abbott, 177.
65. Pollock and Maitland, 451.
66. *Combridge Medieval History*, VI, 226.
67. Abbott, 122.
68. Husik, 508.
69. Abbott, 125; Graetz, III, 583.
70. Abbott, 153; Lacroix, *Manners*, 445.
71. In Foakes-Jacson, F., and Lake, K., *Beginnings of Chiristianity*, I, 76.
72. Baba Bathra, 90.
73. Baba Metzia, iv. 3.
74. Baron, I, 277-8; II, 108.
75. Barón, II, 99.
76. Moore, II, 174-5.
77. Abrahams, *Jewish Life*, 141, 319, 326, 335; Baron, II, 99.
78. Coulton, *Panorama*, 357.
79. Abrahams, 277.
80. Ibid., 281.
81. Burton, Sir R. F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 128; Baron II, 169
82. Abrahams, 331.
83. Baba Kama, 118b.
84. Abrahams, 106.
85. Ibid , 104.
86. Ibid., 90.
87. Baron, II, 112.
88. Abrahams, 166.
89. Kiddusigin, 41a; Neuman, II, 21.
90. Ibid.
91. Moore, II, 22.
92. Abrahams, 117.
94. Burton, *The Jew*, 43.
95. White, F. M., *Woman in World History*, 176.
96. Abrahams, 155.
97. Brittain, A., *Women of Early Christianity*, 10.
98. White, 189.
99. Neuman, II, 229.
100. White, 185.
101. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 313.
102. Abrahams, 82.
103, Neuman, II, 153.
104. Baron, I, 288; II, 97.
105. Abrahams, 126.
106. Brittain, 12.
107 Moore, I, 316.
108. Maimondes, *Mishneh Torah*, — Book I, tr. Moses, Hayamson, 63a.
109. In Waxman, M., *History of Jewish Leterature*, I, 214.
110. Jewish Encyclopedia, IX, 122.
111. *Oxford Histor of Music* introd. volume, 60.
112. Jewish Encyclopedia, III, 453.
112a. In Zeitlin, S., *Maimonides*, 44
113. Baron, II, 83.
114. Lacroix, *Munners*, 439.
115. Baron, II, 35.
116. Abrahams, 411; Moore, II, 74.

117. Dent. vii, 3;Nehemiah xiii, 25.
118. Klausner, J., *From Jesus to Paut*, 515.
119. Baron, II, 56.
120. Gittin. 61.
121. Abrahams, 418-4.
122. Ibid., 418.
123. Ibid., 424; Baron, II, 40.
124. Baron, II, 36.
125. Abbott, 93.
126. Coulton, *Panorama*, 352.
127. Ibid.
128. Graetz, IV, 33.
129. Gregory I, Epistle ii, 6, in Dudden, F. H., *Gregory the Great*, II, 155.
130. Ep. xiii, 15, in Dudden, II, 155
131. Belloc, H., *Paris*, 170.
132. Graetz, III, 421.
133. Coulton, *Panorama*, 352.
134. Thatcher, O. J., and McNeal, E.H., *Source Book of Medieval History*, 212.
135. Lea, H.C., *History of the Inpuistion in the Middle Ages*, II, 63.
136. Graetz, III, 563.
137. Ibid., 583.
138. Marcus, 151.
139. Baron, II, 85.
140. Abbott,51; Jewish Encyclopedia III, 453.
141. *Camb. Med.H.*, VII, 624; Jewish Encyclopedia. IX, 368.
142. Graetz, III. 299.
143. Ibid., 300.
144. Ibid.,301f; *Cambridge Medieval History*, V., 275f; VII, 641.
145. Greatz III, 350; Abbot, 88.
146. Jewish Encyclopedia. IV, 379.
147. Graetz, III, 356.
148. *Cambridge Medieval Hirtory*, VII, 642.
149. Graetz, IV, 35; Jewish Encyclopedia, IX, 358.
150. Abbott, 144.
151. Coulton, Panorama, 859.
152. Cuninggham, W., *Growth of English Industry and Commerce* 204.
153. Jewish Encyclopedia, IV, 379.
154. Lacroix, *Manners*, 447.
155. Graetz, III, 642; Abbott, 130.
156. Abbott, 131.
157. Ibid., 68.
158. Lacroix, *Manners*, 447.
159. Abbot. 68.
160. Montesquieu, C. Baron de, *The Spirit of Laws*, I, xii, 5.
161. Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicles*, I, 197.
162. Marcus, 24.
163. Graetz, III, 570.
164. Villehardonin, G. de,*Chronicles of the Crusades*, 148.
165. Abbott. 118.
166. *Cambridge Medieval History*, VII, 641.

CHAPTER XVII

1. Abrahams, *Jewish Life* 210.
2. Sarton, G., *Introduction to the Hiatory of Socience*, II (i), 295.
3. Abrhams, I., *Chap ers on Jewish Litervture*, 116.
4. Waxman, I, 226.
5. Graetz, III, 269.
6. Gabirol, S.ibn,*Selected Religious Poems*, tr. Israel Zangwill, 62.
7. Ibd., 80.
8. Abrahams, *Literature*, 109.
9. Abrahams, *Jewish Life*, 163.
10. In Wilson, E , ed. *Hebrew Leterature*, 383.
11. Sarton, II, (i), 188.
12. Halevi, J., *Selecied Poems*, tr. Nina Salaman, 58.
13. Abbott, 72.
14. Druck, 97.
15. Ibid,, 94.
16. Wilson, *Hebrew Literature*,865-6.
17. Novella 146 in Burton, *The Jew*, - 105.

18. Graetz, III, 573.
19. Sarton, II (ii), 557.
20. Schechter, S., *Studies in Judaism*, I, 107.
21. Graetz, III, 604.
22. Sarton, II, (i), 145.
23. *N. Y. Times*, June 2, 1937.
24. Sarton, II, (i), 145.
25. Cf. Komroff' M. *The Contempsraries of Marco Polo.*
26. Husik, 24.
27. Munk, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe* 158.
28. Marcus, 312.
29. Cf. Gabirol, S. ibn, *Improvement of the Moral Qualities*, tr. Stephen Wise, 4, 27.
30. Gabirol, *Fons Vitae*, i, 3, in Munk, 6.
31. Halevi, J., *Kitab 'al-Khazari*, tr. H. Hirschfeld, i, 116.
32. Ibid., III, 5, 7.
33. Husik, 215.
34. Yellin, D., and Abrahams, I., *Maimonides*, 11;Zeitlin, *Maimonides*, I,
35. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 427.
36. Zeitlin, *Maimonides*, 5.
37. "Letter of Consolation" in Yellin, 46.
38. Zeitlin, 178.
39. Arnold, Sir T., *Preaching of Islam*, 421.
40. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 290.
41. Maimonides, Aphorisms, in Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, I, 176.
42. Zeitin, 172.
43. In Baron, *Essays*, 288.
44. Zeitlin, 174.
45. Baron, *Essays*, 284.
46. Maimonides, *Mishneh Trab*, Introd., 4b.
47. Zeitlin, 214.
48. *Mishneb Torab*, Introd., 16. 3a.
49. In Baron, *Essays*, 117.
50. Maimonides, *Guide to the Perp exed* tr. M., Friedländer, II,xli.
51. ibid., III, 35, Baron, *Essays*, 139.
52. *Guide*, III, xxii,xli; Deut. xxiii, 17; Exod, xxii, 1; xxxi, 15.
53. *Mishneh Torab*, 40b.
54. Ibid., 59a.
55. Ibid, 54a.
56. Ibid., 58a.
57. Ibid., 58ab.
58. Ibid., 52b.,
59. In Baron, *Essays*, 110.
60. Zetlin, 132.
61. *Guide*, I, Introd.
62. Ibid., II, xix; III, xiv.
63. II, Pt. II, Introd. and Prop xx.
46. Ibid., xxxvi-xlxi.
65. III, xxii.
66. II, xviif.
67. II, xxx.
98. III, x, xii.
69. III, Ixx.
70. Zeitlin, 151.
71. Ibid., 103; Baron, *Essays*, 143.
72. *Guide*, II, Pt. II, Introd.
73. Baron, *Essys*, 119-21; Zeitlin, 209.
74. Marcus, 307-9.
75. SPinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, xv, 4.
79. Roth, L., *Spinoza Descares, and Maimonides*, 66; Baron, *Essays*, 7

77. Husik, 302; Graetz, IV, 23.
78. Ibid., III, 681-
79. Neuman, A., II, 122.
80. Ibid., 118; Graetz, IV, 29-41.
81. Jewish Encyclopedia, III, 457, 479.
82. Sarton, II, (i), 366.
83. Graetz, V, 21.
84. Baron, *History*, II, 136.
85. Ibid., 142.
86. Abrahams, *Jewish, Life*, 143, 157, 198.
87. In Marcus, 314.

CHAPTER XVIII

1. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 173.
2. Gibbon, IV, 504.
3. *Cambridge Medieval History*, II, 289.
4. Ibid., IV, 6; Gibbon, V, 142.
5. In Diehl, *Moneul*, 335.
6. *Cambridge Medieval Hi.tory*, IV, 115f.
7. Voltaire, *Works*, XIII, 190.
8. Diehl, *Portraits* 159; Bury, *Eastern Roman Empire*, 169.
9. McCabe, J., *Empresses of Constantinople*, 174.
10. *Cambridge Medieval History*, IV, 108; Diehl, *Portraits*, 264.
11. Boissonnade, P., *Life and Work in Medieval Europe*, 56.
12. *Cambridge Medieval Hitory*, IV, 750.
13. Diehl, *Portraits*, 236.
14. *Cambridge Medieval History*, IV. 745.
15. Komroff, *Contemporaries of Xarco Polo*, 266.
16. *Cambridge Medival History*, IV, 760.
17. Ibid.
18. Clapham and Power, 212.
19. Diehl, *Portraits*, 158; Gibbon V, 458; Brittain, *Women of, Early Christianity*, 318.
20. Lopez, R.S., in *Speculum*, Vol' XX, No.1, pp. 17-18; Boissonnade, 46-7; *Cambridge Medieval History*, IV, 761.
21. Boissonnade, 50.
22 Ibid., 51.
23. Castiglione, 254.
24. Bury, *Eastern Roman Empire*, 436; Grunebaum, *medieval Islam* 54.
25. Psellus *Chronographia*, vi, 46.
26. Ibid., v, 25-37.
27. Diehl, *Manuel*, 405.
28. Luitprand in Grunebaum, 29.
29. Cf. Walker Trust Report, *The Great Palace of the Byzantine Emperors*, plates 24-37 and 57.
30. The judgment of Kondakof in Diehl, *Mnnuel*, 580.
31. Diehl, 590.
32 Ibid., 381.
33. Finlay, *Greece under the Romans*, 21.
34. Thompson.J.W., *FeudalGermany*, 458.
35. Kluchevsky, V. O. *History of Russia*, I, 46; Thompson, *Feudal Germany*, 456.
36. Pokrovsky, M. N., *History of Russia* 11; Fustel de Coulanges questioned this - cf. Dopsch, 26.
37. *Cambridge Medieval History*, IV, 136.
38. Navor, J., *Economic History of Russia*, I, 15.
39. Kluchevsky, I, 88.
40. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 84.

CHAPTER XIX

1. Paul the Deacon, *History of*
2. *the Longobards*, i, 9.
3. Munro and Sellery, 538.
4. Dante, *Elleven Letters*, 185.
5. Note by W. D. Foulke in Paul the Deacon, 309.

6. Voltaire, *Works*, XIII, 80.
7. Molmenti, P., *Venice*, I, I, 212-4.
8. *Cambridge Medieval History*, III, 170
9. Pirenne, *Medieval Cities*, 110.
10. Ruskin, *Stones of Venice*, I', 55.
11. Lanciane, R, *Ancient Rome*, 57.
12. Ibid., 275.
13. Castiglone, 301.
14. Dozy, *Spanish Islam*, 440.
15. Coulton, G. G., *FiveCentruies of Religion*, I, 174.
16. Hume, M, *The Spanish People*, 129; *Spain*, 191; Encyclopedia Britannica, V., 699.
17. In Guizot, *History, of France*, I, 171.
18. Ibid., 168.
19. Pirenne, *Cities*, 248; Voltaire, XIII, 131.
20. Freeman, E.A., *HistoricalEssays*, First Series, 179.
21. *Cambridge Medieval History*, II, 316.
22. Guizot, *France*, I, 229f; Guizot, *Hisory, of Civilization*, II, 193-6.
23. Pollock and Maitland, I, 117, Barnes, H.E., *History, of Western Civilization*, I, 775.
24. Lea, *Superstition and Force*, 469,
25. Guizot *Civilization*, II, 225f.
26. Capitulary of Charlemagne, year 803, I/3, in Guizot *Civilization*, II, 222.
27. In Pirenne, *Cities*, 166.
28. Ibid., 58; *Cambridge Medeival History*, II, 657.
29. *Cambridge, Medieval History*, II, 657.
30. Letter of Alcuin in William of Malmesbury, i, 3, p. 66.
31. Eginhard, *Life of Charlemagne*, 61,
32. Hodkin, T., *Charlemagne* 81'2.
33. West, A F., *Alcuin*, 55.
34. Eginhard, p. 14.
35. Ibid., 62.
36. Ibid., 64.
37. Capitulay of 802 in Bebel A., *Woman under Socialism*, 60.
38. Eginhard, 83.
39. Bury, *Eastern Empire*, 318,
40. Eginhard, 56-8.
41. Raby, F. J. *History of Secular Latin Poetry in the MiddleAges*, I, 190.
42. Eginhard, 52.
43. Ibid., 48; Russell, C. E., *Charlemagne*, 262.
44. Guizot, *France*, I, 241.
45. Morey, C. R, *Medieval Art*, 207.
46. Ibid., 191.
47. Davis *Medieval England*, 266.
48. Guizot, *Civilization*, II, 375.
49. Erigena, J.S. *De divisione naturae*, i, 69.
50. In Guizot, *Civilizati·n*, II, 383.
51. Erigena, // 517.
52. Ibid., // 443
53. // 518.
54. // 896.
55. // 919-26, 937-40.
56. // 861.
57. Poole, R. L., *Illustration of the History of Medieval Thought*, 61.
58. Guizot, *Civilization*, II, 388.
59. William of Malmesbury, ii, 4.
60. Guizot, *France*, I, 303
61. Ibid., 311.
62. Ibid., 329.
63. Ibid., 336.

CHAPTER XX

1. Asser, *Alfred the Great*, 51.
2. Asser, 66, 78, 85.

3. Alfred, Preface to tr. of Gregory I's *Cura patoralis*, in Ogg, *Source Book of Mediedval History*, 191.
4. Voltaire, *Works*, XIII, 176.
5. Boissonnade, *Life and Work in Medieval Europe*, 88.
6. Green, J R., *Conquest of England* 185, 329, 359-60.
7. Srubbs, W., *Constitutionrl History of England*, I, 146, 157.
8. Hume, D., *History of England*, I, 181.
9. Pollock and Maitland, II, 450.
10. William of Malmesbury in Coulton, G.G., *Social Life in Britain* 20 : Green, J. R., *Making of England*, 192.
11. Traill, H. D., *Socal England*, I, 204.
12. Hume. D., *History of England* I, 188.
13. Briffault R., *The Mothers*, II, 419.
14. William of Malmesbury, i, 4.
15. Ibid , i, 2.
16. Ibid., ii, 5.
17. Bede, v, 24.
18. Ibid., i, 15.
19. Ibid., Introd., xvi.
20. Gordon, R. K., *Anglo - Saxon Poatry*, 81-2.
21. In Ker, W.P., *Epic and Romace*, 68.
22. *Beowulf*, xxxvii and xliii, in Gordon, *Anglo-Saxon Poetry*, 60, 70.
23. Bede, iv, 23.
24. Plummer, *Life and Times of Alfred the Great*, 14.
25. In Addison, J., *Arst and Crafts in the Midlle Ages*, 4.
26. Aldhelme (c. 709) in Addison, 199.
27. Bede, iv, 18.
28. Freeman, E.A., *Norman Conquest* II, 298.
29. William of Malmesbury, iii, 238; Ordericus Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, 492A ; Freeman, *Norman Conquest*, II, 244.
30. Guizot, *France*, I, 345; Freeman, *Norman Conquest*, III, 320.
31. *Mabinogion*, 1f.
32. Hyde, *Litary History of Ireland* 238.
33. Joyce, *Short History of Ireland*, 39-46,
34. Thompson, J. W., *Economic History*, 148.
35. Boissonnade, 78.
36. Joyce, 80.
37. Ibid , 168.
38. Ibid., 155, 168.
39. Hyde, 222.
40. Ibid., 239,
41. Ibid., 279f.
42. Thompson, Sir E. M., *Introd to Greek and Latin Palaeography*, 374.
43. Joyce, 189-92.
44. Keating in Hyde, 488.
45. Horn, F. W , *Literature of the Scandinavian North*, 13, Cambridg *Medieval History*, II, 481
46. Surluson, S., *Heimskringla*
47. Ibid., Haakon the Good, ch. 23.
48. Ibid., Olaf Tryggveson, ch. 7.
49. Ibid., ch. 92.
50. Ibid., ch. 87.
51. Ibid., St. Olaf, ch. 56, 131.
52. Ibid., ch. 74.

53. Ibid., Appendix to Olaf Tryggveson's Saga; Encyclopedia Britannica. art. Columbus.
54. *Beomulf*. xxxv.
55. Sturluson, Son of Magnus, ch. 33; Du-Chaillu, II, 370-379.
56. Saxo Grammaticus, *Danish History, I*, 28.
57. Haskins, *Encyclopedia*, III, 499c.
58. DuDhaillu, II, 1.
59. Haskins, *Normans in Europeau History*, 36.
60. DuChaillu, I, 486.
61. Saxo, 26.
62. Thompson, J. W., *The Middle Ages*, I, 827.
63. Sturluson, Magnus the Good, ch. 16.
64. Sigfusson, Saemud, *The Elder Edda*, 27-56.
65. Ibid., 28.
66. 59.
67. 66.
68. 14.
69. 84.
70. 102.
71. 81.
72. 65.
73. 73.
74. 121.
75. 68.
76. 55-6.
77. 86.
78. 68.
79. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 41.
80. Faereyinga Saga in Ker, *Epic and Romance*, 236.
81. Sturluson, Olaf Tryggvesson's Saga, ch. 9.
2. Sturluson, Yaglinga Saga, ch. 6 and note; Hodgkin, *Charlemagne* 154; Saxo, 44.
88. Milman, III, 216. Milman persuasively defends the credibility
84. *Cambridge Medieval History*, 270.
85. West, *Alcuin*, 127.
86. Rab, F. J. E. *Histoy of Christian Latin Pöetry in the Middle Ages* 188.
87. Welch, Alice K., Of Six *Medieval Women*, 5.
88. Addison, *Arts and Crafts*, 16.

CHAPTER XXI

1. *Cambridge Medieval History*, I, 586.
2. In Rassell, B., *History of Western Philosodhy*, 879.
3. Rule of St. Benedict, ch. 3, in Ogg. 87.
4. Ch. 7.
5. Ch. 53.
6. Dudden, I, 111.
7. In Maitland, S.R., *Dark Ages*, 196-8.
8. In Dudden, I, 58.
9. Ibid., 289.
10. Bede, ii, 1.
11. Gregory of Tours, 227.
12. Dudden, I, 215.
13. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.
14. Dudden, II, 156; McCabe, J., *Story of Religeus Controvery*. 307.
15. Bede, ii, 1.
16. Ibid., 198.
17. Gregory I, Ep. xiii, 45, in Dudden, I, 278.
18. In Abélard, *Ouvrages inédits, Quaestio*, 1a.
19. Gregory I, *Magna Moralia*, in Dudden, II, 813.
20. *Dialogues*, iv, 7, in Dudden, I, 380.
21. Dudden, II, 484f.
22. Ibid., 38.
23. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.

24. Voltaire, *Works*, XIII, 90.
25. *Cambridge Medieval History*, II, 690.
26. Funk, I,287; *Cambridge Medieval History*, V, 710.
27. In Milman, III, 25.
28. Gibbon, IV, 82.
29. Sarton, I, 555.
30. Poole, R.L., *Illustration*, 20.
31. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 136.
32. Dudden, I, 86.
33. Ibid.
34. Montalembert, Comte de, *Monks of the West*, I, 553.
35. Guizot, *Civilization*, II, 113 - 9: Toynbee, A.J., *Study of History* II, 331.
36. Waddell, H., *Wandering Scholar* 34.
37. Bede, I, 17.
38. William of Malmesbury, I, ?.
39. Bede, I. 80.
40. Bede, Letter to Egbert.
41. Green, *Making of England*, 413.
42. Gibbon, V, 534.
43. Coulton, *Five Centu ies o Redigion*, I, 222.
44. Ibid., 352.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 662.
46. Ibid., III, 67.
47. Milman, III, 111.
48. *Cambridge Medieval History*, III, 455.
49. Millman, III, 160: McCabe, *Crises in the History of the papacy*, 128f.
50. Ibid., 131, quoting the *Liber Pontificalis*.
51. Milman, III, 171: *Cambridge Medieval History*, III, 455.
52. Milman, III, 178.
53. Ibid., 185f.
54. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 847.
55. Vincet of Beauvais, *Spec. Hist.*, in Milman, III, 221.
56. Thorndik, *Magic and Experimental Socience* I. 704.
57. *Cambridge Medieval History*, III, 109.
58. Hulme, E.M. *Middle Ages*, 339; Coulton G.G., *Life in the Middle Ages*., I, 1: Sarton. I, 734.
59. Funk, I, 262.
60. Stephens. W.R. W. *Hildebrand*, 14: Milman. III. 230: McCabe, *Crises*, 140.
61. *Cambridge Medieval History*, 10.
62. Guizot, *France*, I, 160.
63. Porter, A. K. *Medieval Architecture*, II. 2.
64. Ibid.
65. Carlyle R.W., *History of Medieval Political Theory in the West* IV, 52.
66. Coulton, *Five Cecturies of Religion*, IV, 187.
67. Coulton, *From St. Francis to Dante*, a tr. of *The Chronicle of Salimbene*, 286.
68. *Cambridge Medieval History* V, 9-10.
69. Catholic Encyclopedia, I, 156
70. *Cambridge Medieval History*, V, 12.
71. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 210.
72. Lecky *Morals*, II, 237.
73. Lea, *History of Auricular Confessions*, I, 46.
74. Letter to Egbert in Bede, p. 4.
75. Catholic Encyclopedia, III, 486.
76. *Cambridge Medieval History*, IV, 268.
77. Ibid., 272.

78. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 194, 223; Thompson, *Social and Economic History*, 662.
79. Lea, *Celibacy*, 226.
80. Bryce, Jas., *Roman Empire*, 158.
81. *Cambridge Medelval History* V, 99.
82. Thompsn, *Social and Economic History*, 663.
83. Taylor, *Medieval Mind*, II, 65
84. Letter of Gregory VII to William I of England, 1080, in Bryce, 160.
85. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
86. Figgis, *Political Aspects of St. Augustine's City of God*, 88.
87. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
88. Carlyle, R.W., *Medieval Political Theory*, IV, 64.
89. Stephens, *Hildebrand*, 116.
90. Thatcher and McNeal, 169.
91. *Cambringe Medieval History*, V 74f.

CHAPTER XXII

1. Lot., *End of the Ancient World* 125.
2. Dopsch, 288.
3. Seebohm, F., *English Village Communty*, 126f, 179.
4. Seignobos, C., *Feudal Regime*, 34, Barnes, *Economic History*, 139.
5. Clapham and Power, 237-8.
6. Letters, iv, 2.
7. Coulton, G.G., *Medieval Village* 161.
8. McCabe, *Story of Religious Controvery*, 323.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 679.
10. Coulton, *Medieval Village*, 492.
11. Coulton, *Medieval Panorama*, 322
12. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, IIae, xciv, 5.
13. Decree of Fourth Council of Orléans, in Dopsch, 250.
14. Lecky, *Morals*, II, 70, Sarton, II (ii). 799, but cf. Catholic Encyclopedia, XIV, 38.
15. Ashley. *Introd. to English Economic History*, II, 276.
16. Coulton, *Medieval Village*, 59.
17. Westermark, E., *Short History of Marriage*, 14: Coulton, *Medieval Village*, 80.
18. Reignobos, 14: Coulton, *Medieval Village*. 464.
19. Bebel, 57.
20. *Cambridge Medieval History*, VII, 721.
21. Coulton, *Life in the Middle Ages*, III, 123-5.
21a. *Cambridge Medieval History*. VII. 22.
22. Seignobos, 21.
23. Coulton, *Medieval Village*. 65.
24. Cram R.A., *Substance of Gothic* 181.
25. Lynn White. Jr. in *Speculum*. Apr. 1940. p. 151.
26. Taine. H. *Ancient Regmie*. 9, Carlyle,
27. Barnes, *Economic History* 145
28. *Cambriage Medieval History*. VII. 741.
29. Coulton. *Medieval Village* 311-18.
30. Ibid., 21. 243
31. Coulton. *Panorama*. 92.
32. *Speculum*. Apr. 1940.
33. Ibid., 155.
34. Chrteoubriand. Vicomte de, *The Genius of Christianity*. iv. 1. 4
35. Coulton *Medievol Village*, 119.

36. Lacroix. Paul. *Military and Religious Life in the Middle Age.* 156.

37. Hitti. *History of the Arabs.* 663; Hrnold *Legacy of Islam* 131.

38. Lacroix.Pahl. *Science and Literature in the Middle Ages.* 299f.

39. Beaumonoir in Seinobos. 55.

40. Coulton. *Panorama.* 50.

41. Voltaire. *Works.* XIII., 181.

42. Thompson. *Feudal Germany*.301

43. Carlyle. R.W. *Medieval Polotical Theory.* 463.

44. Pollock and Maitland. II. 242.

45. Maine. Sir H. *Ancient Low.* 135.

46. Coulton *Medieval Village.* 528.

47. Jenks. E. *Law and Politics in the Middle Ages.* 23.

48. Coulton *Medieval Village.* 187.

49. Lea. *Superstition and Force.* 286, 297, 314.

50. Coulton, *Panorama* 379.

51. Lea. *Superstition.* 178.

52. Ibid., 140f, 179.

53. Seignobos. 79.

55. Sumner W.G.*Folkwavs.* 522.

56. Barnes. *Western Civilization.* I. 798.

57. Seignobos. 81.

58. Coulton. *Medieval Village.* 248.

59. Lacroix. *Military Life,* 49.

60. Davis, W.S. *Life on a Medieval Barony.* 176.

61. Coulton. *From St. Francis to Dante.* 20.

62. Seignobos. 74.

63. Coulton, *Chaucer and His England.* 199.

64. Coulton, *Panorama.* 247.

65. Prestage, F., *Chivalry.* 72.

66. *Sbeculum.* Apr. 1930. 189.

67. Thornpike, *Magie and Socience.* II. 31.

68. Hoover, H., and Gibbons. H.A. *Conditions of a Lasting Peace*29.

69. Prestage. 75.

70. Coulton. *Panorama.* 289.

71. Traill. I. 379.

72. In Brif'ault. *Mothers,* III. 383,

73. Bebel. 63.

74. Prestage, 9.

75. Rowbotham, 283.

76. Prestage, 89.

77. Davis. *Life on a Medieval Barony* 77.

78. Vossler. K., *Medieval Culture* I. 299; Taylor *Medieval Mind,* II, 562.

79. Miss Amy Kelly in *Speculum,* 1937, 5.

80. Rombotham, 224, 285.

81. Ibid., 249.

82. Ibid., 245.

